السيرة النبوية في مفهوم القاضي عياض

تأليف

دكتور أحمد جمال العمري

أستاذ الدراسات القرآنية والبلاغية
ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى

١٩٨٨



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

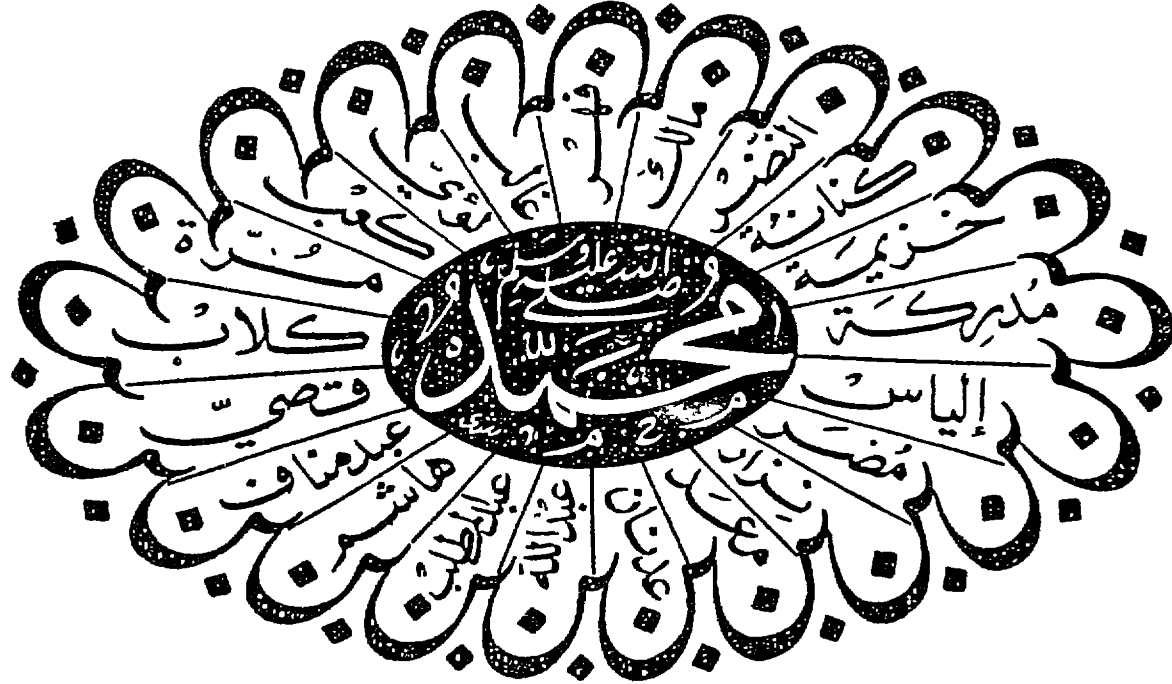
أهل المدينة المنورة.. قوم يتميزون بالطيبة والسماحة، ورقة الشعور، ولين الطبع، وبشاشة الوجه، وأدب المعاملة، تنعكس أخلاقهم الكريمة على زوارهم، والمتعاملين معهم توارثوا عن أجدادهم الأدب النبوى، والأخلاق المحمدية، ونهلوا منها نهلا حتى ارتووا، وسرى كل ذلك فى عروقهم وعقولهم، فكانوا أحسن الناس أخلاقا، وأطيبهم نفسا، وأعلاهم روحا..

أحبهم رسول الله - ﷺ - وأحبوه، وأيدوه وآزروه بكل غال ونفيس، ونصروه بالأرواح والمهج، فكانوا الأنصار، ونعم الأنصار، فدعا لهم - ﷺ، ولمدينتهم بالخير والبركة والصحة والنماء..

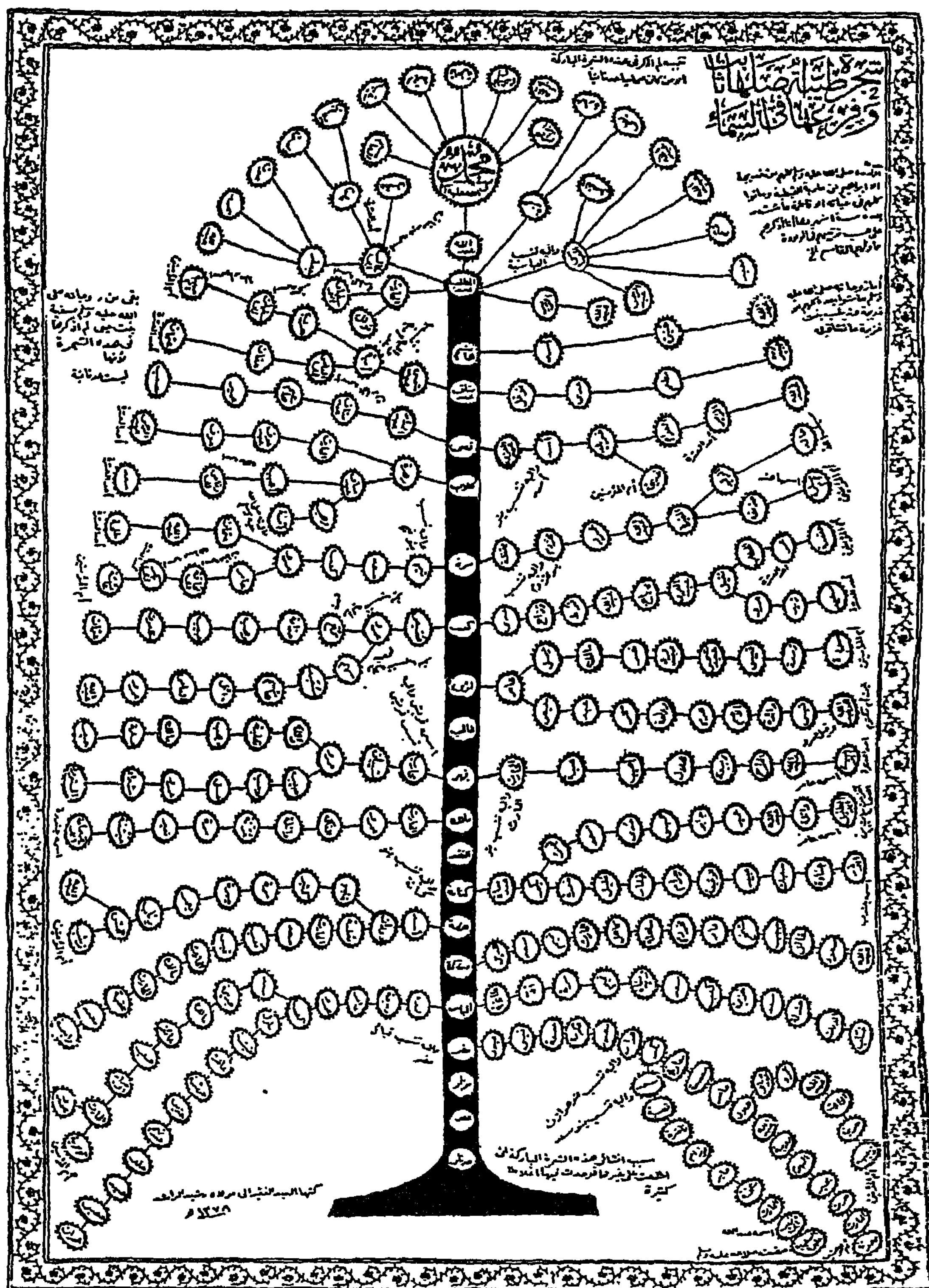
فإلى أهل مدينة رسول الله - ﷺ - أهدى هذا البحث.. تقديرا وامتنانا واعترافا بفضلهم، وحسن عشرتهم، وكريم طباعهم، ورقّة شمائلهم، التى لمستها طوال أربع سنوات..

د. أحمد جمال العمرى

يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا



طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى



شجرة طيبة أصلها ثابت
وفرعها في السماء

مقدمة البحث

الموضوع .
المنهــج
المصادر..

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يُضلل فلا هادى له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، فبلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة، وجاهد فى الله حق جهاده حتى أتاه اليقين.

اللهم صل على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وآل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم، وآل سيدنا إبراهيم، فى العالمين إنك حميد مجيد.

أما بعد، فمن المعلوم أن كل أمة لها أبطالها وعظماؤها الخالدون بأعمالهم ومفاخرهم، فهى تحرص على تسجيل جميع ما يتصل بهؤلاء الأفذاذ من أبنائها، لأنها تعتبر ذلك مفخرة من مفاخرها، ومأثرة من مآثرها، وليس هذا فحسب، بل إنها تريد أن تظل حياة هؤلاء الرجال سيرة طاهرة نقية، ترتادها الأجيال المقبلة لتقتدى بهم، وتسلك سبيلهم، وهذا ما فعلته الأمم العظيمة، ذات الحضارات الخالدة فى سجل التاريخ.

وإذا فعلت ذلك أية أمة من أمم الأرض برجالها، فإن أمة الإسلام أولى بذلك وأحرى، لأنه ليس لأمة تاريخ مشرق وضاء مثل ما لأمة الإسلام، وما كانت تستطيع ذلك أو تحلم به لولا أن اختار الله منها أفضل الخلق أجمعين، سيد الأولين والآخرين، النبى الأمىّ - ﷺ - فدخلت بسببه فى سجل التاريخ «وما

كان لها ذكر»، ثم أصبحت سيدة الأمم كلها بما حباها الله به من نور الإيمان، والقيام بمتطلبات الإسلام فكانت بذلك «خير أمة أخرجت للناس».

وكل ذلك بفضل اقتدائها بسيرة نبيِّها - ﷺ - السيرة العطرة، التى سلمت من العيوب والمثالب، وحظيت بالفضائل والمناقب، إذ هى معصومة بعصمة الله لصاحبها من الوقوع فى الأخطاء البشرية، التى لا يسلم منها عادة أحد من الناس، فكانت حجة على الناس يجب تبنيها، والعمل بمقتضاها، والبحث عن جميع ما يتصل بها بحثا علميا، يعتمد على الدراسة المستندة إلى علم الإسناد، لأن سيرته - ﷺ - بجميع أحداثها تطبيق عملى لقواعد الإسلام، ومراتب الإيمان، وقد قال الحق - سبحانه - لرسوله:

﴿قُلْ: إن صلاتى ونُسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أُمرت﴾ [الأنعام ١٦٢، ١٦٣].

فحياته - ﷺ - لله، يعنى أن ذلك عمل بأوامر الله، وبه صرحت الآية الكريمة. (وبذلك أُمرت) فكانت العناية بسيرته - ﷺ - عناية بشريعته، بل بالجانب العملى التطبيقى لهذه الشريعة.

أحببت سيرة المصطفى - ﷺ - وشُغلت بها فترة كبيرة من الزمن، لأنها من أعظم العلوم قدرًا، وأجلِّها مكانة، فهى سجل حافل لحياة رسول الإنسانية، ومعلم البشرية على مدار السنين، ولأنها القدوة الحسنة فى مناهج الدعاة، والمصدر الكبير لقوتهم الإيمانية، وعاطفتهم الدينية، يقتبسون منها شعلة الإيمان، ويشعلون بها مجامر القلوب. وكان هذا دافعًا لى على القراءة والاطلاع، والبحث والمثابرة لمعرفة ما تضمنته هذه السيرة من أمور وأحداث، تتصل بالمولد والنشأة، والتأهيل للبعثة، ثم بعثه - ﷺ - ليكون رحمة للعالمين، ثم تحمله مشاق الدعوة فى السرّ والعلن، فى مكة والمدينة، وما قام به من غزوات فى سبيل الله، ونشر رسالة التوحيد، التى كلّفه الله بها من أجل هداية الكون، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

ولقد هالنى أن علم السِّيرة والمغازى من العلوم الإسلامية التى اختلط فيها

الحق بالباطل، والسليم بالسقيم، والصحيح بالضعيف من جراء الجمع الذى لا يُرَاعى فيه إلا حَشْد الوقائع والأحداث دون تمحيص أو تدقيق، وكأن هذا هو الأسلوب المتبع لدى كتاب السير والمغازى. وقد يكون عذرهم مقبولا، لأنهم قد أوردوا ذلك بالأسانيد منسوبة إلى قائليها، ومن أراد التحقيق فله ذلك، بيد أن هذا الأسلوب والمنهج فى التأليف قد أساء إلى السيرة النبوية كثيرا، خلط فيها خلطا مشينا.

إن هذه الكتب المتعددة كانت تتناول السيرة النبوية من جانب التاريخ، وتسلسل الأحداث، وتتابع الوقائع فقط. وهذه المصادر وإن كانت قد روت بعض ما فى نفسى من ظمأ، وغذت ما فى قلبى من حب لصاحب السيرة ﷺ، إلا أن العنصر التاريخى فى هذه المصادر يغلب على ما عداه، ويسيطر سيطرة تامة على أحداثها ووقائعها.

وأخيرًا وفقنى الله فى العثور على ضالتى فى كتاب.. ومؤلف..

- **أما الكتاب فهو «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» ﷺ.**
- **وأما المؤلف فهو «القاضى عياض اليحصبى» الفقيه المحدث.**

لقد وجدت أن الرجل لم يتخذ الجانب التاريخى محورًا، ولم يجعل الأحداث المتصلة بالدعوة الإسلامية متكأ، بل أخذ ينظر فى القرآن الكريم، وفى السنة المشرفة، ويستخرج منها عناصر السيرة النبوية وما يتصل بالرسول الكريم - ﷺ - وشخصيته ومكانته، عند الله والناس، وتلك كانت دراسة رائدة، وطريقة متفرّدة.

لقد وجدت نفسى أمام مؤلف جديد، له منهج فريد، تفرّد به، هذا المنهج كان نابعا من حبّه لرسول الله - ﷺ - وتقديره لسيرته العطرة.

لقد وضع القاضى عياض وهو بصدد التأليف فى السيرة النبوية، كل ما يتصل بالرسول - ﷺ - نصب عينيه، القرآن، وكتب الصحاح، وكتب الشمائل والدلائل، وكتب السيرة والمغازى، وكتب الأدب، ودواوين الشعراء الإسلاميين، ودرس ما فيها وهضمه، ليستخرج منها كل ما يتصل بالرسول

المصطفى من الناحية الروحية، التى تمس شغاف القلوب، وتحرك المشاعر والأفئدة، وتجعل المرء يحلّق فى جو روحانى خالص. فجاءت السيرة النبوية على هذه الطريقة، ووفق هذا المنهج فريدة فى نوعها، جامعة شاملة، تتناول كل الجوانب الدينية والعقيدية، حيث عكف القاضى عياض على تأليفها سنين طويلة، مستغلا فى ذلك ثقافته الدينية والشرعية، وحفظه للقرآن الكريم وعلومه، والسنة المطهرة أقوالا وأفعالا وتقريرات، بالإضافة إلى الجانب الفقهى الذى نبغ فيه، كل ذلك فى إطار جميل، وعرض شائق، مما جعل مصنفه هذا متميزا فى نوعه.

والقاضى عياض شخصية علمية لها وزنها، عالم من علماء المغرب العربى الإسلامى، ومعروف عنه سعة الاطلاع، وغزارة العلم، وأمانة الكلمة، ورجاحة العقل، ومعروف عنه أيضا حبه للرسول المصطفى - ﷺ - وتفوقه فى هذا الحب على المشارقة، وأن الرجل اقترن عنده العلم بالعمل، فكان له جهاده السياسى فى عصره دفاعا عن أهل السنة ضد الشيعة أصحاب القول بعصمة الأئمة..

هذا الموضوع - وهو جديد فى نوعه - استلفت نظرى، وحفزنى على دراسته دراسة متأنية، توضح ما اشتملت عليه السيرة من وجهة نظر القاضى عياض، وتكشف عن منهجه العلمى فى تأليفها، خاصة وأن هذه الدراسة وهذا الرجل لم يسبق دراستهما فى المشرق العربى.

* ولقد حفزنى على الكتابة فى هذا الموضوع ما يلى:

(أ) أن السيرة العطرة هى الميدان العلمى الذى طبقت فيه شريعة الإسلام، فالكتابة فيها تكتسب منهجا تطبيقيا وعلميا أبعد ما يكون عن الفروض والنظريات الجافة. ومن هنا أحسست بأهمية الموضوع الذى أخوض غماره، فهو مجال تربوى عملى، يشعر فيه المسلم أنه أمام حياة حافلة بالأمجاد الواقعية، التى تجسدت فى شخصية الرسول المصطفى - ﷺ.

(ب) أن سيرته - ﷺ - ليست مجرد تسجيل للأحداث التاريخية، وإنما هى بالإضافة إلى ذلك.. أحكام ومعاملات وعقود وحياة حافلة بالأعمال النبوية فى شتى المجالات. وتجتمع هذه الحياة النبوية الشريفة فى نطاق الأسوة والقدوة،

التى أمرنا الله بها فى كتابه العزيز، فى قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب ٢١].

ولا يتأتى للمسلم أن يقتدى برسول الله - ﷺ - فى سيرته إلا إذا كانت السيرة ثابتة عنه - ﷺ - وفق مناهج المحدِّثين، وهذا أمر شائك لا يستطيع القيام به إلا من توفرت لديه وسائله العلمية المطلوبة، وأهمها اتصال السند.

(جـ) أن القاضى عياض عالم كبير لم يجد من يجتهد فى التفرغ لدراسته وإبراز أهم الجوانب العلمية والشخصية التى توفرت له.

من هنا كانت أهمية هذه الدراسة التى تتناول السيرة النبوية من زاوية جديدة، وتتناول مؤلفها ومصنفها، وتلقى الضوء عليه إحياء لذكراه، وتخليدا لمصنفاته العديدة التى صنفها، وتجلية عن منهجه العلمى فى بناء سيرة الرسول المصطفى - ﷺ.

٢ - منهج البحث:

كان أساس منهجى فى البحث أن أبدأ من أول الطريق، غير متأثر برأى أحد من الباحثين، فآثرت فى أول الأمر أن لا أقرأ شيئا عن القاضى عياض، لأحد من الباحثين، ومضيت أتلمس أخباره فى مصادرها الأصلية فى محاولة جاهدة مستقلة لتكوين رأى لى، وانقضت فترة ليست بالقصيرة، وأنا أقرأ وأدون، وأتأمل وأفكر، وأحدد خطوط صورته، حتى إذا ما كونت لنفسى رأيا.. مضيت أبحث عن دراسات وأبحاث الباحثين حول الرجل، والأمر العجيب أننى لم أحظ الّا ببعض التراجم القصيرة، التى لا تشبع نهم الباحث، ولا تساعده على أداء مهمته العلمية، إن أكبر ترجمة له لم تزد عن صفحتين فى كتب التراجم القديمة، وهى كما نعلم لا تكفى فى إلقاء الضوء على حياته العلمية والتأليفية والجهادية، وإنما هى شذرات من هنا وهناك.

أما محققو كتبه، فقد اكتفوا بما وجدوا فى كتب التراجم القديمة، وإن أضافوا، فهى إضافات غير مشجعة، وغير كافية فى دارسته. فكان لابد من البحث والنظر

ومحاولة استنطاق النصوص لاستخراج ترجمة وافية شاملة للرجل، تتناول جوانبه المتعددة، ومواهبه المتفردة، وتلقى الضوء عليه، وعلى العوامل المؤثرة فى شخصيته، والعناصر المكملة لثقافته.

أما بالنسبة للسيرة، فكان علىّ أن أطلع على كل ما كتب عن الرسول - ﷺ - فى المصادر القديمة والمصادر الوسيطة، والمصادر الحديثة، لأتعرف على المناهج التى اتبعها أصحابها فى دراسة سيرة رسول الله - ﷺ - من حيث التاريخ وسرد الأحداث وتفصيل الوقائع، ثم أعود إلى السيرة النبوية التى ألفها القاضى عياض، لتقوم الموازنة بين عمل العلماء السابقين والمعاصرين للرجل. وعمله هو فى بناء السيرة، ماذا استفاد من العلماء السابقين، وما هو الجديد الذى أتى به لتكون السيرة من تأليفه على هذا المنهج، وعلى هذه الصورة.

لقد كان الرجل - كما قلت - لا يتكلف الحديث عن الأحداث التاريخية، وإنما كان يصب اهتمامه صبًّا على تصوير النبى - ﷺ - وتحديد شخصيته، ومعالم حياته، وابراز مكانته وفضائله من خلال القرآن الكريم، والسنة المطهرة، ومن أحاديث الصحابة والتابعين، المروية باسناد تام متصل، من هنا كان منهجه مغايرا لكل مناهج السابقين عليه، والمعاصرين واللآحقين..

وهكذا فرض البحث نفسه أن يكون فى قسمين:

الأول: يتصل بدراسة القاضى عياض وعصره..
والثانى: يتصل بدراسة منهجه فى تأليف السيرة النبوية.

فى القسم الأول: درست «الرجل والعصر»، ولقد مهدت لذلك باطلالة على المغرب فى عصره وجعلت دراسة حياة القاضى عياض فى ستة فصول.

فى الفصل الأول.. درست اسمه ونسبه.
وفى الفصل الثانى.. درست مولده ونشأته وثقافته.
وفى الفصل الثالث.. درست حياته الخاصة والعامة ومراحلها ورحلاته العلمية.

وفى الفصل الرابع.. تحدثت عن مكانته العلمية، ومحنته بسبب عقيدته السنية،

وفى الفصل الخامس.. ذكرت مؤلفاته ومصنفاته وتحدثت عن مضمونها ومشمولها.

وفى الفصل السادس.. تناولت بالدراسة أدبه، شعره ونثره، ورسائله وخطبه.

ولقد اختط القاضى عياض لنفسه منهجا خاصا، حدّده بدقة فى صدر السيرة النبوية، ومضى ينفذه بكل أمانة ووضوح، وكان هذا المنهج من الدقة والشمول بحيث جعلنى أقتدى به، وأسير على نهجه وخطاه فى القسم الثانى، وهو الدراسة الفنية الموضوعية للسيرة النبوية.

لذلك قسمت هذا القسم إلى أربعة أبواب رئيسية، كل باب يشتمل على فصول تتفق مع موضوعه.. ولقد صدرت هذا القسم بمقدمة تمهيدية، تناولت فيها:

(أ) مميزات السيرة النبوية.

(ب) مصادر السيرة النبوية.

(جـ) نظرة القاضى عياض إلى السيرة

(د) منهجه فى بنائها.

وخصصت الباب الأول من هذا القسم لدراسة: **شخصية الرسول كما رسمها القرآن.**

وهذا الباب يشتمل على أربعة فصول:

الفصل الأول: فى ثناء الله عليه.

والفصل الثانى: تحدثت فيه عن خصال الجمال والكمال.

والفصل الثالث: فى عظيم قدره ومنزلته عند ربه.

والفصل الرابع: تحدثت عن معجزاته - ﷺ.

وخصصت الباب الثانى لدراسة: **حقوق الرسول قِبَل المسلمين.**

وهو يقع فى أربعة فصول:

الفصل الأول: وجوب الإيمان به وتصديقه - ﷺ.
الفصل الثانى: لزوم محبته - ﷺ.
الفصل الثالث: وجوب تعظيم أمره وتوقيره وبرّه.
الفصل الرابع: وجوب الصلاة عليه وزيارة قبره الشريف..

وخصصت الباب الثالث لدراسة: شخصية الرسول من جانبين: جانب النبوة والجانب الإنسانى.

وهذا الباب يقع فى فصلين:

الفصل الأول: جانب النبوة - وعصمة الله لنبيّه.
الفصل الثانى: الجانب الإنسانى فى شخصية الرسول.

أما الباب الرابع والأخير، فقد خصصته لدراسة: موقف الشريعة من العداوة للرسول.
وهو يقع فى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الحكم الشرعى فيمن سبَّ أو نقَّص حق الرسول.
الفصل الثانى: موقف المذاهب الفقهية من ساب الرسول وشانئه.
الفصل الثالث: موقف الشريعة ممن سب الله تعالى وملائكته وكتبه وآل النبى وأزواجه وأصحابه.

وختمت البحث بنظرة تقويمية فى عمل القاضى عياض فى كتابه الشفا.

٣ - المصادر:

إن المصادر العلمية التى رجعت إليها، واعتمدتها فى بحثى كثيرة، وهى تنقسم بحسب طبيعة المنهج إلى مجموعات:

(أ) مصادر دينية.
(ب) مصادر تاريخية.
(جـ) مصادر لغوية وأدبية.

فأما المصادر الدينية، ففى مقدمتها كتاب الله العزيز، القرآن الكريم، وكتب الصحاح الستة، ثم كتب العقائد والملل والنحل، يضاف إليها مجموعة كبيرة من التفاسير، كتفسير الطبرى، وتفسير ابن كثير، وتفسير الزمخشرى، وتفسير الشوكانى، وتفسير الشيخ سيد قطب، وتفسير أضواء البيان للشيخ محمد الشنقيطى، ويلحق بهذه التفاسير كتب التوحيد، مثل العقيدة الواسطية، وكتب ابن تيمية، وكتب الفقه، مثل كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، ومثل تفسير آيات الأحكام للصابونى، وغير ذلك من الكتب.

وأما المصادر التاريخية فهى كثيرة، فى مقدمتها سيرة ابن هشام والروض الأنف للسهيلى. والسيرة الحلبية، وجوامع السيرة لابن حزم، هذا بالإضافة إلى كتب التاريخ المختلفة، كتاريخ الطبرى، وتاريخ بغداد، والبداية والنهاية لابن كثير، وكتب الطبقات، كطبقات ابن سعد، وقصص الأنبياء لابن كثير، وقصص الأنبياء للنيسابورى الثعلبى، وكتب التراجم المتعددة..

ولقد استفدت كثيرا من كتب المغاربة، مثل كتاب «الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم» لابن بشكوال، وكتاب «بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس» للضبى، «وكتاب قلائد العقيان» للفتح بن خاقان»، «وكتاب جذوة الاقتباس» لابن القاضى، «والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»، للناصرى.

وأما المصادر اللغوية، ففى مقدمتها معاجم اللغة، لسان العرب، وتاج العروس، والقاموس المحيط، والمعجم الوسيط.

وبالإضافة إلى هذه المصادر اللغوية رجعنا إلى مجموعة من الدراسات الأدبية والعلمية التى تتصل بموضوعنا، كان فى مقدمتها الكتاب الذى أهداه لى فضيلة الأستاذ على لغزيوى رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الملك محمد الخامس، وهو كتاب «القاضى عياض الأديب»، وهو بحث قيم للأستاذ عبد السلام شقور، كان أطروحة نال بها سيادته درجة الماچستير من قسم اللغة العربية، والذى وجدت إتماما للفائدة أن اقتبس منه نصوصا نادرة من أدب القاضى عياض تكون ملحقا لهذا البحث.

إلى غير ذلك من الكتب والمصادر التى أفادتنا إفادة كبيرة فى بحثنا، مما هو مدرج فى هوامش البحث، وفى الثبت الأخير منه.

وبعد فهذه محاولة لدراسة عالم ومنهجه فى السيرة النبوية، ولعلها تكون مفيدة، ولعلى أكون قد وقفت فى التعريف بالعالم وابراز منهجه العلمى، فإذا كان هناك شىء من القصور، فلأن الكمال لله وحده، والله حسبى وهو نعم الوكيل، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

١٢ ربيع الأول سنة ١٤٠٦هـ

أحمد جمال العمرى

القســم الأول

الرجل والعصر

تمهيد	: إطلالة على المغرب فى عصره
الفصل الأول	: اسمه ونسبه
الفصل الثانى	: مولده ونشأته وثقافته
الفصل الثالث	: حياته
الفصل الرابع	: مكانته، ومحنته بسبب عقيدته السنية
الفصل الخامس	: مؤلفاته ومصنفاته
الفصل السادس	: أدبه.. شعره ونثره.

تمهيـــد

إطلالة على المغرب العربى فى عصره

يقسم المؤرخون تاريخ دولة الإسلام فى الأندلس إلى خمسة عصور مميزة:

● **العصر الأول**: ويتميز فى التاريخ الأندلسى، فى المجال العسكرى **بالجهاد فى الخارج**، استمرارًا للفتح الإسلامى فى الأجزاء الشمالية من أسبانيا، والأجزاء الجنوبية من فرنسا، **وفى الداخل** تميز بقمع الفتن والاضطرابات الداخلية لاسيما والدولة الأموية فى الأندلس لم ترسخ أقدامها بعد.

ومن أبرز معارك الميادين الخارجية، كانت معركة بلاط الشهداء عام ١١٤ هـ، والتى استشهد فيها عبد الرحمن الغافقى أمام جيش شارل مارتل، ملك الفرنجة.

● **العصر الثانى**: وهو عصر الأمراء الأمويين (١٣٨ - ٣١٦ هـ) ابتداء **بعبد الرحمن الداخل**، ثم الخلافة الأموية (٣١٦ - ٤٢٢ هـ) ابتداء **بعبد الرحمن الناصر**.

ويتميز هذا العصر أيضا بالجهادِ المتواصل ضد ملوك النصارى الأسبان، الذين كانت لهم مرتكزات فى الجزء الشمالى من أسبانيا، حتى تمكن حكام هذا العصر من إخضاعهم زمن عبد الرحمن الناصر، وتثبيت دعائم دولة إسلامية قوية على الأرض الأسبانية كلها، اعترفت بقدرتها وعظمتها دول أوربا والعالم فى المجالين العسكرى والحضارى، ويعتبر ذلك العصر.. **العصر الذهبى** للدولة الإسلامية فى الأندلس.

● **أما العصر الثالث** - وهو عصر **ملوك الطوائف** ودخول المرابطين قادمين من المغرب، بقيادة **يوسف بن تاشفين**، فقد تمكن فيه أعداء الإسلام من أن يبثوا بذور الفساد بين أمراء المسلمين، ليهلكوا أنفسهم بأيديهم، وكان دور هؤلاء الأعداء نصرة الأمير المسلم على أخيه الأمير المسلم الآخر، فى الوقت الذى يعمل فيه العدو على توسيع رقعة نفوذه فى الأندلس الإسلامية.

● وأما العصر الرابع: فقد استعاد فيه المسلمون بجهاد المرابطين المتواصل الحق الإسلامى فى الأندلس، وإعادة الأمور إلى نصابها، وأصبحت فيه الأندلس ولاية تابعة للمغرب، وينتهى هذا العصر بهزيمة الموحّدين أمام الجيوش الأوربية المتحالفة فى موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ وتلا ذلك فترة ملوك الطوائف، الذين قضى عليهم الأسبان، ولم يبق لهم سوى غرناطة، وكان ذلك عام ٦٢٨ هـ.

● وأما العصر الخامس والأخير، فقد انحصرت فيه الدولة الأندلسية بغرناطة، التى استمر حكمها حوالى القرنين والنصف، وتجمعت القوة الإسلامية كلها فى ذلك الجزء من أسبانيا، الذى برز فيه ملوك بنى الأحمر، يدًا واحدة ضد كل طامع فيهم، وينتهى هذا العصر بسقوط الأندلس جميعها بيد الأسبان عام ٨٩٧ هـ على يد فردناند ملك أراغون وايزابيلا ملكة قشتالة، واللذين نشأت بزواجهما مملكة أسبانيا عام ٨٧٤ هـ.

آل الحكم إلى أسرة المرابطين، التى قامت فى بلاد المغرب، وكان يوسف بن تاشفين أبرز رجالها، الذى كون له فى شمال افريقية دولة كبيرة شملت رقعتها المغرب الأقصى برمته. ويقال ان «الغزالى» هو الذى طلب إلى الخليفة العباسى أن يقرّ يوسف بن تاشفين على مُلك المغرب، لانتصاره على المسيحيين فى معركة الزلاقة، لأنه بذلك رفع من مكانة المسلمين فى العالم. وكان نصارى الأندلس قد شددوا على المسلمين، وبخاصة ملوك الطوائف. وكاد حكم تلك البلاد الإسلامية ينتقل إلى أولئك النصارى، لولا أن قيض الله لهم ابن تاشفين، الذى لبى نداء ملوك الطوائف قائلا: «أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسى».

التقى ابن تاشفين مع الفونس السادس، ملك قشتالة، فى «معركة الزلاقة» الحاسمة فى ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م)، وأحرز ابن تاشفين نصرًا مؤزرًا، ضمن للإسلام قوته وعزّته فى بلاد الأندلس أربعة قرون أخرى.

وقد أفلح «ابن تاشفين» فى إزالة الخلافات بين أمراء الأندلس وتوحيدهم، وحثهم على محاربة جيش النصارى وعلى رأسهم «الفونس»، الذين كانوا

يحاولون تفرقتهم بشتى الوسائل وحتى يضمن أسباب النجاح فى محاربة النصارى، ومن أجل الحفاظ على الدولة الإسلامية فى الأندلس، فقد ألحقها بدولته فى المغرب.

وكان عصر «ابن تاشفين» هو العصر الذهبى لدولة المرابطين، وقد حكم الأندلس والمغرب مدة خمسين سنة، وتوفى سنة ٥٠٠ هـ وعمره تسعون سنة.

وقد استمر حكم المرابطين فى الأندلس حتى سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) عندما حلّ الموحّدون محلهم. وقد استمر حكمهم حتى سنة ٦٨٨ هـ (١٢٦٩ م)، بعد أن حلوا محل المرابطين فى المغرب، ومحل بنى حماد فى الجزائر، ومحل آل زيرى فى تونس وطرابلس.

عاش «القاضى عياض» فى العصر الذى كانت الأمة الإسلامية بحاجة إلى مزيد من التماسك لمجابهة الأخطار التى أخذت تهدد العالم الإسلامى.

● ففى الأندلس - كان عصر ملوك الطوائف (٤٢٢ - ٤٨٤ هـ) ومن أهم مظاهره التجزئة، والتناحر القبلى بين المسلمين، وزيادة أطماع حكام النصارى الأسبان فى التوسع على حساب الدولة الإسلامية.

ففى أخريات الدولة الأموية بالأندلس، أعلن الوزير «ابن جهور» نفسه حاكما للبلاد، وجعل قرطبة عاصمة له، وبذلك انتهت الخلافة الأموية فى الأندلس، ولم يكد ابن جهور يعلن ذلك، حتى أعلن كثير من الأمراء استقلالهم فى مقاطعاتهم.

وهكذا دخلت البلاد عصر ملوك الطوائف، وأصبح فيها حوالى عشرين أسرة حاكمة، ومن أهم تلك الامارات: إمارة بنى عباد فى إشبيلية، التى استولت على قرطبة من ابن جهور، وإمارة بنى حمود، وبنى زيرى. واستمر حكم ملوك الطوائف فى الأندلس، - كما ذكرنا - حتى كان عصر المرابطين.

تذكر المصادر التاريخية.. أن سقوط إشبيلية فى يد المرابطين، ووقوع المعتمد أسيرًا فى أيديهم تم فى سنة ٤٨٤ هـ، لذا يعد بعض الباحثين هذا التاريخ حدًّا

فاصلا بين عهدين من حياة الدولة المرابطية[1]: «عهد التأسيس»، و «عهد التوحيد»، تأسيس الدولة المرابطية، وتوحيد المغرب فى ظلها. وعهد الازدهار الحضارى فى ظل وحدة سياسية ومذهبية. وفى هذا العهد الأخير عاش «القاضى عياض»، وساهم فى أحداثه السياسية والثقافية.

إن الدولة المرابطية إنما قامت بعد صراع طويل، سياسى وقبلى. ذلك الصراع الذى أشعله الاختلاف المذهبى، والمطامع الخارجية، ومن ثم فإن أهل المغرب عامة، وفقهاءهم خاصة، كانوا ينظرون إلى المرابطين نظرة إكبار وإجلال، باعتبارهم أصحاب الفضل فى إنقاذ المغرب مما كان يُحاق به. ولقد كان للفقهاء جهدهم فى نصرة الدولة الجديدة.

وإذا كانت الدراسات التاريخية، التى تناولت هذا العصر، لا ترى فى اهتمام يوسف بن تاشفين وخلفائه بالفقهاء إلا أثرًا من آثار الورع والتقوى، الذى عرف به رجال هذه الدولة، فإننا إنطلاقا من الإشارات المبثوثة فى كتب التاريخ - يمكن أن نقول:

إن ذلك الاهتمام إنما جاء نتيجة طبيعية لنوع العلاقات التى ربطت بينهما، منذ اتصال أبى عمران بيحيى الكدالى. حيث كان اتصالهما نقطة تحول فى تاريخ المغرب السياسى والمذهبى، فقد رأينا أن تأسيس الدولة المرابطية، كان بإيعاز من فقيه مالكى، بحيث يمكن القول: إن القبائل الصحراوية لم تكن إلا الأداة المنفذة لخطة الفقهاء.

يقول ابن عذارى: «وكان أهل المغرب يتولون أمور بلادهم، وأمراؤهم يتولون الإمارة بينهم، إلى أن تغلب كل شخص منهم على موضعه، كما فعل ملوك الطوائف بالأندلس. فمر «عبدالله بن ياسين» ببلاده المصامدة بعد منصرفه من الأندلس، فوجدهم يغير بعضهم على بعض، يغنمون الأموال، ويقتلون الرجال، ويسبون الحريم، ولا يرجعون إلى طاعة إمام، فكان من عبدالله بن ياسين بعض

---

(١) أنظر ما ذكره القاضى عياض عن ذلك فى كتابه ترتيب المدارك ص ٧٨١ - طبعة لبنان.

الإلهام أن قال لهم: «هلا قدمتم عليكم إماما يحكم بينكم بشريعة الإسلام وسنة النبى عليه السلام»[١].

ويصف الدكتور حسن أحمد محمود، الوضع السياسى، الذى سبق قيام الدولة المرابطية، فيقول: «.. وبعد، فهذه قبائل قوية محاربة متفرقة الكلمة فى انتظار زعيم يرد الوحدة إلى صفوفها، وهذا مغرب سرت فيه الفوضى، وأساء حكامه من زناته السيرة حتى تبرم الناس وفاقوا، وهذا «مذهب مالك» قد تألق نجمه وبسط رواقه على المغرب كله[٢].

ولما كان المغرب - إلى عهد الدولة المرابطية، تتنازعه تيارات عقدية، وتتقاسمه إمارات متطاحنة، فإن الزحف المرابطى، والذى كان يدعمه الفقهاء فى كل خطوة يخطوها، حقق فى تقدمه نحو الشمال هدفين اثنين: توحيد المغرب سياسيا، وتوحيده مذهبيا، وصيانته من الهجوم الصليبى فى الشمال، ومن الأعراب فى الشرق.

وهكذا - ففى الوقت الذى كان فيه الجيش يعمل على صيانة الوحدة المغربية داخليا، عن طريق إقامة نظام إدارى وقضائى دقيق، فإن فقهاء المذهب المالكي، وعلى رأسهم «القاضى عياض»، أقبلوا على الدرس والتدريس بغية نشر المذهب المالكي، وتعميمه عقيدة وتشريعا، وهم فى الوقت ذاته يراقبون أعماله السياسية، موجهين النصح تارة، والانتقادات الصريحة تارة أخرى، فكانوا بمثابة سلطة تشريعية حقيقية، إلى جانب ما كانوا يمارسونه فى الميدان العقدى.

وبضم «يوسف بن تاشفين» الأندلس إلى المغرب، تكونت امبراطورية عظيمة، فسيحة الأرجاء، تمتد من غانا جنوبا، إلى شمال شبه الجزيرة الأيبيرية شمالا، ومن بجاية شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا. فاجتمع فى هذه الامبراطورية الواسعة خليط من الشعوب والحضارات منها ما هو إفريقى، ومنها ما هو شرقى، ومنها ما هو أوربى.

---

(١) البيان المغربى، القطعة الخاصة بالمرابطين ص ١٠ - نقلا عن كتاب القاضى عياض الأديب للدكتور عبد السلام شقور ص ١٥، نشر دار الفكر المغربى سنة ١٩٨٢ م.

(٢) قيام دولة المرابطين ص ٩٩.

ولأول مرة فى تاريخ المغرب المسلم تتكون فيه دولة، توحد بين أطرافه بمثل هذا الامتداد، ولذلك فمهما يكن عدد الجند القادمين من الصحراء فى الزحف نحو الشمال، فإنه من المستحيل أن يكون هذا الجيش وحده كافيا لحفظ النظام.

إن السرّ فى استتباب الأمن والاستقرار اللذين عمّا المغرب أثناء الحكم المرابطى، يكمن فى كون الأمة المغربية وجدت لدى المرابطين كل ما يرضيها، وما كانت فى حاجة إليه، وجدت العدل الذى كان مصدره تطبيق الشريعة الإسلامية، ذلك أن المرابطين تربوا تربية إسلامية كاملة، قبل الانطلاق نحو الشمال. أضف إلى ذلك أن الفقهاء كانوا يقومون بدور الموجه المعنوى للجيش المرابطى، وكانت بيدهم السلطة الروحية، وحبهم قد تمكن من قلوب الشعب، وهذا سر آخر من أسرار الاستقرار فى ظل هذه الدولة.

وقد حظيت الأندلس بنصيب أوفى من رعاية واهتمام المرابطين، دون بقية أقاليم المغرب. وذلك يرجع إلى أنها كانت ثغرا من الثغور. وتبدو أهمية الأندلس لدى المرابطين، فى حرص «يوسف بن تاشفين» على أخذ البيعة لولده «على» فى قرطبة من علمائها وأعيانها، وذلك قبل أن يأخذ البيعة له من علماء مراكش وأعيانها، وذلك أثناء اجتيازه الأخير إلى الأندلس متوجا بالنصر.

وهذا علىّ نفسه لم يكد يتولى الخلافة حتى بادر إلى عبور البحر إلى الأندلس متفقدا شئونها.

ويبدو أن المرابطين استطابوا العيش فى الشمال - بعيدا عن الصحراء - فلم يعودوا يهتمون بالجنوب، كذلك انقطعت أخبار الصحراء، وقد كان بإمكان إقليم الصحراء أن يستمر فى إمداد «يوسف» «وخلفه» بأبناء آخرين، يساعدون إخوانهم فى تحمل الأعباء التى ربما كان يوسف وأصحابه يتوقعونها. على أن يوسف بن تاشفين، كان يعى دون شك ما تفرضه عليه الظروف من مسئوليات تسيير امبراطورية مهددة بالتفكك من الداخل، وبالهجوم الصليبى من الخارج لذلك نجد يوسف - أمير المسلمين، كما لُقب - يضع لدولته جهازًا إداريا وقضائيا محكما، فقد عمد إلى تقسيم المغرب إلى ولايات، ووضع على كل ولاية

واليا من القبائل. التى شاركت فى عملية تأسيس الدولة. يقول الدكتور حسن أحمد محمود:

«إن المغرب كان مقسما إلى خمس ولايات هى: فاس، وسبتة، وتلمسان، وبلاد السوس، واقليم الصحراء وسجلماسة. أما الأندلس فقد أصبحت بعد ضمها إلى المغرب شبه ولاية مستقلة[١]. يحكمها نائب من قبل أمير المسلمين، وكان نائب أمير المسلمين يتخذ فى الغالب غرناطة، أو قرطبة، أو إشبيلية مقرا له. وكانت سبتة تحظى باهتمام خاص من يوسف بن تاشفين، وخَلِفه من بعده.

وكانت سلطة نواب أمير المسلمين - فى الأندلس - تكاد تكون مطلقة، إذ كانوا يعينون الولاة أحيانا، ويعزلونهم، كما كانوا يعينون القضاة ويعزلونهم.. فهذا القاضى عياض يعينه الأمير تاشفين بن يوسف، قاضيا على غرناطة.

وكان الولاة غير مستقرين فى أماكنهم، بل كانوا يخضعون لحركات نقل مستمرة، من إقليم إلى إقليم خوفا من استبدادهم بأقليمهم. فهذا محمد بن الحاج نقل من قرطبة إلى فاس، ومنها إلى بلنسية[٢].

وكان الولاة - فى العهد المرابطى، يحيطون أنفسهم بهالات من الوزراء والشعراء، وكانت حاشياتهم تنافس ما كان للملوك الطوائف، من شعراء وكتاب وعلماء. وقد ساعد هذا النظام على انتعاش الإمارات علميا وثقافيا، دون أن يمس بوحدة البلاد السياسية والمذهبية. وكان القضاة أيضا يخضعون لحركات النقل، شأنهم فى ذلك شأن الولاة.

ومن العوامل التى ساعدت على بث الاطمئنان فى نفوس الناس، ذلك الجهد الذى قام به المرابطون فى ميدان الجهاد، ذلك أن المرابطين لم يدخروا أى جهد فى سبيل تأمين الرعية من الهجوم الخارجى الصليبى. والمرابطون إنما دخلوا الأندلس من باب الجهاد، وبصفة الجهاد عرفوا، وفى ذلك يقول المراكشى: «فأظهروا فى أول أمرهم النكاية بالعدو، والدفاع عن المسلمين وحمايتهم،

---

(١) قيام دولة المرابطين ص٣٥٢.
(٢) ابن عذارى: البيان المغرب ص٤٨.

ما صدق بهم الظنون، وأثلج الصدور، وأقر العيون، فزاد حب الناس لهم، واشتد خوف ملوك الروم منهم[١].

إن أخبار المعارك التى خاضها المرابطون كثيرة، ذكرتها كتب التاريخ، ذلك لأن الجهاد - كما قلنا - كان شعارهم، وكان أمير المسلمين يقود بنفسه المعارك عبر البحر إلى الأندلس، فقد عبر البحر «على بن يوسف» أربع مرات، بعضها لتفقد شئون المسلمين، وبعضها الآخر للجهاد، متتبعا فى ذلك سيرة أبيه «يوسف ابن تاشفين»[٢]. ومن أهم المعارك التى خاضها المرابطون بعد معركة الزلاقة «معركة إقليج»، التى انتصر فيها الأمير «تميم بن يوسف»، والى غرناطة من قِبَل أخيه علىّ، على أحد الأمراء الأسبان. ومن أشهر الولاة الذين اشتهروا بانتصاراتهم على المسيحيين «ابن أبى بكر»، «وتاشفين بن على»، وكان تاشفين آخر الأبطال المرابطين فى الأندلس، ذلك أنه استمر فى غزواته إلى ما بعد سنة ٥٣١ هـ.

وإذا كان المرابطون قد نجحوا فى حفظ البلاد من الهجمات الخارجية بواسطة الجهاد، فإنهم قد نجحوا كذلك فى حفظها من التفكك الداخلى عن طريق إقرار سياسة إدارية وقضائية دقيقة، إلا أنهم وجدوا أن الوحدة الدائمة والاستقرار الداخلى، يجب أن تتوفر له دعامة دينية، تقوم على أعمال الفقهاء، وترمى إلى محاربة كل ما هو خارج عن المذهب المالكى، المذهب الرسمىّ للدولة المرابطية. والمذاهب التى عرفها المغرب قبل المرابطين هى المذهب الخارجى، والمذهب الشيعى، والمذهب الاعتزالى.

ولما كان المذهب المالكى قد وجد فى المذهب الأشعرى السلاح الذى كان ينقصه لمواجهة خصومه، فإن كبار فقهاء المذهب المالكى - والقاضى عياض منهم - اعتنقوا مذهب أبى الحسن الأشعرى. ويوضح القاضى عياض ذلك فيقول:

---

(١) المعجب ص ١٦٢

(٢) انظر ما ذكره ابن أبى زرع فى الأنيس المطرب ص ١٥٩، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٥٤، وابن عذارى فى البيان المغرب ص ٥٢.

فأهل السنة من المشرق والمغرب بحججه يحتجون، وعلى مناهجه يذهبون[١].

ومن المذاهب التى عرفها المغرب قبل المرابطين، مذهب أبى حنيفة، فقد ذكر القاضى عياض - فى ترتيب المدارك - عند حديثه عن عثمان بن سعيد ابن حمادة، أن عثمان هذا قد تفقه على طريقة العراقيين، وأنه كان صاحب نظر وجدال وحجة.[٢] وبالإضافة إلى هذه المذاهب كان هناك مذهب البرغواطية، وهو مذهب يرد إلى أصول خارجية.

أما عن أسباب سيادة المذهب المالكى، فيمكن أن نجدها فيما ذكره ابن خلدون، من أن المعز كان منحرفا عن مذهب الرافضة، ومنتحلا للسنة، غير أنه كان يخفى ذلك، فلما واتته الفرصة،أظهر عداءه للرافضة، فثار العامة على الشيعة وقتلوهم، فساعد ذلك على إقرار المذهب المالكى. أضف إلى ذلك أن تسخير الفقهاء لإمكانات الدولة المرابطية، كان عاملا جوهريا فى إقرار المذهب المالكى بالمغرب بصفة نهائية. هذا بالإضافة إلى أن هجرات المغاربة كانت فى أغلبها إلى مواطن الإمام مالك، سواء من أجل الحج أو العلم.

ومن المعروف أن فقهاء الأندلس، كانوا سباقين إلى استقدام المرابطين إلى الأندلس، فهم الذين شجعوا ملوك الطوائف على استدعاء يوسف بن تاشفين، وهم الذين هيأوا بعد ذلك الأسباب لسقوط ملوك الطوائف، بيد أن فقهاء المغرب كانوا أكثر إخلاصا للمرابطين فى آخر أيامهم.

وعلى أى حال فإن فقهاء المالكية، سواء فى المغرب، أم فى الأندلس، شعروا أن طبيعة المرحلة الجديدة تفرض عليهم مسئوليات متعددة، تحتم عليهم أن يخرجوا من رباطاتهم، لأن مهمتهم لم تعد منحصرة فى الوعظ والتدريس، بل فى الإشراف على سير قطاع واسع من قطاعات الدولة. وهكذا أصبح الفقهاء رجال الدولة، يخططون لسياستها، ويتحملون مسئولية حماية كيانها، فمهمة الفقيه إذن، إرشاد الأمير فى سياسته العامة، والسهر على تطبيق التشريع المالكى. أو بعبارة

---

(١) ترتيب المدارك ج٥ ص٣٦٥ ط المغرب.

(٢) ترتيب المدارك جـ ٧٨٣/٤.

أخرى، قد غدا نشاط الفقهاء تشريعيا، وعقديا، وسياسيا، ولا شك أن هذا العمل كان ضربة قاتلة للانشقاقات الشيعية، والخارجية، والبرغواطية[١].

ومن هنا كان للفقيه فى العصر المرابطى، تلك المكانة التى يتحدث عنها غير واحد، فقد رأينا ما قام به الفقهاء على المستوى السياسى والعقدى، بالإضافة إلى إسهامهم فى تأسيس الدولة.

ومن المهم أن نعلم.. أن تلك المكانة، التى كان يتمتع بها الفقهاء لم تكن تكرما من يوسف بن تاشفين، أو علىّ، بل كانت نتيجة طبيعية لطبيعة العلاقات التى ربطت بين الطرفين منذ أول لقاء تم بينهما، أى منذ لقاء أبى عمران بيحيى الكدالى بالقيروان.

فالدولة المرابطية قامت على دعامتين، أحد طرفيها الفقهاء، والطرف الثانى القبائل الصحراوية، ثم سار على هذا الدرب فيما بعد أمراء المرابطين وفقهاؤهم.

وفى هذا الباب ذكر القاضى عياض، وابن خلدون بعده، أنه بعد موت «عبد الله بن ياسين»، خَلَفَه شخص يُدعى «سليمان بن عذرا الجزولى»، وهو من رجال ترتيب المدارك[٢].

وإذا كنا لا نعرف مَنْ خلف سليمان بن عذرا، فإنه يمكن القول بأن قاضى الحضرة ظل يمثل تلك السلطة التى كانت لعبد الله بن ياسين، ولخلفه سليمان ابن عذرا، ومن ثَمّ لا مغالاة فى القول بأن دولة المرابطين هى دولة الفقهاء، ولم تكن القبائل الصحراوية التى قامت على أكتافها الدولة إلا جهازها التنفيذى. إن مظاهر نفوذ الفقهاء فى الدولة المرابطية كثيرة، ويكفى أن نذكر أن فقيها اعترض على يوسف بن تاشفين نفسه، عندما عزم هذا على إحداث ضريبة، فما كان من يوسف إلاّ الإذعان لرأيه[٣].

تلك هى الأسس التى سار عليها المرابطون، ساسة وفقهاء، وهى تتجسم

---

(١) عبد السلام شقور: القاضى عياض الأديب ص٢٣.

(٢) ترتيب المدارك ج٤ ص٧٨٠ ط. لبنان.

(٣) الناصرى: الاستقصاء – طبع دار الكتاب، البيضاء ١٩٥٤م (جـ ٢ص ٥٩)

- كما رأينا - فى التنظيم الإدارى، والقضائى، وفى الاهتمام بالجهاد، وأخيرا فى دعم جهود الفقهاء الرامية إلى القضاء على كل أسباب التفرقة المذهبية.

وقد نجح المرابطون بأعمالهم هذه فى إيجاد الاستقرار الفعلى، الشيء الذى بعث الطمأنينة فى النفوس. وفى هذا الاستقرار، وتلك الطمأنينة، عاش المغرب فترة من أحسن فترات حياته «فكثرت الخيرات، ورخصت الأسعار، وانتعشت الحياة الفكرية والأدبية فى المغرب. وشجع على ذلك كله أنه لم يجر طوارئ أيام المرابطين رسم مكس، ولا معونة، ولا خراج، لا فى بادية ولا حاضرة»، بل «كانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل، وعافية وأمن، كان ذلك مصطحبا بطول أيامهم، ولم يكن فى عمل فى بلادهم خراج ولا معونة، ولا تقسيط ولا وظيف من الوظائف المخزنية، حاشا الزكاة والعُشر، وكثرت الخيرات فى دولتهم، وعمرت البلاد، ووقعت الغبطة، وأحبهم الناس»[١].

وقد نهج «يوسف بن تاشفين» سياسة خارجية واضحة، تتمثل فى اعتراف الدولة المرابطية بالخلافة العباسية، وبذلك ارتبط المغرب بالمشرق، وأصبح هناك نوع من التبادل الثقافى والعلمى. وقد شجع ذلك على تقوية أواصر المودة، وقيام الرحلات العلمية بين المغرب والمشرق من جهة، وبين المغرب والأندلس من جهة ثانية، ورحلة «ابن العربى» إلى المشرق مشهورة. وإلى جانب هذه الرحلات، كانت هناك اتصالات مستمرة بين علماء المغرب وإخوانهم فى المشرق، عن طريق الرسائل التى لم تكن تنقطع بين الطرفين، وكان «للقاضى عياض» -بصفة خاصة - مشاركة قوية فى كل ذلك.

وقد وجد أهل الأندلس فى دولة المرابطين ميدانا رحبا لترويج بضاعتهم وصناعتهم، وتسخير إمكاناتهم الفنية والأدبية، فتوافدوا على المغرب زرافات ووحدانا.

كما أقبل الناس على التعليم بمختلف مستوياته، وذلك من أجل البلوغ إلى مناصب الدولة العليا، إذ أصبحت الكفاءة العلمية وحدها، هى الكفيلة بالوصول

---

(١) ابن أبى زرع: الأنيس المطرب ط. دار المنصور: الرباط ١٩٧٣ (ص١٦٧)

إلى أرقى المناصب، خاصة القضاء والكتابة. وظلت حياة الأمن والرخاء وصفو الحياة ترفرف فى سماء المرابطين، ينعمون بها هم ورعيتهم حتى قيام «ابن تومرت» عليهم.

لقد ظهر «ابن تومرت» لأول مرة بمظهر المصلح الاجتماعى والدينى، إلا أن الأيام سرعان ما كشفت عن هدفه الحقيقى، وطموحه السياسى. ومن هنا وجدنا بعض الباحثين يذكر: أن هدف «ابن تومرت» كان سياسيا فى أساسه، وإن اتخذ الوعظ والإرشاد طريقا للوصول إليه، كما اصطنع لنفسه مذهبا خاصا، هو فى الواقع خليط من مذاهب شتى، ليواجه به مذهب الإمام المالك، الذى كان سائدا فى المغرب، فعن الشيعة أخذ مبدأ العصمة، وعن الاعتزال أخذ آراءهم فى الصفات. ويبدو أن ما أتى به «ابن تومرت» لم يكن بأمر جديد على المغاربة. فقد كانوا على علم بمذاهب شتى، وأن تلك المذاهب التى عرفها المغاربة قبل عودة ابن تومرت من الشرق بوقت طويل - هى نفسها المذاهب التى اقتبس منها «ابن تومرت» مذهبه.

ولقد شاع بين عدد من الباحثين، أن ابن تومرت فاجأ فقهاء المرابطين - المالكية - بطرق فى الجدال لم يعرفوها، وأفكار لم يألفوها، ومبادئ لم يفهموها، كما شاع أن فقهاء المرابطين كانوا جامدين، بل جاهلين بالإسلام[1] والظاهر أن المصدر الأول لهذه الأحكام هو كتابات المراكشى، وابن القطان. ويكفى دليلا على بطلان ما نسب إلى المرابطين وفقهائهم فى هذا المجال، ما هو معروف من الرحلات التى لم تنقطع بين المشرق والمغرب طوال أيام المرابطين. «فابن العربى» على سبيل المثال، عاد من المشرق - قبل ابن تومرت - بسنوات، ومعه أمهات الكتب، ومنها كتب لكبار المتكلمين مثل كتب الغزالى، والجوينى[2].

وخلاصة القول: أن الصراع المذهبى، الذى احتد بين المرابطين والموحدين، لا يعدو أن يكون لونا من ألوان الصراع المذهبى الذى كانت الدولة المرابطية

---

(١) الدكتور يحيى هويدى: تاريخ فلسفة الإسلام فى القارة الإفريقية ص٢١٢ طبع مصر.
(٢) انظر فهرسة شيوخ الرعينى ص٢٥٨.

تخوضه ضد اتجاهات متعددة. وان انتقادات «ابن تومرت» - زعيم الموحدين - للمرابطين، ساسة وفقهاء، إنما هى وليدة الصراع السياسى، وتبرير له، ذلك لأن دعوة الموحدين، كما يقول الدكتور حسن أحمد محمود[1]. «دعوة أذكتها العصبية القبلية، وأوحى بها ذلك الصراع المرّ بين القبائل الجبلية المستقرة، وبين شعوب المسلمين، هى دعوة ظاهرها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وباطنها تعصب ذميم، وكره دفين، وطعن فى المرابطين، وتشويه لدعوتهم ولتاريخهم، رفعت دولة المرابطين علم مذهب الأمام مالك، فلا بأس من أن يعلن صاحب الدعوة الجديدة، الحرب السافرة على مذهب مالك، وفقهاء مذهب مالك، فيرميهم بالتعصب والجمود، والتكالب على عرض الدنيا. وبلغ من كره الموحدين لهذا المذهب أنهم أحرقوا «مدونة سحنون» ودعا المرابطون لبنى العباس، وخطبوا لهم على المنابر، فلا بد أن تؤدى الكراهة العنصرية إلى أن يخرج المصامدة على بنى العباس».

وعلى الرغم من أن ظهور «ابن تومرت كان سنة ٥١٥ هـ، فإن ثورته لم تصبح خطيرة إلاّ بعد سنة ٥٢٠ هـ، بل لعل المرابطين لم يجدوا فيها خطرا حقيقيا على دولتهم إلاّ بعد هذا التاريخ بكثير، وذلك سبب تأخرهم فى استقدام جيوشهم، التى كانت تغزو فى الأندلس، إذ لم يعد «تاشفين» بجيشه إلى المغرب إلاّ فى سنة ٥٣١ هـ[2].

والظاهر أن «على بن تاشفين» كان يعلق آماله على ولده «تاشفين» هذا، الذى لم تنكسر له راية فى الأندلس، بيد أنه ما كاد يصل إلى المغرب حتى هبت ريح الهزيمة على قواته، فتلاحقت عليها الهزائم، الواحدة تلو الأخرى[3].

وسرعان ما تطورت الأحداث بسرعة لصالح الموحّدين، وفى غمرة هذه الأحداث الأليمة، يأخذ «علىّ بن يوسف» البيعة لولده «تاشفين»، وذلك سنة ٥٣٣ هـ - أى فى نفس الوقت الذى كان فيه «عبد المؤمن» يستعد للخروج من

---

(١) قيام دولة المرابطين ص٣٥٢.

(٢) ابن أبى زرع: الأنيس المطرب ص٦٤.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام. القسم الثالث، تحقيق أحمد مختار العبادى - طبع الكتاب سنة ١٩٦٤م (ص٦٤).

«تينمل» فى غزوته الشهيرة، التى قطع فيها المغرب العربى، من جنوبه إلى شماله، ومن غربه إلى شرقه، والتى قصم فيها دولة المرابطين، وقد كان خروجه من تينمل سنة ٥٣٤ هـ.

وبخروج «عبد المؤمن» تبدأ مقاومة «تاشفين» له، وأثناء تلك الأحداث، يموت «على بن يوسف» فى مراكش سنة ٥٣٧ هـ وتاشفين - فيما يظهر - غائب عنها، وتستمر مقاومة تاشفين لعبد المؤمن، وتصديه له فترة تستغرق مده إمارته كلها. وخلال ذلك الصراع العنيف يهاجم عبد المؤمن «سبتة»[1] موطن «القاضى عياض» ومسقط رأسه.

يقول ابن عذارى: «إن الموحّدين وصلوا إلى ريف سبتة سنة ٥٣٦ هـ إلا أن سبتة استعصت على عبد المؤمن، نظرا لمدافعة القاضى عياض له»[2] فكان عمل القاضى عياض هذا يجسّم فى الحقيقة، تلك العلاقة الوثيقة، التى ربطت بين الفقهاء والأمراء، فى ظل الدولة المرابطية، وخاصة فقهاء المغرب، وهى الوفاء لهذه الدولة التى كانت ثمرة لجهودهما المشتركة.

ولقد تضافرت عوامل عديدة، طبيعية وغير طبيعية على النّيل من تاشفين وجيشه، حيث انتهى الصراع بمقتل «تاشفين» سنة ٥٣٩ هـ.. وبمقتله ينفتح باب المغرب على مصراعيه فى وجه الموحدين، وتزول دولة المرابطين. وتضطر كثير من أقاليم المغرب إلى الاعتراف بالسادة الجدد، خوفا من بطش «عبد المؤمن». وكانت «سبتة» من بين تلك المدن التى سارعت إلى إرسال وفد عنها إلى عبد المؤمن. لتقديم ولائها، وكان «القاضى عياض» رئيسا لذلك الوفد.

ويبدو أن المغرب لم يهدأ، ولم يسلم نفسه لأمراء دولة الموحدين، فقد كان على ولاء دفين للمرابطين، وقد ظهر هذا الولاء فى مقاومته الشديدة للموحدين، حيث قامت ثورات عديدة هنا وهناك، كان أعنفها تلك الثورة التى قادها «محمد بن هود» المعروف «بالماسى»، وكذلك الثورة التى تزعمها «القاضى عياض» فى سبتة، حيث كانت على اتصال بثورة أخرى هى ثورة برغواطة.

---

(١) الناصرى: الاستقصاء ج٢/١٠٤.
(٢) البيان المغرب: القطعة الخاصة بالمرابطين ص ٩٩.

الفصل الأول

اسمه ونسبه

هو «عِيَاض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياضٍ بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عِياض[1]. أبو الفضل، اليَحْصُبى، السَّبْتِى، الأندلسى، القاضى الإمام، العلاّمة.

قال أبو عبد الله محمد بن عياض: «وكان أبى. رحمة الله عليه - يقول: «لا أدرى هل محمد والد عياض أم بينهما رجل فهو جده؟»»[2]. وهذا ما جعل ابن خلكان يختلف فى الاسم، فيقول: «عياض بن موسى بن عياض بن عمر بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض» دون أن يذكر عبد الله.

ونقل أبو العباس المقرى، عن ابن القاسم بن الملجوم قوله: «اجتاز علينا القاضى عياض. وسألته عن نسبه فقال لى: إنما أحفظ «عياض بن موسى، بن عياض، بن عمرو، بن موسى، بن عياض، بن عمرون، بن موسى، ابن عياض» وأحفظ أيضا بعد ذلك: محمد بن عبد الله، بن موسى بن عياض. ولا أعرف أن محمدًا هذا هو أبو عياض أو بينهما أحد[3].

وهكذا نرى أن المصدرين متفقان فيما يخص سلسلة أجداده.

بيد أننا نرى «ابن الأبار» - فى ترجمته لعياض - يسقط (نون) عمرون.

---

(١) أبو عبد الله محمد بن عياض: التعريف، تحقيق وتقديم د. محمد بن شريفة. مطبوعات وزارة الأوقاف. ص ٢.

وأبو القاسم بن الملجوم: أزهار الرياض فى التعريف بالقاضى عياض. طبع المغرب ج١ ص٢٤.

(٢) التعريف ص٢.

(٣) المقرى: الأزهار ج١/٢٤.

أما «ابن خلكان» فقد أسقط «عمرون» فيما بين عياض وموسى، كما أسقط «عبد الله» فيما بين محمد وموسى»[١].

وكنيته: أبو الفضل[٢].

وألقابه: «اليَحْصُبِى»، نسبة إلى «يَحْصُب بن مالك بن يزيد»[٣].

و «يحصب» أخو ذى أصبح، الحارث بن مالك بن زيد، الذى ينتهى إليه نسب الإمام «مالك بن أنس الأصبحى».

«والسَّبْتِى» نسبة إلى سبتة، التى ولد فيها ونشأ بين ربوعها، وهى مدينة مشهورة بالمغرب[٤].

و «الأندلسى»: إشارة إلى أصله وموطنه الأم، فعياض.. يحصبى النسب، سِبْتِىّ الدار والميلاد، أندلسى الأصل بسطيّه[٥].

والقاضى: لأنه تولى القضاء فى سبتة مرتين، وتولى قضاء غرناطة ردحًا من الزمن[٦].

والإمام: لأنه كان أحد الأئمة الحفاظ، الفقهاء المحدثين، الأدباء[٧].

والعلّامة: لكثرة علمه، وتنوع مجالاته، وكثرة تواليفه وتصانيفه فى فروع العلم المختلفة[٨].

والناظر فى نسب القاضى عياض، يجد أنه يَمُتّ إلى الإمام «مالك بن أنس» بصلتين:

---

(١) وفيات الأعيان ج٥ ص١٥٢ الترجمة رقم (٤٨٤).

(٢) وفيات الأعيان ١٥٢/٥.

(٣) جمهرة ابن حزم ص٤٠٨، ونهاية الأرب للقلقشندى ٢٤٩، وأنظر تاج العروس (حصب - صبح) وقد وقع فى أزهار الرياض ٢٧/١ (يحصب بن مدرك) وهو تصحيف.

(٤) ابن خلكان ١٥٤/٥.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة ٢٢٢/٤.

(٦) الديباج المذهب ١٦٨.

(٧) ابن الأبار: المعجم ٢٩٤. وابن خلكان ١٥٣/٥.

(٨) انظر الفصل الخاص بمؤلفاته ومصنفاته وآثاره.

الأولى: صلة المذهب المالكي، الذى اعتنقه أهل المغرب، ودانوا به، وما يزالون. وكان القاضى عياض من أبرز أعلامهم وأشهرهم.

والصلة الثانية: صلة القربى والانتساب إلى قبيلة حِمْيَر، من عرب اليمن، ذات الصيت الذائع فى تاريخ الإسلام والمسلمين.

ويبدو أن لصلة القربى هذه أثرًا فى توجيه جهد القاضى عياض إلى العناية البالغة بحياة الإمام مالك[1]، وإبرازها فى إطار من الجلال والبهاء، وفى إصراره على أن يبعد عنها كل ما من شأنه أن يشوّه جمالها، أو يشوب نصوعها، أو يخدش فى بهائها.

وكانت أرض أجداده بجهة «بسطة»[2]، وهى بلدة تبعد حوالى ١٢٣ كيلو مترا نحو الشمال الشرقى من مدينة «غرناطة» ومنها انتقلوا إلى «فاس» بالمغرب، ثم إلى مدينة «سبتة» وفى ذلك يقول ابنه محمد، فى التعريف بموطن أسلافهم:

«استقر أجدادنا فى القديم بالأندلس، جهة بسطة، ثم انتقلوا إلى مدينة فاس، وكان لهم استقرار بالقيروان، لا أدرى أقبل استقرارهم بالأندلس أم بعد ذلك[3]».

وقال صاحب تاج العروس: إن اليحصبيين نزلوا بقلعة يحصب، على بعد ست مراحل فى الشمال الغربى من غرناطة، وأن هذه القلعة سميت بهم[4].

«وكان سبب ذلك أنه كان له - لعمرون والد جد عياض - ولآبائه بمدينة فاس نباهة، فأخذ ابن أبى عامر رهنا من أعيان مدينة فاس: فأخذ فيهم أخوى عمرون: «عيسى والقاسم» فخرج عمرون إلى مدينة سبته ليقرب من أخبارهما بمدينة قرطبة، فاستحسن سكنى مدينة سبتة[5]».

---

(١) انظر كتاب ترتيب المدارك ص٤، ص٦ - ٢٢.
(٢) التعريف ص٤، والمعجم لابن الأبار ٢٩٤، والديباج المذهب ١٦٨
(٣) التعريف ص٤، والديباج المذهب ١٦٨.
(٤) تاج العروس (مادة حصب).
(٥) التعريف ص٢.

ولم تذكر المصادر القديمة - التى ترجمت للرجل - فى عداد أهل العلم أحدًا من أجداده غير أن بيتهم كان من البيوتات النابهة بفاس وبسبتة، وأن جده عمرون، الذى انتقل من فاس إلى سبتة حوالى سنة ٣٧٣ هـ، كان من أهل الخير والصلاح، حافظا للقرآن. حج إحدى عشرة مرة، وغزا مع المنصور ابن أبى عامر كثيرا من الغزوات، وأنه اشترى أرضا بسبتة من ماله، جعل جزءا منها وقفا على المسلمين، يدفنون فيه موتاهم، وجزءا بنى فيه مسجدا، وديارًا جعلها وقفا على المسجد، وأنه لازم هذا المسجد للتعبد إلى أن مات سنة ٣٩٧هـ[١]. وهى خلال كلها تمكن لنباهة الذكر ورفعة المكانة.

وإذا كانت المعلومات عن أسرة عياض - من أبيه - متوفرة نسبيا، فإننا لا نعرف إلا شيئا قليلا عن عائلته من أمه، ومما بقى عنها من أخبار يبدو أنها لم تكن مغمورة، فنحن نعرف أن بعض رجالها كان لهم اشتغال بالعلم، جاء فى «الغُنْية» - وهو من كتب التراجم التى ألفها القاضى عياض - أن من الذين سمعوا عن أبى عبد الله ابن سحنون اللواتى، خَالَىّ عياض: أبى بكر، وأبى محمد ابنى الجوزى[٢]. وقد تردد هذا الاسهان كثيرا فى كتب التراجم[٣]. ومن أفراد أسرة عياض من أمه، نجد جده، وهو مذكور أيضا فى كتب التراجم[٤].

وبالرغم من أن أبا عبد الله يذكر ابن عم له يدعوه «أبا عبد الله الزاهد»، بلغت درجته فى العلم مكانة، جعلت القاضى عياضا يستخلفه على قضاء غرناطة، فإن ابن عم عياض هذا لا نكاد نعرف عنه شيئا، فلم يرد اسمه فى «التعريف» مع أن أبا عبد الله بن عياض، تحدث عنه فى أكثر من موضع، وقد ورد فى كتاب «التماس العفا فيما كتب على الشفا، أن اسمه محمد، وكنّاه بالفاضل[٥].

وكان لعياض أخ، ولا ندرى أهو والد أبى عبد الله الزاهد، الذى ذكرناه،

---

(١) التعريف ص٥.

(٢) القاضى عياض: الغنية ص١١٦.

(٣) ابن بشكوال: الصلة ج١ ص٢٨٩.

(٤) ابن بشكوال: الصلة ج١ ص٢٨٩.

(٥) موسى العبدلاوى ورقة ١٨٥ ضمن مجموع - نقلا عن القاضى عياض الأديب ص٦٩.

أوهو أخ آخر؟ كما ذكر ابن الخطيب، عند حديثه عن أحمد بن عبدالرحمن ابن الصقر الأنصارى، أن القاضى عياضا اشتمل عليه عندما كان قاضيا بغرناطة، لصلة بينهما وقرابة. ولا نعرف نوع هذه القرابة، ولا درجتها[١].

وهكذا يتضح أن القاضى عياض ورث الجاه المادى عن أجداده لأبيه، والجاه العلمى عن أجداده من أمه.

---

(١) ابن الخطيب: الاحاطة ج١ ص١٨٤.

الفصل الثانى

مولده ونشأته وثقافته

ولد القاضى عياض - حسبما كتب بخطّه[1].. «بسِبْتَة»، فى منتصف شهر شعبان من سنة ٤٧٦ للهجرة. وكانت سبتة فى ذلك التاريخ قاعدة من قواعد المغرب، هيأها موقعها الجغرافى الممتاز، لأن تكون ملتقى العلماء، سواء الواردون عليها من المشرق والمغرب، بقصد العبور إلى الأندلس، أم القادمون إليها من الأندلس إلى المغرب. بقصد الرحلة أو الإقامة، وأن تصبح - نتيجة لذلك - ملتقى لثقافات متنوعة متعددة.

وهكذا أنشأ أهل العلم، المقيمون «بسبتة»، والوافدون إليها، مركزا ثقافيا بما له أهميته، وله مميزاته وخصائصه[2] هذا بالإضافة إلى أنها من الناحية السياسية كانت تستعد لاستقبال الزوار الجدد - أعنى المرابطين - كما كانت تتهيأ للقيام بدور خطير فى حياة الدولة الجديدة، على المستويين السياسى والثقافى، وقد ساعدها فى كل ذلك موقعها الجغرافى[3].

إن سبتة فى ظل دولة المرابطين، أصبحت عاصمة ثانية للدولة، فمن سبتة كان يتم الإشراف، فى كثير من الأحوال، على الأندلس، وفى سبتة وُلد «ليوسف بن تاشفين» «علىّ»، بعد سنة من ميلاد «عياض»، وفيها فقد «يوسف» ولدًا آخر، ونظرًا لموقعها، فقد غدت مركزا علميا يؤمه العلماء والأدباء.

وتذكر كتب التاريخ، أن المغرب ارتبط فى هذا العهد ارتباطا قويا بالأندلس

---

(١) الصلة ص ٤٤٧، المعجم لابن الأبار ٢٩٦. وخالف صاحب الديباج المذهب وقال أنه ولد سنة ٤٩٦ هـ - ص ١٦٨.

(٢) بغية المتلمس ٤٢٥، المعجم ٢٩٤، والصلة ٤٤٧.

(٣) عن سبتة، انظر مقالا بعنوان «سبتة السلبية» للأستاذ محمد بن تاويت، مجلة البحث العلمى، وانظر أيضا «اختصار الأخبار من تحقيقه».

والمشرق، بفضل سياسة «يوسف بن تاشفين». ولاشك أن «سبتة» كانت صلة الوصل بين المغرب والمشرق، أهلها لذلك رجالها.

نشأ «عياض» طالبا للعلم، محبًا له، حريصا عليه، مجتهدا فيه، وقد اتفقت المصادر على وصفه بالذكاء والفطنة، والفهم والحذق، وهى مؤهلات من شأنها أن ترفع صاحبها إلى مراتب عالية فى العلم والفضل والأدب. وبهذه المواهب العقلية الممتازة، وفى ذلك الجو المشبع بالعلم والمعرفة. الذى تهيأ له بمسقط رأسه (سبتة) بدأ عياض طلبه للعلم، وتلمذته على شيوخ عصره فى بلده.

وإذا كانت الكتب العلمية، التى يدرسها طالب العلم، تتدخل مثلما يؤثّر الشيوخ فى تكوين شخصيته، وصقل مواهبه، وتعميق ثقافته، فإن ما قرأه عياض الطالب، من أمهات الكتب، على اختلاف موضوعاتها وألوانها - فى بلده - لأدلّ دليل على أن شخصيته العلمية قد نضجت قبل أن يغادر بلده، فى رحلاته المتعددة فى سبيل العلم والمعرفة.

- ففى بلده حفظ القرآن بقراءاته السبع، برواية نافع، وابن كثير، وأبى عمرو بن العلاء، وابن عامر، أخذ هذه الروايات بطرقها المختلفة المعروفة، عن «عبدالله بن ادريس بن سهل المقرئ، المتوفى سنة ٥١٥ هـ[١] وبرواية «حمزة بن حبيب الزيات»، عن «عبدالله بن محمد النّفرى»، المتوفى سنة ٥٣٨ هـ[٢].

- وقرأ اللغة العربية، متنها وأدبها فى «كتاب الفصيح» لأبى العباس ثعلب، وكتاب الأمالى لأبى على القالى، والكامل لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد. وأدب الكتاب لأبى محمد بن قتيبة[٣]. ودرس قواعدها فى كتاب الجُمل للزجاجى، والواضح لأبى بكر الزبيرى، والكافى لابن النحاس، والمقتضب للمبرد، والإيضاح لأبى على الفارسى[٤]، وشرح الجمل لابن فضال[٥].

(١) الغنية ١٤٩ وانظر ص ١٧.
(٢) الغنية ١٤٨، وانظر ص ٤٣، ٤٤.
(٣) الغنية ١٣٤، ١٣٥ وانظر ٤٣، ٦٧.
(٤) الغنية ١٣٥
(٥) الغنية ١٦٠.

- أما أصول الفقه، وأصول الدين، وعلم الكلام[١] على مذهب أبي الحسن الأشعري والجدل والمناظرة[٢] فقرأ أصول الدين على قاضي سبتة عبدالله ابن محمد بن ابراهيم بن قاسم اللخمي، المتوفى سنة ٤٥٨ هـ[٣]. وقرأ رسالة ابن أبي زيد القيرواني، على محمد بن عيسى التميمي[٤]. وصحب «عبد الغالب ابن يوسف السالمي»، المتوفى سنة ٥١٦ هـ، المتكلم على مذهب أهل السنة من الأشعرية، مدة إقامته بسبتة، وناوله كثيرا من مجموعاته[٥].

وقرأ على «يوسف بن موسى الكلبي»، المتكلم على مذهب الأشعرية، أرجوزته التي ألّفها في الاعتقادات[٦]. كما قرأ كتاب المنهاج في الجدل والمناظرة، «لأبي الوليد الباجي»[٧].

ولاشك أن احتجاج «القاضي عياض» المتكرر في كتبه، خاصة في كتاب الشفا، بآراء أبي الحسن الأشعري[٨].. والقاضي أبي بكر الباقلاني[٩]، وأبي بكر ابن فورك[١٠]، وأبي المعالي إمام الحرمين الجويني[١١]. يثبت صلته الوثيقة بمذهب الأشعرية، وبكتبهم، وقراءاته لمؤلفاتهم في الاعتقاد[١٢] ووصفه الباقلاني، وأبا بكربن فورك بقوله «من أئمتنا»[١٣]، دال على أنه أشعري المذهب.

---

(١) جاء في التعريف به ص ٦ - أن القاضي عياض كان متكلما أصوليا، وكان لا يرى الكلام في ذلك إلا عند نازلة، وعلم الكلام منذ نشأته، يعني الحجاج عن العقيدة والمناظرة عليها. ثم اشتهر بين أهل السنة استعماله في معنى الحجاج عن العقيدة السنية بالأدلة البرهانية العقلية، والرد على المخالفين لهم فيها، فالمحاجة والمناظرة جزء من مفهوم علم الكلام.

(٢) علم الجدل والمناظرة، يراد به الجدل في مسائل الفقه تارة، وفي مسائل الاعتقاد تارة أخرى.

(٣) الغنية ١١٦

(٤) الغنية ص ٢٢

(٥) الغنية ١١٦

(٦) الغنية ص ٢١٥

(٧) الغنية ١٦٠

(٨) الشفا ٢٧٧/٢

(٩) الشفا ٢١٦/١، ٢٦٣/٢، ٢٦٧، ٢٧٦

(١٠) الشفا ٢١٦/١، ١٥٦/٢

(١١) الشفا ٢٠٥/١، ٣١١، ٢٦٤/٢

(١٢) الغنية ١٦٦، ٢١٥

(١٣) الشفا ٢١٦/١

ومناقشاته العميقة لآراء المعتزلة[١]، والفرق الاعتقادية الاسلامية على اختلاف مذاهبها[٢]، وللفلاسفة[٣] والصوفية[٤] والخوارج[٥]، تطلع الدارس لعياض على معرفته الواسعة بالمذاهب الاعتقادية، وآراء أصحابها.

وصلة القاضى عياض بعلم الكلام، وما يتبعه من جدل ومناظرة، ومعرفته بدقائق آراء المخالفين لأهل السنة فيه، تصل بنا إلى أن البيئة التى خرجت «القاضى عياض» كانت على علم تام بالجدل والمناظرة وأصول الدين، والكلام على مذهب أبى الحسن الأشعرى، وأن كتب الأشاعرة فى علم الكلام، كانت معروفة بين رجالها، يتدارسونها فى كافة أنحاء المغرب.

وبسبتة أيضا، عن أعلامها ومحدثيها أخذ عياض علم الحديث، متنه، وغريبه، ورجاله ومصطلحه، فقرأ الموطأ للإمام مالك، ومسند الموطأ لأبى القاسم الجوهرى، وصحيح البخارى بروايتى الفِرْبْرى والنسفى، وصحيح مسلم، وسنن النسائى، وشرح غريب الحديث، لأبى عبيد القاسم بن سلام، وإصلاح الغلط على أبى عبيد، لأبى محمد بن قتيبة، وغريب الحديث لأبى سليمان الخطابى، وعلوم الحديث للحاكم، وكتاب الطبقات، لمسلم الحجاج صاحب الصحيح، وكتاب الضعفاء والمتروكين للنسائى، وكتاب الطبقات له، وكتاب التقصى لابن عبدالبر[٦]، والمؤتلف والمختلف للدار قطنى[٧] والمؤتنف فى تكملة المؤتلف والمختلف، للخطيب البغدادى[٨]، وشكل الحديث لابن فورك[٩] والإكمال لابن ماكولا[١٠].

---

(١) الشفا ٢/٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٨، ٢٧٩
(٢) الشفا ٢/٢٦٨، ٢٦٩
(٣) الشفا ٢/٢٦٩
(٤) الشفا ٢/٢٦٩
(٥) الشفا ٢/٢٧١.
(٦) الغنية ٢ – ٢٢، ١٤٦، ١٩٠، ١٩١.
(٧) الغنية ٥١ – ٥٦
(٨) الغنية ٥١ – ٥٦، ٦٤
(٩) الغنية ١٣٥
(١٠) الغنية ٥٦

أما الفقه المالكي، فدرس رسالة ابن أبي زيد[١]، والمدونة[٢]. وتأليفا فى الأيمان اللآزمة، للقاضي أبي بكر بن العربي المعافري، قرأه عليه بسبتة عند مروره بها[٣].

وقرأ أصول الفقه على محمد بن داود بن عطية القلعي.

ويبدو من كلام القاضي عياض، أنه له معرفة بالدراسات النفسية، من ذلك أنه قال عند الكلام على غريب قول المرأة الثانية، فى حديث أم زرع:

«وقال أبو سعيد النيسابوري: إنما عنت أن زوجها كثير العيوب، متعقد النفس عن المكارم» وهذه إشارة إلى ملاحظة أبي سعيد النيسابوري للتعقد النفسي، وأنه قد تكون عند بعض الناس عقد نفسية، وأنها ربما حالت بين الانسان وبين المكارم. ونقل القاضي عياض - لقول أبي سعيد هذا - يدل على أنه له نظر فى علم النفس ومشاكله.

هذه العلوم، والثقافة الواسعة، جعلته وحيد عصره - فى شبابه، لشمول ثقافته واتساعها، وتنوع مصادرها، فقيل إنه «عالم المغرب وإمام أهل الحديث فى زمنه، كما وصفوه بأنه كان «عالما بالتفسير وجميع علومه، فقيها أصوليا، بصيرا بالأحكام، عاقد الشروط، بصيرا حافظا لمذهب مالك»[٤]. وقالوا أيضا: أنه كان شاعرًا مجيدًا، ريان من علم الأدب، خطيبا بليغا صبورا حليما، جميل العشرة، جوادًا سمحاً، كثير الصدقة، دؤوبا على العمل، صلبا فى الحق[٥].

ويبدو أن مكانة أسرة عياض، وكذا موقع بلده «سبتة»، أتاح له اتصالا مبكرا بعلماء أجلاء، وهو مايزال صغيرا.

- فهذا الحافظ أبو على الغساني (ت سنة ٤٩٦ هـ) يجيزه مؤلفاته.

- وأخذ عياض العلوم الإسلامية من قرآن وحديث وفقه على أبي عبدالله

---

(١) الغنية ٥٦

(٢) الغنية ٢٢

(٣) الغنية ١٩، ١١٩، ١٤٦، ٤٠ - ٤٢.

(٤) ابن خلكان ١٥٢/٥، الديباج المذهب ١٦٨

(٥) المراجع السابقة

محمد بن عيسى التميمى[١]، وأبى عبدالله محمد بن محمد الأموى[٢]، وأبى بكر ابن العربى[٣]، واحمد بن محمد بن عبدالرحمن الأنصارى[٤]، وأبى إسحاق ابراهيم اللواتى[٥]، وأحمد بن طاهر بن شبرين[٦] - وكان يميل إلى النظر كما يقول عياض[٧]، وأبن إسحاق ابراهيم بن أحمد البصرى[٨]، والفقيه أبى محمد عبدالله ابن أحمد بن خولف الأزدى، المعروف بابن شبونة[٩] والقاضى أبى محمد عبدالله اللخمى[١٠]، وعبدالله محمد بن عبدالله بن محمد النفزى[١١]، وعبدالله بن أحمد التميمى[١٢]، والفقيه أبى عبد المالك مروان اللواتى، زعيم المغرب وشيخه[١٣]، وأبى الأصبع عيسى بن محمد[١٤].

وأما علم الكلام واللغة والأدب، فقد أخذها عن الشيوخ: يوسف بن موسى الكلبى، وأبى الحجاج الضرير المتكلم، وكان من نظار أهل السنة[١٥]، وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الكتامى[١٦]، المعروف ابن العجوز، وعبد الغالب بن يوسف السالمى، المتكلم على مذاهب أهل السنة[١٧]، والفقيه الخطيب أبى القاسم عبدالرحمن بن محمد المعافرى، من أهل سبتة، والفقيه أبى الحسن الكلاعى، من أهل سفاقس، استوطن سبتة، وتكرر عليه عياض كثيرا، وأخذ عنه غير شىء[١٨].

ومن هذه القائمة الطويلة من الأعلام، يمكن القول أن بيئة «سبتة» كانت تحتضن كبار العلماء، ومن هؤلاء العلماء من كان من أهل سبتة، ومنهم من نزلها مؤقتا للقضاء أو لغيره، ومنهم من مرّ بها فقط.

---

(١) الغنية ٢٣
(٢) الغنية ٢٣
(٣) الغنية ٢٩
(٤) الغنية ٦٥
(٥) الغنية ٦٦
(٦) الغنية ٦٣
(٧) الغنية ٦٣
(٨) الغنية ٦٩
(٩) الغنية ٨٥
(١٠) الغنية ٨٦
(١١) الغنية ٨٧
(١٢) الغنية ٨٩
(١٣) الغنية ١١٤
(١٤) الغنية ١٠٩
(١٥) الغنية ١٢٩
(١٦) الغنية ٩٦
(١٧) نفس المرجع ٩٨
(١٨) الغنية ٧٨

وبهذه الحصيلة العلمية الهامة، وبهذا الكم الوفير من لقاء العلماء، عزم القاضى عياض على الرحيل إلى الأندلس طالبا للعلم.

ومن المفيد أن نذكر - أن القاضى عياض تلقى إجازة علمية من أبى على الغانى، وهو فى العشرين من عمره، أو دونها[١]. كما أنه كان يجالس كبار العلماء، وهو لصغر سنة لا يفهم عنهم شيئا[٢].

---

(١) الغنية ٧٦.

(٢) الغنية ٧١.

الفصل الثالث

حياته

مرت حياة القاضى عياض بثلاث مراحل أساسية، أو ثلاث حلقات، كل منها تتصل بالأخرى وتكملها:

الأولى: مرحلة طلب العلم.
الثانية: مرحلة بذل العلم.
الثالثة: مرحلة الصراع الفكرى والعقيدى.

أما المرحلة الأولى، فتتمثل فى طلب العلم - كما رأينا - فى سبتة، ثم أكملها رحلاته المتعددة، وتنقلاته فى بلاد المغرب، من أجل أخذ العلم وتسجيله وروايته. وكانت أولى هذه الرحلات:

١ - رحلة الأندلس:

ذكر أبو عبد الله، محمد بن عياض، أن هذه الرحلة كانت الأولى. ولكن الأمر يبدو غير ذلك، فقد ذكر «ابن خاقان» - عند حديثه عن «أبى الحسن على التنوخى»، أنه لقى «القاضى عياض» بأشبلية، عام ثمانية وتسعين وأربعمائة للهجرة (٤٩٨ هـ)[١].

ومعنى هذا أن عياضا رحل إلى الأندلس قبل رحلته المشهورة، التى تحدث عنها ولده، ومن جاء بعده. بنحو عشر سنين. ومن الطبيعى أن تكون للقاضى عياض» أكثر من رحلة إلى الأندلس، فالأندلس موطن أجداده، ثم إن «سبتة» كانت على اتصال وثيق بالأندلس، منذ أيام عبد الرحمن الناصر، حيث كانت ولاية تابعة للأندلس.

والأمر الواضح فى هذه المرحلة الشهيرة، أنه رحل وقد سبقته شهرته إليها،

---

(١) القلائد ص ١١٥، والخريدة ج ٢ ص ٣٦٣.

هذا بالإضافة إلى أن صديقه «أبا القاسم بن الجد» - كاتب الدولة المرابطية - كان قد بعث برسالة خاصة إلى «ابن حمدين»، يستوصيه خيرا بعياض[١]. كما بعث أمير المسلمين «على بن يوسف» رسالة أخرى إلى ابن حمدين يأمره فيها بتقديم كل مساعدة إلى «عياض» فى رحلته، من أجل تحقيق بغيته، يقول فيها: «وفلان (أى القاضى عياض) - أعزه الله بتقواه، وأعانه على مانواه، ممن له حظ وافر، ووجه سافر، وعنده دواوين أغفال، لم يفتح لها على الشيوخ أقفال. وقصد تلك الحصون ليقيم أود متونها، ويعانى رمد عيونها، وله إلينا مآتة مرعية أوجبت الإشادة بذكره، والاعتناء بأمره وله عندنا مكانة حفية، تقتضى مخاطبتك بخبره، وإنهاضك إلى قضاء وطره، وأنت إن شاء الله تسد عمله، وتقرب أمره، وتصله أسباب العون له إن شاء الله»[٢].

فهذه الرسالة أوضح دليل على مكانة القاضى عياض، وعلى ما كان يحظى به من عناية خاصة لدى كبار رجال الدولة المرابطية، وذلك قبل أن يذاع صيته، ويشتهر علمه، وربما كان هذا الأمر من الأسباب التى جعلت القاضى عياض، يخلص لهذه الدولة كل الإخلاص.

٢ - وصوله إلى قرطبة:

كان خروج القاضى عياض من «سبتة» - كما يقول ابنه - يوم الثلاثاء، منتصف جمادى الأولى، سنة سبع وخمسمائة (٥٠٧) للهجرة[٣] فوصل إلى «قرطبة» يوم الثلاثاء، مستهل جمادى الآخرة بعده[٤]. ولم يذكر أبو عبد الله، أن والده مر «بأشبيلية»، ولكن القاضى عياض ذكر فى فهرسته، أنه لقى بأشبيلية «أبا عبد الله أحمد بن محمد الخولانى»[٥]. وقد توفى «الخولانى» فى شعبان سنة ٥٠٨هـ فلا يكون اتصال القاضى عياض به بعد هذا التاريخ.

---

(١) قلائد العقيان ص١١٥، الخريدة ٣٦٤/٢.
(٢) ابن خاقان: القلائد ص١١٦.
(٣) التعريف ص٩.
(٤) التعريف ص٦.
(٥) الغنية ص٥٦.

وقد احتفى علماء قرطبة، وعلى رأسهم «ابن حمدين» احتفاء كبيرا[١].

ويطول بنا الحديث لو أننا تتبعنا عياضا فى لقاءاته مع كل الشيوخ فى قرطبة، لذلك سنقف عند أبرزهم فى حياة الرجل العلمية.

* لقد أخذ عياض الحديث والفقه على «أبي عبد الله محمد بن أحمد بن خلف التجيبي» المعروف بالحاج[٢] وأبي القاسم بن بقى[٣]، وأبي الوليد بن رشد[٤]، وأبي عبد الله محمد بن حمدين[٥]. ومن جملة ما أخذه عياض عنه. ردوده العميقة على كتاب إحياء علوم الدين للغزالى.

* وأما الأدب واللغة، فقد أخذهما فى قرطبة عن «أبي عبد الله محمد، المعروف بابن أخت غانم[٦] أخذ عنه كما ذكر الكامل للمبرد، والأمالى للقالى. ومن أهم شيوخ قرطبة، الذين أخذ عنهم اللغة، سراج بن عبد الملك بن سراج الأموى، اللغوى الحافظ، وفى ذلك يقول عياض. «رحلت إليه، إلى قرطبة سنة ٥٠٧ سنة هـ فسمعت عليه، وجعل لى من نفسه حظا، ثم رجعت إليه بعد رحلتى إلى شرق الأندلس»[٧].

ولقد كانت قرطبة فى ذلك العصر، مركزا من مراكز المذهب المالكى، ومنها خرجت الفتوى الشهيرة بإحراق «كتاب الإحياء»، بعد أن قاد «ابن حمدين» الحملة على الغزالى. ويبدو أن للقاضى عياض مشاركة فى المناقشات التى دارت حول الكتاب[٨].

والظاهر أن القاضى عياض أعجب برجال العلم فى قرطبة، ونشأت بينه

---

(١) انظر التعريف ص١٠٦، ١٠٧.
(٢) الغنية ١٦.
(٣) الغنية ٥٠.
(٤) الغنية ٢٠.
(٥) الغنية ١٥.
(٦) الغنية ٢٤.
(٧) الغنية ١١٦.
(٨) انظر مسائل ابن رشد فقد حوت بعضها.

وبينهم صلات وطيدة من أجلهم أحب قرطبة ولذلك نراه يعرج عليها، وهو فى طريقه عائداً من شرق الأندلس[١].

٣ - مُرْسِيَة:

ثم خرج القاضى عياض من قرطبة إلى مُرسية، فوصل إليها يوم الثلاثاء ثالث صفر من سنة ٥٠٨هـ أى بعد أسبوع قضاه فى الطريق.

ولقد كانت كل المجالس العلمية على علم برحلته تلك، وذلك ما يؤكده الحديث الذى دار بين عياض وشيخه «أبى على الصدفى». يقول أبو عبد الله:

إن «أبا على الصدفى» كان مختفيا، ووجد الرحّالين إليه قد نفدت نفقات بعضهم، ومنهم من ابتدأ كتابا لم يتمه. فأخذ أكثرهم فى الرجوع إلى موطنهم، وتربص بعضهم، فمكث هو بقية صفر، وشهر ربيع الأول، لا يقع على خبر سوى الظن بكونه هنالك».

* ويقول أيضا: «وقابل أثناء ذلك بأصوله، وكتب منها ما أمكن على يد خاصته من أهله، ولا يشك أن تصرفه فى ذلك لم يكن إلا بأمره، إلى أن وصل كتاب قاضى الجماعة، أبى محمد بن منصور» بحلّ «أبى علىّ» من القضاء، ووصل كتابه أيضا إلى أبى معلما له بذلك، إذ كان يكرم عليه، وعلم برحلته إليه، فخرج «أبو على» من اختفائه. وجلس للتسميع، فسمع عليه كثير، ولازمه، وكان له به اختصاص، فحصل له سماع كثير فى أمد يسير.

ويقول «القاضى عياض» إن القاضى أبا علىّ الصدفى، قال له: لولا أن الله يسّر خروجى بلطفه، لكنت عزمت أن أشعرك بموضع يقع عليه الاختيار فى بلاد الأندلس، لا يؤبه لكونى فيه، فتدخل إليه، وأخرج مختفيا إليه بأصولى، فتجد ما ترغب لما كان فى نفس من خوف تعطيل رحلتك، وإخفاق رغبتك»[٢].

---

(١) الغنية ١١٧.

(٢) التعريف ٩، ١٠، وأزهار الرياض ١٠٨/٣

وعلى أى حال فإن أبا على كان قد عزم على إشعار عياض بمخبئه، لأنه كان يعلم أنه إنما قدم إلى الشرق من أجله هو[١].

وتتوثق عرى الصداقة بين القاضى عياض، وأبى على الصدفى، ويشتد إعجاب عياض بشيخه، وكان ثمرة هذا الإعجاب كتاب «المعجم». الذى ألفه عياض فى ذكر شيخه، وذكر شيوخه[٢].

ولم يذكر أبو عبد الله متى خرج والده من مَرسيّة، ولا المكان الذى قصده قبل عودته إلى سبتة. ولكن جاء فى الغنية، أن عياضا قصد «غرناطة»، بعد رحيله من مُرْسِيّة. وفى غرناطة عاود الاتصال ببعض الشيوخ، مثل «أبى الحسين على بن محمد الأنصارى» المعروف بابن درى، الذى يقول عنه عياض: «إنه كان له نظر بالعلوم القديمة» وكان لعياض معرفة به. إذ سبق لابن درى أن سكن سبتة[٣].

ومثل «هشام الهلالى». وغيرهما[٤].

ثم يغادر عياض غرناطة قاصدًا «قرطبة» من جديد: ليلتقى بشيخه «ابن سراج»[٥]، وليودّع أصدقاءه. ولقد كان ذلك اليوم الذى ودع فيه عياض شيوخ قرطبة، يوما مشهورًا، تحدث عنه «أبو زيد بن القصير»، فقال بعد كلام:

«ومن شعره (يقصد شعر عياض) عند صدوره من قرطبة، بعد تقييده ما قيد بها من الروايات، وطلب بها من العلم ما طلب. وقد تنفس مودّعوه بزفرات الفراق، وأراق كل واحد منهم من الدمع للعين ما أراق»[٦] ثم أورد المقطوعة الشعرية الآتية:

أقول وقد جَدّ ارتحالى وغردت ... حداتى، وزمت للفراق ركائبى
وقد غمصت من كثرة الدمع مقلتى ... وصارت هواء من فؤادى ترائبى
ولم تبق إلاّ وقفة يستحثها ... وداعى للأحباب لا للحبائب

(١) التعريف ٨.
(٢) الغنية ٧١.
(٣) الغنية ص١٠٣.
(٤) أنظر الغنية ص١٢٧.
(٥) الغنية ص١١٧.
(٦) المقرى: الأزهار ٢٤١/٤

رعى الله جيرانًا بقرطبة العلى | وسقى رباها بالعهاد الصوائبِ
وحييّ زمانا بينهم قد ألفته | طليق المحيى، مُسْتلان الجوانبِ
إإخواننا بالله فيها تذكروا | معاهد جار، أو مودة صاحبِ
غدوت بهم من برهم واحتفائهم | كأنى فى أهلى وبين أقاربِى

* ويصل القاضى عياض إلى سبتة، ليلة السبت السابع من جمادى الآخرة[1] من سنة ثمان وخمسمائة (٥٠٨ هـ). أى بعد أسبوعين من خروجه من قرطبة. بعد أن أمضى فى رحلته، عبر مدن الأندلس قرطبة. مُرْسية، غرناطة، قرطبة مرة أخرى، - سنة وشهرا تقريبا، وهى مدة قصيرة، ولكنها كانت كافية بالنسبة له لتحقيق مطامحه العلمية.

وإذا كان المترجمون له قد عُنُوا بتحديد مبدأ رحلته ومدتها، وهى عناية محمودة لها فوائدها ومزاياها، إلا أن مبدأ الرحلة ومدتها لا يهم الباحثين، ولايفيدهم الفائدة التى تعود عليهم من معرفة ما فعله القاضى عياض فيها. ولكن المهم حقا، أن يُعرف حصيلة هذه الرحلة، وما أدت إليه، وما خلفته من آثار فى معلوماته، وفى تفكيره.

● **لقد كانت رحلته فى طلب العلم تستهدف أمرين هامين:**

أولها: التأكد من سلامة منهجه النقلى ومن كماله، وهذا ما يتضح من مصنفاته وآثاره. ذلك أنه فى رحلته، أخذ يُصحح المتون المروية، والكتب المدروسة، ويبحث عن أصولها، ويصل أسانيدها بأصحابها، منقبا عن أعلى هذه الأسانيد وأقومها وأصحها. فهذه المادة العلمية، التى استقاها رواية وشفاهة، قراءة وسماعا، إذا لم تثبت بصورة صحيحة نسبتها إلى أصحابها، لا تصلح أن تتخذ أساسًا للبحث والدرس، وبناء أحكام عليها، سواء كانت هذه الأحكام دينية، أو علمية، أو أدبية.

ولا شك أن حرصه على إكمال المنهج النقلى وسلامته، واضح فى عناية القاضى

---

(١) التعريف ص ١٠.

عياض البالغة، فى الرواية والقراءة، فنراه يقرأ كتبا جديدة لم يقرأها فى بلده[١]، وبمقابلة كتبه بالأصول الصحيحة[٢]، والبحث عن أصول العلماء الخطية المسندة[٣]. والتنصيص على الأفضل، والأصح، والأوثق من رواياتها إلى أصحابها إن تعددت الطرق والروايات[٤].

الأمر الثانى: تصحيح منهج التفكير، وإقامة أسسه على قواعد ثابتة:

تقول المصادر، التى ترجمت له - إنه عنى فى رحلته بلقاء الشيوخ[٥]، والأخذ عنهم، ويذكر هو أيضا، بلسانه وبخطّه، شيوخه فى كل مكان ومجال..

والذى يظهر من دراسة رحلاته واهتماماته فيها، أنه لم يكن هدفه الأساسى أن يرى وجوه هؤلاء الشيوخ ومجالستهم، وإنما كان يعنى، بعد أن سلم له المنهج النقلى، أن يصافح أفكارهم، وأن يقابل علمهم، فيزنه بما تعلّمه فى بلده من علم وأفكار. وقديما قالوا: «**إذا أردت أن تعرف مقدار شيخك فجالس غيره**».

ولقاء الشيوخ هوالذى أتاح لعياض أن يرصُد عن كثب مناهجهم فى التفكير، ويرصُد كيف يتناولون المسائل بالدرس والبحث، يردّون منها ما يردّون، ويقبلون ما يقبلون، فينقل ما شاهد، وما فهم، إلى ما تعلمه عن علماء بلده، من أسس ومناهج يقارن بينها، ويفاضل، فيبقى فى ذهنه. بعد الفحص والتمحيص، والموازنة والعرض على ميزان النقد، ما يصح أن يبقى، وينفى ما لا يثبت للنقد.

وبعملية الاختيار والمفاضلة، والتنقيح والتلقيح هذه، تم له بناء جهازه النقدى، وتكاملت له أصول التفكير، على أساس من النقل، والمقارنة، والاختيار.

وقد عرف مقداره ومكانته العلماء الذين رحل إليهم، ليأخذ عنهم، وقد أُثِرت عنهم كلمات تشير إلى فراسته فيه، وتقديرهم له، واعترافهم بفضله وعلمه.

---

(١) انظر الغنية ص١٤٢، ١٥٥.
(٢) انظر الغنية ص١٥، ٢٦، ٢٧، ١٣٢.
(٣) الغنية ١١.
(٤) الغنية ص١٤٢، ١٥٥.
(٥) الصلة ٤٤٦، والوفيات ٤٩٧/١.

* قال له أستاذه «أبو عبد الله بن حمدين» وقت رحلته: «وحقّي يا أبا الفضل إن كنت تركت بالمغرب مثلك»[١].

* وقال «أبو محمد بن أبي جعفر» «ما وصل إلينا من المغرب أنبل من عياض»[٢].

* وحين أراد الرحلة - بالأندلس - إلى بعض الأشياخ، للأخذ عنه، قال له الوزير «أبو الحسين بن سراج»: «لَهُوَ أحوج إليك منك إليه»[٣].

* وفي رحلته هذه - كتب عنه «أبو عامر محمد بن أحمد بن إسماعيل الطليطلي» أشياء من حديثه[٤].

* وقال ابن بشكوال: «وقدم علينا قرطبة، فأخذنا عنه بعض ما عنده، وعظم صيته»[٥].

بقي أن نُسَجّل بعض الاستنتاجات التي وضحت من دراسة مرحلة طلب العلم، هي:

١ - أن دراسة رحلة طلب العلم في حياة القاضي عياض، هي في الواقع دراسة للحياة الفكرية في المغرب العربي، في العصر المرابطي، باتجاهاتها ورجالها، لذلك فإن فهرسة عياض تُعدّ وثيقة هامة في التعرف على ثقافة عصر المرابطين عامة، وفي الأندلس خاصة.

٢ - أن قائمة الكتب التي استقاها الرجل ورواها، تؤكد أنه كان ذا ثقافة موسوعية، فهو فقيه ومتكلم ومحدث وأديب: وبذلك يمكن القول. إن ثقافته تمثل. أصدق تمثيل ثقافة عصره.

---

(١) التعريف ص ١٢١.
(٢) التعريف ص ١٢١.
(٣) التعريف ص ١٢١.
(٤) الغنية ٥٩.
(٥) الديباج المذهب ١٦٨.

المرحلة الثانية: مرحلة بذل العلم..

وعاد عياض من رحلته الأندلسية، قبسا من النور يُضيء، ومعينا عذبا، ومنهلا فياضا من العلم لا يلحقه نضوب، وصوتا عاليا للحق ينادى، مرشدًا وحاكما، فيسمع النداء، وطاقة هائلة من الإيمان والثبات والخلق. وإلى هذا جميعا إحساس واع بنفسه وببلده[1] وبالمكانة التى تهيأت له، بما ورثه عن سلفه، وبما أفاده بسعيه، وتقدير للمسؤوليات الجسام التى تفرضها عليه تقاليد هذه المكانة، من إرشاد وهداية، وتوجيه وتنوير، وحماية إن كانت السلامة فى الكرامة الإنسانية، وفى المقدسات لا تحفظ إلا بالحماية.

وصل عياض سبتة، بعد رحلة الإعداد، ليلة السبت سابع جمادى الآخرة، سنة ثمان وخمسمائة (٥٠٨هـ) بعد أن أمضى أكثر من عام، ففتحت له قلبها وصدرها، ورحبت به وأكبرته، وأسندت إليه قيادها، فكان عياض فى جميع ذلك، الرائد الأمين، الذى لا يكذب أهله.

وأجلسه أهل سبتة للمناظرة عليه فى المدونة، وهو ابن اثنين وثلاثين عاما، أو ينيف عليها[2]. والجلوس فى المناظرة تشريف علمى، لا يصل إليه إلا الشيوخ الكبار، ممن رسخت أقدامهم فى العلم. والمناظرة فى المدونة كان تقليدًا معروفا عند فقهاء المالكية، وقد سبق لعياض المناظرة فيها على كل من أبى عبد الله محمد بن محمد الأموى[3]، وأبى اسحاق إبراهيم بن أحمد البصرى[4] والقاضى أبى محمد عبد الله اللخمى[5].

---

(١) من مظاهر هذا الاحساس عنايته بأخبار سبتة، وتأليف كتاب العيون الستة، والعناية بتاريخ المدن المغربية قديم، فقد ألف محمد بن يوسف التاريخى الوراق أخبار تاهرت وغيرها، وانظر فصل مؤلفاته ومصنفاته.

(٢) الديباج المذهب ١٦٨.

(٣) الغنية ٢٣.

(٤) الغنية ٦٩.

(٥) الغنية ٨٦.

ويبدو أن المناظرة كانت أشبه بالمجالس العلمية، التى كانت تعقد فى المشرق العربى، يترأسها شيخ جليل، ويتحلق حوله الطلبة، والهدف الأسمى منها هو التأكد من سلامة الحفظ والفهم، وكثيرا ما كان أعيان البلد يحضرون هذه المجالس، للاستفادة.

ثم أجلس القاضى عياض للشورى، والجلوس للشورى مرحلة أولى فى سلم القضاء. وقد كانت العادة أن يتخذ القاضى أربعة مستشارين، وكانوا يخضعون لتنظيم خاص[١].

ثم ولى عياض منصب القضاء فى سبتة، عام خمسة عشر وخمسمائة (٥١٥ هـ) لثلاث بقين من صفر، وكان عمره إذ ذاك تسعة وثلاثين عاما[٢] وهو بتوليه هذا المنصب، يكون قد فتح مجال القضاء أمام أسرته، فيذكر أبو عبد الله، أن ثلاثة من أحفاده تولّوا أيضا هذا المنصب[٣]، وهم ولده أبو عبد الله محمد، وحفيده عياض بن محمد، وحفيد ولده أبو عبد الله محمد بن عياض بن محمد بن عياض.

وتجمع المصادر على نعت القاضى عياض بالعدل فى الأحكام، وأنه سار فى خطة القضاء حسن السيرة، محمود الطريقة، مشكور الخلة، أقام الحدود على ضروبها، واختلاف أنواعها[٤].

ولم يكن منصب القضاء – فى عصره – يقف عند إقامة الحدود، والفصل فى المنازعات، بل كان يتعداه إلى تعيين أئمة المساجد، وبناء البنايات التى يرى أنها ضرورية لحماية البلد. وتشير المصادر – إلى أن القاضى عياض بنى «الطالع الكبير»، الفذ النظير، طالع سبتة، الذى بأعلى جبل مينائها، المعروف عند الناس بالناظور، «وهذا الطالع من أعجب الطلائع، لكونه يكشف البرّين، ويشرف

---

(١) قيام دولة المرابطين ص٣٦٧.
(٢) التعريف ١٠.
(٣) التعريف ص٨.
(٤) التعريف ١٠.

على العَدْوتين، فلا يخفى عليه من الزقاق شيء لكونه تحت أسوار وأبواب داخل المدينة، وفى حكم أهلها إذ تقع فتنة، أو يحل حصار[١].

وعلى الرغم من المهام العديدة، التى كانت مسندة إلى القضاة، فإن ذلك لم يمنع القاضى عياض من أن يقوم بالتدريس، وذلك إلى جانب ما كان يقوم به فى مجال التأليف والتصنيف.

ويبدو أن شهرة القاضى عياض فى هذه المرحلة الثانية من حياته كانت قد بلغت إلى المشرق العربى، إذ أخذت الإجازات تتوارد عليه من كل من بلاد المغرب، والإسكندرية وغيرها من بلاد المشرق.

وذكر المقرى[٢]: أن القاضى عياض استجاز الزمخشرى العالم المعتزلى، إلا أن الزمخشرى رفض إجازته، فلما بلغ القاضى عياض ذلك قال: «الحمد لله الذى لم يجعل لمبتدع على فضلا» وعندى - أن عياضا أكبر من هذا السلوك، وظنى أن هذه القولة من إضافات اللآحقين، دفعهم إلى قولها حُب القاضى عياض، والرغبة فى الدفاع عنه.

وإلى جانب الإجازات، التى كانت ترد على القاضى عياض، أو تصدر عنه، فقد كانت له مراسلات مع أشهر رجال عصره، فى المشرق والمغرب، ولنا من هذه الرسائل، رسالته إلى أبى طاهر السفلى نزيل مصر.

وأما الرسائل المتبادلة، بينه وبين صديقه ابن خاقان فمشهورة، وهى مما كتبه القاضى عياض فى هذه المرحلة الثانية، التى كانت أحلى فترات حياته.

ومن المؤكد أن مجالس عياض كانت تجمع باستمرار العلماء والشعراء، ومنهم من كان يأتى خصيصا للاتصال به[٣]، وكان قضاة المرابطين - فى عصره - قِبلة للشعراء، وكان عياض واحدًا من هؤلاء القضاه الذين يقصد إليهم الشعراء.

---

(١) الانصارى: اختصار الأخبار ص٨٣.

(٢) أزهار الرياض ٢٨٢/٣.

(٣) ذكر القاضى عياض فى الغنية (٩٩) أن ابن عبدون زاره فى سبتة، وأقسم له أنه ما قصد سبتة إلا لزيارته.

يقول أبو عبد الله: إنه جمع ما قيل فى والده من شعر فى ديوان، فكان مجموع ذلك خمسة آلاف بيت».

ومن الشعراء والكتاب الذى مدحوا القاضى عياض، ابن سارة أبو محمد عبد الله[١]، وابن بَقِىّ يحيى بن بقى[٢]، وابن جودى أبو الحسن على بن عبد الرحمن[٣]، وابن شرف أبو الفضل جعفر[٤] وأبو بحر بن عبد الصمد[٥]، وابن أبى الخصال أبو عبد الله محمد[٦]، وابن بياع[٧].

ظل عياض قاضى سبتة ما يقرب من ست عشرة سنة، بلغت شهرته بصفته عالما كبيرا، وقاضيا نزيها إلى «تاشفين بن على بن يوسف»، فأراد أن يكون القاضى عياض قاضيه بغرناطة، وغرناطه على عهد تاشفين غدت تأوى كثيرا من أهل العلم والأدب، ففيها تجتمع رجال الأندلس حول تاشفين، وهو الأمير الذى لهجت بمدحه الألسن، وأجمعت الأقوال على وصفه بالعدل وساعد على ذلك أن مدة ولايته على الأندلس طالت، ثم إن الرجل كان له اهتمام بالعلم والعلماء.

وصل كتاب تاشفين إلى القاضى عياض، بنقله إلى غرناطة فى أول يوم من صفر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة [٨]، ولم يتأخر عن الالتحاق بمقر عمله الجديد، إذ وصل إلى غرناطة يوم الخميس، لخمس بقين من ربيع الآخر، عام واحد وثلاثين وخمسمائة (٥٣١ هـ)، وكان اليوم الذى دخل فيه القاضى عياض غرناطة يوما مشهودًا، وصفه أبو زيد عبد الرحمن الغرناطى - أحد تلاميذه فقال:[٩].

«لما ورد علينا القاضى عياض غرناطة، خرج الناس للقائه، وبرزوا له تبريزًا

---

(١) ابن سارة، أبو محمد عبد الله: القلائد ص٢٧١. الخريدة ٢٥٦/٢.
(٢) ابن بقى يحيى، الخريدة ٦٦٧/٢.
(٣) ابن جودى، الخريدة ٢٥٢/٢.
(٤) ابن شرف، أبو الفضل جعفر، القلائد ص٢٦٣، الذخيرة ق، ج، ص٨٦٧.
(٥) أبو بحر بن عبد الصمد، الذخيرة ق، ج ٢ ص٨١١.
(٦) ابن أبى الخصال، القلائد ١٩٢، الذخيرة ق٢ ج، ص٧٨٤.
(٧) التعريف ١٠٤، القلائد ٢٣٥.
(٨) التعريف ١٠.
(٩) أزهار الرياض ج٣ ص ١١.

ما رأيته لأمير مؤمر مثله، وخرجت أعيان البلد الذى خرجوا إليه ركابا نيفا على مائتى راكب، ومن سواد العامة ما لايحصى كثرة، وخرجت مع أبى - رحمه الله تعالى - فى جملة من خرج، فلقينا شخصا بادى السيادة، منبئا عن اكتساب المعالى والإفادة».

وانصرف القاضى عياض كعادته إلى التعليم، إلى جانب مهمة القضاء. وقد ذكر أبو زيد عبدالرحمن المعروف بابن القصير، أن القاضى عياض كان يُقرئ كتاب الشفا فى غرناطة، أى أثناء توليه القضاء بها. يقول:

«دخلت مجلس القاضى أبى الفضل عياض - رحمه الله تعالى - إذ كان قاضيا عندنا بغرناطة، يسمعون تأليفه المسمى بالشفا، فلما وصل القارئ إلى هذه الكلمات (ومن قسم به أقسط) قرأه ثلاثيا، وكذلك كان فى الأم التى يقرأ فيها، فقلت للقاضى - وصل الله توفيقه: «هذا لا يجوز فى هذا الموضع، فقال: ما تقول؟ قلت: (إنما هو أقسط) لأن المراد فى هذا الموضوع عدل، فالفعل منه رباعى، كما قال الله تعالى: ﴿وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾. وأما (قسط) فإنما هو جار، كما قال تعالى: ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾[١].

سار عياض فى قضائه بغرناطة على المعتاد من سيرته، ولكنه على الرغم من ذلك، أو بسبب ذلك - كما يقول ولده - صرفه تاشفين عن قضاء غرناطة، لما ضاق به ذرعا، إذ كان يصد أصحابه عن الباطل. والواقع أنه ليس غريبا على فقهاء دولة المرابطين، أن يقفوا فى وجه الأمراء، يصدونهم عن الباطل، فقد عرفنا عنهم ذلك، بل إن عملهم هذا كان يدخل فى صميم مهماتهم التى كانت تشمل التوجيه والمراقبة والنقد.

ويبدو أن خبر إعفاء القاضى عياض من منصبه غير صحيح، يؤيد ذلك ما رواه صاحب طبقات المالكية: التى نقلها عن الأنوار الجلية، من أن القاضى عياض استعفى ولم يصرف[٢].

---

(١) أزهار الرياض ج ٣/٣١.

(٢) طبقات المالكية، مخطوط مصور رقم ١٠٩٢٥ ص ٣١١.

ومن المهم أن نذكر أن القاضى عياضا، ما كان يقبل الخروج من بلده، لولا أن الأمر كان صادرًا من جهة لا يمكن له إلا أن يطيعها، وإلا فإنه لم تكن تطيب له حياة إلّا فى سبتة، ولذلك تجده من الرجال القلائل الذين لم يرحلوا إلى المشرق لا للعلم، ولا للحج، رغم شوقه الشديد إلى زيارة الرسول المصطفى ﷺ، ذلك أنه كان يكره السفر، وخير شاهد على ذلك شعره الذى يقول فيه:[1]

تقاعدْ عن الأسفار إنْ كنتَ طالبًا ... نَجاةً، ففى الأسفارِ سَبْعُ عَوائِقِ
تشوّق إخوانٍ، وفقْد أحبة ... وأعظمها ياصاحِ - سكنى الفنادقِ
وكثرة إيحاش، وقلّة مؤنس ... وتبذير أموال، وخيفة سارقِ
فإن قيل فى الأسفار كسب معيشة ... وعلم وآداب، وصحبة وامقِ
فقل: كان ذا دهرا تقادم عصره ... وأعقبه دهر شديد المضايقِ
فهذا مقالى والسلام كما بدا ... وجرب، ففى التجريب علم الحقائقِ

ولقد ترك القضاء فى غرناطة، فى رمضان من سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة (٥٣٢ هـ)[2] وقد وصل إليه الخبر، وهو بسبتة، ذلك لأنه كان غادر غرناطة تاركا ابن أخيه الزاهد أبا عبدالله محمد فى منصبه.

٣ - المرحلة الثالثة: مرحلة الصراع السياسى والعقيدى

كان رجوع القاضى عياض إلى سبتة عاملا حاسما فى أحداث المغرب عامة، وبلده خاصة. حيث تميزت بصراعه الكبير ضد الموحدين، ذلك أنه كان يتتبع أخبار المهدى، ويتابع سير الأحداث وتطورها.

إن نجاح ثورة «ابن تومرت» أخاف أمراء المرابطين، فاستغاثوا بجيشهم الذى كان موجودًا بالأندلس، وأخاف أنصارهم وحلفاءهم الطبيعيين، وفى مقدمتهم فقهاء المذهب المالكى، والقاضى عياض - بطبيعة الحال - كان من أبرز هؤلاء الحلفاء، وذلك سر الشكوى، التى رددها فى مقدمات كثير من كتبه.

---

(١) ابن المؤقت: السعادة الأبدية ص ٧٧
(٢) التعريف ١١

إن هذه المرحلة من حياة القاضى عياض، يكتنفها الغموض، ويساعد على غموضها، اختلاف الروايات التى تتناولها من ناحية، وسكوت أبى عبدالله محمد ابن عياض عن كثير من قضاياها من ناحية أخرى. ذلك أن الرجل كان يتجنب كل ما فى شأنه أن يمس آل عياض بسوء، بسبب موقف أبيه من الموحدين. ويؤكد هذه الحقيقة، أن المقرى نفسه، أراد أن يسجل أحداث هذه الحقبة من حياته، فلما لم يجد المادة الإخبارية الكافية عنه، ترك ذلك[١].

وإذا كانت كتب التراجم، قد أغفلت ما يتصل بمشاركة القاضى عياض فى ثورة سبتة على الموحدين، فإن كتب التاريخ السياسى لم تغفل هذا الجانب، بل تحدثت بإفاضة عن الثورات، التى عرفها المغرب فى أواخر دولة المرابطين.

عكف القاضى عياض على التأليف والتصنيف، بعد أن استقر بسبتة، بيد أن دعوة الموحدين أقضت مضجعه، فلم يكد يخلد إلى الراحة، حتى كانت جيوش عبد المؤمن قرب سبتة، فقد ذكر ابن عذارى، نقلا عن ابن حمادة - أن الموحدين وصلوا إلى ريف سبتة سنة ست وثلاثين وخمسمائة (٥٣٦ هـ)[١]، ولم تكن سبتة - وهى تحت زعامة القاضى عياض - لتسلم نفسها للموحدين، وهى المدينة التى تحتفظ للمرابطين بكل أنواع الوفاء والتقدير والعرفان، ولذلك نظمت نفسها تحت إمرة عياض. لتدافع عن الوجود المرابطى بها. وقد ساعدها على ذلك تحصيناتها القوية، التى أنشأها عياض نفسه، وخبرة أهلها بفنون القتال.

وتسجل أحداث هذه الفترة، خطبتان من خُطب القاضى عياض، خطبهما حاثا أهل سبتة على الاستماتة فى الدفاع عن بلدهم.

يقول فى الخطبة الأولى، مستنفرا سكان سبتة للاستعداد بالسلاح وغيره لمقاومة العدو:

«أيها الناس، انظروا لأنفسكم، واستيقظوا من غفلتكم وتأملوا ما يراد بكم، واستعدوا لما أُعدّ لكم، وتحفظوا قبل أن يحاط بكم، فإنكم تستقبلون خَطْباً

---

(١) الدليل على ذلك: أنه لا وجود للروضة السادسة المخصصة لما أصاب القاضى عياض من محن.

(٢) ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الخاص بالمرابطين ص ٩٩

جسيما، وتنتظرون عن قريب أمرًا عظيما، فقد صار أعداؤكم عليكم إلبا، وتحالفوا عليكم شرقا وغربا»[١].

ويشكر الله تعالى - فى الخطبة الثانية - على ما أمدهم به من نصر، يقول:

«الحمد لله الذى أظهر فى مصنوعاته دلائل وجوده، وأظهر كلمة حزبه على أحزاب الكفر وجنوده، ونكس - لعزّ الإسلام - عوالى رايات الكفر وبنوده، وكشف عن قلوب ما غشيها من روع عدته وعديده.»

والأمر العجيب حقا، هو سكوت ولد عياض عن مشاركة والده فى هذه الأحداث، بل ذهب إلى حد القول: إن والده كان من السباقين إلى الدخول فى الدعوة الموحدية، حيث قال: «ثم بادر - يقصد والده - بالمسابقة إلى الدخول فى نظام الموحدين، والاعتصام بحبلهم المتين».

ولعل ذلك يوضح ما سبق أن ذهبنا إليه، والأسباب التى دفعته إلى ذلك.

ويبدو أن الذى حدد موقف القاضى عياض من الموحدين، هو أنه ما كان يمكن أن يقبل بأى حال من الأحوال ما أتى به «ابن تومرت» زعيمهم. فالقاضى عياض - كما نعلم - أمضى ردحا كبيرا من حياته فى التأليف فى المذهب المالكى، ودافع عنه دفاعا حارًا فى تآليفه.

وتقديرا لموقف القاضي عياض فى مجابهة الموحدين، ورغبة فى ضمان وفاء سبتة وإخلاصها للمرابطين، عين إبراهيم بن تاشفين بن على بن يوسف» القاضى عياضا قاضيا على سبتة للمرة الثانية[٢]. وكان ذلك فى آخر سنة تسع وثلاثين وخمسمائة (٥٣٩ هـ).

ومن المهم أن نذكر أن قبول القاضى عياض للقيام بمهام هذا المنصب، فى هذا الظرف الدقيق من تاريخ الدولة المرابطية له أكثر من معنى:

فهو يعنى أن الرجل مخلص للمرابطين، ومستعد للوقوف معهم إلى أبعد مدى،

---

(١) خطب مخطوطة، انظر الملحق الأخير لكتاب الدكتور شقور: «القاضى عياض الأديب».
(٢) التعريف ص ١١

هذا من ناحية.-ومن ناحية أخرى، أن موت تاشفين لم يفت من عضده. ويؤكد ذلك أن عياضا لم يقدم طاعة سبتة وولاءها لعبد المؤمن إلا فى سنة أربعين وخمسائة، أو بعدها بقليل[١]. حيث توجه القاضى عياض، على رأس وفد من أعيان سبتة، للقاء عبد المؤمن فاجتمع به فى مدينة سلا عند توجهه.

ولاشك فى أن عبد المؤمن أوسع نزله، وأجزل صلته، فتلك كانت عادة عبد المؤمن مع الوفود، التى كانت تفد عليه، حاملة ولاءها للموحدين، وخير دليل على إكرام عبد المؤمن للقاضى عياض هو اقراره فى منصبه، وإعادته إلى سبتة معزًزا مكرما.

بيد أنه ما كادت تشتعل الثورات ضد الموحدين، حتى بادرته سبتة إلى إعلان ثورتها ضدهم، بقيادة القاضى عياض[٢]. قال صاحب أخبار المهدى: إن عياضا كان من أوائل الثائرين على دولة الموحدين، وأن ثورته هى الثورة الثلاثون فى سلسلة الثورات التى قامت ضدها[٣].

يقول ابن أبى زرع عن أحداث هذه الثورة:

«وفى خلال هذه الأيام - خلال سنة ثلاث وأربعين - قام أهل سبتة على الموحدين، بعد أن بايعوهم ومكنوهم من المدينة، وكان قيامهم برأى عياض، فقتلوا مَنْ بها من الموحدين وعمالهم، وأحرقوهم بالنار، وركب عياض البحر إلى ابن غانية بالبيعة، وطلب منه واليا، فأرسل معه الصحراوى، فدخلها وأقام بها أياما.. فلما رأى أهل سبتة انهزام الصحراوى، سقط فى أيديهم، وندموا على صنيعهم، وكتبوا ببيعتهم إلى عبد المؤمن، وأتى بها أشياخ المدينة. وطلبتها تائبين، فعفى عنهم وعن القاضى عياض»[٤].

والأمر العجيب حقا، أن أبا عبدالله محمد بن عياض، نفى فى التعريف أى

---

(١) ابن أبى زرع: الأنيس المطرب ص ١٨٩، الاستقصاء ج ٢ ص ١٠٧.
(٢) البيذق: أخبار المهدى ص ٦٨
(٣) أخبار المهدى ص ٦٨.
(٤) ابن أبى زرع: الأنيس المطرب ص ١٩١

صلة فيها بوالده، ولكن كلامه - فى رأيى - لا يؤخذ به نظرا لما سبق أن قلناه، وأيضا لأن ابن خلدون قد نصّ على هذه الثورة، حيث يفهم من كلامه - أن القاضى عياضا قد شارك فى هذه الثورة، إذ يقول: إن عياضا أجاز البحر إلى يحيى بن غانية المسوفى.. فبعث معه يحيى بن أبى بكر الصحراوى(١).

حدثت ثورة سبتة سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة حسب تحديد ابن خلدون، أو سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة حسب تحديد ابن أبى زرع، ومن الممكن أن يكون التاريخ الأول تاريخ بداية الثورة، والتاريخ الثانى تاريخ إخمادها.

تقول المصادر: إن حزم عبد المؤمن وصرامته هما اللذان أنقذا دولة الموحّدين، حيث وجه عبد المؤمن حملة تلو حملة، وتمكن من أن يقهر الصحراوى - الذى أتى به القاضى عياض. وأن يقضى على الجموع التى كانت وراءه. وهى على العموم برغواطة، ثم وجه إلى شمال المغرب «يصلاسن»، فمشى إلى طنجة وقتل واليها - الذى كان يدين بالولاء للمرابطين، ثم وصل إلى سبتة فحاصرها، ورجع عنها ولم يفتحها(٢)، فلم يجد أهل سبتة مخرجا إلا مبايعة الموحدين من جديد، والظاهر أن «يصلاسن» لم يرفع الحصار عن سبتة إلّا بتدخل القاضى عياض، بعد أن اشتد الحصار، وشعر أهلها أنه لا طاقة لهم بالموحدين(٣).

ولكى يأمن الموحدون غدر أهل سبتة من جديد، نفوا القاضى عياض من سبتة، فخرج منها باكيا، لعلمه أنه لن يعود إليها، ولذلك كان - رحمة الله عليه - يوم سفره منفيا، يودع الناس ويبكى ويقول: جعلنى الله فداء لكم(٤).

---

(١) كتاب العبر ج ٦ ص ٤٧٤
(٢) أبو بكر الصنهاجى: أخبار المهدى ص ٦٨
(٣) المرجع السابق
(٤) التعريف ص ١١٥

الفصل الرابع

مكانته، ومحنته بسبب عقيدته السنّية

عاش القاضى عياض معيشة أهل العلم، فهو حيثما حلّ، وأينما ارتحل يفيد ويُفيد.. عاش صوتا عاليا، ينادى بالحق وللحق، مرشدا وحاكما، وقاضيا، يمدّه إحساس واع بدينه، وبعقيدته السنّية[1]، التى يعتنقها، وبالمكانة التى تهيأت له، فكل الذين عرفوه أشادوا بمكانته وبعلمه، ويقول عنه معاصره الفتح بن خاقان:

«جاء على قدر وسبق إلى نيل المعالى وابتدر، واستيقظ لها والناس نيام، وورد ماءها وهم حيام، وتلا من المعارف ما أشكل، وأقدم على ما أحجم عنه سواه ونكل، فتحلت به للعلوم نحور، وتجلت له منها حور، كأنهن الياقوت والمرجان، لم يطمثهن إنس قبله ولا جان، قد ألحقته الأصالة رداءها، وسقت أنداءها، وألقت إليه الرياسة أقاليدها، ولكنه طريقها وتليدها، فبذّ على فتائه الكهول سكونا وعلما، وسبقهم معرفة وعلما، وأزرت محاسنه بالبدر اللياح، وسرت فضائله سرى الرياح، فتشوفت لعلاه الأقطار، ووكفت تحكى نداء الأمطار، وهو على اعتنائه بعلوم الشريعة، واختصاصه بهذه الرتبة الرفيعة، يعنى بإقامة أود الأدب، وينسل إليه أربابه من كل حدب، إلى سكون ووقار، كما رسا الطود، وجمال مجلس كما حليت الخود، وعفاف وصون، ما علمنا فسادًا بعد الكون، وبهاء لو رأته الشمس ما باهت بأضواء وخفر، ولو بان للصبح ما لاح ولا أسفر، وقد أثبت من كلامه البديع اللفظ والأعراض، ما هو للعيون النجل، والجفون المراض»[2]

(١) التعريف ص ١١٥

(٢) قلائد العقيان ٢٢٢

ويقول ابن الأبار: [١]

«كان لا يدرك شأوه، ولا يبلغ مداه فى العناية بصناعة الحديث، وتقييد الآثار، وخدمة العلم، مع حسن التفنن فيه، والتصرف الكامل فى فهم معانيه، إلى اضطلاعه بالآداب، وتحققه بالنظم والنثر، ومهارته فى الفقه، ومشاركته فى اللغة العربية. وبالجملة - فكان جمال العصر، ومفخر الأفق، وينبوع المعرفة، ومعدن الإفادة، وإذا عُدّت رجالات المغرب فضلا عن الأندلس، حسب فيهم صدرًا».

وقيل عنه أيضا: «إنه كان صُلْبا فى الحق، لا تأخذه فيه لومة لائم، محبا فى طلبه العلم، محرضا لهم على طلبه[٢]»، ووصفوه بأنه كان كثير التواضع، يقبل على المساكين والفقراء، فيسألهم عن أحوالهم، ويكثر الصدقة عليهم[٣]. وكان يعاشر الناس بالأخلاق الحسنة، والجانب اللين، ويؤثرهم بما يجد، أنفق فى ذلك ما ورثه عن أبيه، وباع فيه رباعة بسبتة، وأملاكه[٤] ومات مدينا.

وتحدث ابن العماد عن صلته بربه، فقال:

«كان متين الدين، مجتهدًا، كثير الصوم، قوّام الليل، تاليا لجزء من كتاب الله - عز وجل - فى الجزء الأخير من الليل، لم يتركه - ما قدر على تلاوته - فى أية حالة، ملتزما بحدود الشريعة، سُنيا فى عقيدته، شديد التمسك بها إلى حد التعصب»[٥]، ولم يصرفه واجبه الدينى والاجتماعى، عن الواجب العلمى المقدس، فكان دائم الصلة بعلمه، لا يفارق كتبه، يقرأ ويدرس، ويؤلف ويبحث، حتى صار إمام وقته فى الحديث وعلومه، والتفسير وجميع علومه، فقيها أصوليا، بصيرا بالأحكام، عاقدا للشروط، بصيرا حافظا لمذهب الإمام مالك، شديد المحبة له،

---

(١) المعجم ٢٩٤

(٢) التعريف ص ٧

(٣) التعريف ص ٧

(٤) التعريف ص ١٢٨

(٥) شذرات الذهب ٤/١٣٩

ويظهر ذلك من كلامه فى كتبه، من مثل قوله عند الكلام على أن فى استهلال (حديث أم زرع) من الفقه حسن عشرة الرجل مع أهله، حيث قال:

«وقد كان مالك - رضى الله عنه - يقول: «فى ذلك: مرضاة لربك، ومحبة فى أهلك، ومثراة فى مالك، ومنسأة فى أجلك». وقد بلغنى ذلك عن بعض أصحاب النبى - ﷺ، وكان مالك - رحمه الله - من أحسن الناس خُلقا مع أهله وولده، وكان يحدث يقول: يجب على الإنسان أن يتحبب إلى أهل داره، حتى يكون أحب الناس إليهم[1].

وقد استوقفنى المنحى الزهدى عنده، إذ برز بشكل واضح من خلال الروايات والأخبار عن الزهّاد، ومن أشعاره. على أن الزهد عند القاضى عياض، لا يخرج عن مفهوم أهل السنة ونظرتهم، وقد عرف كبار الصحابة والتابعين بزهدهم، اقتداء برسول الله - ﷺ - ونقول القاضى عياض فى ذلك لا تخرج عن هذا الإطار.

ولقد كان لتمسك القاضى عياض بعقيدة أهل السنة والجماعة، سببا فى تعرضه فى أخريات حياته لمحنة قاسية أتت عليه.

لقد تطورت الأحداث فى أخريات حياته - كما رأينا - وأرغمته على أن يخوض غمارها، هو ومن معه من العلماء.

لقد كانت هناك مقررات سُنّية عقدية، لا سبيل مطلقا إلى التخلى عنها، آمن بها أهل المغرب، وتمسكوا بها، ولم يحيدوا عنها قيد أنملة، ووقف العلماء المغاربة يجاهدون ويدافعون بكل نفس ونفيس عن هذه العقيدة السلفية، بكل ما كان لديهم من وسائل.

فالعقيدة السنية تقرر فيما تقرر.. «أن لا عصمة لأحد من الناس غير الأنبياء». أضف إلى قضية العصمة ما كانت تستلزمه من مظاهر التشيع.

ولقد كان الدافع إلى إثارة هذه الموضوعات وإعلانها، ما جاء فى كتاب «إحياء

---

(١) بغية الرائد ص ٣٢

علوم الدين» للغزالى، من مباحث تعارض ما عليه أهل السنة. فهذا الكتاب وقف منه علماء المغرب بالمرصاد، ويهرجوا ما فيه من علم، ونقدوا ما جاء فيه نقدًا مرا.

ويمكن حصر المباحث التى وردت فيه، ورفضتها الأوساط الدينية والفكرية فى المغرب، فى نقطتين:

الأولى: ذلك الموقف السلبى الخطير، الذى يقفه الغزالى فى كتاب الإحياء وغيره، من الاشتغال بالعلوم الإسلامية.

والثانية: ما عرض للبحث فيه من علوم المكاشفة، وما بناه عليها من نتائج وأحكام.

وآمن القاضى عياض بما آمن به أهل السنة فى المغرب، وكان شديد التمسك بما آمن به، خاصة بعد أن قرأ على «محمد بن عبد العزيز التغلبى» (ت سنة ٥٠٨ هـ) ردوده على الغزالى[١]. كما كان على علم بموقف المازرى - شيخه - من كتاب إحياء علوم الدين، فكان للقاضى عياض من هذا جميعه موقفه، ورأيه فى كتب الغزالى وآرائه، وهو موقف مماثل لما رآه شيوخه ومعاصروه.

كان القاضى عياض يرى - أن الغزالى لو اختصر كتابه، واقتصر فيه على العلم الخالص - وهذه عبارته - لكان كتابا مفيدا[٢] وغير الخالص من العلم - فى كتاب الإحياء - فيما يعنى القاضى عياض، هو علم المكاشفة.

وذكرابن العماد الحنبلى[٣]، والشعرانى[٤].. أن القاضى عياضا كان يرى أن كتاب الإحياء يجب أن يُحْرَق، وليس غريبا ما ذكره ابن العماد عنه، فللقاضى عياض - فى كتابه الشفا، حكم على أبى حامد الغزالى فى غاية القسوة[٥].

---

(١) الغنية ص ٢٥.
(٢) التعريف ص ١٢١
(٣) شذرات الذهب ١٣٩/٤
(٤) طبقات الشعرانى ١٥/١
(٥) الشفا ٢٨١/٢

* أما موضوع العصمة، فكان للرجل أيضا موقفه منها، تلك الدعوى التى وصف المهدى.. حاكم المغرب - بها نفسه. فقد جاء مهدى الموحّدين - بآراء ومعتقدات، صدمت أهل المغرب فى أقدس ما لديهم، وهى العقيدة السنية، حيث سماهم المجسّمين الكافرين، وقاتلهم قتال كفر، وحصر التوحيد فى أصحابه وأتباعه[١] فقط، وأقام حركته على دعامتين:

الأولى : عصمة الإمام، وكان هو الإمام

والثانية: علمه بالمغيبات.

أما علمه بالمغيبات، فقد استفاده من كتاب الجَفْر، الذى يتضمن علوم أهل البيت.

وأما عصمة الإمام، فهى تعنى عند الإمامية، وعنهم ينقل ابن تومرت - أن الإمام لايجوز أن تصدر عنه معصية صغيرة، ولايجوز أن يحصل منه سهو فى الدين، ولايجوز أن ينسى شيئا من الأحكام[٢].

ومن كرامات الإمام عندهم، أنه يعرف ضمائر الناس، وأنه يعرف ما يكون قبل كونه[٣].

وموقف العقيدة السنية، من عصمة الأئمة، معروف، وهو أنها لا تقبَل عصمة أحد من الناس غير الأنبياء، كما أنها ترفض وصف الأئمة بأنهم عالمو الغيب، وما تكنّه ضمائر الناس، أو تخفيه الصدور.

ولقد كان تعرض الغزالى لعلوم المكاشفة، وإفاضته فيها، واعتماده عليها، من الأسباب التى حدت بعلماء المغرب أن يقفوا منه، ومن كتاب الاحياء موقفهم العدائى المعروف. ومن أجل هذا أيضا، كان موقف القاضى عياض ورأيه، الذى رآه فى الغزالى وفى كتبه.

---

(١) ابن خلدون: العبر ٢٢٦/٦ - ٢٢٩، ٢٦٦/٦
(٢) أوائل المقالات ٣٦
(٣) أوائل المقالات ٣٧

ومن السهل الآن، أن يفهم الدارس، لماذا قاوم المغاربة فى كل مكان دعوة الموحدين، ثم لماذا ثارت سبتة، بزعامة القاضى عياض، وكررت العصيان فى وجه نظام الموحدين، منذ سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة (٥٤٣ هـ).

ومن المهم أن تعلم، أن القاضى عياضًا لم يتنازل قط عن عقيدته السنّية، وما كان الظن به أن يفعل. وأن الموحدين لم يسامحوه قط، ولذلك غرّبوه عن بلده سبتة إلى مراكش، فجزع الرجل لفراقها جزعا شديدًا.

ولم يقف الأمر عند حد التغريب والنفى، بل نغصوا عليه أواخر حياته إلى أن لقى ربه بمراكش، فى سابع جمادى الآخرة، أو فى رمضان من سنة أربع وأربعين وخمسمائة (٥٤٤هـ)، ودفن - رحمه الله - بباب إيلان داخل المدينة[١].

ولقد وردت أخبار عديدة عن موته..

فقد ذكر ابن خلدون[٢] أن القاضى عياض لما تولى، كبر دفاع عبد المؤمن عن سبتة، وكان رئيسها يومئذ بدينه، وأبوته، ومنصبه، وسخطته الدولة آخر الأيام، حتى مات مغربا عن سبتة بتادلا، مستعملا فى خطة القضاء بالبادية.

بيد أن هذا القول يدفعه قول أبى عبدالله بن القاضى عياض، فقد قال:[٣]

«إن أباه نهض لمراكش من سبتة، فى اليوم الخامس والعشرين من جمادى الثانى، عام ثلاثة وأربعين وخمسمائة (٥٤٣ هـ) فاجتمع فيها بعبد المؤمن، وأمره بلزومه محله إلى أن خرج عبد المؤمن لغزو دكالة، فخرج بصحبته، فمرض بعد مسيرة مرحلة، فأذن له فى الرجوع، فرجع إلى حضرة مراكش، فأقام بها مريضا نحوا من ثمانية أيام، ثم مات ليلة الجمعة نصف الليل، التاسع من جمادى الآخرة عام أربعة وأربعين وخمسمائة (٥٤٤ هـ)، ودفن بها فى باب إيلان دخل السور.

والظاهر أن كلام أبى عبدالله هذا ذكره تحت ضغوط معينة، خاصة وأن هناك أخبارًا كثيرة تقول إن الرجل قتل مسموما، سمّه يهودى[٤].

---

(١) الديباج ص ١٦٨
(٢) العبر ٢٣٠/٦
(٣) التعريف ١٣١
(٤) الديباج ١٦٨

فتذكر المصادر أن الذين دفنوا القاضى عياضا - رحمه الله - كانوا فئتين من الناس: حكام دولة الموحدين، وسادتهم وأتباعهم، وأمة المغرب، وشعور الفئتين نحوه مختلف متباعد.

* أما حكام الموحدين، فحكت أقاصيصهم، أن الغزالى بلغه رأى القاضى عياض فى كتبه، فدعا عليه، فمات فجأة فى الحمام يوم الدعاء عليه[١]. وحكت أيضا أن المهدى هو الذى أمر بقتله سرًّا، بعد أن ادعى عليه أهل بلده بأنه يهودى، لأنه كان لا يخرج يوم السبت، فقتله المهدى لأجل دعوة الغزالى[٢].

* وأما الأمة المغربية، فكانت أصابعها تشير إلى الموحدين، تتّهمهم وتقول: «سُمَّ ابن العربى، وخُنِق اليحصبى»[٣]، وكانت تقول وهى تودعه: هذا فى الشهداء، سمّه يهودى[٤].

قال أبو الحسن بن هارون الملقى، فيه[٥]:

ظَلَمُوا عياضًا وهو يَحْلُم عنهم ... والظُّلم بين العالمين قديمُ
جعلوا مكان الراء عَيْنًا فى اسمه ... كى يكتموه فإنه معلومُ
لولاه ماناحت أباطحُ سِبْتَة ... والروض حولَ فنائها معدومُ

(١) طبقات الشعرانى ١٥/١
(٢) فهرس الفهارس ١٨٥/٢
(٣) المرقبة العليا ٩٥
(٤) الديباج ١٧٢
(٥) ابن خلكان ١٥٣/٥

الفصل الخامس

مؤلفاته ومصنفاته

كانت حياة القاضى عياض موزعة بين القضاء، والتأليف[1]، والتدريس، على الرغم من أن أعباء القضاء كانت تأخذ وقتا كبيرا فى حياته، إلا أنه ترك عددا كبيرا من المؤلفات والمصنفات، مستغلا فى كتابتها الأوقات القليلة، التى كان يخلو فيها إلى نفسه، ولعله أفاد كثيرا من تلك الفترة التى ترك فيها القضاء، والتى تمتد من سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، إلى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة للهجرة.

وقد أصاب كتب القاضى عياض ما أصاب حياته من اضطراب وقلق، ونتج عن ذلك فَقْد عدد كبير منها، كما وقع اختلاف فى تحديدها، وتحديد أسماء بعضها، فهى (١٩) تسعة عشر كتابا عند ابنه فى التعريف[2]، وهى فوق الثلاثين عند ابن تاويت الطنجى.

وصل إلينا بعضها، ولكن أكثرها سقط من يد الزمن، فلم يبق إلا اسمه[3].

والباحث المدقق فى هذه المؤلفات والمصنفات، يجد أنها تدور فى عدة مجالات:

مجال الحديث، ومجال الفقه، ومجال السيرة النبوية، ومجال التاريخ، ومجال الأدب وغير ذلك من الأغراض والموضوعات[4].

---

(١) لم ينقطع القاضى عياض عن التقييد حتى فى أحلك الظروف، ففى الغُنية، نجده يذكر عبد الله ابن احمد بن خلوف الأزدى، المعروف بابن شبونة، وقد توفى سنة ٥٣٧ هـ (الغنية ٨٥) وعبدالله بن محمد النفزى، وقد توفى سنة ٥٣٨ هـ (الغنية ٨٧) وأبا بكر ابن العربى وقد توفى سنة ٥٤٣ هـ

(٢) التعريف ص ١١٦، وهو المعتمد، خصوصا وأنه مؤلف بعد وفاته.

(٣) مقدمة ترتيب المدارك، الجزء الأول، الصفحات من كا إلى كز

(٤) انظر ثبت مؤلفاته فى: أزهار الرياض ٢٣/١ - ٢٩، بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس رقم ٢٩٦، والمعجم لابن الأبار رقم ٢٧٩، الصلة رقم ٩٧٢، جذوة الاقتباس ص ٢٧٧، الإحاطة فى أخبار غرناطة ١٨٣/١، وانظر ثبت مؤلفاته فى مقدمة ترتيب المدارك ج ١ ص كا.

أولا: كتب الحديث

كان القاضى عياض - كما ذكرنا - إمام وقته فى الحديث وعلومه، وجمع من الحديث كثيرًا، وكان له عناية كثيرة به، مهتما بجمعه وتقييده. من ذلك كتبه:

١ - إكمال المعلم بفوائد مسلم:

وهو شرح على صحيح الامام مسلم بن الحجّاج، كمّل به شرح أبى عبدالله محمد بن على المازرى، المسمى المعلم بفوائد مسلم[١]. وقد ذكره القاضى عياض فى أول كتابه مشارق الأنوار ج ١ ص ٧[٢].

يقول القاضى عياض فى مقدمته:[٣] «إن طلبة العلم الذين اجتمعوا لديه، رغبوا إليه فى التفقه فى صحيح الإمام مسلم، والوقوف على معانى أخباره، والبحث عن أغواره، والكشف عن أسراره، وبيان غامضه ومشكله، وتقييد مبهمه ومهمله، والتنبيه على ما وقع من اختلال لبعض رواته فى أسانيده ومتونه، والبسط لما فى مقدمته من أصول علم الأثر وفنونه...

- وإنه رغب فى إجابتهم إلى ما التمسوه، وتحقيق ما أملوه، لأنه لم يؤلف فى شرح صحيح مسلم الا ما ذكره أبو على الجيانى فى تقييد المهمل، من الكلام على مشكل أسانيده، مع المشكل من أسانيد صحيح البخارى، وإلا كتاب المازرى، المسمى بالمعلم، وقد أودعه جملة صالحة من كلام الجيانى على أسانيده»

* ثم قال القاضى عياض: «وكلا الكتابين نهاية فى فنه، بالغ فى بابه، مودع من فنون المعارف وفوائدها، وغرائب علوم الأثر وشواهدها، وكل واحد من

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان ١٥٢/٥

(٢) كما ذكره ابن خير فى فهرست ما رواه عن شيوخه ١٩٦، ٤٩٤، ورواه عن مؤلفه. وذكره ابنه فى التعريف بأبيه ص ١٣٢، والاحاطة ١٨٣/١ وقدره كابنه بتسعة وعشرين جزءا، وانظر كشف الظنون ١٤٥/١، ٥٥٧/١، والوفيات ٤٩٦/١، وهدية العارفين ٨٠٥/١.

(٣) نقلا عن مقدمة كتاب الإلماع، تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر ص ١٤.

الكتابين أجازه لنا مؤلفه، أعظم الله بذلك أجورهما، وأشرق بما سعيا فيه بين أيديهما وبأيمانهما - نورهما..

لكن الإحاطة على البشر ممتنعة، ومسارح الأذهان والألباب للبحث متسعة، وكثيرا ما وقعنا فى الكتاب المذكور على أحاديث مشكلة، لم يقع لها هناك تفسير، وفصول محتملة تحتاج معانيها إلى تحقيق وتقدير، ونكت مجملة لابد لها من تفصيل وتحرير، وألفاظ مهملة تضطر إلى الإتقان والتقييد، وكلمات غيّرها النَّقَلة من حقها أن يخرج صوابها إلى الوجود..

وعند الوقوف على ما أودعناه هذا التعليق، وضمناه الكتاب الآخر، الذى بين أيدينا المسمى «بمشارق الأنوار على صحاح الآثار» تقف على مقدار ما أشرنا إليه، وكثرة ما أغفل الكلام فى الكتابين من الفنّين عليه، والعذر بيِّن:

فإن «كتاب المعلم» لم يكن استجمع له مؤلفه، وإنما هو تعليق على ما يضبطه الطلبة، من مجالسه وتتلقفه. وكذلك «كتاب تقييد المهمل» حال بين الشيخ فيه، وبين استيفاء غرضه، ما دهمه من مدمن مرضه، فكثرت الرغبات فى تعليق لما يمضى من تلك الزيادات والتنبيهات، يضم نشرها ويجمع، والقواطع عن الإجابة تقطع، وشغل المحنة التى طوقت عنق الإنسان تمنع، والرجا لوقت فراغ من ذلك يسوف ويطمع، إلى أن مَنّ الله بإحسانه، بحل تلك القلادة وزوالها، وفرغ البال من عهدها القادحة وأشغالها، فتوجّه الأمر، وانقطع العذر، وانبتت همة العبد الفقير، بعونة مولاه وتوفيقه - إلى الإجابة، راغبة لمولاه جل اسمه، فى المعونة وتوخى الإصابة.

ثم ترددت فى عمله، ورأيت أن إفراد كتاب لذلك يقتطع عن الكتاب المعلّم وما ضمه، غير موف بالغرض، وأن تأليف كتاب جامع لشرحه لا معنى له، مع ما تقرر فى «المعلم» من فوائد جمة لا تضاهى، ونكت متقنة، وقف عندها حسن التأليف وتناهى، فيأتى الكلام فى ذلك ثانية غير مفاد، أو كالحديث المعاد..

فاستتب الرأى بعد استخارة الله تعالى، وسلوك سبيل العدل والإنصاف، أن يكون ما نذكر من ذلك كالتذليل لتمام كلامه، فنبدأ بما قاله، رضى الله عنه،

ونضيف إليه ما استتب وتوالى، فإذا حصلت زيادة فصلناها بالإضافة إلينا إلى أن تنتهى منتهاها، ثم عطفنا على سَوْق ما يأتى من قوله، ويتطارد الكلام هكذا بيّنا قويا بقوة الله وحوله.

– وكان فى «المعلم» تقديم وتأخير عن ترتيب كتاب مسلم، فسقناه مساق الأَصل، ونظمنا فصوله على الولاء فصلا بعد فصل.

.. وأنا أبرأ لقارئه من التعاطى لما لم أحط به علما، والإغفال عما لا ينفك عنه البشر سهوا ووهما، وأرغب لمن حقق فيه خللا أن يصلحه، أو وجد فيه مغفلا أن يبينه ويوضحه، أو رأى فيه متأولا أن يحسن تأويله، وألفى فيه محتملا أن يوضح دليله.

– وقد اخترت للكتاب سمة على وفقه، تشهد بالإنصاف والاعتراف لذى السبق بسبقه، ووسمته بكتاب «إكمال المعلم»، وتحريت فيه جهدى الصواب بفضل المنعم، وأودعته من الغرائب والعجائب ما يعرف قدره كل مفتن بها مهتم، ومن الحقائق والدقائق ما يبين كل مبهم، ويسير مع كل منجد ومتهم. وإلى الله أرغب أن يجعلنا ممن انتفع بما علّم، وهدى إلى الصراط المستقيم وألهم.

ولقد تركنا كثيرا مما تعلق بعلم الإسناد، مما لم يذكره الشيخ الحافظ أبو على، أو ذكره ولم يذكره الإمام أبو عبدالله، إذ غالب ما ذكر فى هذا الكتاب مما فى كتاب الحافظ أبى على، ولم نتتبعه لاستقصائه فى الكتاب الآخر، لكنا ذكرنا من العلل طرفا مما لم يقع فى كتاب الحافظ أبى على، مما هو من شرطه، أو تركه عن قصد مما ذكره الإمام أبو الحسن الدار قطنى، فى كتابه المسمى «بالتتبع والاستدراكات على البخارى ومسلم» ، إذ لم يكن غرض الحافظ أبى على – فى الغالب – إلا ذكر ما لم يذكره.

ولولا ذكر الإمام أبى عبدالله لأطراف مما ذكره الحافظ أبو على من ذلك، لتركنا الكلام على هذا الفن فى هذا التعليق جملة، إذ هو باب واسع، والتصانيف فيه كثيرة موجودة، ولاقتصرنا على الشرح والمعانى، دون العلل والأسامى.

٢ - الإلماع فى ضبط الرواية وتقييد السماع:

وهو الكتاب الوحيد الذى ألفه القاضى عياض فى علوم الحديث[١] وهو أحد الكتب التى كثر اعتماد المتكلمين فى مصطلح الحديث عليها، وقد وصلنا هذا الكتاب النفيس، ونشر بتحقيق الأستاذ السيد صقر، فى دار التراث بمصر سنة ١٩٧٠ م

وقد ذكر فى مقدمته: أن راغبا رغب إليه فى تلخيص فصول فى معرفة الضبط وتقييد السماع والرواية، وتبيين أنواعها، وما يصح وما يتزيف، وما يتفق من وجوهها وما يختلف. فأجابه إلى طلبه، لأنه: «لم يعتن أحد بالفصل، الذى رغبته كما يجب، ولا وقفت فيه على تصنيف يجد فيه الراغب ما رغب، وجمعت فى ذلك نكتا غريبة من مقدمات علم الأثر وأصوله، وقدمت بين يدى ذلك كله أبوابا مختصرة فى عظم شأن علم الحديث، وشرف أهله، ووجوب السماع والأداء له ونقله، والأمر بالضبط والوعى والاتقان، وختمته بباب فى أحاديث غريبة، ونكت مفيدة عجيبة، من آداب المحدثين وسيرهم، وشوارد من أقاصيصهم وخبرهم[٢].

* وغنى عن البيان أن قول القاضى عياض: «إنه لم يقف فى هذا العلم على تصنيف» - ليس على إطلاقه، بل مقصور على أهل المغرب، فهم الذين ليس لهم تأليف فى علوم الحديث قبل كتابه. أما أهل المشرق، فلهم فيه تآليف كثيرة، قد أشار إليها فى مقدمته حيث يقول:

«فأول فصوله: معرفة أدب الطلب والأخذ والسماع، ثم معرفة علم ذلك ووجوهه، وعمن يؤخذ، ثم الاتقان والتقييد، ثم الحفظ والوعى، ثم التمييز والنقد بمعرفة صحيحه من سقيمه، وحسنه ومقبوله، ومتروكه وموضوعه، واختلاف روايته

---

(١) التعريف ص ١٣٣، بغية الملتمس ٤٢٥، والاحاطة ١٨٣/١، وكشف الظنون ١٥٨/١، وهدية العارفين ٨٠٥/١، وتاريخ الفكر الأندلسى ٣٩٧.

(٢) المقدمة ص ٥.

وعلله، وميز مسنده ومرسله، وموقوفه من موصوله، ثم معرفة طبقات رجاله من الثقة والحفظ، والعدالة والجرح، والضعف والجهالة، والتقدم والتأخر، ثم ميز زيادات الحفاظ وغيرهم فيه، وفصل المدرج أثناءه من أقوال ناقليه، ثم معرفة غريب متونه وتفسير ألفاظه، ثم معرفة ناسخه من منسوخه، ومفسره من مجمله، ومتعارضه ومشكله، ثم التفقه فيه، واستخراج الحكم والأحكام من نصوصه ومعانيه، ثم النشر وآدابه، وكل فصل من هذه الفصول علم قائم بنفسه، وفى كل منها تصانيف عديدة وتآليف جمة مفيدة[١].

ولو لم يقل القاضى عياض ذلك - لما كان هناك مندوحة عن تفسير قوله بأنه لم يجد بين مصنفات المغاربة مصنفا فى علوم الحديث، لأنه قد جمع مواد كتابه من كتب المشارقة، ولاسيما المحدث الفاصل للرامهر مزى، ومعرفة علوم الحديث للحاكم، والكفاية فى قوانين الرواية، والجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع وغيرهما من كتب الخطيب البغدادى.

وقد ذكر فى كتاب الغنية، الذى ترجم فيه لمائة شيخ ممن أخذ عنهم رواية أو إجازة، أنه روى تلك الكتب وغيرها من كتب المشارقة فى علوم الحديث[٢].

* والناظر فى كتاب الإلماع، يجد أن القاضى عياض بدأه بباب، تحدث فيه عن وجوب طلب الحديث، وإتقانه وضبطه، وحفظه ووعيه[٣]، أورد فيه طائفة من الأحاديث الدالة على وجوبه، والرحلة فى طلبه، ووجوب تبليغه والتحذير من الكذب والافتراء فيه، ثم ثنى بباب فى شرف الحديث وأهله[٤]. وذكر فيه من الأحاديث والآثار والأشعار ما طاب له إيراده، دون تمحيص أو تدقيق، وهو أضعف فصول الكتاب. ويتضح هذا الضعف - فى تصديره الباب بحديث «اللهم ارحم خلفائى» وهو حديث موضوع. وإيراده حديث «من حفظ على أمتى أربعين حديثا» وهو حديث ضعيف من جميع طرقه.

---

(١) المقدمة ص٤، ٥.
(٢) السيد أحمد صقر، مقدمة الإلماع ص٢٢.
(٣) كتاب الإلماع ص ٦.
(٤) كتاب الإلماع ص ١٧.

- ونقل فيه حديث أبي سعيد الخدرى من طريق ضعيف، وترك طريقه الصحيح.

- وذكر خبرا طويلا عن البخارى (٢٩ - ٣٤) يقول فيه:

«إن الرجل لا يصير محدثا إلّا بعد أن يكتب أربعا مع أربع، كأربع مثل أربع، فى أربع عند أربع، بأربع على أربع، عن أربع لأربع»

وكل هذه الرباعيات لا تتم له إلا بأربع مع أربع، فإذا تمت له كلها هان عليه أربع، وابتلى بأربع، فإذا صبر على ذلك أكرمه الله فى الدنيا بأربع، وأثابه فى الآخرة بأربع»

وهو خبر مكذوب على البخارى يحمل فى أطوائه دلائل افترائه.[١]

* ثم عقد بابا تحدث فيه عن آداب طالب السماع[٢]، وما يجب أن يتخلّق به، بدأه بحديث يروى عن ابن عباس، أن رسول الله قال: «اعتموا تزدادوا حِلمًا».

وهو حديث لا يصح له طريق، وذكر فيه أيضا حديث: «اطلبوا الحديث يوم الاثنين والخميس، وهو حديث باطل.

وذكر فيه آثارًا صحيحة عن الشافعى ومالك ومجاهد، ولكنه ذكر أثرًا عن على ابن أبي طالب يقول فيه: «إن من حق العالم أن لا تكثر عليه السؤال، ولا تعنته فى الجواب، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض.. إلخ.»

ولست أرتاب فى أن هذا الكلام لم يدر بخلد علىّ - كرم الله وجهه، وعذر عياض فى ذكره أنه مسطور فى «جامع بيان العلم» لابن عبد البر، وفى الفقيه والمتفقه، والجامع للخطيب البغدادى.

* وأعقب هذا الباب، بباب موجز جيد عما يلزم من إخلاص النية فى طلب الحديث وانتقاد من يؤخذ عنه[٣].

---

(١) السيد احمد صقر - مقدمة الإلماع ٢٣.

(٢) كتاب الإلماع ص ٤٥.

(٣) كتاب الإلماع ص ٥٤.

* وأردفه بباب «متى يستحب سماع الطالب، ومتى يصح سماع الصغير»[1] لخّص فيه ما قاله الخطيب وابن خلاد، ولكنه ذكر فيه حديثا رفعه اسماعيل ابن رافع، ونصه: «من تعلم علما وهو شاب كان كوشم فى حجر، ومن تعلم بعد ما يدخل فى السن، كان ككاتب على ظهر الماء» وأعقبه بقوله: «وقد رفع هذا الحديث محمد بن عجلان، عن سعيد ابن أبى سعيد، عن أبى هريرة: أن رسول الله - ﷺ، قال: «من تعلم العلم وهو شاب كان كوشم فى حجر» وذكر بقية الحديث. وهو حديث موضوع لا يصح عن رسول الله[2].

* ويأتى بعد ذلك باب الأبواب فى الكتاب، وهو الخاص بأنواع الأخذ وأصول الرواية[3] وهى ثمانية ضروب:

أولها : السماع من لفظ الشيخ.
وثانيها : القراءة عليه.
وثالثها : المناولة.
ورابعها : الكتابة.
وخامسها: الإجازة.
وسادسها: الإعلام للطالب بأن هذه الكتب روايته.
وسابعها : وصيته بكتبه له.
وثامنها : الوقوف على خط الراوى فقط.

وقد فصل القول على هذه الضروب ضربا ضربا، وبين أقسامها، وماز صحيحها من سقيمها فأجاد وأفاد. وضم فيه إلى أقوال المشارقة، أقوال المغاربة، والأندلسيين، التى تلقفها من الشفاه، أو اجتناها من المصنفات.

ولقد بلغ القاضى عياض ذروة الكمال، فى حديثه عن الضرب الخامس، الخاص بالإجازة. واستوفى الكلام على وجوهها الستة، ونقل فى تضاعيف كلامه

---

(١) كتاب الالماع ص ٦٢.
(٢) السيد احمد صقر - المقدمة ص ٢٤.
(٣) كتاب الالماع ص ٦٨.

نصوصا قيمة من كتب أهل الفقه، ومن غيرهم..

ومما يزيد من قيمة هذه النصوص أن الكتب التى نقل منها مفقودة، والقليل الموجود منها مازال مخطوطا، كنقله من كتاب الوجازة لأبى العباس الغمرى المالكى، وكتاب أبى مروان الطبنى، والبرهان لأبى المعالى الجوينى، وأبى الطيب الطبرى، وأبى الحسن الماوردى، وأبى الوليد الباجى.

وهو عندما يذكر الأقوال يبين أوجه الوفاق والخلاف بينها، ويصطفى منها ويرد بالحجة والبرهان.

وقد أحسّ عياض بتفوقه فى شرحه لهذا الضرب من ضروب الرواية، فقال فى ختام كلامه عنها: «وقد تقصّينا وجوه الإجازة بما لم نُسبق إليه، وجمعنا فيه تفاريق المجموعات والمسموعات، والمشافهات والمستنبطات، بحول الله وعونه» وصدق فيما قال.

* ثم عقد بابا «فى العبارة عن النقل بوجوه السماع، والأخذ والمتفق فى ذلك والمختلف فيه، والمختار منه عند المحققين، وعند المحدثين[1].

وهو فصل جيد برزت فيه شخصيته، ودقته فى النقل والتلخيص.

* ثم أعقبه بباب «فى تحقيق التقييد والضبط والسماع، ومن سهل فى ذلك وشدد»[2].

* وأعقبه بباب «فى التقييد بالكتاب والمقابلة والشكل والنقط والضبط»[3].

وقد وفق فى عرض هذين البابين توفيقا كبيرًا.

* ثم عقد بابا «عن التخريج والإلحاق والنقص»[4]. يقول فى بدايته: «أما تخريج الملحقات لما سقط من الأصول، فأحسن وجوهها ما استمر عليه العمل «عندنا» من كتابة خط بموضع النقص صاعدًا إلى تحت السطر الذى

---

(١) كتاب الإلماع ص ١٢٢.

(٢) كتاب الإلماع ص ١٣٣.

(٣) كتاب الإلماع ص ١٤٦.

(٤) كتاب الإلماع ص ١٦٢.

فوقه.. واختار بعض أهل الصنعة من «أهل أفقنا» وهو اختيار القاضى أبى محمد ابن خلاد» من أهل المشرق، ومن وافقه على ذلك، أن يكتب فى آخر اللحق الكلمة المتصلة به من الأم ليدل على انتظام الكلام.

ولقد أفادنا القاضى عياض - فى هذا الباب - أن الحكم المستنصر بالله، كان فى قصره «بيت للمقابلة والنسخ»، ثم ذكر فيه من شعره أبياتا مطلعها:

خيرُ مايقتنى اللبيبُ كتابٌ   محكم النَّقْل مُتْقَنُ التقييدِ
خطه عارفٌ نبيل وعاناه   فصَحّ التبييض بالتسويدِ
لم يخنْه إتقانُ نَقْطٍ وشكلٍ   لا ولا عابَهُ لحاق المزيدِ

* ثم تحدث عن التصحيح والتمريض والتضبيب[1]، والضرب والحك والشق والمحو[2] واختلاف العلماء فى الحرف المتكرر أيها أولى بالضرب، ثم قال: وأرى «أنا»... «وهذا عندى»[3].

* ثم ذكر بابا فى تحرى الرواية والمجىء باللفظ، ومن رخص من العلماء فى المعنى ومن منع[4]. ولما تحدث فيه عن اختلاف العلماء فى ذكر بعض الحديث، لاستخراج نكته لا تعلق لها ببقيته، قال: وقد تقصّينا الكلام فى هذا فى كتاب «الإكمال لشرح كتاب مسلم بن الحجاج فى الصحيح»[5].

* وعقد بعد ذلك بابا فى إصلاح الخطأ وتقويم اللحن، واختلاف العلماء فى ذلك[6]، يقول فيه:

«الذى استمر عليه عمل أكثر الأشياخ، نقل الرواية كما وصلت إليهم وسمعوها، ولا يغيرونها من كتبهم حتى اطردوا ذلك فى كلمات من القرآن استمرت الرواية فى الكتب عليها بخلاف التلاوة المجمع عليها، ولم يجىء فى الشاذ من ذلك فى الموطأ والصحيحين وغيرها حماية للباب، لكن أهل المعرفة منهم

---

(١) كتاب الإلماع ص ١٦٦.
(٢) كتاب الالماع ص ١٧٠.
(٣) كتاب الإلماع ص ١٧٢.
(٤) كتاب الإلماع ص ١٧٤.
(٥) كتاب الالماع ص ١٨١.
(٦) كتاب الالماع ص ١٨٣.

ينبهون على خطئها عند السماع والقراءة، وفى حواشى الكتب، ويقرءون ما فى الأصول على ما بلغهم»[١].

ومنهم من يجسر على الإصلاح، وكان أجرأهم على هذا من المتأخرين القاضى أبو الوليد هشام بن أحمد الكنانى الوقشى، فإنه لكثرة مطالعته وتفننه، كان فى الأدب واللغة وأخبار الناس، وأسماء الرجال وأنسابهم، وثقوب فهمه، وحدة ذهنه - جسر على الإصلاح كثيرا، وربما نبّه على وجه الصواب، لكنه ربما وهم فى أشياء، وتحكم فيها بما ظهر له، أو بما رآه فى حديث آخر، وربما كان الذى أصلحه صوابا، وربما غلط فيه، وأصلح الصواب بالخطأ.

«ثم عرض لكتاب إصلاح خطأ المحدثين للخطابى[٢]، فقال: وقد نبه أبو سليمان الخطابى على ألفاظ من هذا فى جزء أيضا، لكن أكثر ما ذكره مما أنكره على المحدثين له وجوه صحيحه فى العربية، وعلى لغات منقولة، واستمرت الرواية به، وليس الرأى فى هذا واحدًا».

وما ذكره القاضى عياض، عن أكثر ما فى كتاب الخطابى غير مسلم، ولكن رده يحتاج إلى ما لا سبيل إليه فى هذا المقام.

* ثم عقد بابا «فى ضبط اختلاف الروايات والعمل فى ذلك»[٣]. يرى فيه أن «هذا مما يُضطر إلى إتقانه ومعرفته وتمييزه، وإلا تسودت الصحف، واختلطت الروايات، ولم يحل صاحبها بطائل، وأولى ذلك أن يكون الآمّ على رواية مختصة، ثم ما كانت من زيادة الأخرى ألحقت، أو من نقص أعلم عليها، أو من خلاف خرّج فى الحواشى، وأعلم على ذلك كله بعلامة صاحبه من اسمه، أو حرف منه للاختصار لاسيما مع كثرة الخلاف والعلامات، وإن اقتصر على أن تكون الرواية الملحقة بالحمرة...

ولا يغفل المهتبل بهذا عند كثرة العلامات، واختلاف الروايات تقييد ذلك

---

(١) كتاب الإلماع ص ١٨٦.
(٢) كتاب الإلماع ص ١٨٨.
(٣) كتاب الإلماع ص ١٨٩.

أول دفتره، أو على ظهر جزئه، أو آخره، والتعريف بكل علامة لمن هذه، لئلا ينسى وضع تلك العلامات مع طول الزمن، وكبر السن، واختلال الذكر، فتختلط عليه روايته، ويشكل عليه ضبطه. ومن الصواب ألا يتساهل الناظر ذلك ولا يهمله، فربما احتاج إلى تخريج حديث، أو تصنيف كتاب، فلا يأتى به على رواية من يسنده إليه، إن لم يهتبل بذلك، فيكون من جملة أصناف الكاذبين»[١]

وهذا كلام جيد يصلح أن يكون أساسًا للنشر والتحقيق[٢].

- ثم يقول: «والناس مختلفون فى إتقان هذا الباب اختلافا يتباين، ولأهل الأندلس فيه يدٌ ليست لغيرهم، وكان إمام وقتنا فى بلادنا فى هذا الشأن «الحافظ أبو على الجيّانى» شيخنا - رحمه الله - من أتقن الناس بالكتب، وأضبطهم لها، وأقومهم لحروفها، وأفرسهم ببيان مشكل أسانيدها ومتونها، وأعانه على ذلك ما كان عنده من الأدب وإتقانه، ما احتاج إليه من ذلك على شيخه الشيخ «أبى مروان بن سراج اللغوى» آخر أئمة هذا الشأن، وصحبته للحافظ «أبى عمر بن عبد البر»، آخر أئمة الأندلس فى الحديث، وأخذه عنه، وتقييده عليه، وكثرة مطالعته.. وناهيك من إتقانه لكتابه الذى ألفه على مشكل رجال الصحيحين.

ثم يقول: وكان قرينه وكفيه شيخنا «القاضى الشهيد» عارفا بما يجب من ذلك جدا، لكنه لم يهتبل بكتبه اهتباله»

ثم لمز - للمرة الثالثة - أستاذه أبا الوليد هشام الوقشى الكنانى، فقال: «وكان القاضى أبو الوليد الكنانى ممن أتقن وربما تكلف فى الإصلاح والتقويم بعض ما نُعِىَ عليه»[٣].

* ثم عقد القاضى عياض بابا فى «رفع الإسناد فى القراءة والتخريج والعمل فيه»[٤]

---

(١) كتاب الإلماع ص ١٩٢.
(٢) السيد احمد صقر - مقدمته ص ٢٦.
(٣) كتاب الإلماع ص ١٩٣.
(٤) كتاب الإلماع ص ١٩٤.

* أعقبه بباب فى «متى يستحب الجلوس للإسماع، وسنّ المحدِّث ومتى يمتنع»[١].

وقد اعتمد القاضى عياض فى هذا الباب على ابن خلّاد، ونقده فى اختياره سن الخمسين حَدًّا لحسن التحديث، وقال: «وكم من السلف ومن بعدهم من المحدثين، من لم ينته إلى هذا السن، ولا استوفى هذا العمر، ومات قبله، وقد نشر عن الحديث ما لا يحصى، وذكر منهم الكثير، ونقل قول ابن خلاد: فإذا تناهى العمر فأحب أن يمسك فى الثمانين».

وقال: «إن الحدَّ عنده فى ترك التحديث التغير، وخوف الخرف، وإلا فأنس ابن مالك. وغيره من الصحابة والتابعين ومن تلاهم، حدثوا ونيّفوا على هذا العدد، وقارب كثير منهم المائة ونيف عليها»[٢].

وقال القاضى عياض بعد انتهائه من هذا الباب[٣].

«هذه فصول وأبواب انتخبناها فى هذا الكتاب، وأتينا منها بالمحض اللباب، مما يحتاج إليه طالب علم الحديث فى طلبه، ويلتزمه من وظائفه وآدابه، ويضطر إليه فى علم مآخذه ومبادئه، وأتينا فى ذلك من المعقول والمنقول ما يعترف المنصف بالإجابة فيه»

* ثم ختم الكتاب بباب جامع لفوائد من الحديث، وشوارد من سير أهله، ونوادر من الآثار تتعلق بالحديث وعلمه، ومحاسن من آداب المشايخ فى سماع الحديث ونقله، وهو يقع فى ثمان وثلاثين صفحة.

وكان فى إمكان القاضى عياض أن يلحق ما جاء به فى هذا الفصل بأماكنه المناسبة له من الكتاب، ولكنه سار على نهج الإمام مالك بن أنس، فإنه عقد فى آخر الموطأ «كتاب الجامع». جمع فيه كثيرا من الأحاديث التى استغرقت مائة وعشرين صفحة.

---

(١) كتاب الإلماع ص١٩٩.
(٢) كتاب الإلماع ص٢٠١.
(٣) الإلماع ص٢١٢.

* ومن النصوص التى ذكرها القاضى عياض فى الباب الجامع، ذلك النص الذى رواه بسنده عن عبد الله أحمد بن حنبل، أنه قال: «ما رأيت أبى - على حفظه - حدّث من غير كتاب إلاّ أقل من مائة حديث». وهو نص يصحح ما وقر فى أذهان عوام العلماء، من أنه كان يحّدث بأحاديثه كلها من غير كتاب.

* ومن نصوص هذا الباب، ذلك الدعاء، الذى كان يدعو به الحسن البصرى» عندما يريد مفارقة من يحدثهم، وهو:

«اللهم بارك لنا فيما تقلبنا إليه من قول وعمل، ومال وأهل، اللهم اجعلها نعمة مشكورة مشهورة، مبلغة إلى رضوانك والجنة، واجعله متاع إيمان وزاد إيمان»

وآخر ما أورده فى الباب - وكان إيراده مسك الختام - الدعاء الفذّ، الذى كان يختتم به رسول الله - ﷺ - مجلسه، وهو كما رواه ابن عمر:

«اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا، وقوتنا ما أبقيتنا، واجعله اللهم الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا، ولا تجعل الدنيا أكبر همى، ولا مبلغ علمى»

وهو حديث رواه الحاكم فى المستدرك، وقال: إنه صحيح على شرط البخارى، ولم يخرجه وأقره على ذلك الذهبى.

٣ - بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد:

وهذا الكتاب أوفى شروح هذا الحديث، وأغزرها مادة[١].

وقد وصل إلينا هذا الكتاب، ونشر بتحقيق الأساتذة صلاح الدين بن أحمد الأدلبى، ومحمد الحسن أجانف، ومحمد عبد السلام الشرقاوى سنة ١٩٧٥م،

---

(١) ذكره ابنه فى التعريف ص١٣٣، والذهبى فى تذكرة الحفاظ ٩٧/٤، وابن خير فى فهرست مارواه عن شيوخه. ورواه عن مؤلفه ١٩٧، ٤٧٨، وابن خلكان ٤٩٦/١، وكشف الظنون ٢٤٨/١، وهدية العارفين ٨٠٥/١

ضمن مطبوعات مديرية الشئون الاسلامية فى المغرب.

قال ابن حجر: «وقد شرح حديث أم زرع، اسماعيل بن أبى أويس شيخ البخارى، روينا ذلك فى جزء إبراهيم بن ديزيل الحافظ من روايته عنه، وأبو عبيد القاسم بن سلام فى غريب الحديث، وذكر أنه نقل عن عدة من أهل العلم لا يحفظ عددهم، وتعقب عليه فى مواضع أبو سعيد الضرير النيسابورى. وأبو محمد بن قتيبة، كل منهما فى تأليف مفرد، والخطابى فى شرح البخارى، وثابت ابن قاسم، وشرحه أيضا الزبير بن بكار، ثم أحمد بن عبيد بن ناصح، ثم أبو بكر بن الأنبارى، ثم اسحاق الكاذى فى جزء مفرد، وذكر أنه جمعه عن يعقوب بن السِّكيت، وعن أبى عبيدة، وعن غيرهما، ثم أبو القاسم عبد الحكيم ابن حبان المصرى، ثم الزمخشرى فى الفائق، ثم القاضى عياض، وهو أجمعها وأوسعها، وأخذ منه غالب الشراح بعده.»[١].

يقول القاضى عياض فى مقدمته[٢] إنه سئل عن شرح هذا الحديث، وتفسير مشكل معانيه وأغراضه، وفتح مقفل غريبه وألفاظه، فأجاب سائله إلى طلبته.

ثم يقول: «ورأينا أن نبتدئ «بالحديث»، وسياقة متنه، مع اختلاف ألفاظ نَقَلته، وزيادات بعضهم على بعض فى سرده، ثم نذكر بعد ذلك علة إسناده، وشرح غريبه، وعويص إعرابه، ومعانى فصوله، وما يتعلق به من فقه، وينقدح منه من فائدة، ويتجه فيه من وجه يحول الله وقته».

«وطرقنا فى هذا الحديث كثيرة متشعبة، جئنا ببعضها عن أئمة شيوخنا، وبعضهم يزيد على بعض، وفى متن الحديث بينهم اختلافات وزيادات، وتقديم وتأخير، فجئنا بأكملها رواية، وأحسنها سياقة، بعد تقديم أشهر أسانيدنا فيها، إيثارًا للاختصار والائتلاف، واستظهارًا بمن نهج لنا هذه السبيل من قدوة الأسلاف، ونبهنا على مواضع الخلاف فيها مما يفيد فائدة، أو يزيده فقرة شاردة،

---

(١) فتح البارى ١١/١٦٣ - ١٦٤.
(٢) الصفحة رقم ١.

وثَمَّ زيادات من غير الطرق التى ذكرناها، جلبنا بعضها، ونبهنا على ما أمكن منها، والله ولى التوفيق».

* وبعد أن ذكر القاضى عياض طرق الحديث، وما يتعلق بها، ذكر على طريق الإجمال ما فيه من «التعريف» و «العربية» و «الفقه» و «الغريب» فى كلام عائشة - رضى الله عنها - ثم غريب قول الأولى، وما فيه من «العربية»، ثم عقد تنبيها مهما، قال فيه:

«كنت نويت أن أذكر ما فى كلام كل واحدة من هؤلاء النسوة من «أبواب الفصاحة»، وأنبّه على ما فيه من «فنون البلاغة»، وأبين ما اشتمل عليه من «أبواب البديع»، على مذهب أهل هذه الصناعة، فإن كلام هؤلاء النسوة من الكلام العالى الفصيح، الجامع للفظ المختار، والنظم المتناسب المليح، والمعنى الجيد البليغ الصحيح..

- لكنى رأيت أن إفراد الكلام عليه عند شرح قول كل واحدة يطول، لما يتوجه من التكرار والمداخلة فى بعض الفصول، فرأيت أن تأخير ذلك إلى آخر الحديث أولى، ليأتى الكلام عليه دفعة، ويفيض سجلا، جريا إلى ما اشترطته من الاختصار، وكرها لما بسطته من عذر الإكثار.

وقد وفّى القاضى عياض بما وعد «من ذكر ما اشتمل عليه هذا الحديث من ضروب الفصاحة، وفنون البلاغة، والأبواب الملقبة بالبديع فى هذه الصناعة، من لفظ رائق، ومعنى فائق، ونظم متناسب، وتأليف متعاضد متناسق.

وبالجملة[1] فكلام هؤلاء النسوة من الكلام الفصيح الألفاظ، الصحيح الأغراض، البليغ العبارة، البديع الكناية والإشارة، الرفيع التشبيه والاستعارة، وبعضهن أبلغ قولا، وأعلى يدًا، وأكثر طولا، وأمكن قاعدة وأصلا، وكلام بعضهن أكثر رونقا وديباجة، وأرق حاشية وأحلى مجاجة، وبعضهن أصدق فى الفصاحة لهجة. وأوضح فى البيان محجة، وأبلغ فى البلاغة والإيجاز حجة».

---

(١) بغية الرائد ص١٨٦.

- فأنت إذا تأملت كلام أم زرع، وجدته - مع كثرة فصوله، وقلة فضوله - مختار الكلمات، واضح السمات، بين القسمات، قد قدرت ألفاظه قيس معانيه، وقررت قواعده، وشيدت مبانيه، وجعلت لبعضه فى البلاغة موضعا، وأودعته من البديع بدعا.

- وإذا لمحت كلام التاسعة، صاحبة العماد والنجاد والرماد، ألفيتها لأفانين البلاغة جامعة، ولعلم البيان رافعة، وبعصًا الإيجاز والقصر قارعة.

- واعتبر كلام الأولى، فإنه مع صدق تشبيهه، وصقالة وجوهه، قد جمع من حسن الكلام أنواعا، وكشف عن محيا البلاغة قناعا، وقرن بين جزالة اللفظ، وحلاوة البديع، وضمّ تفاريق المناسبة والمقابلة، والمطابقة والمجانسة، والترتيب والترصيع.

«فأما صدق تشبيهها فعلى ما شرحناه قبل، والتشبيه أحد أنواع البلاغة، وأبدع أفانين هذه الصناعة، وهو موضوع للجلاء والكشف، والمبالغة فى البيان والوصف، والعبارة عن الخفى بالجلى، والمتوهم بالمحسوس، والحقير بالخطير، والشىء بما هو أعظم منه وأحسن، أو أخسّ وأدون، وعن القليل الوجود بالمألوف المعهود، وكل هذا لتأكيد البيان والمبالغة فى الإيضاح.

«فانظر أين قول القائل: الذين كفروا أعمالهم لا ينتفعون بها، من قوله تعالى: ﴿الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة﴾ [سورة النور الآية ٣٩]. وتأمل بون ما بين الموضعين من البيان، وفرق ما بين الكلامين فى الإيضاح، وإن كان الغرض واحدًا، والموضوع سواء.

* وكذلك قول إمرأة: زوجى بخيل لا يوصل إلى شىء مما عنده، وبين كلام هذه المرأة المتكلم عليه. ووجه بلاغة التشبيه ما فيه من الجلاء والإيضاح، كما قدمنا.

ثم يقول[١] «وأكثر تشبيهات الكتاب العزيز من هذا النمط، كقوله تعالى:

---

(١) بغنية الرائد ص١٨٨.

﴿مثل نُوره كمشكاة فيها مصباح﴾ [سورة النور ٣٥] و﴿مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء﴾ [سورة يونس الآية ٢٤]. أو لما فيه من المبالغة والغلو وهو من أبواب البلاغة، ومرجعه إلى البيان والإيضاح، كتشبيه الشيء بما هو أعظم منه وأكبر، نحو قوله تعالى: ﴿وله الجوار المنشئات فى البحر كالأعلام﴾ [سورة الرحمن الآية ٢٤]

وبعد أن يعرض بحثا قيّما فى تشبيهات القرآن، يعرض كذلك نماذج تشبيهات الشعراء، فيبين ما فيها من بلاغة، ثم يعود من حيث بدأ، فيقول[١].

«وهذه المرأة قد شبهت بخل زوجها، وأنه لا ينال ما عنده مع شراسة خلقه. وكبر نفسه، بلحم الجمل الغث على رأس الجبل الوعث، فشبهت وعورة خلقه بوعورة الجبل، وبعد خيره ببعد اللحم على رأسه، والزهد فيما يرجى منه لقلته، وتعذره بالزهد فى لحم الجمل الغث، فأعطت التشبيه حقه، ووفته قسطه، وهذا من تشبيه الخفى بالجلى، والمتوهم بالمحسوس، والحقير الخطير.

ثم يذكر القاضى عياض ما جاء فى كلام صواحبها من التشبيه، ويبين وجه بلاغته على هذا النحو.

ثم يعود إلى كلامها[٢] فيبين ما فيه من حسن التأليف، وجمال المناسبة والمقابلة، فيقول: «ثم انظر حسن نظم كلامها وتطارده، وأخذه حقه من المؤالفة والمناسبة فى الألفاظ، التى هى رأس الفصاحة، وزمام البلاغة، فإنها وازنت ألفاظها، وما ثلت كلمها، وقدرت فقرها، حسنت اسجاعها، فوازنت فى الفقرة الأولى لحم برأس فى الثانية، وجمل بحبل، وغث بوَعْث، فى الرواية الواحدة. ومَحَرْ بـ وعر فى الرواية الأخرى. فأفرغت كل فقرة فى قالب أختها، ونسجتها على منوال صاحبتها.

وعلى هذا المنوال جرى القاضى عياض فى كشف ما فى حديث النسوة الإحدى عشرة من ترصيع ومجانسة، ومطابقة، وحسن تفسير، وغرابة تقسيم،

---

(١) بغية الرائد ص١٨٩.

(٢) بغية الرائد ص١٩٠.

والتزام ما لا يلزم، وإيغال أو تبليغ. واستعارة وكناية، وصحة مقابلة، وتتميم وارداف وتتبيع، وحسن تسجيع وترديد، واستوفى الكلام فى هذه الأنواع البلاغية، فى حوالى ثلاثين صفحة من صفحات الكتاب.

إن هذا الفصل الأخير من فصول «بغية الرائد» الذى كشف فيه القاضى عياض عن فنون البلاغة، فى حديث أم زرع - يعتبر من أروع فصول البلاغة التطبيقية فى الكتب العربية، وهو يكشف عن ناصية مجهولة من مناصى عظمة القاضى عياض، وهى الناحية البلاغية، التى تجلت فيها شخصيته، وبرز فيها رأيه، وتجلى ذوقه الرقيق، ونقده الدقيق، وما علمت أحدًا من قبلى نبه على هذه الناحية أو أشار إليها.

ولو قد انتشر منهج القاضى عياض هذا، ونهج نهجه فيه الدارسون لأساليب القرآن والحديث، لغنيت الأبحاث النقدية، وتجدد شباب البلاغة العربية، ورفت نضارتها، ودامت غضارتها، وارتاحت إليها الأرواح، وصغت نحوها القلوب وجنحت إليها الأفكار، وتعشقتها العقول، فدامت حية فى النفوس والأذهان، ولما كان مصيرها هذا المصير الرهيب، الذى صوح فيه نبتها، وأقفر روضها، وحلت محلها بلاغة الأعاجم، التى لا ترهف حسا، ولا تصقل ذوقا، ولا تنمى ملكة لبيان فى نفس إنسان، لأنها فى حقيقة أمرها أمشاج من المنطق والفلسفة، وأخلاط من النحو وعلم الكلام، تزهق أرواح دارسيها، وتصدهم عن النظر فيها[1].

ولقد أفصح القاضى عياض عن قيمة ما أتى به، فقال فى آخر كتابه:

«وحررت فى هذا الفصل الأخير من علم البلاغة، واستثرت ما فى كلامهن من سر النصاحة، وغرائب النقد، وبديع الكلام، ما فيه غنية لمتأمليه، ممن شدا فى باب الأدب شيئا، وتطلع لأن يعلم صناعة تأليف الكلام ويفهم منازع أرباب هذا الشأن، وعلى الله - جل اسمه - الاعتماد فى العفو عن الزلل، والرغبة فى غفران المباهاة فى القول والعمل[2].

---

(١) السيد أحمد صقر، مقدمة كتاب الإلماع ص ٢٢٠.

(٢) بغية الرائد ص ٢١٥.

٤ - مشارق الأنوار على صحيح الآثار:

وقد طبع هذا الكتاب فى المغرب فى سلسلة تراثنا الإسلامى، ونشر فى دار التراث، المكتبة العتيقة سنة ١٣٢٨هـ. وهو كتاب من أقوم ما خلف القاضى عياض - رحمه الله - مفيد جدا فى تفسير الحديث المختص بالصحاح الثلاثة، وهى: الموطأ، والبخارى، ومسلم[١]. وقد ترك هذا الكتاب فى مبيضته، ووصف خط القاضى عياض فيه، بأنه غاية فى التشبيج والإدماج والإشكال وإهمال الحروف، وجاء الحافظ المحدث أبو عبد الله محمد بن سعيد الغرناطى المعروف بالطراز، فجمع أصول وأمهات حافلة من كتب الغريب واللغة، واستعان بها على إخراج نص هذا الكتاب من مسودته، فجاء هذا الكتاب أجلّ كتب القاضى عياض قدرا، وأنبهها ذكرا، وأكثرها دلالة على عظم مكانته فى فنون الرواية، حيث قام بتحقيق نصوص الموطأ والصحيحين، فعمد إلى كلمات المتن، وأسماء الأماكن، والرجال وكناهم، وألقابهم، فرتب كل ذلك على حروف المعجم، ثم شرع فى عمله، فضبط متونها وصححها على الأصول، ونبه على رواياتها المختلفة، وأشار إلى الصواب، أو الأرجح منها اعتمادًا على المقارنة بين الروايات ومتون اللغة.

وقد دفعه إلى ذلك[٢]، أنه رأى المتأخرين قد تساهلوا فى الأخذ والأداء، حتى أوسعوه اختلالا، ولم يألوه خبالا، فنجد الشيخ المسموع بشأنه وثنائه، يتكلف الناس مشاق الرحلة إليه، ويتناوبون الأخذ عنه. وحضوره كعدمه، لأنه لا يحفظ حديثه، ولا يتقن أداءه وتحمله، ولا يمسك أصله، بل يمسك كتاب سواه، وربما كان معه من يتحدث معه، أو غدا مستثقلا نوما، أو مفكرا فى شئونه حتى لا يعقل ما سمعه ولعل الكتاب المقروء عليه لم يقرأه قط، ولا علم ما فيه إلا فى نوبته

---

(١) ذكره أبو عبد الله فى التعريف ص١٣٣، والإحاطة ١٨٣/١، وأزهار الرياض ٤٣٩/٢ - وابن خلكان ٤٩٦/١، وكشف الظنون ١٦٨٧/٢، وهدية العارفين ٨٠٥/١.

(٢) المقدمة ص ٣.

تلك، أو يكون بعض متساهلى الشيوخ قد ناوله كتبا لا يعلم سوى ألقابها، أو أتته إجازة فيه من بلد سحيق، أو يشترى كتبا ويكتفى بأن يجد عليها أثر دعوى المقابلة والتصحيح، والآخذون عن ذلك الشيخ يتساهلون كذلك، فلا يضبطون ما يكتبون، وقد يتشاغلون أثناء السماع بمحادثة الجلساء، وربما حضر مجلس الشيخ صبى لم يفهم بعد عامة كلام أمه. فيعتدون بصحة سماعه إذا كان قد أوفى أربعة أعوام، ويحتجون بحديث محمود بن الربيع، الذى يقول فيه: (عقلت عن النبى - ﷺ - مجة مجها فى وجهى وأنا ابن أربع سنين) وليس فى عقل محمود هذه المجة حجة على عقله لكل شيء كان من أمره. أو من حوله، إلى غير ذلك من ألوان تساهل الآخذ والمأخوذ عنه.

ثم قال: «إن أكثر سماعات الناس فى عصره، وفى أزمان كثيرة من قبله كان بهذه السبيل، وإنه لذلك كثر فى الكتب التغيير والفساد، وشمل ذلك كثيرا من المتون والإسناد، وشاع التحريف، وذاع التصحيف».

* ثم ذكر «أن قلة قليلة قد هبت من قبله لإقامة هذا الأود، وإصلاح هذا الخلل، بمقدار ما أوتوا من العلم، وهم بين غال ومقصر، ومشكور عليم، ومتكلف هجوم».

وبعد أن تحدث عنهم وذكر من الأمثلة ما كان منهم قال:

«إن الحاجة مست إلى كتاب يجمع شوارد تلك الأوهام، ويسدد مقاصدها، ويبين مشاكلها، وينص على اختلاف الروايات فيها، ويظهر أحقها بالحق وأولاها، وأنه لم يجد كتابا مفردًا فى هذا الشأن إلا كتاب تصحيف المحدثين للدارقطنى، وأكثره مما ليس فى الكتب الثلاثة، وإلا كتاب الخطابى الموجز، وإلا كتاب شيخه الجيانى المسمى بتقييد المهمل. فإنه تقصى فيه أكثر ما اشتمل عليه الصحيحان، وقيده أحسن تقييد، وجوده نهاية التجويد، ولكنه اقتصر على ما يتعلق بالأسماء والكنى، والأنساب والألقاب، دون ما فى المتون من تغيير وتصحيف وإشكال، وإن كان قد شذ عليه من الكتابين أسماء»[1].

(١) مقدمة كتاب مشارق الأنوار ص٥ بتصرف.

ثم ذكر أنه رتب الكلمات التى عرض لها على ترتيب حروف المعجم المعروف بالمغرب ولم يكتف بترتيبها على ذلك بحسب حرفها الأول فقط، بل رتبها كذلك بحسب الحرف الثانى والثالث أيضا، وبدأ فى أول كل حرف بالألفاظ الواقعة فى متونه، فأتقن ضبطها بحيث لا يلحقها تصحيف ولا يعتورها إبهام، فإن كان فى اللفظ اختلاف نبّه عليه، وبين الصواب من الخطأ، وميز الراجح من المرجوح، بنص من سبقه من جهابذة العلماء، أو باجتهاده وتحقيقه هو على غرار مناهج المتقدمين.

ثم ذكر أنه ترجم فصلا فى كل حرف على ما وقع فى الكتب الثلاثة من الأسماء التى يكثر تصحيف الرواة فيها، ونبه معها على أشباهها، ثم يعطف على ما وقع فى الإسناد من النص على شكل الأسماء والألقاب والأنساب والكنى المبهمة.

ثم ذكر فى آخر كل فصل ما جاء فيه من تصحيف، ونبّه على صوابه، وشرح ما دعت الضرورة إلى شرحه، من غريب ألفاظ المتون، دون نقص أو اتساع، لأنه لم يضع كتابه لشرح اللغة، ولا لتفسير المعانى، بل وضعه لتقويم الألفاظ وإتقانها(١).

ثم ذكر - أنه قد شذت عن الأبواب نكت غريبة مهمة لم تضبطها تراجمها، لكونها جمل كلمات، يضطر القارئ إلى معرفة ترتيبها، وصحة تهذيبها، إما لما دخلها من التغيير أو الإبهام، أو التقديم والتأخير، أو أنه لا يفهم المراد بها إلا بعد تقديم إعراب كلماتها، أو سقوط بعض ألفاظها، أو تركه على جهة الاختصار، ولا يفهم المراد إلا به..

فأفرد لها آخر الكتاب ثلاثة أبواب:

أولها: فى الجمل التى وقع فيها التصحيف وطمس معناها التلفيف.

وثانيها: فى تقديم ضبط جمل فى المتون والأسانيد، وتصحيح إعرابها، وتحقيق

---

(١) مقدمة مشارق الأنوار ص٧ بتصرف.

هجاء كتابها، وشكل كلماتها، وتبيين التقديم والتأخير اللاحق لها، ليستبين وجه صوابها، وينفتح للأفهام مغلق أبوابها.

وثالثها: فى إلحاق ألفاظ سقطت من الأحاديث، أو من بعض الروايات، أو بترت اختصارًا، أو اقتصارًا على التعريف بطريق الحديث لأهل العلم به، لا يفهم مراد الحديث إلا بإلحاقها، ولا يستقل الكلام إلا باستداركها[١].

ثم قال: «فإذا كملت هذه الأغراض، وصحت تلك الأمراض، رجوت ألا يبقى على طالب معرفة (الأصول المذكورة) إشكال، وأنه يستغنى بما يجده فى كتابنا هذا عن الرحلة لمتقى الرجال، بل يكتفى بالسماع على الشيوخ، إن كان من أهل السماع والرواية، أو يقتصر على درس أصل مشهور الصحة، أو يصحح به كتابه، ويعتمد فيما أشكل عليه على ما هٰهنا إن كان من طالبى التفقه والدراية[٢].

ويقول القاضى عياض عن كتابه مشارق الأنوار:

«فهو كتاب يحتاج إليه الشيخ الراوى، كما يحتاج إليه الحافظ الواعى، ويتدرج به المبتدئ، كما يتذكر به المنتهى، ويضطر إليه طالب التفقه والاجتهاد، كما لا يستغنى عنه راغب السماع والإسناد، ويحتج به الأديب فى مذاكراته، كما يعتمد عليه المناظر فى محاضراته. وسيعلم من وقف عليه من أهل المعرفة والدراية قدره، ويوفيه أهل الإنصاف حقه. فإنى نخلت فيه معلوماتى، وبثثته مكتومى، ورصعته بجواهر محفوظى ومفهومى، وأودعته مصونات الصنادق والصدور، وسمحت فيه بمضنونات المشايخ والصدور، وقد ألفته بحكم الاضطرار والاختيار، وصنفته منتقى النكت من خيار الخيار، وأودعته غرائب الودائع والأسرار، وأطلعته شمسا يشرق شعاعها فى سائر الأقطار، وحررته تحريرًا تُحَار فيه العقول والأفكار، وقرّبته تقريبا تتقلب فيه القلوب والأبصار، وسمته:

---

(١) المقدمة ص٧.

(٢) مقدمة الكتاب ص٧.

«بمشارق الأنوار على صحيح الآثار»

وصدق القاضي عياض فيما وصف به كتابه العجيب فى أنظار الأجيال. وقد كان ابن الصلاح ينشد عند ذكره:

مشارق أنوارٍ تسنّت بسبتةَ ... وذَا عَجَب كون المشارق بالغرب

ويرجع الفضل فى حفظ هذا الكتاب إلى أبي عبدالله محمد بن على بن يوسف الأنصارى، المتوفى سنة ٦٤٥ للهجرة، فهو الذى تجرد له، وأخرجه من المبيضة، لأن القاضى عياض مات وتركه كذلك.

ثانيا: مصنفاته الفقهية

صنف القاضى عياض فى الفقه مجموعة من الكتب، ساعده على ذلك سعة علمه وروايته. التى أحلته المحل الأول فى الفقه المالكى، وجعلت أبناء عصره يعوّلون عليه فى حل ألفاظ مدوّنة سحنون، وضبط مشكلاتها. وتحرير رواتها، وهى التى مكنت له من أسباب التفوق فى تأليف كتبه.

وهذه المصنفات الفقهية هى:

١ - الأجوبة المجبرة على المسائل المتخيرة[١]:

وهو من الكتب التى لم يكملها القاضى عياض. وذكر ابنه[٢]. أنه وجد منه يسيرًا فضمه إلى ما وجده فى بطائق أبيه، أو عند أصحابه، من معان شاذة، فى أنواع شتى سئل عنها، فأجاب عنها، جمع ذلك كله فى جزء.

٢ - الأجوبة فيما نزل فى أيام قضائه من نوازل الأحكام[٣].

---

(١) ورد ذكره فى الإحاطة ١٨٣/١، أزهار الرياض ٢٩٩/٢، وكشف الظنون ١١/١

(٢) التعريف ص١٣٣ - ١٣٤

(٣) الإحاطة ١٨٣/١، التعريف ص١٣٤، أزهار الرياض ٢٣١/٢.

وهو أحد الكتب التى لم يكملها القاضى عياض، واختلفت المصادر فى تقدير ما ترك منه، بين كونه جزءا أو جزأين. ويظهر أن هذه الأجوبة ضمنها ابنه أبو عبد الله محمد بن عياض كتابه «**مذاهب الحكام فى نوازل الأحكام**»، فقد ورد فى مقدمته:

«أما بعد.. فإنى أبى - قدّس الله روحه، ونور ضريحه - لما طال فى خطة القضاء نزلت إليه من الأقضية نوازل تحار فيها الأذهان والأفهم، وألفيت بعد موته - رحمة الله عليه - سؤالاته على تلك النوازل، والأجوبة عليها فى بطائق، فنقلت تلك الأسئلة، ومن خطه - رضى الله عنه - نقلت إلا ما نبهت عليه، وجعلت كتابى هذا ديوانا يشمل على جميعها، وترجمته (بمذاهب الحكام فى نوازل الأحكام).

وتوجد منه نسخة مخطوطة بالمكتبة الملكية بالمغرب تحت رقم (٤٠٤٢)

٣ - الإعلام بحدود قواعد الإسلام:

وقد طبع هذا الكتاب[١] بوزارة الشئون الاسلامية بالمغرب، فى سلسلة مطبوعاتها، بتحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى.

وهو كتيب صغير، كتبه القاضى عياض بأسلوب بسيط، وطابعه العام هو الطابع السردى التقريرى، الذى يخلو من المناقشة والتفصيل، وإثارة الاختلاف، وهو إلى جانب ذلك كله شديد الإيجاز، ومن إيجازه عدم الدخول فى التفاصيل، وعدم إيراد السند، وذلك أن الكتاب مؤلف للأطفال، فقد صار من الضرورى أن يكتب بأسلوب مبسط. ولذلك وقف القاضى عياض كثيرا لشرح أو تبسيط لفظ أو معنى، أحسّ أن الغموض بلغهما. ومن ذلك ما ورد فى باب مكروهات الصلاة[٢].

فقد رأى القاضى عياض أن لفظ «الإقعاء» تحتاج إلى شرح، فشرحها بقوله:

---

(١) ورد ذكره فى التعريف ص١٣٣، والإحاطة ١٨٣/١، وكشف الظنون ١٢٧/١

(٢) الإعلام بحدود قواعد الإسلام ص١٦، نقلا عن كتاب الأستاذ عبد السلام شقور ص١٢٧.

«والإقعاء، وهو جلوسه (أى المصلى) فيها (فى الصلاة) على صدور قدميه فى التشهد، أو عند القيام من السجود، بل يعتمد على قدميه عند قيامه».

وفيه يتحدث القاضى عياض عن العشر واجبات، فيقول[1].

«فالعشر الواجبات أن تعتقد أن الله واحد غير منقسم فى ذاته. وأنه ليس معه ثان فى إلاهيته، وأنه حى قيوم، لا تأخذه سِنة ولا نوم، وأنه إله كل شىء وخالقه، وأنه على كل شىء قدير، وأنه عالم بما ظهر وما بطن «لا يغرب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض»، وأنه مريد لكل كائن من خير أو شر، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه سميع بصير، متكلم بغير جارحة ولا آلة. بل سمعه وبصره وكلامه صفات له، لا تشبه صفات الصفات، كما لا تشبه ذواته الذوات، ليس كمثله شىء، وهو السميع البصير».

وواضح من أسلوبه، أنه كتبه ليحفظه المتعلمون، لذلك لم يشق عليهم بالتطويل ولا بالتعقيد، بل اختار لكتابه هذا أسلوبا سهلا، بعيدا عن الصنيع.

٤ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك[2].

ألفه القاضى عياض بعد تأليفه الآخر «جمهرة رواة مالك»[3].

وقد طبع هذا الكتاب بوزارة الأوقاف والشئون الاسلامية فى المغرب، بتعليق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى.

يقول القاضى عياض فى مقدمته[4].

«وبعد.. فلما تكررت رغبات الأصحاب، شملنا الله وإياهم بسعادته، لإمضاء ما كانت النية اعتقدته، وتبيض ما غدت الهمة قد سوّدته، من كتاب حاو لأسماء أعيان المالكية وأعلامهم، وتبيين طبقاتهم وأزمانهم، وجمع عيون فضائلهم وآثارهم، وضمّ نشر فنون سيرهم وأخبارهم، تشمل منفعته، وتجمل معرفته،

---

(١) الإعلام بحدود قواعد الإسلام ص٣٠.
(٢) التعريف ص١٣٤، أزهار الرياض ٢٩٩/٢، وذكره الحلبى فى الدر النفيس ص١٦
(٣) الأستاذ عبد السلام شقور ص١١٢.
(٤) ترتيب المدارك ص٦.

وتستغرب فوائده. وتستعذب مصادره وموارده».

«إذ هو فن لم يتقدم فيه تأليف جامع، ولا اختص به تصنيف رائع، يُوصِّل الطالب إلى الغرض، ويقف بالراغب على البغية، مع شدة حاجة المجتهد والمقلد له، وضرورة الفقيه، والمتفقه إلى ما ينطوى عليه، إلا ما جمعه عبد الله بن محمد أبي دُلَيم القَرطبي من ذلك، ومحمد بن حارث القرويّ، مع تقدم زمنها، وما اقتضبه الشيخ أبو إسحاق الفيروزابادى، فى موضع ذكرهم من مختصره».

«وكل الكتب ما شفت غليلا، ولا تضمنت من الكثير إلا قليلا، على أن ابن أبي دُلَيم اتسع اتساعا حسنا، فيمن ذكره من المغاربة من اتباع رواة مالك، من المصريين والأندلسيين، وطائفة من القرويين، واقتصر على ذكر تطبييقهم وأسمائهم، دون شيء من أخبارهم، وبيان أحوالهم، ولم يُجْرِ لأحد من الحجازيين والمشرقيين، ذكرا على جلالة مكانتهم، وكثرة أعلامهم».

* ثم يقول: «ولم أزل منذ سمت همتى لمعرفة هذا الفن، وتحركت نيتى للاطلاع عليه، استقرئ سُبُل مسالكه، وأفحص عن وجوه مداركه، وأقيد أثناء مطالعتى شوارده، وأجرّد مدة بحثى جرائده، إلى أن اجتمع لى من ذلك بعد طول المباحثة الشديدة، والعناية التامة، والمطالعة المتواترة، ما وجدته بغية وغُنية، وبَسط لى فى تجريده أمّلا ونيّة»[1].

«ولم ألق أحدًا ممن يُعتنى بقوله، ويلتفت إلى حسن رأيه، ممن وقف على نُبذ من أمره، أو انتهى إليه نبأ من ذكره إلا قلقا إلى تمامه، شديد التعطش إلى كماله، محرضا على صرف العناية إلى تحريره وتهذيبه، راغبًا فى تقريب الفائدة بنظمه وتبويبه، والنفس تمصل بذلك وتَسَوّف، وتوالى القواطع والشواغل، يصرف عن ذلك ويصدف، إلى أن انبعثت الآن عزمة مصممة للتفرغ لتأليفه، وترتيب مضمنه وتصنيفه»[2].

إلى أن يقول:

---

(١) مقدمة القاضى عياض على ترتيب المدارك ص٧.
(٢) مقدمة الكتاب ص٧.

«فاستخرت الله تعالى على ذلك، واستعنته جل اسمه لتوطئة هذه المسالك، وجمعت قراطيسى فنفضتها عما استودعتها، وطالعت تعاليقى فوقفت على خفىّ أسرارها، واستثبت محفوظاتى، فأنجدتنى بشوارد أذكارها، فنظمت منثورها، وفصلت شذورها، ورتبت أعجازها وصدورها، وأبرزته تأليفا مفردًا فى مضمونه، بالغا فيما قصر عليه من أنواع هذا العلم وفنونه[1].

ويتحدث القاضى عياض عن منهجه فى تأليف هذا الكتاب، فيقول[2]:

«واقتضى النظر بين يدى الغَرضَ، تقديم مقدمات تمسّ الحاجة إليها، وتتم الفائدة بالوقوف عليها، تشتمل على أبواب: فى ذكر المدينة وفضلها، وتقديم علمائها، ووجوب الحجة بإجماع أهلها، وترجيح مذهب مالك بن أنس إمامها، وتقصّيت هذه الأبواب تقصيا يشْفِى الغليل، وأنعمتها نظرًا يقف بالمنصف على سواء السبيل».

«ثم قفيه باقتداء الأئمة به، وثناء العلماء عليه ونشر فضائله، وما أضيف من السير إليه. إلى سائر ما يحتاج إليه من معرفة تاريخه ونسبه، ويتطلع إليه من مجارى أحواله فى معاشرته وأدبه، واستوعبت فى هذه الجملة باختصار فنونها، والاقتصار على عيونها، وما طالت به تواليف جمّة، وشحنت به مجلدات عدة..

«إذ ألّف فى فضائل مالك ومناقبه وأخباره جماعة من الأئمة، والسلف والخلف من فرق هذه الأمة.».

ثم يذكر القاضى عياض قائمة من الذين ألفوا فى فضائل مالك ومناقبه، قائلا:

فممن ألف فى ذلك وأطال: القاضى عبد الله التسترى المالكى، له فى ذلك نحو ثلاثة مجلدات. ومثل ذلك لأبى الحسن بن فهر المصرى، ولأبى محمد الحسن بن اسماعيل الضراب. ويذكر أكثر من ثلاثين عالما.

---

(١) مقدمة الكتاب ص٨.

(٢) مقدمة الكتاب ص٨.

وأما عن مصادره فيقول:[(١)]

«وأكثر تعويلى على كتابى التسترى والضَّرَّاب، وتتبعت من غيرهما ما فيه زيادة فائدة، أو نادرة لم تقع فيهما.»

«وحذفت كثيرا مما أطالوا به من كلامه فى التفسير والجوامع والرجال، إذ ليس من الغرض وله فكانّ أُخر هُن أليق به.».

ثم أثبت بعد ذلك جريدة فى أسماء مشاهير الرواة عن مالك، وحملة الفقه والعلم عنه، مختصة بالتعريف بهم، معراة من تواريخهم وأخبارهم، إذ قد اتسعنا فى أخبار الفقهاء منهم بعد هذا، ومن سواهم فليس من غرضنا ذكرهم.

«ولم أقصد فى هذه الورقات لاستيعاب كل من ذُكرت له عنه رواية أو مجالسة أو سؤال، إذ قد أودعنا ذلك كتابا آخر فى جمهرة رواة مالك، انطوى على أزيد من ألف وثلاثمائة راو. تقصيتها من الكتب المؤلفة فى ذلك، إذ أُلفت فى ذلك كتب عدة:

ككتاب أبى الحسن الدارقطنى الحافظ. وكتاب اسماعيل الضراب المصرى وأبى بكر أحمد بن ثابت الخطيب البغدادي. وأبى اسحاق بن شعبان القرطى وأبى الحسن بن أبى عمر البَلخى، وأبى نُعيم الأصبهانى.

ومنهم من بلغ الألف، ومنهم من قصر دونها».

ومن الأندلسيين: أبو عبد الله محمد بن مفّرج، وعبد الله ابن أبى دُلَيم، وهما أقل عددًا، وأبومحمد عبدالرحمن بن محمد البكرى. وفى كل واحد من هذه الكتب ما لم يذكره الآخر.

فتتبعت ذلك جهدى، وأضفت إليه ما شذّ عنها، وندّ فيما طالعته من كتب أهل الحديث وغيرهم.

ثم يقول:

«اقتصرنا فى هذه الورقات على ذكر ألف اسم منهم، فمن عُرف اسمه،

---

(١) مقدمة الكتاب ص١٢.

وصحّت روايته. وشهرت صحبته، ورأينا أن لا نُخلى هذا الديوان من هذا القدر لتتم فى بابه فوائده، وتكمل فى فنه معارفه».

«وبعد هذا اطردت أغراض التأليف، واتسقت طبقات التصنيف.. «فابتدأنا بذكر الفقهاء من أصحابه خاصة (أصحاب مالك) ثم بأتباعهم طبقة طبقة، وأخلافهم أمُة بعد أمة، إلى شيوخنا الذين أدركناهم، وأئمة زماننا الذين عاصرناهم، ممن شهرت إمامتُه، وعرفت معرفته، أو ظهرت تواليفه، ونقلت أقواله، وامتثلت فتاويه وآراؤه على حسب تقدم أزمانهم، وتعاقب أوقاتهم.

«فأنبأنا بأسمائهم، وأعربنا عن ألقابهم وأنسابهم، وقيدنا مهملها، لِئَلا يقع فيها تصحيف، وأزحنا علّة مشكلها ليأمن من اطلع عليها من التحريف»[1].

«ثم ذكرنا بعد هذا من فضائلهم ومناقبهم، وثناء الجِلّة عليهم، وتوثيق المزكّين منهم، ومنازلهم من الزكاء والعدالة، ومراتبهم فى العلم والرواية، ومن تكلّم فيه منهم على قِلّتهم، وأعدَّ منهم فى أولى التقدم والإمامة، مع ما يحتاج إليه الناظر المجتهد، ممن يعتد بخلافه واجماعه، ويضطر إليه المتفقه والمقلد فى معرفة من يدين بإمامته واتباعه».

«ودَحضنا الدلس عن قوم منهم، تحامل المتعصبون عليهم، أو تجمل أهل الريب بإضافتهم إليهم، وقد صح عنهم وعُرف خلاف ذلك بما سنجلبه إن شاء الله تعالى، عنهم.

«وقد نظرنا طويلا فى أخبار الفقهاء، وقرأنا ما صنف من أخبارهم إلى يومنا هذا، فلم نر مذهبا من المذاهب غيره أسلم منه، فإن فيها الجهمية والرافضة، والخوارج والمرجئة، والشيعة، إلا مذهب مالك - رحمه الله تعالى - فإننا ما سمعنا أن أحدًا ممن تقلّد مذهبه قال بشىء من هذه البدع، فالاستمساك به نجاة إن شاء الله تعالى[2].

---

(١) مقدمة الكتاب ص١٤.

(٢) مقدمة الكتاب ص٢٢.

«ثم جمعنا من أخبارهم وقصصهم، وفِقَر من سِير حُكّامهم وقضاتهم، ونوادر من فتاوى فقهائهم وأئمتهم، وما يحتاج الحكام إليه، ولا غنى بالعلماء عنه، وأثبتنا من حكم حكمائهم، ورقائق وُعّاظهم، ومناهج صلحائهم وزهادهم، ما ترجى بركته، ولا تخيب - إن شاء الله - منفعته».

«وذكرنا من محن ممتحنهم، وبلايا مبتليهم ما فيه مسلاة للممتحنين، وأدلة على ثبات قدمهم فى الصالحين».

«وذكرنا من بلدانهم وأوطانهم، ورحّاليهم وقطانهم، إذ كان ينبوع هذا المذهب بالمدينة، فيها تفجّر، ومنها انتشر، فكانت المدينة كلها على ذلك الرأى، وخرج منها إلى جهات من الحجاز واليمن، فانتشر هناك بأبى قرة القاضى، ومحمد بن صدقة الفدكى، وأمثالها»[1].

وبعد أن ذكر علماء المذهب فى الأمصار الإسلامية العراق وخراسان، والأندلس ومصر: قال: «فبدأنا فى كل طبقة بأهل المدينة، ثم بمن والاها من جزيرة العرب، ثم بأهل المشرق، ثم كررنا على المصريين ومن والاهم من المغاربة، وختمنا بأهل الأندلس - إلا من لم نجد له من أهل تلك البلاد، فى تلك الطبقة اسمًا، فتعدى إلى ما بعده على الرسم. «وانتقينا أثناء ذلك من نوادر ظُرَفَائهم، وملح آدابهم، ومحاسن شعرائهم ما ينشط النفس عند كسلها، ويصقل عنها رَيْن صدئها».

«وذكرنا ما ينتحله كل واحد منهم من المعارف، وما أضيف من الخصال إليه، ونبّهنا على الغالب من أنواع العلوم عليه، وسمّنا من تآليف مؤلفيهم، وإملاءات مصنفيهم ما لا غنى عنه، وما ينبه المتفقه على الاقتباس منه»[2].

ويختم القاضى عياض مقدمته هذه بقوله:[3]

«ولم نأل فيما جمعنا من ذلك تحريرا للاختصار لفنونه، وتحريا للاقتصار على

---

(١) مقدمة الكتاب ٢٤.

(٢) مقدمة الكتاب ص٢٨.

(٣) مقدمة الكتاب ص٣٣١.

نصوصه وعيونه، وحذفا للطرق والأسانيد، وضما للتفاريق والأباديد، واستصفيناه من كبار تصانيف المحدّثين، وأمهات تواليف المؤرخين، ككتاب أبي عبد الله البخارى، وعبد الرحمن ابن أبي حاتم، وأبي الحسن الدارقطنى، والزبير بن بكار القاضى.. وغيرهم.

«وأنا أضرع إلى ذى العزة والجلال. ألا يجعل حظى من هذا الكتاب مجرد التعب، وواصل السهر والنصب، وأن يحسن فيه النية، ويكمل بعفوه عن زللنا المنة» «وجدير بمطالعه أن يحسن الظن، وأن لا يبادر إلى الطعن، حتى يُجيد النظر، ويحقق ما أنكر، فإن تيقن بعد زلّة أصلحها، أو وجد مبهمة أوضحها، وأن يشكر ما كفيناه فى جمعه من شُغل الخاطر، والفراغ للبحث، والطلب المتواتر، ويعذر فيما عساه يعثر عليه من زلل خفى أو ظاهر، فالغالب على المرء التقصر، والأمر الذى ارتكبته خطير، ويُغْتَفر القليل للكثير».

هذا وقد اتفقت المصادر المعتد بها فى ترجمة القاضى عياض، على أنه لم يُسْمِع كتاب «ترتيب المدارك» فى حياته لأحد من الناس، وهو إشارة فيها - فيما نظن - التفسير للاختلافات الواردة فى النسخ المخطوطة، فهى تعنى - كما يقول محققه[1] - أن الكتاب لم يقرأه الناس على مؤلفه، فتتحد عند قراءته - بصورة علنية ونهائية أجزاؤه، وتتحد بشكل جماعى، النسخ المسموعة منه على متن واحد، وعلى ترتيب واحد، وتحذف منه التراجم المتكررة.

فالكتاب لم يسمع، بل ظل فى مسودة المؤلف[2]، إلى أن تداولته أيادى النساخ، فأخرجوه من المسودة باجتهادهم.

٥ - التنبيهات المستنبطة على المدونات المختلطة[3]

الكتب المدونة والمختلطة هى أصل المذهب المرجح روايتها على غيرها عند المغاربة، وإياها اختصر مختصروها وبها مناظراتهم ومذاكراتهم.

(١) مقدمة التحقيق الصفحة (كح)

(٢) الديباج ٢٩٢.

(٣) ذكره القاضى عياض فى ترتيب المدارك ج٣ ص٩٩.

٦ - كتاب السيف المسلول على من سب أصحاب الرسول[(١)]. وهو مفقود.

٧ - كتاب العقيدة[(٢)]

٨ - مسألة الأهل المشترط بينهم التزاور[(٣)].

قال ابنه فى التعريف: انه من الكتب التى تركها القاضى عياض فى المبيضة. وهو مفقود.

٩ - مطامح الأفهام فى شرح الأحكام[(٤)].وهو مفقود.

١٠ - نظم البرهان على صحة جزم الأذان[(٥)]. وهو مفقود.

ثالثا: مصنفاته فى السيرة النبوية

١ - اختصار شرف المصطفى[(٦)]:

«وشرف المصطفى» اسم كتاب لأبى سعد بن عبد الملك بن محمد الواعظ النيسابورى الخركوشى المتوفى سنة ٤٠٦ هـ، وهو ثمانى مجلدات، ويسمى أيضا «شرف النبوة». وقد اختصره القاضى عياض، حدّث به عنه ابن خير إجازة ومشافهة وإذنا.

وكأن القاضى عياض كان يمهد لتأليف كتابه الشفا، فاستطال كتاب «شرف المصطفى» فلخصه ليسهل رجوعه إليه، واستفادته منه[(٧)].

(١) ذكره صاحب كشف الظنون ١٠١٨/٢. وهدية العارفين ٨٠٥/١.
(٢) ذكره الذهبى فى تذكرة الحفاظ ٩٧/٤، وهدية العارفين ٨٠٥/١.
(٣) ذكره ابنه فى التعريف ١٣٣، والمقرى فى أزهار الرياض ٢٣٠/٢.
(٤) ذكره حاجى خليفة فى كشف الظنون ١٧١٨/٢، وهدية العارفين ٨٠٥/١.
(٥) ذكره ابنه فى التعريف ١٣٣، والإحاطة ١٨٣/١، أزهار الرياض ٢٣٩/٢، وهدية العارفين ٨٠٥/١.
(٦) ذكره صاحب الظنون ١٠٤٥/٢، وابن خير فى فهرست ما رواه عن شيوخه ٢٨٩، ٤٩٧.
(٧) انظر مقدمة كتاب ترتيب المدارك الصفحة (كب).

٢ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى[١]:

سماه الذهبى «الشفا فى شرف المصطفى» وهو أشهر من أن يعرف، اقرأه القاضى عياض فى حياته وأجاز فيه.

يقول عنه ابن فرحون: إن القاضى عياض أبدع فيه كل الإبداع، وسلّم له أكفاؤه كفاءته فيه، ولم ينازعه أحد فى الانفراد به، ولا أنكروا مزية السبق إليه، بل تشوفوا للوقوف عليه، وأنصفوا فى الاستفادة منه، وحمله الناس عنه، و طارت نسخه شرقا وغربا»[٢].

وقد طبع هذا الكتاب عدة مرات سواء فى المغرب أو فى مصر، كان آخرها طبعة المكتبة التجارية بمصر، وقد ذيل بحاشية لطيفة هي «مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء» للعلامة أحمد بن محمد بن محمد الشمنى، المتوفى سنة ٨٧٢ للهجرة.

وقد ذكر حاجى خليفة:[٣] كتاب «الصفا بتحرير الشفا» ونسبه له، وقد فهم اسماعيل البغدادى من ذلك أن «الصفا بتحرير الشفا» اسم كتاب للقاضى عياض فذكره له فى ترجمته[٤]. وهو فهم خاطئ لأن «الصفا بتحرير الشفا» من تأليف قطب الدين محمد بن محمد بن الخيضرى المتوفى سنة ٨٣٤ للهجرة. وقد ورد ذكره فى كشف الظنون، فى الحديث عن شروح الشفا.

---

(١) ذكره ابنه فى التعريف ١٣٢، وعنه الاحاطة ١٨٣/١، وأزهار الرياض ٢٣٨/٢، وتذكرة الحفاظ ٩٧/٤، وكشف الظنون ١٠٥٢/٢، هدية العارفين ٨٠٥/١.

(٢) الديباج المذهب ١٦٨.

(٣) كشف الظنون ١٠٧٩/٢.

(٤) هدية العارفين ٨٠٥/١.

رابعا: مصنفاته التاريخية

١ - أخبار القرطبيين:

ذكره ابنه فى التعريف[1]، وقال: «وله تاريخ لعلماء قرطبة يسمى أخبار القرطبيين. وأخشى أن يكون هو نفسه كتاب أجوبة القرطبيين، الذى سنذكره

٢ - تاريخ المرابطين[2]:

كتب فيه تاريخ المرابطين، وانتهى إلى سنة ٥٤٠ للهجرة، أى قبل وفاته بأربع سنوات.

٣ - الجامع فى التاريخ[3]:

ذكره القاضى عياض فى ترجمة عبد الله بن ياسين، القائم بدعوة المرابطين بقوله: «وقد بسطنا أخباره فى كتاب التاريخ».

وذكره تلميذه محمد بن حمادة البرنسى البستى، وعنه الذهبى بعنوان «جامع التاريخ». وقال المقرى[4]: إنه تاريخ المرابطين، انتهى فيه إلى سنة ٥٤٠ هـ، وأنه كتاب أربى على جميع المؤلفات، فيه أخبار الملوك بالأندلس والمغرب، منذ دخول الإسلام إليها، واستوعب أخبار سبتة وقطانها وفقهاءها، وجميع ما جرى من الأمور فيها.

---

(١) التعريف ص١٣٣ كشف الظنون ٢٨/١، هدية العارفين ٨٠٥/١، تاريخ الفكر الأندلسى ٢٨٣.
(٢) أزهار الرياض ٢٣٩/٢.
(٣) تذكرة الحفاظ ٩٧/٤، أزهار الرياض ٢٣٩/٢ كشف الظنون ٥٣٨/١.
(٤) أزهار الرياض ٢٣٩/٢.

٤ - العيون الستة فى أخبار سبتة[١]:

وقد ذكره ابنه بعنوان «الفنون الستة فى أخبار سبتة»[٢]. كما ورد ذكره بهذا الاسم فى الاحاطة، وأزهار الرياض[٣]. وهو من الكتب التى لم يكملها القاضى عياض، بل تركه فى المبيضة.

٥ - المعجم فى ذكر أبى على الصدفى وأخباره، وشيوخه وأخبارهم[٤]:

وهو معجم كبير، يتضمن تراجم نحو المائتى شيخ. ذكر القاضى عياض فى الغنية[٥]، أنه ألفه.

٦ - أخبار العلويين:

وقد انفرد بذكره «عبد الحى الكتانى»، ولم يأت فى التعريف ولا فى الديباج[٦]

٧ - تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضى عياض:

وقد عثرنا على نسخة من هذا الكتاب، فى المكتبة المركزية لجامعة الملك عبد العزيز، بجدة. وقد نشر هذا الكتاب بتحقيق الأستاذ محمد الطالبى، وطبع بتونس سنة ١٩٦٨ م ولم يرد ذكره فى المصادر التى ترجمت له وتحدثت عن مؤلفاته ومصنفاته.

٨ - المعجم فى شيوخ ابن سكره:

جمع فيه نحو مائتى شيخ، ذكره القاضى عياض فى الغنية، وقد ورد فى إحدى قوائم المخطوطات، أنه توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة بالجزائر تحت رقم ٥٨

---

(١) كشف الظنون ١١٨٦/٢، هدية العارفين ٨٠٥/١.
(٢) التعريف ١٣٣.
(٣) الاحاطة ١٨٣/١، أزهار الرياض ٢٣٩/٢.
(٤) ذكره ابنه فى التعريف ص ١٣٣، والاحاطة ١٩٣/١.
(٥) الغنية ص ١٢٣.
(٦) الأستاذ عبد السلام شقور ص ١١٧.

٩ - جمهرة رواة مالك[١]:

أشار إليه القاضي عياض أكثر من مرة، في مقدمة كتابه «ترتيب المدارك» حيث قال: «ولم أقصد في هذه الورقات استيعاب كل من ذكر لى عنه رواية أو مجالسة أو سؤال، إذ قد أودعنا ذلك كتابا آخر في «جمهرة رواة مالك» انطوى على أزيد من ألف وثلاثمائة راوٍ، تقصيتها من الكتب المؤلفة في ذلك»

١٠ - الغُنْية في أسماء شيوخه[٢]:

وقد نشر هذا الكتاب بتحقيق الأستاذ ماهر زهير جرار، وطبع في دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة ١٩٨٢ م.

ولقد ذكر ابن الأبار: أن شيوخ عياض يقاربون المائة[٣]، وقد خلّد القاضي عياض هؤلاء الشيوخ، فصنف من أجلهم هذا الكتاب، اعترافا بفضلهم، وتخليدا لذكراهم، وسماه «الغنية» ترجم لهم فيه، وحدد تخصصاتهم، وذكر مؤلفاتهم ومصنفاتهم، وذكر متى لقيهم، وماذا أخذ عنهم، وكأنه بتخليده لهم يخلّد نفسه أيضا.

يقول في مقدمته[٤]:

«أيها الراغبون في تعيين رواياتي وإجازة مسموعاتي ومجموعاتي، فقد تعين بحكم إلحاحكم عليّ، ومدّكم أيدى الرغبات إليّ، أن أنُص لكم من ذلك على عيون، وأخص أوراقي هذه بما لعله يفي المضمون، وأحيل على فهارس الأشياخ على العموم، في سائر أنواع العلوم، وأُسَمّي أشياخي الذين أخذت عنهم قراءة وسماعا، ومناولة وإجازة، وممن كتب إليّ ممن لم أَلْقَه، وذكرت من خبر كل واحد منهم ما يُعْطى الحالُ وَفْقَه، بطرف من الاختصار والايجاز، بحُكم ما أدت إليه الحال من الرحلة والانحفاز، وذكرت أثناء ذلك أسماء جِلّة ممن لقيتهم وجالستهم،

---

(١) ترتيب المدارك ج ١ ص ١٣ ط المغرب. وانظر ج ١٤/١، ٧٣ ، ج ٢ ص ١٧٠.
(٢) ذكره ورواه عنه ابن خير في فهرست ما رواه عن شيوخه ص ٤٣٧، ٥١٢.
(٣) المعجم ص ٢٩٥، وابن خلكان ١٥٣/٥.
(٤) مقدمة كتاب الغنية ص ٢٥.

وذاكرتهم ولم أرو عنهم، أو سمعت منهم اليسير إما لقاطع قَطَع، أو لسبب مَنَع، أو لأنهم لم يكونوا أصحاب رواية، أو أهل إتقان لما رَوَوْا أو دراية»

من هؤلاء الشيوخ:

١ - الفقيه القاضى أبو عبدالله محمد بن عيسى بن حسين التميمى(١):

يقول عنه القاضى عياض: «أجل شيوخ بلدنا سبتة - رحمه الله - ومقدم فقهائهم، مولده بمدينة فاس، انتقل به أبوه إلى سبتة وهو شاب، وأصله من تاهرت، وجدّه هو المنتقل إلى فاس. فطلب العلم بسبتة على شيوخنا أبى محمد المسيلى وغيره.

وكان كثير الكتب حافظا عارفا بالفقه، مليح الخط والكتابة والمحاضرة، من أعقل أهل زمانه وأفضلهم. وأسْمَتهم، تام الفضل، كامل المروءة، بعيد الصيت عند الخاصة والعامة، عظيم القدر.

- لازمتُهُ كثيرا للمناظرة فى المدّونة والموطأ، وسماع المصنفات، فقرأت وسمعت عليه بقراءة غيرى كثيرا، وأجازنى جميع روايته. وكان من أحسن القضاة وأنزهم على الطريقة القويمة، فمضى فقيدا حميدًا، واحتفل الناس لجنازته. ثم يذكر القاضى عياش ما سمعه عليه.

٢ - الفقيه القاضى أبو عبدالله محمد بن على بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين التغلبى:

قال عنه القاضى عياض(٢): «أجل رجال الأندلس وزعيمها فى وقته، ومقدّمها جلالة ووجاهة، وفهما ونباهة، مع النظر الصحيح فى الفقه والأدب البارع، والتقدم فى النثر والنظم. كان مولده سنة تسع وثلاثين وأربعمائة (٤٣٩ هـ). تقلّد الشورى بقرطبة لأول الدولة المرابطية، ثم ولى قضاء الجماعة

---

(١) انظر ترجمته فى الغنية ص ٢٧.
(٢) انظر ترجمته فى الغنية ص ٤٦.

بها سنة تسعين إلى أن توفى، فى يوم الخميس لثلاث بقين من محرم، سنة ثمان وخمسمائة (٥٠٨ هـ). ودفن يوم الجمعة بعد صلاة العصر.

لقيته بقرطبة سنة سبع وخمسمائة، وصدر سنة ثمان، وجالسته كثيرا - رحمه الله - وسمعت عليه الموطأ، رواية يحيى بن يحيى الليثى، وقرأت عليه بعض رسائله وردوده على الغزالى. وسمعت بعضها، وسمعت كثيرا من كلامه، ورسالته لابن شماخ. وأجاز لى سائر رواياته.

٣ - الفقيه القاضى أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد:

قال عنه القاضى عياض:(١) «زعيم فقهاء وقته بأقطار الأندلس والمغرب، ومقدمهم المعترف له بصحة النظر، وجودة التأليف، ودقة الفقه، وكان إليه المفزع فى المشكلات، بصيرا بالأصول والفروع والفرائض، والتفنن فى العلوم. وكانت له الدراية أغلب عليه من الرواية. كثير التصنيف مطبوعه.

* ألف كتابه المسمى «بكتاب البيان والتحصيل» فى شرح كتاب العُتْبى، المستخرج من الأسمعة، وهو كتاب عظيم نيف على عشرين مجلدا، وكتابه على الكتب المدوّنة المسمى بالمقدمات، وكتابه فى اختصار الكتب المبسوطة من تأليف يحيى بن اسحاق بن يحيى، وأجزاء كثيرة فى فنون من العلم مختلفة.

وكان مطبوعا فى هذا الباب، حسن القلم والرواية، حسن الدين، كثير الحياء، قليل الكلام، متسمتا نزها، مقدما عند أمير المسلمين، عظيم المنزلة معتمدا فى العظائم أيام حياته.

ولى قضاء الجماعة بقرطبة سنة إحدى عشرة وخمسمائة، ثم استعفى منها سنة خمس عشرة، إثر الهيج الكائن بها من العامة وأعفى، وزاد جلالة ومنزلة. وإليه كانت الرحلة للتفقه من أقطار الأندلس مدة حياته إلى أن توفى - رحمه الله - فى ذى القعدة سنة عشرين وخمسمائة.

- جالسته كثيرا وساءلته، واستفدت منه، وسمعت بعض كتابه فى اختصار

(١) انظر ترجمته فى الغنية ص ٥٤.

المبسوطة من تآليفه، يُقرأ عليه وناولنى بعضها، وأجازنى الكتاب المذكور وسائر رواياته.

٤ - الفقيه القاضى أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الأموى:

ذكره القاضى عياض فقال:[١] «شيخ بلدنا وقاضيه ومفتيه وصالحه، ولى القضاء مرتين، مرة أيام برغواطة، والأخرى أول دولة المرابطين. وكان حافظا للفقه والفرائض، مشاركا فى التفسير، وعلم الناسخ والمنسوخ وغير ذلك. لكنه كان يقصر به لسانه عن تأدية بعض ما عنده. إذ كان لم يطالع شيئا من علم العربية. صالحا ورعا مشهورا بالخير، وكان شأنه الحفظ والتفقه، ولم يكن له كبير شغل بالسماع والرواية. وكان موصوفا بالصلاح والعفة من صغره، من أهل الورع والتحرى.

وتوفى - رحمه الله - يوم الأحد - سادس رجب سنة سبع عشرة وخمسمائة، مولده سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة.

* ناظرتُ عليه مدة طويلة فى المدونة، وأخذتُ عنه فوائد من العلم كثيرة

٥ - الفقيه القاضى أبو عبد الله محمد بن داود بن عطية بن سعيد العكى القلعى:

ترجم له القاضى عياض فقال: [٢]«كان من أهل العلم بالفقه والأصول، تفقه بأبى عبدالله الذكى وغيره من شيوخ بلده، ودرس الأصول على «عبد الجليل الديباجى» وغيره، وسمع بالأندلس من «الجيانى» وأكثر عنه، ولى قضاء تلمسان، ثم نقل لقضاء إشبيلية، ثم نقل لقضاء فاس، وبها توفى يوم الاثنين عاشر ذى القعدة سنة خمس وعشرين وخمسمائة.

* صحبتُه كثيرا، ودرست عليه أصول الفقه، وكان جليلا فاضلا، فقيها ذكيا، رحمه الله.

---

(١) ترجمته فى الغنية ص ٥٨.

(٢) ترجمته فى الغنية ص ٦٤.

٦ - الإمام أبو عبد الله محمد بن على بن عمر التميمى المازرى، مستوطن المهدية[١]:

إمام بلاد إفريقية وما وراءها من المغرب، وآخر المستقلين من شيوخ افريقية بتحقيق الفقه ورتبة الاجتهاد ودقة النظر. درس أصول الفقه والدين، وتقدم فى ذلك فجاء سابقا، لم يكن فى عصره للمالكية فى أقطار الأرض فى وقته أفقه منه، ولا أقوم لمذهبهم. وسمع الحديث، وطالع معانيه، واطّلع على علوم كثيرة من الطب والحساب والآداب وغير ذلك، فكان أحد رجال الكمال فى العلم فى وقته، وإليه كان يُفْزع فى الفتوى فى الفقه. وكان حسن الخلق مليح المجلس أنيسه، كثير الحكاية وإنشاد الشعر، وكان قلمه فى العلم أبلغ من لسانه، وألف فى الفقه والأصول، وشرح كتاب مسلم، وكتاب التلقين للقاضى أبى محمد، وليس للمالكية كتاب مثله. توفى - رحمه الله - يوم السبت الثالث من ربيع الأول سنة ست وثلاثين وخمسائة. وقد نيف على الثمانين.

* كتب إلىَّ من المهدية يجيزنى كتابه المسمى «بالمعلم فى شرح مسلم»، وغيره من تواليفه.

ويبدو أن فهرست شيوخ القاضى عياض «الغُنية» لم يتسع للكثيرين من الشيوخ الذين أخذ عنهم، فنحن نجد عددًا كبيرا من الروايات والأخبار، عن شيوخ القاضى عياض مما لم يُضَمّنه فهرسته هذه. مثال ما ورد فى كتاب «التعريف» لولده محمد، والمعجم لابن الأبار[٢]، وبعض كتب القاضى عياض «كترتيب المدارك» مثلا.

أما ما أورده الونشريسى حيث قال[٣]: وفى فهرست القاضى أبى الفضل عياض - رحمه الله - عن الشيخ أبى بكر بن البراء الخزرجى... إلخ.

---

(١) ترجمته فى الغنية ص ٦٥.

(٢) المعجم ١٣٠٧ فى ترجمة سراج بن عبد الملك.

(٣) المنهج الفائق والمنهل الرائق ص٤٩-٥٠، وقارن بالتعريف ص ٧٦، ٧٧.

فيبدو أن الونشريسى نقله عن «التعريف» وذكر أنه ورد فى فهرست شيوخ القاضى عياض، ظنا منه أن أبا عبدالله محمد بن عياض أخذه عن فهرسة أبيه.

ومما يؤكد ما ذهبتُ إليه، ما ذكره عدد من الشيوخ والعلماء، ممن وصف «الغنية» أو نقل عنها، فقد عدَّد محمد بن عياض أسماء شيوخ والده، ونقل كثيرا عن الغنية، غير أن محمدًا اضطرب عليه الأمر فيما يبدو حين عدد أشياخ والده، مما ترك من أتى بعده فى حيرة من أمرهم قال:[١]

«انتهى أشياخه الذين ضم إلى فهرسته ممن سمعه أو أجازه، واليسير منهم لقيه وجالسه ولم يسمع منه إلى مائة شيخ حسبما يأتى بعد هذا فى تسمية شيوخه، رحمه الله».

وسمى فى موضع آخر شيوخ أبيه، وذكر عددهم بحسب الحروف[٢] حرف الألف سبعة عشر (وسمّاهم)، حرف الخاء أربعة وسماهم، حرف الميم أحد وثلاثون، حرف العين سبعة وعشرون - إلّا أنه سمى ستا وعشرين، حرف الغين واحد، حرف السين خمسة، حرف الشين واحد، حرف الهاء اثنان، حرف الياء أربعة.

وبهذا يكون عدد الأشياخ سبعة وتسعين إلا أنه سمّى ستة وتسعين، وقال بعد أن ذكرهم:[٣] «هذه جملة ما فى فهرسته - رحمه الله - وترك جماعة ممن لقيهم، وذاكرهم وحضر مجالس نظرهم من الفقهاء والرواة، ممن لم يحمل عنهم اقتصارًا على ما ذكره وفيه كفاية.

من هذا نستنتج أن عدد تراجم «الغنية» نحو المائة دون تحديد، ومع أن ابنه قد ذكر أن عدد شيوخه مائة إلّا أنه عدَّ منهم ٩٨ فقط. وأن القاضى عياض لم يضمنها جميع تراجم شيوخه، واقتصر عند ذكر من ترجم لهم على إيراد بعض أخبارهم، وقد صرح هو نفسه بذلك.

---

(١) التعريف ص ٩، ١٠.
(٢) التعريف من ص ١١٩ - ١٣٢.
(٣) التعريف ص ١٣٣.

هذا - ويعتبر كتاب «الغنية» وثيقة مهمة، تبين لنا طرق الاتصال الثقافى والفكرى، وحركة التبادل العلمى بين المغرب والمشرق.. وتبرز أهميته فيما تضمنه من ضبط لسلاسل السند والرواة، وما يلقيه من ضوء على طرق الاتصال الثقافى، ونوعية الكتب والمعارف، التى كانت سائدة فى عصر القاضى عياض. والتى كان لها دور فى تكوين شخصيته الفذة.

وكتاب «الغنية» على صغر حجمه عظيم الفائدة، إذ تتبين من خلاله المصادر، التى استقى فيها عياض ثقافته المتشعبة، ولعل أول ما يلاحظه الدارس هو هذا العدد الضخم من الكتب التى رواها وسمعها، إضافة إلى الكثير من الأخبار والروايات، كما قُيِّض له أن يحمل عن عدد من المشايخ المشرقيين، إما سماعًا أو إجازة، فحصَّل علما جمًّا، وصار مدار الرواية فى الأندلس عليه.

خامسا: مصنفاته الأدبية

١ - كتاب التنبيهات.

انفرد بذكره ابن خلكان[١]، وقال: إنه جمع فيه غرائب وفوائد.

٢ - كتاب خطبه[٢]

وقد تم العثور على مجموعة من خطبه، إلا أن هذه المجموعة من الخطب ليست المقصودة هنا[٣]

٣ - سر السراة فى آداب القضاة[٤]:

قال أبو عبد الله فى التعريف - رأيت أيضا هذه الترجمة بخطه، ولم أجد من هذا الكتاب شيئا. ولا وقفت على خبر.

---

(١) وفيات الأعيان ١٥٢/٥

(٢) ذكره ابنه فى التعريف ص١٣٣.

(٣) انظر ملاحق البحث.

(٤) التعريف ص١٣٤.

بينما جاء فى الإحاطة[١]: ومما تركه فى المبيضة: سر السراة.. إلخ.

٤ - كتاب سؤالات وترسيل[٢]:

ذكره الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى ضمن ثبت مؤلفاته.

٥ - غنية الكاتب وبغية الطالب فى الصدور والترسيل[٣]

هكذا أورده أبو عبد الله فى التعريف، أما بقية المصادر فمختلفة فى إيراد هذا الاسم.

ففى كشف الظنون «فى صدور الرسائل» وفى الإحاطة[٤] «فى الصدور أو الرسائل»

وقال ابن خاتمة: «كتاب فى سؤالات وترسيل له» فى نحو أربعة أسفار، وهو مفقود.

٦ - غريب الشهاب[٥]:

وهو مفقود

٧ - كتاب القواعد[٦]:

٨ - المقاصد الحسان[٧]:

قال أبو عبد الله فى التعريف: وهو من الكتب التى لم يكملها، وقد تركه فى المبيضة، وهو فى جزء. وذكر ابن خاتمة: إنه فى سفرين. وهو مفقود.

---

(١) الإحاطة ١٨٣/١ وورد ذكره فى أزهار الرياض ٢٣٨/٢.
(٢) مقدمة كتاب ترتيب المدارك الصفحة (كد).
(٣) التعريف ص١٣٣، والمقرى: أزهار الرياض ٢٣٩/٢.
(٤) الاحاطة ١٨٣/١.
(٥) كشف الظنون ١٠٢٧/٢، وهدية العارفين ٨٠٥/١.
(٦) هدية العارفين ٨٠٥/١.
(٧) التعريف ١٣٣، والاحاطة ١٨٣/١، وأزهار الرياض ٢٣٨/٢.

هذه هى مؤلفات القاضى عياض ومصنفاته كما وردت فى المصادر المختلفة.. ونظرة فاحصة فى هذه الآثار، تجعل الباحث يرجح أن يكون بعضها قد صار لها أكثر من اسم.

من ذلك كتابه فى التاريخ، قد نجد له خمسة أسماء، وهى:
١ - أخبار القرطبين.
٢ - تاريخ المرابطين.
٣ - الجامع فى التاريخ.
٤ - العيون الستة فى أخبار سبتة.
٥ - الفنون الستة فى أخبار سبتة.

هذه الأسماء الخمسة. ليست إلا فصولا لكتاب واحد، كما يقول الأستاذ عبد السلام شقور[١].

فقد ذكر الذهبى فى تذكرته، أن لعياض كتابا فى التاريخ، أربى على جميع المؤلفات، جمع فيه أخبار ملوك الأندلس والمغرب، واستوعب أخبار سبتة.

وهذا صاحب طبقات المالكية، ينقل عن ابن مرزوق قوله: «وكتابه فى التاريخ، ألف فيه أخبار الملوك بالأندلس والمغرب من لدن دخول الاسلام إليهما، واستوعب أخبار سبتة، وقضاتها وفقهائها، وجميع ما جرى فيها من الأمور، وغير ذلك[٢]

والمعروف عن القاضى عياض أنه كثيرا ما كان يشير إلى كتبه، إلا أنه لم يشر إلّا إلى كتاب واحد له فى التاريخ، وذلك فى معرض حديثه عن عبد الله ابن ياسين[٣].

وهناك كتاب آخر للقاضى عياض، يظهر أن اسمه تعدد أيضا، ذلك هو كتاب «الإعلام بحدود قواعد الإسلام» فقد ذكره بعضهم باسم كتاب العقيدة»،

(١) القاضى عياض الأديب ص١١٥.
(٢) مجهول طبقات المالكية ورقة ٣١٥ نقلا عن المرجع السابق.
(٣) ترتيب المدارك ج٤ ص/٧٨١.

وذكره أحدهم باسم «القواعد»، وورد فى كشف الظنون باسم «الإعلام فى حدود الأحكام»[١].

وقد سبق أن ذكرنا بعض الكتب المنسوبة للقاضى عياض، والتى تردد ذكرها بصفة خاصة لدى المشارقة. وليس من الطبيعى فى شىء أن يعرفها المشارقة ولا يذكرها المغاربة، لذلك يرى الأستاذ شقور[٢] - وهو مغربى - أنه لا تصح نسبتها للقاضى عياض، وهى:

١ - السيف المسلول على من سب الرسول.
٢ - الصفا بتحرير الشفا
٣ - غريب الشهاب.
٤ - مطامح الأفهام فى شرح الأحكام.

ويقول: إن القول الفصل فيما يخص كتب عياض، لن يكون ممكنا ما دامت كثير من كنوز المكتبات بعيدة عن أيدى الباحثين، وليس بعيدا أن تظهر فى يوم ما مؤلفاته التى تعتبر الآن مفقودة. فهذا معجمه يظهر فى مكتبة بالجزائر[٣]. وهذه بعض خُطبه تظهر فى مراكش.

وهناك كتب أخرى نسبها بروكلمان[٤] للقاضى عياض، وهى: «شرح مشكلات الصحيحين».

والغالب أن هذا الكتاب هو «مشارق الأنوار»، على أن المشارق فى شرح مشكلات كتب الصحاح الثلاثة، كما ذكرنا - لا فى شرح الصحيحين فقط.

والكتاب الثانى، الذى انفرد بروكلمان بنسبته لعياض، هو «منهاج العوارف إلى روح المعارف»

وكتب القاضى عياض - كما رأينا - تندرج تحت ثلاثة علوم هى: الحديث،

---

(١) حاجى خليفة ١٢٧/١.
(٢) القاضى عياض الأديب ص١١٧.
(٣) مخطوط رقم ٥٨.
(٤) تاريخ الأدب العربى - الجزء الخامس (ترجمته).

والفقه، والتاريخ وهى ليست ترفا فكريا، ولكنها ثمرة وضع ثقافى شهده المغرب فى ظل المرابطين بكل إشكالاته.

فقد كان المغرب يشهد أيام المرابطين – فى عصره – نهاية صراع عنيف على جميع المستويات، ولقد أسفر هذا الصراع عن ميلاد ما يمكن تسميته بمقومات الشخصية الثقافية للمغرب، فقد تحددت معالم هذه الشخصية، وأصبح للمغرب اتجاهه المذهبى والثقافى على العموم.

وكتب القاضى عياض تبلور هذه الشخصية الثقافية[1].

ومعروف أن العصر المرابطى عرف اتجاهات ثقافية متعددة، منها الاتجاه الفقهى، وهو الاتجاه الرسمى، والاتجاه الصوفى، ولم يكن منسجما مع الأول، والاتجاه الكلامى، ويبدو أنه كان يقف موقفا وسطا بين هؤلاء وأولئك. وعياض من هذا الاتجاه، يمثل الاتجاهات الثلاثة كلها.

وكتب القاضى عياض، بما تطرقت إليه من موضوعات وقضايا، تصور أصدق تصوير الاتجاهات المختلفة. ويمكن القول إن «الشفا» بشكل خاص يصور كل هذه الاتجاهات.

وإذا تجاوزنا التقسيم الشكلى والموضوعى لمؤلفات القاضى عياض، وجدنا أن علمه فيها كان منصبًا على تحقيق هدفين اثنين، وهما:

١ – توثيق النصوص نظريا وتطبيقيا، فى مجالى الحديث والفقه، ويظهر ذلك جليا فى «المشارق» و «الإلماع» و «التنبيهات». وهدف القاضى عياض من ذلك، وضع نصوص محققة فى الحديث. وفى الفقه، أمام بصر الفقيه، وقدم بعمله هذا خدمة جليلة، لكل من أراد البحث فى الحديث.

٢ – والهدف الثانى: هو الدفاع عن المذهب المالكى، والجزء الأول من كتابه «ترتيب المدارك» كله فى الدفاع عن المالكية، وجميع اللآحقين بعده، عيال عليه فى هذا الباب.

---

(١) عبد السلام شقور ص١١٩.

أراد القاضى عياض ترسيخ جذور المالكية فى المغرب، فاهتم بالمذهب ويرجاله. ولا يعنى هذا أن المالكية كانت غريبة عن المغرب إلى أن جاء عياض.. لا أحد يقول بهذا، لأن جذور المذهب المالكى ترجع إلى عصور سابقة لعصر عياض، ولكن لا أحد ينكر ما لتآليف القاضى عياض من تأثير على وضع المذهب فى المغرب.

إن المالكية فى المغرب عرفت دورًا جديدًا من حياتها على يد عياض، كما قال الباحث الفرنسى برونسفينك فى بحثه الهام عن المالكية بالمغرب(١).

ومن الأكيد أن تأثير مؤلفات القاضى عياض قد تجاوز عصره إلى العصور اللآحقة، وذلك لأن هذه الكتب ظلت طوال العصور منهلا يغرف منه الأجيال جيلا بعد جيل، فقد رزق الله كتبه من السرّ والقبول ما جعل الأجيال اللاحقة تدرسها وتشرحها وتلخصها(٢).

ولعلنا لا نبالغ إذ قلنا إن عياضا ساهم بكتبه إلى حد كبير فى صياغة الثقافة المغربية، وطبعها بطابع خاص.

---

(١) مجلة الأندلس ص٤٥٣ وما بعدها سنة ١٩٥٩.

(٢) أغلب كتب القاضى عياض عليها شروح وذيول وتلخيصات، فشروح «الشفا» كثيرة، فقد شرحه المغاربة والمشارقة. وكتاب «ترتيب المدارك» اختصره غير واحد. وحتى الكتيب الصغير «الإعلام بحدود قواعد الإسلام» عليه شروح كثيرة. [انظر مقدمة التعريف للدكتور محمد بن شريفة]

الفصل السادس

أدبــــه

يستطيع الباحث المدقق فى أدب القاضى عياض، أن يرى أن هناك ثلاثة روافد، تجرى جميعا لتصب فى مجرى الأدب عنده.

الأول: الأدب الإنشائى بفرعيه: الشعر، والنثر الفنى.

الثانى: الأدب الوصفى بشقيه: تاريخ الأدب، والنقد الأدبى[(١)]

الثالث: الأدب التعليمى.

ويهمنا فى هذا البحث، أن نقف عند الرافد الأول وهو أدبه الإنشائى.

أولا: شعره

للقاضى عياض شعر كثير، ولكن يبدو أنه ضاع منه الكثير، لعدة أسباب أهمها.. عدم اهتمام القاضى عياض نفسه بأن يُعرف أنه شاعر، لذلك لم يُولِه اهتمامه، ولم يدونه، ولم يقيده. وفى ذلك يقول أبو عبد الله - ابنه - فى «التعريف»:

«كان شعره - رحمة الله عليه - فى شبيبته كثيرا، لكنى لم أجد منه بخطه إلّا يسيرا» ثم يضيف:

«وأكثر ما عندى منه، إنما أخذته عن أصحابه - لا عنه، لأنه لم يدونه، ولا قيده، ولا أرى أن يؤثر عنه، ولا أعتقده[(٢)]

(١) انظر البحث القيم الذى كتبه الأستاذ عبد السلام شقور وعنوانه «القاضى عياض الأديب» الفصل الخاص «بالنقد عند القاضى عياض».

(٢) التعريف ص١٠٣.

وهذا القول يؤكد أن القاضي عياض لم يهتم بجمع شعره، بل ما كان يرى أن يؤثر عنه - حتى لا يعرف أمام القوم بأنه شاعر، بل كان يكفيه أن يعرفه الناس قاضيا وإماما محدثا، فقيها عالما بالقرآن.

ويرى الأستاذ عبد السلام شقور، أن قول أبي عبد الله، فيه شيء من المبالغة، وإذا صحّ هذا الموقف بالنسبة للفقهاء في المغرب، فإنه لا ينطبق على القاضي عياض، ولعل كلام أبي عبد الله - ابنه - ينطبق على لون خاص من الشعر - لا على الشعر بصفة عامة، وإلا فمن المعروف أن القاضي عياض كان يراسل أصدقاءه شعرا، كما أنه ضمّن كتبه الكثير من شعره. وهذا الشعر الكثير، الذي ضمنه حنينه وتشوقه الشديد إلى الروضة الشريفة، وهو أكثر ما بقي من شعره، لا يمكن إلا أن يكون عياض راضيا عنه.

وقد ذكر ابنه، أنه يروم جمع شعر والده، أو ما اجتمع له منه على الأصح في ديوان[١] إلا أننا لا نعرف إن كان قد وفىً بما قال، أم لا، فلا أثر لهذا الديوان في المجامع التي اهتمت بأدبه.

وقد ذكر ابن جابر الوادياشي، في برنامجه - أنه جمع ما صدر عن عياض من شعر، وأثبته في آخر نسخته من الشفا، إلا أنه لا أثر لهذه النسخة من الشفا، ولا لترجمة القاضي عياض التي كتبها ابن جابر كذلك[٢]

وهذه الأقوال وغيرها تدل على أن القاضي عياض خلّف شعرا كثيرا، وذلك ليس بغريب، إذا علمنا أن عياض أكثر من قول الشعر في شبابه، نظرا لتوفر حوافز قول الشعر.. وكذلك الحال في شيخوخته، فقد ألجأته ظروف عديدة، وعوامل شتى، سياسية، وغير سياسية إلى قول الشعر، من أجل استعطاف عبد المؤمن، ومن أجل دفن الأمه في بحر الشوق إلى الرسول المصطفى - صلى الله عليه وسلم - والدليل على ذلك هذه المطولات من المدائح النبوية، المشحونة بالآلام والآمال.

---

(١) التعريف ص١٠١.

(٢) الوادياشي: برنامجه ص٢١٨.

* أما مصادر شعره، فيمكن تحديدها فيما يلى:

١ - كتاب ولده «التعريف»، فقد أورد له مقطوعات شعرية، مختلفة الطول والغرض والبناء الشعرى، وكأنما أراد ابنه أن يقدم للقارئ نماذج جامعة لفنون الشعر عند والده، فجاءت المقطوعات الشعرية - التى أثبتها - متنوعة الأغراض بين الحنين. والتوسل، والنسيب، ومشتملة على نماذج من المتشابه، أو لزوم ما لا يلزم[1]

٢ - كتاب قلائد العقيان - لابن خاقان - فقد أثبت الفتح فى كتابه ست مقطوعات شعرية، للقاضى عياض. مجموع أبياتها تسعة وعشرون بيتا، ليس منها بيت واحد مذكور فى التعريف.

٣ - كتاب أزهار الرياض، للمقرى، حيث اعتمد على المصدرين السابقين فيما أورداه من شعر، وإن كان قد زاد عشر قطع شعرية أخرى لم ترد فيهما، بل نقلها عن جماعة ممن جمعوا نظمه.[2].

٤ - أما المصدر الرابع فهو كتبه، فقد ضمن كتبه بعض شعره، الذى له صلة بمواضيعها.

* ففى كتاب الشفا، أثبت القطعة الشعرية التى مطلعها:[3]

يـادارَ خيرِ المُـرْسَلِينَ وَمَنْ به   هُـدَى الأَنَامِ وخُصَّ بـالآيَاتِ

* وضمن كتابه ترتيب المدارك قصيدتين أخريين، مطلع الأولى:[4]

إذَا ذُكِرَت كُتب العُلومِ فَخَيْرُها   كتَابُ الموَطَّأ مِنْ تَصَانِيفِ مَالِكِ

ومطلع الثانية:[5]

يا سائلًا عَن حَمِيدِ الهُدَى والسُّنَن   اطلبْ هُدِيتَ - عُلُومَ الفِقْه والسُّنن

(١) التعريف ص١٠٠
(٢) الأزهار ج٤ ص٢٥٤
(٣) الشفا ٥٨/٢
(٤) ترتيب المدارك ج٢ ص٧٨.
(٥) ترتيب المدارك ج١٧٩٢

* وضمن كتابه الإلماع قصيدة، يستهلها بقوله:[١]

يا طَالِبَ العِلْم استمعْ قَولَ إمرئٍ محضَ النَّصِيَحةِ للمُرِيدِ الرَّاغِبِ

٥ - أما المصدر الخامس، من مصادر شعره، فهى المجامع المختلفة، التى تضمنت كثيرا من شعره وفيما يلى بيان بما عثر عليه الأستاذ شقور من شعر فى هذه المجاميع.

١ - قصيدة من سبعة عشر بيتا مطلعها[٢]:

قِفْ بالرّكَابِ فَهذَا الرَّبْعُ والدَّارُ لَاحَتْ عَلَيْنَا مِنَ الأحْبابِ أنْوَارُ

٢ - قصيدة من تسعة وثلاثين بيتا، مطلعها[٣]:

يَاعَيْنُ هَذَا السيدُ الأكْبَرُ وَهَـذِهِ الـرَّوْضَـةُ وَالْمِنْبرُ

٣ - قصيدة من خمسين بيتا، ومطلعها[٤]:

هَذَا الَّذِى وَخَدَت شَوْقًا له الإبلُ هَذَا الحَبِيبُ الَّذِى مَامِنْهُ لِى بَدَلُ

٤ - قصيدة من خمسة وعشرين بيتا، مطلعها[٥]:

بُشْرَاكَ يا قَلْبُ. هَذَا سَيِّدُ الأمَمِ وهَذِهِ حَضْرةُ المختار فِى الحَرَمِ

٥ - قصيدة من سبعة عشر بيتا، وتبتدئ بالبيت التالى[٦]:

إلَيْكَ مَدَدْتُ الكفَّ اسْتَمْطِرُ الفَضْلَا واسْتَكْشِفُ البَلْوَى وأسْتَقطِفُ الطَّوْلا

(١) الإلماع ص ٤٣.

(٢) مجموع مخطوط بخزانة ابن يوسف بمراكش رقم٣٥٩، ومجموع بالمكتبة العامة بتطوان رقم٥١٨، ومجموع بالمكتبة العامة بالرباط رقمه٧٧٤ ومجموع آخر بنفس المكتبة رقم٢٤٤٥ د. أنظر كتاب القاضى عياض الأديب ص ٢٢١.

(٣) مجموع بخزانة مولاى يوسف بمراكش رقمه ٣٥٩

(٤) مجموع بخزانة ابن يوسف بمراكش رقمه ٣٥١

(٥) مجموع بخزانة ابن يوسف بمراكش رقمه ٣٥٩

(٦) مجموع بالمكتبة العامة بالرباط رقمه ١٦٥٤ د

٦ - قطعة شعرية من خمسة أبيات، مطلعها[١]:

أوليـاءَ الله إنِّى مَـرِيضٌ والـدّاءُ لَـدَيْكُم والشِّفَـاءُ

٧ - وقد أورد ابن المؤقت مقطوعة شعرية نسبها للقاضى عياض، دون أن يحدد مصدره، ومطلعها[٢]:

تَقَاعَدْ عَنِ الأسْفَارِ إنْ كُنْتَ طَالِباً نَجَاةً، فَفِى الأَسْفَارِ سَبْعُ عَوَائِقِ

٨ - ومما وُجد منسوبا للقاضى عياض، الأبيات الثلاثة الآتية[٣]:

لمحبـرةٌ تُجَـالِسُنِى نَهَارًا أَحَبُّ إلىّ من أُنْسِ الصَّدِيقِ
ورُزْمَةُ كَاغِدٍ فى البيتِ عندى أَحَبُّ إلىّ من حَمْلِ الدقيقِ
ولَطْمَةُ عَالِمٍ فى الخَدِّ منىّ أَحَبُّ إلىّ من كأسِ الرَّحِيقِ

٩ - وهناك بيتان نسبهما إليه عبد الله كنون فى النبوغ، وهما[٤]:

رأت قَمَـرَ السَّمَـاءِ فـاذكَـرتْنى لَيَـالى وَصْلِهـا بـالـرَّقْمَتَـيْن
كِـلاَنَـا نَـاظِـرٌ قَمَـرًا ولِكنّ رَأيْـتُ بَعَـيْنِهـا ورَأَتْ بَـعَيْـنى

١٠ - وهناك أبيات أربعة عزاها مؤلف كتاب يتيمة العقود الوسطى لعياض، وذكر مؤلفه أن القاضى عياض نظمها بـ«داى» أيام قضائه بها، ومطلعها[٥]:

ربّ ورْقَـاءَ هَتُوفَ فِى الضُّحَى ذَاتِ شَجْـوٍ صَـرَخَتْ فِى فَنَنِ

---

(١) مجموع بالمكتبة العامة بالرباط، رقمه ٢٣٢٨ د
(٢) السعادة الأبدية ص٧٧
(٣) عبد الصمد التهامى، كتاب النسق الغالى والنفس العالى ص٤١١. ونسبها إليه أيضا كارل بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى ج، ١٧٦٥٥
(٤) النبوغ المغربى ج٣ ص٥٣
(٥) المعزى فى أخبار أبى يعزى ص١٥

وما من شك فى أن هذا القدر من الشعر كاف لاستخلاص تصور واضح عن القاضى عياض الشاعر. خصوصا أن هذا الشعر موزع بين أغراض شعرية شتى.

والناظر فى شعر الرجل، يلاحظ أن الأغراض الشعرية فى شعره متداخلة، ففى شعره الدينى، نجد فى القصيدة الواحدة توسلا وتأملا، ومدحا للرسول، وهى أغراض كلها على أى حال متقاربة، والمعتمد فى تصنيف شعره الآخر، النزعة الغالبة على القصيدة، ذلك أن النص الشعرى الواحد، يمكن وضعه فى باب النسيب، إلى جانب الإخوانيات، كما يمكن ضمه إلى المديح.

وسنقف الآن عند بعض أغراض الشعر عنده.

(أ) المدائح النبوية فى شعر القاضى عياض

لم يقيض الله - جلّت مشيئته - للقاضى عياض أن يزور الرسول المصطفى - ﷺ - أو يتمتع بروضته الشريفة فى مسجده بالمدينة المنورة، وقد ظل الشوق إلى الروضة الشريفة يؤرقه طوال حياته، ويبدو أن هذا الشوق كان يتأجج فى قلبه كلما تقدم به العمر.

ولم تذكر المصادر الأسباب التى حالت دون حج بيت الله الحرام، وزيارة الرسول - ﷺ - إلا ما ذكره محمد الأمين الصحراوى[١]، من أن القاضى عياض، كان قد عزم على الرحلة بقصد الحج والزيارة، فمنعه الموحدون.

ولعل الصحراوى استنتج ذلك، من قوله فى قصيدته التائية[٢]:

يا دارَ خَيرِ المرْسَلِينَ وَمَنْ بهِ   هـدْى الأنَام وَخُصَّ بـالآيـاتِ
عِنْـدِى لأجْلِكَ لوعـةٌ وصَبَابَـةٌ   وتَشَـوّقٌ متـوقّـدُ الجَمَـراتِ
وعلىّ عَهْدٌ أن مَلأْتُ مَحَاجِرِى   من تلكم الجدرات والعرصـاتِ

(١) المجد الطارف والتالد ص٤٠١

(٢) الشفا ج٢ ص٥٨.

لا عفن مَصُونَ شِيبي بَيْنَها مِنْ كَثرةِ التَّقبِيلِ والرَّشَفَاتِ
لولا العوادى والأعادى زرتها أبدًا ولو سَحْبًا على الوجنَاتِ

فالبيت الأخير قد يستنتج منه ذلك.

إن الذى لا شك فيه، أن القاضى عياض عاش حياته فى شوق دائم، وحنين مستمر إلى زيارة الرسول - ﷺ، لذلك وجد فى سيرته نوعا من الصبر والعزاء على ما يكابده من شوق، ووجد فى مديحه الصبر والسلوان، بعد أن سلبته ظروف الحياة، كل أمل فى زيارته، فَرَاح يقول:

أَتَرَانِي ومَا عَسى أنْ تَرانِي آخِذًا مَرَّةً أَمَانَ الزمَانِ
صَرَفَتْنِي صُرُوفُه كلَّ عِلْقٍ مِنْ شَبَابٍ وصَاحبٍ وأَمَانِ

وراح يترجم عواطفه وحنينه، ولواعج نفسه شعرًا فى مديح المصطفى صلى الله عليه وسلم. ويردد فى كل مناسبة[1]

بُشْرَاكَ يا قلبُ هَذَا سَيِّدُ الأُمَمِ وَهَذِهِ حَضْرَةُ المُخْتَارِ فى الحَرَمِ
وهَذِهِ الرَّوْضَةُ الغراءُ طَاهِرَةً وهَذِهِ القُبَّةُ الخَضْرَاء كالعَلَمِ
وَمِنْبرُ المُصْطَفَى الهادِى وحُجْرَتُهُ وصَحْبُهُ والبَقِيعُ دَائِرٌ بهمِ
فَطِبْ وَغِبْ عَنْ عُمُومٍ كنتَ تَعْرِفُها وَسَلْ تَنَلْ كلَّ ما تَرْجُوهُ مِنَ كَرَمِ

والبيت الأخير ذو دلالة خاصة بالنسبة لما كانت عليه نفسية الرجل.

* وتتشابه مطالع مدائحه فى هذا المجال، فنراه دائما يصيح معبّرا عن فرحته بزيارة الحبيب المصطفى - ﷺ - من مثل قوله:[2]

هَذَا الَّذِى وَخَدَت شَوْقًا لَهُ الإبِلُ هَذَا الحَبِيبُ الَّذِى مَامِنْهُ لِى بَدَلُ
هَذَا الَّذِى مَارَأَتْ عَيْنٌ ولَا سَمِعَتْ أُذْنٌ بأكْرَمَ من كَفَّيهِ إنْ سَألُوا

---

(١) انظر الملحق الخاص بشعره فى دراسة الأستاذ شقور ص ٣٣٩
(٢) ملحق الشعر ص ٣٤٢

* ويبدو أن القاضى عياض كان يجد فى هذا المديح بعض العزاء فى الارتواء عن بُعد[١]

إنْ لَمْ تُعَايِنْ تَرَاهُ العينُ يَا أَسَفِى ... أَوْ لَمْ تَزُرْهُ فَإِنَّ الشَّوْقَ زَوّارُ

* لقد وصلتنا كثير من قصائد القاضى عياض، فى التشوّق إلى الرسول المصطفى - ﷺ - كاملة لحسن الحظ، وقارئها يجد أنه بصدد نسيج واحد، فالمعانى متشابهة متقاربة، والبناء الفنى يكاد يكون هو هو فى جميع ما وصل إلينا من شعره فى هذا الباب.

والباحث المتأمل، يستطيع أن يدرك أن كل مديحة منها تتكون من أربعة عناصر:

العنصر الأول: فرحة الشاعر الكبرى باشرافه على الأماكن المقدسة:

فمرة يعبر عن هذه الفرحة بقوله:[٢]

بُشْرَاكَ بُشْرَاكَ قَدْ لاحت قِبابُهُم ... فانْزِل فَقَدْ نِلْتَ مَاتَهْوَى وتَخْتَارُ
هَذَا المُحَصَّبُ، هَذا الخيفُ، خِيفُ، مِنَى ... هَذِى مَنَازِلُهُم، هَذِى هِىَ الدَّارُ

ومرة بقوله:[٣]

بَادِرْ وسَلِّمْ عَلَى أَنْـوارِ رَوْضَتِهِ ... قَبْلَ المَمَاتِ. فَلَا تُشْغِلْكَ أَعْذَارُ

ومرة يقول:[٤]

يَـاعَيْنُ هَذَا السَّيدُ الأَكْبَرُ ... وَهَــذِهِ الـرَّوْضَـةُ والمِنْبَـرُ
فَشَاهِدِى فِى حَرَمِ المُصطَفَى ... مِنْ نُورِهِ السَّاطِعِ ما يُبْهِرُ
يَـاعَيْنُ ذَا مـا كنتِ تبْغِينَـهُ ... فَمـا لأَجْفَـانِـكِ لا تُمْطِرُ

---

(١) ملحق الشعر ص٣٣٢. وأنظر ملحق الشعر الملحق بهذه الدراسة.
(٢) ملحق الشعر ص ٣٣١
(٣) الملحق الشعرى ص ٣٣١.
(٤) الملحق الشعرى ص٣٣٣.

ولا يخفى على القارئ ما فى هذه المطالع من تشابه كبير، وذلك ما يؤكد ما سبق أن قلناه من أن هذه المدائح نسيج يد واحدة، وإخراج عقل واحد.

والظاهرة الواضحة فى هذه المقدمات، استخدام القاضى عياض لاسم الإشارة «هذا» فى أكثر من مطلع، ولعل هذا كان يوحى إليه بالقرب من الرسول الكريم، زيادة على التعظيم.

وظاهرة ثانية فى هذه المطالع، وهى قدرة الشاعر على استحضار الغائب البعيد، متخطيا ومخترقا حاجز الزمان، ونطاق المكان. استمع إلى قوله مرة أخرى:[١]

قِفْ بالرِّكَابِ فَهَذَا الرَّبْعُ والدَّارُ ... لَاحَتْ عَلَيْنَا مِنَ الأَحْبَابِ أَنْوارُ
بُشْرَاكَ بُشْرَاكَ قَدْ لَاحَتْ قِبَابُهُم ... فانْزِلْ، فَقَدْ نِلْتَ مَا تَهْوَى وتَخْتَارُ
هَـذِه قِبَابُ قُبَـا آثَـارُ وَطْئِهِم ... وَذَا هُوَ الجِزْعُ، فابْكِ، ذَا هُو الغارُ

● والعنصر الثانى: هو مدح الرسول المصطفى ﷺ. ويشغل هذا العنصر حيزا كبيرا فى صلب القصائد من مثل قوله فى مديحته الرائية:[٢]

كُـلُّ مَقَـامٍ قَـدْ سَـمَا قَـدْرُه ... فِى هَـذِهِ الحَضْـرَةِ مُسْتَصْغَـرُ
تجمَّـعَ الفضـلُ بِهـا والنَّـدَى ... والجـودُ والسُّـؤْدُدُ والمتجَـرُ
بـاسِمِكَ يـاربِّ قُـرِنْتَ اسمَـهُ ... فـإنَّـه يُـذْكَـرُ إذْ تُـذْكَـرُ
صِفَـاتُـهُ العَلْيَـاءُ كـلُّ الـوَرَى ... عَنْ حَصْرِها، والقَطْرُ لا يُحْصَرُ
مَنْ خَصَّـهُ اللهُ تَعَـالَى اسمـه ... بقـولـه «فـاصْـدَعْ بما تؤمـرُ»
بَـدْرُ دُجى، أَصْحَـابُـهُ أَنجُمٌ ... بَـحْـرُ نَـدَى، أَنمُلُهُ أَبحـرُ

وقوله فى مديحته اللامية:[٣]

هَذَا الَّذِى جَاءَتْ الأَخْبَارُ واتَّفَقَتْ ... قِدَمًا عَلَى بَعْثِهِ الأَحْبَارُ والمِلَلُ

---

(١) يقصد مسجد قباء، وقد قصر الممدود. انظر الملحق الشعرى ص ٣٣١.
(٢) الملحق الشعرى ص ٣٣٣.
(٣) الملحق الشعرى ص ٣٤٢.

هَذَا الَّذِي كَانَ مِنْ سَيْفِ بن ذِي يَزَنٍ   مَعْ جَدِّه نَبأُ مَنْ بَعْثُهُ جَلَلُ
هَـذَا مُحَمَّـدٌ المَــاحِي وأَحْمَـدُهُمْ   هَذَا أَبُو القَاسِمِ المَاحِي إِذَا جَهِلُوا
هَذَا الَّذِي فِي قُرَيشٍ قَدْ سَمَا نَسَبًا   أَبًا وأمًا فمَغْنَى المجدِ مُكْتَمِلُ

ويقول فى مديحه أخرى رائية(١)

هَذَا النبيُّ الحِجَازِيُّ الَّذِي شَهِدَتْ   لَهُ بتَقْدِيمِهِ فِي الرُّسُلِ أَخْبَارُ
هَذَا الحَبِيبُ الذى أَسْرَى لخَالِقِهِ   لَيْلًا، وقَدْ ضُرِبَت باللَّيلِ أَسْتَارُ
هذا الشفيعُ الذى تُرْجَى شفَاعَتُهُ   لِلمُذْنِبِينَ إذَا ما اسْوَدَّت النارُ
بَادِرْ وسلّم على أَنـوَارِ رَوْضَتِهِ   قبلَ المماتِ، فلا تشغلك أَعْذَارُ

● العنصر الثالث من عناصر مدائحه - هو التضّرعات والتوسُّلات

وهو فى هذا المجال يطيل ما شاء الله له أن يطيل. ويبدو أن هذه التضرعات والتوسلات كانت تنفيسا عما فى صدره، من هموم وأحزان، خاصة بعد أن سلبه الزمان كل عزيز من الشباب والصاحب والأمان.

سَلَبَتْنِي صُـــرُوفُــهُ كـلَّ عِلْقٍ   مِنْ شَبَــابٍ وَصَاحِبٍ وأَمَــانِ

فلا عجب إذًا أن تأتى هذه التوسلات حارّة صادقة، من مثل قوله فى مناجاة الرسول ﷺ(٢).

يَاسَيِّدِى يارسولَ الله خُذْ بِيَدِى   فَحَوْضُ فَضْلِكَ مَوْرُودٌ لِكُلِّ ظَمِ
ياسيِّدِى يارسولَ الله خُذْ بِيَدِى   فالعَبْدُ ضَيْفٌ وَضَيْفُ الله لَمْ يُضَمِ
ياسيِّدِى يارسولَ الله خذ بيدى   يامَنْ لقاصِدِهِ أَمْنٌ، مِنْ النِّقَمِ
ياسيدي يارسو ل الله يامَنْ ضيفُ سَاحَتِهِ   يبيتُ فِي الأَمْنِ، فى خَيْرٍ وفى نِعَمِ
فَقَدْ أَتَيْتُكَ أَرْجُو منْكَ مَكْرُمَةً   وأنتَ أَدْرَى بما فى القلْبِ مِنْ أَلَمِ
والحالُ يُغْنِي عَنِ الشَّكْوَى إِلَيْكَ وقَدْ   عرفتَ حالى، وإنْ لم أَحْكِهِ بِفَمِ

---

(١) الملحق ص ٣٣١.
(٢) الملحق ص ٣٣٩.

وقوله فى مديحته الرائية[١]:

يـارحمـةَ الله وَيـاشَـافِعَهـا والنـاسُ فِي حَشْـرِتِهِم حُـيَّرُ
ذَخِيرَتِي حبُّكَ يـا مُصْطَفَى فـإنـه أفـضـل مـا يـذخـرُ
يَـاكَـاشِفًـا داءً مقيـمًا ولا يشفِيـهِ إلّا مَنْ بـهِ أخْـبرُ
قـدْ عَجَزَتْ عَنْ طِبَّة قُدْرَتِي رَفَعْتُ شَـكْـوَاىَ لِمَنْ يَـقْـدِرُ
وقَـدْ تـوسَّـلْتُ إلى الله فِى شِفَـاءِ داءٍ بِـكَ يـامُـنْـذِرُ
فـاشْفـعْ فـإنى بـك مُسْتَشْفِـعٌ وانصـرْ فـإنى بـكَ مُسْتَنصِـرُ
وارحمْ فـإنى بـك مسـترحم واجـبرْ فـإنى بـك مستجـبرُ

● والعنصر الرابع فى مدائحه النبوية.. هو الصلاة على النبى

فما من مديحة من مدائحه إلا وختامها الصلاة على النبى ﷺ.

من مثل قوله فى قصيدته الرائية:[٢]

وَصَـلِّ يـاربِّ عَـلَى المُصْطَفَى وآلـه مَـا جَـادَتِ الأبْـحُـرُ
وصحبـه والتَّـابِعـينَ الألى هُمْ بـإحسـانٍ متى يُـذكَـرُ
مـا هَامَ صَبٌّ: وَهِىَ عـارضٌ وسَارَ ركبٌ أوْ سَرَى عَسْكَـرُ

ومن تصلياته فى قصيدته الميمية[٣]

ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى المُخْتارِ مِنْ مُضَرٍ خَيْرُ البريَّةِ مِنْ عَرَبٍ ومِنْ عَجَمِ
محمدُ المصطَفَى والآلُ ثم عَلَى أَصْحَابِهِ ما سَرَى رَكْبٌ لِرَبْعِهِمِ

ومنها قوله فى مديحة أخرى:[٤]

صَلَّى عَلَيْكَ إلَهُ العَرْشِ ما سَجَعَتْ ورقٌ، وما نَفَحَتْ فى الرَّوْضِ أزْهارُ
وآلـه وعَلَى أصحـابـه السُّعَـدَا ما لاَحَ نَجْمٌ وَمَا هَطَلَ مِدْرَارُ

---

(١) ملحق الشعر ص ٣٣٤.
(٢) ملحق الشعر ص ٣٣٦.
(٣) ملحق الشعر ٣٤٠.
(٤) ملحق الشعر ص ٣٣٢.

وهكذا تتشابه مدائحه فى الرسول - ﷺ - فى خواتمها، كما تتشابه فى بنائها بشكل عام. والواضح من هذا الشعر عامة، أنه يغلب عليه الطابع التقريرى، ويفقد الرواء فى قسم كبير منه لأنه شعر عالم فقيه.

ولقد حاول القاضى عياض إنقاذ فنّه الشعرى من هذه التقريرية العلمية، التى أوقعته فى هوّة الجفاف، فعمد إلى ضروب من الصناعة البديعية خاصة، من مثل قوله:

مـا هَامَ صَبٌّ، وَهَمَى عـارِضٌ وسَـارَ ركْبٌ أو سَرَى راكِبُ

وقوله:

هذا ابنُ مُرّةَ الحُلْوُ النَّدَا كرمًا والمُرُّ بأْسًا، وَنَارُ الحَرْبِ تشتعلُ

وقوله:

هذا ابنُ غالبٍ المغلوبُ حَاسِدُه والوَاهِبُ السَّالِبُ الآسادَ ما حَمَلُوا

وقوله:

هذَا ابنُ ذَبِيحِ اللهِ وابنُ خَلِيـ ـلِ الله، تِلْكَ خِلَالٌ مَا بِهَا خَلَلُ

والحقيقة أن هذا التعمد من لدن عياض فى اصطياد هذه الجناسات، لم تفد فى شىء، إذ هى لم تنقذ النص الشعرى من التقريرية التى غرق فيها. ويبدو أن الذى أوقعه فى شراك التكلف هو اتكاؤه على عناصر السيرة النبوية فى هذه القصائد، ويتضح ذلك من قوله:

هَذَا هُوَ ابنُ الذَّبِيحَيْنِ اللَّذَينِ هُمَا أَوْفَى البَرِيَّةِ: إنْ قَالُوا وَإِنْ فَعَلُوا
هَذَا ابنُ عَبْدِ مَنَافٍ خَيرُ مَنْ نَزَلَتْ به الوُفُودُ، فلَا بُخْلٍ ولا مَلَلُ
هذَا هُوَ ابنُ قُصِيٍّ سيدُ جَمَعَتْ به قريشُ، فعاد الودُّ واتَّصَلُوا
هذا ابنُ آمنةَ المَيْمونُ طَائِرُهَا آبَاؤُها غُرَرٌ للدَّهْرِ قَـدْ جُعِلُوا

فالقصيدة كم نرى نظم للأخبار المتعلقة بالرسول - ﷺ - ومما لا شك أن عياضا لم يعرف كيف يستفيد من هذه الأخبار، فاكتفى بترديدها، وكان من

الممكن أن يستلهمها بحيث تتفجر لديه ينبوعا ثرا يغرف منه ما شاء. بيد أن الخيال ينقصه.

وليس فقر الخيال هو وحده الذى يطبع هذه القصائد، ولكن هناك إلى جانب ذلك الألفاظ الجامحة، التى لا ينجح الشاعر فى إخضاعها إلى الوزن الشعرى إلا بمشقة.

ولعل ما نراه من فقر فنى فى هذا الشعر مرده إلى أن القاضى عياض نظمه فى ظروف لم يتح له فيها فرصة التجويد.

إن هذا الشعر - كما يقول الأستاذ شقور[1]، وليد الظروف التى قال عنها هو نفسه:

لجأتُ إلى بابِ الكَريمِ لِفَاقَتِي فَلَيْسَ لَنَا مَغْنًى سِوَاهُ وَلَا مَوْلَى
كَئيبًا غريبًا بافتقارٍ وضَيْعَةٍ ذَليلًا حقيرًا أهمل الفَرْضَ والنَّفْلَا

إن لجوء القاضى عياض إلى الرسول - ﷺ - كان نتيجة لما أصابه على يد أمراء الموحدين والدليل على ذلك قوله فى الدعاء عليهم، فى إحدى قصائده الدينية:

فأَنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنْ عُلَاك صَوَاعِقًا تَصِيرُ مَدَى الأَعْمَارِ أَخْبَارُها تُتْلَى

إنه بصريح العبارة لجأ إلى باب الله فرارًا من هؤلاء الذين يدعو عليهم هنا فى هذا البيت.

وأنه نظم مدائحه النبوية فى ظروف اجتمعت عليه فيها المصائب، فلم يجوّد ما نظم.

ويبدو أن المدائح النبوية - شعرا ونثرا - كانت الباب الذى دلف منه المغاربة إلى ميدان التصوف ومن الأبيات التى تدل على ذلك فى شعر القاضى عياض:[2]

---

(١) القاضى عياض الأديب ص ٢٣٥

(٢) السعادة الأبدية ٧٧

وممَّـا زَادَنِي طَـرَبًـا وتِـيهًـا   وكِـدتُ بأَخْمُصِي أَطَأُ الثريَّـا
دُخُولى تحتَ قَوْلِـكَ: ياعبادِى   وأن صيرت أحمدَ لِي نبيًّـا

(ب) النسيب

ولم يكن شعر القاضى عياض وقفا على المدائح النبوية وحدها، بل وجدنا له أشعارًا كثيرة فى النسيب، وفى الشكوى والحنين.

يلتزم القاضى عياض، فى مقطوعاته الشعرية فى باب النسيب، مبدأ أساسيا، هو الشعور بالهجران، يتفنن فيه تفننا كبيرا، ويصطنع أساليب عدة فى التعبير عن مرارته، ويحمّل الزمان مسئولية ما أصابه، من مثل قوله:(١)

وقَدْ حَالَ مَا بيْنِي وبَيْنَ أَحِبّةٍ   أَلِفْتُهم إِلْفَ الخَمَائِـلِ للقَـطْرِ
هُم أَوْدَعُـونى تبـاريـحَ لَـوْعَـةٍ   فَنَأْيُهم أذكَى وأَنْكَى من الجَمْرِ
عَلَى أَنَّ لِي سَلْوَى بأَنّ فِرَاقَهم   وإن طَالَ لم يُمْزَجْ بصَدٍّ ولا هَجْرِ
سَأَفْزَعُ للرِّيـحِ الشَّمَالِ لعلّنِي   أُحَمِّلها نَجْوَى تَلَجْلجُ فى صَدْرِى

فهو هنا يصور عاطفته، وارتباطه بأحبته، ارتباط القَطْر بالخمائل، ثم يصف ما يعانيه من ألم الفراق، وتباريح اللوعة، على أنه يجد بعض العزاء إذ إن الفراق لم يأت عن جفاء، وإنما كان ذلك اضطرارًا.

وتتردد فى شعره كثيرا كلمات الوداع، والهجر، واللقاء، والوجد، من مثل قوله:(٢)

يعـزّ علينـا تَنَـائِى الدِّيَـار   وذاك سـلامُـكَ لِي والـوَدَاعُ
لكم أملٌ كانَ لِي فى اللقـاءِ   وأمنيـة قَـدْ طَـوَاهَـا الـزمـاعْ
فلم أجنِ منها سِوَى حسـرةٍ   فـوجـدٌ جميـع وأُنس شَعَـاعْ
لئن حمـلَ القلبُ ما لايطاق   فـما كلف الجَفْن لا يستـطاعْ

(١) القلائد ص ٢٣٤

(٢) القلائد ص ٢٣٥

ومعروف أن الشعراء القدماء، منذ العصر الجاهلي، قد تفننوا فى وصف لحظات الفراق. وقد استوعب القاضى عياض كل هذه الصور الشعرية، فأخرج لنا على منوالها صورًا تذكرنا بما لدى الجاهليين، من مثل قوله فى وداع الأحبة[١]:

أقولُ وقدْ جَدّ ارْتِحَالِي وغَرّدت حـداتى وزمت للفِرَاقِ رَكَـائِبِى
وقد غَمُضَتْ مِنْ كَثْرةِ الدمع مُقْلَتِي وَطَارَتْ هواءً مِنْ فُؤَادِى تَرَائِبِى
ولم تبق إلاّ وَقْفَـة يَسْتَحِثُّهـا وَدَاعِى للأحبَابِ، لا للحَبَـائِبِ
رَعَى الله جيرانا بقرطبة العُلاَ وسَقَى - رُبَاها بالعهاد الصـوائبِ

* ومن الطبيعى أن يكون الغزل فى شعر القاضى عياض عفيفا، يجنح إلى التلميح دون التصريح، فإذا كان من عادة الشعراء المتغزلين التفنن فى وصف مفاتن المحبوبة، فإن القاضى عياض على العكس من ذلك، لا يكاد يعرج على وصف جمال محبوبته، يقول:[٢]

يا خَلِيلَىّ فاحْمِلاَ بعضَ قـولى لِلّتِى غَـادَرَتْ فُؤَادِى عَـلِيـلاَ
بلّغـا عنى الثُّـرَيَّـا سَلاَمًـا واذْكُـرانِى لها وقَـوْلا جَميـلاَ
حـلّت أنِّى ملكـتُهَـا وإذَا بِى فى يَـدَيْهَـا تخيّـلاً مُسْتَحِيـلاَ
لستُ أنسَى وكيف لى أن أنسى حينَ ألقَى الدجَى عَلَيها السُّدُولاَ
هَـلْ إلَى نَـظْرَةٍ سَبِيـلٌ فـإنّى لستُ أبغى إلاّ إليهـا سَبِيـلاَ

فلا أثر للامح التى سَبَتْه، وملكت عليه مشاعره، وتركت فؤاده عليلا.

والذى لاشك فيه، أن هذا الشعر العاطفى العذرى العفيف - إن جاز أن نستخدم هذا التعبير، جعله يبتعد كثيرا عن الإحراج، الذى قد يشعر به، وهو رجل علم ودين، وفقيه محدِّث، لذلك كان المجال فسيحا فى هذا الغرض، بعيدًا عن الحرج، عند تصوير عواطفه. من مثل قوله فى تصوير الأثر الذى أحدثته فى قلبه حبيبة حرّقت قلبه وأرقته:[٣]

---

(١) المرجع السابق
(٢) الأزهار ٢٤٤/٤
(٣) الأزهار ٢٤٧/٤ والتعريف ص ١٠٠

يا مَنْ تَحمِلُ عَنّى غير مُكْتَرِثٍ   لكنّه للضّنَى والسُّقم أوْصَى بِي
تركتَني مستهام القلبِ ذَا حُرَقٍ   أخَا جَوَى وتباريح وأوصابِ
أراقب النجمَ فى جُنَحِ الدُّجَى سهرًا   كأننى راصدٌ للنجم أوْصَابِى
وما وجدتُ لذيذَ النومَ بَعْدَكُمُ   إلّا جَنَى حَنْظَلٍ فى الطعم أوصابِ

والظاهر أن القاضى عياض لم يمر بتجربة عاطفَية، وإنما كان يحاكى الشعراء الآخرين، الذين يرسمون معالم تجربة خاصة عاشوها، حتى لا يفوته لون من ألوان الشعر، دون أن ينظم فيه، والدليل على ذلك المقطوعة السابقة، التى حاول فيها إبراز البراعة عن طريق اصطناع قيود بالغ فى الاحتفاء بها، ولم يظهر فيها أى مَعْلم من معالم التجارب العاطفية التى عاشها. ويصور ذلك أيضا قوله:(١)

أذاتَ الخَالِ كَمْ ذَا تَنْضيها   علَى سُيوفِ عَيْنِكِ انْتِضَاءُ
بمطلِكِ لِي مَوَاعِد اقْتَضِيها   منَ التُّوريدِ واللُّعسِ اقتِضَاءُ
فقضى وَعْدَ مَطْلِكِ وانْجِزيهِ   خِيَارُ الناسِ أحْسَنُهُم قَضَاءُ

والحديث عن المحبوبة - فى شعر القاضى عياض - متصل كما ذكرت بالهجران، ولعل ساعة الهجر أكثر إثارة للشعور من ساعات الوصال، وهذا الموقف عنده يذكرنا بموقف الوداع فى الشعر القديم، وفى هذا يقول:(٢)

يا رَاحِلِينَ وبالفؤادِ تحملوا   أيُرَى لكُم قبلَ المَماتِ قُفُولُ
أما الفؤادُ فعندكُمْ أنباؤه   ولواعجٌ تنتابُهُ وغَليلُ
فيرى لم علم بمنتزحِ الكَرَى   عن جفنٍ صَبّ ليلُه مَوْصُولُ
أودَى بعزمِهِ صَبرُه وإباؤُه   طرف أحم ومَبْسَمٌ مَصْقُولُ
ما ضَرُّكُم أو ضَنّكم بتحيةٍ   يَحْيَا بها عندَ الوَدَاع قَتيلُ
إن البخيلَ بلحظةٍ أو لفظةٍ   أو عطفةٍ أو وقفةٍ لبخيلُ

---

(١) التعريف ٩٩
(٢) التعريف ص ١٠١، والأزهار ج ٤ ص ٢٥١

* في الشكوى والحنين:

وللقاضي عياض إلى جانب النسيب، لون وجداني آخر، يفيض عذوبة ورقّة، هو شعره في الشكوى والحنين للأصدقاء وللبلاد التي زارها.

ومن أحسن أشعار هذا الفن، تلك الأبيات التي نظمها شوقا إلى «سبتة» ، بعد أن فارقها. وهي تصور إحساسه بالغربة ومرارتها، يقول:[1]

أَتـَرَانِي ومـا عَسَى أَنْ تـَـرَانِي آخِـذًا مـرّة أَمَـانَ الـزَّمَـانِ
صَـرَفَتْنِي صُـرُوفُـه كـلَّ عِلْقٍ مِنْ شَبَـابٍ وصَـاحِبٍ وأَمَـانِ
كـلّما حُـزْتُ بُغْيَـتِي بفُـلاَنٍ علقت كـفُّـه بـذاكَ الفُـلاَنِ
كـلّ يـومٍ طـلِعَـة لِفـراقٍ ومن العجبِ أَنْ ترى للتّدَانِي

وقد فجرت ظروف النفي في قلبه ينبوعا من الشعر، خاصة في أخريات حياته، فنراه يناجي حمامة، وهو بـ «داي» في طريقه إلى منفاه بمراكش، ويبثها لواعجه وحنينه، فيقول[2]

أقمريّة الأَدْوَاحِ بـالله طارحي أَخَـا شَجَنٍ بالنَّـوْحِ أَوْ بِغِنَاءِ
فقـد أَرّقَتْنِي من هديـك رنّـة تهيـجُ من برحي ومن بُـرَحَاءِ
لعلّكِ مِثْـلِي يـا حَمَـامُ فـإنّني غريبٌ بـ «دَاي» قد بُلِيتُ بِدَاءِ
فكَمْ من فَلاَةٍ بـ «داي» و «سبتةٍ» وخـرق بَعِيـدِ الخَـافِقَـيْنِ قِـواءِ

إلى أن يقول متشوقا إلى سبتة:

يـذكرني سَحّ المِيَاهِ بـأَرْضِهَـا دُمُوعًا أُرِيقَتْ يومَ بنت ورائِي
ويعجبُنِي في سَهْلِهَـا وحُـزُونِها خمـائلُ أشجـارٍ تـرُفّ رواءِ
لعلّ الّذي كان التفرقُ حُكمَه سَيَجْمَعُ منّا الشَّمْلَ بعدَ تنائِي

(١) الأزهار ج ٤ ص ٢٤٤
(٢) التعريف ص ٩٨، والأزهار ٢٦٧/٤

ويصل التواجد قمته بينه وبين الحمامة فيقول فى مقطوعة أخرى[1]

وَلَقَدْ تَشْكُو فَمَا أَفْهَمُهَا ... ولقَدْ أَشْكُو فَمَا تَفْهَمُنى
غيرَ أنِّى بالجَوَى أَعْرِفُها ... وَهِى أيضًا بالجَوَى تَعْرِفُنِى

* فى العلم والحضّ عليه:

وللقاضى عياض أشعار كثيرة فى الحضّ على العلم، وبذل الجهد فى سبيله، وهى وإن كانت ليس لها قيمة فنية، إلا أنه لابد من ذكرها كلون من ألوان الشعر عنده.

يقول فى تقريظ الموطأ[2]:

إذَا ذكرت كتب العلوم فخيرها ... كتاب الموطأ من تصانيف مالكِ
أسانيد أمثال الرواسى صحيحة ... ورأى كأنوار النجوم الشوابكِ
هو الحجة الغراء والعصمة التى ... ينجى هداها من جميع المهالكِ

ولسنا فى حاجة إلى توضيح الطابع التقريرى الخالص لهذه الأبيات، فلم تستطع التشبيهات التى تضمنتها من إشاعة الدفء فيها، فظهرت وكأنها معادلات رياضية.

ومن هذا اللون العلمى التقريرى، قوله فى الحض على الاهتمام بعلوم الفقه والسنة[3].

ياسائلا عن حميد الهدى والسنن ... اطلب - هُدِيتَ - علوم الفقه والسننِ
واسلك سبيلَ الأُلى حازوا نُهى وتُقى ... كانوا، فبانوا حسان السر والعلنِ
هم الأئمةُ والأقطاب ما انخدعوا ... ولا شروا دينهم بالبخس والغبنِ
أصحاب خير الورى أَخْيَارُ ملَّتِهِ ... خيرُ القرونِ نجومُ الدهرِ والزمنِ

(١) يتيمة العقود الوسطى ص ٣٢٦.
(٢) ترتيب المدارك ج ٢ ص ٧٨.
(٣) ترتيب المدارك ج ٢ ص ١٦٨.

من اهتدى بهُدَاهُم مهتد وهم نجاة من بعدهم من غَمْرةِ الفِتنِ
ومالكُ المرتَضَى لا شكَّ أفضَلُهُم إمامُ دارِ الهُدَى والوَحْيِ والسننِ

ومن ذلك قوله(١):

لمحبرة تجالسنى نهارًا أحب إلىّ من أنس الصديق
ورزمة كاغد فى البيت عِنْدِى أحب إلى من حمل الدقيق
ولطمة عالم فى الخدِّ منىٍّ أحب إلي من كأس الرحيق

ومنه قوله أيضا(٢):

خير ما يقتنى اللبيب كتاب محكم النقل متقن التقييد
خطه عارف نبيل وعناه فصيح التبييض بالتسويد
لم يخنه اتقان نقط وشكل لا، ولا عابَهُ لحاق المزيد
فكان التخريج فى طرته طرر صُفِّفت ببيض الخدود

---

(١) النسق العالى والنفس الغالى فى شرح نصيحة أبى العباس الهلالى ص ٤١١.
(٢) الإلماع ص ١٦٥.

ثانيا: نثره
«رسائله.. وخُطبه»

وللقاضى عياض مجموعة غير قليلة من الرسائل والخطب، التى احتضنتها كتب الأدب والتاريخ، والفقه والمجاميع. وقد كان للأستاذ عبد السلام شقور الفضل فى استخراجها وجمعها، ثم تحقيقها وتنسيقها. ثم دراستها[1].

وأقدم المصادر التى احتفلت برسائل القاضى عياض وخطبه:

١ - كتاب قلائد العقيان، للفتح بن خاقان.

٢ - التعريف الذى ألفه ابنه أبو عبد الله.

وعلى هذين المصدرين اعتمد المقرى فيما أثبته من رسائل وخطب للقاضى عياض، وإن كان قد أضاف إليهما ما وجده فى بعض المجاميع بفاس.

ومن المرجح أن ما يتجمع لدى الدارس من كل ذلك، لا يمثل إلا قسما ضئيلا من نثر القاضى عياض، ذلك أنه من الثابت أن له أكثر من ذلك. فهذا كتاب خطبه، الذى ذكره غير واحد، لا أثر له، وليس لدينا منه إلا خطب قليلة.

وقد كان القاضى عياض - كما ذكر مترجموه - لا يخطب إلا من إنشائه، ودواعى الخطابة كثيرة كما لا يخفى، خاصة وأنه كان سياسيا، بالإضافة إلى كونه إماما.

ومن هذا المنثور، الذى كتبه ابنه فى التعريف ترسيل والده، يقول:

«كتبت من ترسيله، رحمة الله عليه، هذه الفصول لتنبئ عن مكانته من الآداب، واكتفيت. بما أثبته مخافة التطويل والإسهاب، وإنى لأروم جمع ترسيله فى

---

(١) انظر دراسته فى بحثه القيم «القاضى عياض الأديب» فصل النثر الفنى ص١٥٥.

ديوان يشتمل من كلامه على العجب العجاب، الذى اعترف له بالسبق فيه زعماء الأدباء والكتاب»[١].

هذا ولم يُعثر على هذا الكتاب الذى يضم رسائله، ولعله ضاع كما ضاع الكتاب الذى يضم خطبه.

١ - رسائله:

كانت لدى القاضى عياض دواع كثيرة لكتابة الرسائل، ذلك أنه عالم فقيه محدِّث، بلغت شهرته الآفاق، وكان ذلك يحتم عليه الكتابة، ومشاركة الأدباء فى هذا اللون الفنى، المتمثل فى المباريات الأدبية، التى كانت رائجة فى عصره.

ورسائل القاضى عياض تدور فى مجالات ثلاثة.. كل منها قائم بذاته وله خصائصه وسماته:

أولها : مكاتبة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وثانيها: مكاتبة الأدباء فى مواضيع خاصة.

وثالثها: مكاتبة العلماء فى قضايا علمية.

وأهم هذه الأنواع وأكثرها اتصالا بموضوعنا هو النوع الأول.

وهذا النوع يبدو أنه كان شائعا لدى الأندلسيين والمغاربة منذ العصر المرابطى.

ويعلل القلقشندى سبب ذلك بقوله: «وأكثر الناس تعاطيا لذلك، أهل المغرب، لبُعد بلادهم، ونزوح أقطارهم»[٢].

والباحث المتأمل فى هذه الرسائل يجد أن الكاتبين - ومنهم القاضى عياض، كانوا يحنّون حنينا قويا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ويتشوقون إلى زيارة مسجده الشريف، للسلام عليه فى قبره الشريف.

---

(١) التعريف ص١٩٥.

(٢) صبح الأعشى ج٦ ص٤٦٩.

ونظرة فاحصة فيما كتبه القاضى عياض من رسائل إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم - يجد أن بناءها يتكون من أربعة عناصر:

«الاستهلال، والتصدير، ثم غرض الرسالة، ثم الخاتمة»

(أ) الاستهلال:

يقول القاضى عياض مستهلا رسالته: «إلى سيد ولد آدم، وشفيع العالم، البشير النذير» وينتهى هذا الاستهلال بقوله:

«من الشائق إلى زيارته، الراجى دعوته، عياض بن موسى»[1].

وهكذا يقدّم اسم الرسول - ﷺ - على اسمه تأدبا، وتوقيرًا له واحتراما.

(ب) التصدير:

بعد الاستهلال المذكور، يصدر عياض رسالته، بقوله:[2]

«بسم الله الرحمن الرحيم، وأفضل الصلوات وأزكى التسليم، على المصطفى محمد نبيه الكريم، سيد المرسلين، وإمام المتقين».

(جـ) غرض الرسالة:

وفى هذا القسم من الرسالة، وهو أهمها، يبين القاضى عياض، شوقه إلى الرسول المصطفى - ﷺ - ثم يشرع فى الدعاء والتوسل[3] - يقول:

«فيا محمداه طال شوقى إلى لقائك، ويا أحمداه ما كان أسعدنى لو متّع المسلمون ببقائك. ويا نبياه عليك منى أفضل الصلوات والبركات والتسليم، و يا حبيباه اذكرنى عند ربك فى مقامك المحمود، ويا شفيعاه اشفع لى ولوالدى فى ذلك الموقف العظيم.»

وهذا القسم كله ابتهال من قلب مفعم بحب الرسول، متأجج الشوق

---

(١) أزهار الرياض ج٤ ص١١.

(٢) أزهار الرياض ج٤ ص١١.

(٣) أزهار الرياض ج٤ ٤/١١.

لزيارته، وهو شوق - لاشك فى قلب كل مسلم، فكيف بمن كان مثل القاضى عياض فى علمه وسنه،[١] وصدق إيمانه، وطهارة نفسه؟

(د) الخاتمة: تحية وسلام:

وينهى القاضى عياض رسالته بتوجيه تحياته إلى الرسول - ﷺ - فيقول: «ثم السلام الأحفل الأكمل مرددًا، عدد القطر والحصى كثرة وعددًا، عليك يا نبى الهدى..»[٢]

تلك هذه العناصر الأساسية لرسالة القاضى عياض إلى الرسول ﷺ، وهى فى الواقع عناصر كل رسالة.

ومادة الرسالة مستمدة من القرآن الكريم، والسنة المطهرة، والسيرة النبوية بشكل خاص، والدليل على ذلك، قوله:

«صاحب الحوض المورود، والمقام المحمود، والوسيلة والفضيلة والكوثر، ورافع لواء الحمد يوم المحشر، المرسل إلى الأسود والأحمر، الآتى بالآيات والنذر، المتحدى بالمعجزات جميع البشر، المبعوث بجوامع الكلم، الشاهد على جميع الأمم...»

ومنها قوله أيضا:

«من لم يجعل الله به علينا من حَرَج، وأسرى به من الفرش إلى العرش وعرج، واستسقى الغمام بوجهه فهمع، وانشق القمر لتصديقه نصفين ثم اجتمع..»[٣]

والرسالة من هذا اللون تقوم فى أسلوبها على السجع ، والسجع فى رسالة القاضى عياض ليس من النوع المعقد، الذى نجده مثلا فى باقى رسائله، فليس

---

(١) يبدو أن عياضا توجه إلى الروضة الشريفة بقلبه فى أخريات حياته، وكان ذلك لجوءا إلى من يمنحه بعض الاطمئنان والراحة النفسية.

(٢) أزهار الرياض ١٩/٤

(٣) أزهار الرياض ١٩/٤

فيه ذلك التقسيم الداخلى، ولا ذاك التلوين الصوتى، وليس هناك حرص على المطابقة الصوتية بين الجمل، إلا أن عياضا - حرصا منه حسب عادته دائما، على إثارة القارئ، عن طريق دفع الملل، وإحداث عنصر الجدة، فإنه هنا فى رسالته هذه، يعمل أيضا على تنويع الجمل، من مثل قوله فى موضع آخر من الرسالة.

«بسم الله الرحمن الرحيم، وأفضل الصلوات وأزكى التسليم، على المصطفى محمد نبيه الكريم، سيد المرسلين، وإمام المتقين، وشفيع المذنبين، وقائد الغر المحجلين، وأكرم الآخرين والأولين، ورسول رب العالمين، ووسيلتهم إليه أمعين، النور الساطع، والشفيع المشفع الشافع، صاحب الحوض المورود، والمقام المحمود، والوسيلة والفضيلة والكوثر، ورافع لواء الحمد يوم الحشر..»[1]

وواضح أن هذه الرسالة تستمد عناصرها ومقوماتها من الشعور المتأجج فى قلب القاضى عياض. يزيد هذا الشعور تأججا ما كان عليه الرجل من حالة نفسية سيئة، إذ اجتمع عليه أمران خطيران: الهرم، ونوائب الدهر، وهما كفيلان بتفجير الطاقة الشعورية عنده. إنها فيض عاطفة. وهذا سر هذه اللهجة الصادقة التى نلمسها فى قوله:

«فيا محمداه، طال شوقى إلى لقائك، وياأحمداه ما كان أسعدنى لو متع المسلمون ببقائك، ويا نبياه عليك منى أفضل الصلوات، ويا حبيباه اذكرنى عند ربك فى مقامك المحموم الكريم، ويا شفيعاه...

وقد صار هذا اللون الأدبى بعد عصر عياض مجالا للتبارى، وميدانا لعرض الصنعة، ولونا من ألوان المدح والتقرب إلى الملوك، مثال ذلك ما كتبه ابن الخطيب على لسان ممدوحه أبى الحجاج يوسف سابع ملوك بنى الأحمر.[2]

إن فن الرسائل النبوية فن نشأ ونما فى حضن الدين، ولعل أهم خصيصة تميز بها الأدب المغربى، أنه أدب إسلامى، بمعنى أنه يمتاح مع الاسلام فى أغراضه ومعانيه، فلا عجب إذن أن يشيع هذا الفن بين كتاب المغرب.

---

(١) أزهار الرياض ١٩/٤

(٢) عبد السلام شقور ص ١٦٣

٢ - فن التَّصْلية:

ويرتبط بفن الرسائل، الموجهة إلى الرسول الكريم - ﷺ، وإلى الروضة الشريفة، فن نثرى آخر هو فن التصلية، أى فن الصلاة على النبى[١] - ﷺ، وهو فن يستمد مقوماته من العاطفة الإسلامية، وحب الرسول.

وقد وصل إلينا من هذا الفن تصليتان فقط:

إحداهما: أثبتها أبو العباس المقرى فى كتابه[٢]

والثانية: وجدت فى مجموع سجل بالمكتبة العامة بالرباط تحت رقم ١٢٠٧ ق

يقول المقرى عن التصلية الأولى:

«ومن نثر القاضى عياض - رحمه الله - هذه الصلاة على رسول الله - ﷺ - حسبما وجدته ببعض المجاميع، بمحروسة فاس - حاطها الله تعالى، وقد تضمنت جملة من أوصافه، ﷺ - الطاهرة، ومعجزاته الباهرة، وكمالاته التى بها انفرد، وسار بها المثل واطرد - ﷺ»

وإن يكن المقرى قد تشكك فى نسبتها للقاضى عياض، دون أن يحدد السبب، حيث قال: «ولست على يقين من نسبتها للقاضى عياض، والعهدة على من نسبها له إن لم تصح النسبة»[٣]

ويتساءل الأستاذ شقور: فهل يراها دون مستوى عياض فى أسلوبها؟. ينفى ذلك استحسان المقرى لها، فهو يقول:

«ولا خفاء أن هذا الكلام - يعنى الصلاة - مياسم الوصول إليه لائحة، ونواسم القبول لديه فائحة، وكيف لا وقد اشتمل على جملة من أوصاف الماحى

---

(١) عقد القاضى عياض فى «كتاب الشفا» بابا للحديث عن الصلاة عن النبى ﷺ، وأورد مجموعة من الصلوات.

(٢) أزهار الرياض ٨٦/٤ (٣) المرجع السابق.

العاقب، ونبذة من له من المفاخر والمناقب.. ولعمرى إن مثل هذه الوسيلة نظيرها قليل، وهى على صدق صاحبها أعظم دليل»[١]

ويقرر الأستاذ شقور صحة نسبة هذه الصلاة للقاضى عياض، ويقول: «إن هذه الصلاة ليست فى واقع الأمر إلاّ قبسا من ذلك النور، الذى استمد منه عياض كثيرا مما أبدعه، ومن ثم فإنه ليس هنالك ما يستدعى التشكك فى نسبتها إليه - لأنه بمقارنة الصلاتين، وُجد وكأنهما صلاة واحدة، وثبت أنهما للقاضى عياض، لتقارب الأسلوب، واتفاق المقدمتين، والبناء التأليفى منهما. ويمكن تفسير هذا التشابه بين مقدمتى الصلاتين، بما يوجد عادة من تشابه بين النماذج الأدبية، التى تتناول موضوعا واحدًا، ومثيله ما هو موجود بين الرسائل المتعددة التى بعث بها كتابها إلى الروضة الشريفة بالرغم من اختلاف الكتاب والعصور[٢].

والباحث المدقق فى الصلاتين الموجودتين، يجد أن كلا منهما تتكون من ثلاثة أجزاء:

١ - الحث على الصلاة على الرسول ﷺ.

٢ - ثم الصلاة عليه.

٣ - وأخيرا الدعاء.

وبهذا يفسر التكرار الذى يحسه القارئ، وهو فى الواقع ليس تكرارا، بل الأمر يتعلق بحلقات متشابهة إلى حد ما، ولكن هناك نموًا وحركة، وهى حركة تتخذ شكلا لولبيا.. ولتحقيق هذه الغاية لجأ القاضى عياض إلى عدة تقنيات، منها تلوين الأسلوب عن طريق تنويع الجمل، فهو يأتى بجمل إسمية، ثم يعقبها بأخرى فعلية، من مثل قوله:

«إذا مشى كان أعدل الناس، وإذا تكلم كان أفصح الناس، وإذا جلس أعلا الناس، وإذا وعظ أبكى الناس، صاحب الوجه المليح، والفم السبيح، واللسان

---

(١) المرجع السابق

(٢) عبد السلام شقور ص ١٦٤

الفصيح، والقول النصيح – من بشّر وأنذر، وخوّف وحذّر، وحج واعتمر، وحلق ونحر، وهلّل وكبّر، وجاهد وانتصر، وقاتل من كفر، وبدين الله أمر – الطاهر المطهر، المنتخب من خيار أخيار مضر، المؤيد المنصور، الماجد المشكور[١]

وعياض يستمد مادة هذه التصليات من منبعين اثنين: من الثقافة الإسلامية بكل مشتملاتها. ومن السيرة النبوية العطرة، من مثل قوله:

«من بشر به الكليم والمسيح، وأخبر به الخليل والذبيح، بحر الأنعام، فخر الأنام، بدر التمام، الذى بنوره أجلى الله الظلام، وذل الكفر وعز الإسلام، وظهر الحق ودام، وزهق الباطل فلم يقم، فى مولده تنكست الأصنام، وبطل علم الكهانة حتى كأنه لم يعلم، واسقطوا عن أسرتهم وزعقوا زعقة الحمام، وحرست السماء بالشهب فلم ترم، والجنة تهتف: لا يدرون أشر بمن فى الأرض أم الرشد والاستقام..»[٢]

وفى هذه التصلية عينها، نجد قفزات سَمَا فيها فكر القاضى عياض بعض السمو، لأنه وجد فى قصته الإسراء والمعراج منبعا خصبا، من مثل قوله:

«فسبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى مسجده الأقصى إلى حضرة عرشه. فتجلى له بقدسه وآنَسَهُ بلطفه، فأمنه من خوفه، وبلغ غاية أمله. ومشى على بساط العزة بنعله، ودنا من ربه حتى تناول ثمار القرب بيده، دنا فتدلى ولم يتأن، حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فبلغ كل وصل ومُنَى، وأُعطى جميع ما تمنى، فسجد شكرا لله على بساط عزة الله.. فرفعت له الحُجُب، حتى سلم الحبيب على المحبوب، كما سبق فى أم الكتاب مكتوب، ونال كل مطلوب، وبلغ غاية المرغوب..[٣]

وقد وجد القاضى عياض فيما ورد عن مولد الرسول – صلى الله عليه وسلم،

---

(١) أزهار الرياض ٨٩/٤

(٢) ملحق التصليات نقلا عن القاضى عياض الأديب. وهى من مجموع مسجل بالمكتبة العامة بالرباط تحت رقم ١٢٠٧ ق.

(٣) ملحق التصليات آخر كتاب القاضى عياض الأديب. وهو المجموع السابق ذكره.

وما واكب ذلك الحدث العظيم من معجزات رددتها كتب السيرة والتاريخ، منهلا عذبا ارتوى منه، فأطلق العنان لخياله، فقال:

«فلما نظرت إليه أسرع فى وجها الابتسام، وأراد أن يكلمها فأمسك الله لسانه عن الكلام، فإذا بغمامة قد نزلت من السماء، لا تشبه الغمام، وفيها جماعة من الملائكة الكرام، فازدحموا عليه أى ازدحام، وسلّموا عليه بأحسن سلام، ونادوه: ياوجيه، يا محمد، يا نعم الغلام، وأمه فى قلق واحتشام، فحملوه ورفعوه، وعرجوا به للسماء وعن بصرها غَيبُّوه، وطافوا به على الأنبياء وللملائكة نعتوه، وإلى رضوان خازن الجنة[1] دفعوه، وفتحوا له الجنة ودخلوه، ففرح به الحور العين وقبّلوه، وكَحَّلُوه ودهنوه. وبالمسك الأذفر طيّبوُه»[2].

على أن أهم فقرات هذه التصلية سموا. وأبدعها خيالا فى فكر القاضى عياض، تلك التى يتحدث فيها عن الشجرة، التى نبت منها محمد صلى الله عليه وسلم، يقول:

«واستخرجه الله من شجرة مباركة طيبة، باسقة عطرة ناعمة، نبت من الخليل عودها، واتسق باسماعيل عمودها، واتصل بعدنان عنقودها، وتم بمحمد صلى الله عليه وسلم صعودها، يالها من شجرة نبتت فى أرض الصفا، وقامت على لسان الوفا، وسقيت بماء الاكتفا، لامعة الْبَهَا، مشرقة الضيا، أصلها ثابت وفرعها فى السما، الحق زهرتها، والصدق ثمرتها، والحلم ورقها. والعلم جنتها، والهدى قنوانها، والتقوى أفنانها، من تعلّق بها سلم، ومن استظل بها غنم، ومن عاندها حطم، ومن خاصمها خصم»[3]

إن هذا النص يوضح مدى حب القاضى عياض للنبى صلى الله عليه وسلم، وفيه نجد أنه لا يتكىء على السجع فحسب، ولكنه يستغل ضروبا أخرى من

---

(١) فى أصل التصلية «خازن النار». ورضوان خازن الجنة، وإنما خازن النار هو مالك، ويبدو أن هذا وهم منه، أو خطأ من الناقلين. قال الله فى الحديث عن أهل النار (ونادوا يا مالك ليقضى ربك، قالٰ إنكم ماكثون..) الآية ٧٧ من سورة الزخرف.

(٢) ملحق التصليات.

(٣) ملحق التصليات.

الألوان البيانية. لقد صور هذه الشجرة وكأنها تضرب بجذورها فى باطن التاريخ. لتصل محمدًا - صلى الله عليه وسلم - بأبى الأنبياء ابراهيم الخليل عليه السلام.

٣ - خطبه:

ذكر أبو عبد الله بن عياض - فى التعريف - ضمن مؤلفات والده، كتابا يتضمن خطبا لوالده[١] وقد ورد فى أحد المجاميع[٢] أن هذه الخطب قرئت على القاضى عياض فى حياته.

إلّا أن معظم هذه الخطب سقط من يد الزمن، فلا أثر لها.

ويبدو أن أبا عبد الله قام باستنساخ خطب والده، مضيفا إليها خطبا أخرى، كان القاضى عياض ألفها فى أخريات حياته، إلا أن هذه النسخة لم يعثر عليها.

وقد ورد فى التقديم، الذى حرره أبو عبد الله - لمجموع خطب والده:

«وهذه خطب أخرى صنعها بعد تدوين هذه (أى الخطب التى جمعها أبوه بنفسه ثم استنسخها ولده) فنقلتها من مبيضاتها، وأثبتها ليجتمع شملها، ويكمل تدوينها، فمن ذلك خطبة[٣]..

ومجموع هذه الخطب المضافة ست، أوردها الأستاذ شقور فى ملحق الدراسة التى أعدها عن عياض الناثر[٤].

ولهذه الخطب، التى قام أبو عبد الله بجمعها وإلحاقها بأخواتها، أهمية أدبية وتاريخية كبيرة. إذ إنها تلقى الضوء على المراحل الأخيرة من حياة القاضى عياض.

---

(١) التعريف ص١١٧

(٢) وهو مجموع شارك به مالكه فى المسابقة الخاصة بالمخطوطات لسنة ١٩٧٨ انظر فهرس المخطوطات التى شارك بها أصحابها فى السنة المذكورة. نقلا عن «القاضى عياض الأديب».

(٣) المجموع السابق ذكره

(٤) أنظر ملحق الدراسة ص٣٦٠ وما بعدها.

وقد ذكر المترجمون للقاضي عياض، أنه ما كان يخطب إلّا من إنشائه، ولسوء الحظ أن ما بقى لنا من خطبه إلّا النزر اليسير، فقد وصلنا منها عشر خطب فقط، فى «التعريف» و «الاحاطة» و «أزهار الرياض» وأحد المجاميع بتطوان ورقمه ١٠٢، والمجموع الهام الذى ظهر أخيرا بمراكش، ونال به مالكه جائزة الملك الحسن الثانى سنة ١٩٧٨م.

وخطب القاضى عياض المثبتة فى هذا المجموع نوعان:

١ - خطب تحريضية أو جهادية.

٢ - وخطب دينية.

١ - **أما الخطب الجهادية:** فقيمتها كبيرة، إذ إنها تساعد فى الكشف عن المجهود الذى قام به القاضى عياض فى سبيل بقاء الدولة المرابطية، لأنها تتصل بالثورة، التى قادها وأهل بلده على الموحدين. إنها باختصار خطب ألقاها عياض فى أهل سبتة، يحرضهم فيها على مقاومة خصومهم، الذين جاءوا يهجمون عليهم فى عقر دارهم، وعددها ثلاث.

ومما ورد فى إحداها قوله، بعد التحميد والصلاة على النبى:

«أيها الناس، انظروا لأنفسكم، واستيقظوا من غفلتكم، وتأملوا ما يراد بكم، فإنكم تستقبلون خَطْبًا جسيما، وتنتظرون عن قريب أمرًا عظيمًا، فقد صار أعداؤكم عليكم إلبا. وتحالفوا عليكم شرقا وغربا، واحتشروا إليكم برًا وبحرًا، وتعاقدوا عليكم سرًا وجهرًا، ومدوا لكم من كيدهم وشرهم أمرًا إمرًا، وأنتم عما يراد بكم غافلون.. ومدينتكم هذه التى رموا إليها أبصارهم، وأجمعوا عليها كيدهم وأنصارهم، عرضة للبلاء إن لم تشيد. وفرصة للعدو إن لم ترتب أمور وتسدد، جهاتها غير محصنة.. لا حماة ولا رماة، ولا سلاح ولا آلات، ولا عدد ولا عدة، ولا أموال لمصالحها معدّة»[1]

ويبدو أن هذه الخطبة ألقيت قبل أن تحاصر سبتة، أى عندما علم القاضى

---

(١) انظر ملحق الخطب ص٣٦٠

عياض بما يدبر لبلده وأهلها، لذلك نجده فى نهايتها يحرض أهل بلده على بذل كل نفيس من أجل تحصينها. والخطبة طويلة، منها قوله:

«واعملوا مادام يمكنكم العمل فى هذه الأيام، قبل أن يشغلكم العدو، فقبل الرمى تراش السهام».. «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» وعدة للقتال، واستكثروا من القسى والنبال. وبيض الصفاح، وسمو الرماح، فقد ألزمكم من له الأمر عليكم ذلك، كما ألزمكم الله وأمركم..»

* ولما قربت جيوش الموحدين من سبتة، وكاد الشر يداهم المدينة، وقف القاضى عياض خطيبا فى قومه. قال:

«اعلموا أن الله قرب إليكم الرباط والجهاد بأبواب داركم، فاغتنموا ذلك وابتدروا، والتزموا مراتبكم ولا تهملوا، ولا تتواكلوا ولا تكلوا، وعلى ربكم فتوكلوا. ولا تهنوا ولا تحزنوا... واصبروا إن الله مع الصابرين، واضرعوا إليه فى كشف بأسه وضُرّه، فإنه يجيب المضطرين»[١].

وقد أجاب الله دعاء القاضى عياض، ففرج عنهم الخَطْب، فكانت تلك مناسبة ليشكر الله، فقال:

«الحمد لله الذى أظهر فى مصنوعاته دلائل وجوده، وأظهر كلمة حزبه على أحزاب الكفر وجنوده، ونكّس لعز الإسلام عوالى رايات الكفر وبنوده. وكشف عن قلوب ما غشيها من روعة عدته وعديده. أحمده حق تحميده. وأشكره شكرا موعودًا بمزيده..»

«.. أيها الناس إن أحق النعم بحفيل الشكر وجميع الذكر نعمة عمت عوارفها، وتمت مباديها وروادفها، وملأت القلوب مسرة عواطفها ولطائفها»[٢]

ومن هنا نرى أن خطب القاضى عياض الجهادية إنما كانت تساير أحداث ثورة بلده سبتة، فى كل مراحلها. كما تعكس دوره فى كل أحداثها.

(١) ملحق الخطب ص٣٦٣

(٢) انظر ملحق الخطب ص٣٦٣

٢ - الخطبة الدينية:

وهذه الخطب. كانت تلقى فى المناسبات الدينية، كما كانت تلقى فى أيام الجمعة فى المساجد. ونظرة فاحصة فيما وصح إلى أيدينا من هذه الخطب، نجد أنها تتكون من ثلاثة عناصر أساسية:

العنصر الأول: صدر الخطبة واستفتاحها.
العنصر الثانى: موضوع الخطبة ومناسبتها.
العنصر الثالث: وهو خاص بالدعاء.

١ - أما عن صدر الخطبة، فقد جرت العادة على أن يكون بالتحميد، والصلاة على النبى -ﷺ.[1]

وهذا القسم - فى خطب القاضى عياض - يشغل حيزا كبيرا، لأنه يحظى باهتمام خاص منه، لما فيه من الصلاة على النبى - صلى الله عليه وسلم - فقد يكون ثلث الخطبة، بل نصفها فى بعض الأحيان، وهو لا ينفصل عن موضوع الخطبة، ففيه إشارة إلى مضمون الخطبة.

يقول فى افتتاحية احدى خطبه:

(الحمد لله، الذى لم يتخذ ولدًا، ولم يكن له شريك فى الملك. ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا) [الإسراء]، (تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) [الجن ٣] (يكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هَدًّا، أن دعوا للرحمان ولدا، وما ينبغى للرحمان أن يتخذ ولدًا، إن كل من فى السماوات والأرض إلاّ آتى الرحمان عبدًا، لقد أحصاهم وعدهم عدًّا، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) [مريم ٩٠ - ٩٥] (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله، إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض، سبحان الله

---

(١) قال الكلاعى: وهو معاصره فى تعريف الخطبة، هى ما استفتح أوله بالتحميد وأعلم غفله بالتمجيد. [أنظر أحكام صنعة الكلام ص١٤٦].

عما يصفون) [المؤمنون ٩١] (وما من إله إلا إله واحد) [المائدة ٧٣] (سبحانه أن يكون له ولد، له ما فى السماوات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا) [النساء ١٧٠]. (بديع السماوات والأرض، أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة. وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم) [الأنعام ١٠٢] (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) [الأنعام ١٠٣]

أحمده، وأومن به، واستعينه وأتوكل عليه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وعلى الخليفة المنتخب من صميم نسبه الحسنى الفاطمى[1]، المحمدى، العربى، القرشى، الهاشمى، المصطفى من بيت النبوة المختار..[2]

فكان كلامه هذا متمشيا مع ما ورد فى صلب الخطبة.

٢ – أما موضوع الخطبة الدينية الشرعية، فهو الوعظ بشكل عام لذلك فليس هناك ما يربط بين هذه الخطب، وبين العصر الذى تلقى فيه.

وخطب القاضى عياض الدينية تجمع بين الترغيب والترهيب، سالكا فى ذلك مسلكا خاصا، إذ يتجه فيها إلى عقل المستمع وإلى قلبه معا، تارة يعمد إلى الجدال، وأخرى يخاطب وجدان السامع من مثل قوله:

«أيها الانسان، إن الله تعالى قد وهبك من عنايته حظا اقتضى شرفك موفورًا، وأبرزك من العدم إلى الوجود، ومن الغيب إلى الشهود، واستودع عالمك المختص بدائع الحكمة ما يحار فيه عقل متجليه، ونضّد جواهره النفيسة، فى سلك الازدواج، فكل عضو إلى ما يليه..»[3]

هكذا يعظ القاضى عياض الإنسان، ويدعوه إلى التأمل فى خلقته، ودقتها، ليكون ذلك له حافزا على طاعة الخالق، وهذا الأسلوب فى الجدال مستمد من الأسلوب القرآنى.

(١) من المعلوم أن المهدى رفع نسبه إلى البيت النبوى.
(٢) أنظر الملحق ص٣٧٣.
(٣) الملحق السابق.

أما أسلوبه الوجدانى: فيظهر فى قوله فى خطبة أخرى:

«فمالك يا حيران تتلى عليك آى القرآن ولا تزدجر بعظاتها، ولا تغرق، ولَجت فى بخع التسويف ولم تبال بالتخويف، أخشى عليك أن تفرق، أما علمتَ أنه لابد لك من موقف القمر فيه يخسف، والبصر فيه يبرق[1]

العنصر الثالث والأخير هو الدعاء

وللقاضى عياض طريقة تكاد تكون ثابتة فى اختتام خطبه، ذلك أنه يختتمها بتلاوة آية، أو أكثر من القرآن الكريم، تكون جامعة شاملة لمعانيها.

- يقول فى ختام خطبة له:

«يا من لاربّ سواه، يا مجيب المضطر إذا دعاه، يا من لا ملجأ لنا منه إلا إياه، نسألك يارب العالمين، أن تكشف عنا بأس القوم الظالمين، وتكشف عنا أيدى المعتدين، وتصرف صرف الكفرة الملحدين، الذى سفكوا الدم الحرام، وركبوا منا الآثام، وحرقوا الديار، وقطعوا الثمار... اللهم وأصلهم جهنم بئس القرار، اللهم استأصل شأفتهم، واقطع من الأرضين دعوته، واهلكهم أجمعين، وانصرنا عليهم يا رحمان يا رحيم..

اللهم احمنا من جميع جهاتنا، ولا تكشف ماسترت من حرماتنا، واعصم منهم أموالنا، ودماءنا، واكفنا برحمتك أعداءنا، واجعلهم جزر صفاحنا ورماحنا، وبلغنا منهم شفاء نفوسنا وأرواحنا، واجعلنا من المنصورين عليهم فى مغدانا ومراحنا، اللهم وهب لنا نصرة منك تفرج بها ما نزل بنا بلطفك المرتجى، واجعل لنا من أمورنا فرجا ومخرجا، وانهج لنا ما يرضيك صراطا مستقيما، ومنهجا، (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدُنك رحمة إنك أنت الوهاب)[2] (ربنا واجعلنا من (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب)[3]

---

(١) الملحق السابق.

(٢) آل عمران ٨.

(٣) الزمر ١٧. وانظر الملحق ص٣٦٩

ويقول فى خاتمة خطبة أخرى

«اللهم بك نحول، وبك نصول، وفيك، وبك نخاصم، وبك نستنجد، ولك نستعد، ولا ملجأ لنا، ولا منجى منك إلا اليك، ولا معّول لنا إلا عليك، ولا ناصر لنا إلا أنت، وما مخذول إلّا من خذلت، فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا تخلنا من نظرك فى الدارين، واكنفنا بعزك الذى لا يضام، واكنفنا فى كنفك الذى لايرام، واحطنا عن أيماننا وشمائلنا، وأمامنا وخلفنا، وفوقنا وتحتنا، وحول عنا عدونا، واكفنا منا ما أهمنا، ولا تسلطْ علينا من لا يرحمنا، واكشف ما نزل بنا، وأنزل سكينة علينا، وثبت الأقدام إن لقينا، والطف بنا بلطفك الخفى المرتجى، واجعل لنا من أمرنا فرجا ومخرجا..

يا من تجيب المضطر إذا دعاه، دعوناك مضطرين كما أمرتنا فأجبنا كما وعدتنا (إنك لا تخلف الميعاد)[١] (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)[٢]».

وهكذا كان القاضى عياض علما متفردًا فى هذا الباب، اتخذ لنفسه، اتجاها معينا فأجاده، هذا ما تجلى لنا من عرض ما جاء فى بعض خطبه.

ولقد وجدنا خطبا صاغها الرجل على أساس موسيقى، وإيقاع فنى جميل، لا يعمد فيه إلى تقسيم أو مزاوجة، بل يبنى فواصل الخطبة كلها على جرف واحد[٣]، فجاءت بمثابة القافية للقصيدة، مهما طالت الخطبة. من مثل قوله:

«الحمد لله مبدى الحقائق، ومبدئ الخلائق، ومبدع السبع الطرائق، ومزينها بالكواكب الشوارق، أحمده على نعمه التوالى والسوابق، حمدا يطبق ما بين المغارب والمشارق، وأستعيذه كما أمر من شر كل حاسد وفاسق، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة تملأ فم كل ناطق».

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٤

(٢) سورة البقرة الآية ٢٠١

(٣) من ذلك خطبته على كتاب الشفا

«أيها الناس: اسلكوا جواد الحقائق، واتركوا بنيات الطرائق، ولا تغرنكم الدنيا بكواذب المخارق، فإنها كثيرة البوائق، جمة العوائق، قاطعة للأسباب والعلائق، تاركة عن هام بها مفارق، تدير دوائرها بكل صامت وناطق»

جعلنا الله وإياكم ممن سعد فى قدره السابق، ورزقنا عفوه ورحماه، فهو خير رازق، إن أبلغ الوعظ وأنفع الرقائق، كلام المهيمن الخالق(١)

وليس هذا فحسب، بل هناك خطب اقتبسها القاضى عياض من القرآن، ولم يقف عند حد اقتباس آية أو كثر، ولكنه نظم الخطبة جميعها من آى الذكر الحكيم. من ذلك قوله:

(الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) [الآيات الثلاث من سورة الأنعام ١ - ٣]

(وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) [الزخرف ٨٤] **(وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما)** [الآية ٨٥ من سورة الزخرف] **(هو الأول والآخر والظاهر والباطن - إلى قوله - وهو عليم بذات الصدور)** [الآية ٣ من سورة الحديد] **(وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون)** [الآية ٨٠ من سورة المؤمنون] **(وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون)** [الآية ١١٧ من سورة البقرة] **(لا إله إلا هو يحيى ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين)** [الآية ٨٤ من سورة الدخان] **(لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه)** [الآية ٨٨ من سورة القصص]

وكأنى بعياض يريد المبالغة فى كل شىء، فإذا التزم كاتب مثل المعرّى مثلا قيدًا، أو جملة قيود، فإنه لا يكتفى بها، بل يضيف إليها قيودًا أخرى، وها نحن قد رأينا أمثلة عديدة لذلك، أبرزها اقتباس الخطبة كلها من القرآن.

وخلاصته القول.. إن الطابع العام لنثر عياض، هو أنه نثر يستقى من الإسلام كثيرا من مقوماته الفكرية والفنية، فقد كان الإسلام المنبع الذى ارتوى

---

(١) الملحق.

منه عياض، فظهر ذلك بارزا فى كل ماكتب، وقد رأينا ذلك واضحا فى رسائله، وتصليته، وخطبه. أما تآليفه، فتعد إلى يومنا هذا من أهم ما كتب فى باب الثقافة الإسلامية.[1]

---

(١) الأستاذ عبد السلام شتور ص٢٠٨

القسم الثانى

منهج القَاضِى عِيَاض فى السِّيرِة النَّبويّة

تمهيد: السيرة النبوية قبل القاضى عياض

١ - مميزات السيرة النبوية.

٢ - مصادر السيرة النبوية.

٣ - منهج القاضى عياض فى تأليف السيرة.

(ا) نظرته إلى السيرة.

(ب) منهجه فى البحث.

تمهيد

السيرة النبويّة قبل القاضى عياض

١ - مميزاتها

تحمل سيرة المصطفى - ﷺ - عدة مزايا تجعل من دراستها متعة روحية وعقلية وتاريخية، كما تجعل هذه الدراسة ضرورة لعلماء التفسير، والحديث، والدعاة إلى الله، والمهتمين بإصلاح المجتمع الاسلامى، ليضمنوا إبلاغ الشريعة إلى الناس، بأسلوب يجعلهم يرون فى سيرته - ﷺ - الملجأ والملاذ الذى يلوذون به عند اضطراب السبل، واشتداد العواصف، ولتتفتح أمام الدعاة قلوب الناس وأفئدتهم، ويكون الإصلاح الذى يدعو إليه المصلحون، أقرب نجاحا، وأكثر سدادًا.

إن أعظم مزايا السيرة النبوية تبرز فيما يلى:

أولا: أنها أصح سيرة لتاريخ نبىّ مُرسل، فقد وصلت إلينا سيرته - صلى الله عليه وسلم، عن أصح الطرق العلمية، وأقواها ثبوتا، ممًا لا يدع مجالا للشك فى وقائعها البارزة، وأحداثها العظيمة، ومما ييسر لنا معرفة ما أضيف إليها فى العصور المتأخرة من أحداث، أو معجزات، أو وقائع أوحى بها العقل الجاهل، الراغب فى زيادة إضفاء الصفة المدهشة على الرسول - ﷺ - أكثر مما أراد الله لرسوله أن يكون عليه، من جلال المقام، وقدسية الرسالة، وعظمة السيرة.

إن سمة الصحة والصدق، التى يتطرق إليها الشك لا توجد فى سيرة أى رسول آخر من رسل الله عز وجل.

فموسى - كليم الله - عليه الصلاة والسلام، قد اختلطت وقائع سيرته الصحيحة بما أدخل عليها اليهود من زيف وتحريف، ولا نستطيع أن نطمئن إلى

التوراة - التى بين أيدينا - لنستخلص منها سيرة صادقة لموسى عليه السلام، فقد أخذ كثير من النقاد الغربيين يشكون فى بعض أسفارها، وبعضهم يجزم بأن بعض أسفارها لم يكتب فى حياة موسى - عليه السلام - ولا بعده بزمن قريب، وإنما كتب بعده بزمن بعيد دون أن يُعرف كاتبها.

ولا شك أن هذا الأمر كاف للتشكيك فى صحة سيرة موسى - عليه السلام - الواردة فى التوارة، ولذلك ليس أمام المسلم أن يؤمن بشىء من صحة سيرته، إلّا ما جاء فى القرآن الكريم، والسنة النبوية ـ الصحيحة.

ومثل ذلك يمكن أن يقال فى سيرة المسيح عيسى بن مريم، فالأناجيل الأربعة، المعترف بها لدى الكنائس المسيحية، لم تَقَرّ إلّا فى عهد متأخر عن عهد السيد المسيح بمئات السنين، وقد اختيرت دون سند علمى، من بين مئات الأناجيل، التى كانت بأيدى أتباعه وتلاميذه. أضف إلى ذلك، أن نسبة هذه الأناجيل إلى جامعيها وكاتبيها لم تثبت بطريق علمى تطمئن إليه النفوس، فهى لم ترو بسلاسل إسناد متصلة إلى كاتبيها، كما أن هناك خلافا قويا قد وقع بين نقاد الغرب حول الأعضاء الكاتبين لهذه السيرة، من يكونون؟ وفى أى عهد كانوا؟ وما مصادرهم؟ وكيف حفظت..؟

وإذا كان هذا شأن سيرتى موسى وعيسى، عليهما السلام، فنحن لا يمكن الاطمئنان إلى كل ما جاء فيها، أو يتصل بها من معلومات وروايات..

ومن هنا كان قولنا: إن أصح سيرة لرسول، وأقواها ثبوتا، وأصدقها مصادر، وأعظمها وضوحا هى سيرة النبى المصطفى -ﷺ.

ثانيا: إن حياة رسول الله ﷺ - واضحة كل الوضوح فى جميع مراحلها، منذ زواج أبيه عبد الله بأمه آمنة، إلى انتقاله إلى الرفيق الأعلى. فنحن نعرف الشىء الكثير عن ولادته وطفولته وشبابه، ومكسبه قبل النبوة، ورحلاته خارج مكة إلى أن بعثه الله سبحانه - مبشرا ونذيرا، ورسولا كريما.

كما نعرف بشكل أدق وأوضح وأكمل كل أحواله بعد ذلك سنة فسنة، مما يجعل سيرته - ﷺ - واضحة وضوح الشمس. وهذا ما لم يتيسر مثله،

ولا قريب منه لرسول آخر من رسل الله السابقين.

فرسول الله موسى - عليه السلام - لا نعرف شيئا قط عن طفولته وشبابه وطرق معيشته قبل النبوة، ونعرف الشيء القليل من حياته بعد النبوة، مما يجعلنا لا نتعرف على صورة مكتملة لشخصيته.

وكذلك المسيح عيسى بن مريم - عليه السلام - طفولته ونشأته مجهولة، إلا ما تذكره الأناجيل الحاضرة، من أنه دخل هيكل اليهود، وناقش أخبارهم- فهذا هو الخبر الوحيد الذى نعرفه عن طفولته. ثم نحن لا نعرف من أحواله بعد النبوة إلّا ما يتصل بدعوته، وقليلا من أسلوب معيشته، وما عدا ذلك فأمر يغطيه ضباب كثيف.

فأين هذا مما تذكره مصادر سيرة النبى المصطفى - صلى الله عليه وسلم، من أدق التفاصيل فى حياة رسول الله الشخصية، كأكله، وشربه، وقيامه وقعوده، ولباسه وشكله، وهيئته ومنطقه.. والعائلية، مثل معاملته لأسرته، وزوجاته وبناته، ومباشرته لأصحابه. والعبادية، مثل تعبده، وقيامه، وصلاته وصيامه.

بل بلغت الدقة فى رواة سيرته، أن يذكروا لنا عدد الشعرات البيض فى رأسه ولحيته.

ثالثا: إن سيرة رسول الله - ﷺ تحكى سيرة إنسان بشر، أكرمه الله تعالى بالرسالة، فلم تخرجه عن إنسانيته، ولم تلحق حياته بالأساطير، ولم تضف عليه أى صفة من صفات الألوهية أو الملائكية، قليلا أو كثيرا.

وإذا قارنا سيرته، بما يرويه ويعتقده أنصار المسيحية وأتباعها عن سيرة المسيح - عليه السلام - وما يرويه معتنقو البوذية عن بوذا.. اتضح لنا الفرق جليا بين سيرته - ﷺ، وسيرة هؤلاء.

ولا شك أن لهذا الأمر أكثر الأثر فى السلوك الإنسانى والاجتماعى لاتباعهم، فإضفاء الألوهية على عيسى - عليه السلام، وبوذا، جعلهما أبعد منالا من أن يكونا القدوة والأسوة للإنسان فى حياته المعيشية والاجتماعية. بينما ظل -

وسيظل - الرسول المصطفى - ﷺ - من خلال سيرته المثل الانسانى النموذجى الكامل، لكل من أراد أن يعيش سعيدًا كريما فى نفسه وأسرته وبيئته، مصداقا لقوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ لكُم فى رَسُولِ الله أسوةٌ حَسَنَة لَمنْ كَانَ يَرْجُو الله واليومَ الآخر) [الأحزاب ٢١]

رابعا: إن سيرة رسول الله - ﷺ - **كاملة، شاملة لجميع النواحى** الانسانية فى الإنسان. فهى تحكى لنا سيرة محمد الشاب الأمين، الصادق المستقيم، قبل أن يكرمه الله بالرسالة. كما تحكى لنا سيرة رسول الله الداعية إلى الله، المتلمس أجدى الوسائل لقبول دعوته، الباذل منتهى طاقته وجهده فى إبلاغ رسالته.

كما تحكى لنا سيرته، سيرة رئيس دولة، وقائد أمة، استطاع أن يضع لدولته أقوم النظم وأصحها، ويحميها بيقظته وإخلاصه وصدقه، بما يكفل لها النجاح..

كما تحكى لنا سيرة المصطفى - ﷺ - سيرة المربى المرشد، الذى يشرف على تربية أصحابه تربية خلقية مثالية، ينقل فيها من روحه إلى أرواحهم، ومن نفسه إلى نفوسهم، ما يجعلهم يحاولون الاقتداء به فى دقيق الأمور وكبيرها.

كما تصوّر لنا سيرة رسول الله - ﷺ - صورة الصديق، الذى يقوم بواجبات الصحبة، ويفى بالتزاماتها وآدابها، مما يجعل أصحابه يحبونه كحبهم لأنفسهم، وأكثر من حبهم لأهليهم وأقربائهم.

وسيرته - ﷺ - تحكى لنا سيرة القائد المنتصر، والمحارب الشجاع، والسياسى الناجح، والمعاهد الصادق، والجار الأمين.

إن سيرة المصطفى - ﷺ - شاملة لجميع النواحى الانسانية فى المجتمع، مما يجعله القدوة الصالحة لكل داعية، وكل قائد، وكل أب، وكل زوج، وكل صديق، وكل مرب، وكل سياسى، وكل رئيس دولة - ولا يمكن أن نجد مثل هذا الشمول، ولا قريبا منه، فيما بقى لنا من سير المرسلين السابقين.

خامسا: إن سيرة النبى - ﷺ - وحدها تقدم لنا الدليل الذى لا شك فيه على صدق رسالته وصدق نبوته..

إنها سيرة رجل ملهم، سار بدعوته من نصر إلى نصر، لا عن طريق خوارق الطبيعة والمعجزات، بل عن طريق طبيعى مرسوم.

لقد دعا إلى الله فأوذى، وبلغ فأصبح له الأنصار، واضطر إلى الجهاد فجاهد، وكان حكيما موفقا فى قيادته، فما حانت ساعة وفاته إلّا كانت دعوته تلف آفاق الجزيرة العربية كلها عن طريق الإيمان. لا عن طريق القهر والغلبة.

ومن عرف ما كان عليه العرب من عادات وعقائد، وماقاوموا به دعوته من شتى أنواع المقاومة، ومن عرف عدم التكافؤ بينه وبين محاربيه، فى كل معركة انتصر فيها، ومن عرف قصر المدة التى استغرقتها رسالته حتى وفاته. وهى ثلاث وعشرون سنة - أيقن يقينا جازما أن محمدًا رسول الله حقا، وأن ما كان يمنحه الله من ثبات وقوة وتأثير ونصر، ليس إلا لأنه نبىّ حقا، مبعوث من قِبَل رب العزة. وما كان الله ليؤيد من يكذب عليه، هذا التأييد الفريد فى التاريخ.

فسيرة النبى - ﷺ - تثبت لنا صدق رسالته، وصدق نبوته، عن طريق عقلى محض. وما وقع له - ﷺ - من المعجزات، لم يكن الأساس الأول فى إيمان العرب بدعوته، بل إننا لا نجد له معجزة آمن معها الكفار المعاندون - على أن المعجزات المادية إنما تكون حجة على من شاهدها.

ومن المؤكد أن المسلمين المؤمنين، الذين لم يروا النبى صلى الله عليه وسلم - ولم يشاهدوا معجزاته، إنما آمنوا بصدق رسالته، للأدلة العقلية القاطعة على صدق دعواه النبوة، ومن هذه الأدلة العقلية «القرآن الكريم» فإنه معجزة عقلية . تلزم كل عاقل منصف، أن يؤمن بصدق محمد - ﷺ - فى دعوى الرسالة.

وهذا يختلف تماما عن سير الأنبياء السابقين، المحفوظة لدى اتباعهم فهى تدل على أن الناس إنما آمنوا بهم لما رأوا على أيديهم من معجزات وخوارق، دون أن يحكموا عقولهم فى مبادئ دعواتهم فتذعن لها.

وأوضح مثل لذلك، السيد المسيح - عليه السلام، فإن الله حكى لنا فى القرآن الكريم أنه جعل الدعامة الأولى فى إقناع اليهود بصدق رسالته، أنه يبرئ الأكمه والأبرص، ويشفى المرضى، ويحيى الموتى، وينبئهم بما يأكلون فى بيوتهم، كل ذلك بإذن الله.

والأناجيل الحاضرة. توضح لنا أن هذه المعجزات هى وحدها التى كانت سببا فى إيمان الجماهير دفعة واحدة به، لا على أنه رسول - كما يحكى القرآن الكريم - بل على أنه إله أو ابن إله، وحاشا لله من ذلك.

ومن هنا ندرك الميزة الواضحة فى سيرة رسول الله ﷺ:

إنه ما آمن به واحد عن طريق مشاهدته لمعجزة خارقة، بل عن اقتناع عقلى ووجدانى، وإذا كان الله قد أكرم رسوله بالمعجزات الحسية الخارقة، فما ذلك إلا إكرام له - ﷺ - وإفحام لمعانديه المكابرين.

ومن تتبع القرآن الكريم، وجد أنه اعتمد فى الاقناع على المحاكمة العقلية، والمشاهدة المحسوسة لعظيم صنع الله، والمعرفة التامة بما كان عليه الرسول من أمية تجعل إتيانه بالقرآن الكريم، دليلا على صدق رسالته - ﷺ.

يقول الله تعالى فى سورة العنكبوت:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ، قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

ولما اشتط كفار قريش فى طلب المعجزات من رسول الله - ﷺ - كما كانت تفعل الأمم الماضية، أمره الله أن يجيبهم بقوله: **﴿سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾**[2]

---

(١) الآيتان ٥٠، ٥١

(٢) الإسراء ٩٣

استمع إلى ذلك فى قوله تعالى:

﴿وقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تُفَجِّرَ مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا، أَوْ تكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهارَ خِلاَلَها تَفْجِيرًا، أو تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِى بالله والملائِكَةِ قَبِيلًا، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فى السَّمَاءِ.. ولَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ... قُلْ: سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إلاَّ بَشَرًا رَسُولاً﴾[1]

هكذا يقرر القرآن بصراحة ووضوح أن رسول الله - ﷺ - إنسان، بشر، وأنه لا يعتمد فى دعوى رسالته على المعجزات والخوارق، وإنما يخاطب العقول والقلوب.

٢ - مصادر السِّيرة النبويّة:

تعتمد دراسة السيرة النبوية على مصادر كثيرة متنوعة، وتنقسم هذه المصادر بحكم طبيعتها إلى: مصادر أصلية، ومصادر تكميلية.

* **أما المصادر الأصلية، فهى** بطبيعة الحال: القرآن الكريم، وكتب الحديث، وكتب السيرة المختصة، وكتب الدلائل والشمائل، وكتب التاريخ العامة.

* **وأما المصادر التكميلية، فهى** لا تتصل بالسيرة النبوية اتصالا مباشرا، بل تتناول موضوعات أخرى، لكنها تفيد فى حقل دراسة السيرة، مثل كتب الأدب، ودواوين الشعر، وكتب الرجال والتراجم، وكتب الفقه، وكتب الأنساب، ومعاجم اللغة.

وهذه الكتب تكمل الصورة، وتملأ بعض الثغرات، التى تبقى بعد استيفاء المصادر الأصلية.

والباحث المدقق فى مجال السيرة النبوية، ينبغى أن يتنبّه إلى أن هذه المصادر تتباين قوة وضعفا، وأصالة ووضعا، لذلك لا ينبغى له أن يضعها فى مصاف واحد،

---

(١) الاسراء ٩٠ - ٩٣

أو يتعامل معها على السواء. فعلى سبيل المثال، لا يمكن معارضة آية قرآنية أوحديث صحيح برواية من كتب التاريخ أوالأدب[١] فلابد إذًا من تقويم هذه المصادر ووضعها فى الموضع الذى تستحق.

أولا: المصادر الأصلية

١ - القرآن الكريم:

والقرآن مصدر أساسى تُستمد منه ملامح سيرة رسول الله - ﷺ - فهو كلام رب العالمين، أنزله على عبده ونبيه محمد ﷺ لفظا ومعنى، بطريق الوحى، لذلك فهو فى مقدمة مصادر السيرة العطرة[٢]، إنه يتضمن الحديث عن الرسول، ودعوته، والرسالة وما يتصل بها، ويتناول جوانب كثيرة من شخصية الرسول - ﷺ - وحياته ومكانته عند ربه، كما يتضمن توجيهات الله له، ويتضمن بيان أصول العقيدة الاسلامية، وبيان تنظيم المجتمع الاسلامى، إلى جانب كثير من الأحكام ذات الأهمية الكبيرة فى بيان النظم الاسلامية.

وفى القرآن الكريم تلخيص للكثير من الأحداث التاريخية فى عصر النبوة، خاصة ما يتصل بغزوات الرسول - ﷺ - مثل بدر وأحد والخندق وحنين[٣]. حيث يصورُ ظروف النبى - ﷺ، وحال المسلمين، والأجواء العامة التى وقعت فيها هذه الغزوات والأحداث الأخرى الهامة، كما يحدد الأبعاد النفسية التى كان عليها الرسول ورجاله، ويوضح ذلك بدقة، وهذا مالا نجده إلا فى القرآن.

---

(١) وهذا ما وقع فيه أبو رية فى كتابه (أضواء على السنة المحمدية) وانظر فى التنبيه على ذلك: الدكتور مصطفى السباعى: السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى ص ٢٩٣ - ٢٩٤. وقد انتقد الدكتور جواد على كلا من المستشرقين شبرنكو وكايتانى لاعتمادهما على الشاذ والغريب والضعيف والروايات المتأخرة، وتقديمها ذلك على الروايات المعتبرة فى دراستيهما للسيرة بغية إثارة التشكيك فيها [انظر: تاريخ العرب قبل الاسلام، فصل السيرة النبوية ص ٩ - ١١]

(٢) أنظر ما كتبه الأستاذ محمد عزة دروزة فى كتابه (سيرة الرسول) حيث حلل الآيات القرآنية المتعلقة بالسيرة.

(٣) نجد فى القرآن تفصيلا لأحداث موقعة بدر فى سورة الأنفال، وعن أُحد فى سورة آل عمران، وعن غزوة الخندق فى سورة الأحزاب، وعن حنين فى سورة التوبة، كما أشارت آيات فى سورة أخرى إلى هذه الغزوات.

وفى القرآن الكريم.. تصوير دقيق للصراع الفكرى والمادى بين المسلمين وأهل الكتاب، خاصة اليهود فى المدينة المنورة[١]، وتسجيل لعلاقات الرسول الكريم مع أهل الكتاب، ومحاوراته معهم.

وفى القرآن الكريم.. إشارات كثيرة إلى الأنبياء والرسل السابقين، وإشارة إلى الأمم البائدة، وإلى أحداث التاريخ فى عصر النبى - ﷺ، كالصراع بين الروم والفرس، وهذا ما دفع العرب المسلمين إلى تسجيل أخبار الروم والفرس والترك والأحباش وغيرهم.[٢]

ومعلوم أن القرآن العظيم ليس كتابا فى التاريخ، بل هو دستور للحياة، لذلك لا ينبغى أن نتوقع ورود تفاصيل عن الأحداث التاريخية، أضف إلى ذلك أن هناك صعوبة فى معرفة أسباب ووقت نزول كثير من الآيات. إما لعدم ورود روايات فى ذلك، أو لتضارب الروايات الواردة[٣] مما يحتاج إلى تحقيق لتمييز الروايات الصحيحة أولا، ثم إزالة التعارض إن وجد بعد ذلك.

ومن الطبيعى أن نعرف أن الإفادة التامة من القرآن الكريم، كمصدر أصيل من مصادر السيرة، لا تتم إلاّ بالرجوع إلى التفاسير القرآنية الموثقة، وفى مقدمتها كتب التفسير بالمأثور أو بالرواية، أى التفسير بما أثر عن رسول الله وصحابته وتابعيه، مثل تفسير الطبرى، وتفسير ابن كثير، لأنهما يفسران القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة. ومن المهم أيضا الرجوع إلى كتب علوم القرآن، وكتب أسباب النزول، وغيرهما مما يتصل بالقرآن الكريم وعلومه.

إن بعض المؤرخين المعاصرين، يأنفون من الرجوع إلى هذه المؤلفات والمصنفات، ويعتمدون على ذوقهم الخاص فى فهم أساليب القرآن ومعانيه، مما يؤدى بهم إلى الزلل والوقوع فى الخطأ. مثل ما وقع فيه بعض المستشرقين، عند تفسير قول الحق تبارك وتعالى: ﴿هو الذى بَعَثَ فى الأُمّيين رَسُولاً منهم﴾ حيث ذهبوا إلى أن أميّته - ﷺ - تعنى الجهل بالدين لا الكتابة، فى حين أن

(١) أنظر عن الصراع الفكرى سورة البقرة، وعن الصراع المادى سورة الحشر والأحزاب.
(٢) أنظر ما كتبه الدورى فى كتابه: نشأة علم التاريخ عند العرب ص١٨، ٥١.
(٣) أنظر ما كتبه صالح العلى : فى «محاضرات فى تاريخ العرب قبل الاسلام - (فصل المصادر).

القرآن الكريم، وصف النبى - ﷺ - بأنه ﴿النَّبِى الأمىّ﴾ وجعلها مدحة له، ولا يعقل أن يكون النبى جاهلا بالدين[١].

إن الأمانة العلمية، تقتضى الرجوع إلى كتب التفسير المعتمدة، الموثقة، وتفسير النصوص القرآنية، بما جاء عن النبى أو صحابته، وإبراز معانيها الصحيحة، وليس تأويلها حسب الهوى، رغبة فى دعم مذهب معين، أو طائفة معينة، وقد حذر النبى ﷺ من ذلك بقوله:

«مَنْ قَالَ فى القُرْآنَ برَأْيِهِ - أو بِما لَا يَعْلَم - فَلْيَتَبَوّأ مقْعَدَهُ مِنْ النار»[٢]

٢ - الحديث النبوى الشريف:

ويلى القرآن الكريم كمصدر أصيل فى فهم السيرة النبوية، الحديث النبوى الشريف، فهو كلام رسول الله - ﷺ - عن نفسه، وعن أحواله، وعن علاقته بربّه، وعلاقته بالناس.

وفى حديثه الشريف، توضيح لسيرته، وتوضيح لرسالته، وتفسير للقرآن، وتوضيح للعقائد والآداب الاسلامية، وهو الذى يعرف المسلم بكل ما يتصل بنبيه، من قول وفعل وتقرير ووصف، فى الحركات والسكنات، ويجعله يسعد بصحبته، وكأنه يحضر مجالسه، ويستمع لحديثه.

وفى حديث رسول الله توضيح للأحكام وللأمور العبادية والتشريعية، من صوم وصلاة وحج وزكاة وجهاد، ونظم سياسية ومالية وإدارية.. فلا يمكن تصور قيم الإسلام، ولا مثالياته إلا بمعرفة الحديث.

ولكل هذه الجوانب التى تناولتها السنة المطهرة صلة بالحياة الدينية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية فى عصر رسول الله - ﷺ - وما تلاه من عصور، لأن المسلمين التزموا بتطبيق السنة فى حياتهم تطبيقا تاما، خاصة بعد أن نبّههم رسول الله - ﷺ - إلى التمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده، وهم الذين

(١) صبحى الصالح: علوم الحديث ص ١٥
(٢) مقدمة تفسير ابن كثير.

عاشروا الرسول ولازموه، ونصر الله بهم دينه، وقد رباهم رسول الله -ﷺ- على عينه، فكانوا أكمل أجيال التاريخ استقامة أخلاق، وقوة إيمان، وصدق حديث، وسمو أرواح، وكمال عقول، فكل ما رووه عن رسول الله؛ بالسند الصحيح المتصل، يجب أن نقبله كحقيقة تاريخية لا يخالجنا الشك فيها.

إننا نجد فى بعض كتب الحديث ومصنفاته قسما خاصا للمغازى والسير، مثل صحيح البخارى[1] ولا شك أن مادة السيرة فى أبواب كتب الحديث موثقة، يمكن الاعتماد عليها وتقديمها على روايات كتب المغازى والتواريخ، وخاصة إذا أوردتها كتب الحديث الصحيحة، لأنها ثمرة جهود جبارة قدمها رجال الحديث عند تمحيص الحديث، ونقده سندًا ومتنًا، وهذا التدقيق والتمحيص والنقد الذى حظيت به أحاديث الرسول الله، لم تحظ به الكتب التاريخية.

بيد أنه ينبغى التفطُّن إلى أن كتب الحديث، بحكم عدم تخصصها، لاتورد تفاصيل أحداث السيرة، بل تقتصر على بعض ذلك، ومن ثم فإنها لا تعطى صورة كاملة لما حدث، وينبغى إكمال الصورة من كتب السيرة المختصة، وإلا فقد يؤدى ذلك إلى لبس كبير. والدليل على ذلك ما ورد فى الصحيحين.. أن النبى صلى الله عليه وسلم - هاجم بنى المصطلق وهم غارون (أى بغتة دون إنذار) وهذا يخالف منهجه - صلى الله عليه وسلم، المتمثل فى قوله تعالى: (وإن خِفتم مِنْ قَوْمٍ خَيَانَةً فانْبذْ إلَيْهِم عَلىَ سَوَاء) وكتب السير توضح أنه أنذر بنى المصطلق، فلو اقتصرنا على رواية الصحيحين دون أن نتبين حكم الاسلام فى إنذار العدو، لوقعنا فى خطأ ولبس[2]

* ولكن بسبب ترتيب الأحاديث فى كتب الصحاح إما على الرواة من الصحابة مثل كتب المسانيد، ومن أجلّها مسند الإمام أحمد بن حنبل، أو على المواضيع مثل كتب السنة، دون مراعاة عنصر الزمن فى كلا الترتيبين، لذلك تبرز أمام الدارس صعوبة تحديد الأحاديث زمنيا. على أن كتب السير، والتاريخ المرتبة على السنين، تعوّض هذا النقص فى كثير من الحالات.

---

(١) أنظر كتاب المغازى فى الجزء الخامس منه.

(٢) محمد الغزالى فقه السيرة ص١٠، ٣٠٨

إن أقدم كتب الحديث الشاملة، التى وصلت إلينا هى موطأ مالك، وصحيحا البخارى ومسلم، وسنن أبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجة، ومسند الدارمى، ومسند أحمد بن حنبل.. من هذه الكتب التى حوت القسم الأكبر من حياة النبى - ﷺ - ووقائعه وحروبه وأعماله، نستطيع أن نكون فكرة شاملة، وإن كانت غير متكاملة أحيانا، عن سيرة الرسول - ﷺ.

هذا ويعطى كتاب مفتاح كنوز السنة للمستشرق فنسنك فكرة عن كمية الأحاديث المهمة المتعلقة بموضوعات السيرة، كما يعين كتاب «المعجم المفهرس فى ألفاظ الحديث النبوى» لفنسنك وجماعة من المستشرقين على تخريج أحاديث السيرة.

ولا يخفى أن بعض المستشرقين المغرضين، ومن يسير على نهجهم يحاولون أن يشككوا فى صحة ما بين أيدينا من كتب السنة المعتمدة، لينفذوا منها إلى هدم الشريعة والتشكيك بوقائع السيرة.

٣ - كتب السيرة المختصة:

هذه الكتب تلى من حيث الدقة والأصالة القرآن الكريم، والحديث الشريف، ومما يعطيها قيمة علمية كبيرة، أن أوائلها كتبت فى عهد مبكر جدًا، وعلى وجه التحديد فى جيل التابعين، حيث كان أكثر صحابة رسول الله، موجودين على قيد الحياة، فلم ينكروا على كتاب السيرة محاولتهم هذه، مما يدل على إقرارهم لما كتبوه.

ومن الطبيعى أن يكون صحابة رسول الله - ﷺ - على علم تام ودقيق وواسع بسيرته، لأنهم عاشوا أحداثها وشاركوا فيها، وكان حبهم لرسول الله، وتعلقهم به، ورغبتهم فى اتباعه. وأخذهم بسنته فى الأحكام، سببا فى ذيوع أخبار السيرة، ومذاكرتهم فيها، وحفظهم لها، فهى التطبيق العملى لتعاليم الاسلام.

هذا وقد كان هذا الاهتمام المبكر فى تسجيل وكتابة السيرة من أهم العوامل

التى قللت من احتمال تعرضها للتحريف أو للمبالغة أو التهويل أو الضياع.

ولقد كتبت عدة دراسات حديثة عن رواد كتابة السيرة من التابعين ومن تلاهم[1]

بيد أن هذه المؤلفات لم تهتم ببيان حال رواد كتابة السيرة من حيث الجرح والتعديل، ولم تقوّم مؤلفاتهم من زاوية حديثية، ووفق قواعد مصطلح الحديث.

وأقدم من كتب فى السيرة النبوية:

١ - عروة بن الزبير بن العوام (٢٣ - ٩٤هـ) وهو محدّث ثقة من التابعين، ويعد أحد الفقهاء السبعة المشهورين فى المدينة. وقد جمع الدكتور محمد مصطفى الأعظمى مرويات عروة ونشرها مؤخرا. على أن نشاط عروة لم يقتصر على التأليف فى السيرة، ذلك أنه ألقى على تلاميذه معلومات جمعها بنفسه جريا على سنة النقل الشفوى الذى يدعمه الإسناد، تلك السنة التى أصبحت من ثَمّ قوام الطريقة المتبعة فى السيرة[2].

٢ - أبان بن عثمان بن عفان (٣٢ - ١٠٥ هـ) وهو محدث ثقة من التابعين. وقد جمع دروسه عن حياة النبى - ﷺ - فى كتاب تلميذه عبد الرحمن ابن المغيرة (ت ١٢٥ هـ) وأطلق على هذه الآثار الأدبية الأولى اسم المغازى، وهى التى ظلت من التواليف المأثورة إلى عهد متأخر، فضلا عن أنها تنم -

---

(١) من أبرزها:

١ - هورفتس: المغازى الأولى ومؤلفوها.

٢ - مارغوليوس: دراسات عن المؤرخين العرب.

٣- عبد العزيز الدورى: نشأة علم التاريخ عند العرب.

٤ - صالح العلى: فصل ضمن كتابه: محاضرات فى تاريخ العرب قبل الإسلام.

٥ - الدكتور جواد على: فصل فى بداية كتابه: تاريخ العرب قبل الإسلام - السيرة النبوية.

٦ - الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف: دراسة فى مصادر التاريخ الاسلامى.

٧ - مارسدن جونس: مقدمته لكتاب: مغازى الواقدى.

٨ - الدكتور حسين نصار: نشأة التدوين التاريخى عند العرب.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة (سيرة)

كما يستفاد من القطع التى بقيت منها - على أن محتوياتها تتعلق فى جوهرها بحياة النبى العامة[١]

٣ - عامر بن شراحيل الشعبى (ت١٠٣ هـ) وهو محدث ثقة، له كتاب المغازى[٢]

٤ - عاصم بن عمر بن مَنادة (ت١١٩ هـ)، وهو محدث ثقة.

٥ - محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى (ت١٢٤ هـ) وهو من كبار المحدثين فى عصره، وثّقه جهابذة علماء الجرح والتعديل، وهو أول من استخدم طريقة جمع الأسانيد ليكتمل السياق، وتتصل الأحداث دون أن تقطعها الأسانيد.

وقد انتقد على الزهرى تلفيقه الحديث من عدة من شيوخه، دون أن يفرد حديث كل واحد منهم عن الآخر، لكن هذا الانتقاد الذى حكاه القاضى عياض، عن القدامى ردّه كبار العلماء مثل النووى والعراقى، حيث أوضحا أن عمله جائز مادام قد بيّن ذلك، ومادام الجميع ثقات[٣].

٦ - يزيد بن رومان الأسدى المدنى (ت١٣٠ هـ) تابعى ثقة، ألف فى المغازى، معتمدا على عروة والزهرى. يروى عنه ابن اسحاق[٤]

٧ - عبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم (١٣٥ هـ) وهو محدث ثقة من التابعين.

٨ - موسى بن عقبة (ت ١٤٠ هـ)، وهو محدث ثقة من تلاميذ الزهرى، وقد أثنى الإمام مالك على كتابه (المغازى) وقال: إنه أَصَحّ المغازى[٥]. وقال يحيى

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة (سيرة)
(٢) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد ٢٣٠/١٢
(٣) أنظر النووى: شرح صحيح مسلم ٦٢٨/٥، والعراقى: طرح التثريب شرح التقريب ٤٧/٨
(٤) ابن حجر: تهذيب التهذيب ٢٢٥/٩
(٥) الذهبى: سير أعلام النبلاء ١١٥/٦

ابن معين: «كتاب موسى بن عقبة عن الزهرى من أصح هذه الكتب[١]. وقال الإمام الشافعى: وليس فى المغازى أصح من كتاب موسى بن عقبة مع صغره وخلوه من أكثر ما يذكر فى كتب غيره»[٢]

٩ - **محمد بن عبد الرحمن بن نوفل** (ت ٢٣١ هـ) له كتاب «المغازى»[٣]

١٠ - **سليمان بن طرخان التيمى** (ت ١٤٣هـ) وهو محدث ثقة من التابعين.

١١ - **معمّر بن راشد** (ت١٥٣ هـ) وهو محدث ثقة من تلاميذ الزهرى «كان من أوعية العلم مع الصدق والتحرى والورع والجلالة وحسن التصنيف[٤]

١٢ - **محمد بن اسحاق** (ت ١٥١ هـ) من تلاميذ الزهرى، إمام فى المغازى، لكن مروياته لا ترقى إلى درجة الصحيح، بل الحسن بشرط أن يصرح بالتحديث، وهو أول من وضع السيرة فى نسق التاريخ العام. وتحتوى سيرته على الحسن والضعيف معا.

قال ابن عدى: وقد فتشت أحاديثه، فلم أجد فى أحاديثه ما يتهيأ أن يقطع عليه الضعف، وربما أخطأ أو يهم، كما يخطئ غيره، ولم يتخلّف فى الرواية عنه الثقات والأئمة، وهو لا بأس به. وهذه الشهادة لها قيمتها العلمية، لا لمكانة ابن عدىّ وتشدده فى التوثيق فقط، بل لأنها مبنية على سبر الروايات، وليس على نقل أقوال النقاد القدامى فقط، والتى تدور حول اتهام ابن اسحاق بالقدر وبالتشيع وبالتدليس[٥]، ومرة باحتمال كذبه فى الرواية عن فاطمة زوجة هشام ابن عروة بن الزبير، ولم يثبت كذبه، فقد رد على الاتهام عدد من الأئمة النقاد منهم الإمام أحمد بن حنبل.

وقال الحافظ الذهبى: «لا ريب أن ابن اسحاق كثّر وطوّل بأنساب

---

(١) الخطيب: الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ٢٢٥

(٢) البلاذرى: أنساب الأشراف ١/١١٢، ٣٥١.

(٣) سير أعلام النبلاء ٦/١١٧.

(٤) سير أعلام النبلاء ٦/٧

(٥) سير أعلاء النبلاء ٧/١٣٩

مستوفاة، اختصارها أملح، وبأشعار غير طائلة حذفها أرجح، وبآثار لم تصحح، مع أنه فاته شيء كثير من الصحيح لم يكن عنده، فكتابه محتاج إلى تنقيح وتصحيح، ورواية مافاته»[١]

وقد أجاد الحافظ الذهبي فى بيان مرتبة حديثه، فقال عنه: «له ارتفاع بحسبه ولا سيما فى السير، وأما أحاديث الأحكام فينحط حديثه فيها عن رتبة الصحة إلى رتبة الحسن، إلا فيما شذّ فيه، فإنه يُعَدّ منكرًا»[٢].

ويقول العراقى: «المشهور قبول حديث ابن اسحق، إلا أنه مدلّس، فإذا صَرّح بالتحديث كان حديثه مقبولا»[٣].

ولا يعنى ذلك توثيق سائر مرويات كتابه فى السيرة، فقد أورد فيها روايات منكرة ومنقطعة، سجلها عليه الحافظ الذهبى، قال: «صالح الحديث ماله عندى ذنب إلا ما قد حشاه فى السيرة من الأشياء المنكرة والمنقطعة[٤].

والظاهر من كلام العلماء أن إستخدام الإسناد فى كتابه قد اضطرب اضطرابا صدم فقهاء علم الحديث المستمسكين بأصول السنة صدمة عنيفة، فأنكروا عليه بالإجماع صفة المحدّث الثبت.

وهذا الحكم الذى أعلنه الإمام مالك بن أنس، هو الذى جعل ابن اسحق يهجر التدريس فى المدينة، وينزح إلى العراق. وهذا الحكم عظيم الأهمية، فهو يفرق تفرقة واضحة، بين الحديث التاريخى والحديث العقيدى.

١٣ - أبو معشر السندى (ت ١٧١ هـ) وهو بصير فى المغازى، ضعيف فى الحديث، لكن ضعفه نسبى، يكتب معه حديثه، لاسيما حديثه عن محمد بن كعب، ومحمد بن قيس، تمشيًا مع رأى الطبقة المتوسطة من النقاد، لأن منهج المحدثين

---

(١) الذهبى: سير أعلام النبلاء ١١٦/٦.
(٢) المرجع السابق ١٤١/٧.
(٣) طرح التثريب شرح التقريب ٧٢/٨.
(٤) سير أعلام النبلاء ١٤١/٧.

الأخذ بقول الطبقة المتوسطة فى التجريح إذا تعارض مع قول الطبقة المتشددة[١].

١٤ - عبد الملك بن محمد بن أبي بكر بن حزم المدنى (ت ١٧٦ هـ) محدث ثقة فى كتابه «المغازى»[٢].

١٥ - يحيى بن سعيد الأموى (ت ١٩٤ هـ) محدث ثقة صنف المغازى.

١٦ - الوليد بن مسلم الدمشقى (ت ١٩٦ هـ) محدث ثقة.

١٧ - يونس بن بكير (ت ١٩٩ هـ) وهو أحد رواة سيرة ابن اسحق، وله زيادات على المغازي[٣].

١٨ - محمد بن عمر الواقدى (ت ٢٠٧ هـ)، وهو ضعيف عند المحدثين، مع غزارة مادته العلمية، ولا تصلح مروياته للاحتجاج بها فيما يتعلّق بالعقيدة والشريعة، ولكنها تنفع فى وصف تفاصيل الأحداث. والملاحظ فى استقراء مغازيه، أنه يسوق روايات كثيرة، من طرق فيها رجال لا نجد لهم تراجم فى كتب علم الرجال، وأما الروايات التى ينقلها ابن سعد عن الواقدى، فيبدو أنه انتقاها، حيث نجد تراجم رجال الإسناد فى كتُب علم الرجال.

ومعنى ذلك أن أسانيد الواقدى فيها رجال ليست لهم رواية فى الحديث، لذلك لم تترجم لهم كتب الرجال، أو أنهم مُخْتَلَقُون وضع أسماءهم الواقدى. ومن هنا يتضح سبب اتهام المحدثين النقاد له بالكذب والوضع، وحكمهم عليه بأنه متروك. ولا شك أن جميع مرويات الراوى ودراستها والحكم عليه من خلالها كان منهج كثير من الأئمة والنقاد فى الحكم على الرواة المكثرين.

١٩ - محمد بن عائذ الدمشقى (ت ٢٣٤ هـ)، محدث ثقة، وقد قرأ ابن حجر جزءًا منتقى من مغازيه، كما ذكر فى المعجم المفهرس.

---

(١) راجع: ابن حبّان: المجروحين ٦٠/٣ والتاريخ الكبير للبخارى ١١٤/٨، وتاريخ بغداد ٤١٧/١٣ وتهذيب التهذيب ٤٢٠/١٠.

(٢) ابن النديم: الفهرست ٢٨٢.

(٣) ابن حجر: الإصابة ٢٤٢/١.

٢٠ - علي بن محمد المدائني (ت ٢٥٥ هـ) ورد في ترجمته ما يدل على صدقه في الأخبار، وهو يمتاز بتناوله موضوعات من السيرة أفردها في مصنف، وهي مهمة في دراسة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية للسيرة.

٢١ - عبد الله بن محمد بن نفيل الحراني (ت ٢٣٤ هـ) له كتاب «المغازي»، وهو ثقة حافظ.

٢٢ - صالح بن اسحق الجرمي النحوي (ت ٢٢٥ هـ) كان جليلا في الحديث والأخبار، وله كتاب في السيرة عجيب[1].

٢٣ - أحمد بن الحارث الخراز (ت ٢٥٨ هـ) له كتاب «مغازي النبي وسراياه وأزواجه».

٢٤ - عبد الملك بن محمد الرقاش البصري (ت ٢٧٦ هـ) له كتاب «المغازي» وهو صدوق يخطئ.

٢٥ - اسماعيل بن جميع (ت ٢٧٧ هـ) له كتاب «أخبار النبي ومغازيه وسراياه»[2].

٢٦ - ابراهيم بن اسماعيل العنبري الطوسي (ت ٢٨٠ هـ) له كتاب في «المغازي».

٢٧ - اسماعيل بن اسحاق القاضي (ت ٢٨٢ هـ) له كتاب «المغازي».

وقد ذكرت كتب التراجم أسماء عدد من التابعين وأتباعهم ومن تلاهم، ووصفتهم بالعلم بالسيرة والاهتمام بها، مثل أبي اسحق عمرو بن عبد الله السبيعي (ت ١٢٧ هـ) ويعقوب بن عتبة بن المغيرة المدني (ت ١٢٨ هـ) وداود بن الحسين الأموي (ت ١٣٥ هـ) وعبدالرحمن بن عبدالعزيز الحفيفي (ت ١٦٢ هـ) ومحمد بن صالح بن دنار (ت ١٦٨ هـ) وعبدالله بن جعفر المخرمي المدني (ت ١٧٠ هـ).

---

(١) الخطيب: تاريخ بغداد ٣١٤/٩.

(٢) ابن النديم: الفهرست ١١٢.

وهؤلاء لم تصرح المصادر بتأليفهم كتابًا فى السيرة، بل أشارت إلى عنايتهم واهتمامهم بالتحديث بها[1] لذلك لم أثبتهم ضمن أسماء المؤلفين فى السيرة، واكتفيت بهذه الإشارة إليهم.

هؤلاء هم الرواد الأوائل فى كتابة السيرة، ويتضح من توثيق نقاد الحديث لأكثرهم، ما تميزوا به من العدالة والضبط، وهما شرطان عند العلماء لتوثيق الرواة، فلئن كانوا قد وثقوا عند المحدثين رغم دقة شروطهم فى التوثيق، ورغم نظرتهم لهم على أنهم محدّثون، مادتهم الأحاديث وليسوا إخباريين مادتهم الأخبار، والنقاد يتشددون فى مادة الحديث كثيرا، ويتساهلون فى قبول الأخبار[2]، فإن هذا التوثيق يعطى كتاباتهم فى السيرة قيمة علمية كبيرة.

لقد حفظ الله تعالى سيرة نبيّه - ﷺ - من الضياع والتحريف والمبالغة والتهويل، بأن هيأ جهابذة المحدثين، ليعنوا بها ويدونوا أصولها الأولى، قبل أن تتناولها أقلام المؤرخين والقاصين، وهذه ميزة لمصادر السيرة لم تتوفر لغيرها من كتب التاريخ والأخبار.

ميزة لكون المحدثين ثقات مأمونين فى الرواية، وميزة لكونهم علماء لهم مناهج واضحة فى نقد الروايات سندًا ومتنًا، ولهم أسلوب يتسم بالجدّية والبعد عن الحشو والمبالغة.

وحقا فإن مصنفات هؤلاء الأعلام الذين ذكرتهم فى السيرة معظمها قد سقط من يد الزمن، لكن المصادر التالية - التى وصلت إلينا - اعتمدت عليها، ونقلت عنها كثيرا بالأسانيد، فوصلت منها مادة علمية كبيرة، وقد ظلت مادة المصنفات الأولى، هى الأساس وهى الأصل فى كل المصنفات المتأخرة، ليس فى المادة فقط، بل فى طريقة العرض أيضا.

---

(١) انظر تراجمهم فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ٢/٢/٢٦٠، وتاريخ بغداد ١٢/٢٣٠، وتهذيب التهذيب ٨/٦٣، ٦٧، ٥/١٧٢، ٦/٣٨٨، ١١/٢٩٣، وتاريخ التراث العربى ٢/٤٥٦.

(٢) د/أكرم العمرى: مقدمة تاريخ خليفة بن خياط ص٢٤.

* ومن أبرز المصادر التي وصلت إلينا فى السيرة النبوية:

١ - سيرة ابن هشام:

وهى تهذيب لسيرة ابن اسحاق، حيث حذف ابن هشام منها كثيرا من الأشعار المنتحلة والاسرائيليات، وأضاف إليها معلومات فى اللغة والأنساب، مما جعلها - بعد التهذيب - ترضى جمهور العلماء فليس من مؤلف فى السيرة - بعده - إلا ويعتمد عليه.

والحق أن الصورة التى تعطيها هذه السيرة عن حياة الرسول، تقترب إلى حد كبير مما أوردته كتب الحديث الصحيحة، مما يعطى سيرته توثيقا كبيرا. خاصة وأن عمله كان يتسم بالنقد والتوثيق، فجاء كتابه أوفى وأغزر مصادر السيرة النبوية، وأصحها وأدقها.

وقد شرح سيرة ابن هشام الحافظ السهيلى (ت ٥٨٢ هـ) فى كتابه «الروض الأنف» وهو مطبوع. والخشنى (٥٣٥ - ٦٠٤هـ).

٢ - مغازى الواقدى، لمحمد بن عمر الواقدى (ت٢٠٧هـ)

وفى هذه المغازى يقدم فى بعض الأحيان إضافات على سيرة ابن اسحاق[١]، ويبدى رأيه فى الروايات، ويرجح بينها[٢]، ويعترف العلماء بغزارة مادته فى السيرة، لكن المحدثين ضعفوه[٣] فقال النسائى: «يضع الحديث»، واتهمه الإمام الشافعى بالوضع، وقال عنه الإمام أحمد: كذاب. وقال ابن عدى: أحاديثه غير محفوظة، والبلاء منه» وقال ابن حجر: متروك مع سعة علمه[٤]. وقد دافع عنه ابن سيد الناس بما لا طائل تحته، بعد أن جرحه النقاد.

---

(١) مارسدن جونس: مقدمة مغازى الواقدى ص٣٤، والدورى: نشأة علم التاريخ عند العرب ص٣١.

(٢) مقدمة مغازى الواقدى ص٣٤.

(٣) الخطيب: تاريخ بغداد ٢١/٣.

(٤) انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب لابن حجر، وفى تقريب التهذيب له أيضا.

٣ - الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ) حيث خصص المجلدين الأولين من كتابه للسيرة. وابن سعد ثقة يتحرى فى كثير من رواياته، كما يقول الخطيب البغدادى، والعسقلانى، لكنه ينقل أحيانا عن الضعفاء مثل الواقدى، الذى أكثر من النقل عنه، حتى اتهمه ابن النديم بسرقة مصنفاته.

بيد أن التحقيق والتدقيق، كلاهما يثبت أن ابن سعد مؤلف له منهجه، وأنه يكثر من النقل لا عن الواقدى وحده، بل عن كثير من الشيوخ البارزين من أمثال عفان بن مسلم، وعبيد الله بن موسى، والفضل بن دكين، والثلاثة من ثقات المحدثين[١]. وكان منهجه فى الطبقات يسير على ذكر أسماء الصحابة والتابعين، بعد ذكر سيرة رسول الله - بحسب طبقاتهم وقبائلهم وأماكنهم، ويعتبر كتابه هذا من أوثق المصادر الأولى لسيرة رسول الله - ﷺ - وأحفظها بذكر الصحابة والتابعين.

٤ - تاريخ خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ)

وهو محدّث ثقة من شيوخ البخارى فى الصحيح، وكتابه تاريخ عام تناول فى بدايته أحداث السيرة باقتضاب، معتمدا على ابن اسحق بالدرجة الأولى[٢]

٥ - أنساب الأشراف، لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ)

وهو تاريخ عام مرتب على الأنساب، وقد خصص البلاذرى القسم الأول منه للسيرة.

وينظم المحدِّثون البلاذرى فى سلك الضعفاء، فقد أورد العسقلانى ترجمته فى كتابه (لسان الميزان) ضمن الضعفاء.

٦ - تاريخ الرسل والملوك، لمحمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ)

حيث خصص قسما منه للسيرة. والطبرى محدث ثقة، واعتمد على ابن اسحق فى معظمها، وأبرز خصيصة فى منهجه، أنه لا يهتم بنقد الروايات التى يوردها من

---

(١) د/أكرم العمرى: بحوث فى تاريخ السنة المشرفة ص٥٦، ٥٧.
(١) د/أكرم العمرى: مقدمة تاريخ خليفة بن خياط ص٢٦، ٢٧.

حيث الصحة والضعف، بل يسوقها بأسانيدها، تاركا للقارئ مهمة التحقيق والترجيح[١]

٧ - الدُّرر فى اختصار المغازى والسير، لابن عبد البرّ القرطبى (ت ٤٦٣ هـ)

وهو من أعلام المحدثين فى عصره، وقد اعتمد على سيرة ابن اسحاق، وسيرة موسى بن عقبة. وتاريخ ابن أبى خيثمة، بالإضافة إلى كتب الحديث[٢]. ولم يصرح بالنقل عن الواقدى إلا فى موضع واحد[٣]. لكنه أشار إلى روايته لمغازيه[٤]. وقد صرح بمتابعة ابن اسحاق فى البناء العام لكتابه[٥] ولم يتقيد بذكر الإسناد كثيرا.

٨ - جوامع السيرة، لابن حزم الظاهرى (ت ٤٥٦ هـ)

وقد تخلى عن طريقة ذكر الأسانيد، ولم يذكر مصادره[٦]، وهو يرجح بين الروايات، ويثبت فى كتابه ما اختاره وحققه فى تواريخ الأحداث[٧]، وغلبت عليه طريقة التلخيص، فجرّد السيرة من الأشعار والقصص.

٩ - الكامل فى التاريخ لابن الأثير الجزرى (ت ٦٣٢ هـ)

وهو مؤرخ ثقة، وكتابه تاريخ عام، خصص قسما منه للسيرة.

١٠ - عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، لابن سيد الناس (ت ٧٣٤ هـ)

وهو محدث ثقة، وثقه الذهبى وابن كثير، وقد أكثر فيه النقل عن كتب الحديث، إلى جانب كتب المغازى التى سبقته، وقد ذكر مصادره فى مقدمة كتابه.

---

(٢) د/أكرم العمرى: مقدمة تاريخ خليفة بن خياط ص٢٦، ٢٧

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك - مقدمة طبعة أبى الفضل ابراهيم ٨/١

(٢) الدكتور شوقى ضيف: مقدمة كتاب الدرر ص٨، ابن عبد البر: الدرر ص٣٩.

(٣) الدرر ص٢٧٦

(٤) الدكتور شوقى ضيف: مقدمة كتاب الدرر ص١٢

(٥) مقدمة جوامع السيرة ص٨.

(٦) جوامع السيرة، المقدمة ص١٠

(٧) المصدر السابق ص١٣

١١ - زاد المعاد فى هدى خير العباد، لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) وهو عالم ثقة، وكتابه نفيس فى الشمائل والآداب والفقه والمغازى، فهو يجمع بين ذلك كله.

١٢ - السيرة النبوية، للحافظ الذهبى (ت ٧٤٨ هـ) وهو مؤلف ثقة يمتلك عقلية ناقدة جيدة، وخاصة فى استخدام قواعد المحدثين، التى يعتبر من أهل الاستقراء التام فيها، وقد اقتصر على نقد بعض الروايات فى كتابه هذا.

١٣ - البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) وهو تاريخ عام، خصص جزءا منه للسيرة. وابن كثير من الأئمة الثقات المتحققين، وثقه علماء كثيرون كالذهبى والعسقلانى وابن العماد الحنبلى وغيرهم.

١٤ - السيرة الحلبية، لبرهان الدين الحلبى (ت ٨٤١ هـ) ومنهجه يقوم على حذف أسانيد الروايات والاكتفاء بذكر راوى الخبر، وشرح بعض الغريب، وإضافة بعض التعليقات، وقد حشاه بالقصص الاسرائيلى[1]

١٥ - المواهب اللدنيّة بالمنح المحمدية، لأحمد بن محمد القسطلانى (ت ٩٢٣ هـ)

وهو من الكتب الجامعة بين السيرة والشمائل، وقد شرحه محمد بن عبد الباقى الزرقانى المتوفى سنة ١١٢٢ هـ فى ثمانية مجلدات.

١٦ - سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد، لمحمد بن يوسف الدمشقى الشامى (ت ٩٤٢ هـ) جمعها من أكثر من ٣٠٠ كتاب.

٤ - كتب الدلائل والشمائل:

أما كتب الدلائل والشمائل، فهى تذكر المعجزات والدلائل التى تبين صدق نبوته صلى الله عليه وسلم وتعرف بالتأييدات الإلهية للرسول الكريم.

ورغم أن كتب الحديث اشتملت على أبواب فى علامات النبوة وآياتها

---

(١) الدكتور: جواد على: تاريخ العرب قبل الاسلام، السيرة النبوية ص ١٠.

ودلائلها[1]، وخصائص الرسول - ﷺ - إلاّ أن هناك كتبا قد خصصت لإبراز الدلائل على نبوته - ﷺ.

(أ) من أقدم من ألف فى دلائل النبوة:

١ - محمد بن يوسف الغريابى (ت ٢١٢ هـ) وهو ثقة ثبت فى كتابه «دلائل النبوة»

٢ - على بن محمد المدائنى (ت ٢١٥ هـ) فى كتابه «آيات النبى»[2]

٣ - داود بن على الأصفهانى (ت ٢٧٠ هـ) فى كتابه «أعلام النبوة»

٤ - وابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) فى مؤلفه «أعلام رسول الله»

٥ - وابن أبى حاتم (ت ٣٢٧ هـ) فى كتابه «أعلام النبوة»

٦ - وأبو بكر بن أبى الدنيا (ت ٢٨١ هـ)

٧ - وأبو عبد الله بن منده (ت ٣٩٥ هـ)

٨ - وأبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانى (ت ٤٣٠ هـ) وقد طبع مختصر منه، وفيه روايات كثيرة ضعيفة.

٩ - والقاضى عبد الجبار المعتزلى (ت ٤١٥ هـ) فى كتابه «تثبيت دلائل النبوة» وهو مطبوع.

١٠ - وأبو العباس جعفر بن محمد المستغفرى (ت ٤٣٢ هـ)

١١ - وأبو الحسن على بن محمد الماوردى (ت ٤٥٠ هـ) وهو مطبوع.

١٢ - وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى (ت ٤٥٨ هـ) وهو مطبوع،

---

(١) أنظر صحيح البخارى ١٤٠/٢ ط بولاق، وصحيح مسلم وغيرهما من الكتب.

(٢) ابن النديم: الفهرست ١١٣

ويضم أحاديث صحيحة وحسنة وأخرى ضعيفة وموضوعة، وقد امتدح الحافظ الذهبى هذا الكتاب[١]

١٣ - وأبو القاسم اسماعيل الأصفهانى (ت ٥٣٥ هـ)

١٤ - وعمر بن على بن الملقن (ت ٨٠٤ هـ) فى كتابه «خصائص أفضل المخلوقين».

١٥ - وجلال الدين السيوطى (ت ٩١١ هـ) فى كتابه «الخصائص الكبرى» وهو مطبوع، ويتناول السيرة والدلائل.

وكتب الخصائص والدلائل كثيرة، فاقتصرت على بعضها، وليست هذه القائمة مشتملة على سائر ما ألف، فهناك مؤلفات أخرى فى هذا الموضوع.

(ب) كتب الشمائل:

أما كتب الشمائل فتتحدث عن مكانة وأخلاق وآداب وصفات الرسول - ﷺ. وأقدم من ألف فيها:

١ - داود بن على الأصبهانى (ت ٢٧٠ هـ). فى كتابه «صفة أخلاق النبى»[٢].

٢ - والحافظ الترمذى (ت ٢٧٩ هـ) فى كتابه «الشمائل النبوية والخصائص المصطفوية» وهو مطبوع.

٣ - الشيخ عبد الله بن محمد بن حيان الأصبهانى (ت ٣٦٩ هـ) فى كتابه «أخلاق النبى وآدابه» وهو مطبوع.

٤ - أبو سعيد عبد الملك بن محمد النيسابورى (ت ٤٠٦ هـ) فى كتابه «شرف المصطفى».

٥ - أبو العباس المستغفرى (ت ٤٣٢ هـ) فى كتاب «شمائل النبى».

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١٦/٦

(٢) ابن النديم: الفهرست ٢٧٢

٦ - الحافظ بن كثير (ت٧٧٤هـ) وقد صنف كتابا بعنوان «شمائل الرسول» وهو مطبوع.

٧ - القاضى عياض (ت٥٤٤هـ) فى كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى» وهو محور دراستنا الآن، للتعريف بمنهجه.

* وقد خرَّج أحاديثه الحافظ السيوطى (ت٩١١هـ) فى كتاب «مناهل الصفا فى تخريج أحاديث الشفا» وهو مطبوع.

* وشرحه عدد من العلماء، منهم على القارى (ت١٠١٤هـ) فى «شرح الشفا» وهو مطبوع. والخفاجى (ت١٠٦٩هـ) فى كتابه «نسيم الرياض فى شرح الشفا للقاضى عياض».

٣ - منهج القاضى عياض فى تأليف السيرة

(أ) نظرته إلى السيرة:

نظر القاضى عياض إلى السيرة النبوية على أنها فقه الإيمان، وبرد اليقين، وأنس الروح، وسعادة النفس، ونشوة الحسّ..

نظر إليها على أنها نور وهّاج، أفضى إلى ظلمات الجهل والوثنية، فانجابت كما ينجاب الغمام، وهدى من الله أرسله إلى الإنسانية الضالة فانتشلها من ضيعة، وانتاشها من هلاك، وأنقذها مما كانت تتخبط فيه من دياجير الظلام، وعقابيل الضلال.

إن سيرة الرسول المصطفى - ﷺ - بين ذهن القاضى عياض وقلمه، سيرة عالية، رفيعة الشأن، جليلة القدر، عظيمة النفع، كبيرة الفائدة، تلمع أضواؤها فى الكتاب والسنة، متضمنة نفحات من هذا الهدى، وومضات من ذلك الإشراق.

إن سيرة الرسول - ﷺ - فى مفهومه - سيرة الحبيب المحبوب، غنية بأحداثها، زاخرة بدلالاتها، متنوعة بمعطياتها.

إنها صفحة عريضة، فريدة وحيدة من صفحات الجهاد لإنقاذ البشرية، ومثل صادق، فريد وحيد لمثل البر والمرحمة. وما كان لباحث منصف، يسعى إلى إيفائها حقها من البحث والتحليل، إلا أن يوسع نطاق رؤياه، ويصب اهتماماته على مضمونها، من حيث كونها.. واقعية مثالية، دينية أخلاقية، قيادية روحية، فقهية حضارية.

ومن هنا لم يلتزم القاضى عياض الخط الزمنى لأحداث السيرة النبويه، ذلك الخط الذى وقع فى أسره معظم المؤرخين والكاتبين، فضاعت فى مجراه حقائق، وطمست دلالات وقيم ما كان لها أن تضيع أو تطمس لو قُسمت وقائع السيرة إلى دراسات موضوعية متجانسة، استقصيت فيها سائر جوانبها، ونسقت جُل وقائعها، وحللت جميع دلالاتها.

رأى القاضى عياض، أن التزام الخط الزمنى، يدفع الباحث إلى أن يعرض فى النقطة الواحدة، أو المقطع الواحد مجموعة أحداث، ووقائع متنافرة، متقاطعة غير متجانسة، ويلجئه أحيانا إلى تقطيع الواقعة الواحدة إلى أجزاء متناثرة، لا يضمها إطار واحد، ولا يوحدها تجانس نوعى. وهذا هو الأسلوب الذى اعتمده، والمنهج الذى ارتضاه المؤرخون القدامى، وعرفوه باسم (الحوليات)، حيث لم تكن مناهج البحث فى علوم التاريخ قد استكملت أسبابها بعد.

ورأى كذلك، أن اعتماد بعض الكاتبين فى السيرة، على المصادر التاريخية القديمة، كمصادر محورية، وتغافلهم عن واحد أو أكثر من المصادر الأساسية، كالقرآن والسنة وأشعار العرب، جعلهم يتركون فقرات عميقة فى صلب أبحاثهم، كما دفعهم إلى سرد الكثير من المعلومات والروايات.. ومن ثَمّ كان تضخيم وقائع السيرة إلى أضعاف حجمها الحقيقى، على حساب الأمور الجوهرية فى سيرة المصطفى - ﷺ.

أما الباحثون المسلمون من المحدِّثين وعلماء القرآن، والقاضى عياض رائدهم، فقد كانوا منهجيين فى بحوثهم عن الرسالة والرسول، نظروا إلى القرآن الكريم كمصدر ربانى، تعلو معطياته على كل المصادر التاريخية، وعلى الأحداث

والظروف زمانا ومكانا.. ونظروا إلى السيرة النبوية كوحدة عضوية متكاملة، مصدرها الأساسي: القرآن والسنة المطهرة الصحيحة، وأقوال الصحابة والتابعين، المروية المتواترة..

ومن رحمة الله عز وجل، أن اتصال السند، من خصائص الأمة الإسلامية، فلسنا نعرف على مدى التاريخ البشرى كله، أمة من أمم الرسل، قد سعدت بمثل هذه المجموعة الناطقة، من الأحاديث النبوية، ومن المرويات عن الصحابة والتابعين وتابعيهم.. بل على العكس من ذلك، نرى الأمم كلها فقيرة، لا تملك مصدرًا من مصادر البحث عن سير الأنبياء، ونراها قد انقطع ما بينها وبين أنبيائها، وفقدت الصلة التى تصلها بعصور هؤلاء الرسل.

أما الرسول الكريم - ﷺ - فهو الرسول الذى يُعرف عنه كل دقيق وجليل، ويعرف عنه من دقائق الأخلاق والصفات، والقول والعمل، وكلها متواترة، استنادًا إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة.

فالقرآن والسنة - بهذه الصورة، مصدران أصيلان، وسجلان خالدان، بهما حفظت هذه السيرة المباركة، وعن طريقهما يعرف كل مسلم ما يتصل بنبيِّه، من قول وفعل، وخصال وخصائص، وتقرير ووصف فى الحركات والسكنات، ويسعد بصحبته، وكأنه يعيش فى عصره، يحضر مجالسه، ويستمع لحديثه، ويقضى معه أسعد مدة من الزمان.

ومن رحمة الله - تبارك وتعالى، أن كانت هذه الأمة، تملك قوة الذاكرة، وسرعة الحفظ والاستظهار، مما يسر لها الجمع والحفظ والاستحضار، حيث كانت القلوب واعية، والعقول حافظة، ولا غرو.. فقد برهن الوحي بقوة بيانه، وأخذ عليهم مشاعرهم، بسطوة سلطانه، واستأثر بكريم مواهبهم، فى لفظه ومعناه، فكان الحفظ فى الصدور، والتدوين فى السطور، وكانت صبغة الله، التى شاء أن تكون، وقد خلعوا عليه حياتهم، حين علموا أنه روح الحياة.

ومن ثَمّ كانوا أهلا لتحمل الرواية، وفقه الدراية، حتى فاقوا فى ذلك كل الأمم، وقد وعى الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم - ما سمعوا وما شاهدوا،

وحرصوا أشد الحرص وأبلغه على حفظه، ونشره، حرصا لم يعرف عن أمة نبى من الأنبياء. وجاء التابعون، وتابعوهم بإحسان، فحملوا الرواية، وأدوا الأمانة، وبلغوا حديث الرسول الكريم، وسيرته وأحواله، وتتابع المسلمون جيلا بعد جيل، يحفظون، ويبلّغون، ويتذاكرون.

وكان لقواعد التحديث الأثر الفعال فى وضع الموازين، التى تكفل السلامة للعلماء الباحثين، وتقيم الحجة على المفسدين المغالطين، ممن ساءت نواياهم حيال هذا النبى الكريم، وهذا الدين، فاتهموا هذه القواعد بما لا يقوم على ساق ولا قدم، ولا يستقر عند البحث والنظر.

أجل.. إن فى هذه القواعد، التى تواضع عليها علماء الحديث والقرآن، فوائد مهمة فريدة، ومباحث جمة مفيدة، ومعارف رائعة وحيدة، وعوارف رائعة عجيبة، وتحقيقات بديعة لطيفة، ومعالم نفيسة شريفة، لا يستغنى عنها من يشتغل بالبحث فى السيرة النبوية، والعلوم الشرعية، والطرق الحكميّة، والأدلة اليقينية.

إن المحدثين وعلماء القرآن كانوا ملهمين، تحقيقا لمعجزة سيد المرسلين، وخاتم النبيين، حين استخرجوا معالم السيرة النبوية، واستنبطوا القواعد المحكمة، وعرفوا الصحاح من الزياف.. وأنهم ما كانوا هازلين ولا مخدوعين، بل كانوا جادين، على هُدى وعلى صراط مستقيم، فكانت تلك القواعد، التى ارتضوها للتوثيق من صحة الأخبار والأحداث، أحكم القواعد وأدقها، ولو ذهب الباحث المنصف المتثبت يطبقها لآتته ثمرتها، ووضعت يده على الخبر اليقين.

إن نظرة فاحصة، على عطاء السيرة النبوية - فى كتاب الشفا، تبصرنا بأن السيرة ليست مجرد سرد للحوادث، وإنما هى تفسير الحوادث، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية، التى تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات، متفاعلة الجزئيات، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحى فى الزمان والمكان.

ولقد كانت مصادره المعتمدة، هى نفسها المصادر المعتمدة فى المنهج الإسلامى، وهى المرجع المعوّل عليه مع تحرير النصوص وتنسيقها. وتطبيق قواعد التحديث

روائية ودراية. فكان الرجل يعيش فى سيرة المصطفى ﷺ بعقله وقلبه، وروحه ونفسه، وحسّه وشعوره وإدراكه، فى جو الإسلام كعقيدة وشريعة، وفكر ونظام، وفى جو الحياة الإسلامية المباركة الطيبة، كصورة واضحة المعالم والقسمات.

لقد كان القاضى عياض، يدرك معطيات السيرة النبوية إدراكًا حقيقيًّا، وكان يتجاوب معها بكل ذاتيته، ويعيش فى جوها بكامل مؤثراتها وإيحاءاتها قلبًا وقالبًا.. من هنا أمكنه دراسة السيرة النبوية دراسة واعية، بإدراك كامل لروح العقيدة الإسلامية.

(ب) منهجه فى البحث:

كان القاضى عياض أمينًا ودقيقًا، حين حدّد منهجه فى دراسة السيرة النبوية، فى مقدمة كتابا الشفا.

لقد قسّم بحثه إلى أربعة أقسام رئيسية، كل قسم منها يضم مجموعة من الأبواب. وكل باب يندرج تحته فصول. وهو بذلك يجزئ دراسته، حتى يسهل عليه تناولها تناولاً حصريًا، وحتى لا يفوته موضوع، أو تغفل عليه نقطة، وهو فى ذلك يقول:

«ولما نويتُ تقريبه، ودرجت تبويبه، ومهدتُ تأصيله، وخلّصت تفصيله، وانتحيت حَصْره وتحصيله، ترجمته «بالشفا بتعريف حقوق المصطفى» وحصرت الكلام فيه فى أربعة أقسام[1]:

● **القسم الأول: فى تعظيم العلى الأعلى لقدر هذا النبى قولا وفعلا.**

الباب الأول: فى ثنائه تعالى عليه، وإظهاره عظيم قدره لديه. (وفيه عشرة فصول).

الباب الثانى: فى تكميله له بالمحاسن، خَلْقا وخُلُقًا، وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نَسَقًا. (وفيه سبعة وعشرون فصلا).

---

(١) الشفا ص٨ وما بعدها.

الباب الثالث: فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعظيم قدره عند ربّه ومنزلته، وما خصّه الله به فى الدّارين من كرامته. (وفيه اثنا عشر فصلا).

الباب الرابع: فيما أظهره الله تعالى على يديه من الآيات والمعجزات، وشرّفه به من الخصائص والكرامات (وفيه ثلاثون فصلا).

● القسم الثانى: فيما يجب على الأنام من حقوقه - عليه الصلاة والسلام.

ويرتب القول فيه فى أربعة أبواب:

الباب الأول: فى فرض الإيمان به، ووجوب طاعته، واتباع سنته. (وفيه خمسة فصول).

الباب الثانى: فى لزوم محبته ومناصحته، (وفيه ستة فصول).

الباب الثالث: فى تعظيم أمره، ولزوم توقيره وبره (وفيه سبعة فصول).

الباب الرابع: فى حكم الصلاة عليه والتسليم وفرض ذلك وفضيلته (وفيه عشرة فصول).

● القسم الثالث: فيما يستحيل فى حقه - ﷺ - وما يجوز عليه، وما يمتنع ويصح من الأمور البشرية أن يضاف إليه.

وهذا القسم هو سرّ الكتاب، ولباب ثمرة هذه الأبواب، وما قبله له كالقواعد والتمهيدات، والدلائل على ما نورده فيه من النكت البينات. وهو الحاكم على ما بعده، والمنجز من غرض هذا التأليف وَعْدَه..

وعند التقصى لموعدته، والتَّفَصِّى عن عُهدته، يَشْرَق صدرُ العدو اللعين، ويُشْرِق قلب المؤمن باليقين، وتملأ أنواره جوانح صدره، ويقدر العاقلُ النبىَّ حقَّ قدره.

ويتحرر الكلام فيه فى بابين:

الباب الأول: فيما يختصّ بالأمور الدينية، ويتشبث به القول فى العصمة (وفيه ستة عشر فصلا)

الباب الثانى: فى أحواله الدنيوية، وما يجوز طرؤُه عليه من الأعراض البشرية (وفيه تسعة فصول)

● القسم الرابع: فى تصرف وجوه الأحكام على مَنْ تَنَقَّصهُ أو سَبَّه - ﷺ

وينقسم الكلام فيه فى بابين:

الباب الأول: فى بيان ما هو فى حقه سبٌّ ونقص من تعريض أو نصّ (وفيه عشرة فصول)

الباب الثانى: فى حكم شانئه ومؤذيه ومنتقصه، وعقوبته، وذكر استتابته والصلاة عليه ووراثته. (وفيه عشرة فصول)

ثم يقول القاضى عياض: وختمناه بباب ثالث. جعلناه تكملة لهذه المسئلة، وَوُصْلَة للبابين اللذين قبله، فى حكم من سب الله تعالى، ورُسُله وملائكته وكتبه وآل النبى - ﷺ - وصحبه - (واختصر الكلام فيه فى خمسة فصول)

وبتمامها ينتجز الكتاب، وتتم الأقسام والأبواب، ويلوح فى غُرة الايمان لمعة منيرة، وفى تاج التراجم دُرة خطيرة، تزيح كل لبس، وتوضح كل تخمين وحَدْس، وتشفى صدور قوم مؤمنين، وتصدع بالحق وتعرض عن الجاهلين.

هذا هو المنهج الذى وضعه القاضى عياض لنفسه، فى دراسته لسيرة المصطفى - ﷺ.

ونظرة فاحصة فى خطة بحثه، نجد ما يلى:

١ - أنه خصص القسم الأول لدراسة شخصية الرسول - ﷺ، كما رسمها القرآن، وحدد معالمها الحق تبارك وتعالى.

٢ - وأنه خصص القسم الثانى لدراسة حقوق الرسول قِبَل المسلمين.

٣ - وأنه خصص القسم الثالث لدراسة شخصية الرسول - ﷺ - من جانبين:

(أ) جانب النبوّة

(ب) الجانب الإنسانى.

٤ - أما القسم الرابع والأخير، من دراسته، فقد خصصه لإبراز موقف الشريعة من العداوة للرسول.

٥ - أنه تنكب الجوانب التاريخية، التى نهجها كتاب السيرة السابقين، وتفرد بالحديث عن هذه الجوانب الدينية.

وستكون خطة بحثنا - إن شاء الله - وفق خطته، وتسير على نهجه وأسلوبه.

الباب الأول

شخصية الرسول كما رسمها القرآن

تمهيـد

الفصل الأول : فى ثناء الله عليه

الفصل الثانى : خصال الكمال والجمال

الفصل الثالث : عظيم قدره ومنزلته عند ربه

الفصل الرابع : معجزاته (ﷺ)

شخصية الرسول كما رسمها القرآن

تمهيـــد:

صدَّر القاضى عياض فصول هذا الباب، بمقدمة تمهيدية، تحدث فيها عن مجمل موضوعات هذا الباب، قال فيها:

«لاخَفَاء على من مارسَ شيئا من العلم، أو خُصّ بأدنى لمحة من الفهم، بتعظيم الله قَدْر نبينا ﷺ، وخصوصه إيّاه بفضائل ومحاسن، ومناقب، لا تنضبط لزمام، وتنويهه من عظيم قدره بما تكلّ عنه الألسنة والأقلام.

ولقد أوضح القاضى عياض فى هذه المقدمة، أن المنهج الإلهى سلك طريقين، لتوضيح شخصية الرسول ﷺ. طريق نظرى، وطريق عملى تطبيقى.

* **أما الطريق النظرى،** فهو ما صرح به تعالى فى كتابه، ونبّه به على جليل نِصَابه، وأثنى به عليه من أخلاقه وآدابه، وحضّ العباد على التزامه، وتقلد إيجابه، فكان جل جلاله هو الذى تفضّل وأولى ثم طهّر وزكى، ثم مدح بذلك وأثنى، ثم أثاب عليه الجزاء الأوفى، فله الفضل بَدْءًا وعَوْدًا.

* **أما الطريق الثانى: فهو الطريق العملى التطبيقى** - وهو ما أبرزه للعيان من خَلْقه على أتم وجوه الكمال والجمال، وتخصيصه بالمحاسن الجميلة، والأخلاق الحميدة، والمذاهب الكريمة، والفضائل العديدة، وتأييده بالمعجزات الباهرة، والبراهين الواضحة، والكرامات البينة، التى شاهدها من عاصره، ورآها من أدركه، وعلمها علم اليقين من جاء بعده، حتى انتهى عِلْم حقيقة ذلك إلينا.

إذا فموضوعات هذا الباب - كما أجملها القاضى عياض، تتناول:

١ - ثناء الله عليه.
٢ - خصال الجمال والكمال.
٣ - عظيم قدره ومنزلته عند ربه.
٤ - معجزاته - ﷺ.

الفصل الأول

فى ثناء الله عليه وإظهاره قدره لديه

بدأ القاضى عياض دراسته للسيرة النبوية، سالكا الطريق النظرى، فتناول مكانة الرسول عند ربه، تلك المكانة التى سجلها القرآن فى أكثر من موضع، وتحدث عنها فى العديد من الآيات، مثنيا عليه، مظهرا عظيم قدره، وجليل شمائله، وتعديد محاسنه، وتعظيم أمره، والتنويه بمكانته، من مثل قوله تعالى:

﴿لَقَدْ جاءَكُم رَسُولٌ مِنْ أنفُسِكُم عَزِيزٌ عَلَيْه ما عَنِتُّم، حَرِيصٌ عَلَيْكُم، بالْمُؤْمنينَ رَؤُوفٌ رَحيم﴾.

قال القاضى عياض: أَعْلَم الله تعالى المؤمنين، أو جميع الناس، أنه بعث فيهم رسولا من أنفسهم، يعرفونه، ويتحققون مكانه، ويعلمون صدقه وأمانته، فلا يتهمونه بالكذب، وترك النصيحة لهم، لكونه منهم، وأنه لم تكن فى العرب قبيلة إلّا ولها على رسول الله - ﷺ - ولادة، أو قرابة.

ثم بيّن القاضى عياض، أن الحق سبحانه وصفه بَعْدُ بأوصاف حميدة، وأثنى عليه بمحامد كثيرة، من حرصه على هدايتهم ورشدهم وإسلامهم، وشدة ما يُعنتهم ويضرّ بهم فى دنياهم وأخراهم، وعزّته عليهم، ورأفته ورحمته بمؤمنيهم، حيث أعطاه الله اسمين من أسمائه: رؤوف رحيم.

ولقد عَلِم -سبحانه وتعالى- عجز خَلْقه عن طاعته، فعرّفهم ذلك لكى يعلموا أنهم لا ينالون الصفو من خدمته، فأقام بينه وبينهم مخلوقا من جِنْسهم فى الصورة، ألبسه من نعته الرأفة والرحمة، وأخرجه إلى الخلق سفيرا صادقا، وجعل طاعته طاعته، وموافقته موافقته، فقال تعالى:

﴿مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ الله﴾

وقال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين﴾

قال أبو بكر محمد بن طاهر: «زين الله تعالى محمدًا - ﷺ - بزينة الرحمة، فكان كونه رحمة، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق. فمن أصابه شيء من رحمته، فهو الناجي فى الدارين من كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب».

ومن آيات تكريم الحق سبحانه وتعالى لرسوله - ﷺ، ما جاء فى سورة الانشراح، وهو قوله تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ إلى آخر السورة..

أى وسع قلبه، وشرحه بنور الاسلام، وملأه حكما وعلما، ووضع عنه ما سلف من ذنبه، قبل النبوة.

وفى ذلك يقول القاضى عياض: «هذا تقرير من الله جلّ اسمه لنبيّه - ﷺ - على عظيم نعمه لديه، وشريف منزلته عنده، وكرامته عليه، بأن شرح قلبه للإيمان والهداية، ووسعه لوعى العلم، وحْمل الحكمة، ورفع عنه ثقل أمور الجاهلية عليه، وبغّضه لسيرها، وما كانت عليه بظهور دينه على الدين كُلّه، وحطّ عنه عُهدة أعباء الرسالة والنبوة لتبليغه للناس ما نُزّل إليهم، وتنويهه بعظيم مكانه، وجليل رتبته، ورفعة ذكره. وقرانه مع اسمه اسمَه. حيث رفع الحق سبحانه ذكره فى الدنيا والآخرة، فليس خطيب، ولا متشهد، ولا صاحب صلاة إلا يقول: أَشْهدُ أَنَّ لَا إِلهَ إِلّا الله وأن محمدًا رسولُ الله»

وفى ذلك يقول النبى - ﷺ - فيما رواه عنه أبو سعيد الخدرى:

«أتانى جبريلُ عليه السلام، فقال: إن ربِّى وربَّك يقول: تدرى كيف رفعت ذكرك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: إذا ذُكرتُ ذكرتَ معى.»

ومن ذكره معه تعالى - أن قرن طاعته بطاعته، واسمه باسمه، فقال تعالى: ﴿وأطيعُوا الله والرَّسُولَ﴾ ﴿وآمَنوا بالله ورسُولِهِ﴾ فجمع بينهما بواو العطف المشتركة.

ومن فضيلته عند ربه، أن جعل طاعتَه طاعتَه، فقال سبحانه:

﴿مَنْ يُطعِ الرَّسُولَ فقد أطاعَ الله﴾

وقال تعالى: ﴿قُلْ إن كُنْتُم تحُبونَ الله فاتَّبِعوني يُحْبِبْكُم الله﴾.

وقد استدل القاضى عياض فى هذا المجال، بالكثير من الآيات القرآنية، التى تتناول الموضوع نفسه، واستشهد عليها بما جاء فى أقوال الصحابة والتابعين.

* ثم انتقل القاضى عياض، وهو فى مجال حديثه عن مكانة الرسول عند الله، إلى الحديث عن وصفه تعالى له بالشهادة[1]، وما يتعلق بها من الثناء والكرامة. وقدم لذلك بما ذكره الحق سبحانه، فى كتابه العزيز. من مثل قوله:

﴿يا أيُّهَا النَّبِيُّ إنَّا أرسَلْنَاكَ شَاهِدًا ومُبَشِّرًا ونَذِيرًا﴾ الآية..

وقال: جمع الله تعالى له فى هذه الآية ضروبا من رُتَب الأثَرة، وجملة أوصاف من المدحة، فجعله شاهدًا على أمته لنفسه بإبلاغهم الرسالة، وهى من خصائصه - ﷺ - ومبشرا لأهل طاعته، ونذيرًا لأهل معصيته، وداعيا إلى توحيده وعبادته، وسراجا منيرا يهتدى به للحق.

واستشهد على ذلك بما جاء فى التوراة مؤيدا لما وصفه به القرآن.

«يا أيها النبى أنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرا وحرزا للأميين، أنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخّاب فى الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملّة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعينا عُميا، وآذانا صُمًّا، وقُلُوبا غُلفًا.. ولا متزّن بالفحش، ولا قّوال للخنا، أسدّده لكل جميل، وأهَبُ له كل خُلُق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبرّ شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة معقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خُلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملّته، وأحمد اسمه، أهدى به بعد الضلالة، وأُعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأسَمّى به بعد النكرة، وأكثّر به بعد القلة، وأغنى به بعد العَيْلة، وأجْمع به بعد الفُرقَة، وأؤلف به بين قلوب مختلفة، وأهواء

(١) الشفا ٢٣/١.

متشتته، وأمم متفرقة، وأجعل أُمته خير أمة أخرجت للناس».

* كما أورد القاضى عياض، ما جاء فى القرآن الكريم من خطاب وجهه الحق سبحانه لنبيه الكريم. على وجه الملاحظة والمبّرة..

وهو قوله تعالى: «عَفَا الله عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ»

وجمع القاضى عياض كل ما ذكره العلماء والمفسرون، من أقوال حول هذه الآية[١].

قيل: هذا افتتاح كلام بمنزلة «أصلحك الله»، وأعزك الله، أخبره الحق بالعفو قبل أن يخبره بالذنب.

وقيل: إن معناه: عافاك الله يا سليم القلب لم أذنت لهم، ولو بدأ النبى - ﷺ - بقوله «لم أذنَت لهم» لخيف أن ينشق قلبه من هيبة هذا الكلام، لكن الله تعالى برحمته أخبره بالعفو، حتى سكن قلبه، ثم قال له: لم أذنت لهم بالتخلف، حتى يتبين لك الصادق فى عذره من الكاذب.

قال القاضى عياض معلقا: وفى هذا من عظيم منزلته عند الله، ما لا يَخْفَى عَلَى ذِى لُبّ، ومن إكرامه إياه، وبره به، ما ينقطع دون معرفة غايته نياط القلب.

«ولقد ذهب ناس إلى أن النبى - ﷺ - معاتب بهذه الآية، وحاشاه من ذلك بل كان مخيرا، فلما أذن لهم أعلمه الله تعالى، أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا لنفاقهم، وأنه لا حرج عليه فى الإذن لهم».

ويضيف قائلا: «يجب على المسلم المجاهد نفسه، الرائض بزمام الشريعة خُلُقه، أن يتأدب بآداب القرآن، فى قوله وفعله ومعاطاته ومحاوراته، فهو عنصر المعارف الحقيقية، وروضة الآداب الدينية والدنيوية، وليتأمل هذه الملاطفة العجيبة فى السؤال من رب الأرباب، المنعم على الكل، المستغنى عن الجميع. ويستثير ما فيها من الفوائد، وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب، وآنس بالعفو قبل ذكر الذنب إن كان ثمّ ذنب»[٢]

---

(١) الشفا ٢٨/١.

(٢) الشفا ٢٩/١.

* ومعلوم أن الحق سبحانه لم يقسم بِنَبيّ أو رسول، سوى النبى المصطفى - ﷺ. لذلك احتفل القاضى عياض بما جاء فى القرآن الكريم «فى قَسَم الحق تعالى بعظيم قدره»

وهو قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

فقال:[1] هذا قَسَم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد - ﷺ - ومعناه: «وبقائك يا محمد» «وعيشك»، «وحياتك»، وهذا نهاية التعظيم، وغاية البر والتشريف.

واستشهد القاضى عياض، بما جاء عن حبر الأمة عبد الله ابن عباس، فى مضمون هذه الآية، وهو قوله: «ما خَلَق الله تعالى، وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم عليه من محمد - ﷺ - وما سمعتُ الله تعالى أَقْسَمَ بحياة أحد غيره.

وقد أقسم الله تعالى باسمه، وبكتابه المجيد، أنه مرسل من قِبَلِهِ لهداية الناس، فقال عز وجل: «يَس، والقُرآن الحكيم ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

قال القاضى عياض: أراد مخاطبة نبيّه، ﷺ، بقوله: يا إنسان، يا محمد.. ثم أقسم الله تعالى باسمه، وكتابه، إنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده، وعلى صراط مستقيم من إيمانه أى طريق لا اعوجاج فيه، ولا عدول عن الحق.

كما أقسم الحق سبحانه - بالبلد الذى حلّ فيه وكان فيه، وهو مكة المكرمة، فقال: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا البَلَدِ، وأنتَ حِلٌّ بهذا البلد﴾

أى أقسم به، وأنت به يا محمد حلال، أو حِلٌّ لك ما فعلت فيه.

﴿ووَالد وما وَلَد﴾ أى ابراهيم وما ولد.

وفى هذا إشارة إلى محمد - ﷺ، لأنه من سلالة اسماعيل ولده. وبذلك تتضمن السورة القسم به فى موضعين.

وفى مجال القسم أيضا، أورد القاضى عياض سورة الضحى كدليل على

---

(١) الشفا ٣١/١.

تحقق مكانته عند ربه[١] لأن هذه السورة تضمنت من كرامة الله تعالى له، وتنويهه به، وتعظيمه إياه ستة وجوه:

الأول: القسم له عما أخبره به من حاله بقوله تعالى «والضُّحَى واللَّيلِ إذَا سَجَى» أى وربِّ الضحى، وهذا من أعظم درجات المبرة.

الثانى: بيان مكانته عنده، وحُظوته لديه، بقوله تعالى: ﴿ما ودَّعك رَبُّك وَمَاقَلى﴾ أى ما تركك. وما أبغضك، وما أهملك بعد أن اصطفاك.

الثالث: قوله ﴿وللآخرة خيرٌ لَكَ مِنَ الأوُلَى﴾ أى مآلك فى مرجعك عند الله أعظم مما أعطاك من كرامة الدنيا، أى ما ادخرت لك من الشفاعة، والمقام المحمود، خير لك مما أعطيتك فى الدنيا.

الرابع: قوله تعالى: ﴿ولَسَوْفَ يُعْطِيك رَبُّك فَتَرْضَى﴾ وهذه آية جامعة لوجوه الكرامة، وأنواع السعادة، وشتات الإنعام فى الدارين والزيادة.

روى عن آل النبى - ﷺ - أنه قال: ليس آية فى القرآن أرجى منها، ولا يْرضَى رسول الله - ﷺ، أن يدخل أحد من أمته فى النار.

الخامس: ما عده تعالى عليه من نعمه، وقرره من آلائه قبله فى بقية السور، من هدايته إلى ما هداه له، أو هداية الناس به، ولا مال له فأغناه بما آتاه، أو بما جعله فى قلبه من القناعة والغنى، ويتيما فحدب عليه عمه وآواه إليه.

وقيل: المعنى، ألم يجدك فهدى بك ضالا، وأغنى بك عائلا، وآوى بك يتيما، ذكّره بهذه المنن.

السادس: أمره بإظهار نعمته عليه، وشكر ما شرفه به بنشره، وإشادة ذكره، بقوله تعالى: ﴿وأمَّا بِنعمةِ رَبِّكَ فحدِّث﴾ فإن شكر النعمة، التحدّث بها. وهذا خاص له. عام لأمته.

---

(١) الشفا ٣٥/١.

* والحق - سبحانه وتعالى - يعلم ضعفه الانسانى، ومقدرته البشرية - وما كان يتحمله النبى - ﷺ، ويأخذ به نفسه، فى عبادته، فى صلاته وخشوعه، فى قيامه وركوعه، وما كان يتحمله فى سبيل دعوته.. لذلك أفرد القاضى عياض، فصلا للحديث عما أورده الحق سبحانه فى القرآن مورد الشفقة على نبيه ﷺ[١]. من مثل قوله تعالى:

﴿طه.. ما أَنْزَلْنَا عليكَ القرآن لتشْقى﴾.

حيث نزلت فيما كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يتكلفه من السهر والتعب، وقيام الليل. وأخذ يستشهد على ما جاء فى هذه الآية، بما ورد من أخبار عن النبى المصطفى - ﷺ - فيما رواه أنس بن مالك قال:

«كان النبى - ﷺ ، إذا صلَّى قام على رِجْل ورفع الأخرى، فأنزل الله تعالى (طه) يعنى طإِ الأرض يا محمد ﴿ما أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القُرآن لتَشْقَى﴾..

ولا خفاء بما فى هذا كله من الإكرام، وحُسن المعاملة.

ومثل هذا من نمط الشفقة - كما يقول القاضى عياض - قوله تعالى:

﴿فلَعَلَّك بَاخِعٌ نَفْسَكَ علَى آثارِهِمْ إنْ لَمْ يؤْمِنُوا بِهَذَا الحديثِ أَسَفًا﴾ أى قاتل نفسك لذلك غضبًا أو غيظًا أو جزعًا.

ويذكر القاضى عياض - فى معرض حديثه - آيات عديدة، كنماذج مما أورده القرآن مورد الشفقة عليه، ﷺ، قائلا: ومن هذا الباب قوله تعالى:

﴿فاصْدَعْ بما تُؤْمَر وأعْرِض عن المُشْركين﴾ إلى قوله تعالى ﴿ولقد نعلم أنك يَضِيقُ صدرك بما يقولون﴾ إلى آخر السورة.

سلّاه الحق سبحانه - بما ذكر، وهوّن عليه ما يلقاه من المشركين، وأعلمه أن من تمادى على ذلك يحلّ به ما حلّ بمن قبله.

ومن هذه التسلية قوله تعالى: ﴿وإنْ يكذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبت رُسُلٌ من قبلك﴾

---

(١) الشفا ١/٤١.

ومن هذا قوله تعالى:

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذين مِنْ قَبْلِهِم مِنْ رَسُولٍ إلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُون﴾

عزاه الله تعالى بما أخبر به عن الأمم السالفة، ومقالتها لأنبيائهم قبله، ومحنتهم بهم. وسلّاه بذلك عن محنته بمثله، من كفار مكة، وأنه ليس أول من لقى ذلك، ثم طيّب نفسه، وأبان عذره، بقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُم﴾ أى أعرض عنهم ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ فى أداء ما بلغت. وإبلاغ ما حُمّلت.

ومثله ﴿واصْبِرْ لِحُكْمِ رِبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُننا﴾ أى اصبر على أذاهم، فإنك بحيث نراك ونحفظك. سلّاه الله تعالى بهذا فى آى كثيرة من هذا المعنى.

* ثم أفرد القاضى عياض فصلا خاصا للحديث عن عظيم قدر المصطفى وشريف منزلته على الأنبياء. وحظوة رتبته عليهم، صدّره بقول الحق سبحانه:[1] ﴿وإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِنْ كِتَابٍ وحِكْمة﴾ إلى قوله ﴿مِنَ الشَّاهِدين﴾ فاستخص الله رسوله المصطفى محمد - ﷺ - بفضل لم يؤته غيره، أبانه به، وهو ما ذكره فى هذه الآية.

قال القاضى عياض: أخذ الله الميثاق بالوحى، فلم يبعث نبيًا إلاَّ ذَكَر له محمدًا ونعته، وأخذ عليه ميثاقه إن أدركه ليؤمنن به، وقيل: أن يُبَيّنه لقومه، ويأخذ ميثاقهم أن يبينوه لمن بعدهم.. ومثله قول الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّين مِيثَاقَهُمْ ومِنْكَ وَمِنْ نُوح﴾

قال قتادة: «إن النبى ﷺ - قال: كنت أول الأنبياء فى الخلق وآخرهم فى البعث» فلذلك وقع ذكره مقدما هنا قبل نوح وغيره.

وهذا تفضيل نبينا - ﷺ، لتخصيصه بالذكر قبلهم، وهو آخرهم بعثا.

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْض﴾ الآية.

---

(١) الشفا ٤٣/١

أراد بقوله ﴿ورفَعَ بَعْضَهُم درجات﴾ محمدًا - ﷺ، لأنه بُعث إلى الأحمر والأسود، وأُحِلّت له الغنائم، وظهرت على يديه المعجزات، وليس أحد من الأنبياء أُعْطِيَ فضيلة أو كرامة إلاّ وقد أعطى محمدا -ﷺ- مثلها.

قال: ومن فضل المصطفى - ﷺ - أن الله تعالى خاطب الأنبياء بأسمائهم، وخاطبه بالنبوة والرسالة، فى كتابه، فقال: ﴿ياأيها النبى﴾ و ﴿ياأيها الرسول﴾

* وتقديرا لمكانة الرسول المصطفى - ﷺ - عند ربه، خَصَّه بصلاته عليه، وأوحى لملائكته، وأمر عباده بالصلاة عليه أيضا. فقال سبحانه:

﴿إنَّ الله وملائِكَتَهُ يُصَلُّونَ علَى النَّبِىّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيهِ وسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

قال القاضى عياض:[1] أبان الله تعالى فضل نبيه - ﷺ - بصلاته عليه، ثم بصلاة ملائكته، وأمر عباده بالصلاة والتسليم عليه.

والصلاة من الملائكة ومنّا له دعاء، ومن الله عز وجل رحمة

ثم قال: وقد تأول بعض العلماء، قوله - ﷺ - (وَجُعِلَتْ قُرّةَ عَيْنِى فى الصَّلاةِ)

أى فى صلاة الله تعالى عليه، وملائكته، وأمره الأمة بذلك إلى يوم القيامة.

* وفى هذا المجال يتحدث القاضى عياض أيضا عن رفع العذاب عن أمته بسببه، استنادًا إلى قول الحق سبحانه ﴿ومَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُم وَأَنْتَ فِيهِم﴾.

قال: وهذا من أبين ما يُظهر مكانته - ﷺ - ودرأته العذاب عن أهل مكة، بسبب كونه ثم كون أصحابه بعده بين أظهرهم، فلما خَلَت مكة منهم، عذّبهم الله بتسليط المؤمنين عليهم، وغلبتهم إياهم، وحكّم فيهم سيوفهم، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم.

---

(١) الشفا ١/٤٦ - ٤٨

واستشهد القاضى عياض هنا، بحديث رسول الله - ﷺ:

«أنزل الله علىَّ أمانين لأمتى» ﴿ماكَانَ الله لِيُعَذِّبَهُم وأَنْتَ فِيهِم﴾ ﴿وما كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُون﴾، فإذا مضيتُ تركت فيكم الاستغفار.

* ثم انتقل القاضى عياض ليتحدث عن كرامات النبى المصطفى - ﷺ - فيما تضمنته سورة الفتح[1] وهو قوله تعالى:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ إلى قوله تعالى ﴿يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾

قال: تضمنت هذه الآيات من فضله، والثناء عليه، وكريم منزلته عند الله تعالى، ونعمته لديه ما يقصُرُ الوصف عن الانتهاء إليه، فابتدأ جلّ جلاله بإعلامه بما قضاه له من الفضاء البين بظهوره وغلبته على عدوه، وعلو كلمته وشريعته، وأنه مغفور له، غير مؤاخذ بما كان وما يكون. وجعل الله المنّة سببا للمغفرة، وَكُلٌّ من عنده لا إله غيره مِنّة بعد مِنّة. وفضلا بعد فضل، ثم قال ﴿ويُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بخضوع من تكبّر لك، وبفتح مكة والطائف».

«فأَعْلَمه بتمام نعمته عليه، بخضوع متكبرى عدوّه له، وفتح أهم البلاد له، وأحبها له، ورفع ذكره وهدايته الصراط المستقيم، المبلّغ الجنة، والسعادة، ونصره النصر العزيز، ومنته على أمته المؤمنين، بالسكينة والطمأنينة، التى جعلها فى قلوبهم، وبشارتهم بما لهم عند ربهم بعد، وفوزهم العظيم، والعفو عنهم، والستر لذنوبهم، وهلاك عدوه فى الدنيا والآخرة، ولعنهم وبُعدهم من رحمته، وسوء منقلبهم.

* ويتعرض القاضى عياض إلى ما جاء فى بَيْعة الرضوان، تلك البيعة التى آزرت النبى، ونصرته على أعدائه. وقد ذكرها الحق بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله﴾

أى يبايعون الله ببيعتهم إياك ﴿يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِم﴾ يريد عند البيعة. قيل: قوة الله، وثوابه، ومنّته، وعَقْدُه..

---

(١) الشفا ٤٨/١ - ٥٠

ويوضح القاضى عياض ما فى هذه الآية من قيم بلاغية، فيقول: «وهذه استعارات وتجنيس فى الكلام، وتأكيد لعَقْد بيعتهم إياه، وعظم شأن المُبَايَع ﷺ.

* واستكمالا للموضوع السابق، يذكر القاضى عياض أمورًا أظهرها الله تعالى فى كتابه العزيز من كرامته عليه ومكانته عنده..

من ذلك ما قصه الله تعالى من قصة الإسْراء، فى سورة سبحان والنجم، وما انطوت عليه القصة من عظيم منزلته، وقُربه ومشاهدته ما شاهد من العجائب.

وما ذكره الله تعالى من أمور عن الهجرة، وما دفع الله به عنه من أذى المشركين، بعد تحريهم لهُلكه، وخلوصهم نَجِيًا فى أمر. والأخذ على أبصارهم عند خروجهم عليهم، وذهولهم عن طلبه فى الغار، وما ظهر فى ذلك من الآيات، ونزول السكينة عليه، وقصة سُراقة بن مالك، حسبما ذكره أهل الحديث والسير فى قصة الغار وحديث الهجرة.

قال القاضى عياض: «ومن كرامات الله على رسوله، ما جاء فى سورة الكوثر ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ﴾ أعْلَمَه الله تعالى بما أعطاه، والكوثر حوضه

وقيل: نهر فى الجنة، وقيل: الخير الكثير، وقيل: الشفاعة، وقيل: المعجزات الكثيرة، وقيل: النبوّة، وقيل: المعرفة.

- ثم أجاب عنه عدوه، ورد عليه قوله، فقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُو الأَبْتَرِ﴾ أى عدوك ومبغضك، هو الحقير الذليل، المفرد الوحيد الذى لا خير فيه.

ويختم القاضى عياض فصل «ثناء الله عليه» بالاستفاضة فى ذكر كرامات الرسول التى لم يتسع لها مكان، فيتحدث عما جاء منها فى القرآن، ويقف برهة عند قوله تعالى: ﴿ولَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ المَثَانِي والقُرْآنِ العَظِيمِ﴾

فيقول إن السبع المثانى، من الأمور التى خصّ الله بها رسوله، وجعلها كرامة من كراماته وهى السور الطوال الأول فى القرآن العظيم، وقيل: السبع المثانى أم القرآن، وقيل: هى ما فى القرآن من أمر ونهى، وبُشرى وإنذار، وضرب مثل،

وإعداد نعم، وآتيناك نبأ القرآن العظيم. وقيل سميت أم القرآن مثانى لأنها تثنى فى كل ركعة.

* وقيل السبع المثانى: أكرمناك بسبع كرامات: الهدى، والنبوة، والرحمة، والشفاعة، والولاية، والتعظيم، والسَّكينة.

الفصل الثانى

خِصَال الجَمال والكَمال

فى هذا الفصل يوضح القاضى عياض المنهج التطبيقى العملى فى تحديد شخصية الرسول - ﷺ، فيتحدث حديث المستفيض فى «تكميل الله تعالى له بالمحاسن خُلُقًا وخَلْقا، وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نَسَقًا..

وهذا الفضل من أمتع الفصول التى تحدث عنها الرجل، عن كمال الرسول فى القرآن.

لقد أراد القاضى عياض أن يُثبت الكمال النبوى فى المصطفى ﷺ، فعقد فصلا دقيقا وازن فيه بين الكمال الفطرى المطبوع، والكمال المكتسب الموهوب[1] قال فيه:

«اعلم أيها المحب لهذا النبى الكريم، الباحث عن تفاصيل جُمل قدره العظيم، أن خصال الجمال والكمال فى البشر نوعان:

(أ) ضرورى دنيوى اقتضته الجِبِلّة وضرورة الحياة الدنيا.
(ب) ومكتسب دينى، وهو ما يحمد فاعله ويقرّب إلى الله تعالى زُلْفى

ثم هى على فنين أيضا: منها ما يتخلص لأحد الوصفين، ومنها ما يتمازج ويتداخل.

* فأما الضرورى (الدنيوى) المحض، فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب (بل فطرة وطبعا) مثل ما كان فى جبلّته من كمال خلقته، وجمال صُورته، وقوة عقله، وصحة فهمه، وفصاحة لسانه، وقوة حواسه، وأعضائه، واعتدال حركاته، وشرف نسبه، وعزّة قومه، وكرم أرضه.

---

(١) الشفا ١/٥٤

* ويلحق به ما تدعوه ضرورة حياته إليه، من غذائه ونومه، وملبسه ومسكنه، ومنكحه وماله وجاهه.

* وقد تلحق هذه الخصال الآخرة بالأخروية، إذا قصد بها التقوى، ومعونة البدن، على طريقها، وكانت على حدود الضرورة، وقواعد الشريعة.

ثم ينتقل القاضى عياض إلى توضيح الخصال المكتسبة الدينية الأخروية، فيقول:

«وأما المكتسبة الأخروية، فسائر الأخلاق العلية. والآداب الشرعية، من الدين والعلم، والحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والزهد، والتواضع، والعفو، والعفة، وحُسن الأدب والمعاشرة وأخواتها، وهى التى جماعها: حُسن الخلق.

«وقد يكون من هذه الأخلاق ما هو فى الغريزة، وأصل الجبلة لبعض الناس. وبعضهم لا تكون فيه فيكتسبها، ولكنه لابد أن يكون فيه من أصولها فى أصل الجبلة شُعْبة، وتكون هذه الأخلاق دنيوية، إذا لم يُرِد بها وجه الله والدار الآخرة.. ولكنها كلّها محاسن وفضائل باتفاق أصحاب العقول السليمة، وإن اختلفوا فى موجب حُسنها وتفضيلها».

ومفهوم كلام القاضى عياض - من هذه المقدمة - أن الخصال الكريمة، وصفات الجلال، يخصّ بها الله من يشاء من عباده، فيَهَبَه خصلة أو أكثر. أما ان يتشرف بها جميعا شخص معين، فلابد أن يكون لميزة معينة، أرادها الله، ولحكمة كريمة قصدها الله، وهذا أمر يحدث وفق المشيئة الالهية، ولغاية ربانية، اقتضتها حكمة وإرادة اللطيف الخبير.

وفى ذلك يقول[1]: «إذا كانت خصال الكمال والجلال - ما ذكرناه - ورأينا الواحد منا يتشرف بواحدة منها أو اثنتين، إن اتفقت له فى كل عصر، إما مِنْ نَسَب أو جَمَال، أو قوة أو علم، أو حلم أو شجاعة أو سماحة، حتى يعظم قدره، ويُضرب باسمه الأمثال، ويتقرر له بالوصف بذلك فى القلوب أثرة وعظمة»..

---

(١) الشفا١/٥٥ - ٥٧

«فما ظنك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كل هذه الخصال، إلى ما لا يأخذه عدّ، ولا يُعبر عنه مقال، ولا يُنال بكسب ولا حيلة إلا بتخصيص الكبير المتعال، من فضيلة النبوّة والرسالة والخُلّة والمحبة والاصطفاء والإسراء، والرؤية والقُرب، والدنوّ والوحى. والشفاعة والوسيلة، والفضيلة والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود، والبراق والمعراج، والبعث إلى الأحمر والأسود، والصلاة بالأنبياء، والشهادة بين الأنبياء والأمم، وسيادة ولد آدم، ولواء الحمد والبشارة والنذارة والمكانة عند ذى العرش، والطاعة، والأمانة والهداية، ورحمة العالمين، وإعطاء الرضى والسؤال، والكوثر، وسماع القول، وإتمام النعمة والعفو عما تقدم وما تأخر. وشرح الصدر، ووضع الإصر، ورفع الذكر، وعزة النصر، ونزول السكينة، والتأييد بالملائكة، وإيتاء الكتاب والحكمة والسبع المثانى، والقرآن العظيم، وتزكية الأمة والدعاء إلى الله، وصلاة الله تعالى والملائكة، والحكم بين الناس بما أراده الله، ووضع الإصْر والأغلال عنهم، والقسم باسمه، وإجابة دعوته، وتكليم الجمادات والعُجْم، وإحياء الموتى، وإسماع الصُّمّ، ونبع الماء من بين أصابعه، وتكثير القليل. وانشقاق القمر، وردّ الشمس، وقلب الأعيان، والنصر بالرعب، والاطلاع على الغيب، وظل الغمام، وتسبيح الحصى، وإبراء الآلام، والعصمة من الناس، إلى ما لا يحويه محتفل، ولا يحيط بعلمه إلا مانحه ذلك، ومفضله به، لا إله غيره، إلى ما أعد له فى الدار الآخرة، من منازل الكرامة، ودرجات القُدُس، ومراتب السعادة، والحسنى وزيادة، التى تقف دونها العقول، ويحار دون إدراكها الوهم.

وواضح من كلام القاضى عياض، بجمعه كل هذه الخصائص والخصال الكريمة، خصال الكمال والجمال، أنه يقصد بها الرسول المصطفى - ﷺ، وأن الله سبحانه قد اختصّه بها، ووهبه إياها، ليكون أكمل الناس خُلُقا وخَلْقا، وأعظمهم مكانة وخصالا، فطره عليها، وجعلها من سماته الأساسية التى لا تُتعلم، وإنما فطره الله عليها، وبثها فيه، وجعلها من تمام سماته وصفاته، ومن عظيم آلائه وخصاله، فكان كما وصفه الحق سبحانه ﴿رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، وكان أكمل الناس خلقا، وأجمع الناس للفضائل، ومدحه الحق سبحانه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

١

كان جمع القاضى عياض للضرورى المحض من الخصال والمزايا والهبات والكرامات والمعجزات، التى منحها الله سبحانه، لرسوله المصطفى - ﷺ - فى هذا التقديم والتعريف، هو المنطلق الذى وضعه القاضى عياض، لكى يتحدث عن كل خصلة وصِفَة من صفات الكمال، التى هى من شمائله - ﷺ.

كان هذا الحصر الجم لجميع صفات الجمال والجلال والكمال، هو المنطلق لكى يقف القاضى عياض عند كل عنصر منها ليشبعه توضيحا وتحليلا، وتفسيرا وتعليلا، مستشهدا بآيات الذكر الحكيم، والأحاديث النبوية الشريفة، وما جاء على ألسنة الصحابة والتابعين، وما حمله أهل العلم والأخبار

يبدأ القاضى عياض بحثه بالحديث عن خصال الكمال والجمال غير المكتسبة، وأولها كمال الخلقة وجمال الصورة فيقول(١):

«اعلم نوّر الله قلبى وقلبك، وضاعف فى هذا النبى الكريم حُبِّى وحُبّك، أنك إذا نظرت إلى خصال الكمال التى هى غير مكتسبة (أى الضرورية الدنيوية)، وفى جبلة الخِلْقة (أى طبيعتها وفطرتها)، وجدته - ﷺ، حائزا لجميعها، محيطا بشتات محاسنها دون خلاف، بل بلغ بعضها مبلغ القَطْع».

أما الصورة وجمالها، وتناسب أعضائه فى حسنها، فقد جاءت الآثار الصحيحة، والمشهورة الكثيرة بذلك، من حديث علىّ، وأنس بن مالك وأبى هريرة، والبراء بن عازب وعائشة أم المؤمنين، وابنِ أبى هالة.. وغيرهم..

من أنه ﷺ: «كان أَزْهَرَ اللَّونِ، أَدْعَجَ أَنْجَلَ، أَشْكَلَ أَهْدَبَ الأَشْفَارِ، أَبْلَجَ أزجَّ، أَقْنَى أَفْلَجَ، مُدَوَّرَ الوَجْهِ، وَاسِعَ الجَبِينِ، كَثُّ اللَّحْيَةِ، تَمْلأُ صَدْرَهُ، سَوَاء البَطْنِ والصَّدْرِ، وَاسِعَ الصَّدْرِ، عظيم المنكبَيْن، ضَخْمَ العِظَامِ، عَبْلَ العَضُدَيْنِ والذِّرَاعَيْنِ والأَسَافِلِ، رَحْبَ الكَفَّيْنِ والقَدَمَيْنِ، سَائِلَ الأَطْرَافِ، أَنْوَرَ المُتَجَرَّدِ،

---

(١) الشفا ١/٥٨

دَقيقَ المَسْرُبَةِ، رَبْعَةَ القَدِّ، لَيْسَ بالطُّويلِ البَائِنِ، وَلَا القَصِيرِ المُتَرَدِّدِ.

.. ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد ينسب إلى الطّول إلاّ طاله - ﷺ - رَجِلَ الشَّعْر. إذَا افْتَرَّ ضَاحِكًا، افْتَرَّ عن مثل سَنَا البَرْقِ، وعَنْ مِثْلِ حَبِّ الغَمَامِ، إذا تَكَلَّم رِىءَ كالنُّورِ يَخْرُجَ من ثَنَايَاهُ، أَحْسَنِ النَّاسِ عُنُقًا، ليس بمُطَهَّمٍ ولاَ مُكَلْثِمٍ، مُتَمَاسِكَ البدن ضَرْبَ اللحم[1].

ويظل القاضى عياض يذكر ما جاء عن صحابته ومعاصريه، حتى يصف كل جزء فيه، ثم يقول فى ختام هذا الفصل: «والأحاديث فى بسط صفته مشهورة كثيرة فلا نطوّل بسردها[2].

٢

فإذ ما انتهى من وصف شكله. ﷺ - عقد فصلا فى نظافة جسمه، وطيب ريحه وعَرَقه، ونزاهته عن الأقذار وعورات الجسد[3].

يقول فيه: إن الله تعالى قد خصه فى ذلك بخصائص لم توجد فى غيره، ثم تممها بنظافة الشرع، وخصال الفِطرة العَشْر.

---

(١) (قوله أزهر اللون): قيل نيره، وقيل حسنه ومنه (زهرة الحياة الدنيا) وهو زينتها. وقوله (أدعج): الدعج شدة سواد الحدقة. و (قوله أنجل) أى ذو نَجَل بفتحتين، وهو سعة شق العين. و (قوله أشكل) من الشُكْلة، وهى حمرة فى بياض العين كالشهلة فى سوادها. و (قوله أهدب الأشفار) الأهدب الرجل الكبير أشفار العين، وهى حروف الأجفان التى ينبت عليها الشعر، وهو الهدب - و (قوله أبلج) أى مشرق. أبلج الوجه أى مشرقه. و (قوله أزج) أى مقوس الحاجب مع طول وامتداد. و (قوله أقنى) أى محدوب الأنف. و (قوله أفلج) من الفَلَج وهو تباعد ما بين الثنايا. و (قوله سواء البطن) السواء المستوى. و (قوله عبل العضدين) العبل: الضخم. و (قوله والأسافل) أى الفخذين والساقين، و (قوله رحب الكفين) أى واسعها. و (قوله سائل الأطراف) أى طويل الأصابع. و (قوله أنور المتجرد) أى ما تجرد عند الثياب من البدن و (قوو المسربة) خيط الشعر الذى بين الصدر والسرة. و (قوله رجل الشعر) أى شديد الجعود. و (قوله افتر ضاحكا) أى إذا بدا أسنانه حالة أنه ضاحك. و (قوله حب الغمام) هو البرد. و (قوله ليس بمطهم) أى ليس بمنتفخ الوجه أو فاحش السمن، و (قوله ولا بمكلثم) أى القصير الحنك الدانى الجبهة. المستدير الوجه، أراد أنه كان أسيل الوجه ولم يكن مستديره. و (قوله متماسك البدن) أى يمسك بعضه بعضا. و (قوله ضَرْب اللحم) قال الخليل: الضرب من الرجال: القليل اللحم.

[انظر مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء للعلامة الشمنى على هامش الشفا ص ٥٩، ٦٠]

(٢) الشفا ٦١/١. (٣) الشفا ٦١/١.

٣

ثم أعقبه بفصل آخر للحديث عن وفور عقله، وذكاء لبّه، وقوة حواسه وفصاحة لسانه واعتدال حركاته وحسن شمائله[١].

يقول فيه: لا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم، ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق، وظواهرهم، وسياسة العامة والخاصة، مع عَجَبِ شمائله، وبديع سيره، فضلا عما أفاضه من العلم، وقرره من الشرع، دون تعّلم سبق، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه، لم يمتر فى رجحان عقله، وثقوب فهمه لأوّل بديهة. وهذا مما لا يحتاج إلى تقريره لتحققه.

ومع قول القاضى عياض هذه الحقيقة، إلا أنه ظل يقدم الشواهد، من الآثار والأخبار، على وفور عقله، وذكاء لبه.. وإن يكن قد أضاف أخبارًا وآثارًا عنه ﷺ - لا تندرج تحت هذا الباب، وإنما تندرج تحت باب قوة حواسه..

نحو قول مجاهد: كان رسول الله - ﷺ - إذا قام فى الصلاة يرى مَنْ خَلْفه، كما يرى من بين يديه.

وقول عائشة: كان رسول الله ﷺ يرى فى الظُّلمة كما يرى فى الضوء.

ثم يقول القاضى عياض: «والأخبار كثيرة صحيحة فى رؤيته ﷺ الملائكة والشياطين، ورُفع النجاشى له حتى صلَّى عليه، وبيت المقدس حتى وصفه لقريش، والكعبة حين بنى مسجده».

وهذه كلها ليست أوصافا تتصل بقوة حواسه، وإنما هى إلهامات وفيوض إلهية، يسرها الله له، لكى يؤدى رسالته، ومؤيدات حسيّة اختصه الله بها لإثبات صدق نبوته..

لذلك فهى تخرج عن صفاته أو خصاله غير المكتسبة.

ويبدو أن القاضى عياض تنبه إلى ذلك، بعد ذكره ما سبق، فقال: «وهى من خواص الأنبياء» واستشهد على ذلك بما روى عن موسى فى حديث أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «لماّ تجلّى الله عز وجل لموسى - عليه السلام - كان يُبصر النملة على الصفا فى الليلة الظلماء مسيرة عشرة فراسخ».

---

(١) الشفا ٦٦/١.

ثم قال: «ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا ﷺ بما ذكرناه من هذا الباب، بعد الإسراء، والحُظوة بما رأى من آيات ربه الكبرى».

وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن هذه الأمور والمعجزات، ييسرها الله سبحانه لمن يشاء من أنبيائه ورسله، تأييدا للرسالة، وتصديقا بالنبوة.

٤

وعلى الرغم من أن القاضي عياض نوّه فى الفصل السابق عن فصاحة لسانه وبلاغة قوله[1] جمع فيه كل ما جاء عن الرسول ﷺ من مخاطبات ومكاتبات وأدعية، وأقوال مأثورة، وعبارات هى من جوامع الكلم.

قال: أن الرسول ﷺ كان يحمل «سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتى جوامع الكلم، وخُصّ بُبدائع الحكم، وعُلّم ألسنة العرب، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها فى منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه فى غير موطن عن شرح كلامه، وتفسير قوله، مَنْ تأمّل حديثه وسِيَره عَلِمَ ذلك وتحقّقه».

وأما كلامه، فكان يتناسب مع طبيعة القبائل والأقوام، «فليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذِى المَشعارِ الهَمَدانى، وَطِهْفَة النَّهْدى، وقَطَنِ بن حَارِثة العُلَيْمِى، والأشْعَثِ بن قَيْسٍ، ووَائِلِ بن حُجْر الكِنْدِى، وغيرهم من أقيال حضرموت، وملوك اليمن».

ثم يعرض القاضى عياض نماذج من كتاباته فى المناسبات المختلفة.، من ذلك كتابه لنَهْدٍ[2]: «فى الوَظيفَةِ الفَرِيضَة، ولكم الفَارضُ والفَرِيشُ وذُوالعِنَانِ

(١) الشفا ٧١/١. (وقوله الفريضة) أى المسنة الهرمة، يعنى هى لكم لا يؤخذ منكم فى الزكاة. (وقوله الفارض) أى الناقة التى يصيبها كسر أو مرض فتنحر. (والفريش) هى الناقة التى وضعت حديثا كالنفساء من النساء، (وقوله ذو العنان الركون) يريد الفرس الذلول لأنه يلجم ويركب (وقوله والغلو) أى المهر (والضبيس) أى العسر الصعب، (وقوله سرحكم) أى ما شيتكم. (وقوله يعضد) أى يقطع، والطلح شجر عظام من شجر العضاه. (وقوله لا يحبس دركم) أى ذوات الدر من الماشية، (وقوله ما لم تضمروا الرماق) أى النفاق.

(وقوله وتأكلون الرباق) أى ما فى أعناقكم من العهد، (وقوله الذمة) أى العهد (وقوله فعليه الربوة) أى من تقاعد عن أداء الزكاة فعليه الزيادة فى الفريضة الواجبة.

(انظر مزيل الخفاء هامش الصفحة ٧٤ من الشفا).

(٢) المرجع السابق.

الركُوبُ والغَلُوّ الضَّبيسُ، لا يُمْنَعُ سَرْحُكُم، ولا يُعْضَدُ طَلْحُكُمْ، وَلاَ يُحْبَسُ دَرُّكَمْ ما لم تُضْمِرُوا الرِّقاق، وتَأْكُلَوا الرِّبَاق، مَنْ أَقَرَّ فَلَهُ الوَفَاءُ بالعَهْدِ والذِّمّة، ومَنْ أبَىٰ فَعَلَيْهِ الرِّبْوَة».

ومنه كتابه لوائل بن حُجْر: «إِلَى الأَقْيَالِ العباهِلَة، والأَوْرَاع المَشَابِيبِ، وفيه: «فى التِّيعَةِ شَاةٌ، لَا مُقَوَّرَةُ الأَلْيَاطِ، وَلَا ضِنَاكَ، وأَنْطُوا الثَّبَجَةَ، وَفى السُّيُوبِ الخُمُسُ، وَمَنْ زَنَى مِمْ بِكْرٍ فاصْقَعُوهُ مِائَةً، واسْتَوْفِضُوهُ عَامًا، ومَنْ زَنَى مِمْ ثَيِّب فَضَرِّجُوهُ بالأَضَامِيمِ، وَلاَ تَوْصِيمَ فى الدِّينِ، وَلاَ غُمَّةَ فى فَرَائِضِ الله، وكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ..»(١).

ثم يقول القاضى عياض: «لما كان كلام هؤلاء على هذا الحد، وبلاغتهم على هذا النمط، وأكثر استعمالهم هذه الألفاظ، استعملها معهم (رسول الله) ليبين للناس ما نُزل إليهم، وليحدث الناس بما يعلمون».

بعدذلك يذكر ماجاء فى قول النبى المصطفى ﷺ، ووافق لغة العرب.

كقوله – فى حديث عطية السعدى: «فإن اليد العليا هى المُنْطِية، واليد السُّفْلى هى المنطاةُ»، قال: فكلمنا رسول الله ﷺ بلُغَتِنا.

وقوله فى حديث العامرى، حين سأله، فقال له النبى ﷺ «سَلْ عَنْك» أى سَلْ عما شئت، وهى لغة بنى عامر.

---

(١) الشفا ٧٤/١. (وقوله العباهلة) يقصد عباهلة اليمن أى ملوكهم الذين أقروا على ملكهم لا يزالون عنه (وقوله والأوراع) أى الحسان الوجوه يقال رائع وأرواع. (وقوله المشابيب) أراد الرؤس السادة الزهر الألوان. (وقوله فى التيعة) هى الأربعون من الغنم، قال أبو سعيد: أدنى ما تجب من الصدقة كالأربعين من الغنم فيها شاة وخمس الإبل فيها شاة، وأصله من التيع وهو الفىء. (وقوله لا مقورة الألياط) أى لا مسترخية الجلود لهزالها من الأقورار وهو الاسترخاء فى الجلود والهزال. والألياط: هو الشعر اللائط يعنى اللآزق به. (وقوله ولا ضناك) قال الهروى: الضناك الكثير اللحم. (وقوله وأنطو) لغة يمانية أى اعطوا، والثبجة: يعنى أعطوا الوسط فى الصدقة، ولا تعطوا من خيار المال ولا من رذالته. و(قوله وفى السيوب) أى العطية، قال ابن الأثير: وقيل السيوب: عروق من الذهب والفضة، تسيب فى المعادن أى يتلون فيها ويظهر. (وقوله مم بكر) لغة أهل اليمن يبدلون لام التعريف ميا. أى من زنا من بكر. و (قوله فاصقعوه) أى اضربوه (وقوله واستوفضوه) أى غربوه وانفوه واطردوه. (وقوله فضرجوه) أى ادموه بالضرب و (قوله بالأضاميم) يريد الرجم، و (قوله ولا توصيم) قال الهروى: لا تفتروا فى إقامة الحد، ولا تحابوا فيه. [انظر مزيل الخفاء على هامش الشفاء ص ٧٦].

ثم تحدث القاضى عياض عن فصاحته المعلومة، وجوامع كلمه وحكمه المأثورة، وهى مما لا يوازى فصاحة، ولا يبارى بلاغة، فذكر منها نماذج عدة.

كقوله ﷺ: «المسلمون تتكافؤ دماؤهم، ويسعَى بذمّتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم» وقوله ﷺ: «الناس كأسنان المُشط» و «المرءُ مع من أحب» «ولا خير فى صُحبة من لا يرى لك ما ترى له» و «الناس معادن» و «وما هَلَك امرؤ عرف قدره» و «المستشار مؤتمن، وهو بالخيار ما لم يتكلم» و «رحم الله عبدًا قال خيرًا فغنم أو سكَتَ فسلم».

وقوله ﷺ: «أَسْلِم تَسْلَم، وأَسْلِم يُؤْتك الله أجرك مرتين، وإنَّ أحبّكُمْ إلىَّ وأقربكُم منى مَجَالِسَ يوم القيامة أَحَاسِنُكُم أخلاقًا، الموطَّئُون أَكْنَافا، الذين يَأْلَفُون ويُؤْلَفُون».

وقوله: «أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا ما، عَسَى أن يكون بَغِيضَك يَوْمًا مَا».

وقوله فى بعض دعائه: «اللَّهُمَّ إنِّى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى، وتجمع بها أمرى، وتلم بها شَعَثِى، وتُصلح بها غائبى، وتَرفع بها شاهدى، وتُزكى بها عملى، وتُلهمنى بها رُشدى، وترد بها أُلْفَتِى، وتَعْصِمُنى بها من كل سوء. اللَّهُم إنى أسألك الفوز عند القضاء، ونُزُل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء».

إلى ماروته الكافة عن الكافة، من مقاماته ومحاضراته، وخطبه وأدعيته، ومخاطباته وعهوده، مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يقاس بها غيره، وحاز فيها سبقا لا يقدر قدره.

ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن فصاحته، مستشهدا بالآثار المروية عنه ﷺ فى ذلك، من مثل قوله «أنا أَفْصَحُ العَرَبِ بَيْدَ أنىِّ من قريش، ونشأتُ فى بنى سعد».

وختم القاضى عياض هذا الفصل بقوله: «فجُمع له بذلك ﷺ قُوة عارضة البادية، وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة، ورونق كلامها، إلى التأييد الإلهى الذى مَدَدُه الوحى الذى لا يحيطُ بعلمِهِ بَشَرِىٌّ».

قالت أم معبد في وصفها له: «حُلْو المَنْطِق، فَصْلٌ، لا نَزْرٌ ولا هَذْر، كأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتٌ نُظِمْن». وكان جهير الصوت، حسن النغمة، ﷺ.

٥

ومن الخصائص الضرورية المحضة، التي ليس للمرء فيها اختيار ولا اكتساب: شَرَفُ النَّسَب والمنشأ وكرم البلد.. لذلك أفرد القاضي عياض لهذا الموضوع فصلا[١] استكمالا للموضوعات السابقة. بدأه بقوله:

«وأما شرف نسبه، وكرم بلده ومنشئه، فما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه، ولا بيان مشكل ولا خفي منه،فإنه نخبة بني هاشم، وسلالة قريش وصميمها، وأشرف العرب وأعزهم نفرا، من قِبَل أبيه وأمه، ومن أهل مكة من أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده».

ثم استشهد على ذلك بكثير من أقوال الرسول ﷺ.

من مثل قوله ﷺ: «إن الله خَلَق الخلق فجعلني من خيرهم، من خير قرنهم، ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خَيْرُهُم نفسًا وخيرهم بيتا».

وقوله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كِنَانَة، واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم.

وروى ابن عباس، أن النبي ﷺ كانت رُوحُه نورًا بين يدى الله تعالى، قبل أن يخلق آدم بألفي عام، يُسبِّح ذلك النور وتسبّح الملائكة بتسبيحه، فلما خَلقَ الله آدم ألقى ذلك النور في صُلبه، فقال رسول الله ﷺ فأهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم، وجعلني في صُلب نوح، وقذف بي في صُلب إبراهيم، ثم لم يزل الله تعالى ينقلني من الأصلاب الكريمة، والأرحام الطاهرة حتى أخرجني من أبوى، لم يلتقيا على سفاح قط».

---

(١) الشفا ٨١/١.

واستشهد القاضى عياض على صحة هذا الخبر بشعر العباس المشهور فى مدح النبى ﷺ.

٦

هذه الأمور التى تحدث عنها القاضى عياض، كلها يندرج تحت الضرورى الدنيوى.

وقد أشار فى تقسيمه لخصال الجمال والكمال البشرى، أنه يلحق بالضرورة الدنيوى، ما تدعو إليه ضرورة حياته - ﷺ - من غذائه، ونومه، وملبسه، ومسكنه، ومنكحه، وماله وجاهه.

بيد أن القاضى عياض لم يفصل هذه الأمور مباشرة، وإنما قسمها إلى ثلاثة أضرب:[١]

١ - ضرب الفضل فى قِلّتِهِ.

٢ - وضربٌ الفضل فى كثرتِهِ.

٣ - وضرب تختلف الأحوال فيه.

ثم تناول كل ضرب منها ليصل إلى هدفه من أن الرسول - ﷺ - حاز من هذه الأمور أفضلها وأحسنها. وفق ما تدعو ضرورة حياته إليه.

أما عن الضرب الأول، فيقول القاضى عياض:

«فأمَّا ما التمدح والكمال بقلّته اتفاقا، عادة وشريعة، فهو الغذاء والنوم.. ولم تزل العربِ والحكماء تتمادح بقلتهما، وتذّم بكثرتهما، لأن كثرة الأكل والشرب دليل على النَّهم، والحرص والشره، وغلبة الشهوة، مسبب لمضار الدنيا والآخرة، جالب لأدواء الجسد، وخُثَارة النفس، وامتلاء الدماغ.»

«وقِلّته دليل على القناعة، ومِلْك النفس، وقمع الشهوة، مسبب للصحة وصفاء الخاطر، وحدّة الذهن.»

«كما أن كثرة النوم، دليل على الفُسُولة والضعف، وعدم الذكاء والفطنة،

---

(١) الشفا ٨٣/١

مسبب للكسل وعادة العجز، وتضييع العمر فى غير نفع، وقساوة القلب وغفلته وموته.

ثم ينتقل من هذه المقدمة، لإثبات أن النبى - ﷺ - قد أخذ من هذين الأمرين (المأكل والنوم) بالأقل، وحض عليهما. وقدم القاضى عياض الشواهد على ذلك من حديث رسول الله - ﷺ - التى تدل على قلة أكله، من ذلك قوله - ﷺ - «مَا مَلأَ ابنُ آدَمَ وِعَاءً شرًّا مِنْ بَطْنِهِ، حَسْبَ ابن آدَمَ أُكْلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وثُلُثٌ لِنَفَسِهِ» ولأن كثرة النوم من كثرة الأكل والشرب. قال سفيان الثورى: بقلّة الطعام يُمْلَكُ سهر الليل، وقال بعض السلف: لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرًا فترقدوا كثيرًا، فتخسروا كثيرًا.

وقد روى عنه - ﷺ - أنه كان أحب الطعام إليه ما كان على ضَفَفٍ - أى كثرة الأيدى - وقالت عائشة - رضى الله عنها: لم يمتلئ جوف النبى - صلى الله عليه وسلم - شبعًا قط» وأنه كان فى أهله لا يسألهم طعاما ولا يتَشَهَّاه، إن أطعموه أكل، وما أطعموه قَبِل، وما سقوه شرب.

وهنا أثار القاضى عياض قضية، مؤداها: أن هناك تعارضا، بين ما جُبل عليه رسول الله -ﷺ من القناعة والزهد، وما جاء فى حديث بَرِيرَة، وهو قوله - ﷺ: «أَلَم أَرَ البُرْمَةَ فيها لحم؟»

فنراه يحاول أن يزيل التعارض، وأن يبرر للأسباب التى من أجلها قال الرسول ذلك.. يقول: لعل سبب سؤاله، ظنه - ﷺ - اعتقادهم أنه لا يَحِلّ له، فأراد بيان سُنّته، إذ رآهم لم يقدموه إليه، مع علمه أنهم لا يستأثرون علَيه به، فصَدَق عليهم ظنه، وبيّن لهم ما جهلوه من أمره، بقوله: «هُوَ لَهَا صَدَقَةٌ ولَنَا هَدِيةٌ»

ويتناول القاضى عياض موضوعا آخر يرتبط بالقناعة والزهد، وهو «الاتكاء أثناء الأكل»

والاتكاء هو التمكن للأكل، والتَّقَعْدُد فى الجلوس له، كالمتربِّع وشبهه من

تمكن الجلسات التى يعتمد فيها الجالس على ما تحته، والجالس على هذه الهيئة يستدعى الأكل، ويستكثر منه، والنبى - ﷺ - إنما كان جلوسه للأكل جلوس المُسْتَوْفِز مُقْعِياً.

* وقد جاء فى الصحيح، قوله - ﷺ - «أَمَّا أَنَا فَلَا آكُلُ مُتَّكِئًا»

* وقوله ﷺ متواضعا: «إنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يأْكُلُ العَبْدَ، وأجلسُ كما يَجْلِسُ العَبْدُ»

ثم ينتقل القاضى عياض إلى صفة نومه[1] - ﷺ - فأخذ يستشهد بالآثار الصحيحة، على أن نومه كان قليلا. ثم يقول: «ومع ذلك فقد كان ﷺ، يقول: «إنَّ عَيْنَيَّ تنَامَان وَلَا يَنَامُ قَلْبِى»

وأما عن كيفية نومه، فلم يغفلها القاضى عياض، بل حددها وبرر أسبابها، لما فى ذلك من استكمال لموضوعه. قال:

«وكان نومه على جانبه الأيمن، استظهارًا على قِلّة النوم، لأنه على الجانب الأيسر أهنأ لهدوء القلب، وما يتعلق به من الأعضاء الباطنة حينئذ لميلها إلى الجانب الأيسر، فيستدعى ذلك الاستثقال فيه، والطُول. وإذا نام النائم على الأيمن تعلّق القلب وقَلِق، فأسرع بالافاقة، ولم يغمره الاستغراق.»

الضرب الثانى:

ثم ينتقل القاضى عياض للحديث عن الضرب الثانى - المضاد - وهو ما يتمدح بكثرته والفخر به وهذا الضرب حدده الرجل فى النِّكاح والجاه[2].

قال: «أما النِّكاح، فمتفق عليه شرعا وعادة، فإنه دليل الكمال، وصحة الذكورية، ولم يزل التفاخر بكثرته عادة معروفة، والتمدح به سيرة ماضية. وأما فى الشرع فسُنّة مأثورة.

وأشار إلى قول ابن عباس «أفضل هذه الأمة أكثرها نساء» يعنى رسول

---

(١) الشفا ٨٦/١

(٢) الشفا ٨٧/١

الله - ﷺ. وأخذ يقدم الدليل تلو الدليل، ويسرد الأحاديث والمرويات، حول قدرته ﷺ

وفى رأيى أن هذا الأمر لا يليق الحديث فيه بهذه الطريقة، وهذا الأسلوب، التى يصور الرسول الكريم - ﷺ - رجلا شهوانيا، ويضعه فى صورة المتهالك المتهافت على النساء، وهو أمر مخالف للحقيقة.

إن الصورة الشائعة، والتى تبنّاها القاضى عياض أيضا، أن الرسول - ﷺ - كان يعدد زوجاته من أجل المتعة الحسية، الغريزية، وكثرة النكاح..

بيد أن هناك نقطتين مهمتين غابتا عن كل مَنْ تناول هذا الموضوع، ومنهم القاضى عياض، حين تحدث عن كثرة نسائه، وتعدد زوجاته.

النقطة الأولى: أن الرسول ﷺ لم يعدد زوجاته إلا بعد بلوغه سن الشيخوخة، أى بعد أن جاوز من العمر الخمسين.

النقطة الثانية: أن جميع زوجاته الطاهرات ثيِّبات «أرامل» ما عدا السيدة عائشة - رضى الله عنها - فهى بكر، وهى الوحيدة من بين نسائه التى تزوجها وهى فى حالة الصِّبا والبكارة.

ومن هاتين النقطتين ندرك بطلان ذلك الادعاء، الذى لم يقدِّره بعض العلماء، حين تحدثوا عن قدراته الجنسية، وأنه كان يمر على جميع نسائه فى الليلة الواحدة، إلى آخر ما ذكرته كتب السير والأخبار، وروّج إليه أعداء الاسلام، وأعداء رسول الله.

فلو كان المراد من زواجه، الجرى وراء الشهوة، أو السير مع الهوى، أو مجرد الاستمتاع بالنساء، لتزوج فى سِنّ الشباب، لا فى سِنّ الشيخوخة، ولتزوج الأبكار الشابات لا الأرامل المسنّات، وهو القائل لجابر عبد الله، حين جاءه وعلى وجهه أثر التطيب والنعمة.

«هل تزوجت؟ قال: نعم، قال: بكْرًا أم ثيِّبا؟ قال: بل ثيبا، فقال له - ﷺ - فهلاَّ بِكْرًا تلاعبها وتلاعبك، وتضاحكها وتضاحكك؟

فالرسول الكريم، أشار عليه بتزوج البكر، وهو عليه السلام يعرف طريق الاستمتاع، وسبيل الشهوة، فهل يعقل أن يتزوج الأرامل، ويترك الأبكار، ويتزوج فى سن الشيخوخة، ويترك سن الصِّبا، إذا كان غرضه الاستمتاع والشهوة.

إن الحكم فى تعدد زوجات الرسول ﷺ كثيرة ومتشعبة، ويمكننا أن نجملها فيما يلى:

١ - حكمة تعليمية.
٢ - حكمة تشريعية.
٣ - حكمة اجتماعية.
٤ - حكمة سياسية.

١ - أما الحكمة التعليمية، فقد كانت الغاية الأساسية من تعدد زوجاته، هى تخريج بضع معلمات للنساء يعلمنهن الأحكام الشرعية، فالنساء نصف المجتمع، وقد فُرض عليهن من التكاليف ما فرض على الرجال. وقد كان الكثيرات منهن يستحيين من سؤال النبى ﷺ عن بعض الأمور الشرعية، وخاصة المتعلقة بهن، كأحكام الحيض والنفاس والجنابة والأمور الزوجية، وغيرها من الأحكام. وقد كانت المرأة تغالب حياءها حينما تريد أن تسأل الرسول الكريم عن بعض هذه المسائل.

كما كان من خلق الرسول ﷺ الحياء الكامل، فما كان يستطيع أن يجيب عن كل سؤال يُعرض عليه من جهة النساء بالصراحة الكاملة، بل كان يكنَى فى بعض الأحيان، ولربما لم تفهم المرأة عن طريق الكناية مراده ﷺ.

● تروى السيدة عائشة - رضى الله عنها - أن امرأة من الأنصار، سألت النبى ﷺ عن غُسلها من المحيض، فعلّمها ﷺ كيف تغتسل، ثم قال لها: خذى فرصة ممسَّكة، أى قطعة من القطن بها أثر الطيِّب، فتطهرَّى بها، قالت: كيف

أتطهر بها؟ قال: تطهرى بها، قالت: كيف يا رسول الله أتطهر بها؟ فقال لها: سبحان الله.. تطهّرى، قالت السيدة عائشة: فاجتذبتها من يدها فقلت: ضعيها فى مكان كذا وكذا، وتتبعى بها أثر الدم، وصرحت لها بالمكان الذى تضعها فيه.

٢ - وأما الحكمة التشريعية فى تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم فهى أنها كانت من أجل إبطال بعض العادات الجاهلية المستنكرة، مثل بدعة التبنى، التى كان يفعلها العرب قبل الإسلام. كان المرء منهم يتبنى ولد غيره، فيقول له: أنت ابنى أرثك وترثنى»، وما كان الإسلام ليقرهم على باطل، ولا ليتركهم يتخبطون فى ظلمات الجهالة، فمهّد لذلك بأن ألهم رسوله ﷺ أن يتبنى أحد الأبناء، وكان ذلك قبل البعثة النبوية، فتبنى الرسول زيد بن حارثة.

وفى سبب تبنيه قصة من أروع القصص، وحكمة من أروع الحكم، ذكرها المفسرون وأهل السير، لا يمكننا الآن عرضها، لعدم اتساع المجال. وهكذا تبنى النبى الكريم زيدبن حارثة، وأصبح الناس يدعونه بعد ذلك اليوم «زيد بن محمد».

وقد روى البخارى ومسلم، عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما - أنه قال:

«إن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن ﴿أدعُوهُم لآبائِهِم هُو أقْسَطُ عِندَ الله﴾، فقال النبى ﷺ أنت زيد ابن حارثة بن شراحيل».

وقد زوجه ﷺ بابنة عمته زينب بنت جحش، وقد عاشت معه مدة من الزمن، ولكنها لم تطل، فقد ساءت العلاقات بينهما، ولحكمة يريدها الله، طلق زيد زينب، فأمر رسوله أن يتزوجها، ليبطل بدعة التبنى، ويقيم أسس الإسلام، ولكنه ﷺ كان يخشى من ألسنة المنافقين والفجار، أن يتكلموا فيه، ويقولوا: تزوج محمد امرأة ابنه، فكان يتباطأ حتى نزل العتاب الشديد لرسول الله، فى قوله جل وعلا:

﴿وتخشىَ النَّاسَ والله أحَقّ أن تخشاه، فلمّا قَضَى زيدٌ منها وطرًا زَوَّجْنَاكَها

لكَيْلَا يكُون على المؤمنينَ حَرَجٌ فى أزواج أدْعيَائهم إذا قضوا منهن وطرًا، وكان أمر الله مفعولا﴾.

وهكذا انتهى حكم التبنى، وبطلت تلك العادات التى كانت متبعة فى الجاهلية، ونزل قول الله تعالى مؤكدًا هذا التشريع الإلهى الجديد:

﴿ ما كَانَ محمدٌ أَبَا أحدٍ من رِجَالِكُم، ولكن رَسُولَ الله وخاتَمَ النَّبِيِّين، وكانَ الله بكُلّ شىءٍ عَليمًا﴾.

وقد كان هذا الزواج بأمر من الله تعالى، ولم يكن بدافع الهوى والشهوة.

٣ - الحكمة الاجتماعية:

أما الحكمة الثالثة، فهى الحكمة الاجتماعية، وهى تظهر بوضوح فى تزوج النبى، بابنة الصدِّيق الأكبر أبى بكر، وزيره الأول، ثم بابنة وزيره الثانى الفاروق عمر، ثم باتصاله ﷺ بقريش اتصال مصاهرة ونسب، وتزوجه العديد منهن، مما ربط بين هذه البطون والقبائل برباط وثيق، وجعل القلوب تلتف حوله، وتلتقى حول دعوته فى إيمان وإكبار وإجلال.

٤ - الحكمة السياسية:

لقد تزوج النبى ﷺ ببعض النسوة من أجل تأليف القلوب، وجمع القبائل حوله.فمن المعلوم أن الإنسان إذا تزوج من قبيلة، أو عشيرة، يصبح بينه وبينهم قرابة ومصاهرة، وذلك بطبيعته يدعوهم إلى نصرته وحمايته.

فلقد تزوج الرسول ﷺ بالسيدة جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق، كانت قد أسرت مع قومها وعشيرتها، ثم بعد أن وقعت تحت الأسر، أرادت أن تفتدى نفسها، فجاءت إلى رسول الله ﷺ تستعينه بشىء من المال، فعرض عليها الرسول الكريم أن يدفع عنها الفدا وأن يتزوج بها فقبلت ذلك، فتزوجها، فقال المسلمون: أصهار رسول الله تحت أيدينا، فاعتقوا جميع الأسرى، الذين كانوا تحت أيديهم، فلما رأى بنو المصطلق هذا النبل والسمو، دخلوا فى الإسلام.

وكذلك تزوج بالسيدة «صفية بنت حُيَىّ بن أخطب»، التى أُسرت بعد قتل زوجها فى غزوة خيبر، ووقعت فى سهم بعض المسلمين، فقال أهل الرأى والمشورة: هذه سيدة بنى قريظة لا تصلح إلّا لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فعرضوا الأمر على الرسول الكريم، فدعاها وخيرها بين أمرين:

(أ) إما أن يعتقها ويتزوجها فتكون زوجة له.

(ب) وإما أن يُطلِق سراحها فتلحق بأهلها.

فاختارت أن يعتقها وتكون زوجة له، وذلك لما رأته من جلالة قدره وعظمته.

وكذلك تزوج عليه الصلاة والسلام بالسيدة أم حبيبة «رملة بنت أبى سفيان»، وأبو سفيان كان فى ذلك الحين حامل لواء الشرك، وألد الأعداء لرسول الله، وقد أسلمت ابنته فى مكة، ثم هاجرت مع زوجها إلى الحبشة فرارًا بدينها، وهناك مات زوجها، فبقيت وحيدة فريدة، لامعين لها، فلم علم الرسول – صلى الله عليه وسلم – بأمرها، أرسل إلى النجاشى، ملك الحبشة، ليزوجه إياها، فأبلغها النجاشى بذلك، فسرّت سرورًا كبيرًا، لأنها لو رجعت إلى أبيها، أو أهلها، لأجبروها على الكفر والرِّدة.

وهكذا كانت زوجات الرسول – صلى الله عليه وسلم – أرامل، ما عدا السيدة عائشة، فإذا علمنا أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – عدّد زوجاته بعد الهجرة، فى السنة التى بدأت فيها الحروب بين المسلمين والمشركين، وكثر فيها القتل والقتال، وهى من السنة الثانية للهجرة إلى السنة الثامنة، التى تم فيها النصر للمسلمين، وفى كل زواج ظهر لنا الدليل الساطع على نبله وشهامته، وسمو غرضه.. أدركنا بطلان الادعاء، أنه – صلى الله عليه وسلم، كان متهافتا، وليس همّهُ إلّا النساء، والمتع الحسية، وبذلك نرفض الروايات والأخبار، التى رويت عن قدراته الجنسية، وما جاء حولها.

وإذا كنا قد تناولنا الغايات العظمى، التى من أجلها عدّد الرسول أزواجه.. فإننا لا نرفض أو ننفى أنه كان يحيا حياة البشر العادية، وينهى عن التبتل والرهبنة، مع ما فيه من قمع للشهوة، وغض البصر، اللذين نبّه عليهما – ﷺ –

بقوله: «مَنْ كَانَ ذَا طَوْلٍ - أى مقدرة - فَلْيَتَزَوج، فإنّه أغَضُّ لَلبَصرِ، وأحْصَنُ لَلْفرج».

* وينقض القاضى عياض رأيه السابق، حين يطرح سؤالا هاما فى هذا الفصل، ثم يرد عليه ويفنده فيقول: فإن قيل: كيف يكون النكاح وكثرته من الفضائل، وهذا يحيى بن زكريا - عليه السلام - قد أثنى عليه الله تعالى أنه كان حَصُورًا. فكيف يثنى عليه الله بالعجز عما نعدّه فضيلة؟.

وهذا عيسى بن مريم - عليه السلام - تَبَتَّل من النساء، ولو كان كما قررته لنكح؟

هنا يتصدى القاضى عياض ليوضح الأمر، قائلا:

«فاعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى بأنه حصور، ليس كما قال بعضهم إنه كان هَيُوبًا أو لا ذَكَر له بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين، ونقاد العلماء، وقالوا هذه نقيصه وعيب ولا يليق بالأنبياء - عليهم السلام - وإنما معناه: أنه معصوم من الذنوب أى لايأتيها، كأنه حُصِر عنها.

وقيل: مانعا نفسه من الشهوات، وقيل: ليست له شهوة فى النساء..

فقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل فى كونها موجودة ثم قمعها، إما بمجاهدة كعيسى - عليه السلام، أو بكفاية من الله تعالى، كيحيى - عليه السلام، فضيلة زائدة. لكونها مُشْغِلة فى كثير من الأوقات، حاطَّة إلى الدنيا، ثم هى فى حقّ من أقدر عليها وملكها، وقام بالواجب فيها، ولم يشغله عن ربه درجة علياء، وهى درجة نبينا ﷺ، الذى لم تشغله كثرتهن عن عبادة ربّه، بل زاده ذلك عبادة لتحصينهن، وقيامه بحقوقهن، واكتسابه لهن. وهدايته إياهن، بل صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره. فقال عليه السلام: «حُبِّبَ إلىّ من دُنْيَاكم» فدلَّ أن حبه لما ذُكر من النساء والطيب اللذين هما من أمر دنيا غيره، واستعماله لذلك ليس لدنياه بل لآخرته».

ويستطرد القاضى عياض قائلا:

«وكان حبه الحقيقى المختص بذاته فى مشاهدة جبروت مولاه ومناجاته، ولذلك ميّز بين الحُبين، وفَصَل بين الحالين، فقال: «وجُعلت قُرّة عينى فى الصلاة». فقد ساوى يحيى وعيسى فى كفاية فتنتهن، وزاد فضيلة بالقيام بهن».

* أما الجاه.. محمود عند العقلاء عادة، وبقدر جاهه عِظَمُهُ فى القلوب.

لكن آفاته كثيرة، فهو مضرّ لبعض الناس لعُقْبَى الآخرة، فلذلك ذمّه من ذمّه، ومدح ضِدّه وورد فى الشرع ذم العلُوّ فى الأرض.

وكان ﷺ - قد رزق من الحشمة، والمكانة فى القلوب، والعظمة، قبل النبوّة وبعدها، وهم يكذّبونه ويؤذون أصحابه، ويقصدون أذاه فى نفسه خُفية، حتى إذا واجههم أعظموا أمره وقضوا حاجته.

● ويضرب القاضى عياض لذلك من الأمثلة على عظمة جاهه، والرهبة فى لقائه، فيقول:

«روى عن قَيْلَة أنها لمّا رأته أُرعدت من الفَرَق، فقال - ﷺ. «يا مسكينة عليك السكينة».

وفى حديث ابن مسعود، أن رجلا قام بين يديه فأُرْعد، فقال له: «هوّن عليكَ فإنِّى لستُ بَمِلك»

أما عظيم قدره بالنبوة، وشريف منزلته بالرسالة، وإنافة رتبته بالاصطفاء والكرامة فى الدنيا فأمرٌ هو مبلغ النهاية، ثم هو فى الآخرة سيدُ ولد آدم.

الضرب الثالث:

ثم ينتقل القاضى عياض ليتحدث عن الضرب الثالث من الضروب التى حددها وهو: «ما تختلف الحالات فى التمدح به، والتفاخر بسببه، فذكر كثرة المال[1]».

(١) الشفا ٩٢/١.

«فصاحب المال على الجملة معظم عند العامة، لاعتقادها تَوَصُّلَهُ به إلى حاجات، وتمكن أعراضه بسببه، وإلا فليس فضيلة فى نفسه».

«فمتى كان المال بهذه الصورة، وصاحبُهُ مشريا به المعالى، والثناء الحسن، والمنزلة من القلوب، كان فضيلة فى صاحبه عند أهل الدنيا، وإذا صرفه فى وجوه البِرِّ، وأنفقه فى سُبُل الخير، وقصد بذلك الله والدار الآخرة، كان فضيلة عند الكُلّ بكل حال».

* «ومتى كان صاحبه ممسكا له غير موجِّهه وجوهه، حريصا على جمعه، *عاد كُثْرُهُ كالعدم، وكان منقصة فى صاحبه، ولم يقف به على جُدَد السلامة، بل أوقعه فى هُوَّةِ رَذِيلةِ البُخْل، ومذمة النذالة».

فإذا التمدح بالمال وفضيلته عند مفضله ليست لنفسه، وإنما هو للتوصل به إلى غيره، وتصريفه فى متصرفاته، فجامعه إذا لم يضعه مواضعه، ولا وجّهه وجوهه، غير ملىء بالحقيقة، ولا غَنِيّ بالمعنى.. بل هو فقير أبدًا، غير واصل إلى غرض من أغراضه.

عقب هذه المقدمة، التى أسهب فيها القاضى عياض، انتقل إلى سيرة المصطفى - ﷺ - وخُلُقه فى المال، فقال:

إنه - ﷺ - «قد أُوتى خزائن الأرض، ومفاتيح البلاد، وأُحلّت له الغنائم، ولم تُحَلّ لنبى قبله، وفُتح عليه فى حياته - ﷺ - بلاد الحجاز واليمن، وجميع جزيرة العرب، وما دانى ذلك من الشأم والعراق، وجُلبت إليه من أخماسها وجزيتها وصدقاتها ما لا يُجْبى للملوك إلا بعضه، وهادنه جماعة من ملوك الأقاليم».

«فما استأثر بشىء منه، ولا أمسك منه درهما، بل صرفه مصارفه، وأغنى به غيره، وقوّى به المسلمين، وقال: ما يَسُرّنى أن لى أُحُدًا ذهبا يبيت عندى منه دينارٌ إلّا دينارٌ أرصده لِدَيْن».

«وآتته دنانيرُ مرة فقسّمها وبقيت منها سِتَّةٌ فدفعها لبعض نسائه، فلم يأخذه نوم حتى قام وقسمها، وقال: الآن استرحت».

«ومات - ﷺ - ودرعه مرهونة فى نفقة عياله، واقتصر من نفقته وملبسه ومسكنه على ما تدعوه ضرورته إليه، وزهده فيما سواه».

وبعد أن تحدث عن زهد الرسول فى المال، وانفاقه فى سبيل الله، تحدث القاضى عياض عن زهده فى ملبسه[1]، قال:

«كان - ﷺ - يلبس ما وجده، فيلبس الشّملة، والكساء الخشن، والبُرد الغليظ، ويقسّم على من حضره أقبية الديباج المخوّصة بالذهب، ويرفع لمن لم يحضر».

«إذ المباهاة فى الملابس والتزين بها ليست من خصال الشرف والجلالة، وهى من سمات النساء، والمحمود منها نقاوة الثوب، والتوسط فى جنسه، وكونه لُبْسَ مثله، غير مُسْقِط لمروءة جنسه، مما لا يؤدى إلى الشهرة فى الطرفين، وقد ذم الشرع ذلك، وغاية الفخر منه - فى العادة عند الناس - إنما يعود إلى الفخر بكثرة الموجود، ووفور الحال».

٧

الخصال المكتسبة:

بعد أن أتى القاضى عياض على الخصال الضرورية الدنيوية، وأوسعها توضيحا وتحليلا.. انتقل إلى دراسة الخصال المكتسبة الدينية، من الأخلاق الحميدة، والآداب الشريفة، التى حواها رسول الله -ﷺ.

وهى خصال «اتفق جميع العقلاء على تفضيلها، وتفضيل صاحبها، وتعظيم المتصف بالخلق الواحد منها، فضلا عما فوقه، وأثنى الشرع على جميعها، وأمر بها، ووعد السعادة الدائمة للمتخلّق بها، ووصف بعضها بأنه من أجزاء النبوة، وهى المسماة بحُسن الخلق، وهو الاعتدال فى قوى النفس وأوصافها، والتوسط فيها دون الميل إلى منحرف أطرافها.

هذه الخصال الكريمة، كما يقول القاضى عياض - قد كانت خُلُق نبينا

(١) الشفا ٩٥/١.

- ﷺ، على الانتهاء فى كمالها، والاعتدال إلى غايتها، حتى أثنى الله عليه بذلك فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وقال الرسول عن نفسه: «إنما بُعِثت لأتمم مكارم الأخلاق».

ويستشهد القاضى عياض على أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقدم مجموعة من الأحاديث المروية عن صحابته، وأقوال المحققين فى ذلك.

من مثل قول عائشة - رضى الله عنها - كان خُلقُه القرآن يرضَى برضاه، ويسخط بسخطه».

وقول أنس: كان رسول الله - ﷺ - أحسنُ الناسِ خُلُقا».

«وقد ذكر المحققون - أن أخلاق الرسول - ﷺ - كان مجبولا عليها فى أصل خلقته، وأول فطرته، لم تحصل له باكتساب ولا رياضة إلا بجودٍ إلهى، وخصوصية ربانية، وهكذا كسائر الأنبياء.

ويستشهد لذلك بما جاء عن أهل السير والأخبار.. قالوا:

«أن أُمّه آمنة بنت وهب، أخبرت أنه ﷺ، وُلد حين ولد باسطًا يديه إلى الأرض، رافعا رأسه إلى السماء.

وأنه - ﷺ - قال: لمّا نشأت بغضت إلى الأوثان، وبغّضَ إلى الشِّعر، ولم أهُمّ بشىء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، فعصمنى الله منها ثم لم أعد».

وهنا يقرر القاضى عياض أمرًا يتصل بالأنبياء جميعا، فهم فطروا على أمور هى قمة الخصال الحميدة، «تترادف نفحات الله تعالى عليهم، وتشرق أنوار المعارف فى قلوبهم، حتى يصلوا إلى الغاية ويبلغوا باصطفاء الله لهم بالنبوة، فى تحصيل هذه الخصال الشريفة النهاية دون ممارسة ولا رياضة.

«وقد نجد غير الأنبياء من يطبع على بعض هذه الأخلاق دون جميعها، ويولد عليها، فيسهل عليه اكتساب تمامها عنايةً من الله.. فبالاكتساب يكمل ناقصها، وبالرياضة والمجاهدة يستجلب معدومها، ويعتدل منحرفها، وباختلاف هذين الحالين يتفاوت الناس.

قال ابن مسعود: إن الخلق الحسن جبلّة وغريزة فى العبد.

وقد روى عن النبى - ﷺ - أنه قال: «كل الخلال يُطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب».

* والقاضى عياض حين يفرد فصلا للحديث عن الخصال المكتسبة، فإنه يرمى إلى الحديث عن أمور حددها هو مسبقا فى تقسيمه للخصال الضرورية والخصال المكتسبة، وهى:

«سائر الأخلاق العليّة، والآداب الشرعية، من الدين والعلم، والحلم والصبر، والشكر والعدل، والزهد والتواضع، والعفو والعفة، والجود والشجاعة والحياء والمروءة، والصمت والتؤدة، والوقار والرحمة، وحسن الأدب والمعاشرة، وأخواتها، وهى التى جماعها حسن الخلق[1]».

لذلك نراه يتأهب للحديث عن هذه الخصال، ليحقق وصفه - ﷺ - بها. بيد أنه لم يشأ أن يبدأ حديثه عن خصال المصطفى المكتسبة، دون أن يمهد لها بتحديد الوسيلة التى بها حصل هذه الخصال. ولقد كانت هذه الوسيلة - فى نظر القاضى عياض - هى العقل[2].

«فالعقل هو الذى منه ينبعث العلم والمعرفة، ويتفرع منه ثقوب الرأى، وجودة الفطنة والإصابة، وصدق الظن، والنظر للعواقب، ومصالح النفس، ومجاهدة الشهوة، وحسن السياسة والتدبير، واقتناء الفضائل، وتجنب الرذائل».

وقد كان بلوغه - ﷺ - «من العقل ومن العلم، الغاية القصوى التى لم يبلغها بشر سواه، وإذ جلالة محلّه من ذلك، ومما تفرع منه، متحققة عند من تتبع مجارى أحواله، واطراد سِيره، وطالع جوامع كلامه، وحُسن شمائله، وبدائع سيره، وحكَم حديثه، وعلمه بما فى التوراة والإنجيل والكتب المنزلة، وحِكم الحكماء وسير الأمم الخالية، وأيامها، وضرب الأمثال وسياسات الأنام، وتقرير الشرائع، وتأصيل الآداب النفيسة، والشيم الحميدة، إلى فنون العلوم، التى اتخذ أهلها

---

(١) الشفا ١/٥٤.
(٢) الشفا ١/١٠٢.

كلامه - ﷺ - فيها قدوة، وإشاراته حُجة كالعبارة والطب والحساب والفرائض، وغير ذلك.. دون تعليم ولا مدارسة، ولا مطالعة كتب من تقدم، ولا الجلوس إلى علمائهم، بل نبيّ أميّ لم يعرف بشيء من ذلك، حتى شرح الله صدره، وأبان أمره، وعلّمه وأقرأه».

وبحسب عقله - كانت معارفه - ﷺ، إلى سائر ما عَلّمه الله تعالى، وأطلعه عليه من علم ما يكون، وما كان، وعجائب قدرته وعظيم ملكوته، قال الله تعالى:

﴿وعَلَّمَكَ ما لَمْ تكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فضلُ الله عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾

حارت العقول فى تقدير فضله عليه، وخرست الألسن دون وصف يحيط بذلك أو ينتهى إليه.

٨

بدأ القاضى عياض فصوله التى خصصها للحديث عن خصاله المكتسبة من الأخلاق الحميدة، بفصل أفرده للكلام عن حلمه واحتماله، وعفوه مع المقدرة، وصبره[١]

قال: «وأما الحلم والاحتمال والعفو مع المقدرة، والصبر على ما يكره، وبين هذه الألقاب فَرْقٌ. فإن الحلم.. حالة توقر وثبات عند الأسباب المحركات، والاحتمال.. حَبْس النفس عند الآلام والمؤذيات، ومثلها الصبر، ومعانيها متقاربة. وأما العفو.. فهو ترك المؤاخذة. وهذا كله مما أدب الله تعالى به نبيه ﷺ. وقد جاء ذلك فى قول الحق سبحانه:

﴿خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعرض عن الجاهِلِين﴾

روى أن النبى ﷺ - لما نزلت عليه هذه الآية سأل جبريل عليه السلام - عن تأويلها، فقال له: حتى أسأل العالِم.. ثم ذهب فأتاه، فقال: يامحمد.. إن الله يأمرك أن تَصِلْ مَنْ قَطعك، وتُعطِى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وقال له (واصْبِرْ على ما أصَابَك) الآية.

(١) الشفا ١٠٣/١

* ويتابع القاضى عياض قوله:

«ولا خفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله، وأن كل حليم قد عُرِفت منه زلة، وحفظت عنه هفوة، وهو ﷺ لا يزيد من كثرة الأذى إلّا صبرًا، وعلى إسراف الجاهل إلا حلمًا.

ومضى القاضى عياض يستشهد لموضوعه بالعديد من الأحاديث النبوية، التى وردت فى مناسبات كثيرة.. من ذلك حديث عائشة - رضى الله عنها، قالت:

«ما خيّر رسول الله - ﷺ - فى أمرين قط إلّا أختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله - ﷺ - لنفسه إلّا أن تنتهك حُرمة الله تعالى، فينتقم لله بها.»

وروى أن رسول الله - ﷺ - لما كُسرت رباعيته، وشُجَّ وجهه يوم أحد، شق ذلك على أصحابه شقا شديدًا، وقالوا لو دعوتَ عليهم، فقال: «إنِّى لم أبعثْ لعّانًا، ولكنى بُعثتُ داعِيًا ورحمة، اللَّهم اهْدِ قومى فإنهم لا يعلمون»

قال القاضى عياض: «أنظر فى هذا القول من جِماع الفضل، ودرجات الإحسان، وحُسن الخُلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم، إذ لم يقتصر - ﷺ - على السكوت عنهم حتى عفا عنهم. ثم اشفق عليهم ورحمهم، ودَعَا وشفع لهم، فقال اغفْر أو اهدْ ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله (لقومى)، ثم اعتذر عنهم بجهلهم، فقال: (فإنهم لا يعلمون)[1]

٩

وفى الحديث عن عفوه - ﷺ، يذكر القاضى عياض بعض ما جاء فى سيرته من أمور يتصل بعفوه عند مقدرته، من ذلك:

* عفوه عن اليهودية التى سمّته فى الشاه بعد اعترافها..

* وأنه لم يؤاخذ لبيد بن الأعْصَم، إذ سحره، وقد أُعلم به وأوحى إليه بشرح أمره..

* وكذلك لم يؤاخذ عبدالله بن أُبىَّ وأشباهه من المنافقين بعظيم ما نقل عنهم

(١) الشفا ١/١٠٦

فى جهته قولا وفعلا، بل قال لمن أشار بقتل بعضهم: «لا»، لِئَلّا يُتحدّث أن محمدًا يقتل أصحابه[١]

ويختم القاضى فصله هذا بقوله:

«والحديث عن حلمه - ﷺ - وصبره وعفوه عند المقدرة، أكثر من أن نأتى عليه، وحسبك ما ذكرناه مما فى الصحيح، والمصنفات الثابتة إلى ما بُلّغ متواترا مبلغ اليقين، من صبره على مقاساةِ قريش، وأذى الجاهلية، ومصابرة الشدائد الصعبة معهم، إلى أن أظفره الله عليهم، وحكّمه فيهم، وهم لا يشكون فى استئصال شأفتهم، وإبادة خضرائهم، فما زاد على أن عفا وصفح، وقال: ما تقُولُونَ إنِّى فَاعلٌ بِكُم؟ قالوا خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم، فقال: أقول كما قال أخى يوسف: «لا تثريب عليكم (الآية)، اذهبوا فأنتم الطلقاء»[٢]

١٠

وفى الفصل التالى، الذى خصصه للحديث عن جوده وكرمه وسخائه وسماحته - ﷺ - لم يشأ أن يدخل فى موضوعه مباشرة إلّا بعد أن يُعرّف معانى هذه الكلمات، وأنها جميعا متقاربة، إلا أن بعضهم قد فرق بينها بفروق، فجعلوا:

الكرم: الإنفاق بطيب النفس فيما يعظم خَطَرُه ونفعُه وسمّوه أيضا جرأة، وهو ضدّ النذالة.

والسماحة: التجافى عما يستحقه المرء عند غيره بطيب نفس، وهو ضد الشكاسة.

والسخاء: سهولة الإنفاق، وتجنب اكتساب ما لا يُحمد، وهو الجود، وهو ضد التقتير.

قال[٣]: «فكان - ﷺ - لا يُوازى فى هذه الأخلاق الكريمة، ولا يبارى بهذا، وصفه كلُّ من عرفه:

قال جابر بن عبد الله: «ما سئل رسول الله - ﷺ - عن شيء فقال لا.

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما -: «كان النبى - ﷺ - أجود الناس

---

(١) الشفا ١٠٨/١
(٢) الشفا ١١٠/١
(٣) الشفا ١١١/١

بالخير، وأجود ما كان فى شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل - عليه السلام - أجود بالخير من الريح المرسلة.

«وأنه - ﷺ - ردَّ على هوازن سباياها، وكانت ستة آلاف، وأعطى العباس من الذهب ما لم يُطق حمله، وحُمِل إليه تسعون ألف درهم، فوضعت على حصير، ثم قام إليها فقسمها، فما ردَّ سائلا حتى فرغ منها»

قال أنس: «كان رسول الله - ﷺ - لا يدَّخر شيئا لغدٍ».

والخبر بجوده - ﷺ - وكرمه كثير.

١١

وتدخل فى خصاله المكتسبة أيضا: **الشجاعة والنجدة.**

أفرد لهما القاضى عياض فصلا[١]، عرَّف فى صدره بمعناهما، ليكون ذلك منطلقا للحديث عن شجاعته ونجدته - ﷺ.

قال: «فالشجاعة فضيلة قوة الغضب، وانقيادها للعقل..

والنجدة ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت، حيث يُحمد فعلها دون خوف».

«وكان - ﷺ - منهما - بالمكان الذى لا يُجهل، قد حضر المواقف الصعبة، وفرَّ الكماةُ والأبطال عنه غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يُدبر ولا يتزحزح، وما شجاع إلاّ وقد أحصيت له فرَّةٌ، وحفظت عنه جوله سواه.

ويقدم القاضى عياض الدليل تلو الدليل على شجاعته - ﷺ - فيقول:

* سُمع البراء وقد سأله رجل: أفَرَرْتُم يوم حنين عن رسول الله - ﷺ ؟

قال: لكن رسول الله - ﷺ - لم يفرّ، ثم قال: لقد رأيته على بغلته البيضاء، وأبو سفيان آخذ بلجامها، والنبى - ﷺ - يقول: «أنا النبىُّ لا كَذِبْ ؟ أنا ابنُ عبدِالمطَّلب» قيل: فما رؤى يومئذ أَحَدٌ كان أشد منه.

وقال على - رضى الله عنه: «إنَّا كُنَّا إذا حَمِىَ البأس، واحمرّت الحَدق، اتقينا برسول الله، فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتنى يوم بدر، ونحن نلوذ بالنبى - ﷺ - وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا»

---

(١) الشفا ١/١١٤

وقيل: كان الشجاع هو الذى يقرُبُ منه - ﷺ - إذا دنا العدو لقربه منه.

وقال عمران بن حصين: ما لَقِي رسول الله - ﷺ - كتيبة إلّا كان أول من يضرب.

ولما رآه أُبىّ بن خلف يوم أُحد، وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا، وقد كان يقول للنبى - ﷺ - حين افتدى يوم بدر، عندى فَرَسٌ أعْلِفها كل يوم فَرْقًا من ذُرة، أقتلك عليها، فقال له النبى - ﷺ - أنا أقتلك إن شاء الله، فلما رآه يوم أحد شدَّ أُبى على فرسه، على رسول الله - ﷺ - فاعترضه رجال من المسلمين، فقال النبى.. هكذا - أى خلو طريقه، وتناول الحَرْبة من الحارث بن الصمة، فانتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشّعْراء عن ظهر البعير، إذا انتفض..

ثم استقبله النبى - ﷺ - فطعنه فى عنقه طعنة تَدَأْدَأ منها عن فرسه مرارًا. وقيل: بل كَسَر ضلعا من أضلاعه، فرجع إلى قريش يقول: قتلنى محمد، وهم يقولون، لا بأس عليك. فقال: لو كان ما بى بجميع الناس لقتلهم، أليس قد قال: أنا أقتلك. والله لو بَصَق عَلَىّ لقتلنى، فمات «بسِرْف» فى رجوعهم إلى مكة.

١٢

وفى فصل الحياء والإغضاء[١] مهد القاضى عياض له بالتعريف بهما، تمهيدا للحديث عن حياء رسول الله - ﷺ.

قال: «فالحياء: رقة تعترى وجه الانسان عند فعل ما يُتَوَقّع كراهيته، أو ما يكون تركُهُ خيرًا من فعله.

والإغضاء: معناه التغافل عما يكره الانسان بطبيعته.

«وكان النبى ﷺ - أشد الناس حَيَاءً، وأكثرهم عن العورات إغضاء، قال الله تعالى: ﴿إن ذَلِكُمْ كانْ يُؤْذِى النَّبِىّ فيَسْتَحى منكم﴾ الآية.

روى أبو سعيد الخدرى، رضى الله عنه، كان رسول الله - ﷺ - أشد حياءً من العذراء فى خدرها، وكان إذا كره شيئا عرفناه على وجهه، وكان ﷺ، لطيف

---

(١) الشفا ١١٨/١

البشرة، رقيق الظاهر، لا يُشافه أحدًا بما يكرهُهُ حياءً وكرم نفس.

١٣

وفى فصل حُسن عشرته وأدبه وبسط خَلقه[١]

يذكر القاضى عياض ما جاء عن رسول الله ﷺ، من حسن المعاملة، وما انتشرت به الأخبار الصحيحة.

«قال علىٌّ – رضى الله عنه – فى وصفه – عليه الصلاة والسلام، كان أوسع الناس صدرًا، وأصدق الناس لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة.

وقال قيس بن سعد: زارنا رسول الله – ﷺ – وذكر قصة آخرها: «فلما أراد الإنصراف قرّب له سعدٌ حمارًا وطّأ عليه بقطيفة، فركب رسول الله – ﷺ –، ثم قال سعد: يا قيس اصحب رسول الله – ﷺ، فقال لى رسول الله: اركبْ فأبيتُ، فقال: إما أن تركب، وإمَّا أن تنصرف، فانصرفت»

وفى رواية أخرى: اركب أمامى فصاحب الدابة أَوْلى بمقدمها.

عقّب القاضى عياض على مرويات هذا الفصل، فقال:

«وكان رسول الله – ﷺ – يؤلفهم، ولا يُنفّرهم، ويكرم كريم كل قوم، ويُوليِّه عليهم، ويحذَر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشرَه، ولا خلُقه، يتعهد أصحابه، ويُعطى كل جلسائه نصيبه، لا يحسَبُ جليسُهُ أن أحدًا أكرم عليه منه، مَنْ جالسه أو قاربه لحاجة صابَرَهُ حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يردّه إلّا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناسَ بَسْطُه وخُلُقه، فصار لهم أبًا، وصاروا عنده فى الحق سواء»

بهذا وصفه ابن أبى هالة: قال:

«وكان دائم البشر، سهل الخلق، ليّن الجانب، ليسَ بفظٍ ولا غليظ، ولا سخابٌ ولا فحاش، ولا عيّاب ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهى ولا يُؤيِسُ منه، وقال الله تعالى: ﴿فبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ الله لِنْتَ لَهُم، ولَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانفَضّوا من حَوْلِكَ﴾

(١) الشفا ١/١١٩

«وكان يجيب من دعاه، ويقبل الهدية ولو كانت كُرَاعا، ويُكافِئ عليها، وكان يبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة، يكرم من يدخل عليه، وربما بسط له ثوبه، ويؤثره بالوسادة التى تحته، ويعزم عليه فى الجلوس عليها، وكان أكثر الناس تبسما، وأطيبهم نفسا ما لم يُنْزَل عليه قرآن، أو يَعِظ أو يخطب».

١٤

ويعقب القاضى عياض هذا الفصل: بفصل جديد، خصصه للحديث عن شفقته ورأفته ورحمته[1] لجميع الخلق. يصدّره ببعض ما جاء فى الذكر الحكيم من آيات تتحدث عن هذه الخصال الحميدة فى المصطفى - ﷺ -..

من مثل قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

وقوله عز وجل: ﴿وما أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ رَحْمَةً لِلعالَمِين﴾

وبعد أن يذكر الكثير من الأخبار والروايات والآثار، عن علاقات الرسول - ﷺ، بمن حوله من الناس، ومعاملته لهم بالحسنى والشفقة والرحمة، ينتقل للحديث عن شفقته على أمته، فيقول:

«لولا أن أَشُقّ على أمتى لأمرتهم بالسواك مع كلِ وضوء، وخبرُ صلاة الليل ونهيهم عن الوصال، وكراهته دخول الكعبة لِئَلّا تَتَعَنَّت أمته، ورغبته لربّه أن يجعل سبّه ولعنه لهم رحمة بهم، وأنه كان يسمع بُكاء الصبى فيتجوز فى صلاته».

«ومن شفقته - ﷺ - أن دعا رَبّه وعاهده، فقال: أَيُّما رَجُلٍ سَبَبْتُهُ أو لعنتُه، فاجعل ذلك له زكاة ورحمة وصلاة وطهورًا، وقُربة تقربه بها إليكَ يوم القيامة».

«ولما كذّبه قومه أتاه جبريل - عليه السلام - فقال له: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداه ملك الجبال، وسلّم عليه، وقال: مُرْنى بما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. قال النبى - ﷺ - بل أرجو أن يُخْرِجَ الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا شريك به شيئا».

---

(١) الشفا ١٢٢/١

وروى أن جبريل قال للنبي - ﷺ: إن الله تعالى أمر السماء والأرض والجبال أن تطيعك، فقال: أؤخر عن أمتى لعل الله أن يتوب عليهم.

١٥

ثم انتقل القاضى عياض إلى خصيصة أصيلة فى رسول الله - ﷺ - وهى خُلقه فى الوفاء، وحسن العهد وصلة الرحم، وأفرد لهذا الموضوع فصلا[1] يتحدث فيه عما جاء فى سيرته العطرة من أمور وأحداث تبرز هذه الخصلة الحميدة فيه.

من ذلك، ما ذكره عن أبى الحمساء، قال: «بايعتُ النبى - ﷺ - ببيعٍ قبل أن يُبعث، وبقيت له بقية، فوعدتُه أن آتيه بها فى مكانه، فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاث، فجئت فإذا هو فى مكانه، فقال: يافتى لقد شققت علىّ، أنا ههنا منذ ثلاثٍ انتظرك.

«وكان الرسول - ﷺ - وفيا لزوجته خديجة، يحبّ من أحبها، ويَصِلُ من وصلها.. روى أنس، كان النبى ﷺ - إذَا أُتِىَ بهدية قال: اذهبوا بها إلى بيت فُلَانة، فإنها كانت صديقة لخديجة، إنها كانت تحب خديجة».

«ودخلت عليه امرأة، فهَشَّ لها، وأحسن السؤال عنها، فلمّا خرجت قال: إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حُسْنَ العهد من الإيمان».

* أما عن صلته للرحم. فيستحضر القاضى عياض لذلك شواهد جمة مما رواه الناس عنه فقد وصفه بعضهم فقال: كان يصل ذوى رحمه من غير أن يُؤْثرهم على مَنْ هو أفضل منهم. قال ﷺ: إن آل بنى فلان ليسوا لى بأولياء، غير أن لهم رحما سأَبُلّها ببلالها».

«ولما جيء بأخته من الرضاعة «الشيماء» فى سَبَايَا هَوَازِن، وتعرَّفت له، بَسَط لها رداءه، وقال: إن أحببت أقمت عندى مكرمة، محببّة، أو مَتَّعتك ورجعت إلى قومك، فاختارت قومها فمتّعها».

وقال أبو الطِفيل: رأيت النبى - ﷺ - وأنا غلام - إذ أقبلت امرأة حتى

(١) الشفا ١٢٦/١.

دنت منه، فبسط لها رداءه، فجلست عليه، فقلت من هذه؟ قالوا: أمه التى أرضعته».

«وكان يبعث إلى ثويبة مولاة أبى لهب، مرضعته - بصلة وكسوة، فلما ماتت سأل من بَقِىَ من قرابتها؟ فقيل: لا أحد».

وقد جاء فى حديث خديجة - رضى الله عنها - جماع خصاله هذه، حين قالت له: «أَبْشِر.. فوالله لا يحزنُك الله أبدًا، إنك لَتصلُ الرّحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتَقْرِى الضيف، وتعين على نوائب الحق».

١٦

وخصص القاضى عياض الفصل التالى للحديث عن تواضعه - ﷺ[1] قال فيه: «وأما تواضعه - ﷺ - على علوِ منصبه، ورفعة رتبته، فكان أشد الناس تواضعا. وأعدمهم كِبرًا، وحسبك أنّه خُيِّر بين أن يكون نبيا مَلِكًا، أو نبيا عَبْدًا، فاختار أن يكون نبيًّا عبدًا، فقال إسرافيل عند ذلك، فإن الله قد أعطاك بما تواضعت له أنك سَيِّد ولد آدم يوم القيامة، وأول من تنشق الأرض عنه، وأوّل شافع».

ويذكر القاضى عياض أخبارًا كثيرة تتحدث عن تواضعه - ﷺ. «من ذلك ما ورد عن أمامة رضى الله عنه، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ - مُتَوكِّئا على عصا، فقمنا له، فقال: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظِّمُ بعضهم بعضا».

«وقال: إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد».

وفى حديث عمر - عنه - ﷺ: «لا تُطْرُونى كما أُطْرِت النصارى ابن مريم، إنما أنا عَبَد، فقولوا: «عبدُ الله ورسُولهُ».

«وكان - ﷺ - يركب الحمار، ويُردف خلفه، ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم حيث انتهى به المجلس جلس».

«جاءته امرأة - فى عقلها شىء ه فقالت: إن لى إليك حاجة، قال: اجلسى

---

(١) الشفا ١/١٢٩.

يا أم فلان فى أى طُرق المدينة شئت، أجلسى إليك حتى أقضى حاجتك، قال أنس: فجلست فجلس النبى - ﷺ - إليها، حتى فرغت من حاجتها.

ويذكر القاضى عياض خبرا هو القمة فى تواضعه - ﷺ، يوم فُتحت عليه مكة، ودخلها بجيوش المسلمين، طأطأ على رحله رأسه، حتى كان يمس قادمته تواضعنا لله تعالى.

كما يذكر أخبارًا كثيرة توضح تواضعه فى بيته وبين نسائه، قال عائشة: «كان رسول الله - ﷺ - فى بيته فى مهنة أهله، يَفْلِي ثوبه، ويحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم نفسه، ويقُمّ البيت، ويعقل البعير، ويعلف ناضحه، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها ويحمل بضاعته من السوق.

١٧

بعد ذلك عقد القاضى عياض فصلا تحدث فيه عن عدله وأمانته، وعفّته، وصدق لهجته[١].

قال فيه: «كان - ﷺ - آمن الناس، وأعدل الناس، وأعف الناس، وأصدقهم لهجة منذ كان، اعترف بذلك محادوه وعِدَاه، وكان يسمى قبل نبوته «الأمين»، بما جمع الله فيه من الأخلاق الصالحة.

وذكر القاضى عياض كثيرا من الأخبار والآثار التى تشهد بأمانته وعفته. من ذلك. «لما اختلفت قريش وتحازبت عند بناء الكعبة، فيمن يضع الحجر (الأسود)، حكموا أول داخل عليهم، فإذا بالنبىَ - ﷺ - داخل، وذلك قبل نبوته، فقالوا: هذا محمد؟ هذا الأمين؟ قد رضينا به».

وروى عنه - ﷺ - أنه قال: «والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض».

* أما عن صدقه، فيشهد به كل من عرفه وعاصره، من محبِّيه ومُبْغِضيه على السواء، روى علىّ - رضى الله عنه - أن أبا جهل قال للنبى - ﷺ: إنّا لا نُكَذِّبك، ولكن نكذِّب بما جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿فإنهم لَا يكذِّبُونَك﴾ الآية.

(١) الشفا ١/١٣٣.

وقيل: «إن الأخنس بن شريق، لقي أبا جهل يوم بدر، فقال له: ياأبا الحكم ليس هنا غيرى وغيرك يسمع كلامنا، تُخبرنى عن محمد صادق هو أم كاذب؟ فقال أبو جهل: والله إن محمدًا لصادق، وما كذَبَ محمد قط».

* وأما عن صدق لهجته، قد جاء فى حديث علىّ وصفه - ﷺ - أصدق الناس لهجة.

* وأما عن عدله، فقد قال فى الصحيح: «وَيْحَك فمن يعدل إن لم أعدل؟ خبتُ وخسرتُ إنْ لَمْ أَعْدِل.

وينقل القاضى عياض عن المبرِّد، قوله عن كسرى، الذى كان يعيش لنفسه ومتعته حيث قسم أيامه قائلا: «يصلح يوم الريح للنوم، ويم الغيم للصيد، ويوم المطر للشرب واللهو، ويوم الشمس للحوائج.. ثم يقول: «ولكن نبينا المصطفى - ﷺ - جزأ نهاره ثلاثة أجزاء، جزءًا لله، وجزءًا لأهله، وجزءًا لنفسه، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس، فكان يستعين بالخاصة على العامة، ويقول: أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغى، فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها، آمَنَه الله يوم الفزع الأكبر.

* أما عن عفته، فينقل القاضى عياض ما رواه الطبرى، عن النبى - ﷺ قوله:

«ما هممتُ بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملون به، غير مرتين، كل ذلك يَحُول الله بينى وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممت بسوء حتى أكرمنى الله برسالته، قلت ليلة لغلام كان يرعى معى: لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة سمعت عزفا بالدفوف والمزامير، لعُرس بعضهم، فجلست أنظر، فضُرب على أذنى فنمت، فما أيقظنى إلا مسُّ الشمس فرجعت ولم أقض شيئا، ثم عَرَانى مرة أخرى مثل ذلك، ثم لم أَهُمّ بعد ذلك بسوء.

١٨

ثم أفرد القاضى عياض فصلا للحديث عن وقاره وصمته وتُؤَدَته ومروءته

وحسن هديه[١] جمع فيه ما جاءت به الأخبار، وروته الآثار، وسجله الصحابة والتابعون وتناقلوه فيما بينهم..

* أما وقاره، فقد ذكر خارجة بن زيد، أنه كان ﷺ أوقر الناس فى مجلسه، لا يكاد يخرج شيئا من أطرافه.

وروى أبو سعيد الخدرى: كان رسول الله ﷺ - إذا جلس فى المجلس احتبى بيديه، وكذلك كان أكثر جلوسه - ﷺ مُحْتَبِيًا.

وجاء فى صفته: «يخطو تكفؤا، ويمشى هونا، كأنما ينحط من صَبَبٍ، وإذا مَشِىَ مشى مجتمعا، يُعرف من مشيته أنه غير غَرِضٍ ولا وكلٍ، أى غير ضجر ولا كسلان.

* أما صمته، فقد كان رسول الله ﷺ - كثير السكوت، لا يتكلم فى غير حاجة، يُعْرِض عمن تكلم بغير جميل، وكان ضحكهُ تبسما، وكلامه فصلاً لا فضول ولا تقصير، مجلسه مجلس حكم وحياء، وخير وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحُرَم، إذا تكلَّم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير.

قال القاضى عياض: ومن مروءته - ﷺ - نهيه عن النفخ فى الطعام والشراب، والأمر بالأكل مما يلى، والأمر بالسواك، وإنقاء البراجم والرواجب، واستعمال خصال الفطرة.

١٩

وفى الفصل الذى أفرده القاضى عياض لزهده، بدأه بقوله:

«أما زهده فى الدنيا، فقد تقدم من الأخبار أثناء هذه السيرة ما يكفى، وحسبك من تقلله منها، وإعراضه عن زهرتها، وقد سيقت إليه بحذافيرها، وترادفت عليه فتوحها، إلى أن توفى - ﷺ - ودرعه مرهونة عند يهودى فى نفقه عياله، وهو يدعو ويقول: «اللَّهُم اجْعَل رزق آل محمدٍ قوتا».

---

(١) الشفا ١٣٧/٤.

بيد أن الرجل يضيف إلى ما سبق ذكره، بعض الأخبار التى تتحدث عن زهده وقناعته ورضائه بالقليل. من ذلك: ما روته عائشة - رضى الله عنها - قالت: «ما شبعَ رسول الله - ﷺ - ثلاثة أيام تباعا من خُبْزٍ حتى قَضَى لسبيله».

وفى رواية: ما شبع آل رسول الله - ﷺ - من خُبز بُرٍّ حتى لقى الله عز وجل.

وقالت عائشة: «ولقد مات وما فى بيتى شىء يأكُلُه ذو كبد إلا شَطْر شعير فى رفٍ لى، وقال لى: «إنى عُرض على أن يُجعَل لى بطحاء مكة ذهبا، فقلت لا يارب، أجْوع يوما، وأشبع يوما، فأما اليوم الذى أجوع فيه، فأتضرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك.

وعن حفصة - رضى الله عنها - قالت: كان فراش رسول الله - ﷺ - فى بيته مسحًا تثنيه ثنيتين، فينام عليه، فثنيناه له ليلة بأربع، فلما أصبح قال: ما فرشتموا لى الليلة؟ فذكرنا ذلك له، فقال: ردّوه بحاله فإن وَطْأته منعتنى الليلة صلاتى.

وتروى عائشة ظروف معيشته فى أخريات حياته، فتقول:

«لم يمتلئ جوف النبى - ﷺ - شبعا قط، ولم يَبُثّ شكوى إلى أحَد، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى، وإن كان ليظل جائعا يتلوّى طول ليلته من الجوع، فلا يمنعه صيام يومه، ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها..

ولقد كنت أبكى له رحمة مما أرى به، وأمسح بيدى على بطنه مما به من الجوع، وأقول نفسى لك الفداء، لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك، فيقول: ياعائشة مالى وللدنيا؟ إخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا، فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم، فأكرم مآبهم، وأجزل ثوابهم، فأجدنى استحيى إن ترفّهت فى معيشتى أن يُقَصّر بى غدا دونهم، وما من شىء هو أحب إلى من اللحوق باخوانى وأخلائى، «قالت: فما أقام بعد إلا شهرًا حتى توفى - ﷺ».

٢٠

ويختم القاضى عياض بحوثه الجيدة عن الخصال الدينية المكتسبة، بفصل خصصه للحديث عن علاقة النبى صلى الله عليه وسلم بربِّه، وخوفه منه، وطاعته له، وشدة عبادته[١].

قال فى صدره: «وأما خوفه ربه، وطاعته له، وشدة عبادته، فعلى قدر علمه بربه.

ويقدم الشواهد على ذلك مما ورد فى السنة المطهرة، متصلا بهذا الجانب.

من مثل قول أبى هريرة - رضى الله عنه - كان رسول الله - ﷺ - يقول: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا»

وفى رواية لأبى ذرّ - رضى الله عنه - «إنِّى أرى ما لاترون، واسمعُ ما لا تسمعون، أُطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضِعٌ جبهته ساجدًا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، وما تلذذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصُّعدات تجأرون إلى الله».

* أما عبادته، ففى حديث المغيرة: صَلَّى رسول الله - ﷺ - حتى انتفخت قدماه.

فقيل له: أتكلّف هذا وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا».

قالت عائشة: «كان عمل رسول الله ﷺ - دِيمَة، وأيكم يُطيق، كان يصوم حتى نقول لا يفطر، ولا يفطر حتى نقول لا يصوم»

وقال عوف بن مالك: «كنت مع رسول الله - ﷺ، فاستاك ثم توضأ، ثم قام يُصلى، فقمت معه فبدأ فاستفتح البقرة، فلا يمر بآية رحمة إلاّ وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلاّ وقف فتعوذ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه، يقول: سبحان ذى الجبروت والملكوت، والكبرياء والعظمة، ثم سجد وقال مثل ذلك، ثم قرأ آل عمران، ثم سورة سورة، يفعل مثل ذلك».

---

(١) الشفا ١/١٤٥.

* ويختم القاضى عياض هذا الفصل الممتع بذكر حديث علىّ - رضى الله عنه، قال:

«سألتُ رسول الله - ﷺ - عن سُنته، فقال: المعرفة رأس مالى، والعقل أصل دينى، والحب أساسى، والشوق مركبى، وذكر الله أنيسى، والثقة كنزى، والحزن رفيقى، والعلم سلاحى، والصبر ردائى، والرضا غنيمتى، والعجز فخرى، والزهد حرفتى، واليقين قوتى، والصدق شفيعى، والطاعة حسبى، والجهاد خُلقى، وقرة عينى فى الصلاة.

٢١

بعد أن انتهى القاضى عياض من عرض جميع الخصال الدينية المكتسبة، لرسول الله - ﷺ - لم يشأ أن يختم هذه الفصول، دون أن يشير أيضا إلى خصال جميع الأنبياء والرسل[١] - صلوات الله عليهم - من كمال الخَلق، وحسن الصورة، وشرف النسب، وحُسن الخُلق، وجميع المحاسن، هى هذه الصفة، لأنها صفات الكمال، والكمال والتمام البشرى، والفضل الجميع لهم - صلوات الله عليهم، إذ رتبتهم أشرف الرتب، ودرجاتهم أرفع الدرجات، ولكن فَضَّل الله بعضَهم على بعض، قال تعالى: ﴿تلْكَ الرُّسلُ فَضَّلْنا بعضَهم عَلَى بَعْض﴾

ثم يتحدث القاضى عياض عن هؤلاء الرسل، من آدم حتى يأتى عليهم جميعا، متحدثا عن صفاتهم وخصائصهم، ومكانتهم، وتأييد الله لهم فى كل مناسبة، حيث بلغوا رسالاتهم إلى أقوامهم. محددًا، أن أخبارهم فى هذا كله مسطورة، وصفاتهم فى الكمال وجميل الأخلاق وحسن الصور والشمائل معروفة مشهورة، فلا يريد التطويل فيها، وينصح قارئيه أن لا يلتفتوا إلى ما يجدوه فى كتب بعض جهلة المؤرخين والمفسرين مما يخالف ما ذكره أو أتى به.

٢٢

ولقد كان حديث القاضى عياض عن أنبياء الله ورسله منطلقا لكى يعيد الحديث عن رسول الله - ﷺ - فى فصل تال[٢]. وكأنه يريد أن يلخص

(١) الشفا ١/١٤٧

(٢) الشفا ١/١٥٢

ما سبق أن ذكره فى الفصول السابقة، من ذكر الأخلاق الحميدة، والفضائل المجيدة، وخصال الكمال العديدة..

لذلك رأى أن يختم هذه الفصول السابقة بذكر حديث الحسن عن ابن أبى هالة، لجمعه من شمائله وأوصافه كثيرا، وإدماجه جملةً كافية من سيره وفضائله.

قال الحسن بن على، سألت خالى هند بن أبى هالة، عن حلية رسول الله - ﷺ - وكان وصافا، وأنا أرجو أن يصف لى منها شيئا أتعلق به، قال: «كان رسول الله - ﷺ - فخما مفخّما، يتلألأ وجهه تَلْأْلُؤَ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع، وأقصر من المشذب، عظيم الهامة، رَجِل الشعر إن انفرقت عقيقته فَرَق، وإلاّ فَلَا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفّره، أزهر اللون، واسع الجبين، أزجّ الحواجب، سَوَابغ من غير قَرَن بينهما، عِرقٌ يُدرّه الغضب، أقنى العرفين، له نور يعلو، ويحسبه من لم يتأمله أشَمَّ، كث اللحية، أدعج، سهل الخدّين، ضليع الفم، أشنب، مفلّج الأسنان، دقيق المَسْرُبة، كأن عنقَه جِيدُ دُمية فى صفاء الفضة، معتدل الخَلْق، بادنا متماسكا، سواء البطن والصَّدْر، مُشِيحَ الصدر، بعيد ما بين المنكبين، فخم الكراديس، أنور المتجرّد، موصول ما بين اللَّبة والسُّرّة بشعر يجرى كالخط، عارى الثديين، ما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين، وأعالى الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة.. الحديث»

ولما كان هذا الفصل يضم كثيرا من الألفاظ الغريبة، التى تحتاج إلى تفسير وتوضيح، فقد عقد القاضى عياض فصلا تفسيريا تحليليا جعله فى تفسير غريب هذا الحديث ومشكله[1] حتى يكون معينا لمن يراجع وصف رسول الله - ﷺ، وحتى يبرز الرجل ثقافته اللغوية ودرايته بغريب الحديث.

---

(١) الشفا ١٦١/١

الفصل الثالث

عظيمُ قَدْرِه ومنزلتُهُ عِنْدَ رَبِّه

فى الفصل السابق تحدث القاضى عياض عن خصال الكمال والجمال للرسول المصطفى - ﷺ. سواء الخصال الضرورية الدنيوية ، أو الخصال الدينية المكتسبة، وأشبع هذا الموضوع تفسيرا وتحليلا، واستشهادًا وتعليلا..

بعد ذلك انتقل للحديث عن عظيم قدره عند ربّه، ومنزلته لديه، وما خصه به سبحانه وتعالى فى الدارين من كرامات.

وقد صدّر القاضى عياض هذا الفصل بمقدمة قصيرة، قال فيها:

«لا خلاف أنه - ﷺ - أكرم البشر، وسيد ولد آدم، وأفضل الناس منزلة عند الله، وأعلاهم درجة، وأقربهم زُلْفَى»

واتخذ من ذلك منطلقا للحديث عن عظيم قدره، ثم قرر أنه حصر معانى ما ورد من ذلك فى اثنى عشر فصلا، كما يلى:

١ - مكانته عند ربه.
٢ - فى تفضيله بالإسراء.
٣ - فى مناقشة رحلة الإسراء، هل كانت بالروح والجسد.
٤ - فى إبطال حجج من إدعى أنها نوم.
٥ - فى رؤية الرسول - ﷺ - لربه.
٦ - فى مناجاته - ﷺ - لله، وكلامه معه.
٧ - فى تفضيله يوم القيامة.
٨ - فى تفضيله بالمحبة والخُلّة.
٩ - فى تفضيله بالشفاعة والمقام المحمود.

---

(١) الشفا ١/١٦٥

١٠ - فى تفضيله فى الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة، والكوثر والفضيلة.
١١ - فى أسمائه وما تضمنته من فضيلته.
١٢ - فى تشريف الله بما سماه به من أسمائه الحسنى.

١

فيما ورد من ذكر مكانته عند ربه

حدد القاضى عياض الإطار الذى سيتحدث فى حدوده، فذكر أن مضمونه: «ما ورد من ذكر مكانة المصطفى - ﷺ - عند ربه، والإصطفاء، ورفعة الذكر، والتفضيل، وسيادة ولد آدم، وما خصّه به فى الدنيا من مزايا الرتب، ثم بركة اسمه الطيب».

* أما عن العنصر الأول، وهو ما ورد من ذكر مكانته عند ربه، فقد استشهد له بما رواه ابن عباس عن الرسول - ﷺ، وهو قوله:

«إن الله تعالى قسم الخلق قسمين، فجعلنى من خيرهم قِسمًا، فذلك قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ اليَمِينِ وأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ فأنا من أصحاب اليمين، وأنا خير أصحاب اليمين، ثم جعل القسمين أثلاثا فجعلنى فى خيرها ثُلُثًا، وذلك قوله تعالى: ﴿فأَصْحَابُ المَيْمَنَةِ وأَصْحَابُ المَشْأَمَة، والسَّابِقُون السَّابِقُون﴾ فأنا من السابقين، وأنا خير السابقين، ثم جعل الأثلاث قبائل، فجعلنى من خيرها قبيلة، وذلك قوله تعالى: ﴿وجَعَلْنَاكُم شُعُوبًا وَقَبَائل﴾ الآية، فأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر، ثم جعل القبائل بيوتا فجعلنى من خيرها بيتا، فذلك قوله تعالى: ﴿إنّما يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البيت﴾ الآية.

* وعن اصطفائه - يذكر القاضى عياض شاهده من قول المصطفى - ﷺ - عن نفسه: «إن الله اصطفى من ولد ابراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد اسماعيل بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشا، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم».

* وعن سيادته ولد آدم، يذكر القاضى عياض ما رواه أنس - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - «أنا أكرمُ وَلَد آدم على ربى ولا فخر».

وروى ابن عباس - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: لما خلق الله آدم، أهبطنى فى صُلبه إلى الأرض، وجعلنى فى صلب نوح فى السفينة، وقذف بى فى النار فى صلب إبراهيم، ثم لم يزل ينقلنى فى الأصلاب الكريمة، إلى الأرحام الطاهرة، حتى أخرجنى بين أبوى، لم يلتقيا على سفاح قط.. وإلى هذا أشار العباس بن عبد المطلب بقوله:

* مِنْ قَبْلِها طِبْتَ فى الظِّلالِ وَفى مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الوَرَقُ
* ثُمَّ هَبَطْتَ البلادَ لَا بَشَرٌ أنْتَ وَلَا مُضْغَةٌ وَلَا عَلَقُ
* بَلْ نُطْفَةٌ تَرْكَبُ السَّفِينَ وَقَدْ أَلْجَمَ نَسْرًا وأَهْلَهُ الغَرَقُ
* تُنْقَلُ مِنْ صَالِبٍ إلى رَحِمٍ إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدا طَبَقُ
* ثم احْتَوَى بَيْتَكَ المُهَيْمِنُ من خِنْدَفَ عَلْيَاء تَحْتَها النُّطُقُ
* وأنت لَمّا وُلِدْتَ أَشْرَقَتْ الأرْ ضُ وضَاءَتْ بنُورِكَ الأُفُقُ
* فَنَحْنُ فى ذلِكَ الضِّياء وفى النُّـ ـورِ وسُبْلِ الرَّشادِ نَخْتَرِقُ
* يَا بَرْدَ نارِ الخَلِيلِ يَاسَبَبًا لِعِصْمَةِ النَّارِ وَهِىَ تَحْتَرِقُ

ثم يذكر القاضى عياض ما خصّه الله به من مزايا الرتب، وقد ورد ذلك فى حديث النبى المصطفى نفسه، مماروواه ابن عباس وغيره، وهو قوله - ﷺ :

أعطيت خمسًا لم يُعْطهن نبىٌّ قبلى: نُصِرْت بالرُّعب مسيرة شهرٍ، وجُعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجلٍ من أمتى أدركته الصلاة فلْيُصَلِّ، وأُحِلّتْ لى الغنائم، ولم يَحِلّ لنبىّ قبلى، وبُعِثْتُ إلى الناسِ كافةً، وأُعطيتُ الشفاعة.»

* وروى ابن وهب، أنه ﷺ قال: «قال الله تعالى: سَلْ يامحمد، فقلتُ: ما أسأل يارب، اتخذت ابراهيم خليلا، وكلمت موسى تكليما، واصطفيت نوحًا، وأَعْطَيتَ سليمان ملكا لا ينبغى لأحد من بعده.. فقال الله تعالى: ما أعطيتك خيرٌ من ذلك، أعطيتك الكوثر، وجعلت اسمَك مع اسمى، ينادى به فى جَوْف السماء، وجعلتُ الأرض طهورًا لك ولأمتك، وغفرت لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فأنت تمشى فى الناسِ مغفورًا لك، ولم أصنع ذلك لأحدٍ قبلك، وجعلتُ قلوب أمتك مصاحفها، وخَبَّأْتَ لك شفاعتك، ولم أَخْبَأْها لنبى غيرك.»

* وأما عن بركة اسمه - ﷺ - فقد استشهد القاضى عياض بالعديد من الأحاديث الشريفة[١]، منها ما حكاه أبو محمد المكى، أن آدم عند معصيته قال: «اللهم بحق محمّد، اغفر لى خطيئتى، وتقبل توبتى، فقال له الله، من أين عرفت محمدًا، قال: رأيت فى كل موضع من الجنة مكتوبا «لا إله إلا الله محمد رسول الله». وفى رواية: «محمدٌ عبدى ورسولى» فعلمت أنه أكرم خلقك عليك، فتاب الله عليه، وغفر له، وهذا تأويل قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾.

وروى عن جعفر بن محمد، عن أبيه، إذا كان يوم القيامة، نادَى منادٍ ألَا ليقُمْ من اسمه محمد، فليدخل الجنة لكرامة اسمه - ﷺ.

٢

فى تفضيل المصطفى بما تضمنته كرامة الإسراء

احتلت كرامة الإسراء فى فكر القاضى عياض حيزا كبيرا، من أجل ذلك تحدث عنها حديثا مستفيضا، شغل حيزا كبيرا من سيرة المصطفى - ﷺ.

لقد خصص لها الفصول الخمسة التالية من هذا الباب، وتناول فيها كل ما ارتبط بها من أمور كالمناجاة، والرؤية، وإمامة الأنبياء، والعروج إلى سدرة المنتهى، وما رآه الرسول من آيات ربه الكبرى.

يقول: «ومن خصائصه - ﷺ - قصة الإسراء، وما انطوت عليه من درجات الرفعة. فيما نبه عليه الكتاب العزيز، وشرحته صحاح الأخبار[٢]. قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَه لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرِ﴾

وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ إلى قوله ﴿لَقَدْ رَأَى مِن آيات رَبِّه الْكُبْرَى﴾

فلا خلاف بين المسلمين فى صحة الإسراء به - ﷺ، إذ هو نص القرآن، وجاءت بتفصيله وشرح عجائبه، وخواص نبينا - ﷺ - فيه أحاديث كثيرة منتشرة. رأينا أن نقدم أكملها.

---

(١) الشفا ١/١٧٤

(٢) الشفا ١/١٧٦.

بدأ القاضى عياض بسرد مقدمات الرحلة المقدسة، وقد اعتمد فى ذلك على ما جاء على لسان النبى - ﷺ - نفسه، مما رواه عنه أنس بن مالك، قال: «أُتيتُ بالبَراق، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التى يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصلّيت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءنى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة»

«ثم عُرّج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه، قال: قد بُعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، ﷺ، فرحَّب بى، ودعا لى بخير، ثم عُرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل؛ ومن معك؟، قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بابنى الخالة عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا، صلى الله عليهما، فرحَّبا بى، ودعوا لى بخير.

* ثم عُرج بنا إلى السماء الثالثة، فذكر مثل الأول، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف - ﷺ، وإذا هو أُعطى شطر الحُسْن، فرحب بى ودَعَا لى بخير.

* ثم عُرّج بنا إلى السماء الرابعة، وذكر مثله، فإذا أنا بإدريس، فرحَّب بى ودعا لى بخير، قال الله تعالى ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾

* ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فذكر مثله، فإذا أنا بهارون، فرحَّب بى، ودعا لى بخير،

* ثم عُرج بنا إلى السماء السادسة، فذكر مثله، فإذا أنا بموسى، فرحّب بى، ودعا لى بخير،

* ثم عُرج بنا إلى السماء السابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بابراهيم مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخل كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذُهب بى إلى سِدْرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال.

قال: فلما غَشِيَها من أمر الله ما غَشِي تغيّرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إلى ما أوحى، ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة.

فنزلت إلى موسى فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإنى قد بَلَوْتُ بنى إسرائيل وخبرتهم، قال: فرجعت إلى ربى فقلت، يارب خفف عن أمتى، فحط عنى خمسا، فرجعت إلى موسى، فقلت: حطَّ عنى خمسًا، قال: إن أُمّتك لايطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، قال: فلم أزل أرجع بين ربى تعالى، وبين موسى حتى قال: يامحمد.. إنهن خمس صلوات، كل يوم وليلة، لكل صلاة عَشْرٌ، فتلك خمسون صلاة.»[1]

بعد ذلك يتعرض القاضى عياض لنقد الروايات غير الصحيحة، كرواية شريك بن أبى تمر، فقد ذكر فى أول حديث الإسراء، مجىء الملك له، وشق بطنه، وغسله بماء زمزم.

قال القاضى عياض: «وهذا إنما وهو صبى وقبل الوحى».

ثم يقول: «ولا خلاف أن الإسراء كان بعد الوحى، وقد قال غير واحد إنها كانت قبل الهجرة بسنة، وقيل: قبل هذا.

* ثم يقف القاضى عياض ليذكر نكتا مفيدة مما وقعت فى حديث الإسراء:

- من ذلك: قول كل نبى له «مرحبا بالنبى الصالح والأخ الصالح» إلا آدم وابراهيم فقالا له: (والإبن الصالح)

- ومن ذلك قوله: «ثم عرج بى حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام»

- ومن ذلك قوله: «ثم انطُلِق بى حتى أتيت سِدْرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدرى ما هى.. ثم أُدخلت الجنة»

- ومنه: «وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء، فحانت الصلاة فأَممْتُهُم، فقال قائل: يامحمد! هذا مالك، خازن النار فسلِّم عليه، فالتفت فبدأنى بالسلام.

---

(١) الشفا ١٧٩/١.

ويذكر القاضى عياض ما قاله الرسول - ﷺ - عن سِدْرة المنتهى، قال: «فقيل لى هذه السدرة المنتهى، ينتهى إليها كل أحد من أمتك خَلَا على سَبيلِك، وهى السدرة المنتهى يخرج من أصلها أنهارٌ من ماء غير آسِن، وأنهارٌ من لَبَنٍ لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهارٌ من عسل مصفًى وهى شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما، وأن ورقة منها مُظِلّةٌ الخَلْق، فغشيها نور، وغشيتها الملائكة، قال، فهو قوله: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾

* ويروى أيضا المناجاة التى تمت بين الحق سبحانه وبين رسول الله ﷺ[1] قال تبارك وتعالى لرسوله: سَلْ.. فقال: إنّك اتخذت ابراهيم خليلا، وأعطيته ملكا عظيما، وكلمت موسى تكليما، وأعطيت داود مُلكا عظيما، وأَلَنْتَ له الحديد، وسخرت له الجبال، وأعطيت سليمان ملكا عظيما، وسخرت له الجن والإنس والشياطين والرياح، وأعطيته ملكا لا ينبغى لأحد، من بعد، وعلّمت عيسى التوراة والإنجيل، وجعلته يبرئُ الأكمة والأبرص، وأَعَذْته وأمه من الشيطان الرجيم، فلم يكن له عليهما سبيل».

فقال له ربه تعالى: «قد اتخذتك خليلا وحبيبا، فهو مكتوب فى التوراة محمد حبيب الرحمن، وأرسلتك إلى الناس كافة، وجعلتُ أمتك هم الأولون وهم الآخرون، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى، وجعلتك أول النبيين خلقا، وآخرهم بعثا، وأعطيتك سبعا من المثانى، ولم أعطها لنبى قبلك، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت عرشى لم أعطها نبيا قبلك وجعلتك فاتحا وخاتما»

ويذكر القاضى عياض كيف تعلم الرسول الأذان ومتى، فيروى قوله - ﷺ - أثناء وجوده مع جبريل فى السماء السابعة، عند سدرة المنتهى..

«إذا خرج مَلَك من الحجاب، فقال رسول الله - ﷺ - ياجبريل من هذا؟

قال: والذى بعثك بالحق إنى لأقرب الخلق مكانا، وإن هذا المَلَك ما رأيته منذ خُلقت قبل ساعتى هذه، فقال المَلَك: أشهد أن لا إله إلا الله، فقيل له من وراء

---

(١) الشفا ١٨٢/١.

الحجاب: صدق عبدى، أنا الله لا إله إلاّ أنا. وذكر مثل هذا في بقية الآذان، إلا أنه لم يذكر جوابا عن قوله «حى على الصلاة، حيّ على الفلاح».

«ثم أخذ المَلَك بيد محمد - ﷺ - فقدمه فأَمَّ أهل السماء فيهم آدم ونوح» فأكمل الله لمحمد - ﷺ - الشرف على أهل السموات والأرض.

* وهنا يجد القاضى عياض الفرصة مواتية لكى يتحدث عن ذكر الحجاب[1]، الذى ارتفع من ورائه صوت الله تعالى، وهو يؤكد عظمته، وأنه لا إله إلاّ هو.

يقول القاضى عياض: «إن ما فى هذا الحديث من ذكر الحجاب، فهو فى حق المخلوق لا فى حق الخالق. فهم المحجوبون، والبارى جل اسمه منزّه عمّا يحجبه، إذ الحُجُب إنّما تحيط بمقدَّر محسوس، ولكن حُجُبه على أبصار خلقه وبصائرهم وإدراكاتهم بما شاء، كيف شاء، ومتى شاء، كقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾

فقولهَ فى هذا الحديث «الحجاب». وإذا خرج ملك من الحجاب، يجب أن يقال إنه حجابٌ حُجِبَ به من وراءه من ملائكته عن الاطلاع على ما دونه من سلطانه وعظمته وعجائب ملكوته وجبروته. ويدل عليه - من الحديث - قول جبريل عن المَلَك الذى خرج من ورائه: إن هذا الملك ما رأيته منذ خُلقت قبل ساعتى هذه، فدلَّ على أن هذا الحجاب لم يختص بالذّاتِ

وقوله: (فقيل من وراء الحجاب صدق عبدى أنا أكبر) فظاهره أنه سمع فى هذا الموطن كلام الله تعالى، ولكن من وراء حجاب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أى وهو لا يراه، حُجِب بصره عن رؤيته.

٣

وفى الفصل التالى - وهو متعلّق بما قبله، يتصدى القاضى عياض للقضية التى شغلت الفكر الاسلامى كله على مر العصور، وكانت ذريعة لكى يتحدث

---

(١) الشفا ١٨٦/١.

فيها كل من آمن أو لم يؤمن. كل من صدّق أو لم يصدّق. وهى: هل كان إسراؤه - ﷺ - بروحه أو جسده؟

فنرى القاضى عياض يجمع كل ما جاءت به الأخبار والروايات والآثار حول هذا الموضوع.

ويصنف القائلين ثلاث طوائف:

١ - طائفة ذهبت إلى أنه إسراء بالروح، وأنه رؤيا منام، مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحى. وإلى هذا ذهب معاوية، وحكى عن الحسن، وإليه أشار محمد بن اسحاق.

وحجتهم فى ذلك: قوله تعالى: ﴿وما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الّتى أَرَيْنَاكَ إلاَّ فِتْنَةً لِلناسِ﴾

وقول عائشة - رضى الله عنها - «ما فقدتُ جسد رسول الله - ﷺ.

وقوله - ﷺ - : «بيْنَما أنا نائم»

وقول أنس بن مالك: «وهو نائم فى المسجد الحرام» وذكر القصة، ثم قال فى آخرها: «فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام»

٢ - وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسراء بالجسد وفى اليقظة.

وأيد القاضى عياض هذا الرأى فقال: «وهذا هو الحق».

وهو قول ابن عباس، وجابر، وأنس، وحذيفة، وعُمر، وأبى هريرة وغيرهم.

وهو أيضا قول الطبرى، وابن حنبل، وجماعة عظيمة من المسلمين. وهو كذلك قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدِّثين والمتكلمين والمفسرين.

٣ - وقالت الطائفة الثالثة، كان الإسراء بالجسد يقظة من المسجد الحرام إلى بيت المقدس وإلى السماء بالروح.

* واحتجوا بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ فجعل إلى المسجد الأقصى «غاية الإسراء» الذى وقع التعجب فيه بعظيم القدرة، والتمدح بتشريف النبى محمد - ﷺ - به، وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه.

قال هؤلاء: «ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فيكون أبلغ فى المدح».

وهنا يتصدى القاضى عياض للإدلاء برأيه فى هذا الموضوع، فيقول:
والحق من هذا والصحيح - إن شاء الله - أنه إسراء بالجسد والروح فى القصة كلها. وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار، والاعتبار.. ولا يُعْدَل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل، إلاّ عند الاستحالة، وليس فى الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة، إذْ لو كان مناما لقال (الله تعالى) «بروح عبده»، ولم يقل «بعبده»

«ولو كان «الإسراء» منامًا لما كانت فيه آية ولا معجزة، ولما استبعده الكفار ولا كذّبوه فيه، ولا ارتد به ضعفاء من أسلم، وافتتنوا به، إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر.. بل لم يكن ذلك منهم إلاّ وقد علموا أنّ خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته، إلى ما ذُكر فى الحديث»:

«من ذكر صلاته بالأنبياء ببيت المقدس، فى رواية أنس، أو فى السماء على ما روى غيره، وذكر مجيء جبريل له بالبراق، وخبر المعراج، واستفتاح السماء، فيقال: ومن معك؟ فيقول: محمد، ولقائه الأنبياء فيها، وخبرهم معه، وترحيبهم به، وشأنه فى فَرْض الصلاة، ومراجعته مع موسى فى ذلك، وأنه وصل إلى سدرة المنتهى، وأنه دخل الجنة ورأى فيها ما ذكره»

* ويستشهد القاضى عياض على صحة رأيه، ما جاء عن صحابة رسول الله - ﷺ - وملازميه، من ذلك قول ابن عباس: هى رؤيا عين رآها - ﷺ - لا رؤيا منام.

* ويقدم لنا القاضى عياض دليلا ماديا يدعم به رأيه، وهو قول أم هانئ - بنت عم رسول الله، قالت:
«ما أسرى برسول الله - ﷺ - إلاّ وهو فى بيتى، تلك الليلة صَلى العشاء الآخرة، ونام بيننا، فلما كان قُبيل الفجر أَهَبَّنا رسول الله - ﷺ - فلمّا صلى الصبح وصلّينا قال: يا أم هانئ.. لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت، بهذا

الوادى، ثم جئت بيت المقدس، فصليت فيه، ثم صلَّيت الغَدَاة معكم الآن كما ترون» وهذا بيّن فى أنه بجسمه.

* ويضيف إلى ذلك خبرا عن أبى بكر الصديق، أنه قال ليلة أُسْرِىَ به: «طلبتك يا رسول الله البارحة فى مكانك فلم أجدك؟ فأجابه.. أن جبريل - عليه السلام - حملنى إلى المسجد الأقصى»

ويختم القاضى عياض كلامه بقوله: «وهذه التصريحات ظاهرة غير مستحيلة، فتُحمل على ظاهرها.

٤

بيد أن القاضى عياض يعود، فيعقد بعد ذلك فصلا[1]، جعله فى إبطال حُجَج مَنْ قال إنها نوم. يقول فيه:

«الذين قالوا إن الاسراء نوم، احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيا الَّتى أَرَيْنَاكَ﴾ فسمّاها رؤيا

قلنا: قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بعَبْدِهِ﴾ يردّه، لأنه لا يقال فى النوم «أسرى» وقوله سبحانه: ﴿فِتْنَةً لِلناس﴾ يؤيد أنها رؤيا عين، وإسراء بشخص، إذ ليس فى الحلم فتنة، ولا يكذب به أحد لأن كل يرى مثل ذلك فى منامه.

ويستطرد القاضى عياض قائلا: على أن المفسرين قد اختلفوا فى هذه الآية..

«فأما قولهم إنه قد سماها فى الحديث (مناما) وقوله فى حديث آخر (بين النائم واليقظان) وقوله أيضا: (وهو نائم)، وقوله: (ثم استيقظت).. فلا حجة فيه، إذ قد يحتمل أن أول وصول المَلَك إليه كان وهو نائم، أو أول حمله والإسراء

(١) الشفا ١/١٩١.

به، وهو نائم، وليس فى الحديث أنه كان نائما فى القصة كلها، إلا ما يدل عليه قوله (ثم استيقظت وأنا فى المسجد الحرام).

فلعل قوله (استيقظت) فمعنى أصبحت، أو استيقظ من نوم آخر بعد وصوله بيته. ويدل على أن مسراه لم يكن طول ليله، وإنما كان فى بعضه.

«وقد يكون قوله (استيقظت) وأنا فى المسجد الحرام لما كان غمره من عجائب ما طالع من ملكوت السموات والأرض، وخامر باطنه من مشاهدة الملأ الأعلى، وما رأى من آيات ربه الكبرى، فلم يستفق ويرجع إلى حال البشرية إلا وهو بالمسجد الحرام.

* ووجه ثالث: أن يكون نومه واستيقاظه حقيقة على مقتضى لفظه، ولكنه أُسرى بجسده، وقلبه حاضر، ورؤيا الأنبياء حق، تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، وقد مال بعض أصحاب الإشارات إلى نحو من هذا. قال: تغميض عينيه لِئَلّا يشغله شىء من المحسوسات عن الله تعالى. ولكن القاضى عياض ينقد هذا الرأى. ويقول: «ولا يصح هذا أن يكون فى وقت صلاته بالأنبياء ولعله كانت له فى هذا الإسراء حالات، ثم يقول:

* ووجه رابع: وهو أن يعبر بالنوم هٰهنا عن هيئة النائم من الإضطجاع.

ثم يعود القاضى عياض إلى تفنيد ما قيل عن قصة الإسراء، خاصة قول عائشة؛ «ما فقدت جسد رسول الله» فيقول:

«وأما قول عائشة ما فقدت جسده، فعائشة لم تُحَدِّث به عن مشاهدة، لأنها لم تكن حينئذ زوجه، ولا فى سِنّ من يضبط، ولعلها لم تكن وُلِدَت بعد، على الخلاف فى الإسراء متى كان، فإن الإسراء فى أول الإسلام، بعد المبعث بعام ونصف، وكانت عائشة فى الهجرة بنت نحو ثمانية أعوام.

ثم يقول: والحجة لذلك تطول ليست من غرضنا، فإذا لم تُشاهد ذلك عائشة، دَل أنها حدَّثَت بذلك عن غيرها، فلم يرجِّح خبرها على خبر غيرها. وغيرها يقول خلافه، مما وقع نَصًّا فى حديث أم هانئ وغيره.

وأيضا فليس حديث عائشة - رضى الله عنها - بالثابت.. خاصة وهى تقول: «ما فقدت جسده» ولم يدخل بها النبى صلى الله عليه وسلم - إلا بالمدينة، وكل هذا يوهنه.

* ثم يعود إلى مناقشة القضية مرة ثانية، فيقول:

فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿ما كَذَبَ الفؤادُ ما رأى﴾ فقد جعل ما رآه للقلب، وهذا يدل على أنه رؤيا نوم ووحى، لا مشاهدة عين وحِسّ.

قلنا: يقابله قوله تعالى: ﴿ما زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ فقد أضاف الأمر للبصر. ومعنى قوله: ﴿ما كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رأىَ﴾ أى لم يُوهم القلبُ العين غير الحقيقة، بل صَدَقَ رؤيتها، فما أنكر قلبه ما رأته عينه من مرئيات.

٥

وبعد أن تناول القاضى عياض إثبات أن رحلة الإسراء والمعراج كانت بالجسد والروح، وقدم المؤيدات والمبرهنات، وناقش القضايا التى طُرحت فى هذا الموضوع.. انتقل لمناقشة موضوع آخر يرتبط بها وهو: رؤيته صلى الله عليه وسلم لربّه[1].

قال: «أما رؤيته - صلى الله عليه وسلم - لربه عز وجل، فاختلف السلف فيها.

* قال ابن عباس - رضى الله عنها - أنه رآه بعينه.

* وذكر ابن اسحاق، أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس - رضى الله عنها - يسأله: هل رأى محمد ربّه؟ فقال: نعم. والأشهر عنه أنه رأى ربه بعينه، ورُوى ذلك عنه من طرق وقال:

إن الله تعالى اختص موسى بالكلام، وإبراهيم بالخُلة، ومحمدًا بالرؤية.

(١) الشفا ١/١٩٥.

وحجته قوله تعالى: ﴿ما كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ على مَا يَرَى، ولَقَدْ رآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾.

قال الماوردى: إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى، ومحمد صلى الله عليهما وسلم، فرآه محمد مرتين، وكلمه موسى مرتين.

* وعن أبى ذر - رضى الله عنه - فى تفسير الآية، قال: رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - ربَّه.

* وعن أحمد بن حنبل، أنه قال: أنا أقول بحديث ابن عباس: بعينه رآه رآه.

* وحكى بعض المتكلمين هذا المذهب عن ابن مسعود.

* وقال أبو الحسن الأشعرى، وجماعة من أصحابه: أنه رأى الله تعالى ببصره، وعينى رأسه، وقال: كل آية أوتيها نبى من الأنبياء عليهم السلام، فقد أوتى مثلها نبينا - صلى الله عليه وسلم وخصَّ من بينهم بتفضيل الرؤية.

* وقد أنكر الرؤية: عائشة رضى الله عنها، فقالت حين سُئلت: هل رأى محمد ربّه؟ قالت: ثلاث من حدثك بهن فقد كذب، من حدثك أن محمدًا رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿لا تدرِكُه الأبْصَار﴾ الآية.

وقال أبو هريرة: إنما رأى جبريل، وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته فى الدنيا جماعة من المحدِّثين والفقهاء والمتكلمين.

وكان على القاضى عياض أن يقول رأيه، ويحسم الأمر فى هذه الآراء.. قال:

«والحق الذى لا إمتراء فيه، أن رؤيته تعالى فى الدنيا جائزة عقلا، وليس فى العقل ما يحيلها. والدليل على جوازها فى الدنيا، سؤال موسى -عليه السلام- لها، ومحال أن يجهل نبى ما يجوز على الله وما لا يجوز عليه، بل لم يسأل إلا جائزا غير مستحيل، ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب الذى لا يعلمه إلا من علّمه الله، فقال له الله تعالى: ﴿لَنْ ترانى﴾ أى لن تطيق ولا تحتمل رؤيتى. ثم ضرب له مثلا مما هو أقوى من بِنية موسى وأثبت، وهو الجبل..

وكل هذا ليس فيه ما يحيل رؤيته فى الدنيا، بل فيه جوازها على الجملة، وليس فى الشرع دليل قاطع على استحالتها ولا امتناعها، إذ كُلُّ موجود فرؤيته جائزةٍ غير مستحيلة، ولا حجة لمن استدل على منعها بقوله تعالى ﴿لا تُدْرِكه الأَبْصَار﴾ لاختلاف التأويلات فى الآية.

ثم يقول القاضى عياض : وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية نفسها، على جواز الرؤية، وعدم استحالتها على الجملة، وقد قيل : لا تدركه أبصار الكافر، وقيل ﴿لا تُدْرِكه الأبْصَار﴾ أى لا تحيط به، وقيل : ﴿لا تدركه الأبصار﴾ وإنما يدركه المبصرون. وكل هذه التفسيرات لا تقتضى منع الرؤية ولا استحالتها.

* «وكذلك لا حجة لهم بقوله تعالى : ﴿لَنْ ترانى﴾ وقوله ﴿تُبْتُ إليك﴾ لأن من قال معناها : لن ترانى فى الدنيا، إنما هو تأويل، وأيضًا فليس فيه نَصّ الامتناع، وإنما جاءت فى حق موسى.

* ويضيف القاضى عياض رأيا لبعض السلف والمتأخرين، يقولون فيه[1].

«إن رؤية الله – سبحانه – فى الدنيا ممتنعة لضعف تركيب أهل الدنيا وقواهم، وكونها متغيرة عرضا للآفات والفناء، فلم تكن لهم قوة على الرؤية، فإذا كان فى الآخرة وركبوا تركيبا آخر، ورزقوا قوى ثابتة باقية، وأتم أنوار أبصارهم وقلوبهم قَوَوْا بها على الرؤية.

قال القاضى عياض : «وقد رأيت نحو هذا لمالك بن أنس، قال : لم يُر الله فى الدنيا لأنه باق ولا يرى الباقى بالفانى، فإذا كان فى الآخرة، ورزقوا أبصارًا باقية، رئى الباقى بالباقى».

وهذا كلام حسن مليح، وليس فيه دليل على الاستحالة إلا من حيث ضَعْف القدرة، فإذا قوَّى الله تعالى من شاء من عباده، وأقدرهم على حمل أعباء الرؤية، لم تمتنع فى حقه، وقد أفاضت الكتب فيما ذكر عن قوة بصر موسى ومحمد، صلى

(١) الشفا ١/١٩٩.

الله عليهما وسلم، ونفوذ إدراكهما بقوة إلهية منحاها لإدراك ما أدركاه، ورؤية ما رأياه.

وإذا كان القاضى عياض قد قطع بأن ليس هناك ما يحيل رؤية الرسول - ﷺ - لربه فى الدنيا، وليس فى الشرع دليل قاطع على استحالتها ولا إمتناعها.

فإن القول بأنه - ﷺ - قد رأى ربه بعينه، ليس فيه قاطع أيضا، ولا نَصٍّ.. إذ المعوّل فيه على آيتى النجم، والتنازع فيهما مأثور، والاحتمال لهما ممكن، ولا أثر قاطع متواتر، عن النبى - ﷺ - بذلك، وحديث ابن عباس خبر عن اعتقاده، لم يسنده إلى النبى - ﷺ، فيجب العمل باعتقاد مُضَمَّنه.

ومثله حديث أبى ذرّ، مختلف محتمل مُشكل، فروى «نُورٌ أَنَّى أَرَاه».

وفى رواية أخرى: «نُورَانِىّ أَرَاه».

وفى حديثه الآخر: سألته فقال: «رأيت نُورا».

وليس يمكن الاحتجاج بواحد منها على صحة الرؤية، فإن كان الصحيح «رأيت نُورًا»، فهو قد أخبر أنه لم ير الله تعالى، وإنما رأ ى نورًا منعه وحجبه عن رؤية الله تعالى. وإلى هذا يرجع «نُورٌ أَنَّى أراه»، أى كيف أراه مع حجاب النور المغشى للبصر.

٦

ويرتبط بقضية الرؤية قضيتان هامتان وهما: «هل دنا محمد من ربه»؟

«وهل كلم محمد ربه مباشرة»؟

هاتان القضيتان كانتا محل دراسة القاضى عياض فى سيرة المصطفى وأفرد لهما فصلين مستقلين[1].

---

(١) الشفا ٢٠٢/١.

أما عن قضية الدنو، فقد استشهد بالآية الكريمة ﴿ثُمَّ دَنَا فتدلى، فكَانَ قَابَ قَوْسين أو أدنى﴾ وماجاء فى تفسيرهما عن الصحابة والتابعين.

* قال ابن عباس: «هو محمد دنا فتدلى من ربه».

وقال أيضا: هو مقدم ومؤخر، تدلى الرفرف لمحمد - ﷺ - ليلة المعراج فجلس عليه، ثم رُفع فَدَنا من ربه، بدليل قوله ﷺ.

«فارقنى جبريل، وانقطعت عنى الأصوات، وسمعت كلام ربى عز وجل».

وقال الحسن: دنا من عبده محمد - ﷺ - فتدلى، فقرب منه فأراه ما شاء أن يريه من قدرته وعظمته.

وقال جعفر بن محمد: أدناه ربه منه حتى كان منه كقاب قوسين، والدنو من الله لاَ حَدَّ له، ومن العباد بالحدود».

وقال أيضا: انقطعت الكيفية عن الدنو، ألا ترى كيف حجب جبريل عن الدنو، ودنا محمد إلى ما أودع قلبه من المعرفة والإيمان، فتدلى بسكون قلبه إلى ما أدناه، وزال عن قلبه الشك والارتياب.

بيد أن أكثر المفسرين، ومنهم ابن كثير، يرى أن الدنو والتدلى منقسم ما بين محمد وجبريل، أو مختص بأحدهما من الآخر، أو من السدرة المنتهى.

على أن الدنو والقرب، فى مفهوم القاضى عياض له معنى آخر»[(١)].

قال: «اعلم أن ما وقع من إضافة الدنو والقرب هنا من الله أو إلى الله، فليس بدنو مكان ولا قرب مدى، بل ليس بدنُوّ حدّ، وإنما دنو النبى - ﷺ - من ربه، وقربه منه إبانة عظيم منزلته، وتشريف رتبته، وإشراق أنوار معرفته، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته.

ومن الله - تعالى - له مبرة، وتأنيس وبسط وإكرام، ويتأول فيه ما يتأول فى قوله: «ينزل ربُّنَا إلى سماء الدنيا» على أحد الوجوه، نزول إفضال وإجمال، وقبول وإحسان».

(١) الشفا ٢٠٥/١.

ويضيف الواسطى: إن الدنو عبارة عن نهاية القرب، ولطف المحل، وإيضاح المعرفة والإشراف على الحقيقة من محمد - ﷺ، وعبارة عن إجابة لرغبة، وقضاء المطالب، وإظهار التحفى، وإنافة المنزلة والمرتبة من الله له، ويتأول فيه ما يتأول فى قوله:

«من تقرَّبَ منى شِبْرا، تقربتُ منه ذِرَاعًا، ومَنْ أَتَانى يمشى أتيتُه هرولة» قُرْبٌ بالإجابة. والقبول، وإتيان بالإحسان وتعجيلِ المأمول.

٧

وفى فصل لاحق، من السيرة العطرة - ربط القاضى عياض قضية الدنوّ والقرب من الله، بقضية أخرى تتصل بها اتصالا وثيقا، وهى: **مناجاته - صلى الله عليه وسلم لله، وكلامه معه.**

يقول: «وأما ما ورد فى هذه القصة من مناجاته لله تعالى، وكلامه معه، بقوله تعالى: ﴿فأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ ما أَوْحَى﴾ إلى ما تضمنته الأحاديث، فأكثر المفسرين على أن الموحى هو الله - عز وجل، إلى جبريل، وجبريل إلى محمد - ﷺ، إلا قليلا منهم.

وذهب بعض المتكلمين إلى أن محمدًا كلمه ربه فى المعراج، وأيد قولهم ابن مسعود وابن عباس، وحكى عن الأشعرى.

* وقال جعفر بن محمد: أوحى إليه بلا واسطة.

وذكر النقاش - عن ابن عباس - عن الرسول ﷺ - فى قوله تعالى: ﴿دَنَا فَتَدَلَّى﴾ قال: فارقنى جبريل، فانقطعتِ الأصوات عنى، فمسعت كلام ربى، وهو يقول: «لِيَهْدأ رَوْعُك يامحمد، أُدْنُ.. أُدْنُ».

وذكر البزّار عن علىّ، ما هو أوضح فى سماع النبى - ﷺ - لكلام ربّه. فذكر فيه: «فقال المَلَك: الله أكبر، الله أكبر - وهو الأذان، فسمع محمد - ﷺ - من

---

(١) الشفا ٢٠٥/١.

وراء الحجاب: صَدَق عبدى أنا أكبر.. أنا أكبر، وقال فى سائر كلمات الأذان مثل ذلك.

ويرد القاضي عياض على المحتجين بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا، أَوْمِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، أَوْيُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ فيقول:

«إن كلام الله - تعالى - لمحمد - ﷺ - ومن اختصه من أنبيائه جائز غير ممتنع عقلا، ولا ورد فى الشرع قاطع يمنعه، فإن صح فى ذلك خبر، اعتُمِد عليه».

«وكلام الله لموسى كائن، حقٌّ، مقطوعٌ به، نص على ذلك فى الكتاب، وأكدّه المصدر دلالة على الحقيقة، ورفع مكانه على ما ورد فى الحديث، فى السماء السابعة، بسبب كلامه».

«ورفع محمد فوق هذا كله، حتى بلغ مستوى، وسمع صَرِيف الأقلام فكيف يستحيل فى حقٍّ هذا أو يَبْعُد سماعُ الكلام؟ فسبحان من خص من شاء بما شاء، وجعل بعضهم فوق بعض درجات.

٨

وفى فصل قال، عرض القاضى عياض لخصيصة هامة من خصائص المصطفى - ﷺ - وهى تفضيله فى القيامة وإبراز كرامته[١].

وقد استند القاضى عياض فى هذا الموضوع على ما أُثِر عن رسول الله - ﷺ -من أقوال حملها الصحابة والتابعون.

من مثل قوله - ﷺ - فيما رواه عنه أنس:

«أنا أوّل الناس خروجًا إذا بُعِثوا، وأنا خطيبهم إذَا وفدوا، وأنا مبِّشرهم إذا أَيِسُوا، لواءُ الحمد بيدى، وأنا أكرمُ وَلَد آدم على ربى ولا فخر».

وفى رواية أخرى:

«أنا أول الناس خروجًا إذا بُعثوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا

(١) الشفا ٢٠٦/١.

أَنْصَتُوا، وأنا شفيعهم إذا حُبسوا، وأنا مبشّرهم إذا أُبلسوا، لواء الكرم بيدى، وأنا أكرم وَلَدِ آدم على ربى ولا فخر، ويطوف علىَّ ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون.. وأُكْسَى حُلّة من حُلَلِ الجنة، ثم أقوم عن يمين العرش، ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيرى».

وروى ابن عباس - رضى الله عنهما - أن الرسول ﷺ - قال:

أَنَا حامُل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أوّل شافع، وأول مشفّع ولا فخر، وأنا أول من يُحَرّك حَلَق الجنة فيفتح لى فأدخلها، فيدخلها معى فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر».

وروى أنس - رضى الله عنه، قال: قال النبى ﷺ: «أنا سيّد الناس يوم القيامة، وتدرون لِمَ ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين».. وذكر حديث الشفاعة.

ويعلق القاضى عياض على هذه الأحاديث بقوله:[1]

«قوله ﷺ: أنا سيد الناس يوم القيامة، هو سيدهم فى الدنيا ويوم القيامة، ولكن أشار - ﷺ - لانفراده فيه بالسؤدد والشفاعة دون غيره، إذْ لجأ الناس إليه فى ذلك فلم يجدوا سواه، والسيد هوالذى يلجأ الناسُ إليه فى حوائجهم، فكان حينئذ سيدًا منفردا من بين البشر، لم يزاحمه أحد فى ذلك، ولا إدعاه، كما قال الله تعالى:

﴿لِمَنْ المُلْك اليوم لله الواحِدِ القهار﴾ والملك له تعالى فى الدنيا والآخرة، لكن فى الآخرة انقطعت دَعْوىَ المدعين لذلك فى الدنيا».

«وكذلك لجأ إلى محمد - ﷺ - جميع الناس فى الشفاعة، فكان سيدهم فى الأخرى دون دعوى»

* ومن كمال سيادته - ﷺ - أنه يأتى باب الجنة يوم القيامة فيستفتح فيقول خازن الجنان: من أنت؟ فيقول: محمد، فيقول: بك أُمرت أن لا أفتح لأحد قبلك؟

---

(١) الشفا ٢٠٨/١.

* ويفخر النبى المصطفى - ﷺ - بما خصه الله به فى الجنة، فيقول - فيما رواه عنه ابن عمر: «حَوْضى مسيرة شهر وزواياه سواءٌ، وماؤه أبيض من الورق، وريحه أطيب من المسك، كيزانه كنجوم السماء، من شرب منه لم يظمأ أبدًا».

٩

ويرتبط بموضوع التفضيل والكرامة - موضوع آخر، وهو تفضيله بالمَحبّة والخُلّة فهو - ﷺ - قد اختص بكونه حبيب الله ومصطفاه، وسالت هذه العبارة على ألسنة المسلمين فى كل عصر ومصر.

وقد جمع القاضى عياض مادة هذا الموضوع -كعادته - مما جاء بذلك من الآثار الصحيحة. من مثل قول ابن عباس - رضى الله عنهما:

«جلس ناس من أصحاب النبى - ﷺ. ينتظرونه، فخرج - ﷺ - حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون، فسمع حديثهم، فقال بعضهم: عجبا إن الله اتخذ إبراهيم من خَلْقه خليلا، وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى، كلمه الله تكليمًا. وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه، وقال آخر: آدم اصطفاه الله.. فخرج عليهم فسلّم وقال:

«سمعتُ كلامكم وعجبكم، إن الله تعالى اتخذ ابراهيم خليلا، وهو كذلك وموس نَجيُّ الله، وهو كذلك، وعيسى روح الله وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك.. ألَا وأنَا حبيبُ الله ولا فخر، وأنا حاملُ لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفّع ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لى، فيُدْخِلُنِيها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر».

ومثله قوله - ﷺ - لأصحابه، فيما ذكره ابن مسعود: «اتَّخَذَ اللهُ صَاحِبَكُم خَلِيلاً».

* وقد قال الحق سبحانه لنبيه، فى قصة الإسراء: «إنى اتخذتك خليلا فهو مكتوب فى التوراة».

* ولا يترك القاضى عياض هذا الموضوع حتى يوضحه، فأخذ يفسر معنى الخُلّة، واشتقاقها، ويجمع إلى آرائه آراء العلماء والمفسرين، حتى يشبع موضوعه توضيحا وتحليلا، يقول:[1]

«اختلف فى تفسير الخُلّة وأصل اشتقاقها، فقيل: الخليل المنقطع إلى الله، الذى ليس فى انقطاعه إليه، ومحبته له اختلال، وقيل: الخليل المختص، وقال بعضهم: أصل الخُلّة الاستصفاء، وسمى خليل الله، لأنه يُوالى فيه، ويُعادى فيه.

وخُلة الله له: نَصْره وجعله إماما لمن بعده، وقيل: الخليل أصله الفقير المحتاج المنقطع، مأخوذ من الخَلّة وهى الحاجة، فسمى بها ابراهيم لأنه قصر حاجته على ربّه، وانقطع إليه بهمّه، ولم يجعله قِبَلَ غيره، إذ جاءه جبريل وهو فى المنجنيق ليُرمَى به فى النار، فقال: ألك حاجةٌ؟ قال: أمّا إليك فلا».

«وأصل الخُلة: المحبة، ومعناها الإسعاف والإلطاف، والتّرفيع والتشفيع، وقد بَيَّن ذلك فى كتابه تعالى، بقوله: ﴿وقَالَت اليَهُودُ والنَّصارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وأَحِبَّاؤُه، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بذُنُوبِكُم﴾ فأوجب للمحبوب أن لا يؤاخذ بذنوبه».

* قال القاضى عياض: هذا والخُلّة أقوى من البُنُوَّة، لأن البُنُوَّة قد تكون فيها العداوة، كما قال تعالى: ﴿إنَّ مِنْ أَزْوَاجِكم وأَوْلَادِكُم عَدُوًّا لَكُمْ فاحْذَرُوهم﴾ الآية.

«ولا يصح أن تكون عداوة مع خُلّة، فإذا تسمية ابراهيم ومحمد، عليهما السلام - بالخُلّة إما بانقطاعهما إلى الله، ووقف حوائجهما عليه، والانقطاع عَمَّن دونه، والاضراب عن الوسائط والأسباب، أو لزيادة الاختصاص منه تعالى لهما، وخفىّ ألطافه عندهما، وما خالل بواطنهما من أسرار إلهيته، ومكنون غيوبه ومعرفته، أو لاستصفائه لهما، واستصفاء قلوبهما عمن سواه، حتى لم يُخَالِلْهُما حبٌّ لغيره».

---

(١) الشفا ٢١٢/١.

* وينقل القاضى رأى العلماء فى الفَرْق بين درجة الخُلّة ودرجة المحبة، فيقول:

«واختلف العلماءُ أربابُ القلوب أيهما أرفع: درجة الخُلّة أو درجة المحبة؟ فجعلها بعضهم سواء، فلا يكون الحبيب إلا خليلا، ولا الخليل إلا حبيبا..

وبعضهم قال: درجة الخُلّة أرفع، واحتج بقوله - ﷺ - «لو كنت متخذًا خليلًا غيرُ رَبى عز وجل - فلم يَتخِذْه. وقد أطلق المحبة لفاطمة وابنيها وأسامة وغيرهم.

وأكثرهم جعل المحبة أرفع من الخُلّة، لأن درجة الحبيب نبينا أرفع من درجة الخليل ابراهيم. وأصل المحبة المَيْل إلى ما يوافق المحب، ولكن هذا فى حق من يصحّ الميلُ منه، والانتفاع بالوفق وهى درجة المخلوق.

«فأما الخالق فمنزّه عن الأعراض، فمحبته لعبده، وتمكينه من سعادته، وعصمته وتوفيقه، وتهيئة أسباب القُرب وإفاضة رحمته عليه، وقصواها كشف الحُجُب عن قلبه حتى يراه بقلبه، وينظر إليه ببصيرته، فيكون كما قال فى الحديث:

«فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمعُ به، وبصره الذى يبصر به، ولسانه الذى ينطق به»

ويقول عياض:

«ولا ينبغى أن يُفْهم من هذا سوى التجرد لله، والانقطاع إلى الله، والإعراض عن غير الله، وصفاء القلب لله، واخلاص الحركات لله.

١٠

ويتصل بما سبق موضوع آخر اختص الحق تبارك وتعالى به نبيّه المصطفى - ﷺ - وفضله به على سائر الأنبياء والمرسلين وهو موضوع الشفاعة، والمقام المحمود[1].

---

(١) الشفا ٢١٦/١.

وقد احتفل به القاضى عياض احتفالا كبيرا وحشد فيه كل ما ورد عن الرسول - ﷺ وعن صحابته من روايات تتصل بموقفه من أمته يوم القيامة.. يوم الحشر العظيم.

من مثل قول ابن عمر:

«إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثًى، كل أمة تتبع نبيّها، يقولون يافلان اشفع لنا، يافلان اشفع لنا، حتى تنتهى الشفاعة إلى النبى - ﷺ - فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود.. كما قال الله تعالى:

﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ قال أبو هريرة: هى الشفاعة.

* يقول النبى - ﷺ - عما يحدث فى ذلك اليوم..

«يُحْشَر الناس يوم القيامة، فأكون أنا وأمّتى على تل، ويكسونى ربى حُلَّةً خَضْراء، ثم يُؤْذن لى فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود».

ويروى حذيفة: «يجمع الله الناس فى صعيد واحد، حيثُ يُسمِعُهُم الدَّاعى، ويَنْفُذُهم البَصَرُ، حفاة عُراة، كما خُلِقُوا سُكوتًا لا تَكَلَّمُ نفسٌ إلا بإذنِهِ، فينادَى محمد، فيقول: لَبَّيْكَ وسَعْدَيك والخيرُ فى يديك، والشر ليس إليك، والمهتدى مَنْ هَدَيْت، وعَبْدُك بَيْنَ يَدَيْك، ولك وإليك، لا ملجأ ولا مَنْجَا منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانَكَ ربَّ البيت» قال: **فذلك المقام المحمود الذى ذكر الله.**

* وينقل لنا القاضى عياض عن رسول - ﷺ - مشاهد هذا اليوم العظيم:

«يجمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة فيهتمون، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربِّنا.. ويموج الناسُ بعضهم فى بعض، وتدنو الشمسُ فيبلغ الناس من الغمِّ ما لا يطيقون، ولا يحتملون، فيقولون ألا تنظرون من يشفع لكم، فيأتون آدم، فيقولون: أنت آدم أبو البشر، خَلَقَك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، وعلَّمك أسماء كل شىء، اشفعْ لنا عند ربك، حتى يُرِيحنا من مكاننا، ألا ترى ما نحن فيه؟

فيقول: إن ربِّي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثلَه، ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصَيْت، نَفْسِي نَفْسِي، اذهبوا إلى غيري، إذهبوا إلى نوح.

* فيأتون نوحا، فيقولون أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبدًا شكورًا، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما بلغنا، ألا تشفع لنا إلى ربك، فيقول: إن رَبِّي غَضِبَ اليوم غضبًا لم يغضبْ قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، نَفْسِي نَفْسِي، ويذكر خطيئته التي أصاب سؤالَه ربَّه بغير علم.. اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم.

* فيأتون إبراهيم، فيقولن: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحنُ فيه، فيقول: إنّ ربي قد غضب اليوم غضبا، فذكر مثلَه، ويذكر ثلاث كلمات كذَبَهُن، ويقول: نَفْسي نَفْسي، لست لها، ولكن عليكم بموسى، فإنه كليم الله.

* فيأتون موسى، فيقول: لست لها، ويذكر خطيئَتَه التي أصاب وقَتْلَهُ النَّفْس.. نفسي نفسي ولكني عليكم بعيسى، فإنه روح الله وكلمته.

* فيأتون عيسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد، عَبْدٍ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فَأُوْتى، فأقول: «أنا لها، فأنطلق فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا رأيته وقعت ساجدًا، فأقوم بين يديه، فأحمده بمحامد لا أقدر عليها إلا أنه يُلْهِمْنيها الله، فيفتح الله عليَّ من محامده، وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحدٍ قبلي، فيقال: يامحمد.. إرفع رأسك، سَلْ تُعْطَه، واشْفَعْ تُشَفَّع، فأرفع رأسي فأقول: يارب أمّتي، يارب أمتي، فيقول: أُدْخِل من أمّتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد»(١).

وبعد أن يعرض القاضي عياض عشرات المرويات والآثار، على اختلاف رواياتها وألفاظها يجد أن الأمر يحتاج إلى نوع من التوفيق والربط بينها، لذلك يقول:

---

(١) الشفا ٢٢١/١.

«فقد اجتمع من اختلاف ألفاظ هذه الآثار، أن شفاعته - ﷺ، ومقامه المحمود من أول الشفاعات إلى آخرها، من حين يجتمع الناس للحشر، وتضيق بهم الحاجز، ويبلغ منهم العرق والشمس والوقوف مبلغه، وذلك قبل الحساب، فيشفع حينئذ لإراحة الناس من الموقف، ثم يوضع الصراط، ويحاسب الناس، كما جاء فى الحديث عن أبى هريرة وحذيفة وهذا الحديث أتقن، فيَشْفَع فى تعجيل من لا حساب عليه من أمته إلى الجنة.. ثم يشفع فيمن وجب عليه العذاب ودخل النار منهم.. ثم فيمن قال: لا إله إلا الله.

وليس هذا لسواه - ﷺ، وفى الحديث المنتشر الصحيح:

«لكل نبىّ دعوةٌ يدعو بها، واختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة»

ثم ينقل رأى أهل العلم فى هذا الحديث، فيقول:[1]

«قال أهل العلم معناه: دعوة أُعْلِمَ أنها تستجاب لهم، ويُبْلَغ فيها مرغوبهم، وإلا فكَمْ لكل نبى منهم من دعوة مستجابة، ولنبينا - ﷺ - منها ما لا يُعدّ، لِكنْ حالهم عند الدعاء بها بين الرجاء والخوف، وضُمنت لهم إجابة دعوة فيما شاؤُه، يدعون بها على يقين من الإجابة».

يقول القاضى عياض معلقا على هذا الرأى:

«فتكون هذه الدعوة المذكورة مخصوصة بالأمة، مضمونة الإجابة، وإلا فقد أخبر - ﷺ - أنه سأل لأمته أشياء من أمور الدين والدنيا، أُعطى بعضها، ومَنِعَ بعضها، وادخر لهم هذه الدعوة ليوم الفاقة، وخاتمة المحن، وعظيم السؤال والرغبة، جزاه الله أحسن ما جزى نبيًّا عن أمته»

١١

بعد أن تناول القاضى عياض، تفضيل الحق سبحانه لنبيه المصطفى بالشفاعة والمقام المحمود، رأى أن يفرد فصلا لكى يتحدث عن تفضيل الله له فى الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة[2].

---

(١) الشفا ١/٢٢٣ (٢) الشفا ١/٢٢٤

وهذا الفصل يعد متمما لما قبله، لأنه يتعلق بأمور الآخرة، منذ القيامة، والبعث والنشور، والحساب، والثواب والعقاب. إلى أن يدخل الرسول - ﷺ - وأمته الجنة، بعد أن يتشفع للمذنبين عند ربه.

* فأما الوسيلة، فقد روى أبو هريرة «أنها أعلى درجة فى الجنة».

ويقول المصطفى - ﷺ - فيما رواه عنه عبدالله بن عمرو بن العاص:

«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علىّ، فإنه من صلًى على مرة، صلى الله عليه عشرًا، ثم سَلُوا الله لى الوسيلة، فإنها منزلة فى الجنة، لا تنبغى إلّا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لى الوسيلة حلّت عليه الشفاعة.

* وأما الكوثر، فهو كما ذكر النبى المصطفى - ﷺ. نهر من الجنة يسيل من حوضه.. وصفه رسول الله - ﷺ - بقوله:

«بَيْنا أنا أسير فى الجنة إذ عَرَضَ لى نَهْرٌ حافاَه قِبَابُ اللؤلؤ، قلت لجبريل، ما هذا؟ قال: هذا الكوثر الذى أعطاكه الله، ثم ضرب بيده إلى طينته فاستخرج مسكا.. مجراه على الدُّرّ والياقوت، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج، وإذا هو يجرى ولم يُشق شَقًا، عليه حوض تَرِدُ عليه أمتى»

قال سعيد بن جبير: والنهر الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله.

١٢

وبعد أن تحدث القاضى عياض، عن تفضيل الله - سبحانه وتعالى - لرسوله المصطفى - ﷺ، وهو ما ذكره فى الفصول السابقة..

طرح الرجل قضية هامة، مؤداها، أنه إذا كان الحق تبارك وتعالى قد فضّل نبيّه وكرمه، وخصّه بأمور لم يخصّ بها غيره من الأنبياء والمرسلين، مما يدل على كونه أكرم البشر، وأفضل الأنبياء والمرسلين، وعرف هو - ﷺ - قدر نفسه ومكانته وكرامته.. وهذا ما جاء فى الذكر الحكيم والسنة المطهرة...

فما معنى الأحاديث الواردة بنهيه عن التفضيل[1]؟

١ - كقوله - ﷺ - فيما رواه ابن عباس عنه: «ما ينبغى لعبد أن يقولَ أنا خيرٌ من يُونُسَ بن مَتّى»

٢ - وقوله - ﷺ - «من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب»

٣ - وقوله - ﷺ - فيما رواه أبو هريرة عنه: «لا تخيرونى على موسى» الحديث.

يقول القاضى عياض موضحا الأمر:

«فاعلم أن للعلماء فى هذه الأحاديث تأويلات:

* أحدها: أن نهيه عن التفضيل كان قبل أن يعلم أنه سيد وَلَد آدم، فنهى عن التفضيل، إذ يحتاج إلى توقيف، وأن مَنْ فَضَّل بلا علم فقد كذب، وكذلك قوله: «لا أقول إنّ أحدا أفضل منه، لا يقتضى تفضيله هو، وإنما هو فى الظاهر كيف عن التفضيل.

* الوجه الثانى: أنه قاله - ﷺ - على طريق التواضع، ونَفْىِ التكبُّر والعُجْب، وهذا لايَسْلَم من الإعتراض.

* الوجه الثالث: ألا يُفَضَّل بينهم تفضيلا يؤدى إلى تنقُّص بعضهم، أو الغَضّ منه لاسيما فى جهة يونس - عليه السلام - إذْ أخبر الله عنه بما أخبر لِئَلاَّ يقع فى نفس من لا يعلم منه بذلك غضاضة وانحطاط من رتبته الرفيعة، إذ قال تعالى عنه: ﴿إذْ أَبَقَ إلى الفُلْكِ المشحون. إذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فظَنَّ أَنَّ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْه﴾ فربما يُخَيّل لمن لا علم عنده خَطِيئَتُه بذلك.

* الوجه الرابع: منع التفضيل فى حقِّ النبوة والرسالة، فإن الأنبياء فيها على حدٍّ واحد، إذ هى شىء واحد لا يتفاضل، وإنما التفاضل فى زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والرتب والألطاف.

---

(١) الشفا ٢٢٥/١

وأما النبوّة فى نفسها، فلا تتفاضل، وإنما التفاضل بأمور أُخَر زائدة عليها، ولذلك منهم رُسُل ومنهم أولو عزم من الرسل، ومنهم من رُفع مكانا عليا، ومنهم من أُوتى الحكم صبيا. وأوتى بعضهم الزبور، وبعضهم البيّنات، ومنهم من كلّم الله، ورفع بعضهم درجات،

قال الله تعالى: ﴿ولَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبيين عَلَى بَعْض﴾ الآية.

وقال سبحانه: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بعضَهُمْ علَىَ بَعْض﴾ الآية.

* ويستشهد القاضى عياض بأقوال العلماء فى هذه القضية، فيقول «قال بعض أهل العلم: والتفضيل المرادُ لهم هنا فى الدنيا، وذلك بثلاثة أحوال:

- أن تكون آيتُهُ ومعجزاته أبهر وأشهر.
- أو تكون أمته أزكى وأكثر.
- أو يكون فى ذاته أفضل وأظهر، وفضله فى ذاته راجع إلى ما خصّه الله به من كرامته واختصاصه من كلام، أو خُلّة، أو رؤية، أو ما شاء الله من ألطافه، وتُحَفِ ولايته واختصاصه. وقد روى أن النبى - ﷺ - قال: «إن للنبوة أثقالا»، وإن يُونُسَ تَفَسّخ منها تفسُّخ الرُّبَع، فحفظ - ﷺ - موضع الفتنة من أوهام من يسبق إليه بسببها جَرْح فى نبوته، أو قَدْحٌ فى اصطفائه، وحَطٌّ فى رتبته، ووَهْن فى عصمته، شفقة منه - ﷺ - على أمته»

ثم يضيف القاضى عياض وجها خامسا لما سبق[1]، «وهو أن يكون (أنا) راجعا إلى القائل نفسه، أى لا يظن أحدٌ وإنْ بلغ من الذكاء والعصمة والطهارة ما بلغ أنه خيرٌ من يونس، لأجل ما حكى الله عنه، فإن درجة النبوة أفضل وأعلى، وإنَّ تلك الأقدار لم تُحُطَّهُ عنها حَبّة خَرْدَل ولا أدنى».

١٣

وقد احتفل القاضى عياض - فى سيرة المصطفى، بأسمائه - ﷺ - احتفالا

---

(١) الشفا ٢٢٨/١

كبيرا، وأفرد لهذه الاسماء وما تضمنته من فضيلتـه فصلا خـاصا[١] تحـدث فيه عنها، وعن معاينها، وعن اشتقاقها..

وكان من الطبيعى أن يعتمد فى هذا الموضع على ما جاء فى الذكـر الحكيم من إشـارات إلى أسمائـه وصفاتـه كما يستنـد إلى ما جـاء فى السنة المـطهرة من أحاديث.

* فأما ما جاء فى القرآن العظيم فقد« سمّاه الله سبحانه محمدًا وأحمد فمن خصـائصه تعـالى له، أن ضَمّن أسـماءه ثناءه، فـطوى أثناء ذِكْـرِهِ عـظيمَ شكره.

فأما اسمه أحمد، فأفْعَل مبالغةً من صفة الحمد، ومحمّدٌ مفعّل مبالغة من كـثرة الحمد، فهو – ﷺ – أجل مَنْ حَمِد، وأفضل من حُمِد، وأكـثر الناس حمـدًا، فهو أحمدُ المحمودين، وأحمد الحامدين، ومعه لـواء الحمد يـوم القيامـة، ليتم له كـمال الحمـد، ويتشَهّر فى تلك العـرصات بصفـة الحمد، ويبعثـه ربه هنـاك مقـامـا محمودًا، كما وعده، يحْمَده فيه الأوّلون والآخرون بشفاعتـه لهم، ويفتح عليـه فيه من المحـامد كـما قال – ﷺ، مـا لَمْ يُعط غـيره. وسمّى أمتـه فى كتب أنبيـائـه بالحمّادين، فحقيق أن يسمى محمدًا وأحمد».

يقول القاضى عياض:

«ثم فى هذين الإسمين من عجائب خصائصه، وبدائع آياته.. أمر آخر: هو أن الله – جل اسمه – حَمَى أن يُسمى بهما أحد قبل زمانه.

* فـأما أحمـد، الذى أتى فى الكتب، وبشّـرت به الأنبيـاء، فمنـع الله تعـالى بحكمته أن يُسمّى به أحد غيره، ولا يُدعى به مـدعّو قبله، حتى لا يـدخُلَ لبسٌ على ضعيف القلب أَوْ شَكٌّ.

* وكذلك محمد أيضا، لم يسم به أحد من العـرب ولا غيرهم، إلى أن شـاع قبيل وجوده – ﷺ – وميلاده، أن نبيا يُبعث اسمـه محمد، فسمّى قـوم قليل من

---

(١) الشفا ١/٢٢٨

العـرب أبناءهم بـذلك، رجـاء أن يكون أحـدهم هـو - والله أعلم حيث يجعـل رسالته.

ثم حمى الله كل من تسمي به، أن يدَّعى النبوة، أو يدَّعيها أحـد له، أو يـظهر عليه سبب يشكك أحـدًا فى أمره، حتى تحققت السمتـان له - ﷺ - ولم ينـازع فيهما.

* أمّا ما جاء فى السنة المطهرة، فقد روى أنه -ﷺ- قال فى أحد أحاديثه :

«لى خمسة أسماء : أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذى يمحو الله بى الكفـر. وأنا الحاشر، الذى يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب».

«وأمـا قولـه - ﷺ (وأنا المـاحي) الـذى يمحـو الله بى الكفـر» ففسّـر فى الحديث، ويكون محو الكفر إما من مكة وبلاد العرب، وما زوى له من الأرض، وُوعد أنه يبلُغُه مُلْك أمته، أو يكون المحو عاما بمعنى الظهور والغلبـة، وقد ورد فى تفسيره : «أنه الذى محيت به سيئات من اتبعه»

* وقوله : (وأنا الحاشر)، الذى يُحشـر الناس عـلى قدمى، أى عـلى زمانى وعهـدى، أى ليس بعدى نبى، كـما قال : (وخَـاتَمَ النَّبِيِّـين)، وقيـل : معنى عـلى قدمى، أى يُحشر الناس بمشاهدتى.

وقيل : على قدمى أى قُدَّامى وحولى، أى يجتمعون إلى يوم القيامة.

* وقوله : (وأنا العاقب) وسمى عاقبا لأنه عَقَب غيره من الأنبياء.

وفى الصحيح : «أنا العاقب الذى ليس بعدى نبى»

ومعنى قوله : «لى خمسة أسماء» أنها موجودة فى الكتب المتقـدمة، وعنـد أولى العلم من الأمم السالفة.

وقـد روى عنه - ﷺ : «لى عشـرة أسماء، فـذكـر الخمسـة التى فى الحـديث الأول، قال : وأنا رسول الرحمة، ورسول الراحة، ورسول الملاحم، وأنا المقفّى، قَفّيت النبيين، وأنا قَيِّم، والقيم الجامع الكامل.

وروى النقاش عنه - ﷺ - «لى فى القرآن سبعة أسماء: محمدٌ، وأحمد، ويس، وطه، والمدّثر، والمزمّل، وعَبْدُالله».

يقول القاضى عياض:

«وقد وصفه الله تعالى بصفات جمة، منها قوله تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إلاَّ رَحْمَةً لِلعالَمِين﴾ كما وصفه بأنه يُزكّيهم ويُعَلّمهم الكتاب والحكمة، ويهديهم إلى صراط مستقيم، وبالمؤمنين رءوف رحيم. وقد قال فى صفة أمته، إنهاء أمة مرحومة، وقد قال تعالى فيهم ﴿وتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ وتواصَوا بِالْمَرْحَمَة﴾ أى يرحم بعضهم بعضا، فبعثه - ﷺ - ربُّه تعالى رحمة لأمّته، ورحمة للعالمين ورحيما بهم، ومترحما، ومستغفرا لهم».

* أما ألقابه -ﷺ- وسماته، فقد ورد منها فى القرآن عِدَةٌ كثيرة:

«كالنور، والسراج المنير، والمنذر، والنذير، والمبشر، والبشير، والشاهد والشهيد، والحق المبين، وخاتم النبين، والرؤوف الرحيم، والأمين، وقدم الصدق، ورحمة العالمين، ونعمة الله، والعروة الوثقى، والصراط المستقيم، والنجم الثاقب، والكريم، والنبى الأمى، وداعى الله - فى أوصاف كثيرة وسمات جليلة».

* ولم يكتف القاضى عياض بذكر أسماء الرسول الواردة فى القرآن والسنة، بل ضمّ إليها ما جاء فى كتب الله المتقدمة كالتوراة والزبور والانجيل[1] كتسميته بالمصطفى، والمجتبى، وأبى القاسم، والحبيب، والشفيع المشفع، والمتقى، والمصلح، والظاهر، والمهيمن، والصادق، والمصدوق، والهادى، والمتوكل، والمختار، ومقيم السنة، والمقدّس، وروح القدس، وروح الحق (وهو معنى البارقليط فى الانجيل)، وماذَ ماذَ، ومعناه طيب طيب، وحُمطايا، والخاتم، والحاتم، ومعناه أحسن الأنبياء خَلْقَا وخُلقا، ويسمى بالسريانية مُشَقَّح والمُنْحَمِنا، واسمه أيضا فى التوارة أُحْيِد»

(١) الشفا ٢٣٣/١

ويختم القاضى عياض هذا الفصل بقوله:

«وأسماؤه وألقابُه وأوصافُه وسماتُه فى الكتب كثيرة، وفيما ذكرناه منها مَقْنَع إن شاء الله».

ومن الطريف الذى يمكن أن نذكره الآن، أن القاضى عياض نسى أن يذكر كينته فيما سبق، فنراه يستدرك ذلك قائلا «وكانت كنيته المشهورة أبا القاسم».

١٤

وبعد إذْ انتهى القاضى عياض من ذكر أسمائه وصفاته وألقابه مما احتفل به القرآن والسنة المطهرة أفرد الرجل فصلا تاليا خصصه للحديث عن تشريف الله تعالى بما سماه به من أسمائه الحسنى، ووصفه به من صفاته العليا[1]

ويبدو أن القاضى عياض أحسّ بأن هذا الفصل كان يستحق أن يوضع فى الباب الأول من السيرة، لأنه متصل بتفضيل الله سبحانه وتعالى له، وتشريفه بخصائص وكرامات عدة، لذلك سمعناه يعتذر عن هذا الخطأ فى المنهج، ويقول:

«ما أحرى هذا الفصل بفصول الباب الأول، لانخراطه فى سلك مضمونها، وامتزاجه بعذب معينها. لكن لم يشرح الله الصدر للهداية إلى استنباطه، ولا أنار الفكر لاستخراج جوهره وإلتقاطه، إلا عند الخوض فى الفصل الذى قبله. (يقصد فصل أسمائه وما تضمنته من فضيلته) فرأينا أن نضيفه إليه، نجمع به شملنا».

بدأ القاضى عياض موضوعه بمقدمة، ذكر فيها ما خص الله به الأنبياء السابقين بكرامة خلعها عليهم من أسمائه، «كتسمية اسحاق واسماعيل بعليم وحليم، وابراهيم بحليم، ونوح بشكور، وعيسى ويحيى بِبَر، وموسى بكريم وقوى، ويوسف بحفيظ عليم، وأيوب بصابر، وإسماعيل بصادق الوعد، كما نطق بذلك الكتاب العزيز فى مواضع ذِكرِهم».

---

(١) الشفا ١/١٣٥.

ثم انتقل إلى الحديث عن فضل نبينا عليه الصلاة والسلام، وقال إن ربَّه تعالى قد حلّاه، فى كتابه العزيز، وعلى ألسنة أنبيائه بعدَّة كثيرة من الأسماء «جمعنا منها جملة، بعد إعمال الفكر، واحضار الذهن، وحررنا منها فى هذا الفصل نحو ثلاثين إسما، ولعل الله تعالى كما ألهم إلى ما علّم منها وحققه، يتم النعمة بإبانة ما لم يُظهره لنا الآن، ويفتح غَلَقَه»

بعد ذلك بدأ يتحدث عن بعض أسماء الله الحسنى، وتسمية النبى - ﷺ - بها لحكمة إلهية، وتقديرا لمكانته ومنزلته عند ربه.

يقول: فمن أسمائه تعالى: الحميد، ومعناه المحمود، لأنه حمد نفسه، وَحَمَده عباده، ويكون أيضا بمعنى الحامد لنفسه، ولأعمال الطاعات.

وسمى النبى - ﷺ - محمدًا وأحمد، فمحمد بمعنى محمود، وكذا وقع اسمه فى كتب داود، وأحمد بمعنى أكبر من حَمِد.

* ومن أسمائه تعالى: الرؤوف الرحيم، وهما بمعنى متقارب.
وسمى نبيه ﷺ - فى كتابه بذلك، فقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

* ومن أسمائه تعالى: الحق المبين، ومعنى الحق الموجود والمتحقّق أمره، ومعنى المبين -أى البيّن أمره وإلهيته، ويكون بمعنى المبيّن لعباده أمر دينهم ومعادهم.
وسمى النبى - ﷺ - بذلك - فى كتابه فقال: ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾.

* ومن أسمائه تعالى النور، ومعناه ذو النور، أى خالقه أو منوّر السموات والأرض بالأنوار. وسمى النبى - ﷺ - نورًا فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾، وقال أيضا: (وَسِرَاجًا مُنِيرا) سمى بذلك لوضوح أمره، وبيان نبوته، وتنوير قلوب المؤمنين، والعارفين بما جاء به.

* ومن أسمائه تعالى الشهيد، ومعناه العالم، وقيل: الشاهد على عباده يوم القيامة.

وسمى النبى - ﷺ - شهيدًا وشاهدًا، فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاك شَاهِدًا﴾ وقال: ﴿ويكُونَ الرَّسُولَ عَلَيكُم شهيدًا﴾ وهو بمعنى الأول.

* ومن أسمائه الهادى، وهو بمعنى توفيق الله لمن أراد من عباده، وبمعنى الدلالة والدعاء، قال الله تعالى: ﴿والله يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلام ويَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم﴾

وقيل فى تفسير (طه) إنه يا طاهر يا هادى، يعنى النبى - ﷺ، وقال تعالى له: ﴿إِنَّك لَتَهدِى إلى صِراطٍ مُسْتَقِيم﴾

ويظل يتتبع القاضى عياض أسماء الله الحسنى، ويحاول أن يبيّن أن الحق أطلقها عليه.

ولا يخفى ما فى هذا الفصل من التكلّف. ولا يخفى أن معظم هذه الأسماء إنما هى صفات أصلا، وليست أسماء، إنما الأسماء الحقيقية هى ما ذكرها المصطفى - ﷺ، فى حديثه السابق. «لى خمسة أسماء..» الحديث.

١٥

لقد وجد القاضى عياض نفسه، قد أطلق الكثير من صفات الله على رسول الله، ﷺ، وهذا الأمر قد يفهم منه التشبيه، تشبيه الخلق برب الخلق، لذلك عقد فصلا خاتما[1]، حاول فيه توضيح مقصوده الحقيقى، وأنه ما قصد إلى التعرض لأسماء وصفات الله، وإشراك الرسول فيها.

* يقول فى صدره، أنه سيذكر نكتة يذيّل بها الفصل السابق، ويختم بها هذا القسم، ويزيح الإشكال بها فيما تقدم، عن كل ضعيف الوهم، سقيم الفهم، تخلصه من مهاوى التشبيه، وتزحزحه عن شُبَه التمويه، وهو أن يعتقد أن الله تعالى - جل اسمه فى عظمته وكبريائه، وملكوته وحُسْنَى اسمائه، وعلى صفاته.. لا يُشبِه شيئا من مخلوقاته، ولا يُشَبَّه به، وأن ما جاء مما أطلقه الشرع على الخالق وعلى المخلوق، فلا تشابه بينهما فى المعنى الحقيقى»

---

(١) الشفا ٢٣٧/١ - ٢٤٢.

«إذ أن صفات الله العظيم تختلف عن صفات المخلوقين فكما أن ذاته تعالى لا تشبه ذوات المخلوقين، كذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين، إذ صفاتهم لا تنفك عن الأعراض والأغراض، وهو تعالى منزه عن ذلك. بل لم يَزَلْ بصفاته وأسمائه، وكفى فى هذا قوله ﴿ليسَ كِمْثْلِهِ شَىْء﴾

وهنا يجد المجال مفتوحا لكى يوضح مفهومه للتوحيد وخصائصه مستشهدا بأقوال العلماء والعارفين المحققين، فيقول:[1]

«التوحيد إثبات ذات غير مُشْبِهِةٍ للذوات، ولا مُعطَّلة عن الصفات».

وزاد هذه النكتة الواسطى - بيانا، وهى مقصودنا، فقال: ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ للفظ، وجّلت الذات القديمة، أن تكون لها صفة حديثة، كما استحال أن تكون للذات المحدثة صفة قديمة.

وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة رضى الله عنهم.

وقد فسر الامام القشيرى قول الواسطى هذا ليزيده بيانا، فقال:

«هذه الحكاية تشتمل على جوامع مسائل التوحيد، وكيف تشبه ذاتُهُ ذات المحدثات، وهى بوجودها مستغنية، وكيف يُشبه فِعله الخلق، وهو لغير جَلْب أُنْسٍ أو دفع نقص حصل، ولا بخواطر وأغراض وُجِد، ولا بمباشرة ومعالجة ظهر، وفعل الخَلْق لا يخرج عن هذه الوجوه.

---

(١) الشفا ٢٤٣/١.

الفصل الرابع

معجزاته - صلى الله عليه وسلم

ما أظهره الله تعالى على يديه من المعجزات

١

خصص القاضى عياض هذا الفصل للحديث عن معجزات الرسول - ﷺ - المعنوية والحسية[١] بيد أنه قبل أن يشرع فى الحديث عن هذه المعجزات، وجد نفسه ملزما أن ينوه على أن الإيمان بهذه المعجزات، لابد وأن يقترن بالقاعدة الإيمانية العريضة: «الإيمان بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرّه، وأن الإيمان برسل الله يتبعه حتما الإيمان برسالة الرسول، والإيمان بصدق نبوته، وما أظهره الله على يديه من المعجزات، وماشرفه به من الكرامات.

لذلك وجه القاضى عياض كلامه فى صدر هذا الفصل للمتأمل فيكتابه ليعرفه أنه لم يجمعه لمنكر لنبوة النبى المصطفى - ﷺ - ولا لطاعن فى معجزاته، لأن هذا الأمر يحتاج إلى نصب البراهين عليها، وإقامة الأدلة، وتحصين حوزتها حتى لا يتوصل المطاعِن إليها.

«بل ألَّفه» لأهل ملّته، الملبين لدعوته، المصدقين لنبوته، ليكون تأكيدًا فى محبتهم له، ومَنْمَاةً لأعمالهم، وليزدادوا إيمانا مع إيمانهم».

* ومفهوم كلام القاضى عياض، أنه جمع كل ما قيل عن معجزات الرسول - ﷺ - التى تدله على عظيم قدره عند ربه، وهذه العملية الحصرية فى مجملها، لا تحتاج إلى إقامة براهين، أو تقديم أدلة، لأن المؤمن الحق يعرف بوعى من دينه وبما جاء فى القرآن الكريم، والسنة المطهرة أنها حق، ولاتحتاج إلى جدال أومناقشة.

---

(١) الشفا ١/٢٤٦.

لذلك فهو يقول: «إن نيّتنا أن نثبت فى هذا الباب أمهات معجزاته، ومشاهير آياته لتدل على عظيم قدره عند ربه، وأتينا منها بالمحقق والصحيح الإسناد، وأكثره مما بلغ القطع أو كاد. وأضفنا إليها بعض ما وقع فى مشاهير كتب الأئمة».

ثم ينتقل القاضى عياض إلى نقطة هامة، وهى أنه يجعل الإيمان بصحة نبّوته طريق إلى الإيمان بالمعجزات والمؤيدات الالهية له. فنراه يبدأ بالدلائل الإيحائية الشكلية على صحة نبوته، بعد أن عُرف جميل أثره، وحميد سيرته، وبراعة علمه، ورجاحة عقله وجملة كماله وحلمه، وجميع خصاله.

* ومن مثل قول عبدالله بن سلام - لما قدم رسول الله -ﷺ- المدينة. «جئته لأنْظُر إليه، فلما استبنت وجهه، وعَرَفْتُ أن وجهه ليس بوجه كذاب».

* وروى مسلم: أن ضمادًا لما وَفدَ عليه، فقال له النبى - ﷺ، إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، مَنْ يهدِه الله فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِل فلا هَادِى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله.. قال له: أَعِدْ علىَّ كلماتك هؤلاء، فلقد بَلَغْنَ قاموس البحر، هَاتِ يَدَك أُبايعك»

* وفى خبر الجُلَنْدِىّ - ملك عُمَان - لما بلغه أن رسول الله - ﷺ - يدعوه إلى الإسلام، قال الجُلَنْدى: «والله لقد دلَّنى على هذا النبى الأمىّ أنه لا يأمر بخير إلا كان أوّل آخذ به، ولا ينهى عن شىء إلا كان أوّل تارك له، وأنه يغلب فلا يَبْطر، ويُغلب فلا يضجر، ويفى بالعهد وينجز الموعود، وأشهد أنه نبىٌّ»

وبعد أن تحدث القاضى عياض عن السِّمات الايحائية الشكلية، التى وضعها الله فيه، فجعل من يراه يحسّ بالهدوء والسكينة والوقار، ويشعر بالراحة النفسية، ويدرك أن مظهره يدل على نبوته، وإن لم يتلُ قرآنا، تلك المعانى التى عبر عنها ابن رواحة بقوله:

لَوْ لم تكُنْ فيهِ آياتٌ مُبيِّنَةٌ لكَانَ مَنْظَرُهُ يُنْبِيكَ بالخَبَرِ

وجد القاضى عياض أنه من المفيد أن يتحدث عن النبوة والرسالة والوحى،

كمقدمة للحديث عن المعجزة القرآنية، وما فيها من برهان صدّره بمقدمة عن المعرفة الالهية، والعلم الربانى.

٢

قال[١]: «إن المعرفة هبة من عند الله، يمحنها من يشاء ويمنعها عمّن يشاء.. فالله سبحانه قادر على خلق المعرفة فى قلوب عباده، وهو قادر على منحهم العلم بذاته وأسمائه وصفاته، كما حُكى عن سنته فى بعض الأنبياء.. فعلم الأنبياء من لدن الله، أودعه الله فى قلوبهم، وفق إرادته، لتحقيق أمرٍ ما هو يريده، وهو يعلمه».

إنه يريد أن يقول: إن العلم علم الله، والمعرفة هبة من الله، يمنحها لمن يشاء بإرادته، ووفق حكمته، وهذه المعرفة هى التى توصل الإنسان إلى إدراك المعارف التى شاءها الله، ومنها العلم بذاته وصفاته، وأسمائه، وجميع تكاليفه.

- وقد تكون هذه المعرفة دون واسطة، لو شاء الله. وهذا ما حكى عن سنته - جل شأنه - فى تعريف الأنبياء، وتوصيل العلم إليهم.
- وقد تكون بواسطة تبلغهم تعاليمه، وأوامره ونواهيه.

وتكون هذه الواسطة.. إما من غير البشر، كالملائكة مع الأنبياء. أو من جنسهم كالأنبياء مع أممهم.

وهنا يقول القاضى عياض: ولا مانع لهذا من دليل العقل.

وإذا جاز هذا ولم يستحل، وجاءت الرسل بما دلَّ على صدقهم من معجزاتهم، وجب تصديقهم فى جميع ما أتوْا به، لأن المعجز مع التحدى من النبى - صلى الله عليه وسلم - قائم مقام قول الله: «صدق عبدى فأطيعوه واتّبعوه، وشاهّد على صدقه فيما يقوله.

وهنا يقف القاضى عياض لكى يعرّف بالنبوة والرسالة، لغة وشرعا، كما يحدد الفرق بين النبى والرسول..

---

(١) الشفا ١/٢٤٩.

* فالنُّبُوءة - فى لغة من همز - مأخوذ من النبأ وهو الخبر.

* والنبئ - هو الذى أطلعه الله تعالى على غيبه، وأَسْلَمُهُ أنه نبيّه، فيكون نبى مُنَبَّأً، أو يكون مخبرا عما بعثه الله تعالى به، ومنبئًا بما أطلعه الله عليه.

* والنبى - عند من لم يهمزه، هو الذى يحمل رُتْبة شريفة، ومكانه نبيهة عند مولاه منيفة، فالوصفان فى حقه مؤتلفان.

* وأما الرسول، فهو المرسل، وإرساله أمرُ الله له بالإبلاغ إلى من أرسله إليه.

واختلف العلماء.. هل النبى والرسول بمعنى.. أو بمعنيين؟
فقال قوم: هما سواء، وأصله من الإنباء وهو الإعلام، واستدلوا بقوله تعالى:
﴿وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ولاَ نَبِيّ﴾ فقد أثبت لهما الإرسال معا.
قال: ولا يكون النبى إلاّ رسولاً، ولا الرسول إلاّ نبيًّا.

وقيل: هما مفترقان، من وجه إذْ قد اجتمعا فى النبوّة، التى هى الاطلاع على الغيب والإعلام بخواص النبوة، أو الرفعة لمعرفة ذلك وحوز درجتها.

* وافترقا فى زيادة الرسالة للرسول، وهو الأمر بالإنذار والإعلام.
وحجتهم من الآية نفسها التفريق بين الاسمين، ولو كانا شيئا واحدًا لما حَسُن تكرارهما فى الكلام البليغ.

وقد ذهب بعضهم إلى أن الرسول من جاء بشرع مبتدأ، ومن لم يأت به نبى غير رسول.

وكانت طبيعة الموضوع تفرض على القاضى عياض أن يحدد من هو أول رسول، وما عدد الرسل، والكيفية التى كان يتصل بها الحق بأنبيائه ورسله، لذلك وجدناه يقول:

«وأول الرسل آدم، وآخرهم محمد - ﷺ» وقد استند فى ذلك إلى حديث أبى ذر - رضى الله عنه - أن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبى، وذكر أن الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر»(١)

(١) الشفا ٢٥١/١ وفى مسند الإمام أحمد «ثلاثمائة وخمسة عشر» ١٧٨/٥، ٢٦٦.

٣

بعد ذلك يتهيأ القاضى عياض للحديث عن معجزات الرسول - ﷺ - فنراه يبدأ بتعريف المعجزة، فيقول: هى أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها.

والمعجزات من وجهة نظر القاضى عياض على ضربين:

(أ) ضرب هو من نوع قدرة البشر: فعجزوا عنه، فتعجيزهم عنه فعلٌ لله، دلّ على صدق نبيّه. وذلك كصرفهم عن تمنى الموت، وتعجيزهم عن الإتيان بمثل القرآن.

(ب) وضرب هو خارج عن قدرتهم، فلم يقدروا على الإتيان بمثله، كإحياء الموتى، وقلب العصا حيّة، وإخراج ناقة من صخرة، وكلام شجرة، ونبع الماء من الأصابع، وانشقاق القمر.. مما لا يمكن أن يفعله أحد إلا الله. فيكون ذلك على يد النبى، من فعل الله تعالى، وتحدّيه من يكذّبه أن يأتى بمثله تعجيز له.

* ثم ينتقل القاضى عياض للحديث عن المعجزات التى ظهرت على يد نبينا المصطفى - ﷺ - فيقول: إنها من هذين النوعين معا، نوع من قدرة البشر، ونوع فوق قدرة البشر.

فالرسول الكريم - ﷺ - أكثر الأنبياء والرسل معجزة، وأبهرهم آية، وأظهرهم برهانا، وهى فى كثرتها لا يحيط بها ضبط.

فالقرآن - وهو المعجزة المعنوية الكبرى للرسول الكريم - ﷺ - قد تحدى بسورة منه، قال أهل العلم - أقصر سورة وهى الكوثر، فعجزوا عنها، فكل آية، أو آيات منه بعددِها وقدرها معجزة.

ونراه يقسم معجزاته - ﷺ - إلى قسمين:

١ - قسم منها عُلِم قطعا، ونقل متواترا كالقرآن، فلا مرية ولا خوف بمجيء النبى به، وظهوره من قِبَله، واستدلاله بحجته، وإن أنكر هذا معاند

جاحد، فهو كإنكاره وجود محمد - ﷺ - فى الدنيا، وإنما جاء اعتراض الجاحدين فى الحجة به.

٢ - **والقسم الثانى.. ما لم يبلغ مبلغ القطع والضرورة، وهو على نوعين أيضا:**

(أ) نوع مشتهر منتشر، شاع الخبر به عند المحدثين والرواة، ونقلة السِّيَر والأخبار، **كنبع الماء من بين الأصابع، وتكثير الطعام.**

(ب) **ونوع منه اختص به الواحد والإثنان**، ورواه العدد اليسير، ولم يشتهر اشتهار غيره

ثم يقول القاضى عياض: «وأنا أقول صَدْعًا بالحق، إن كثيرا من هذه الآيات المأثورة عنه - ﷺ - **معلومة بالقطع..**

أما انشقاق القمر، فالقرآن نصّ بوقوعه، وأخبر عن وجوده.

وكذلك قصة نبع الماء وتكثير الطعام، رواها الثقات والعدد الكثير من الجمَّاء الغفير، عن العدد الكثير من الصحابة، وقد حدث ذلك فى موطن اجتماع الكثير منهم، فى يوم الخندق وفى غزوة بواط، وعمرة الحديبية، وغزوة تبوك. فهذا النوع كله يلحق **بالقطعى من معجزاته**[1].

وبعد أن يفند مزاعم الجاحدين المنكرين، ويفضح خطأهم ووهمهم، يثبت صدق هذه المعجزات، لنبينا المصطفى - ﷺ - بالأدلة القاطعة، ويقول:

«وأعلام نبينا - ﷺ - هذه الواردة من طريق الآحاد، لا تزداد مع مرور الزمان إلّا ظهورًا، ومع تداول الفِرق وكثرة طعن العدو، وحرصه على توهينها، وتضعيف أصلها، وإجهاد الملحد على إطفاء نورها إلا قُوة وقبولا، ولا للطاعن عليها إلا حسرة وغليلا.»

«وكذلك إخبارُه عن الغيوب، وإنباؤه بما يكون وكان، معلوم من آياته على الجملة بالضرورة، وهذا حق لا غطاء عليه، وقد قال به أئمتنا القاضى،

---

(١) الشفا ٢٥٥/١.

والأستاذ أبو بكر وغيرهما - رحمهم الله - وما عندى أوجب قول القائل: إن هذه القصص المشهورة من باب خبر الواحد إلا قِلَّةُ مطالعته للأخبار وروايتها، وشُغله بغير ذلك من المعارف، وإلاّ فمن اعتنى بطرق النقل، وطالع الأحاديث والسير، لم يَرْتَب فى صحة هذه القصص المشهورة على الوجه الذى ذكرناه.

٤

معجزة القرآن:

حدد القاضى عياض مفهومه للمعجزة، وعدّد معجزات الرسول - ﷺ، وأثبت صحتها بما لا يدع مجالا للشك.. ثم بدأ فى تناول هذه المعجزات، واحدة فواحدة، فبدأ بالمعجزة المعنوية الكبرى.. معجزة القرآن، وأخذ فى دراسة إعجاز القرآن، وإبراز وجوهه المختلفة التى اتفق عليها العلماء السابقون[1].

* يرى القاضى عياض أن القرآن الكريم مُنْطوٍ على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها فى أربعة وجوه:

أولها: حُسْنُ تأليفه، والتئام كَلِمِهِ، وفصاحته، ووجوه إيجازه، وبلاغته الخارقة عادة العرب.

وثانيها: صورة نَظْمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب، ومناهج نظمها ونثرها الذى جاء عليه ووقفت مقاطع آية، وانتهت فواصل كلماته إليه، ولم يُوجَد قبله ولا بعده نظير له.

وثالثها: ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات، وما لم يكن وما لم يقعْ، فوجد كما ورد على الوجه الذى أخبر به.

والوجه الرابع: ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة، والشرائع الداثرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذّ من أحْبار أهل الكتاب، الذى قطع عمره فى تعلم ذلك.

(١) الشفا ٢٥٧/١.

ويعلل القاضى عياض للأسباب التى جعلت من «حُسْنِ تأليف القرآن والتئام كلمه، وجها من أوجه الإعجاز، التى تميز بها، فيقول:

«ذلك أنهم (أى العرب) كانوا أرباب هذا الشأن، وفرسانَ الكلام، قَدْ خُصُّوا من البلاغة والحِكَم ما لم يخص به غيرهم من الأمم، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان، ومن فَصْل الخطاب ما يقيد الألباب، جعل الله لهم ذلك طبعا وخلقة، وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على البديهة بالعَجَب، ويُدْلُون به إلى كل سبب، فيخطبون بديها فى المقامات، وشديد الخطب، ويَرْتَجِزُون به بين الطعن والضرب، ويمدحون ويَقْدَحُون ويتوسَّلُون، ويتوصلون ويرفعون، ويضعون فيأتون من ذلك بالسحر الحلال، ويُطوِّقُون من أوصافهم أجمل من سُمْط الَّلآل، فيخدعون الألباب، ويذلِّلون الصعاب، ويُذْهِبُون الإِحَن، ويُهَيِّجون الدِّمن، ويُجَرِّؤنَ الجبان، ويَبْسُطون يد الجعد البنان، ويصيرون الناقِص كاملاً، ويتركون النَّبيه خاملاً، منهم البدوى ذو اللفظ الجزل، والقول الفصل، والكلام الفخم، والطبع الجَوْهرىّ، والمنزع القوى. ومنهم الحضرى ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة، والطبع السهل، والتصرف فى القول القليل الكُلفة، الكثير الرونق، الرقيق الحاشية، وكلا البابين فلهما فى البلاغة الحجة البالغة، والقوة الدامغة، والقِدْحُ الفالج، والمهيع الناهج، لا يشكُّون أن الكلام طوع مرادهم، والبلاغة مِلك قيادهم، قد حَوَوْا فنونها، واستنبطوا عيونها، ودخلوا من كل باب من أبوابها، وعَلَوْا صرحًا لبلوغ أسبابها، فقالوا.. فى الخطير والمهين، وتفننوا فى الغَثّ والسَّمين، وتقاولوا فى القلّ والكثر، وتساجلوا فى النظم والنثر، فما راعَهُم إلاّ رسول كريم، بكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفِهِ، تنزيل من حكيم حميد، أحكمت آياته، وفُصِّلت كلماته، وبهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول، وتظافر إيجازُه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وتبارت فى الحُسن مطالعه ومقاطعه، وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه، واعتدل مع إيجازه حُسْنُ نظمه، وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه، وهم أفسح ما كانوا فى هذا الباب مجالاً، وأشهر فى الخطابة رجالا، وأكثر فى السجع والشعر سجالاً، وأوسع فى الغريب واللغة مقالا، بلغتهم التى بها يتحاورون، ومنازعهم التى عنها يتناضلون، صارخا بهم فى كل حين، ومقرِّعا لهم

بضعًا وعشرين عاما على رؤوس الملأ أجمعين..

* ﴿وإنْ كُنْتم فى رَيْبٍ مما نزَّلْنَا على عَبْدِنَا فأْتُوا بسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، وادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِنْ دُونِ الله إنْ كُنْتُم صَادِقِين، فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا، ولَنْ تفعلوا، فاتَّقُوا النارَ التى وَقُودُها الناسُ والحجارة أُعِدَّت للكافرين﴾ [البقرة ٢٤]

* ﴿قُلْ لَئِن اجتمعت الإنْسُ والجنُّ عَلَى أَنْ يأْتُوا بمِثْلِ هَذَا القُرآن، لاَ يَأْتُونَ بمِثْلِهِ ولَوْ كَانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظهيرًا﴾ [الاسراء ٨٨]

* ﴿قُلْ فأْتُوا بعَشرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيات﴾ [هود ١٣]

«وذلك أن المفترى أسهل، ووضع الباطل والمختلق على الاختيار أقرب، واللفظ إذا تَبع المعنى الصحيح كان أصعب»

«فلم يزل يقرعهم - ﷺ - أشد التقريع، ويُوبِّخهم غاية التوبيخ، ويُسَفِّه أحلامهم، ويحط أعلامهم، ويُشَتِّت نظامَهُم، ويذم آلهتهم وإيَّاهم، ويستبيح أرضَهم وديارهم وأموالهم، وهُمْ فى كل هذا ناكصون عن معارضته، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب، والإغراء والافتراء، وقولهم:

﴿إن هذا إلاّ سحرٌ يؤثر﴾ و﴿سِحرٌ مُسْتَمِر﴾ و﴿إفْكٌ افْتَرَاه﴾ و﴿أَسَاطِيرُ الأولين﴾ والمباهتة والرضى بالدنيئة، كقولهم ﴿قُلوبنا غُلْف﴾ و﴿فى أكنَّة مماتدعونا إليه﴾ و﴿فى آذننا وقرٌ﴾ و﴿مِنْ بيننا وبَيْنك حِجَابٌ﴾ و﴿لاتَسْمَعُوا لهَذَا القرآن والغوا فيه لعلكم تَغْلبون﴾ والإدعاء مع العجز بقولهم: ﴿لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مثلَ هذا﴾ وقد قال لهم الله ﴿ولَنْ تَفْعَلُوا﴾ فما فعلوا ولا قَدَرُوا[1].

هذا هو الوجه الأول من وجوه الإعجاز القرآنى كما يراه القاضى عياض، وهو كما نرى وجه بلاغى خالص.

«وهو نوع من إعجازه منفرد بذاته، غير مضاف إلى غيره على التحقيق والصحيح، وكون القرآن من قِبَل النبى - ﷺ، وأنه أتى به معلومٌ ضرورة،

(١) الشفا ٢٦١/١.

وكونه - ﷺ - مُتَحَدِّيًا به معلوم ضرورة، وعجز العرب عن الإتيان به معلوم ضرورة، وكونه فى فصاحته خارقًا للعادة معلوم ضرورة للعالمين بالفصاحة ووجوه البلاغة.

٣

* وعن الوجه الثانى.. وهو صورة نَظْمه العجيب، والأسلوب الغريب، المخالف لأساليب كلام العرب.. يقول القاضى عياض:

إنه «لم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحد مماثلَة شىء منه، بل حارت فيه عقولهم، وتدلّت دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله فى جنس كلامهم من نثر أو نَظْم أو سجع أو رجز أو شعر»

«لما سمع كلامه - ﷺ - الوليد بن المغيرة، وقرأ عليه القرآن رقّ فجاءه أبو جهل منكرًا عليه، قال: والله ما منكم أحدٌ أعلم بالأشعار منّى، والله ما يُشْبِهُ الذى يقول شيئا من هذا.»

وفى خبره الآخر، حين جمع قريشا عند حضور الموسم، وقال إن وفود العرب تَرِد، فأجمعوا فيه رأيا لا يُكَذِّب بعضكم بعضا، فقالوا نقول: كاهن، قال: والله ما هو بكاهن، ما هو بزَمْزَمَتِهِ ولا سجعه، قالوا: مجنون، قال: ما هو بمجنون ولا بخَنْقه ولا وَسْوَسَته، قالوا: فنقول شاعر، قال: ما هُو بشاعر، قد عرفنا الشعر كله رجزَه وهزجَه، وقريضَه ومبسوطَه ومقبوضه.. ما هو بشاعر، قالوا: فنقول ساحر. قال: ما هو بساحر ولا نَفْثه ولا عَقْدِه: فما نقول؟.

قال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلاّ وأنا أعرف أنه باطلٌ، وإن أقربَ القول أنه ساحر، فإنه سِحرٌ يفرق بين المرء وابنه، والمرء وأَخيه، والمرء وزوجه، والمرء وعشيرته.. فتفرقوا، وجَلَسُوا على السُّبُل يحذرون الناس، فأنزل الله تعالى:

﴿ذَرْنِى وَمنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا، وجعلتُ له مَالاً مَمْدُودًا، وَبَنِينَ شُهودًا، ومَهْدتُ له تَمهِيدًا، ثم يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَا، كَلاَّ إنه كان لآيَاتِنَا عَنِيدًا، سأرهقه صعودًا، إنّه فَكَّر

وقــدَّر، فَقُتــلَ كيف قَــدَّر، ثم قُتِــلَ كيف قــدَّر، ثُمَّ نــظر، ثم عَبَسَ وبَسَــرَ، ثم أَدْبَــر واسْتكْبَر فقال إنّ هــذا إلا سِحْرٌ يُؤْثَــر، إنْ هذا إلاَّ قَــول البَشَر، سَــأُصْلِيه سَقَــر﴾ [المدثر ١١ - ٢٦].

«والأخبار فى هذا صحيحة كثيرة، والإعجاز بكل واحد من النوعين الإيجاز بذاتها، والأسلوب الغريب بذاته، كل واحد منها نوع إعجاز على التحقيق لم تقدر العرب على الاتيان بواحد منها، إذْ كل واحد خارج عن قدرتها، مباين لفصاحتها وكلامها، وإلى هذا ذهب غير واحد من أئمة المحققين»

«وعلى الطريقين فعجز العرب عنه ثابت، وإقامة الحجة عليهم بما يصح أن يكون فى مقدور البشر، وتحديهم بأن يأتوا بمثله قاطع، وهو أبلغ فى التعجيز، وأحرى بالتقريع والاحتجاج بمجيء بشر مثلهم بشيء ليس من قدرة البشر لازم وهو أبهر آية وأقمع دلالة، وعلى كل حال فما أتوا فى ذلك بمقال، بل صبروا على الجلاء والقتل، وتجرعوا كاسات الصَّغار والذل، وكانوا من شموخ الأنف وإبانة الضَّيْم بحيث لا يؤثرون ذلك اختيارًا ولا يرضونه إلا اضطرارا، وإلا فالمعارضة لو كانت من قُدَرهم، والشغل بها أهون عليهم، وأسرع بالنجح وقطع العذر، وافحام الخَصْم لديهم، وهم ممن لهم قدرة على الكلام، وقدرة فى المعرفة به لجميع الأنام، وما منهم إلاّ مَنْ جهد جهده.. واستنفذ ما عنده فى إخفاء ظهوره، وإطفاء نوره، فما جلوا فى ذلك خبيئة من بنات شفاههم، ولا أتوا بنطفة من معين مياههم، مع طول الأمد، وكثرة العدد، وتظاهر الوالد وما ولد، بل أبْلَسوا فما نبسوا، ومنعوا فانقطعوا، فهذان النوعان (الإيجاز والبلاغة) من إعجازه».

وفى هذا الوجه - يقول القاضى عياض:

«وقد اختلف أئمة أهل السنة فى وجه عجزهم عنه، فأكثرهم يقول إنه مما جُمِعَ فى قوة جزالته ونصاعة ألفاظه، وحسن نظمه وايجازه، وبديع تأليفه وأسلوبه، لا يصح أن يكون فى مقدور البشر، وأنه من باب الخوارق الممتنعة عن أقدار الخلق عليها»

---

(١) الشفا ٢٦٨/١

وذهب الشيخ أبو الحسن إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر، وُيقْدِرُهُم الله عليه، ولكنه لم يكن هذا ولا يكون، فَمَنَعَهم الله هذا وعجّزهم عنه.

والقاضى عياض بنقله لهذا الرأى يكون قد قال بالصَّرْفَة، وهى مقالة ابراهيم النظام المعتزلى الشهيرة. ولا أدرى كيف غاب عنه ذلك، وهو إمام من أئمة أهل السنة فى الأندلس فى عصره

٣

أما الوجه الثالث من وجوه الأعجاز - كما يراه القاضى عياض - فهو وجه يتصل بالتاريخ وحركته. وقد عبر عنه بقوله:

«ما انطوى عليه من الاخبار بالمغيبّات، وما لم يكن، ولم يقع، فوُجد كما وَرَدَ على الوجه الذى أخبر.

* كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحرامَ إنْ شَاءَ الله آمِنينَ﴾
* وقوله تعالى: ﴿آلم، غُلِبَت الرُّومُ فى أَدْنَى الأَرْضِ وهُمْ مِنْ بَعْد غَلَبِهم سَيَغْلِبُون﴾
* وقوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رسُوله بالهُدَى ودَينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ علَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾
* وقوله جل جلاله: ﴿وَعَدَ الله الَّذِين آمَنُوا مِنْكُم وَعِملُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفنّهم فى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الذينَ مِنْ قَبْلِهم. ولَيُمَكِّننَّ لَهُم دِينَهُم الَّذى ارْتَضى لَهُمْ وليُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنَا﴾
* وقوله سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ الله والفَتْح)

«فكان جميع هذا كما قال، فغَلبت الروم فارس فى بضع سنين، ودخل الناسُ فى الإسلام أفواجا، فما مات - ﷺ - وفى بلاد العرب كلها مَوْضع لم يدخله الإسلام، واستخلف الله المؤمنين فى الأرض، ومكّن فيها دينهم، وملّكهم إياها من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب، كما قال -ﷺ- «زُويَت لِى الأرضُ فأرِيتُ مشارقها ومغاربها، وسَيَبْلُغ مُلْك أُمتى ما زُوِىَ لى مِنْها»

* ومما يدخل تحت هذا الوجه من وجوه الإعجاز:
قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الجمعُ ويُوَلُّون الدُّبُر﴾ الآية
وقوله عز وجل: ﴿قَاتِلُوهُم يُعَذِّبْهُم الله بأيْدِيكُمْ﴾ الآية
وقوله سبحانه: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُم إلاّ أذَى وإنْ يُقَاتِلُوكُم﴾ الآية

- فكان كل ذلك وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود، ومقالهم وكذبهم فى حَلِفهم وتقريعهم بذلك، كقوله تعالى: ﴿وَيُقولُون فى أَنْفُسِهِم لَوْلاَ يُعَذِّبُنَاَ الله بما نقول﴾.

وقوله سبحانه: ﴿يُخْفُون فى أَنْفُسِهِم ما لاَ يُبْدُون لك﴾ الآية
وقوله عز وجل: ﴿مِنَ الذَينَ هَادُوا سمَّاعُونَ للكذبِ﴾ الآية.

* وقال مبديا ما قدّره الله واعتقده المؤمنون يوم بدر
﴿وإذْ يعدُكم الله إحْدَى الطائفتين أنَّها لكُمْ وتودُّون أنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكةِ تكُونُ لكُمْ﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿إنَّا كَفَيْنَاك المُسْتَهزِئين﴾

ولما نزلت بَشّر النبى - ﷺ - بذلك أصحابه بأن الله كفاه إياهم، وكان المستهزئون نفرا بمكة، يُنفِّرُون الناسَ عنه ويُؤذُونه فهلكوا.

٤

وأما الوجه الرابع، من وجوه إعجاز القرآن، فهو يتصل كسابقه بالجانب التاريخى، ولكنه لا يتناول الأمور المستقبلة، ولكنه يتحدث عن أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة، والشرائع الدائرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلاّ الفذّ من أخيار أهل الكتاب، الذى قطع عمره فى تعلم ذلك، فيورده النبى - ﷺ - على وجهه، ويأتى به على نَصِّه، فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه، وأن مثله لم ينله بتعليم، وقد علموا أنه - ﷺ - أميٌ لا يقرأ ولا يكتب، ولا اشتغل بمدارسة ولا مثافنة (أى مجالسة)، ولم يغب عنهم ولا جهل حاله أحد منهم.

ويدلل القاضى عياض على دقة هذا الوجه ووضوحه، فيقول:
«وقد كان أهل الكتاب كثيرا ما يسألونه - ﷺ - عن هذا، فينزل عليه من

القرآن ما يتْلو عليهم منه ذِكْرا، كقصص الأنبياء مع قومهم، وخبر موسى والخضر، ويوسف وإخوته، وأصحاب الكهف، وذى القرنين، ولقمان وابنه، وأشباه ذلك من الأنباء، وبَدْء الخلق، وما فى التوراة والانجيل والزبور وصحف ابراهيم وموسى، مما صدَّقه فيه العلماء بها، ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها، بل أذعنوا لذلك، فمن مُوَفَّق آمن بما سبق له من خير، ومن شقى معاند حاسد.. ومع هذا لم يُحْكَ عن واحدٍ من اليهود والنصارى على شدّةِ عداوتهم له. وحرصهم على تكذيبه، وطول احتجاجه عليهم بما فى كتبهم، وتقريعهم بما انطوت عليه مصاحفهم، وكثرة سؤالهم له - ﷺ - وتعنيتِهم إياه عن أخبار أنبيائهم، وأسرار علومهم، ومستودعات سيرهم، وإعلامه لهم بمكتوم شرائعهم، ومُضَمَّنَاتِ كُتبهم، مثل:

سؤالهم عن الروح، وذى القرنين، وأصحاب الكهف، وعيسى، وحُكَم الرَّجم، وما حرم إسرائيل على نفسه، وما حُرِّم عليهم من الأنعام ومن طيبات كانت أحلت لهم، فحُرمت عليهم بِبَغْيِهم. وقوله ذلك مَثَلُهُم فى التوارة ومَثَلُهم فى الإنجيل، وغير ذلك من أمورهم التى نزل فيها القرآن. فأجابهم وعرَّفهم بما أوحى إليه، من ذلك.. أنه أنكر ذلك أو كذبه، بل أكثرهم صَرَّح بصحة نبوّتِهِ وصدق مقالته، واعترف بعناده وحسده إياه، كأهل نجران، وابن صُورِيا، وابنى أخطب وغيرهم، ومن باهَتَ فى ذلك بعض المباهتة، وادَّعى أن فيما عِنِدَهُم من ذلك، لماَ حكاَه مخالفة دُعِىَ إلى إقامة حُجَّته، وكشف دَعْوته، فقيل له: ﴿قُلْ فاتُوا بالتَّوْراةِ فاتْلُوها إنْ كُنْتُم صَادِقين، فَمَن افترى على الله الكَذِبَ من بَعد ذلك فأُولَئِكَ هُم الظَّالِمُون﴾.

فقرَّع وَوبَّخ، ودعَا إلى إحضار ممكن غير ممتنع، فمِنْ معترف بما جحده، ومتواقح يلقِي على فضيحته من كتابه يده، ولم يُؤثر أن واحدا منهم أظهر خلاف قوله من كُتبه، ولا أبدى صحيحا ولا سقيما من صُحُفه، قال الله تعالى: ﴿يا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لكُم كَثِيراً مِمَّا كُنْتُم تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ، ويَعْفُو عَنْ كَثِير﴾ الآيتين.

٥

هذه هى الوجوه الأربعة، التى حددها القاضى عياض دليلا على إعجاز القرآن.

والباحث المطلع.. يجد أنه مسبوق بهذه الآراء من العلماء السابقين، الذين تصدوا لدراسة الإعجاز القرآنى، وكانت لهم آراء خصبة.

ولقد كان الرجل أمينا حين ذكر أكثر من مرة، أنه يسجل آراء العلماء، وينقل من كتبهم، وأنه جامع لآرائهم، لذلك نقول: إن هذه الأراء ليست جديدة، إلا على بلاده الأندلس.

ويبدو أن القاضى عياض، وهو كما قلنا ناقل جامع، وجد أن هناك كثيرا من الآراء لم يسلكها بين أوجه الإعجاز الأربعة، التى حددها، وخشى أن يفوته تسجيلها، لذلك نراه يفرد فصولا أخرى بعد الفصول التى اعتمدها للإعجاز، قائلا فى صدرها.

ومن الوجوه البيّنة فى إعجازه من غير هذه الوجوه:
١ - آى وردت بتعجيز قوم فى قضايا إعلامهم أنهم لا يفعلونها، فما فَعَلُوا ولا قدروا على ذلك

كقوله تعالى لليهود: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدارُ الآخِرةُ عِنْد الله خَالِصة﴾ الآية.

قال أبو اسحاق الزجاج: فى هذه الآية أعظم حُجّة وأظهرُ دلالة على صحة الرسالة، لأنه قال لهم: فتمنوا الموت، وأعلمهم أنهم لن يتمنّوه أبدًا، فلم يتمنّه واحد منهم.

وعن النبى - ﷺ: «والذى نفسى بيده لايقولها رجل منهم إلاّ غُصَّ بِرِيقِه» يعنى يموت مكانه، فصرفهم الله عن تمنيه، وجزّعهم ليظهر صدق رسوله، وصحة ما أوحى إليه، إذ لم يتمنّه أحد منهم. وكانوا على تكذيبه أحرص - لو قدروا،

ولكن الله يفعل ما يريد، فظهرت بذلك معجزته، وبانت حُجته.

وكذلك آية المباهلة، من هذا المعنى، حيث وفد عليه أساقفة نجران، وأبُوا الإسلام، فأنزل الله تعالى عليه آية المباهلة بقوله:
﴿فمَنْ حاجَّك فيه مِنْ بَعْدِ ما جَاءَك من العِلْم، فُقْل تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وأَبْنَاءَكُم﴾ الآية ومثله قوله: ﴿وإنْ كُنْتُم فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنا فاتُوا بسُوَرَه مِنْ مثلِهِ﴾ الآية - إلى قوله - ﴿فإن لم تَفْعَلُوا ولَنْ تَفْعَلُوا﴾

فأخبرهم أنهم لا يفعلون كما كان، وهذه الآية أدخل فى باب الإخبار عن الغيب، ولكن فيها من التعجيز ما فى التى قبلها[١].

٢ - ومنها الروعة التى تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيبة التى تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله وإنافة خطره، وهى على المكذبين به أعظم، حتى كانوا يستثقلون سماعه، ويزيدهم نفورا، كما قال تعالى: ويودُّون انقطاعه لكراهتهم له.

ولذا قال - ﷺ: إن القرآن صَعْبٌ مستصعب على من كرهه، وهو الحكم. وأما المؤمن فلاتزل رَوْعَتُه به، وهيبتُهُ إياه مع تلاوته، تُوليه انجذابًا، وتكسِبُهُ هشاشة، لميل قلبه إليه، وتصديقه به.

وهذه الروعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام وبعده، فمنهم من أسلم لها لأول وَهْلَة وآمن، ومنهم من كفر»[١].

٦

ثم وجد القاضى عياض، أنه رغم كل ذلك لم يستوف كل وجوه الإعجاز التى ذكرها العلماء السابقون، والأئمة المحققون، لذلك رأيناه يعقد فصلا جديدًا بدأه بقوله.

(١) الشفا ١/٢٧٢
(١) الشفا ١/٢٧٤

- ومن وجوه إعجازه المعدودة، كونُهُ آية باقية لا تُعدم ما بقيت الدنيا مع تكفُّل الله تعالى بحفظه. فقال: ﴿إِنَّا نحنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾ وقال: ﴿لا يأْتِيَهِ البَاطِلُ من بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ الآية

ورغم كل ذلك وجد القاضى عياض نفسه لمْ يلمّ بكل جوانب الإعجاز وأن هناك آراء أخرى ذكرها العلماء ولم يسجلها، فلم يجد من ذلك بُدًّا من أن يجمعها معا، ويُفرد لها فصلا أخيرًا لم يحدد له عنوانا، بل ذكر مطلعه.

٧

قال: «وقد عَدَّ جماعة من الأئمة ومقلدى الأمة فى اعجازه وجوها كثيرة»

فقد أجمل فى هذا الفصل معظم ما قيل من آراء ووجوه حول إعجاز القرآن، وهى وجوه متباينة، ليس بينها رابط معين، إنما تندرج جميعا تحت باب الإعجاز، قال:

* ومنها: أن قارئه لا يمَلّه وسامعه لا يمجّه.
* ومنَها: جمعه لعلوم ومعارف لم تعهد العرب عامة، ولا محمد - ﷺ - خاصة بمعرفتها، ولا القيام بها.
* ومنها: جمعه فيه بين الدليل ومدلوله.
* ومنها: أن جعله فى حيز المنظوم الذى لم يُعهد.
* ومنها: تيسيره تعالى حفظه لمتعلميه، وتقريبه من متحفظيه.
* ومنها: مشاكلة بعض أجزائه بعضا، وحسن ائتلاف أنواعها، والتئام أقسامها.
* ومنها: الجملة الكثيرة التى انطوت عليها الكلمات القليلة.

وختم القاضى عياض هذا الموضوع الخاص بالمعجزة القرآنية، بقوله: وهذا كله وكثير مما ذكرنا أنه ذكر فى إعجاز القرآن إلى وجوه كثيرة ذكرها الأئمة، لم نذكرها إذ أكثرها داخل فى باب بلاغته»

وكأنه وجد أن هذا السرد سيخرجه عن نطاق البحث، فاستدرك الأمر قائلا:

«فلا نحب أن يُعد فنًّا منفردا فى إعجازه إلا فى باب تفصيل فنون البلاغة، وكذلك كثير مما قَدَّمنا ذكره عنهم يعد فى خواصه وفضائله، لا فى إعجازه.

وحقيقة الإعجاز الوجوه الأربعة التى ذكرنا، فليعتمد عليها، وما بعدها من خواص القرآن وعجائبه التى لا تنقضى. والله ولى التوفيق»

٨

فإذا نظرنا إلى وجوه الاعجاز الأربعة، التى اختارها..

وجدنا أن الوجه الثانى وهو (صورة نظم القرآن العجيب، والأسلوب الغريب)

ما هو إلا تكرار للوجه الأول (حُسن تأليف والتئام كلمه وفصاحته وبلاغته)

فكلا الوجهين يندرجان تحت علوم البلاغة. بيد أنه حين وضعهما على صورتهما هذه، قد أضفى عليهما صفة التعميم، حتى ليبدو وكأنه حائر متردد بين أساليب البلاغة وعلومها. فالوجهان الأول والثانى، فى حقيقة أمرهما وجه واحد، يتصل ببلاغة القرآن. هكذا قال الجرجانى.

كذلك الوجه الثالث وهو: (ما انطوى عليه القرآن من الإخبار بالمغيبات)
والوجه الرابع (ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة)
كلاهما يندرج تحت الجانب التاريخى، فهما فى واقع الأمر وجه واحد، يصور إعجاز القرآن من حيث الزمن، وإتصاله بحركة التاريخ فى الماضى والمستقبل.

ومعروف أن القاضى عياض كان سلفيا، من أهل السنة والجماعة، ومع ذلك فقد ضلّله عنصر الجمع والنقل والاقتباس، فوقع فى المحظور، حين لم يفهم ما ذكره المعتزلة من القول (بالصَّرْفة) فنراه يذكر ما ذهب إليه أبو الحسن الرمَّانى المعتزلى، استنادًا لرأى النظَّام شيخ المعتزلة، من أن القرآن «مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر، ويقدرهم عليه، ولكن لم يكن هذا فمنعهم الله هذا

وعجَّزهم عنه»[١] وهو لا يدرى أن هذا الرأى أنكره أهل السنة وحاربوه، وسفهوا آراء القائلين به.

هذا من حيث الشكل العام أو المظهر الخارجى..

* فإذا درسنا أوجه الإعجاز الأربعة التى اختارها القاضى عياض، وأمعنا فيها النظر، وجدنا ما يلى:

أن الوجه الأول، فى حقيقه أمره ليس من وجوه الإعجاز، وإنما هو فى وضعه الدقيق شاهد من شواهد الإعجاز، ودليل من أدلته القاطعة.

أما الوجه الثانى، الذى يتعلق بنظم القرآن وأسلوبه، فهو ما توافق عليه جُلّ الباحثين والعلماء، الذين بحثوا فى إعجاز القرآن، وحاولوا الكشف عن أسراره، لقد أجمعوا على أن هذا النظم، الذى انفرد به القرآن، مخالف لأساليب كلام العرب، ومناهج نظمها ونثرها، وأن نظمه جاء على صورة لم تقع للعرب، وإن جمعت الطيب الحسن من كل أسلوب.

وأما الوجه الثالث: الذى اختاره القاضى عياض، وهو الإخبار بالمغيبات، فهو فى حقيقة أمره ليس وجها من وجوه الإعجاز يمكن أن تقطع الخصم عن المعارضة، وتمسك به عن العناد واللجاج، إذ كثير من الكهّان كانوا يرجمون بالغيب، فيصيبون ويخطئون، ولو كان القرآن حين تحدى العرب قد أشار إلى هذا الوجه من التحدى لما أقروا بالعجز عنه، ولما شهدت عليهم الحياة به، بل لكان لهم على هذا الوجه سبيل إلى المجادلة والمحاجّة والمعارضة، ولاستدعوا إليهم كهنتهم وأصحاب الرؤى عندهم، ولكان لهم قول إلى جانب هذا القول الذى جاء به القرآن.. وإن بَعد ما بين القولين فى مقام الصدق واليقين، ولكن الخصم العنيد المتجبر لا يستسلم حتى يرمى بآخر شىء فى يده، حتى ولو كان عودًا من الحطب، يقاوم به السيوف والرماح[٢]

(١) الشفا ٢٦٧/١

(٢) عبد الكريم الخطيب: إعجاز القرآن ص ٢٨٩

وأما الوجه الرابع: «ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة» فهو كسابقه لا يمكن أن يكون معجزة قائمة للتحدى القاطع المفحم، وإن كان هو وسابقه مما يضفى على إعجاز القرآن جلالا وروعة، ومما يزيده إشراقا وإلفا..

إذًا فالوجوه الأربعة التى اختارها القاضى عياض فى أغلبها أدلة أو شواهد على الاعجاز القرآنى، أما الوجه الحقيقى، فهو ذلك الوجه الذى ألحقه الرجل بهذه الوجوه الأربعة، وكأنه يرى أنه نافلة، وليس أصلا فى باب الاعجاز، وهو: الروعة التى تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه»

فهذا الوجه فى رأينا[1] هو عمدة وجوه الإعجاز القرآنى على الاطلاق، إن لم يكن وحده وجه الاعجاز، وهو الوجه عينه الذى توصَّل إليه الخطابى قبله بنحو قرنين من الزمان.

فالروعة التى تعتريهم عند تلاوته، هى مناط الاعجاز الحقيقى، وهى المعجزة القائمة فيه أبد الدهر، وإلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها، وإن كان القاضى عياض قد جعله حاشية فى وجوه الإعجاز، من باب تحصيل الحاصل.

٩

المعجزات الحسية:

وبعد إذْ انتهى القاضى عياض من الحديث عن المعجزة المعنوية، وهى معجزة القرآن.

انتقل بعد ذلك للحديث عن المعجزات الحسية، التى شاء الحق تبارك وتعالى، أن يهبه إياها وأن يجعلها تحت سمع وبصر المحيطين به، إثباتا لصدق نبوته، وصحة دعوته.

فنرى الرجل يخصص جانبا كبيرا من السيرة النبوية للحديث عن هذه المعجزات، التى أثبتها القرآن مثل انشقاق القمر، وجاءت بها الأخبار الصادقة،

---

(١) أنظر كتابنا مفهوم الاعجاز القرآنى حتى القرن السادس الهجرى ص ٢١١ طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٤

والأحاديث الصحيحة عن رسول الله - ﷺ - مثل: معجزة حبس الشمس، ومعجزة نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته، ومعجزة تكثير الطعام ببركته ودعائه، ومعجزة كلام الشجرة له، وشهادتها له بالنبوة، وإجابتها دعوته، ومعجزة إحياء الموتى وكلامهم، وكلام الصبيان والرضّع، ومعجزته فى إبراء المرضى وذوى العاهات.

معجزة انشقاق القمر[1]:

أما عن معجزة انشقاق القمر، فقد ذكرها القرآن فى قوله تعالى:
﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القَمَرُ، وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ويَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾
حيث أخبر الله تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضى، وإعراض الكفرة عن آياته.

* يقول القاضى عياض.. أجمع الصحابة والمفسرون وأهل السنة على وقوعه

* فعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال: انشقّ القمر على عهد رسول الله - ﷺ - فرقتين: فِرقة فوق الجبل، وفرقة دُونه، فقال رسول الله - ﷺ - اشهدُوا.

* وفى رواية مجاهد، عن ابن مسعود الأسود: «.. حتى رأيت الجبل بين فُرْجَتَىّ القمر»

* ورواه عنه مسروق، أنه كان بمكة، وزاد - فقال كفار قُريش سحركم ابن أبى كبشة، فقال رجل منهم: إن محمدًا إن كان سَحَر القمر فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر هل رأوا هذا، فأتَوْا فسألوهم فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك.

---

(١) الشفا ٢٨٠/١

* وعن أنس، سأل أهل مكة النبى - ﷺ - أن يُرِيَهُم آيةً فأراهُمُ إنشقاق القمر مرتين، حتى رأوا حِرَاء بينهما، فنزلت: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانشَقَّ القَمَر﴾

* ثم يتصدى القاضى عياض للذين أنكروا هذه المعجزة، أو الذين لم يروها، فيقول: [١]

«وأكثر طرق هذه الأحاديث صحيحة، والآية مصرَّحة، ولا يُلْتفت إلى إعتراض مخذول بأنه لو كان هذا لَمْ يخف على أهل الأرض، إذْ هو شىء ظاهرٌ لجميعهم، إذْ لم يُنْقل لنا عن أهل الأرض أنَّهم رصدوه تلك الليلة فلم يروه انشق، ولو نُقل إلينا عمَّن لا يجوز تَمَالُؤهم لكثرتهم على الكذب لما كانت علينا به حُجة، إذ ليس القمر فى حد واحد لجميع أهل الأرض، فقد يطلع على قوم قبلَ أن يطلُعَ على الآخرين، وقد يكون من قوم بضدٍّ ما هو من مُقَابلهم من أقطار الأرض، أو يَحُول بين قومٍ وبينه سحاب، أو جبال، ولهذا نجد الكسوفات فى بعض البلاد دون بعض، وفى بعضها جزئية، وفى بعضها كلية، وفى بعضها لا يعرفها إلاّ المدَّعون لعلمها، وذلك تقدير العزيز العليم.

* ويضيف القاضى عياض رأيا آخر يتعلق بالوقت والزمن، وظروف الناس، فيقول:

«وآية القمر، أى معجزة انشقاقه - كانت ليلا، والعادة من الناس بالليل الهدوء والسكون وإيجافُ الأبواب، وقطع التَّصرف، ولا يكاد يعرف من أمور السماء شيئا إلاّ من رصد ذلك واهتبل به، ولذلك ما يكون الكسوف القمرى كثيرا فى البلاد، وأكثرهم لا يعلم به، حتى يُخبر، وكثيرا ما يحدِّث الثقات بعجائب يشاهدونها من أنوار ونجوم طوالع عِظام تظهر فى الأحيان بالليل فى السماء، ولا عِلْم عنْدَ أحدٍ منها[٢].

معجزة حبس الشمس:

أما معجزة حبس الشمس، استجابة لدعاء الرسول - ﷺ - فيذكر

---

(١) الشفا ٢٨٣/١
(٢) الشفا ٢٨٣/١

القاضى عياض حديثا، أخرجه الطحاوى فى مشكل الحديث، رواه عن أسماء بنت عُمَيس من طريقين:

«أن النبى ﷺ - كان يُوحى إليه ورأسه فى حِجْر علىّ، فلم يُصَلِّ العصر حتى غربت الشمس، فقال رسول الله - ﷺ - أَصَلَّيْتَ يا علىّ؟ قال: لا، فقال: اللهم إنّه كان فى طاعتك وطاعة رسولك، فاردد عليه الشمس».

قالت أسماء: «فرأيتها غربت، ثم رأيتها طلعت بعد ما غربت، ووقفت على الجبال والأرض، وذلك بالصهباء فى خيبر»

قال القاضى عياض: وهذا الحديثان ثابتان، ورواتها ثقات، وإن كان لم يذكر إلا حديثا واحدًا.

قال أحمد بن صالح - فيما حكاه الطحاوى: لا ينبغى لمن سبيله التخلّف عن حفظ حديث أسماء.. لأنه من علامات النبوّة.

وروى يونس بن بكير فى زيادة المغازى، روايته عن ابن اسحاق.. لما أُسْرِى برسول الله - ﷺ - وأخبر قومه بالرُّفقة والعلامة التى فى العير، قالوا: متى تجىء؟ قال: يوم الأربعاء. فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينظرون وقد وَلِّى النهار، ولم تجىء، فدعا رسول الله - ﷺ - فزيدَ له فى النهار ساعة، وحُبَستْ عليه الشمس.

١٠

معجزة نبع الماء من بين أصابعه

أما معجزته - ﷺ - فى نبع الماء من بين أصابعه، فكما يقول القاضى عياض: «إن الأحاديث عنها كثيرة جدًا، ذكرها جماعة من الصحابة، منهم أنس، وجابر، وابن مسعود وغيرهم.

من ذلك ما رواه أنس، قال: رأيت رسول الله - ﷺ - وحانت صلاة العصر، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأُتِىَ رسول الله - ﷺ - بوضوء، فوضَعَ رسول الله فى ذلك الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضّئوا منه، قال: فرأيت

الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضئوا من عند آخرهم». وسأله قتادة: كم كنتم؟ قال: زهاء ثلاثمائة.

* على أن هذه المعجزة قد حدثت أكثر من مرة، وفى أكثر من مكان، فى يوم الحديبية، وفى غزوة بواط وفى غزوة تبوك.

ففى يوم الحديبية، حسب رواية جابر فى الصحيح، عطش الناس عطشا شديدًا، ورسول الله - ﷺ - بين يديه ركوةٌ فتوضأ منها، وأقبل الناس نحوه، وقالوا: ليس عندنا ماء إلاّ ما فى ركوتك، فوضع النبى - ﷺ - يده فى الرّكوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه، كأمثال العُيُون.

قيل: كم كنتم؟ قال: لو كنّا مائة ألف لكفانا، كنا خَمْسَ عَشَرَةَ مائة»

١١

* ومما يشبه هذا من معجزاته، تفجير الماء ببركته وابتعاثه بمَسِّه ودعوته[١].

* فقد روى مالك فى الموطأ، عن معاذ بن جبل، فى قصة غزوة تبوك، وأنهم وردوا العين وهى تبض بشىء من ماء مثل الشِّراك، فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع فى شىء، ثم غَسَل رسول الله - ﷺ - فيه وجهه ويديه، وأعادَهُ فيها، فجرت بماء كثير فاستقى الناس. قال: فانخرق من الماء مالَهُ حسّ كحسّ الصواعق، ثم قال: يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد مُلِئَ جنانا.

* وفى حديث عمر - فى جيش العُسرة، وذكر ما أصابهم من العطش، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فَرْثَه فيشربه، فرغب أبو بكر - رضى الله عنه - إلى النبى ﷺ - فى الدعاء، فرفع يديه، فلم يرجعهما حتى قالت السماء، فانسكبت فملئوا ما معهم من آنية ولم تجاوز العسكر[٢].

---

(١) الشفا ٢٨٧/١ (٢) الشفا ١/ ٢٩٠

ويعلّق القاضى عياض بعد إيراده عشرات المرويات والآثار حول هذه المعجزة:

«ومثل هذا، فى هذه المواطن الحفِلَة والجموع الكثيرة لا تتطرق التهمة إلى المحدِّثِ به، لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه لما جُبلت عليه النفوس من ذلك، ولأنهم كانوا ممّن لا يَسْكُتُ على باطل، فهؤلاء قد رووا هذا وأشاعوه، ونسبوا حُضور الجماء الغفير له، ولم ينكر أحدٌ من الناس عليهم ما حدثوا به عنهم، أنّهم فَعَلُوه وشاهدوه، فصار كتصديق جميعهم له.»

١٢

ويذكر القاضى عياض، ضمن معجزاته: **معجزة تكثير الطعام ببركته ودعائه**[١].

فينقل لنا أخبارًا كثيرة، وأحاديث عديدة، رواها صحابة رسول الله - ﷺ - تحكى عن ما شاهدوه، وما لمسوه من هذه المعجزة:

* **من ذلك - حديث جابر فى إطعامه - ﷺ - يوم الخندق ألف رَجُل من** صاع شعير وعناق، وقال جابر: **فأقسم بالله لأكلوا حتي تركوه، وانحرفوا وإن بُرْمَتَنا لَتَغِطّ كما هى، وإنَّ عجيننا ليخبزُ،** وكان رسول الله - ﷺ - بَصَق فى العجين والبُرْمة وبارك.

ومن ذلك ما رواه رجل من الأنصار وامرأته، قال:

«وجيء بمثل الكفّ فجعل رسول الله - ﷺ - يَبْسُطُها فى الإناء، ويقول: ما شاء الله، فأكل مَنْ فى البيت والحجرة والدار، وكان ذلك قد امتلأ ممن قَدِم معه - ﷺ - لذلك، وبقى بَعْدَ ما شبعوا مثل ما كان فى الإناء

ومن ذلك حديث أبى أيوب، أنه صَنَع لرسول الله - ﷺ - ولأبى بكر من الطعام زُهاء ما يكفيهما، فقال له النبى - ﷺ - ادْعُ ثلاثين من أشراف

---

(١) الشفا ٢٩١/١

الأنصار فدعاهُم فأكلوا حتى تركوا، ثم قال: ادع ستين فكان مثل ذلك، ثم قال: ادع سبعين فأكلوا حتى تركوه، وما خرج منهم أحد حتى أسلم وبايع. قال أبو أيوب: فأكل من طعامى مائة وثمانون رَجلا»

وعن سَمُرة بن جُندب، أُتِيَ النبى - ﷺ - بقَصْعَةٍ فيها لحمٌ فتعاقبُوها من غُدْوَة حتى الليل، يقوم قومٌ ويقصد آخرون.

«ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبى بكر، كنا مع النبى - ﷺ - ثلاثين ومائة، وذكر فى الحديث أنه عُجِن صاعٌ من طعام، وصُنعت شاة فَشُوِى سوادُ بطنها، قال: «وأيم الله ما من الثلاثين ومائة إلاّ وقد حَزَّ له حَزَّة من سواد بَطْنِها، ثم جَعَل منها قصعتين، فأكلنا أجمعون وفَضَل فى القصعتين، فحملتُهُ على البعير.

وقال أبو هريرة - رضى الله عنه - أصاب الناس مخمصة (أى مجاعة)، فقال لى رسول الله - ﷺ - هَلْ من شىءٍ؟ قلت: نعم، شىء من التمر فى المِزْوَد، قال: فأتنى به فأدخل يده فأخرج قبضةً فبسطها ودعا بالبركة، ثم قال: ادْعُ عشرةً، فأكلوا حتى شبعوا، ثم عشرة كذلك، حتى أطعم الجيش كُلّهم وشبعوا، قال: خُذْ ما جئت به وأدخل يدك واقبض منه، ولا تكبُّه فقبضت على أكثر مما جئت به، فأكلت منه، وأُطعمت طوال حياة رسول الله وأبى بكر وعُمر، إلى أن قُتل عثمان، فانتهبت منى فذهب[1].

ثم يقول القاضى عياض بعد أن روى عشرات الأحاديث وكأنه يريد أن يوثقها:

«وأكثر أحاديث هذه الفصول الثلاثة فى الصحيح، وقد اجتمع على معنى حديث هذا الفصل بضعة عشر من الصحابة، رواه عنهم أضعافهم من التابعين، ثم من لا ينعدّ بعدهُم، وأكثرها فى قصص مشهورة، ومجامع مشهودة، ولا يمكن التحدث عنها إلا بالحق، ولا يسكتُ الحاضرُ لها على ما أُنكر منها.»

---

(١) الشفا ٢٩٦/١

١٣

ويتابع القاضى عياض حديثه عن معجزات رسول الله، وفق ما جاء فى سيرته العطرة، فيذكر معجزة كلام الشجرة، وشهادتها له بالنبوة، وإجابتها دعوته حين طلبها..[1]

وفق ما روى عن ابن عمر، قال:

«كنا مع رسول الله - ﷺ - فى سَفَر، فدَنَا منه أعرابى، فقال: ياأعرابى.. أين تريد؟ قال: إلى أهلى، قال: هل لك إلى خير، قال: وما هو؟ قال: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، قال: من يشهد لك على ما تقول؟ قال: هذه الشجرة السُّمُرَة، وهى بشاطئ الوادى، فأقبلَت تخدُّ الأرض (أى تشقها)، حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثا، فشهدت أنّه كما قال، ثم رجعت إلى مكانها.»

وعن بريدة، سأل أعرابى النبى - ﷺ - عن آية (أى معجزة) لكى يؤمن، فقال: قُل لتلك الشجرة: رسول الله يدعوك، قال: فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها، وبين يديها وخلفها، فتقطَّعت عروقها، ثم جاءت تخُدُّ الأرض، تجُرُّ عُرُوقها مغبرة، حتى وقفت بين يدى رسول الله - ﷺ -. فقالت: السلام عليك يارسول الله، قال الأعرابى: مُرْها فلترجع إلى منبتها، فرجعت فدلَّت عُرُوقها فاستوت، فقال الأعرابى: ائْذَن لى أسجد لك، قال: لو أمرتُ أحدًا أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها. قال: فأذن لى أن أُقَبِّل يديك ورجليك، فأذِنَ له»

* وفى الصحيح، فى حديث جابر بن عبدالله الطويل، ذهب رسول الله - ﷺ - يقضى حاجته، فلم ير شيئا يستتر به، فإذا بشجرتين بشاطئ الوادى، فانطلق رسول الله - ﷺ - إلى احداهما فأخذ بغصن من أغصانها، فقال:

---

(١) الشفا ٢٩٨/١

انْقَادِى عَلَىّ بإذن الله، فانقادت معه كالبعير المخشوش، الذى يُصانع قائده، وذكر أنه فعل بالأخرى مثل ذلك، حتى إذا كان بالمنْصِف بينها، قال: «التئما علىّ بإذن الله، فالتأمتا»

* وفى رواية أخرى: فقال: «ياجابر، قُل لهذه الشجرة، يقول لك رسول الله الْحَقِى بصاحبتك حتى أجلس خلفكما، فزحفت حتى لحقت بصاحبتها، فجلس خلفهما، فخرجت احْضِرُ وجَلَسْتُ أُحَدِّثُ نفسي، فالتفتُّ فإذا رسول الله - ﷺ - مُقْبلا والشجرتان قد افترقتا، فقامت كلُّ واحدة منها على ساق، فوقف رسول الله - ﷺ - وقفةً فقال برأسه: هكذا يمينا وشمالا».

* قال القاضى عياض، بعد سرده العديد من القصص التى أتت بها الروايات الصادقة، والأحاديث الصحيحة:

«فهذا ابن عمر، وبريدة، وجابر، وابن مسعود، ويعلى بن مرة، وأسامة بن زيد، وأنس بن مالك، وعلى بن أبى طالب، وابن عباس وغيرهم.. قد اتفقوا على هذه القصة نفسها، أو معناها، ورواها عنهم من التابعين أضعافهم، فصارت فى انتشارها من القوة حيث هى»[١].

وذكر ابن فورك، أنه ﷺ - سار فى غزوة الطائف ليلا، وهو وَسِنٌ (أى نعسان) فاعترضته سِدْرة، فانفرجت له نصفين، حتى جاز بينها، وبقيت على ساقين إلى وقتنا وهى هناك معروفة معظمة.

١٤

ويَعْضُدُ هذه الأخبار، كما يقول القاضى عياض - حديث أنين الجذْع[٢]، وهو فى نفسه مشهور منتشر، والخبر به متواترٌ قد خرّجه أهلُ الصحيح، ورواه من الصحابة بضعة عشر، منهم: أُبىّ بن كعب، وجابر بن عبدالله، وأنس بن مالك، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس.. كلهم يحدث بمعنى هذا الحديث.

---

(١) الشفا ٣٠٦/١ (٢) الشفا ٣٠٣/١

قال جابر بن عبد الله: كان المسجد مسقوفا على جذوع نخل، فكان النبى - ﷺ - إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنِع له المنبر، سمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار.

وفى رواية أنس: حتى ارتجّ المسجد بخواره.
وفى رواية سهل: وكثر بكاء الناس لما رأوه به.

وفى رواية المطلب وأُبَىّ: حتى تصدع وانشق، حتى جاء النبى - ﷺ - فوضع يده عليه فسَكَت

زاد غيره: فقال النبى ﷺ - إن هذا بكى لما فَقَد من الذِّكر.

وزاد غيره: والذى نفسى بيده لو لم أَلْتَزِمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة تحزُّنا على رسول الله - ﷺ - فأمر به رسول الله - ﷺ - فدفن تحت المنبر.

وفى حديث بريدة، فقال النبى - ﷺ - إن شِئت أَرُدُّك إلى الحائط، الذى كُنتَ فيه، تنبت لك عروقك، ويكمل خَلْقك، ويجدد لك خوص وثمرة، وإن شئت أغرسك فى الجنة، فيأكل أولياء الله من ثمرك، ثم أصغى له النبى - ﷺ - يستمع ما يقول، فقال:

بل تغرسنى فى الجنة فيأكل منى أولياء الله، وأكون فى مكان لا أُبلَى فيه، فسمعه من يليه، فقال النبى -ﷺ- قد فعلت، ثم قال: اختار دار البقاء على دار الفناء فكان الحسن إذا حدّث بكى وقال: يا عباد الله.. الخشبة تحن إلى رسول الله -ﷺ- شوقا إليه لمكانه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه»[1].

قال القاضى عياض: فهذا حديث كما تراه خرّجه أهلُ الصحة من ذكرنا، وغيرهم من التابعين ضِعْفهم إلى مَنْ لم نذكره، وبدون هذا العدد يقع العلم لمن اعتنى بهذا الباب، أى معجزات الرسول.

---

(١) الشفا ١/٣٠٥

١٥

* ويرتبط بهذه المعجزات أيضا، ما ذكره القاضى عياض عن تسبيح الطعام وغيره من سائر الجمادات[١].

● فقد روى ابن مسعود: «كنا نأكل مع رسول الله - ﷺ - الطعام ونحن نسمع تسبيحه.

وقال أنس: أخذ النبى - ﷺ - كفًا من حصىً، فسبحْن فى يد رسول الله - ﷺ. حتى سمعن التسبيح، ثم صَبَّهن فى يد أبى بكر - رضى الله عنه - فسبحْن، ثم فى أيدينا فما سبحْن».

وقال علىّ: كنّا بمكة مع رسول الله - ﷺ، فخرج إلَى بعض نواحيها فما استقبله شجرة ولا جبل، إلا قال له: السلام عليك يارسول الله.

وعن عائشة - رضى الله عنها - قال رسول الله - ﷺ - لما استقبلنى جبريلُ - عليه السلامُ - بالرسالة، فجعلتُ لا أمرّ بحجر ولا شجر إلاّ قال: السلام عليك يارسول الله.

ويحضرنا الآن حديثه مع الراهب فى ابتداء أمره، إذ خرج تاجرًا مع عمه، وكان الراهب لا يخرج إلى أحد، فخرج وجعل يتخللّهم حتى أخذ بيد رسول الله - ﷺ - فقال: هذا سيد العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين فقال له أشياخ قريش: ما عِلْمُك؟ فقال: إنّه لم يبق شجر ولا حجر إلاّ خرَّ ساجدًا له، ولا يسجد إلاّ لنبى، وذكر القصة، ثم قال: وأقبل ﷺ وعليه غمامة تُظله، فلما دَنَا من القوم وجدهم سبقوه إلى فىء الشجرة، فلمّا جلَس مال الفَىْء إليه».

١٦

ويرتبط بهذا الجانب الاعجازى - فى سيرته ﷺ - ما ذكره القاضى عياض من معجزاته التى لها صلة بالحيوان[٢].

---

(١) الشفا ٣٠٦/١

(٢) الشفا ٣٠٩/١

● من ذلك ما روته عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان عندنا داجن، فإذا كان عندنا رسول الله - ﷺ - مَرَّ وثبت مكانه، فلم يجيئ ولم يذهب، وإذا خرج رسول الله - ﷺ - جاء وذهب.

● وروى عن عمر - أن رسول الله - ﷺ - كان فى محفل من أصحابه، إذ جاء أعرابى قد صاد ضَبًّا، فقال: مَنِ هذا، قالوا: نبيّ الله، فقال: واللات والعُزَّى لا آمنت بك، أو يؤمن بك هذا الضَّبّ، وطرحه بين يدى النبى - ﷺ - فقال النبى له يا ضَبُّ، فأجابه بلسَانٍ مُبِين، يسمعه القوم جميعا: لبَّيك وسعديك يازَيْن مَنْ وافى القيامة، قال: من تعبد؟، قال: الذى فى السماء عرشُه، وفى الأرض سُلطانه، وفى البحر سبيله، وفى الجنة رحمته، وفى النار عقابه، قال: فمن أنا؟ قال: رسول رب العالمين، وخاتم النبيين، وقد أفلح من صدَّقك، وخاب من كَذَّبك، فأسلم الأعرابى.

● وعن أنس - رضى الله عنه - دخل النبى - ﷺ - حائط أنصارى، وأبو بكر وعمر ورجلٌ من الأنصار، رضى الله عنهم، وفى الحائط غَنَمٌ، فسجدت له - ﷺ - فقال أبو بكر: «نحن أحق بالسجود لك منها... (الحديث)

● ومثله فى الجمل، عن عبد الله بن جعفر، قال؛ وكان لا يدخل أحد الحائط إلّا شَدَّ عليه الجَمَل، فلما دخل عليه النبى ﷺ - دعاه فوضع مِشْفَره على الأرض، وبرك بين يديه، فخَطَمه، وقال: ما بين السماء والأرض شيء إلا يعلم أنى رسول الله، إلا عاصِىَ الجن والإنس».

● وفى خبر آخر: فى حديث الجمل - «أن النبى ﷺ - سألهم عن شأنه فأخبروه أنهم أردوا ذبحه».

● وفى رواية - أن النبى - ﷺ - قال لهم: إنه شكى كثرة العمل، وقلة العلف، وأنه شكى إلى أنكم أردتم ذبحه بعد أن استعملتموه فى شاق العمل من صغره، فقالوا نعم.

● وروى ابن وهب أن حمام مكة أظلت النبى - ﷺ - يوم فتحها، فدَعَا لها بالبركة.

● وروى عن أنس، أن النبى ﷺ، قال: أمر الله ليلة الغار شجرة فنبتت تجاه النبى - ﷺ، فسترته، وأمر حمامتين فوقفتا بفم الغار»

● وفى حديث آخر: وأن العنكبوت نسجت على بابه، فلما أتى الطالبون له، ورأوا ذلك قالوا: لو كان فيه أحد لم تكن الحمامتان ببابه، والنبى - ﷺ - يسمع كلامهم فانصرفوا.

● وعن أم سلمة، كان النبى - ﷺ - فى صحراء، فنادته ظبية: يارسول الله، قال: ما حاجتك؟ قالت: صادنى هذا الأعرابى ولى خِشْفَان فى ذلك الجبل، فأطلقنى حتى أذهب فأرضعهما وأرجع، قال: أو تفعلين؟ قالت: نعم، فأطلقها فذهبت ورجعت، فأوثقها، فانتبه الأعرابى، وقال: يارسول الله ألك حاجة؟ قال ﷺ: تُطِلق هذه الظبية، فأطلقها، فخرجت تعدو فى الصحراء، وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله.

١٧

ويتصل بهذه المعجزات الحسِّية، التى يسَّرها الله لرسوله - ﷺ - ما جمعه القاضى عياض فى فصل إحياء الموتى وكلامهم، وكلام الصبيان والمراضع، وشهادتهم له بالنبوة[١].

من ذلك ما رواه أبو هريرة - رضى الله عنه - أن يهودية، أهدت للنبى - صلى الله عليه وسلم - بخيبر، شاةً مَصْلِيّة سمَّتها، فأكل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منها، وأكل القوم، فقال: ارفعوا أيديكم، فإنها أخبرتنى أنها مسمومة، فمات بشر بن البراء، وقال لليهودية: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: إن كنت نبيًّا لم يَضُرّك الذى صنعت، وإن كنت مَلِكًا أرحت الناس منك.

* ويبدو أن هذا الحديث، والأحاديث السابقة - كان هناك من لا يصدّقها، أو يقتنع بما جاء فيها، لأن الشاة كانت مذبوحة، وقد أعدت للأكل، فكيف تنطق بما قالت، وكذا يمكن أن يقال فيما جاء عن تسبيح الحصا، وحديث الجذع.

---

(١) الشفا ٣٦٦/١.

هنا يتصدى القاضى عياض قائلا.. إن حديث الشاة المسمومة هذا خرّجه أهل الصحيح وخرّجه الأئمة، وهو حديث مشهور، وإن كان قد اختلف الأئمة أهل النظر فيه. فمن قائل: يقول هو كلام يخلقه الله تعالى فى الشاة الميتة، أو الحجر، أو الشجر وحروف وأصوات يحدثها الله فيها، ويسمعها منها دون تغيير أشكالها، ونقلها عن هيئتها..

وهو مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى، والقاضى أبى بكر الباقلانى، رحمهما الله.

* وآخرون ذهبوا إلى إيجاد الحياة بها أولا ثم الكلام بعده.

وحكى هذا أيضا عن شيخنا أبى الحسن.

* يقول القاضى عياض معلّقا: «وكُلٌّ محتمل والله أعلم إذ لم يجعل الحياة شرطا لوجود الحروف والأصوات، إذ لايستحيل وجودُها مع عدم الحياة بمجردها..

فأما إذا كانت عبارة عن الكلام النفسى، فلابد من شرط الحياة لها، إذ لا يُوجد كلام النفس إلا من حىّ، خلافا للجبائى من بين سائر متكلمى الفِرَق، فى إحالة وجود الكلام اللفظى والحروف والأصوات إلا من حىّ مركب، على تركيب من يصح منه النطق بالحروف والأصوات والتزم ذلك فى الحصا والجذع والذِّراع. وقال: «إن الله خَلَق فيها حياة، وخرق لها فمًا ولسانا وآلة أمكنها بها من الكلام. وهذا لو كان – لكان نقلُهُ والتَّهَمُّمُ به آكد من التَّهمم بنقل تسبيحه أو حنينه».

ثم يقول القاضى عياض: «ولم ينقُل أحدٌ من أهل السِّيَر والرواية شيئا من ذلك، فدَلَّ على سقوط دعواه، مع أنه لا ضرورة إليه فى النظر»[1].

---

(١) الشفا ٣١٩/١.

١٨

وقد ضم القاضى عياض إلى ما سبق من معجزات الرسول - معجزات أخرى منحها الله له تدعيما لمكانته، وتصديقا بنبوته، وإيمانا بدعوته.. من ذلك ما جاء من كلام الصبيان والمراضع، وشهادتهم له بالنبوة. ومن ذلك أيضا، ما جاء من أخبار تتحدث عن إحياء الموتى بإذن الله أو الكلام معهم، أو إبراء المرض وذوى العاهات.

«من ذلك ما يروى عن فهد بن عطية، أن النبى - ﷺ - أُتى بصبى قد شبَّ لم يتكلم قط، فقال: من أنا؟ فقال: رسول الله»

ومن ذلك ما روى عن مُعَرِّض بن مُعَيقب؛ رأيت من النبى - ﷺ - عجبا، جيء بصبى يومَ وُلد، فذكر مثله. وهو حديث مبارك اليمامة، فقال له النبى - ﷺ: (صَدَقت بَارَك الله فيك) ثم إن الغلام لم يتكلم بعدها حتى شبَّ، فكان يسمى مبارك اليمامة وكانت هذه القصة بمكة فى حجة الوداع.

* وعن أنس، أن شابا من الأنصار تُوُفى، وله أُم عجوز عمياء، فسجَّيناه وعزَّيْنَاها، فقالت: مات ابنى، قلنا: نعم، قالت: اللهم إن كنت تعلم أنى هاجرت إليك وإلى رسولك رجاء أن تعيننى على كل شدة، فلا تحملَنّ على هذه المصيبة، فما برحنا أن كشف الثوب عن وجهه، فطعم وطعمنا.

* وروى عن عبيد بن عبيد الأنصارى، كنت فيمن دفَنَ ثابت بن قيس بن شماس، وكان قُتل باليمامة، فسمعناه حين أدخلناه القبر يقول: محمد رسول الله. فنظرنا فإذا هو ميت.

* وعن الحسن، أتى رجل النبى - ﷺ - فذكر له أنه طَرَح بُنَيَّة له فى وادى كذا، فانطلق معه إلى الوادى، وناداها باسمها يافلانة، أجيبى بإذن الله، فخرجت وهى تقول: لبيّك وسعديك، فقال لها إن أبويك قد أسلما. فإن أحببت أن أرُدّك عليهما، قالت: لا حاجة لى فيهما، وجدتُ الله خيرًا لى منهما».

١٩

أما ما جاء عن إبراء المرضى وذوى العاهات

* فقد قال سعد بن أبى وقاص، فيما يتصل بيوم أُحُد، أن رسول الله ﷺ ليناولني السهم لا نصل له، فيقول: ارم به، وقد رمى رسول الله -ﷺ- يومئذ عن قوسه حتى اندقّت، وأُصِيبَ يومئذ عين قَتادة بن النعمان، حتى وقعت على وَجْنَتيه، فردَّها رسولُ الله - ﷺ، فكانت أحسن عينيه.

* وروى النِّسائى، عن عثمان بن حنيف، أن أعمى قال: يارسول الله: ادعُ الله أن يكشف لى عن بَصَرى، قال: فانطلق فتوضّأ، ثم صلِّ ركعتين، ثم قُل: اللّهُم إنّى أسألُكَ وأتوجّه إليك بنَبيِّ محمد، نبى الرحمة يامحمد إنى أتوجه بك إلى ربِّك أن يكشف عن بَصَرِى، اللّهُمّ شَفِّعْهُ فىَّ، قال: فرجع وقد كشف الله عن بصره.

* وذكر العُقَيْلِيُّ عن حبيب بن فُدَيْك، أن أباه ابيضّت عيناه، فكان لا يُبصر بهما شيئا، فنفث رسول الله فى عينيه، فأبصر فرأيته يدخل الخيط فى الإبرة وهو ابن ثمانين.

* ورُمِيَ كُلْثُوم بن الحُصَيْن يوم أُحُد فى نحره، فبصق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيه فبرأ وتَفَلَ فى عينى علىّ يوم خيبر، وكان رمدا فأصبح بارئا، ونفث على ضربةٍ بساق سَلَمة بن الأكوع يوم خيبر فبرئت. وفى رجل زيد بن معاذ حين أصابها السيف إلى الكَعْب حين قَتَل ابن الأشراف فبرئت. وعلى ساق علىّ بن الحكم يوم الخندق إذ انكسرت فبرئَ مكانه وما نزل عن فرسه. وقطع أبو جهل يوم بدر يد معوِّذِ بن عفراء، فجاء يحمل يده فبصق عليها رسول الله - ﷺ - وألصقها فلصِقت.

* وروى ابن وهب أن خُبَيْب بن يساف، أصيب يوم بدر، مع رسول الله -

---

(١) الشفا ٣٢١/١.

ﷺ - بضَرْبةٍ على عاتقه حتى مال شِقه، فردَّه رسول الله - ﷺ، ونفث عليه حتَّى صَحَّ.

* وعن ابن عباس: جاءت امرأة بابنٍ لها به جُنُون، فمسح صدره فثعَّ ثعَّة فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود فَسَعَى.

وانكفأت القدر على ذراع محمد بن حاطب، وهو طفل فمسح عليه، ودَعَا له، وتفل فيه فبرأ لحينه.

وهذه كلها أمور كانت تحدث بإذن الله، وببركة رسول الله - ﷺ، مما يكسب النفوس الثقة، ويغمر القلوب بالإيمان.

٢٠

ويتصل بما سبق إجابة الله سبحانه وتعالى لدعائه، تحقيقا لصدق نبوته واثباتا لمعجزته التأييدية[١].

«وإجابة دعوة النبى ﷺ لجماعة بما دَعَا لهم وعليهم متواتر على الجملة، معلوم ضرورة.

جاء فى حديث حذيفة: كان رسول الله - ﷺ - إذا دَعَا لرجل أدركت الدعوة ولده وَوَلَدَ ولدِه.

* روى قتادة عن أنس، رضى الله عنه، قال: قالت أميِّ: يارسول الله، خادمك أنس، ادُعُ له، قال: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما آتيته»، قال أنس: فوالله إن مالى لكثير، وإن ولدى وولد ولدى ليُعَادُّون اليوم على نحو المائة.

* ومنه دعاؤه لعبد الرحمن بن عوف بالبركة، قال عبد الرحمن فلو رفعتُ حجرًا لرجوتُ أن أصيب تحته ذهبًا، وفتح الله عليه، ومات فحُفِرَ الذهب من تركته بالفؤوس حتى مجَلَتَ فيه الأيدى، وأخذت كل زوجة ثمانين ألفا، وكُنّ

(١) الشفا ٣٢٥/١.

أربعا، وقيل: مائة ألف، وأوصى بخمسين ألفا بعد صدقاته الفاشية فى حياته، وعوارفه العظيمة، أعتق يوما ثلاثين عبدًا، وتصدّق مرة بِعِيرٍ فيها سبعمائة بَعِير، وردت عليه تحمل من كل شىء فتصدق بها، وبما عليها، وبأقتابها وأحلاسها.

* وقال لأبى قتادة: أفلَحَ وَجْهُك، اللّهم بارك فى شَعْره وبَشَرِه، فمات وهو ابن سبعين سنة وكأنه ابن خمسَ عشرة سنة.

* وقال للنابغة: لا يَفْضُض الله فَاكَ، فما سَقَطَتْ له سِن، وفى رواية: فكان أحسن الناس ثغرا إذا سقطت له سن نبتت له أخرى، وعاش عشرين ومائة.

* وسأله الطفيل بن عمرو آية لقومه، فقال: اللهم نورّ له، فسطع له نور بين عينيه، فقال أخاف أن يقولُوا مُثْلة، فتحوَّل إلى طَرَفِ سَوْطه، فكان يُضىء فى الليلة المظلمة، فسمى ذا النُّور.

* ودَعَا على كِسْرَى حين مزق كتابه، أن يمزّق الله ملكه، فلم تبق له باقية، ولا بقيت لفارس رياسة فى أقطار الدنيا.

وهذا الباب أكثر من أن يحاط.

٢١

ويتابع القاضى عياض حديثه عن معجزات الرسول ﷺ، فيذكر معجزات أخرى تتناول جانبين هامين:

أولهما: ما أُطْلع عليه من الغيوب.

ثانيها: عصمة الله له من الناس، وكفايته أذاهم.

١ - أما ما أُطلع عليه من الغيوب، فيقول القاضى عياض[١]:

«إن الأحاديث فى هذا الباب بحرٌ لا يُدْرك قَعْره، ولا يُنْزَف غَمْرُه، وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر لكثرة رُواتها، واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب».

(١) الشفا ٣٢٥/١.

عن حذيفة، قال: «قام فينا رسول الله - ﷺ - مقامًا، فما ترك شيئا يكون فى مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدَّثه، حَفِظَه من حَفِظَهُ، ونَسِيَهُ من نَسِيه، قد عَلِمه أصحابى هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل، إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه.

ثم قال حذيفة: ما أدرى أَنَسِيَ أصحابى أم تناسوه، والله ما ترك رسول الله - ﷺ - من قائد فتنة إلى أن تنقضى الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعدًا إلا قد سمّاه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته».

قال القاضى عياض: «وقد خرّج أهل الصحيح والأئمة ما أَعْلَمَ به أصحابه - ﷺ - ممّا وعدهم به من الظهور على أعدائه، وفتح مكة، وبيت المقدس، واليمن، والشام، والعراق، وظهور الأمن حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله، وأن المدينة ستغزى، وتفتح خيبر على يَدَى علىّ فى غد يومه، وما يفتح الله على أمته من الدنيا، ويؤتون من زهرتها، وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر، وما يحدث بينهم من الفتون والاختلاف والأهواء، وسلوك سبيل من قبلهم، وافتراقهم على ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها فرقة واحدة، وأنها ستكون لهم أنماط، ويغدو أحدهم فى حُلّة ويروح فى أخرى، وتوضع بين يديه صَحْفَة، وتُرفع أخرى، ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة».

ثم قال آخر الحديث: «وأنتم اليوم خير منكم يومئذ، وأنهم إذا مَشوا المُطَيْطَاء (البخترة) وخدمتهم بنات فارس والروم، رد الله بأسهم بينهم، وسلّط شرارهم على خيارهم».

وقال ﷺ: «ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، وأنه زويت له الأرض فأُرى مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمته ما زوى له منها، ولذلك كان امتدت فى المشارق والمغارب ما بين أرض الهند أقصى المشرق، إلى بحر طنجة حيث لا عمارة وراءه، وذلك ما لم تملكه أمة من الأمم، ولم تمتد فى الجنوب ولا فى الشمال مثل ذلك.

● أما ما يتصل بالأفراد، فقد ذكر القاضى عياض كثيرا من الأخبار

المستقبلية، التى حدثت لهم وقد حدّث عنها رسول الله ﷺ مما ينبئ أنه أُطلع على الغيب.

من ذلك قوله: «يُقتل عثمان وهو يقرأ المصحف، وأن الله عسى أن يُلبسه قميصا، وأنهم يريدون خلعه، وأنه سيقطر دمه»

وقوله «إن الفتن لا تظهر ما دام عُمَر حيًّا، وأن عمارًا تقتله الفئة الباغية، فقتله أصحاب معاوية، وقال لعبد الله بن الزبير: ويلٌ للناس منك، وويل لك من الناس.

وقال فى قزمان وقد أبلى مع المسلمين، إنه من أهل النار، فقتل نفسه. وقال فى حنظلة الغسيل: «سَلُوا زوجته عنه فإنى رأيت الملائكة تُغَسِّله» فسألوها فقالت: إنه خرج جُنُبا، وأعجله الحال عن الغُسْل، قال أبو سعيد رضى الله عنه - ووجدنا رأسَهُ يقطر ماء.

● وأما ما يتصل بالدولة، فقد أنذر ﷺ بالرِّدة، وبأن الخلافة بعد ثلاثون سنة، ثم تكون مُلْكا، فكانت كذلك بمدة الحسن بن على، وقال: إن هذا الأمر بدأ نبوة ورحمة، ثم يكون رحمة وخلافة، ثم يكون مُلْكا عضوضا، ثم يكون عُتُوًّا وجبروتا وفسادًا فى الأمة»[1].

٢ - عصمة الله له:

وأما عصمة الله تعالى له من الناس، وكفايته من أذاهم - كما يقول القاضى عياض - فيتجلى فى قول الحق سبحانه: ﴿والله يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

وقوله عز وجل: ﴿واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فإنَّكَ بأَعْيُنِنَا﴾.

قالت عائشة رضى الله عنها -: كان النبى - ﷺ - يُحْرَس حتى نزلت هذه الآية: ﴿والله يَعْصِمكَ من النَّاسِ﴾ فأخرج رسول الله - ﷺ - رأسه من القبّة فقال لهم: «يـأيها الناس انصرفوا فقد عصمنى ربى عز وجل».

---

(١) الشفا ١/٣٤٠.

* وروى أن النبى - ﷺ - كان إذا نزل منزلا اختار له أصحابه شجرة يُقِيل تحتها، فأتاه أعرابى فاخترط سيفه، ثم قال: مَنْ يَمْنَعُك منى؟ فقال: الله عز وجل، فرُعدِت يد الأعرابى، وسقط سيفه، وضرب برأسه الشجرة حتى سال دماغه، فنزلت الآية».

* قال القاضى عياض: وقد حكيت مثل هذه الحكاية، أنها جرت له يوم بدر، وقد انفرد من أصحابه لقضاء حاجته، فتبعه رجل من المنافقين، وذكر مثله.

وقد روى أنه وقع له مثلها فى غزوة غطفان، بذى أمر، مع رجل اسمه دَعْثور بن الحارث وأن الرجل أسلم فلما رجع إلى قومه الذين أغروه، وكان سيدهم وأشجعهم، قالوا له: أين ما كنت تقول، وقد أمكنك؟ فقال: إنى نظرتُ إلى رجل أبيض طويل، دفع فى صدرى فوقعت لظهرى، وسقط السيف، فعرفت أنه مَلَكٌ وأسلمت. قيل وفيه نزلت: ﴿يـاأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُروا نعمةَ الله عَلَيكُمْ إذْ هَمَّ قَومٌ أَنْ يَبْسُطُوا إلَيْكُم أَيْدِيهم﴾ الآية.

وقيل: كان رسول الله - ﷺ - يخاف قريشا، فلما نزلت هذه الآية ﴿والله يَعصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، استلقى ثم قال: من شاء فلْيخْذُلْنى.

* وعن الحكم ابن أبى العاص، قال: تواعدنا على النبى - ﷺ - حتى إذا رأيناه سمعنا صوتا خلفنا ما ظَنَنَّا أنه بقى بتهامة أحدٌ فوقعنا مغشيا علينا، فما أفقنا حتى قَضَى صلاته، ورجع إلى أهله.

* وعن عمر - رضى الله عنه، تواعدتُ أنا وأبو جهم بن حذيفة ليلةً قتل رسول الله - صلى الله عليه وسلم. فجئنا منزله، فسمعنا له، فافتتح وقرأ ﴿الحاقَّةُ ما الحاقّة﴾ إلى ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِنْ بَاقِيَة﴾ فضرب أبو جهم على عَضُدِ عُمر وقال: انجُ، وفرَّا هاربين، فكانت من مقدمات إسلام عُمر.

* وجاءه - فيما ذكر ابن اسحاق وغيره - أبو جهل بصخرة وهو ساجدٌ، وقريش ينظرون ليطرحها عليه، فلزقت بيده، ويبست يداه إلى عُنقه، وأقبل

(١) الشفا ٣٥٤/١.

يرجع القهقرى إلى خَلْفِه، ثم سأله أن يدعو له، ففعل، فانطلقت يداه، وكان قد تواعد مع قريش بذلك، وحَلَفَ لئن رآه ليدمغنّه، فسألوه عن شأنه فذكر أنه عَرَضَ لى دونَهُ، فَحْلٌ ما رأيت مثله قط، همّ بى أن يأكلنى، فقال النبى - ﷺ: ذاك جبريل لَوْ دنا لأخذه.

٢٢

وبعد أن أورد القاضى عياض الكثير من الأخبار والآثار التى تحكى عصمة الله له، وحمايته ممن أراد به السوء، وكفايته من أذاه..

عرّج بنا إلى الحديث عن معجزات باهرة أخرى، خصّه الله بها، وأنار قلبه وبصائره للنهل منها.. يقول:

«فمن هذه المعجزات ما جمعه الله له من المعارف والعلوم، وخصّه به من الاطلاع على جميع مصالح الدنيا والدين، ومعرفته بأمور شرائعه وقوانين دينه، وسياسة عباده ومصالح أمته، وما كان فى الأمم قبله، وقصص الأنبياء والرسل، والجبابرة، والقرون الماضية من لدن آدم إلى زمنه، وحِفظ شرائعهم وكتبهم، ووَعْىِ سيرهم، وسرد أنبائهم، وأيام الله فيهم، وصفات أعيانهم، واختلاف آرائهم، والمعرفة بمُدَدِهم وأعمارهم وحكم حكمائهم، ومحاجة كل أمة من الكفرة، ومعارضة كل فرقة من الكتابيين بما فى كُتبهم، وإعلامهم بأسرارها ومخبآت علومها، وإخبارهم بما كتموه من ذلك وغيروه، إلى الاحتواء على لغات العرب، وغريب ألفاظ فِرقها، والإحاطة بضُروب فصاحتها، والحفظ لأيامها وأمثالها، وحِكَمها ومعانى أشعارها، والتخصيص بجوامع كلمها إلى المعرفة بضرب الأمثال الصحيحة، والحكم البينة لتقريب التفهيم للغامض والتبيين للمُشكل إلى تمهيد قواعد الشّرْع الذى لا تناقُض فيه. ولا تخاذل مع اشتمال شريعته على محاسن الأخلاق، ومحامد الآداب، وكل شيء مستحسن مفصَّل لم ينكر منه مُلْحِد ذُو عقل سليم شيئا، إلا من جهه الخذلان، بل كُلّ جاحد له وكافر من الجاهلية به، إذا سمع ما يدعو إليه صوَّبه واستحسنه دون طلب إقامة برهان عليه، ثم ما أحلَّ لهم من الطيبات، وحَرَّم عليهم من الخبائث، وصان به أنفسهم وأعراضهم وأموالهم

من المعاقبات والحدود عاجلا، والتخويف بالنار آجلا، مما لا يُعْلَم علمه، ولا يقوم به ولا ببعضه إلا من مارسَ الدرس، والعكوف على الكُتُب ومُثَافنة بعض هذا إلى الاحتواء على ضروب العلم، وفنون المعارف كالطب، والعِبَارة، والفرائض والحساب والنسب.. وغير ذلك من العلوم، مما اتخذ أهل هذه المعارف كلامه - ﷺ - فيها قدوة وأصولا فى علمهم».

* كقوله - ﷺ: «الرؤيا لأوّل عابر وهى على رجل طائر».

أى على قَدَرٍ جارٍ وقضاءٍ ماضٍ من خير أو شر.

قال ابن الأثير: هو من قولهم «اقتسموا دارًا فطارسهم فلان إلى ناحية كذا، يعنى أن الرؤيا وهى التى يعبر المعبر الأول، فكأنها سقطت ووقعت حين عبرت كما يسقط الذى يكون على رجل الطائر بأدنى حركة.

قال ابن قتيبة: «أراد أنها غير مستقرة، يقال للشىء إذا لم يستقر هو على رجل طائر، وبين مخالب طائر، وعلى قرن ظبى»[1].

* وقوله فى الطب: «خير ما تداويتُم به السُّعُوطُ واللُّدُودُ والحِجَامَة والمشىُّ، وخير الحجامة يوم سبع عشرة، وتسع عشرة، وإحدى وعشرين، وفى العود الهندى سبعة أشفية، منها ذاتُ الجَنْب».

والسعوط: هو ما يجعل فى الأنف من الأدوية، كالنشوق. واللدود: هو الدواء المسهل لأنه يحمل شاربه على المشى والتردد إلى الخلاء، والقسط البحرى هو العود الذى يتبخّر به.

* وقوله ﷺ - فى الأنساب، «حِمْيَر رأسُ العرب ونابُها، ومَذْحِجُ هامتها وغلصمتها، والأزْدُ كاهلها وجمجمتها، وهمدانُ غاربها وذروتها».

ومذحج: هو أبو قبيلة من اليمن، وهو مَذْحجُ بن يحاص بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ.

وغلصمتها: من الغاصمة، وهى رأس الحلقوم، وهو الموضع الثانى فى الحلق.

---

(١) الشفا ١/٣٥٥.

وكاهلها: الكاهل من الإنسان ما بين كتفيه وذروتها: أعلاها.

وكذلك جوابه - ﷺ - فى نسب قضاعة، وغير ذلك مما اضطرت العربُ على شُغلها بالنسب إلى سؤاله عما اختلفوا فيه من ذلك.

وقوله - ﷺ - لكاتبه: «ضَعْ القلم على أُذُنِكَ فإنّه أَذْكَرُ للمُمِلِّ»

هذا مع أنه - ﷺ - كان لا يكتب، ولكنه أوتى عِلْمَ كل شىء حتى قد وردت آثرٌ بمعرفته حروف الخط، وحسن تصويرها، كقوله ﷺ - فيما رواه ابن شعبان عن طريق ابن عباس: «لا تمُدُّوا بِسْمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيم».

وقوله فى الحديث الآخر، الذى يروى عن معاوية، أنه كان يكتب بين يديه - ﷺ فقال له: «أَلقِ الدَّوَاةَ وحرِّفْ القَلَم، وأَقِم الباء، وفرق السين، ولا تُعَوِّر الميم، وحَسِّن الله، ومُدَّ الرَّحْمَن، وجوِّد الرحيم».

وهذا وإن لم تصح الراوية أنه كتب، فلا يبعد أن يرزق علم هذا، ويُمنَع الكتابة والقراءة.

* ثم يذكر القاضى عياض ما اكتسبه - ﷺ - من علوم ومعارف ولغات.

فيقول:[1] «أما علمه بلغات العرب، وحفظه معانى أشعارها، فأمر مشهور، وكذلك حفظه الكثير من لغات الأمم.

كقوله فى الحديث: «سَنَهْ سَنَهْ» وهى حَسَنة بالحبشية.

وقوله فى الحديث: «يكثر الهَرْجُ» وهو القتل بها.

وقوله فى حديث أبى هريرة: «أَشْكَنْبَ دَرْدَ» أى وجع البطن بالفارسية إلى غير ذلك، مما لا يَعْلَم بعض هذا، ولا يقوم به ولا ببعضه إلّا من مارس الدرس، والعكوف على الكُتُب، ومُثَافَنَة أهلها عُمرَه، وهو رجل - كما قال الله تعالى (أُمىّ) لم يكتب ولم يقرأ ولا عُرف بصحبة مَنْ هذه صفته، ولا نشأ بين قوم لهم

(١) الشفا ٣٥٨/١.

عِلْمٌ ولا قراءة لشيء من هذه الأمور. ولا عُرِف هو قبل بشيء منها، قال الله تعالى:

﴿وما كُنتَ تَتْلُو من قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ولا تَخُطُّهُ بيَمِينِكَ﴾ الآية.

«إنما كانت غاية معارف العرب النَّسَب وأخبار أوائلها والشعر والبيان، وإنما حصل ذلك لهم بعد التفرغ لعلم ذلك، والاشتغال بطلبه، ومُبَاحَثة أهل عنه».

«وهذا الفن نقطة من بحر علمه - ﷺ - ولا سبيل إلى جحد المُلْحِد لشيء مما ذكرناه، ولا وجد الكفرة حيلة فى دفع ما نصصناه إلا قولهم ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينِ﴾ ﴿وإنّما يُعَلِّمهُ بَشَر﴾، فردَّ الله قولهم بقوله:

﴿لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُون إِلَيْه أَعْجَمِىّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِين﴾.

* ويفند القاضى عياض مزاعمهم، مدافعا عن علم رسول الله، وأنه مكتسب بالإلهام الإلهى فيقول:

«ثم ما قالوه مكابرة العِيَان، فإن الذى نَسَبُوا تَعْليمه إليه، إما سَلْمَان، أو العبد الرومى، وسلمان إنما عرفه بعد الهجرة ونزول الكثير من القرآن، وظهور ما لا ينعدّ من الآيات. وأما الرومى فكان أسلم، وكان يقرأ على النبى - ﷺ - وقيل: بل كان النبى - ﷺ - يجلس عنده عند المروة، وكلاهما أعجمى اللسان، وهُم الفصحاء اللُّدد، والخطباء اللُّسْن، قد عجزوا عن معارضة ما أتى به، والإتيان بمثله، بل عن فهم وصفه، وصورة تأليفه ونظمه.. فكيف بأعجمى ألكن؟

«نعم، وقد كان سلمان، أو بلعام الرومى، أو يعيش، أو جبر، أو يسار، على اختلافهم فى اسمه بين أظهرهم يكلمونهم مدى أعمارهم.. فهل حُكِى عن واحد منهم شىء من مثل ما كان يجىء به محمد - ﷺ؟ وهل عُرف واحدٌ منهم بمعرفة شىء من ذلك؟»

ويتابع القاضى عياض دفاعه قائلا:

«وما منع العدو حينئذ على كثرة عدده، ودؤوب طلبه، وقوة حسده أن يجلس إلى هذا فيأخذ عنه أيضا ما يُعارض به، ويتعلم منه، ما يحتج به على شيعته،

كفعل النضر بن الحارث بما كان يُمَخْرِق به من أخبار كتبه، ولا غاب النبى - ﷺ - عن قومه، ولا كُثرت اختلافاته إلى بلاد أهل الكتب، فيقال إنه استمد منهم، بل لم يزل بين أظهرهم يرعى فى صغره وشبابه على عادة أنبيائهم، ثم لم يخرج عن بلادهم إلا فى سَفرةٍ أو سفرتين لم يطل فيهما مُكثُه مدة يحتمل فيها تعليم القليل، فكيف الكثير؟.

«بل كان فى سفره فى صُحبة قومه ورفاقه وعشيرته، لم يَغِب عنهم، ولا خالف حاله مدة مقامه بمكة من تعليم، واختلاف إلى حَبْر أو قَسّ أو كاهن، بل لو كان هذا بعدُ كُله، لكان مجيء ما أتى به فى معجز القرآن قاطعا لكل عُذْر، ومُدْحضًا لكل حجة، ومجليا لكل أمر.

٢٣

وعلى الرغم من أن القاضى عياض قد أشبع باب المعجزات تحليلا واستدلالا، وتفسيرا واستشهادًا، إلا أنه أبى أن يختمه قبل أن يميز بين معجزات الرسول - صلى الله عليه وسلم، ومعجزات غيره من الأنبياء والرسل، خاصة معجزات موسى وعيسى عليهما السلام.

يقول القاضى عياض فى هذه الخاتمة:[١] «ومعجزات نبينا - ﷺ - أظهر من سائر معجزات الرسل بوجهين: أحدهما: كثرتها، والثانى: وضوحها.

١ - أما كثرتها: فإنه لم يؤت نبى معجزة إلا وعند نبينا مثلها، أو ما هو أبلغ منها.

وقد نبه الناس على ذلك، فإن أردته فتأمل فصول هذا الباب، ومعجزات من تقدم من الأنبياء تقف على ذلك إن شاء الله.

● وأما كونها كثيرة، فهذا القرآن، وكلّه معجز، وأقل ما يقع الاعجاز فيه عند بعض أئمة المحققين سورة الكوثر، أو آية فى قدرها.

---

(١) الشفا ١/٣٦٩.

● «وذهب بعضهم إلى أن كل آية منه كيف كانت معجزة، وزاد آخرون.. أن كل جملة منتظمة منه معجزة، وإن كانت من كلمة أو كلمتين».

● «ثم إعجازه كما تقدم بوجهين: طريق بلاغته، وطريق نظمه، فصار فى كل جزء من هذا العدد معجزتان، فتضاعف العدد من هذا الوجه».

● «ثم فيه وجوه إعجاز أُخر، من الإخبار بعلوم الغيب، فقد يكون فى السورة الواحدة من هذه التجزئة الخبر عن أشياء من الغيب، كل خبر منها بنفسه معجز، فتضاعف العدد كرة أخرى.

● «ثم وجوه الاعجاز الأخرى - التى ذكرناها - توجب التضعيف، هذا فى حق القرآن، فلا يكاد يأخذ العد معجزاته، ولا يحوى الحصر براهينه».

● «ثم الأحاديث الواردة، والأخبار الصادرة عنه ﷺ فى هذه الأبواب، وعمَّا دَلَّ على أمره مما أشرنا إلى جُمَله يبلغ نحوا من هذا.

● وينتقل القاضى عياض للحديث عن الوجه الآخر، فيقول:

٢ - أما وضوح معجزاته، ﷺ فإن معجزات الرسل كانت بقدر همم أهل زمانهم، وبحسب الفن الذى سَمَا فيه قرنُه.

«فلما كان زمن موسى غاية علم أهله السِّحر، بُعث إليهم موسى بمعجزة تُشبه ما يدَّعون قدرتهم عليه، فجاءهم منها ما خرق عادتهم، ولم يكن فى قدرتهم، وأبطل سِحرهم».

«وكذلك زمن عيسى أغنى ما كان الطبُّ وأوفر ما كان أهله، فجاءهم أمر لا يقدرون عليه. وأتاهم ما لم يحتسبوه من إحياء الميت، وإبراء الأكمه والأبرص، دون معالجة ولا طب، وهكذا سائر معجزات الأنبياء.

* ثم يتحول إلى الحديث عن معجزة الرسول ﷺ وهى القرآن، فيقول:

«إن الله بعث محمدًا وجملة معارف العرب وعلومها أربعة: البلاغة والشعر والخبر والكهانة فأنزل الله عليه القرآن الخارق لهذه الأربعة، فصول من الفصاحة والإيجاز والبلاغة الخارجة عن نمط كلامهم، ومن النظم الغريب،

والأسلوب العجيب، الذى لم يهتدوا فى المنظوم إلى طريقه، ولا عَلِمُوا فى أساليب الأوزان منهجه، ومن الأخبار عن الكوائن والحوادث والأسرار والمخبآت والضمائر، فتوجد على ما كانت، ويعترف المخبر عنها بصحة ذلك وصدقه، وإن كان أعدى العَدُوّ، فأبطل الكهانة، التى تصدق مرة، وتكذب عشرا، ثم اجتثها من أصلها برجم الشهب، ورصد النجوم».

«وجاء من الأخبار عن القرون السالفة، وأنباء الأنبياء والأمم البائدة، والحوادث الماضية ما يُعجز مَنْ تَفَرَّغ لهذا العِلْم عن بعضه على الوجوه التى بسطناها، وبيَّنا المعجز فيها».

«ثم بقيت هذه المعجزة الجامعة لهذه الوجوه ثابتة إلى يوم القيامة، بيّنة الحجة لكل أمة تأتى، لا يخفى وجوه ذلك على من نظر فيه.

*** ثم ينتقل إلى الحديث عن عنصر الخلود والبقاء للمعجزة القرآنية، وانقراض وفناء غيرها من المعجزات فيقول:**

«وسائر معجزات الرسل انقرضت بانقراضهم، وعُدمت بعدم ذواتها، ومعجزة نبينا ﷺ لا تبيد ولا تنقطع، وآياتُهُ تتجدد ولا تضمحل، ولهذا أشار النبى ﷺ بقوله الذى رواه أبو هريرة:

«ما مِنَ الأنبياءِ نبىٌّ إلاَّ أُعْطِىَ من الآيات ما مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْه البَشَر، وإنما كَانَ الذى أُوتِيتُ وَحْيًا أوحاه الله إلىّ، فأرجُو أَنْ أكُونَ أكثَرَهُم تابعا يومَ القيامة».

البَابُ الثانى

حُقُوق الرَّسُول قِبَل المسلمين

الفصل الأول: وجوب الإيمان به ﷺ

الفصل الثانى : لزوم محبّته

الفصل الثالث: وجوب تعظيمه وتوقيره وبرّه

الفصل الرابع : وجوب الصلاة عليه وزيارة قبره الشريف.

حُقُوق الرَّسول قِبَل المُسْلِمين

تمهيد:

أوضح القاضى عياض فى الباب الأول من سيرة المصطفى ﷺ **شخصية الرسول كما حددها القرآن**، فتحدث عن مكانته عند ربه، وعناية الله به، ومؤهلاته للنبوة، بالإضافة إلى صفاته، من رجاحة العقل، والرحمة والعدل، والكرم والشجاعة، والعفو والحلم.. ليبرهن فى النهاية أن كل مؤهلات ومواصفات النبوة قد توفرت فى شخصه الكريم.

وفى هذا الباب، يتناول القاضى عياض بالتحديد «**حقوق الرسول المصطفى - ﷺ قِبَل المسلمين**» وهذه الحقوق تتجلى فى **وجوب الإيمان به، وتصديق** دعوته، واتباع سنته، وطاعته ومحبته، ومناصحته وتوقيره وبرّه، والصلاة عليه والتسليم، وزيارة قبره الشريف. بعد أن استعرض ما جاء فى **الكتب السماوية السابقة**، من التبشير به وببعثته، وشهادة علماء أهل الكتاب له بذلك، وشهادة الحق - سبحانه - وملائكته له، ثم تأييده - تعالى - له بالمعجزات المعنوية والحسّية.

فى هذا الباب الجديد، يُطبق القاضى عياض **القاعدة الإيمانية العريضة**، وفق منهج أهل الحق والسنة والجماعة، وهى **الإيمان بالرسول** ﷺ كجزء من الإيمان برسل الله جميعا، لأنه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، ختم الله به سائر النبوات، فهو النبى الخاتم، الذى أمرنا الله تعالى باتباعه، بقوله عز وجل:

﴿فآمِنُوا بالله ورَسُوله والنورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا﴾.

وقوله سبحانه: ﴿فآمِنُوا بالله ورسُوله النبى الأمى، الَّذِى يُؤْمِنَ بالله وكَلِمَاته واتَّبِعُوه لعلكم تهتَدُون﴾.

* وقد حدد القاضى عياض فى هذا الباب **حقوق الرسول قِبَل المسلمين** فيما يلى:

١ - وجوب الإيمان به وتصديقه، ووجوب طاعته واتباع سنته ﷺ.
٢ - وجوب محبته وتوقيره ﷺ
٣ - وجوب تعظيم أمره ﷺ
٤ - وجوب الصلاة عليه والتسليم، وزيارة قبره الشريف.

الفصل الأول

وجوب الإيمان بالرسول المصطفى ﷺ

١

بعد أن أثبت الحق سبحانه نبوة النبى المصطفى ﷺ وصحة رسالته.. أوجب علينا الإيمان به، وتصديقه فيما أتى به، تحقيقا وتنفيذا لأمره سبحانه وتعالى:

﴿فآمِنُوا بالله ورَسُوله والنورِ الذى أَنْزَلْنَا﴾.

﴿إنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وُمبَشِّرا ونَذِيرًا، لِتُؤْمِنُوا بالله وَرَسُوله﴾.

يقول القاضى عياض[1]: فالإيمان بالنبى محمد ﷺ، واجب متعيّن، لا يتم إيمان إلا به ولا يصح إسلام إلّا معه. قال الله تعالى:

﴿ومَنْ لَمْ يُؤمِنْ بالله ورَسُوله فإنَّا أعْتَدْنَا للكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾.

وقال الرسول ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة رضى الله عنه:

«أُمِرْتُ أن أُقَاتِل الناسَ حتى يَشْهَدُوا أن لَا إلَه إلّا الله ويُؤْمِنُوا بِى وبِما جئتُ به، فإذا فَعَلوا ذلك عَصَمُوا دِمَاءَهُم وأَمْوالَهُم إلّا بحقِّها وَحِسَابُهم عَلَى الله».

ويوضح القاضى عياض معنى الإيمان بالرسول، فيقول:

«والإيمان به ﷺ هو تصديق نبوته، ورسالة الله له، وتصديقه فى جميع ما جاء به، وما قاله، ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان، بأنه رسول الله ﷺ. فإذا اجتمع التصديق به بالقلب والنطق بالشهادة بذلك باللسان، تم الإيمان به، والتصديق له. كما ورد فى الحديث نفسه، من رواية عبد الله بن عمر رضى الله عنهما:

---

(١) الشفا ٢/٢.

«أُمِرتُ أن أُقاتِلَ النَّاسَ حتى يَشْهَدُوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله».

وقد زاده وضوحا فى حديث جبريل، إذ قال: أخبرنى عن الإسلام؟ فقال النبى ﷺ:

«أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله...» وذكر أركان الإسلام.

ثم سأله عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله» الحديث.

يعلّق القاضى عياض على ذلك فيقول: «فقد قرر أن الإيمان به محتاج إلى العَقْد بالجَنَان أى العقل، والإسلام به مضطر إلى النطق باللسان، وهذه الحالة هى المحمودة التامة».

«وأما الحال المذمومة، فالشهادة باللسان دون تصديق القلب، وهذا هو النفاق.

قال الله تعالى: ﴿إذَا جَاءَكَ المَنَافِقُون قالوا نَشْهَدُ إنَّكَ لَرَسُولُ الله، والله يَعْلَمُ إنَّكَ لَرَسُولُهُ، والله يَشْهَدُ إنَّ المُنَافِقِينَ لكَاذِبُون﴾.

«أى كاذبون فى قولهم ذلك عن اعتقادهم، وتصديقهم، وهم لا يعتقدونه، فلَمَّا لم تُصَدِّق ذلك ضمائرهم، لم ينفعهم أن يقولوا بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم، فخرجوا عن اسم الإيمان، ولم يكن لهم فى الآخرة حكمه، إذ لم يكن معهم إيمان، ولحقوا بالكافرين فى الدَّرْك الأسفل من النار، وبقى عليهم حُكم الإسلام بإظهار شهادة اللسان فى أحكام الدنيا، المتعلّقة بالأئمة وحكام المسلمين، الذين أحكامهم على الظواهر، بما أظهروه من علامة الإسلام».

والذى يريد أن يقوله القاضى عياض، أن هؤلاء المنافقين مسلمون بالشهادة فقط، دون أن يكون إيمانهم بالرسول راسخا فى القلب، وهؤلاء موقفهم أمام الناس أنهم مسلمون بالظاهر، أما باطنهم فهم غير مسلمين.

ذلك «بما أظهروه من علامة الإسلام، إذ لم يُجعل للبشر سبيلٌ إلى السرائر،

ولا أُمِرَوا بالبحث عنها، بل نَهى النبى ﷺ عن التحكُّم عليها، وذم ذلك وقال: «هَلاَ شَقَقْتَ عن قلبه ؟».

ويوضح القاضى عياض الفرق بين القول (باللسان) والعقد (بالقلب)، بأنه ما جُعل فى حديث جبريل: «الشهادة من الإسلام، والتصديق من الإيمان».

إذًا فالإيمان بالرسول المصطفى ﷺ يجب أن يكون بالشهادة اللسانية، والإيمان القلبى الذى لا يتزعزع، وهذا هو الإيمان الصادق الحقيقى، لمن يريد أن يكون إيمانه كاملا.

ثم يتحدث القاضى عياض عن الحالتين اللتين يكون فيهما الإيمان غير كامل، فيقول:

«وبقيت حالتان أخريان بين هذين:

إحداهما: أن يُصدّق بقلبه ثم يُخْتَرم قبل إتساع وقت للشهادة بلسانه فاختلف فيه:

- فشرط بعضهم من تمام الإيمان القول والشهادة به.

- ورآه بعضهم مؤمنا مستوجبا للجنة، لقوله ﷺ «يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان»، فلم يذكر سوى ما فى القلب، وهذا مؤمن بقلبه غير عاصٍ ولا مفرط بترك غيره.

ويؤيد ذلك القاضى عياض، فيقول: وهذا هو الصحيح فى هذا الوجه.

أما الثانية: أن يُصدق بقلبه ويُطَوّل مَهَله، وعلم ما يلزمه من الشهادة فلم ينطق بها جملة، ولا استشهد فى عمره ولا مرة. فهذا اختلف فيه أيضا:

- فقيل: هو مؤمن لأنه مصدق، والشهادة من جُملة الأعمال، فهو عاص بتركها غير مخلّد.

- وقيل: ليس بمؤمن حتى يُقارن عقده شهادة اللسان، إذ الشهادة إنشاء عَقْدٍ والتزام إيمان. وهى مرتبطة مع العقد، ولا يتم التصديق مع المهلة إلاّ بها. وهذا هو الصحيح.

ولا يريد القاضى عياض أن يتوسع فى هذه المسائل المتصلة بالإسلام والإيمان وأبوابها، لذلك نراه يتوقف عند هذا الحد قائلا: «وفى بسط هذا خروج عن غرض التأليف فى السيرة»[1].

٢

وجوب طاعته:

وأما وجوب طاعته[2] - ﷺ - فهذه هى المرحلة الثانية..

«فإذا وجب الإيمان به، وتصديقه فيما جاء به، وجبت طاعته، لأن ذلك مما أتى به. قال الله تعالى: ﴿يـٰأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا أَطِيعُوا الله ورَسُولَه﴾

وقال سبحانه ﴿وأطيعُوا الله والرسُولَ لَعَلّكُم تُرْحَمُون﴾

وقال عز وجل: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أطاعَ الله﴾

وقال عز وجل: ﴿وَمَا آتاكُم الرَّسُولُ فَخُذُوه، وَمَا نَهاكُمْ عنه فانْتَهُوا﴾

«فجعلِ تعالى طاعة رسوله طاعته، وقَرَنَ طاعَتَهُ بطاعَتِه، ووعد على ذلك بجزيل الثّواب، وأوعد على مخالفته بسُوء العقاب، وأوجب امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

ويوضح القاضى عياض معنى طاعة الرسول، فيقول:

«طاعة الرسول فى التزام سُنّته، والتسليم بما جاء به. قال المفسرون والأئمة: ما أرسل الله من رسول إلاّ فرض طاعته على من أرسله إليه، وقالوا: مَنْ يُطع الرَّسول فى سُنته، يُطع الله فى فرائضه. وقال السمرقندى: فى (وأطيعوا الله والرسول): أطيعوا الله فى فرائضه والرسول فى سُنّته.

وقيل: أطيعوا الله فيما حرم عليكم، والرسول فيما بلّغكم.

وقيل: أطيعوا الله بالشهادة له بالربوبية، والنبى بالشهادة له بالنبوة.

عن أبى هريرة - رضى الله عنه قال: «إن رسول الله - ﷺ - قال:

---

(١) الشفا ٢/٥.

(٢) الشفا ٢/٦.

«من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى، ومن عصى أميرى فقد عصانى». فطاعة الرسول من طاعة الله، إذ الله أمر بطاعته، فطاعته امتثال لما أمر الله به وطاعة له.

وقال ﷺ: «إذا نهيتكم عن شيءٍ فاجتنبوه، وإذا أمرتُكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم»

* ويضع القاضى عياض أمامنا صورة رائعة من الصور التى رسمها المصطفى - ﷺ - وصوّر بها من أطاعه ومن عصاه .. فيقول:

«وجاء فى الصحيح عنه - ﷺ - «مَثَلِى ومَثَلُ ما بعَثَنِى الله به كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا، فقال: يا قوم إنّى رأيت الجيش بعَيْنِى وإنِّى أنا النَّذِيرُ العُرْيان فالنجاءَ فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهليهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبَّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثلُ من أطاعنى واتَّبع ما جئت به، ومثل مَنْ عَصَانى وكذّب ما جئت به من الحق»

٣

والإيمان بالرسول المصطفى - ﷺ - ووجوب طاعته، يقتضى حتما وجوب اتباعه، وامتثال سنته، والاقتداء بهديه، فقد قال الله تعالى:

﴿قُلْ إنْ كُنْتُم تُحِبُّون الله فاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُم الله ويَغْفِرْ لكُم ذُنُوبَكُم﴾

وقال سبحانه: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حتّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُم﴾

وقال عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فى رَسُولِ الله أسوةٌ حَسَنَةٌ لمَنْ كانَ يَرجُو الله واليومَ الآخِرَ﴾

قال القاضى عياض: «الأسوة فى الرسول الإقتداء به، والاتباع لسنته، وترك مخالفته فى قَوْلٍ أو فِعْل. أمرهم الله تعالى بمتابعة السنة، ووعدهم الاهتداء باتباعه، لأن الله تعالى أرسله بالهدى ودين الحق، ليزكيهم ويعلمهم الكتاب

(١) الشفا ٢/٨.

والحكمة، ويهديهم إلى صراط مستقيم، ووعدهم محبته تعالى، ومغفرته إذا اتبعوه وآثروه على أهوائهم، وما تجنح إليه نفوسهم، وأن صحة إيمانهم بانقيادهم له، ورضاهم بحكمه، وترك الاعتراض عليه»

روى عن الحسن، أن أقواما قالوا: يا رسول الله، إنا نُحِبُّ الله فأنزل الله تعالى: ﴿قُل إن كُنْتُم تُحِبُّونَ الله...﴾ الآية.

قال الزجاج: معناه، (إن كنتم تحبُّون الله) أن تقصدوا طاعته، فافعلوا ما أمركم به، إذ محبة العبد لله والرسول طاعته لهما، ورضاه بما أمرا، ومحبة الله لهم عفوه عنهم، وإنعامه عليهم برحمته.

عن العرباض بن سارية، فى حديثه فى موعظة النبى - ﷺ - أنه قال: «فعليكم بسُنَّتى وسُنَّةِ الخلفاءِ الرَّاشِدينِ المهديين، عَضُّوا عليها بالنواجِذ، وإيَّاكُم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعَةٌ، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة فى النار»

وقال ﷺ: «مَنْ اقتَدَى بى فَهُوَ منِّى، ومن رَغِبَ عن سُنَّتى فليس منى»
وقال ﷺ: «إن الله تعالى يُدخل العبدَ الجنة بالسُّنَّة تمسك بها»
وقال ﷺ: «المتمسك بسنتى عند فساد أُمتى له أجر مائة شهيد»

وروى أنس - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ:
«مَنْ أَحْيَا سُنَّتِى فَقَدْ أَحْيَانى، ومَنْ أَحْيانِى كان معِى فى الجنة»

٤

هذا وقد كان السلف الصالح والأئمة - رضوان الله عنهم أجمعين، يتمسكون بسُنَّته، ويقتدون بهديه وسيرته[١].

ذكر القاضى عياض: «أن رجلا سأل عبد الله بن عمر، فقال: يا أبا عبد الرحمن إنا نجد صلاة الخوف وصلاة الحضر فى القرآن، ولا نجد

(١) الشفا ١٣/٢.

صلاة السفر، فقال ابن عمر - رضى الله عنهما - ياابن أخى، إن الله بعث إلينا محمدًا - ﷺ - ولا نعلم شيئا، وإنما نفعل كما رأيناه يفعل.

● وكتب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إلى عُماله بتعلم السنة والفرائض واللحن - أى اللغة - وقال: «إن ناسا يجادلونكم - يعنى بالقرآن، فخذوهم بالسنن، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله» وفى خبره - حين صلى بذى الحليفة ركعتين، فقال: «أصنع كما رأيت رسول الله - ﷺ - يصنع».

● وعن علىٍّ حين قَرَنَ (بالحج والعمرة) فقال له عثمان: ترى أنِّى أنهى الناس عنه وتفعله؟ قال: لم أكن أَدَعُ سنة رسول الله ﷺ - لقول أحدٍ من الناس.

● وعن علىّ أيضا، ألا إنِّى لست بنبىّ ولا يُوحى إلىَّ ولكنى أعمل بكتاب الله، وسنة نبيّه محمد - ﷺ - ما استطعت.

● وقال عمر بن عبد العزيز: سَنَّ رسول الله ﷺ، وولاة الأمر بعده سُنَنًا، الأخذ بها تصديقٌ بكتاب الله، واستعمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر فى رأى من خالفها، من اقتدى بها فهو مهتدٍ، ومن انتصر بها فهو منصور، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا.

وتوضيحا للأمر، ينقل القاضى عياض عن التسترى قوله:

«أصول مذهبنا ثلاثة: الإقتداء بالنبى - ﷺ - فى الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاص النية فى جميع الأعمال.

٥

وإذا كان السلف الصالح والأئمة يحرضون على التمسك بسنته - ﷺ - ويهتدون بهديه ويقتدون بسيرته، فقد جاء فى القرآن والسنة - كما يقول القاضى عياض - أن مخالفة أمره، وتبديل سنته ضلال وبدعة[1]، توعد الله مرتكبها

(١) الشفا ١٦/٢.

بالخذلان والعذاب. قال تعالى:

﴿فَلْيَحْذَر الذينَ يُخالِفُون عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصيبَهُم فِتْنَة أَوْ يُصيبَهُم عَذابٌ أليمٌ﴾

وقال عز شأنه: ﴿ومَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى ويَتبعْ غيرَ سبيل المُؤْمِنين نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى﴾ الآية.

وروى أبو هريرة، أن رسول الله - ﷺ - خرج إلى المقبرة، وذكر الحديث، في صفة أمته، وفيه: «فَلَيُذَادَنَّ رجال عن حوضى كما يُذاد البعير الضال، فأناديهم أَلاَ هَلُمَّ، ألا هَلُمَّ، فيقال: إنهم بدَّلوا بعدك، فأقول: فَسُحْقًا فَسُحْقًا فَسُحْقًا»

وروى ابن أبي رافع عن أبيه، عن النبى - ﷺ - قال: «لَا أَلْفِيَنَّ أَحَدَكُم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى، مما أمرت به، أو نهيت عنه، فيقول: لا أدرى ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه ألا وإنّ ما حرَّم رسول الله - ﷺ - مثل ما حرم الله».

الفصل الثانى

لزوم محبّته ﷺ

١

الحق الثانى لرسول الله - ﷺ - لزوم محبته، هذا ما قرره تبارك وتعالى بقوله: ﴿قُلْ إنْ كان آبَاؤُكُمْ وأبْنَاؤُكم وإخْوَانكم وأزْوَاجُكم وعَشِيرَتُكُم وأمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوها، وتجارةٌ تَخْشون كَسَادَهَا ومَسَاكِنُ تَرْضَوْنَها، أَحَبَّ إلَيْكُمْ من الله ورسوله، وجهادٍ فى سبيله فَتَربَّصُوا حتّى يأتِىَ الله بأمْرِهِ، والله لا يَهْدِى القَوْمَ الفاسِقِين﴾ [التوبة ٢٤]

قال القاضى عياض، بعد استدلاله على لزوم محبته[1] - ﷺ:

«فكفى بهذا حضًا وتنبيهًا ودلالةً وحجةً على إلزام محبته، ووجوب فَرْضها، وعِظَم خَطَرِهَا، واستحقاقه لها - ﷺ - إذ قرَّع تعالى من كان مالُهُ وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله تعالى: ﴿فتَرَبَّصُوا حَتّى يأْتِىَ الله بأمْرِه﴾، ثم فَسَّقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممَّنْ ضَلَّ ولم يهدِهِ الله.

ويذكر القاضى عياض مجموعة من الأحاديث النبوية التى تدعو إلى محبته ﷺ، من مثل ما رواه أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «لا يُؤمنُ أحدُكم حتّى أكونَ أحبَّ إليه من ولدِهِ وَوَالِدِه والناسُ أجمعين»

* وعن أنس - عنه ﷺ: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمان، أن يكون الله ورسوله أَحَبَّ إليه مما سِوَاهما، وأن يُحبَّ المرءَ لا يُحِبُّهُ إلاّ لله، وأن يَكْرَهُ أن يعود فى الكُفْر كما يكْرَهُ أن يقذفَ فى النار»

٢

وينقل لنا القاضى عياض فى فصل لاحق، ما ورد فى ثواب محبته ﷺ[2] - من أحاديث، تدل على حب الناس للرسول، وتعلّقهم به، فى حياته وبعد مماته.

---

(١) الشفا ١٨/٢.   (٢) الشفا ١٩/٢.

● أتى رجل النبى - ﷺ، فقال: متى الساعة يا رسول الله؟ فقال: ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكنى أحب الله ورسوله، قال: **«أنت مع من أحببت»**

● وروى أن رجلا أتى النبى - ﷺ - فقال: يارسول الله، لأنت أحبُّ إلىّ من أهلى ومالى، وإنى لأذكرك فما أصبر حتى أجىء فأنظر إليك، وإنِّى ذكرت موتى وموتك فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلتُها لا أراك، فأنزل الله تعالى:

﴿ومَنْ يُطع الله والرَّسُولَ فأُولئِكَ معَ الَّذِينَ أنْعَم الله عَلَيْهِم من النَّبِيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولَئِك رفيقًا﴾ فدعا به، فقرأها عليه.

٣

وقد أورد القاضى عياض بعض ما احتفظت به المصادر من آثار وأخبار جرت على ألسنة السلف والأئمة، كلها تعبر عن **محبتهم لرسول الله** - ﷺ[١] - **وتعلقهم به، وتأسِّيهم بسيرته العطرة.**

من ذلك، ما رواه أبو هريرة، قال: إن رسول الله - ﷺ - قال: «مِنْ أشَدِّ أُمَّتِي لى حُبًّا ناسٌ يكونون بعدى يَوَدّ أحَدُهم لَوْ رآنى بأَهْلِه ومَالِه»

● وروت عبدة بنت خالد بن معدان، قالت: ما كان خالد يأوى إلى فراش إلا وهو يذكر من شوقه إلى رسول الله - ﷺ، وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار، يُسَمِّيهم ويقول: هُمْ أصلى وفَصْلى، وإليهم يحنّ قلبى، طال شوقى إليهم، فعجّل ربِّ قَبْضِى إليك حتى يغلبه النوم.

● وروى ابن اسحاق، أن امرأة من الأنصار قُتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أُحُد مع رسول الله - ﷺ، فقالت ما فعل رسول الله؟ قالوا: خيرًا هو بحمد الله كما تحبين، قالت أرِنيه حتى أنظر إليه، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل.

(١) الشفا ٢١/١.

● ولما احتضر بلال - رضى الله عنه - نادته امرأته: واحزناه فقال: واطرباه غدًا ألقى الأحبَّة، محمدًا وحزبه.

٤

* ومحبة المصطفى - ﷺ - لها علامات ودلالات، قرّرها ونصَّ عليها القاضى عياض بقوله:[١]

«اعلم أن من أحب شيئا آثره، وآثر موافقته، وإلاّ لم يكن صادقًا فى حُبِّه، وكان مدعيا، فالصادق فى حب النبى - ﷺ - من تظهر علامةُ ذلك عليه..

● وأولها: الإقتداء به، واستعمال سُنّته، واتباع أقواله وأفعاله، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه فى عُسْره ويسره، ومَنْشَطه ومكرَهه، وشاهد هذا قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنتم تحبّون الله فاتبعونى يُحْبِبكُم الله﴾

● وإيثار ما شرعه وحَضَّ عليه على هوى نفسه، وموافقة شهوته، قال الله تعالى:

﴿والذين تَبَوَّءُوا الدَّارَ والإيمَانَ مِنْ قَبْلِهِم يُحبُّون مَنْ هَاجَر إلَيْهِم وَلَا يَجِدُون فى صُدُورِهم حَاجَةً مما أُوتُوا، ويُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِم ولَوْ كان بِهِمْ خَصَاصَة﴾ وإسخاط العباد من رضى الله تعالى.

قال أنس بن مالك: قال لى رسول الله - ﷺ:

«يابنى إنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبحَ وتُمْسِى لَيْسَ فى قَلبِكَ غِش لأحد فافعل، ثم قال لى: «يابُنَىَّ وذلك من سُنَّتِي، ومن أَحْيَا سُنّتى فقد أَحَبَّنِي، ومن أحبنى كان معى فى الجنة»

* ويتابع القاضى عياض حديثه فى إبراز علامات المحبة للنبى المصطفى ﷺ، فيقول:[٢]

---

(١) الشفا ٢/٢٤.

(٢) الشفا ٢/٢٤.

«فمن اتصف بهذه الصفة فهو كامل المحبة لله ورسوله، ومن خالفها فى بعض هذه الأمور فهو ناقص المحبة، ولا يخرج عن اسمها»

● «ومن علامات محبة النبى - ﷺ - كثرة ذكره له، فمن أحب شيئا أكثر ذكره..

● ومنها: كثرة شوقه إلى لقائه، فكل حبيب يحب لقاء حبيبه.

● ومنها: تعظيمه له، وتوقيره عند ذكره، وإظهار الخشوع والإنكسار مع سماع اسمه.

● ومنها: محبته لمن أحب النبى - ﷺ - ومن هو بسببه من آل بيته وصحابته من المهاجرين والأنصار، وعداوة من عاداهم، وبُغض من أبغضهم، فمن أحب شيئا أحب من يُحب.

● ومنها: بُغض من أبغض الله ورسوله، ومعاداة من عاداه، ومجانبة من خالفَ سنته، وابتدع فى دينه، واسْتِثْقَالُهُ كُلَّ أمرٍ يُخالف شريعته..

● ومنها: أن يحب القرآن الذى أتى به - ﷺ - وهَدَى به واهتدى، وتخلّق به، وحبه للقرآن تلاوته، والعمل به، وتفهمه.

● ومن علامات حبه للنبى - ﷺ - شفقته على أمته، ونُصحه لهم، وسعيه فى مصالحهم، ورفع المضار عنهم. كما كان - ﷺ - بالمؤمنين رؤوفا رحيما.

● ومن علامة تمام محبته زهد مُدّعيها فى الدنيا، وإيثاره الفقر، واتصافه به.

٥

* وهنا وجد القاضي عياض نفسه أمام سؤال هام يطرح نفسه.. ما معنى المحبة للنبى[1]؟ وما حقيقتها؟ فنراه يعقد فصلا يجيب فيه على هذا السؤال، ذاكرًا كل ما أتت به كتب الأئمة، وتفاسير المفسرين، وإن كان قد احتفظ لنفسه بأن يقول القول الفصل فى هذا الموضوع.

يقول: «اختلف الناس فى تفسير محبة الله، ومحبة النبى - ﷺ - وكثرت

(١) الشفا ٢/٢٩.

عباراتهم فى ذلك، وليست ترجع بالحقيقة إلى اختلاف مقال، ولكنها اختلاف أحوال..

● فقال سفيان: المحبة اتباع الرسول - ﷺ - كأنه التفت إلى قوله تعالى ﴿قُلْ إن كُنْتُم تُحِبُّونَ الله فاتبعونى﴾

● وقال بعضهم: محبة الرسول اعتقاد نُصرته، والدفاع عن سُنّته، والانقياد لها، وهيبة مخالفته.

● وقال بعضهم: المحبة دوام الذِّكر للمحبوب.

● وقال بعضهم: المحبة مواطأة القلب لمراد الرب، يحب ما أحبّ ويكره ما كَرِه.

وقال آخر: المحبة ميلُ القلبِ إلى موافق له.

وبعد أن استعرض القاضى عياض الكثير من التعريفات لمعنى المحبة، يقول:

«وأكثر العبارات المتقدمة إشارة إلى ثمرات المحبة دون حقيقتها.. وحقيقة المحبة: الميل إلى ما يوافق الإنسان، وتكون موافقته له إمَّا لاستلذاذه بإدراكه، كحبِ الصور الجميلة، والأصوات الحسنة، والأطعمة والأشربة اللذيذة، وأشباهها مما كُلُّ طبعٍ سليم مائلٌ إليها لموافقتها له، أو لاستلذاذه بإدراكه بحاسةِ عقله وقلبه معانى باطنة شريفة، كحُبّ الصالحين والعلماء، وأهل المعروف، المأثور عنهم السِّير الجميلة، والأفعال الحسنة، فإن طبع الإنسان مائل إلى الشغف بأمثال هؤلاء، حتى يبلغ التعصب بقومٍ لقوم، والتشيع من أمة فى آخرين ما يؤدى إلى الجلاء عن الأوطان».

«أو يكون حبه إياه لموافقته له من جهة إحسانه له، وإنعامه عليه، فقد جُبلت النفوسُ على حُبّ من أحسن إليها..»

ثم يقول: «فإذا تقرر لك هذا، نظرتَ هذه الأسباب كلها فى حقه - ﷺ - فعلمت أنه جامع لهذه المعانى الثلاثة الموجبة للمحبة.

● «أما جمال الصورة والظاهر، وكمال الأخلاق والباطن، فقد قرّرنا منها ما لايحتاج إلى زيادة.

● «وأما إحسانه وإنعامه على أمته، فكذلك قد مرّ منه فى أوصاف الله تعالى له، من رأفته بهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، وشفقته عليهم، واستنقاذهم به من النار،وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، ورحمة للعالمين، ومبشرًا ونذيرًا، وداعيا إلى الله بإذنه، ويتلو عليهم آياته، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويهديهم إلى صراط مستقيم»

وهنا يتساءل القاضى عياض، بعد أن أورد كل هذه الخصائص والخصال، فيقول:

- فأى إحسان أجل قدرًا وأعظم خطرًا من إحسانه إلى جميع المؤمنين؟
- وأى إفضال أعم منفعة، وأكثر فائدة من إنعامه على كافة المسلمين؟

«إذ كان ذريعتهم إلى الهداية، ومنقذهم من العماية، وداعيهم إلى الفلاح والكرامة، ووسيلتهم إلى ربهم، وشفيعهم، والمتكلم عنهم، والشاهد لهم، والموجب لهم البقاء الدائم، والنعيم السرمد.. فقد استبان لك أنه - ﷺ - مستوجب للمحبة الحقيقية شرعا، بما قدمنا من صحيح الأخبار، وعادة وجبلة - بما ذكرناه آنفا، لإفاضته الإحسان، وعموم الإجمال، فإذا كان الانسان يحب من منحه فى دنياه مرة أو مرتين معروفا، وإذا كان يحب بالطبع مَلِكا لحُسن سيرته، أو حاكما لما يؤثر من قوام طريقته، أو قاضٍ بعيد الدار لما يشاء من علمه أو كرم شيمته».

فمن جميع هذه الخصال على غاية مراتب الكمال أحق بالحب وأولى بالميل»[١]

٦

بعد ذلك يعقد القاضى عياض فصلا للحديث عن دلائل محبة الرسول المصطفى ﷺ - وقد جعلها فى وجوب مناصحته[٢]، واستشهد بقوله تعالى:

﴿ولَا على الَّذِينَ لا يجدون ما يُنْفِقُون حرَجٌ إذَا نَصَحُوا لله وَرَسُولِهِ، ما عَلَى المُحْسِنين مِنْ سَبيلٍ والله غفورٌ رَحيم﴾

---

(١) الشفا ٣١/٢.

(٢) الشفا ٣١/٢.

قال أهل التفسير: (إذا نَصَحُوا لله ورسوله): إذا كانوا مخلصين مُسْلِمين فى السر والعلانية، وفى ذلك يقول النبى المصطفى - ﷺ - «إن الدين النصيحة.. إن الدين النصيحة، قالوا لمن يارسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله وأئمة المسلمين وعامَّتهم»

* قال القاضى عياض: «قال أئمتنا : النصيحة لله ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم واجبة..» ويوضح مفهوم النصيحة، وكيف تكون لله ولكتابه ولرسوله، فيقول:

«النصيحة كلمة يعبر بها عن جُملة إرادة الخير للمنصوح له، وليس يمكن أن يعبر عنها بكلمة واحدة تحصرها، ومعناها فى اللغة الإخلاص، من قولهم: نصحت العسل إذا خلَّصته من شمعه، والنصح فعل الشىء الذى فيه الصلاح والملاءمة»

● «فنصيحة الله تعالى: صحة الاعتقاد له بالوحدانية، ووصفه بما هو أهله، وتنزيهه عما لا يجوز عليه، والرغبة فى محابه، والبعد عن مساخطه، والإخلاص فى عبادته

● والنصيحة لكتابه: الإيمان به، والعمل بما فيه، وتحسين تلاوته، والتخضّع عنده، والتعظّم له، وتفهّمه، والتفقه فيه، والدفاع عنه من تأويل الغالين، وطعن الملحدين.

● والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته، وبذل الطاعة له فيما أمر به، ونهى عنه، ومؤازرته ونصرته، وحمايته حيًّا وميتا، وإحياء سنته بالطلب، والدفاع عنها ونشرها، والتخلّق بأخلاقه الكريمة، وآدابه الجميلة.

ويضم القاضى عياض إلى قوله أقوال العلماء المحققين وتعاريفهم، فيقول:

وقال أبو ابراهيم اسحق التجيبى: «نصيحة رسول الله - ﷺ - التصديق بما جاء به، والاعتصام بسنته ونشرها، والحض عليها، والدعوة إلى الله وإلى كتابه وإلى رسوله.

وقال أبو بكر الآجُرى: النصح لرسوله - ﷺ - يقتضى نُصحين: نُصحا فى

حياته، ونصحا بعد مماته. ففى حياته: نُصح أصحابه له بالنصر، والمحاماة عنه، ومعاداة من عاداه، والسمع والطاعة له، وبذل النفوس والأموال دونه.

وأما نصيحة المسلمين له بعد وفاته.. فالتزام التوقير والإجلال، وشدة المحبة له، والمثابرة على تعلم سنته والتفقه فى شريعته، ومحبة آل بيته وأصحابه، ومجانبة من رغب عن سنته، وانحرف عنها، والتحذير منه ، والشفقة على أمته، والبحث عن تعرّف أخلاقه وسيره وآدابه، والصبر على ذلك.

ويخلص القاضى عياض فى النهاية إلى نتيجة كان يعرفها مقدما، يضعها أمام قارئيه بعد تلك الجولات الواسعة فى فصل مناصحته، فيقول:

«فعلى ما ذكر تكون النصيحة إحدى ثمرات المحبة، وعلامة من علاماتها»

● وأما النصح لأئمة المسلمين، فطاعتهم فى الحق، ومعونتهم فيه، وأمرهم به، وتذكيرهم إياه على أحسن وجه، وتنبيههم على ما غفلوا عنه.

● وأما النصح لعامة المسلمين: فإرشادهم إلى مصالحهم، ومعونتهم فى أمر دينهم ودنياهم، بالقول والفعل، وتنبيه غافلهم وتبصير جاهلهم، ورفْد محتاجهم، وستر عوراتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع إليهم».

الفصل الثالث

وجوبُ تعظيم أمْرِه.. وتَوقِيرِه وَبِرِّه

والحق الثالث من حقوق الرسول - ﷺ - على المسلمين، حق التعظيم والتوقير والبِرّ وهذا هو موضوع هذا الفصل من سيرة المصطفى - ﷺ، تناول فيه القاضى عياض كل ما يتصل بهذه الحقوق[1].

وهو لم يبدأ بذكر حقّ الرسول على المسلمين مباشرة، بل بدأ بذكر تعظيم الحقّ لنبيّه، وما أوجبه من توقيره وبره.

ثم انتقل إلى تعظيم صحابته له، وتوقيرهم وإجلالهم لشخصه الكريم.

ثم تحدث عن حرمته - ﷺ - بعد موته، وأن توقيره وتعظيمه لازم كما كان فى حياته، وأن تعظيمه يقتضى تعظيم سنته، ورواية حديثه.

كما أوضح القاضى عياض أن تعظيم الرسول - ﷺ - وتوقيره، يقتضى بِرّ آله وذريته، وأمهات المسلمين أزواجه، كما يقتضى توقير أصحابه وبرهم ومعرفة حقهم، والإقتداء بهم، وإعظام جميع أسبابه، وإكرام مشاهده، وأمكنته من مكة والمدينة.

١

تعظيم الله لقدر نبيه:

صدّر القاضى عياض بحثه بما جاء فى تعظيم الله لنبيّه، وتوقيره له - ﷺ - وذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ومُبَشِّرًا ونذيرًا، لتؤمِنُوا بالله ورسُولِهِ وتُعَزِّروهُ وتُوَقِّروه﴾

«فأوجب الحق سبحانه على الناس تعذيره وتوقيره، وألزم إكرامه وتعظيمه، فى

(١) الشفا ٢/٣٤.

حياته - ﷺ - وهو الذى يؤدى الأمانة، ويحمل الرسالة، وينصح للأمة، ويعبد الله بصدق العابدين.

وقال سبحانه: ﴿يـٰأَيُّها الَّذِين آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَى الله ورَسُولِهِ﴾ فنهى عن التقدم بين يديه بالقول وسوء الأدب بسبقه بالكلام.

قال سهل بن عبد الله - فى تفسيرها - لا تقولوا قبل أن يقول، وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا، ونُهُوا عن التقدم والتعجّل بقضاء أمر قبل قضائه فيه، وأن يَفْتاتُوا بشىء من ذلك من قتال أو غيره، من أمر دينهم إلا بأمره، ولا يسبقوه به.

ثم وعظهم وحذرهم مخالفة ذلك، فقال: ﴿واتَّقُوا الله إنّ الله سَميعٌ عَليم﴾ أى اتقوا الله فى إهمال حقه، وتضييع حُرمته، إنه سميعٌ لقولكم، عليم بفعلكم.

ثم نهاهم عن رفع الصوت فوق صوته، والجهر له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض ويرفع صوته.

فقال عز وجل:

﴿يـٰأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُم فَوْقَ صَوْتِ النَّبِى﴾ الثلاث الآيات.

أى لا تسابقوه بالكلام، وتغلظوا له بالخطاب، ولاتنادوه باسمه نداء بعضكم لبعض ولكن عظِّموه ووقروه ونادوه بأشرف ما يجب أن يُنَادى به: يا رسول الله، يانبى الله.

* وذكر القاضى عياض مناسبة نزول هذه الآيات فقال:

«إن هذه الآية نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس، خطيب النبى - ﷺ، فى مفاخرة بنى تميم، وكان فى أذنيه صمم، فكان يرفع صَوْته، فلما نزلت هذه الآية، أقام فى منزله، وخَشِى أن يكون حَبَط عمله، ثم أتى النبى - ﷺ، فقال: يا نبى الله، لقد خشيتُ أن أكون هلكت، نهانا الله أن نجهر بالقول، وأنا أمرؤ جهير الصوت، فقال النبى - ﷺ -:

«يا ثابت أما ترضىَ أن تعيش حميدًا، وتُقْتَلَ شهِيدًا، وتدخُلَ الجنة؟ فقُتل يومَ اليمامة»

وروى أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية، قال: والله يا رسول الله.. لا أكلمك بعدها إلاّ كأخى السِّرار، وأن عُمر كان إذا حدَّثه.. حدَّثه كأخى السِّرَار، ما كان يُسْمع رسول الله - ﷺ، بعد هذه الآية حتى يستفهمه، فأنزل الله تعالى فيهم:

﴿إنَّ الذين يَغُضُّون أصْواتَهُم عِنْدَ رَسُولِ الله أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ الله قُلُوبَهُم لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرة وأجر عظيم﴾.

٢

ولقد انعكس تعظيم الحق - سبحانه - لنبيه. على صحابة رسول الله، فكانوا يعظمونه ويقدرونه ويجلّونه[١]. روى القاضى عياض فى ذلك أخبارًا كثيرة.

* من ذلك ما قاله عمرو بن العاص: «ما كان أحبَّ إلىّ من رسول الله - ﷺ - ولا أَجَلَّ فى عَيْنى منه، وما كنتُ أُطيقُ أن أملأ عينى منه إجلالا له، ولو سئِلْتُ أن أصفه ما أطقت، لأنى لم أكن أملأ عينى منه»

* وقال أنس بن مالك: «إن رسول الله - ﷺ - كان يَخْرُج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس، فيهم أبو بكر وعمر، فلا يرفع أحدٌ منهم إليه بصَرهُ إلاّ أبو بكر وعمر، فإنهما كانا ينظران إليه، وينظر إليهما ويتبسَّمان إليه، ويتبسم لهما».

* وروى أسامة بن شريك، قال: أتيت النبى ﷺ - وأصحابه حَوْله كأنما على رؤوسهم الطير. وفى حديث صفته، «إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير».

ويصوّر لنا عروة بن مسعود الذى وجهته قريش عام القضية، إلى رسول الله - ﷺ - كيف كان صحابته يعظّمونه، قال:

«أنه - ﷺ - كان لا يتوضأ إلا ابْتَدَروا وُضُوءَه، وكادوا يقتتلون عليه،

(١) الشفا ٣٧/٢.

ولا يَبْصُق بُصَاقا ولا يَتَنَخَّم نخامة إلاّ تلقوها بأكفهم فدلكوا بها وجوههم وأجسادهم، ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره، وإذا تكلم خَفَضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيما له».. فلما رجع إلى قريش، قال: يا معشر قريش، إنِّى جِئتُ كِسْرَى فى مُلكه، وقيصر فى مُلكه، والنجاشى فى مُلكه، وإنى والله ما رأيت مَلِكًا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه»

٣

توقيره وتعظيمه بعد موته:

بعد أن ذكر القاضى عياض مدى تعظيم الله لرسوله، ومدى تعظيم صحابته له، واجلالهم لمكانته وشخصه، قال:

«واعلم أن حرمة النبى - ﷺ - بعد موته، وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته[1]، وذلك عند ذِكْرِه - ﷺ، وذكر حديثه، وسنته، وسماع اسمه وسيرته، ومعاملة آله وعترته، وتعظيم أهل بيته، وصحابته».

«فواجب على كل مؤمن متى ذكره، أو ذُكر عنده، أن يخضع ويخشع، ويتوقر ويسكن من حركته، ويأخذ فى هيبته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه، ويتأدب بما أدبنا الله به.

وهذه كانت سيرة سلفنا الصالح، وأئمتنا الماضين، رضى الله عنهم..

* ويضرب القاضى عياض لذلك مثلا، المناظرة التى قامت بين أبى جعفر أمير المؤمنين والإمام مالك، فى مسجد رسول الله -ﷺ.

فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد، فإن الله تعالى أَدَّبَ قوما فقال:

﴿لَا تَرْفَعُوا أصواتكُم فَوْقَ صَوْتِ النبىّ﴾ الآية.

(١) الشفا ٢/٤١.

ومدح قوما، فقال: ﴿إنَّ الَّذِينَ يَغُضُّون أَصْوَاتَهُم عِنْدَ رَسُول الله﴾ الآية.

وذَمّ قوما، فقال: ﴿إن الذين يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجَرَاتِ أَكْثَرُهُم لَا يَعْقِلُون﴾ [الحجرات ٤]

وإن حُرْمَتَه مَيْتًا كحرمته حيا.

فاستكان لها أبو جعفر، وقال: يا أبا عبد الله: أستقبلُ القِبْلَة وأَدْعُو أم اسْتَقْبِل رسول الله؟ فقال: ولِمَ تَصْرِفُ وجهكَ عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفعْ به، فيشفعه الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم جَاءوك فاسْتَغْفِرُوا الله، واسْتَغْفَر لَهُم الرَّسُولُ لوَجَدُوا الله توابًا رحيما﴾ [النساء ٦٤]

وقال: كان مالك إذا ذكر النبى - ﷺ - يتغير لونه، وينحنى حتى يَصْعُب ذلك على جلسائه، فقيل له يوما فى ذلك، فقال: لو رأيتم ما رأيتُ لما أنكرتم عَلَيّ ما ترون.. ولقد كنت أرى محمد بن المنكَدِر، وكان سيد القراء - لا نكاد نسأله عن حديث أبدًا إلّا يبكي حتى نرحمه، ولقد كنتُ أرى جعفر بن محمد، وكان كثير الدعابة والتبسم، فإذا ذُكر عنده النبى - ﷺ. اصفرّ، وما رأيته يُحَدّث عن رسول الله - ﷺ - إلّا على طهارة.

ولقد اختلفت إليه زمانا فما كُنْتُ أراه إلّا على ثلاث خصال: إما مُصَلّيا، وإمّا صامتا، وإما يقرأ القرآن، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله عز وجل»

ولما كَثُر على مالك الناس قيل له لو جَعَلْتَ مُسْتَمليًا يُسْمِعُهُم، فقال، قال الله تعالى:

﴿يـاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أصواتكُم فَوْقَ صَوْتِ النبى﴾ وحُرمتهُ حيًّا ومَيّتًا سواء.

٤

* ومن تعظيم السلف للرسول - ﷺ - **تعظيمهم لسنته المطهرة، وحديثه الشريف**[1].

* عن عمرو بن ميمون قال: اختلفت إلى ابن مسعود سنة، فما سمعته يقول: قال رسول الله - ﷺ - إلاّ أنه حدَّث يوما فجرى على لسانه (قال رسول الله - ﷺ) ثم علاه كرْبٌ حتى رأيتُ العرق يتحدّر عن جبهته، وقد تغرغَرَتْ عيناه وانتفخت أوداجه.

* وقال مالك: جاء رجل إلى ابن المسيب، فسأله عن حديث، وهو مُضْطَجع فجلس وحدّثه، فقال له الرجل: وددتُ أنَّك لم تَتَعَنّ، فقال: إنى كرهت أن أحدّثك عن رسول الله - ﷺ - وأنا مضطجع.

* وقال مطرِّف: كان إذا أتى الناس مَالِكًا، خرجت إليهم الجارية، فتقول لهم: يقول لكم الشيخ تريدون الحديثَ أو المسائل؟ فإن قالوا المسائل خرج إليهم، وإن قالوا الحديث دخل مغتسله واغتسل، وتطّيب، ولبسَ ثيابًا جُدُدا، ولبس ساجَهُ وتعمّم، ووضع على رأسه رداءه، وتُلْقَى له منصّته، فيخرج فيجلس عليها، وعليه الخشوع، ولا يزال يبخّر بالعود حتى يفرغ من حديث رسول الله - ﷺ. ولم يكن يجلس على تلك المنصّة إلاّ إذا حدّث عن رسول الله ﷺ.

فقيل لمالك فى ذلك، فقال: أحبُّ أن أعظم حديث رسول الله - ﷺ. ولا أُحدّث به إلاّ على طهارة متمّكنا.

وكان يكره أن يُحّدث فى الطريق، أو وهو قائم أو مُسْتَعْجل، وقال: أحب أن أُفَهِّم حديث رسول الله - ﷺ.

---

(١) الشفا ٢/٤٣.

٥

ومن تعظيم الرسول وتوقيره وبرّه.. برّ آله وذُرّيته وأمهات المؤمنين أزواجه وآل بيته[1]. كما حض عليه - ﷺ - وسَلَكه السلف الصالح رضى الله عنهم.

* روى زيد بن الأرقم، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله - ﷺ: «أَنْشُدُكُم الله أهل بيتى - ثلاثا - قلنا لزيد: من أهل بيته؟ قال: آل على، وآل جعفر، وآل عَقيل، وآل العباس».

وقال ﷺ: «معرفة آل محمد - ﷺ - براءة من النار، وحُبّ آل محمد جواز على الصراط، والولاية لآل محمد أمان من العذاب.

قال القاضى عياض: معرفتهم هى معرفة مكانهم من النبى ﷺ - وإذا عرفهم بذلك عَرَف وجوب حقهم وحرمتهم بسببه.

وقد حَضَّ الحق سبحانه وتعالى المسلمين على بّر وتوقير آل بيت رسول الله - ﷺ، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب ٣٣]

عن عمر بن أبى سلمة، لما نزلت هذه الآية، وذلك فى بيت أم سلمة، دعا فاطمة وحَسَنا وحُسَينا فجلّلهم بكساء، وعلىٌّ خلف ظهره، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتى فاذهِبْ عنهم الرِّجس وطهرهم تطهيرا.

وقال ﷺ - لعمه العباس: «والذى نفسى بيده لا يدخُل قلب رجلٍ الإيمانُ حتى يُحبّكُم لله ورسوله. ومن آذى عمِّى فقد آذانى، وإنّما عم الرجل صِنو أبيه»

وقال للعباس أيضا: «أُغد علىّ يا عمِّ مع ولدك، فجمعهم وجلَّلهم بملاءته، وقال: هذا عمِّى وصنو أبى، وهؤلاء أهل بيتى، فاسترهم من النار كسَتْرى إياهم»

وقال الشعبى: صلى زيد بن ثابت على جنازة أُمه، ثم قُرّبت له بغلَتُه ليركبها،

---

(١) الشفا ٢/٤٧.

فجاء ابن عباس فأخذ بركابه، فقال زيد: خلّ عنه يا ابن عم رسول الله، فقال: هكذا نفعل بالعلماء، فقبّل زيدٌ يد ابن عباس، وقال هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا.

وكان أبو بكر وعمر يزوران أم أيمن مولاة النبى ﷺ، ويقولان كان رسول الله - ﷺ - يزورها.

ولما وردت حليمة السعدية على النبى - ﷺ - بسط لها رداءه، وقضى حاجتها، فلما توفى وفدت على أبى بكر وعمر، فصنعا بها مثلَ ذلك.

٦

* قال القاضى عياض[1]: ومن توقيره وبره - ﷺ - توقير أصحابه وبرهم، ومعرفة حقهم، والإقتداء بهم، وحسن الثناء عليهم، والاستغفار لهم، والإمساك عمّا شجر بينهم. ومعاداة من عاداهم، والإضراب عن أخبار المؤرخين، وجهلة الرواة، وضلاّل الشيعة، والمبتدعين القادحة فى أحد منهم، وأن يُلتمس لهم فيما نُقل عنهم من مثل ذلك، فيما كان بينهم من الفتن أحسن التأويلات، ويخرّج لهم أصوب المخارج، إذ هم أهلُ ذلك، ولا يُذكر أحد منهم بسوء، ولا يغمض عليه أمر، بل تُذكر حسناتهم، وفضائلهم، وحميد سيرهم، ويُسكت عما وراء ذلك

* كما قال - ﷺ - «إذا ذُكر أصحابى فأمسكوا»

وقال - ﷺ - «اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعُمر»

* وقال - ﷺ: «أصحابى كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم»

* وقال ﷺ: «الله الله فى أصحابى، لا تتخذوهم غرضًا بعدى، فمنْ أَحَبَّهم فَبُحبِّى أَحَبَّهم، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم، ومن آذاهُمْ فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه».

---

(١) الشفا ٢/٥٢.

إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حلّت عليه الشفاعة».

* وروى أنس بن مالك: «أن النبى ﷺ - قال: «مَنْ صلّى علىَّ صلاة صلى الله عليه عَشْر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات، ورفع له عشر درجات، وكتب له عشر حسنات».

* وروى عبد الرحمن بن عوف: قال: قال رسول الله ﷺ: «لقيت جبريل، فقال: إنى أُبَشّرك أن الله تعالى يقول: من سلّم عليك سلّمت عليه، ومن صلّى عليك صلّيتُ عليه».

* وروى ابن مسعود، أن النبى - ﷺ - قال: «أَوْلى الناس بى يوم القيامة أكثرهم علىَّ صلاة».

* وروى أُبَىّ بن كعب: كان رسول الله - ﷺ - إذا ذَهَب رُبْع الليل، قام فقال: «ياأيها الناس، أذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه» فقال أبَىّ بن كعب: يارسول الله: إنىّ أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتى؟ قال: «ما شئت» قال: الرُّبْع؟ قال: «ما شئت وإن زدت فهو خير» قال: الثلث؟ قال: «ما شئت وإن زدت فهو خير» قال: النصف؟ قال: «ما شئت وإن زدت فهو خير» قال الثلثين؟ قال: «ما شئت وإن زدت فهو خير» قال: يارسول الله فأجعل صلاتى كلها لك، قال: «إذًا تُكْفى ويُغفر ذنبك».

٦

ويرى القاضى عياض، استنادًا إلى ما جاء عن رسول الله، أن مَنْ لم يُصَلِّ على النبى - ﷺ - مذموم آثم[1] وأدلته على ذلك كثيرة، منها:

* ما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ: «رَغِم أنفُ رَجُل ذُكِرتَ

---

(١) الشفا ٧٧/٢.

٧

وفى ختام هذا الفصل، عقد القاضى عياض فصلا خصصه للحديث عن إعظام جميع أسبابه، وإكرام مشاهده وأمكنته[١]، قال فيه:

«ومن إعظامه وإكباره - ﷺ - إعظام جميع أسبابه، وإكرام مشاهدِهِ، وأمكنته من مكة والمدينة، ومعاهده، وما لمسه - ﷺ - أو عُرِف به».

* ويذكر القاضى عياض مجموعة من الآثار والمرويات، التى تؤيد وجهة نظره..

من ذلك، ما روى عن خالد بن الوليد، أنه كانت فى قلنسوته شَعْرات من شَعْر رسول الله - ﷺ، فسقطت قلنسوته فى بعض حروبه، فشدَّ عليها شدة أنكر عليه أصحاب النبى كثرة من قُتِل فيها، فقال: لم أفعلها بسبب القلنسوة، بل لما تضمنته من شَعْرِه - ﷺ. لئلَّا أُسْلَب بركتها، وتقع فى أيدى المشركين.

* ورؤى ابن عمر - رضى الله عنهما - واضعا يده على مقعد النبى - ﷺ - من المنبر، ثم وضعها على وجهه.

* وكان مالك - رحمه الله - لا يركب بالمدينة دابة، ويقول: أستحيى من الله أن أطأ تُربة فيها رسول الله، ﷺ، بحافر دابَّة.

* وحُكى عن أحمد بن فضلويه الزاهد، وكان من الغزاة الرماة، أنه قال: ما مَسَسْت القوس بيدى إلا على طهارة منذ بلغنى أن النبى - ﷺ - أخذ القوس بيده.

وقد أفتى مالك - فيمن قال: تربة المدينة رَدِّية، يُضرب ثلاثين دِرَّةً، وأمر بحبسه وكان له قَدْرٌ، وقال: ما أحوجه إلى ضرب عُنقه، تربة دُفِن فيها النبى - ﷺ - يزعم أنها غير طيِّبة.

---

(١) الشفا ٢/٥٦.

قال القاضي عياض خاتما مروياته:

«وجديرٌ لمواطن عُمرَت بالوحي والتنزيل، وتردَّد بها جبريل ومكائيل، وعرجَتْ منها الملائكة والروح، وضَجَّت عرصاتها بالتقديس والتسبيح، واشتملت تربتها على جَسَد سيد البشر، وانتشر عنها من دين الله، وسُنة رسوله ما انتشر، مدارسُ آياتٍ ومساجد، وصلوات ومشاهد الفضائل والخيرات، ومعاهد البراهين والمعجزات، ومناسك الدين، ومشاعر المسلمين، ومواقف سيد المرسلين، ومتبوأ خاتم النبيين، حيث انفجرت النبوة، وأين فاض عبَابُها، ومواطن طويت فيها الرسالة، وأوّل أرضٍ مسَّ جلد المصطفى تُرابُها، أن تُعظَّم عرصاتها، وتتنسّم نفحاتها، وتُقبَّل ربوعها وجدرانها»[1].

(١) الشفا ٥٩/٢.

الفصل الرابع
وُجوب الصَّلَاة عليه، وزيارة قبره الشريف

١

ذكر القاضى عياض، فيما سبق من هذا الباب، الذى خصصه لتعيين وتحديد حقوق النبى المصطفى - ﷺ - قِبَل المسلمين: وجوب الإيمان به، ولزوم محبته، ووجوب إعظامه وتقديره وبره. وكان لابد أن يتحدث عن العنصر الهام المكمّل لكل ما سبق، وهو وجوب الصلاة والتسليم عليه. وزيارة قبره الشريف[1].

وقد صدر هذا الفصل الفقهى الهام بذكر حُكْمِ الصلاة عليه، استنادًا لقول الحق سبحانه، ﴿إِنَّ الله ومَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىّ، يأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيه وسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [الأحزاب ٥٦].

حيث يخبر المولى جل وعلا بما ناله الرسول الكريم - ﷺ - من جاه عظيم، ومنزلة سامية، ومكانة رفيعة عند الله تعالى، وماله من السيادة والمقام المحمود فى الملأ الأعلى، وما خصه الله تعالى به من الثناء العاطر، والذكر الحسن، فيقول الله تعالى - فى الآية الكريمة - ما معناه:

«إن الله تعالى يرحم نبيه، ويعظم شأنه، ويرفع مقامه، وملائكته الأبرار، وجنده الأطهار، يدعون للنبى - ﷺ - ويستغفرون له، ويطلبون من الله أن يبارك ويمجد عبده ونبيه محمدا - ﷺ - ويُنيله أعلى المراتب، ويظهر دينه على جميع الأديان، ويُجْزِل له الأجر والثواب، على ما قدم لأمته من خير عميم، وفضل جسيم، فيا أيها المؤمنون صلوا أنتم عليه، وعظموا أمره، واتبعوا شرعه، وأكثروا من الصلاة عليه والتسليم، فحقّه عليكم عظيم، ومهما فعلتم فلن تؤدوه حقه، فقد كان المنقذ لكم من الضلالة إلى الهدى، وبه أخرجكم الله من الظلمات إلى النور.

---

(١) الشفا ٢/٦٠.

وقد ورد ذكر الثناء على الرسول - ﷺ - بهذه الصيغة، فجاء الخبر مؤكدًا بـ (إنَّ) إهتماما به، وجيء بالجملة اسمية، لإفادة الدوام وكانت الجملة اسمية فى صدرها (إن الله) فعلية فى عجزها (يصلّون) للإشارة إلى أن هذا الثناء من الله تعالى، والتمجيد الدائم يتجدد وقتا فوقتا على الدوام، وهذا من الأسرار الدقيقة.

فإن قيل: إذا صلى الله وملائكته على النبى، فأى حاجة إلى صلاتنا عليه؟

قلنا: الصلاة عليه ليس لحاجته إليها، وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه. وإنما هو لإظهار تعظيمه - ﷺ - ليُثبنا الله تعالى عليه، ولهذا قال النبى المصطفى - ﷺ: «مَنْ صَلَّى علىَّ مَرّة صلَّى الله عَلَيْه بِهَا عَشْرًا».

ويذكر القاضى عياض أقوال الراسخين فى العلم، حول هذا الموضوع، فيقول:

قال ابن عباس: إن الله وملائكته يباركون على النبى، وقيل: إن الله يترحَّم على النبى، وملائكته يدعون له، وأصل الصلاة الترحم، فهى من الله رحمة، ومن الملائكة رقة واستدعاء للرحمة من الله.

وقال القشيرى: الصلاة من الله تعالى لمن دون النبى رحمة، وللنبى - ﷺ - تشريف وزيادة تكرمة.

وقال بعض العلماء: معنى قولنا «اللهم صَلِّ على محمد» أى عظمه فى الدنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دعوته، وإبقاء شريعته، وفى الآخرة بتشفيعه فى أمته، وتضعيف أجره ومثوبته، وإعطائه المقام المحمود.

روى أن صحابة رسول الله سألوه: يارسول الله كيف نُصَلِّى عليك؟ فقال: «قولوا اللهم صلِّ على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل ابراهيم إنك حميد مجيد».

* وهنا يتصدى القاضى عياض لتجلية الأمر وتحديده فيقول:

«إن النبى ﷺ - قد فرّق فى حديث تعليم الصلاة عليه، بين لفظ الصلاة، ولفظ البركة، فدل أنهما بمعنيين: أما التسليم الذى أمر الله تعالى به عباده، أن

يسلِّموا على النبى - ﷺ - عند حضورهم قبره، وعند ذكره، وفى معنى السلام عليه ثلاثة وجوه:

أحدهما: السلامة لك ومعك، ويكون السلام مصدرًا كاللَّذاذِ واللَّذاذَة.

الثانى: أى السلام على حفظك ورعايتك مُتَوَلٍّ له، وكفيل به، ويكون هنا السلام اسم الله.

الثالث: أن السلام بمعنى المسالمة له، والانقياد، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُون حتى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَر بَيْنَهُم ثم لَا يَجِدُوا فى أَنْفُسِهِم حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

٢

هل الصلاة على النبى - ﷺ - على سبيل الندب أو الفرض؟

عقد القاضى عياض فصلا جديدا للإجابة على هذا السؤال، قال فيه:[١].

«اعلم أن الصلاة على النبى - ﷺ - فَرْضٌ على الجملة، غير محدد بوقت، لأمر الله تعالى بالصلاة عليه، وحَمْل الأئمة والعلماء له على الوُجُوب، وأجمعوا عليه.

وينقل القاضى عياض عن الفقهاء والعلماء آراءهم، فيقول:

* وحكى أبو جعفر الطبرى: أن مجمل الآية عنده على النَّدب، وادَّعى فيه الإجماع، ولعله فيما زاد على مرة. والواجب منه الذى يسقط به الحرج، ومأثم تَرْك الفرض مرّة كالشهادة له بالنبوة، وما عدا ذلك فمندوب مرغّب فيه، من سُنَن الإسلام وشعار أهله.

* قال القاضى أبو الحسن بن القصَّال: المشهور عند أصحابنا أن ذلك واجب فى الجملة على الإنسان، وفرض عليه أن يأتى بها مرة من دهره مع القدرة على ذلك.

---

(١) الشفا ٦١/٢.

* وقال القاضي أبو بكر بن بُكَيْر: افترض الله على خلقه أن يُصَلُّوا على نبيه، ويُسَلِّموا تَسْلِيما، ولم يجعل ذلك لوقت معلومٍ، فالواجب أن يكثر المرء منها، ولا يغفل عنها.

قال القاضي أبو محمد بن نصر: الصلاةُ على النبي - ﷺ - واجبة في الجملة.

* قال القاضي أبو عبد الله محمد بن سعيد: ذهب مالك وأصحابه، وغيرهم من أهل العلم، أن الصلاة على النبي - ﷺ، فَرْضٌ بالجملة، بعقد الإيمان، لا يتعين في الصلاة، وأن من صلى عليه مرة واحدة من عمره، سقط الفرض عنه.

* وقال أصحاب الشافعي: الغرض منها الذي أمر الله تعالى به ورسوله - ﷺ - هو في الصلاة وقالوا وأما في غيرها في خلاف أنها غير واجبة.

وأما في الصلاة، فحكى الإمامان الطبري والطحاوي وغيرهما، إجماع جميع المتقدمين والمتأخرين من علماء الأمة على أن الصلاة على النبي في التشهد غير واجبة.

وشذ الشافعي في ذلك فقال: مَنْ لم يصل على النبي - ﷺ - من بعد التشهد الآخر قبل السلام. فصلاته فاسدة. وإن صلّى عليه قبل ذلك لم تُجْزِه.

ولا سلف له في هذا القول ولا سُنّة يتبعها.

وقد بالغ - في إنكار هذه المسألة عليه لمخالفته فيها من تقدمه - جماعة، وشنعوا عليه الخلاف فيها، منهم الطبري والقشيري وغير واحد.

* وقال أبو بكر بن المنذر: يستحب أن لا يُصَلّي أحدٌ صلاة إلا صلّى فيها على رسول الله - ﷺ - فإن ترك ذلك تاركٌ، فصلاته مُجْزِئه في مذهب مالك، وأهل المدينة، وأهل الكوفة من أصحاب الرأي. وهُو قول جملة أهل العلم.

* وحكى أبو محمد بن أبي زيد عن محمد بن الموّاز: أن الصلاة على النبي - ﷺ فريضة. ليست من فرائض الصلاة، ولكنها فريضة في الصلاة.

* وحكى أبو يَعْلى العَبْدِى المالكى، عن المذهب فيها ثلاثة أقوال: الوجوب، والسُّنة، والندب[1].

وقد خالف الخطابى - من أصحاب الشافعى وغيره - الشافعى فى هذه المسألة. قال الخطابى: وليست بواجبة فى الصلاة.

يقول القاضى عياض: ولا أعلم له فيها قدوة. والدليل على أنها ليست من فروض الصلاة، عمل السلف الصالح - قبل الشافعى - وإجماعهم عليه.

وقد شنَّع الناس عليه هذه المسألة جدا، وهذا تشهد ابن مسعود الذى اختاره الشافعى، وهو الذى علّمه له النبى - ﷺ - ليس فيه الصلاةُ على النبى - ﷺ. وكذلك كل من روى التشهد عن النبى - ﷺ، كأبى هريرة، وابن عباس، وجابر، وابن عُمر، وأبى سعيد الخُدرى.. لم يذكروا فيه صلاةً على النبى ﷺ.

وقد قال ابن عباس وجابر: كان النبى ﷺ - يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن

* وفى الحديث: «لا صلاة لمن لم يُصَل عَلَىّ» قال ابن القصار - معناه كاملة، أو لمن لم يُصَلِّ علىَّ مرّة فى عمره. وضعَّف أهل الحديث كلهم رواية هذا الحديث.

* وخلاصة ما أراد أن يقوله القاضى عياض فى هذا البحث الفقهى حول الصلاة على النبى:

«أن الله سبحانه أمر المؤمنين بالصلاة على نبيه الكريم، وهذا الأمر للوجوب، فتكون الصلاة على النبى - ﷺ. واجبة».

ويكاد العلماء يجمعون على وجوب الصلاة والتسليم عليه مرة فى العمر، بل لقد حكى القرطبى الإجماع على ذلك عملا بما يقتضيه الأمر (صلُّوا) من الوجوب، وتكون الصلاة والسلام فى ذلك كالتلفُّظ بكلمة التوحيد، حيث لا يصح إسلام الإنسان إلا بالنطق بها.

---

(١) الشفا ٢/٦٣.

وقد اختلف العلماء فى حكم الصلاة على النبى، هل تجب فى كل مجلس، وكلما ذكر اسمه الشريف - ﷺ - أم هى مندوبة؟ وذلك بعد اتفاقهم على أنها واجبة فى العمر مرة.

(أ) فقال بعضهم: إنها واجبة كلما ذكر اسم النبى - ﷺ.

(ب) وقال آخرون: تجب فى المجلس مرة واحدة، ولو تكرر ذكره - عليه الصلاة والسلام - فى ذلك المجلس مرات.

(جـ) وقال آخرون: يجب الإكثار منها، من غير تقيد بعدد أو مجلس، ولا يكفى أن يكون فى العمر مرة.

وحجة القائلين بالوجوب فى المجلس، أو كلما ذكر اسم الرسول - ﷺ - أن الله عز وجل أمر بها، والأمر يفيد التكرار ثم ما ورد من الوعيد الشديد لمن لم يصلِّ على رسول الله - ﷺ، كقوله: «البخيل الذى من ذُكرت عنده فلم يُصَلِّ علىَّ»[1].

وقوله ﷺ: «ما من قوم يجلسون فى مجلس ثم يقومون منه لا يذكرون الله، ولا يصلُّون على نبيِّه إلا كان تِرة عليهم» أى حسرة وندامة يوم القيامة.

فهذه تفيد الوجوب عندهم.

وذهب جمهور العلماء إلى أن الصلاة على النبى - ﷺ - قُرْبة وعبادة، كالذِّكر والتسبيح والتحميد، وأنها واجبة فى العمر مرّة. ومندوبة ومسنونة فى كل وقت وحين، وأنه ينبغى الإكثار منها لما صحّ عنه - ﷺ - أنه قال: «مَنْ صلَّى علىَّ صَلَاةً واحدةً صلَّى الله عليه بها عشرًا»[2] وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة الشهيرة فى فضل الصلاة على النبى - ﷺ فهى مطلوبة، ولكن لا على سبيل الوجوب، بل على سبيل الندب والاستحباب.

---

(١) رواه الترمذى.

(٢) رواه الإمام أحمد وابن حبان والحاكم.

* أما عن مناقشة القاضى عياض حول هل تجب الصلاة على النبى فى الصلاة المفروضة؟ فنقول: اختلف الفقهاء فى حكم الصلاة على النبى - ﷺ - فى الصلاة على مذهبين:

(أ) مذهب الشافعي وأحمد، أنها واجبة فى الصلاة ولا تصح الصلاة بدونها.

(ب) مذهب مالك وأبي حنيفة، أنها سنة مؤكدة فى الصلاة، وتصحّ الصلاة بدونها مع الكراهة والإساءة.

* وقد استدل الشافعية والحنابلة على أن الصلاة على النبى واجبة فى الصلاة بأدلة نوجزها فيما يلى:

١ - الأمر الوارد فى قوله تعالى ﴿ياأيها الذين آمنوا صَلُّوا عليه﴾ والأمر يقتضى الوجوب، ولا وجوب فى غير التشهد، فتكون الصلاة على النبى واجبة فى الصلاة.

٢ - حديث كعب بن عجرة: «قلنا يارسولٍ الله قد عرفنا التسليم عليك، فكيف نصلى عليك؟ فقال: «قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد..» الحديث.

قال ابن كثير: «ذهب الشافعى - رحمه الله - إلى أنه يجب على المصلى أن يصلى على رسول الله - ﷺ - فى التشهد الأخير، فإن تركه لم يصح صلاته، وهو ظاهر الآية، ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة، وهو مذهب الإمام أحمد، وإليه ذهب ابن مسعود وجابر بن عبد الله[(١)].

* واستدل المالكية والأحناف على مذهبهم ببضعة أدلة نوجزها فيما يلى:

١ - قوله تعالى: ﴿يـاأيُّها الذين آمنوا صلّوا عليه﴾ قالوا: قد تضمنت هذه الآية الأمر بالصلاة على النبى - ﷺ - وظاهره يقتضى الوجوب، فمتى فعلها الإنسان مرة واحدة فى صلاة - أو فى غير صلاة فقد أدى فرضه، وهو مثل كلمة

---

(١) تفسير ابن كثير الجزء الثالث باختصار.

التوحيد والتصديق بالنبى - ﷺ - متى فعله الإنسان مرة واحدة فى عمره، فقد أدى فرضه، والأمر يقتضى الوجوب لا التكرار.

٢ - حديث ابن مسعود، حين علّمه - ﷺ - التشهّد، فقال: إذا فعلتَ هذا أو قُلت هذا فقد تمت صلاتك، فإن شئت أن تقوم فقُم، ثم اختر من أطيب الكلام ما شئت[1].

٣ - حديث معاوية السلمي، وفيه: أن النبى - ﷺ - قال: «إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شىء من كلام الناس، إنما هى التسبيح، والتهليل وقراءة القرآن، ولم يذكر الصلاة على النبى -ﷺ.

٣

بعد إذْ انتهى القاضى عياض من الحديث عن حكم الصلاة على النبى، وعرض آراء العلماء ومناقشتها. انتقل إلى الحديث عن المواطن التى يستحب فيها الصلاة على رسول الله - ﷺ[2].

قال:

«ويُرَغبُ من ذلك فى تَشَهّد الصلاة - كما قدمنا - وذلك بعد التشهد وقبل الدعاء. لقول ابن مسعود: «فإنكم إذا قلتموها أصابت كل عبد صالح فى السماء والأرض».

* ويستشهد القاضى عياض على ذلك بما رواه الصحابة والتابعون وأهل العلم من الأئمة.. من مثل قول فضالة بن عبيد: «سمع النبى ﷺ رجلا يدعو فى صلاته، فلم يُصَلِّ على النبى - ﷺ، فقال النبى: «عَجِلَ هذا» ثم دعاه فقال له ولغيره: «إذَا صَلَّى أحدكم فليبدأ بتحميد الله، والثناء عليه، ثم ليُصَلِّ على النبى، ثم ليدعُ بعدُ بما شاء».

وعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه، قال: الدعاءُ والصلاةُ معلَّقٌ بين

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى.
(٢) الشفا ٦٤/٢.

السماء والأرض، فلا يصعد إلى الله منه شيء، حتى يُصَلَّى على النبى - ﷺ.

* وقال ابن عطاء: للدعاء أركان وأجنحة وأسباب وأوقات، فإن وافق أركانه قوى، وإن وافق أجنحته طار فى السماء، وإن وافق مواقيته فاز، وإن وافق أسبابه أنجح، فأركانه حضور القلب والرقة، والاستكانة والخشوع، وتعلّق القلب بالله، وقطعه من الأسباب، وأجنحته الصدق، ومواقيته الأسحار، وأسبابه الصلاة على محمد - ﷺ.

* وفى الحديث: «كل دعاءٍ محجوب دون السماء فإذا جاءت الصلاةُ عَلَىَّ، صعد الدعاء.

* ويحدد القاضى عياض المواطن التى يستحب فيها الصلاة على النبى - ﷺ، فيقول:

«ومن مواطن الصلاة والسلام دخول المسجد، فينبغى لمن دخل المسجد أن يصلى على النبى - ﷺ - وعلى آله، ويترحم عليه، ويبارك عليه، وعلى آله، ويسلّم تسليما. ويقول: اللهم اغفر لى ذنوبى، وافتح لى أبواب رحمتك، وإذا خرج فعل مثل ذلك، وجعل موضع رحمتك: فضلك.

«ومن مواطن الصلاة عليه أيضا: الصلاة على الجنائز، وذكر عن أبى أمامة أنها من السُّنة. ومن مواطن الصلاة على النبى وآله فى الرسائل، وما يكتب بعد البسملة، ولم يكن هذا فى الصدر الأول، وأحدث عند ولاية بنى هاشم، فمضى به عملُ الناس فى أقطار الأرض، ومنهم من يختم به أيضا الكتب، وقال ﷺ «من صلّى علىّ فى كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له مادام اسمى فى ذلك الكتاب».

٤

وعن كيفية الصلاة على النبى - ﷺ[١]، يروى القاضى عياض، عن صحابة رسول الله أخبارا كثيرة تتضمن كيفية هذه الصلاة.

(١) الشفا ٢/٧٠ - ٧٤.

* منها: ما رواه مالك عن ابن مسعود: أنهم قالوا: يارسول الله كيف نُصلى عليك؟

قال: «قولوا اللهم صلِّ على محمد، وعلى آله كما صليت على آل ابراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل ابراهيم، فى العالمين، إنك حميدٌ مجيد، والسلام كما قد عُلِّمْتُم».

* وفى رواية كعب بن عُجرة «اللهم صلِّ على محمد وآل محمد، كما صلَّيت على إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد، كما باركت على إبراهيم، إنك حميدٌ مجيد.

* وفى رواية أبى سعيد الخُدْرى: «اللهم صلِّ على محمدٍ عبدِك ورسولك»..

* قال على بن أبى طالب: كرم الله وجهه. «عدَّهن فى يدى رسول الله — ﷺ، وقال: «عَدَّهُن فى يدى جبريل، وقال هكذا نزلت من عند رب العزة: «اللَّهُمَّ صلِّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل ابراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم وترحَّم على محمد وعلى آل محمد، كما ترحمت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم وتحنَّن على محمد وعلى آل محمد، كما تحننت على إبراهيم، وعلى آل ابراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم وسلِّم على محمد وعلى آل محمد، كما سلَّمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.»

وعن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ - قال: «من سَرَّه أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلَّى علينا أهل البيت، فليقلْ: اللهم صل على محمد النبى وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته وأهل بيته، كما صلَّيت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

هذا وقد تفنن الصحابة والتابعون والسلف الصالح فى الصلاة على النبى - ﷺ - وذكر كل منهم فيض عواطفه، وأشواق نفسه فى هذه الصلاة،

وذكر القاضى عياض عنهم فى ذلك أقوالا كثيرة[١] من ذلك ما رواه سلامة الكندى قال:

«كان علىٌّ يعلمنا الصلاة على النبى - ﷺ - «لبَّيك اللهم ربى وسعديك، صلوات الله البر الرحيم، والملائكة المقربين، والنبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، وما سبَّح لك من شىء يارب العالمين، على محمد بن عبد الله خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين، الشاهد البشير الدَّاعى إليك بإذنك، السراج المنير، وعليه السلام».

* ومن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود قال: اللهم اجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، محمد عبدك ورسولك، إمام الخير، ورسول الرحمة، اللهم ابعثه مقاما محمودًا يغبطُهُ فيه الأولون والآخرون، اللهم صَّل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيدٌ».

٥

وإثراء للموضوع، عقد القاضى عياض فصلا فى فضيلة الصلاة على النبى والتسليم عليه والدعاء له[٢] ذكر فيه كثيرا من أحاديث رسول الله - ﷺ - التى رواها صحابته، والتى توضح ما ينتظر المصلِّى على النبى، من الشفاعة والبركة وجزيل الثواب.

* من ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو، قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول:

«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، وصلّوا علىَّ فإنه مَنْ صلَّى علىَّ مرة واحدة، صلى الله عليه عشرًا، ثم سَلُوا لى الوسيلة، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى

---

(١) الشفا ٢/٧٠ - ٧٤.

(٢) الشفا ٢/٧٤.

إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حلّت
الشفاعة».

* وروى أنس بن مالك: «أن النبى ﷺ - قال: «مَنْ صلَّى علىَّ صـ
صلى الله عليه عَشْر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات، ورفع له عشر درجـ
وكتب له عشر حسنات».

* وروى عبد الرحمن بن عوف: قال: قال رسول الله ﷺ: «لقيت جبر
فقال: إنِّى أُبَشِّرك أن الله تعالى يقول: من سلَّم عليك سلَّمت عليه، ومن
عليك صلَّيتُ عليه».

* وروى ابن مسعود، أن النبى - ﷺ - قال: «أَوْلى الناس بى
القيامة أكثرهم علىَّ صلاة».

* وروى أُبَىّ بن كعب: كان رسول الله - ﷺ - إذا ذَهَب رُبْع الليل،
فقال: «ياأيها الناس، أذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت
فيه» فقال أبَىّ بن كعب: يارسول الله: إنىِّ أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل
من صلاتى؟ قال: «ما شئت» قال: الرُّبْع؟ قال: «ما شئت وإن زدت فهو خيـ
قال: الثلث؟ قال: «ما شئت وإن زدت فهو خير» قال: النصف؟ قا
«ما شئت وإن زدت فهو خير» قال الثلثين؟ قال: «ما شئت وإن زدت فـ
خير» قال: يارسول الله فأجعل صلاتى كلها لك، قال: «إذًا تُكْفى ويُـ
ذنبك».

٦

ويرى القاضى عياض، استنادًا إلى ما جاء عن رسول الله، أن مَنْ لم يُصَـ
على النبى - ﷺ - مذموم آثم[١] وأدلته على ذلك كثيرة، منها:

* ما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ: «رَغِم أنفُ رَجُل ذُكِر

(١) الشفا ٢/٧٧.

عنده فلم يصَلِّ عليّ، ورَغِمَ أنفُ رَجُلٍ دخل رمضان ثم انسلخ قبل أن يُغفر له، ورَغِم أنف رَجُلٍ أدرك عنده أبواه أو أحدهما الكبر فلم يُدخلاه الجنّة».

* وفى حديث آخر: أن النبى - ﷺ - صعد المنبر فقال: آمين، ثم صعد فقال: آمين ثم صعد فقال آمين، فسأله مُعاذ عن ذلك فقال: «إن جبريل آتانى فقال: يامحمد.. مَنْ سُمِّيت بين يديه فلم يصلِّ عليك فمات فدخل النار، فأبعده الله قُلْ آمين، فقلتُ آمين، وقال: فمن أدرك رمضان فلم يُقْبل منه فمات مثل ذلك، ومن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات مثله».

* وقال ﷺ - فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه «أيّما قوم جَلَسُوا مجلسًا ثم تفرقوا قبل أن يذكروا الله ويصَلُّوا على النبى، كانت عليهم من الله تَرةٌ، إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم».

٧

ومن فضل الله تعالى على النبى المصطفى - ﷺ - **أنه خصَّه دون سائر الأنبياء بتبليغ صلاة من صلَّى عليه أو سَلَّم من الأنام**[١].

ذكر القاضى عياض، بإسناد طويل إلى أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «ما مِنْ أحدٍ يُسلِّم عَلَيَّ إلا ردَّ الله عليَّ رُوحى حتى أرد عليه السلام».

* وعن ابن مسعود - رضى الله عنه: قال رسول الله - ﷺ:
«إنَّ لله ملائكةً سَيَّاحين فى الأرض يُبَلِّغونى عن أُمتى السَّلَام».

* وعن أبى هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ:
«مَنْ صَلَّى عليَّ عندَ قَبْرِى سمعتُه، ومن صلَّى عليَّ نائيًا بُلِّغْتُه»

«وعن ابن عمر، قال: أكثروا من السلام على نبيِّكم كل جمعة، فإنه يُؤتى به منكُم فى كُلِّ جُمُعة».

---

(١) الشفا ٧٨/٢.

وفى رواية: فإن أحدًا لا يُصلى علىَّ إلا عُرِضَتْ صلاتُه علىَّ حين يفرغ منها».

* وعن الحسن، عنه ﷺ: «حيثما كُنتُم فَصَلُّوا عَلَيَّ فإنّ صلاتكُمْ تَبْلُغُنى».

* وعن ابن شهاب: بلغنا أن رسول الله - ﷺ - قال: «أكثروا من الصلاةِ عَلَيَّ فى الليلة الزهراء، واليوم الأزهر، فإنهما يُؤَدِّيان عنكم، وإن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وما من مُسْلِم يُصَلِّى علىَّ إلا حَمَلها مَلَكٌ حتى يؤدِّيها إلىَّ ويسمِّيه حتى إنه ليقول: إن فلانا يقول كذا وكذا».

٨

وبعد أن انتهى القاضى عياض من الحديث عن وجوب الصلاة على النبى ﷺ، وفضلها، وما يتصل بذلك من أمور، وجد الفرصة مواتية لإثارة قضية، مؤداها.

هل تجوز الصلاة على غير النبى - ﷺ - وسائر الأنبياء عليهم السلام[١].

قال القاضى عياض: «عامة أهل العلم متفقون على جواز الصلاة على غير النبى - ﷺ.

وهم يستندون فى ذلك إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيكُم وَمَلَائِكتُهُ﴾ الآية.

وقوله عز وجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطهِّرهُم وتزكِّيهم بها وَصَلِّ عَلَيْهم﴾ الآية.

وقوله سبحانه: ﴿أولئِك عَلَيْهِم صَلَوات من ربهم وَرَحْمة﴾.

وقول النبى - ﷺ - «اللهم صَلِّ على آل أبى أو فى ، وكان إذا أتاه قوم بصدقتهم، قال: اللّهم صلِّ على آل فلان».

وفى حديث الصلاة: «اللهم صلِّ على محمد وعلى أزواجه وذريته وفى آخر:

(١) الشفا ٨٠/٢.

وعلى آل محمد، قيل: أتباعه، وقيل: أمته، وقيل: آل بيته، وقيل: الأتباع والرهط والعشيرة.

بيد أن كثيرا من الصحابة، منهم ابن عباس، لا يجّوزون الصلاة على غير النبى ﷺ.

وروى عنه.. أنه لا تجوز الصلاة على غير النبى - ﷺ.

قال القاضى عياض: ووجدتُ بخط بعض شيوخى، مذهب مالك، أنه لا يجوز أن يُصَلَّى على أحدٌ من الأنبياء سوى محمد - ﷺ.

وقال مالك - فى المبسوط - ليحيى بن اسحاق: أكره الصلاة على غير الأنبياء، وما ينبغى لنا أن نتعدّى ما أُمرنا به. قال يحيى بن يحيى: لستُ آخذ بقوله، ولا بأس بالصلاة على الأنبياء كلهم، وعلى غيرهم، واحتج بحديث ابن عمر وبما جاء فى حديث تعليم النبى - ﷺ - الصلاة عليه وفيه وعلى أزواجه وعلى آله.

وبعد مناقشات طويلة، واستعراض لآراء وأقوال الصحابة وأئمة أهل العلم، يذكر القاضى عياض رأيه فى هذا الموضوع فيقول:

والذى ذهب إليه المحققون - وأميلُ إليه - ما قاله مالك وسفيان - رحمهما الله - وروى عن ابن عباس، واختاره غير واحد من الفقهاء والمتكلمين.. أنه لا يصلى على غير الأنبياء عند ذكرهم، بل هو شيء يختص به الأنبياء توقيرا وتعزيزًا، كما يُخصُّ الله تعالى عند ذكره بالتنزيه والتقديس والتعظيم، ولا يشاركه فيه غيره. كذلك يجب تخصيص النبى - ﷺ - وسائر الأنبياء بالصلاة والتسليم، ولا يُشارك فيه سواهم كما أمر الله به بقوله (صَلُّوا عَلَيه وسَلِّمُوا تَسْلِيمًا). ويُذكر من سواهم من الأئمة وغيرهم بالغفران والرضى، كما قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ولِإخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بالإِيمَان)

وقال: ﴿والَّذِينَ اتبعُوهُم بإِحْسَانٍ رَضِى الله عَنْهُم﴾.

أيضا، فهو أمرٌ لم يكن معروفا فى الصدر الأول، كما قال عمران - وإنّما أحدثه الرَّافِضَة والمتَشيِّعة فى بعض الأئمة، فشاركوهم عند الذكر لهم، بالصلاة،

وساووهم بالنبى - ﷺ - فى ذلك وأيضا، فإن التشبُّه بأهل البدع منهى عنه، فتجب مخالفتهم فيما التزموه من ذلك، وذِكْر الصلاة على الآل، والأزواج مع النبى - ﷺ - بُحكم التَّبع والإضافة إليه، لاَ عَلَى التخصيص. قالوا: وصلاة النبى - ﷺ - على مَنْ صلَّى مجراها مجرى الدعاء والمواجهة، ليس فيها معنى التعظيم والتوقير، وقد قال تعالى: ﴿لا تَجْعلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنكُمْ كدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾.

فكذلك يجب أن يكون الدعاء له مخالفا لدُعاء الناس بعضهم لبعض.

٩

حكم زيارة قبره ﷺ:

يقر القاضى عياض فى بحثه الذى عنوانه: حكم زيارة قبره الشريف - ﷺ - أن من أبرز فضائل المدينة المنورة. أنها تحوى المسجد النبوى الشريف، الذى يضم قبر النبى - ﷺ - وقبر خليفتيه أبى بكر وعمر، رضى الله عنهما.

* **فأما عن المسجد النبوى الشريف، فقد قال ﷺ - فى فضله:**

«لا تُشدّ الرِّحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجدى هذا والمسجد الأقصى»

وقال ﷺ:

«صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلاّ المسجد الحرام».

وقال ﷺ:

«من صلى فى مسجدى أربعين صلاة لا تفوته صلاة، كتبت له براءة من النار ونجاة يوم القيامة»

* **وأما عن قبره الشريف، ﷺ**، فلا ريب أن زيارته من أعظم القرب وأجلها شأنا، فإن بقعة ضمّت خير الرسل، وأكرمهم عند الله لها شأن خاص،

---

(١) الشفا ٢/٨٠.

ومزية يعجز القلم عن وصفها، إن الذى يزور قبر النبى المصطفى - ﷺ، لابد أن يتذكر عظمة هذا الرسول، وسجلّه الحافل الزاخر بالأحداث الجليلة، ما أعظم هذه الذكريات التى تطوف بخاطر المسلم، وهو فى الأراضى المقدسة فيدفعه الشوق إلى زيارة نبى الله ورسوله، فى مدينته المنورة، هذه الزيارة التى تحرك مشاعر المسلمين، وتذكرهم بعظمة هذا الرسول الكريم، الذى اصطفاه الله، وطهّره، وأدبه، وفضّله على سائر الأنبياء والمرسلين، وحمّله أعظم رسالة فى تاريخ الإنسانية.

* إن من نعم الله - العلى القدير - على المسلمين أن خَصَّهم بأن مثوى نبيهم - ﷺ - معلوم لديهم باليقين، وفى ذلك راحة للنفوس، وطب للقلوب من الحيرة، إذ ترسخ فيها السَّكِينة من لواعج الشوق، لأنها من أسمى المطالب الروحية المقبولة عند الله سبحانه وتعالى، تحقيقا وامتثالا لقوله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم جَاءُوكَ فاسْتَغْفَرُوا الله، واسْتَغْفَر لَهُم الرَّسُولُ لوَجَدُوا الله تَوَّابًا رَحيمًا﴾ [النساء ٦٤]

قال ابن كثير فى تفسيرها: يرشد الله تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول - ﷺ - ويسألوه أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم، ورحمهم، وغفر لهم، ولهذا قال: ﴿لوَجَدُوا الله تَوابًا رَحيمًا﴾.

وفى فضل زيارة قبر النبى المصطفى - ﷺ، ذكر القاضى عياض حكايات كثيرة رواها العلماء. منها حكاية مشهورة عن العُتْبىّ، قال: كنت جالسًا عند قبر الرسول - ﷺ، فجاء أعرابى فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿ولَوْ أَنهم إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهم..﴾ الآية

وقد جئتك مستغفرا لذنبى ، مستشفعًا بك إلى ربى، ثم أنشأ يقول:

يا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ بالقَاعِ أَعْظُمُه فَطَابَ مِنَ طِيبهنّ القاعُ والأُكُم
نَفْسى الفِداءُ لقبرٍ أنتَ سَاكِنُهُ فيه العَفَافُ وفيه الجُودُ والكَرَم

قال العتبى: ثم انصرف الأعرابى، فغلبتنى عينى، فرأيت النبى - ﷺ - فى النوم، فقال: يا عتبى، إلْحق الأعرابى فَبَشِّره أن الله غفر له

قال القاضى عياض: وقد أجمع العلماء فى كافة الأزمان والعصور على وجوب زيارة قبره الشريف، فزيارة قبره - ﷺ - سُنّة من سُنَنِ المسلمين، مجمع عليها، وفضيلة مرغب فيها.

يقول القسطلانى: «اعلم أن زيارة قبره الشريف، من أعظم القربات، وأرجى الطاعات، والسبيل إلى أعلى الدرجات، ومن اعتقد غير هذا فقد انخلع من ربقة الإسلام، وخالف الله ورسوله وجماعة العلماء الأعلام».

- على أننا نحترز فنقول: إن الغرض الصحيح من زيارة القبور هو تذكرة الآخرة، كما ورد فى حديثه الصحيح - ﷺ - الذى نص على الإذن فى زيارة القبور للموعظة الحسنة، وتذكرة الآخرة. فمتى كانت الزيارة لغرض صحيح يقره صاحب الشريعة، كانت ممدوحة من جميع الجهات.

ومما لا شك فيه، أن زيارة قبر الرسول فى مسجده، تفعل فى نفوس أولى الألباب أكثر مما تفعله أية عبارة أخرى، فالذى يقف على قبر المصطفى ذاكرا جهاده، وما لاقاه فى سبيل الدعوة إلى الله، وإخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد والهداية، ومابثه من مكارم الأخلاق فى العالم أجمع، وما محاه من فساد عام شامل، وجاء به من شريعة مبنية على جلب المصالح للمجتمع الانسانى ودرء المفاسد عنه، لابد أن يمتلئ قلبه حبًّا وتقديرًا وتعظيما لهذا الرسول، الذى أدى الأمانة، وبلّغ الرسالة، ونصح الأمة، وجاهد فى الله حق جهاده، وعَبَدَ الله حتى أتاه اليقين.

فإذا لم يكن فى زيارة قبر المصطفى - ﷺ - سوى هذه الموعظة الحسنة، وهذا الأثر الجليل، لكفى فى كونها من أجلّ الأعمال الصالحة التى يحث عليها الدين الحنيف.

وقد ذكر القاضى عياض أحاديث كثيرة تنصّ على زيارة قبر النبى ﷺ. منها:

- «من زار قبرى وجبت له شفاعتى».
- «من زارنى فى المدينة محتسبا كان فى جوارى وكنت له شفيعا يوم القيامة».
- «من زارنى بعد موتى فكأنما زارنى فى حياتى»
- «من حج ولم يزرنى فقد جفانى»

وهذه الأحاديث وغيرها مما فى معناها، ضَعَّفها بعض العلماء، وطعنوا فى أسانيدها.

ومع ذلك، فإنه بتعددها وكثرتها، تتقوى وتعتضد، كما يقول رجال الحديث، وتشهد لها الأحاديث الأخرى، خاصة وأنها لا تخالف نصوص القرآن أو شرائعه، لذلك فإن الطعن فى أسانيدها لا يقلل من شأنها، بعد أن تحدثنا عن فوائد زيارته - ﷺ - ومحاسنها التى يقرها الدين، وتحث عليها قواعده العامة.

ويؤيد هذا ما ذكره القاضى عياض، من قول الإمام مالك: إن الزيارة مباحة للناس، وواجب شد المطى إلى قبره، ﷺ، والوجوب هنا وجوب ندب وترغيب وتأكيد - لا وجوب فرض[١].

ويقول:

«وكيف لا يزار قبر رسول الله، وقد تواترت الروايات على أن مَنْ وَقَفَ عند قبر النبى - ﷺ، فتلا هذه الآية: ﴿إنَّ الله وملائِكَتَه يُصَلُّون عَلَى النبى﴾ ثم قال: صلى الله عليك يا محمد، من يقولها سبعين مرة، ناداه مَلَك، صلى الله عليك يا فلان، ولم تسقط له حاجة[٢].

أقول: لقد استنبط بعض الفقهاء المحققين، من هذه الأحاديث وغيرها، الأدلة على وجوب زيارة قبر الرسول - ﷺ، لما فى الآية الكريمة من حَض على زيارته، فى قوله ﴿ولَوْ أَنَّهُم﴾ والترغيب العظيم بالمغفرة وقبول التوبة، فى قوله تعالى: ﴿لوَجَدُوا الله توَّابًا رحيمًا﴾ ولأنه - ﷺ - حىّ فى قبره، يرد السلام على كلِّ من يسلِّم عليه.

---

(١) الشفا ٨٣/٢.

(٢) الشفا ٨٥/٢.

روى أبو هريرة - رضى الله عنه، أن رسول الله - ﷺ، قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ يِسلِّمُ عَلَيّ إلاَّ ردَّ الله علىَّ روحى حتى أَرَدَّ عَلَيْه السَّلَام» وقال ﷺ: «الأنبياءُ أَحْياء فى قُبُورِهم»[١]

* والسؤال الآن: هل هذه الزيارة واجبة أم سنة؟
هذا الأمر لم يحدده أو يتعرض له القاضى عياض.

أقول: إن حكم زيارة قبره الشريف، كما ذكر علماء الفقه - فيه رأيان:

الأول: الإجماع على سُنِّيتها.

والثانى: القول بوجوبها.

* أما الإجماع على سُنيتها، فقد انعقد عليه إجماع المسلمين فى كافة العصور، وقد صرح بذلك الأئمة الأعلام، كالإمام الحافظ ابن حجر، والإمام القسطلانى، والإمام النووى، والإمام كمال الدين ابن الهمام، والعلامة الفقيه رحمة الله السندى.

* قال ابن حجر: إن مشروعيتها محل إجماع المسلمين[٢]

وقال بعض العلماء: هى سنة مؤكدة تقرب من درجة الواجبات، وهو المفتى به عن طائفة من أئمة الحنفية، كالفقيه المرجح عبد الله بن محمود الموصلى، صاحب كتاب الاختيار، والشيخ رحمة الله السندى، والعلّامة على القارى، واختاره العلامة الفارسى فى مناسكه[٣]

* أما القول بوجوبها، فقد ذهب إليه جمهور من الفقهاء، وهو اختيار الفتوى فى المذاهب الأربعة[٤]

يقول القاضى عياض: وقد كره مالك أن يقال «زرنا قبر النبى - ﷺ».

---

(١) أنظر أيضا نيل الأوطار ٩٤/٥.
(٢) فتح البارى ٤٣/٣
(٣) أنظر الاختيار شرح المختار ١٧٣/١، وفتح القدير ٣٣٦/٢، ولباب المناسك ص٢٨٢.
(٤) الفقه على المذاهب الأربعة ص٧١٢ وأنظر المواهب اللدنية ٥٠٤/٢، ونيل الأوطار ٩٤/٥.

وقد اختلف فى معنى ذلك، فقيل: كراهية الاسم لما ورد من قوله ﷺ «لعن الله زَوَّارات القبور». وهذا يردُّه قوله ﷺ: «نُهيتم عن زيارة القبور فزُوروها»

وقيل: لأن ذلك لما قيل: «إن الزائر أفضلُ من المزور»

وهذا أيضا ليس بشيء، إذ ليس كُلّ زائر بهذه الصفة، وليس هذا عموما، وقد ورد فى حديث أهل الجنة زيارتهم لربِّهم، ولم يُمنَع هذا اللفظ فى حقه تعالى.

ويفسر القاضى عياض كراهية مالك لهذا القول، فيقول:

«وإنما كره مالك أن يقال طواف الزيارة، وزرنا قبر النبى، لاستعمال الناس ذلك بينهم بعضهم لبعض، وكره تسوية النبى ﷺ - مع الناس بهذا اللفظ، وأحبَّ أن يُخص بأن يقال: «سلَّمنا على النبى ﷺ».

وأيضا، فإن الزيارة مباحة بين الناس، وواجب شد المطى إلى قبره - ﷺ. يُريد بالوجوب هنا وُجُوب ندب وترغيب وتأكيد، لا وجوب فرض.

ثم يقول: والأولى عندى، أن منعه، وكراهَةَ مالك له، لإضافته إلى قبر النبى ﷺ وأنه لو قال: «زرنا النبى» لم يكرهه، لقوله ﷺ:

«اللهم لا تجعل قبرى وَثنًا يُعبد بَعْدِى، اشتد غضبُ الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» فحَمَى إضافة هذا اللفظ إلى القبر، والتشبه بفعل أولئك قطعا للذريعة، وحسمًا للباب.

قال اسحق بن ابراهيم الفقيه: «ومما لم يَزَلْ من شأنِ من حجَّ - المرور بالمدينة ، والقصد إلى الصلاة فى مسجد رسول الله - ﷺ، والتبرك برؤية روضته ومنبره وقبره ومجلسه، وملامس يديه، ومواطئ قدميه، والعمود الذى كان يستند إليه، وينزل جبريل بالوحى فيه عليه، وبمن عَمَرهُ وقصده من الصحابة وأئمة المسلمين، والاعتبار بذلك كله.

١٠

أما عن آداب زيارة قبره الشريف - ﷺ[١]، فيذكر القاضي عياض كيف كان الصحابة والتابعون وأهل العلم والأئمة يزورون قبره الشريف.

قال بعضهم: رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبى - ﷺ - فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة، فسلّم على النبى - ﷺ - ثم انصرف.

وقال مالك - فى رواية ابن وهب - إذا سَلّم على النبى - ﷺ - ودَعَا، يقف ووجهه إلى القبر، لا إلى القبلة، ويدنو ويُسَلِّم ولا يمس القبر بيده.

وقال - فى المبسوط - لا أرى أن يقف عند قبر النبى - ﷺ - يدعو، ولكن يسلِّم ويمضى.

وقال نافع: كان ابن عمر يُسَلِّم على القبر، رأيته مائة مرة وأكثَر، يجىء إلى القبر، فيقول:

السلام على النبى، ﷺ، السلام على أبى بكر، السلام على أبى ثم ينصرف.

وقال ابن حبيب: ويقول إذا دخل مسجد الرسول: «بسم الله، وسلام على رسول الله، السلام علينا من ربنا، وصلى الله وملائكته على محمد، اللهم اغفر لى ذنوبى، وافتح لى أبواب رحمتك وجنتك، واحفظنى من الشيطان الرجيم، ثم اقصد إلى الروضة، وهى ما بين القبر والمنبر، فاركع فيها ركعتين قبل وقوفك بالقبر، تحمد الله فيهما، وتسأله تمام ما خَرجْت إليه، والعون عليه، وإن كانت ركعتاك فى غير الروضة أجزأتاك، وفى الروضة أفضل. وقد قال ﷺ:

«ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة، ومنبرى على تُرعة من تُرع الجنة» ثم تقف بالقبر متواضعاً متوقرًا، فتصلىّ عليه، وتثنى بما يحضرك، وتسلّم على أبى بكر وعمر، وتدعو لهما.

---

(١) الشفا ٢/٩٩.

ويختم القاضى عياض هذا الفصل الممتع بالحديث عن آداب زيارة المسجد النبوى الشريف، مستلهما ما جاء عن صحابته - ﷺ - والتابعين.. فيقول:

قال مالك: سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه صوتا فى المسجد، فدعا صاحبه، فقال: ممن أنت؟ قال: رجلٌ من ثقيف، قال: لو كنت من هاتين القريتين لأدبتك، إن مسجدنا لا يرفع فيه الصوت.

وقال محمد بن سلمه: لا ينبغى لأحد أن يعتمد المسجد بَرفْع الصوت ولا بشىء من الأذى، وأن يُنَزّه عمّا يُكْرَه.

وقال القاضى اسماعيل: «والعلماء كلُّهم متفقون أن حُكْم سائر المساجد هذا الحكم.

ويكره فى مسجد الرسول - ﷺ - الجهر على المُصَلّين فيما يُخلِّط عليهم صلاتهم وليس مما يُخصُّ به المساجد رفع الصوت، وقد كُرِه رفعُ الصوت بالتلبية فى مساجد الجماعات إلّا المسجد الحرام ومسجدنا.

وقال أبو هريرة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ، قال:

«صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام».

وهنا يجد القاضى عياض الفرصة مواتية، لكى يتحدث عن اختلاف العلماء فى معنى الاستثناء، على اختلافهم فى المفاضلة بين مكة والمدينة، فيقول:

* ذهب مالك - فى رواية أشهب عنه - إلى أن معنى الحديث: أن الصلاة فى مسجد الرسول أفضل من الصلاة فى سائر المساجد بألف صلاة، إلّا المسجد الحرام، فإن الصلاة فى مسجد النبى - ﷺ - أفضل من الصلاة فيه بدون الألف.

واحتجوا بما روى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - «صلاة فى

(١) الشفا ٨٩/٢.

المسجد الحرام خير من مائة صلاة فيما سواه» فتأتى فضيلة مسجد الرسول بتسعمائة، وعلى غيره بألف.

وهذا مبنى على تفضيل المدينة على مكة، وهو قول عمر بن الخطاب ومالك، وأكثر المدنيين.

وذهب أهل مكة والكوفة إلى تفضيل مكة، وهو قول عطاء وابن وهب، وحكاه الباجيُّ عن الشافعي، وحملوا الاستثناء فى الحديث المتقدم على ظاهره، وأن الصلاة فى المسجد الحرام أفضل، واحتجوا بحديث عبد الله بن الزبير، عن النبى ﷺ، وفيه:

«وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من الصلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة».

فيأتى فضل الصلاة فى المسجد الحرام على هذا - على الصلاة فى سائر المساجد بمائة ألف.

البَـابُ الثـالث

دراسة شخصية الرسول من جانبين

تمهيد:

الفصل الأول: جانب النبوة

الفصل الثانى: الجانب الإنسانى

دراسة شخصية الرسول

تمهيد:

هذا الباب هو أخطر وأعظم ما فى سيرة المصطفى - ﷺ. التى ألفها القاضى عياض، فهو يتناول دراسة شخصية الرسول - ﷺ - من جانبين هامين:

١ - جانب دينى، هو النبّوة

٢ - وجانب دنيوى، يتصل بإنسانيته وبشريّته.

وهذا القسم من دراسته، نوّه به، وأشار إليه القاضى عياض، فى مقدمة السيرة، بقوله(١)

«وهذا القسم هو سرّ الكتاب، ولباب ثمرة هذه الأبواب، وما قبله (من أبواب) له كالقواعد والتمهيدات، والدلائل على ما نورده فيه من النكت البيّنات، وهو الحكم على ما بعده، والمنجز من غرض التأليف وعده.. وعند التفصىّ لموعدته، والتفصّى عن عهدته، يَشْرَق صدرُ العدو اللعين، ويُشرِق قَلب المؤمن باليقين، وتملأ أنواره جوانح صدره، ويقدرُ العاقلُ النبىَّ حق قدره».

وقد صدره القاضى عياض بمقدمة نفيسة، تتحدث عن مكانة الأنبياء والمرسلين، وأنهم جميعا بَشَر، بُعثوا من قِبَل الله تعالى، لكى يؤدوا الأمانة، ويحملوا الرسالة، ويهدوا الناس إلى صراط العزيز الحميد، والدليل على ذلك قوله تعالى:

﴿ومَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِه الرُّسُل﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿ما المَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُل، وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يأْكُلاَن الطَّعَام﴾

---

(١) الشفا ١/٩.

وقوله عز شأنـه: ﴿وما أرسَلْنـا قَبْلَكَ مِنَ المُرسَلِينَ إلاّ إنَّهُم لَيَـأكُلُونَ الطعَامَ ويَمْشُونَ فى الأسواق﴾

وقول جل جلاله: ﴿قُلْ إنَّما أنَا بَشَر مِثْلُكُم يُوحَى إلىَّ﴾ الآية

ثم يقول القاضى عياض[1]: ولو كان هؤلاء الرسل من الملائكة لما أطاق النـاس مقاومتهم والقبـول عنهم ومخاطبتهم، قـال الله تعالى: ﴿ولَـوْ جَعَلْنَـاه مَلَكًـا لَجَعَلْنَـاهُ رَجُـلا﴾ أى لمـا كـان إلاّ فى صـورة البشـر، الـذين يمكنكم مُخَالطتهم، إذ لا تطيقون مقاومة المَلَك، ومخاطبته ورؤيته، إذا كان على صورته.

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فى الأرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُون مُـطْمَئنِّين لَنَـزَّلْنَا عَلَيْهم مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولا﴾

أى لا يمكن فى سُنَّة الله إرسالُ المَلَك إلاّ لمِنَ هو من جنسه، أو مَنْ خَصَّه الله تعالى واصطفاه، وقوّاه على مقاومته كالأنبياء والرسل.

ويخلص من هذه المقدمة إلى نتيجة واضحة، وهى أن الأنبياء والرسل – عليهم السلام – وسائط بين الله تعالى وبين خلقه، يُبَلِّغونهم أوامره ونـواهيه، ووعده ووعيده، ويعرفونهم بمـا لم يعلموه من أمـره وخَلْقه وجـلاله وسلطانـه وجبروته وملكوته».

ثم ينتقـل القاضى عيـاض إلى قضيـة هـامـة، تتعلّق بشخصيـة الـرُّسُـل وإنسانيتهم هل تتفق هذه الشخصية مع إنسانية سائر البشر؟

هنا ينفى القاضى عياض أن يكون الرسل بَشَرًا عاديين، وإنما هُم أنـاس اصـطفاهم الله وطهَّـرهم وعلّمهم وأهّلهم، وفضّلهم على سـائر العـالمين، فهم بشر لهم سِمَاتهم الخاصة، وطبيعتهم المميزة، التى هيأها الله وأهَّلها لتلقى وحيه، وتبليغ رسالته.

وهم وإن كانوا فى ظواهرهم كظواهر الناس إلاّ أنهم مختلفون فى بواطنهم وبصائرهم.

وفى ذلك يقول:

«لما كان هؤلاء الأنبياء والرسل من البشر، كـانت ظواهـرهم وأجسادهم

---

(١) الشفا ٢/٩٥.

وبِنْيَتِهم متّصفة بأوصاف البشر، طارئ عليها ما يطرأ على البشر من الأعراض والأسقام، والموت والفناء، ونعوت الإنسانية.. أما أرواحهم وبواطنهم فمتصفة بأعلى من صفات البشر، متعلقة بالملأ الأعلى، متشبهة بصفات الملائكة، سليمة من التغّير والآفات، لا يلحقها غالبًا عجز البشرية، ولا ضعف الإنسانية، إذ لو كانت بواطنهم خالصة للبشرية كظواهرهم، لما أطاقوا الأخذ عن الملائكة ورؤيتهم ومخاطبتهم ومُخَالَّطتهم كما لا يطيقه غيرُهُم من البشر.

ولو كانت أجسادهم وظواهرهم - أى الأنبياء - متسمة بنعوت الملائكة، وبخلاف صفات البشر لما أطاق البشر، ومن أُرْسِلوا إليه مخالطتهم كما تقدم من قول الله.

* فالأنبياء - جعلهم الله - من جهة الأجسام والظواهر مع البشر، ومن جهة الأرواح والبواطن مع الملائكة، كما قال النبى - ﷺ:

«لو كنتُ متخذا مِنْ أُمَّتِى خَلِيًلا لا تخذتُ أبا بكر خليلًا، ولكن أخوة الإسلام، لكن صاحبكم خليل الرحمن» وكما قال ﷺ: «تَنَامُ عَيْنَاىَ ولا ينَامُ قَلْبِى»

وقال ﷺ: «إنِّى لَسْتُ كَهَيْئَتِكم إنِّى أظلُّ يُطْعِمُنى رَبِّى ويُسْقِينى»

ثم يصل القاضى عياض بعد هذه المقدمة إلى نتيجة هو أرادها، ومهّد لها وهى:

«أن بواطن الأنبياء مُنَزَّهَة عن الآفات، مُطَهَّرة عن النقائص والاعتلالات»

وكانت هذه المقدمة تمهيدًا لما أراد أن يتناوله فى دراسة شخصية الرسول من جَانِبَيها[1] جانب النبوة، والجانب الإنسانى، أو كما يقول هو: الأمور الدينية، والأمور الدنيوية.

---

(١) الشفا ٩٦/٢.

الفصل الأول

عصمة الله لنبيّه ﷺ

يمهّد القاضى عياض لقضية العصمة[1]، وما يتصل بها من أمور، فيذكر أن البشر جميعا تطرأ عليهم الطوارئ، وتأتى عليهم التغييرات، وتصيبهم الآفات والأمراض، ولا يخلو فرد أن تطرأ على جسمه، أو على حواسه، بغير قصد واختيار، كالأمراض والأسقام، أو تطرأ بقصد واختيار، وكله فى الحقيقة عَمَلٌ وفِعْلٌ.

* وقد جرت عادة المشايخ بتقسيم هذا إلى ثلاثة أنواع:

(أ) عقد بالقلب، أى إيمان يقينى راسخ.

(ب) وقول باللسان، أى شهادة التوحيد.

(جـ) وعمل بالجوارح، أى عبادات كالصلاة والصوم والحج.. والجهاد

وجميع البشر تطرأ عليهم الآفات والتغييرات بالاختيار، وبغير الاختيار، فى هذه الوجوه كلها.

* أما النبى المصطفى - ﷺ - فهو وإن كان من البشر، ويجوز على طبيعته ما يجوز على طبيعة البشر، فقد قامت البراهين القاطعة، وتمت كلمة الإجماع على خروجه عن سائر البشر، وتنزيهه عن كثير من الآفات، التى تقع على الاختيار، وعلى غير الاختيار.

١

عصمته بعد النبوة

قال القاضى عياض: أما عقد قلبه ﷺ أى إيمانه ويقينه بالله، والعلم بصفاته وتوحيده وتنزيهه، فواضح فى سيرته ﷺ معروف يقينا، وعليه إجماع المسلمين.

---

(١) الشفا ٢/٩٧.

فقد تعاضدت الأخبار والآثار عن نبينا - ﷺ - بتنزيهه عن كل نقص منذ ولد، ونشأته على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف، ونفحات ألطاف السعادة، ومن هنا كان توحيده، وعلمه بالله وصفاته، والإيمان به وبما أوحى إليه على غاية المعرفة، ووضوح العلم واليقين والانتفاء عن الجهل بشىء من ذلك، أو الشك أو الريب فيه. والعصمة من كل ما يضاد المعرفة بذلك اليقين. وما ورد من النصوص مما قد يفيد ظاهره خلاف هذا، فسنبين حقيقته.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنْتَ فى شَكٍّ مما أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فاسْأَل الَّذِينَ يَقْرءُونَ الكتَابَ من قَبْلِكِ﴾ الآيتين.

قال القاضى عياض[1] فاحذر - ثبّت الله قلبك - أن يخطر ببالك ما ذكره فيه بعض المفسرين عن ابن عباس، أو غيره، من إثبات شك للنبى ﷺ، فيما أُوحى إليه، وأنه من البشر، فمثل هذا لا يجوز عليه جُملةً، بل قال ابن عباس:

«لَمْ يَشُكَّ النبى - ﷺ - ولم يَسْأَل»

وحكى قتادة: «أن النبى ﷺ، قال: ما أَشُكّ ولا أَسْأَل»

وعامة المفسرين على هذا.

* واختلفوا فى معنى الآية:

- فقيل المراد: قُل يا محمد للشَّاك ﴿فَإِن كُنْتَ فِى شَكٍّ﴾ الآية.

وقالوا: وفى السورة نفسها ما دَلَّ على هذا التأويل، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ يـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُم فِى شَكٍّ مِنْ دِينِى﴾ الآية.

وقيل: المراد بالخطاب العرب، وغيرُ النبى - ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحبطَنّ عَمَلُك﴾ الآية الخطاب له والمراد غيره.

---

(١) الشفا ٢/٩٩.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ ونظيره كثير.

ألا تراه يقول: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ الآية.

وهو ﷺ كان المكذَّبَ فيما يدعو إليه، فكيف يكون ممن كَذَّبَ به؟ فهذا كله يدل على أن المراد بالخطاب غيره.

* ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ المأمور ههنا غير النبى - ﷺ - ليسألَ النبىَّ، والنبىُّ - ﷺ - هو الخبير المسئول، لا المُسْتَخْبِر السائل.

- ويتابع القاضى عياض قوله فى قضية الشك، التى أثارها المغرضون، ووقع فى حبائلها بعض المفسرين، فيقول:

«إن هذا الشك الذى أُمِرَ به غير النبى - ﷺ - بسؤال الذين يقرءون الكتاب، إنما هو فيما قصَّه الله من أخبار الأمم - لا فيما دعا إليه من التوحيد والشريعة.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْ من أرسلنا مِنْ قَبْلِكَ من رُسُلِنَا﴾ الآية.

المراد به المشركون، والخطاب مواجهةً للنبى - ﷺ.

قيل معناه: «سَلْنا عمن أرسلنا من قبلك» فُحذِفَ الخافِضُ وتم الكلام، ثم ابتدأ ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ إلى آخر الآية - على طريق الإنكار، أى ما جَعْلنا.

وقيل: أُمر النبى ﷺ - أن يسأل الأنبياء ليلة الإسراء عن ذلك، فكان أشدّ يقينا من أن يحتاج إلى السؤال، فروى أنه قال: «لَا أَسْأَلُ قَدْ اكْتَفَيْت»

وقيل: سَلْ أُمَمَ من أَرْسَلنا هل جاؤوهم بغير التوحيد؟

وهو معنى قول مجاهد والسُّدِّى والضَّحَّاك وقتادة، والمراد بهذا، والذى قبله: إعلامُهُ - ﷺ - بما بُعثت به الرسل، وأنه تعالى لم يأذن فى عبادة غيره لأحد، ردًّا على مشركى العرب وغيرهم فى قولهم ﴿إِنَّمَا نَعْبُدُهُمْ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾.

ثم يقول القاضى عياض: ووجه آخر يلوح لى، فى الجواب عن الآية ﴿فإنْ كُنْتَ فى شَكٍّ﴾ وهو أنها لا تدل على حصول الشك منه - ﷺ - وحاشا مقامه العالى، وإنما تدل على افتراض وقوع ذلك، وهو محال منه، وافتراض المحال لا يدل على جواز الوقوع، والمعنى هو:

«إن فرض حصول الشك منك، فاسأل الذين يتلون الكتاب» ولكن ذلك محال، وافتراض المحال لا يلزم منه الوقوع.

* ونظير هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ إن كَانَ للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ فهل يصح أن يقال إن هذا يفيد صحة وقوع ذلك، ولا يقول ذلك إلا مشرك جاهل، بل هذا افتراض، أى «إن فرض أن يكون للرحمن ولده وهو محال بلا شك، وبمثل هذا نجيب عن قوله تعالى: ﴿فإن كنت فى شك﴾ الآية.

* ويضرب القاضى عياض مثلا آخر قد يوحى بالشك، فيقول[1]

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُم الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّل مِنْ رَبِّكَ بالحقِّ، فَلَا تكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرين﴾ أى فى علمهم بأنك رسول الله، وإن لم يُقِرُّوا بذلك، وليس المراد به شكَّهُ فيما ذُكِرَ فى أول الآية. وقد يكون أيضا على مثل ما تقدم، أى قُلْ يا محمد لمن امترى فى ذلك: لا تكونن من الممترين، بدليل قوله أول الآية: ﴿أَفَغَيْرَ الله أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ الآية.

وأن النبى - ﷺ - يُخاطب بذلك غيره.

وقيل: هو تقرير، كقوله تعالى: ﴿أأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونى وأُمِّىَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ الله؟﴾

وقد عَلِمَ أنه لم يقل.

وقيل معناه: ما كنت فى شك فاسأل تزدَدْ طمأنينة وعلمًا إلى علمك ويقينك.

وقيل: إن كنتَ تشُكُّ فيما شَرَّفناك وفضَّلْنَاك به، فاسألهم عن صفتك فى الكتب ونَشْر فضائلك.

---

(١) الشفا ٢/١٠٠.

وحُكى عن أبى عبيدة، أن المراد: إن كنت فى شك من غيرك فيما أنزلنا.

قال القاضى عياض:

«فإن قيل فما معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قد كُذِبوا﴾ على قراءة التخفيف؟

قلنا: المعنى فى ذلك ما قالته عائشة - رضى الله عنها - «معَاذَ الله أن تَظُنّ ذلك الرُّسُلُ بربها، وإنما معنى ذلك أن الرسل لما استيأسوا ظنوا أن مَنْ وعدهم النصر من أتباعهم كَذَبُوهم، وعلى هذا أكثر المفسرين.

وقيل: إن ضمير (ظَنّوا) عائد على الأتباع والأمم لا على الأنبياء والرسل، وهو قولُ ابن عباس والنَّخَعِىّ، وابن جُبَيْر، وجماعة من العلماء، وبهذا المعنى قرأ مجاهد (كَذَبوا) بالفتح.

* ثم يقول القاضى عياض بعد هذا الإسهاب الطويل فى تحليل الآية، **لإثبات عصمة النبى المصطفى ﷺ - بعد النبوة، من النقائص والشبهات..**

«فلا تشغل بالك من شاذ التفسير بسواه مما لا يليق بمنصب العلماء، فكيف بالأنبياء؟

«وكذلك ما ورد فى حديث السِّيرة، ومبدأ الوحى، من قوله - ﷺ - لخديجة: «لَقَدْ خَشِيتُ على نَفْسِى»، ليس معناه الشك فيما آتاه الله بعد رؤية المَلَك، ولكن لعلَّه خشى أن لا تحتمل قوته مقاومة المَلَك، وأعباء الوحى، فينخلع قلبه، أو تزهق نفسه، هذا على ما ورد فى الصحيح، أنه قاله بعد لقائه الملك، أو يكون ذلك قبل لقائه وإعلام الله تعالى له بالنبّوة، لأوّل ما عُرِضت عليه من العجائب، وسلَّم عليه الحجر والشجر، وبدأته المنامات والتباشير، كما روى فى بعض طُرق هذا الحديث، أن ذلك كان أوّلا فى المنام، ثم أُرِىَ فى اليقظة مثل ذلك، تأنيسًا له - عليه السلام - لِئَلَّا يفجأه الأمر مشاهدة ومشافهة، فلا يحتمله لأول حالةِ بِنْيَةُ البَشَرِيةَ»[1]

---

(١) الشفا ١٠١/٢.

* وقد روى ابن اسحاق، أن النبى - ﷺ - قال، وذكر جواره بغار حراء، قال: «فجاءنى وأنا نائم، فقال: اقرأ، فقلت: ما أقرأ؟ وذكر نحو حديث عائشة، فى غطّه له، وإقرائه له ﴿اقرأ باسم ربك﴾ السورة... قال: «فانصرف عنى وهببتُ من نومي كأنما صُوِّرَتْ فى قلبى، ولم يكن أبغض إلىَّ من شاعر أو مجنون، قلت: لا تتحدَّثُ عنى قريش بهذا أبدًا، لَأَعْمِدنَّ إلى حالقٍ من الجبل فلأطرحَنَّ نفسى منه لأقتلها، فبيْنا أنا عامد لذلك، إذ سمعت مناديا ينادى من السماء.. يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، فرفعت رأسى فإذا جبريل على صورة رجل.

يقول القاضى عياض: فقد بيّن فى هذا، أن قوله لما قال، وقَصَدْه لما قصد، إنما كان قبل لقَاء جبريل - عليه السلام، وقيل: إعلام الله تعالى له بالنبّوة وإظهاره واصطفائه له بالرسالة[1].

* ومن ذلك قوله تعالى لنبيّه المصطفى - ﷺ.
﴿ولَوْ شاءَ الله لَجمعَهُم عَلَى الْهُدَى فلا تكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِين﴾

فإن بعضهم فسرها بأن معناها.. لا تكونن ممن يجهل أن الله لو شاء لجمعهم على الهدى.

وهذا أمر باطل، فإن أقل الناس إيمانا لا يجهل أن الله لو شاء لجمعهم على الهدى، فكيف بسيد أهل الإيمان، إذ فيه إثبات الجهل بصفة من صفات الله تعالى، وذلك لا يجوز على الأنبياء.

نقول: إن المقصود هو وَعْظه - ﷺ - أن لا يتشبه فى أموره بسمات الجاهلين.

وقيل: إنه خطاب للأمة المحمدية، والمعنى: فلا تكونوا من الجاهلين.
فبهذا الفضل وجب القول بعصمة الأنبياء منه بعد النبوة قطعا.

ثم يفترض القاضى عياض سؤالا قد يطرحه البعض، بعد أن قال بعصمة الأنبياء جميعا وبرهن عليه..

(١) الشفا ١٠٢/٢.

فيقول:

«فإن قلت: فإذا قرّرت عصمتهم من هذا، وأنه لا يجوز عليهم شيء من ذلك..

فما معنى إذًا وعيد الله لنبينا ﷺ - على ذلك، إن فعله وتحذيره منه.

كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَالَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ الآية.

وقوله سبحانه: ﴿إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحياةِ﴾ الآية.

وقوله عز وجل: ﴿وإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فى الأرضِ يُضِلُّوكَ عن سَبيلِ اللهِ﴾

وقوله جل جلاله: ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾.

وقوله عز شأنه: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فما بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾

وقوله تعالى: ﴿اتقِ الله ولا تُطِعْ الكَافِرِينَ والمُنَافِقِينَ﴾.

ثم يجيب على هذا التساؤل، وما قد يُثار من أقاويل حول عصمته - ﷺ - بقوله[1]

«فاعلم - وفقنا الله وإياك - أنه ﷺ، لا يصح ولا يجوز عليه أن لا يُبلّغ ولا يخالف أمر ربه، ولا أن يُشرك به، ولا يتقوّل على الله ما لا يُحب أو يَفْترى عليه، أو يَضِلّ أو يختم على قلبه، أو يطيع الكافرين، لكن يسّر أمره بالمكاشفة والبيان فى البلاغ للمخالفين، وأنَّ إبلاغه إن لم يكُن بهذه السبيلِ فكأنه ما بلّغ. وطيّب نفسه، وقوّى قلبه بقوله تعالى: ﴿والله يَعْصِمُكَ من النَّاسِ﴾

وأما قوله تعالى: ﴿ولَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ﴾ الآية.

وقوله: ﴿إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ﴾.

فمعناه، أن هذا جزاء من فعل هذا، وجزاؤك لو كنت ممن يفعله وهو لا يفعله.

وكذلك قوله: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فى الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ

---

(١) الشفا ٢/١٠٨.

الله﴾ فالمراد غيره، كما قال: ﴿إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية.

وقوله: ﴿فَإِنْ يَشَأْ الله يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وما أشبهه، فالمراد غيره، وأن هذه حال من أشرك، والنبى - ﷺ - لا يجوز عليه هذا.

وقوله: ﴿اتَّقِ الله ولا تُطِعْ الكَافِرِين﴾ فليس فيه أنه أطاعهم، والله ينهاه عما يشاء، ويأمره بما يشاء، كما قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية.

وما كان طردهم - ﷺ - ولا كان من الظالمين.

٢

عصمته قبل النبوة:

ويتحدث القاضى عياض بعد ذلك عن عصمة النبى - ﷺ - والأنبياء جميعا من مثل هذه الأمور قبل النبوة، أى فى فترة الإعداد والتأهيل لحمل الرسالة، وأداء الأمانة، فيذكر أن هذا الأمر كان محل خلاف بين العلماء..

بيد أنه يصوّب ويؤكد أن الأنبياء معصومون قبل النبوة من الجهل بالله، والتشكك فى شىء من ذلك.

وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد، والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف، ونفحات ألطاف السعادة. وأن أحدًا من العلماء وأهل الأخبار، لم ينقل أن أحدًا نُبِّئَ واصْطُفِىَ ممّن عُرِفَ بكفر وإشراك قبل ذلك.

وقد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله.

* ويستشهد القاضى عياض على ذلك، بما عرف عن النبى المصطفى - ﷺ - وبما جاء فى سيرته قبل البعثة، فيقول:[١]

«إن قريشًا قَدْ رَمَتْ نبينا بكل ما افترته، وعيّر كفار الأمم أنبياءها بكل ما

(١) الشفا ٢/١١٠.

أمكنها، واختلقته مما نَصَّ الله تعالى عليه، أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد فى شىء من ذلك تعييرا لواحد منهم برفضه آلهته وتقريعه بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه، ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، وبتلوّنه فى معبوده محتجين، ولكان توبيخهُم له بنهيهم عما كان يَعْبُدُ قبلُ أفظع، وأقطع فى الحجّة من توبيخه بنهيهم عن تركهم آلهتهم، وما كان يعبد آباؤهم من قَبْلُ، ففى إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلا إليه، إذ لو كان لنُقِل وما سكتوا عنه، كما لم يسكتوا عند تحويل القِبْلة، وقالوا: ما وَلّاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها، كما حكاه الله عنهم.

وقد استدل القشيرى على عصمته - ﷺ، وتنزيهه، بقوله تعالى:

﴿وإذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّين ميثاقَهُمْ وَمِنْكَ﴾ الآية.

وقوله سبحانه: ﴿وإذْ أَخَذَ الله مِيثَاق النبيين﴾ إلى قوله: ﴿لتُؤمِنُنَّ بِهِ ولتَنْصرنُهُ﴾ قال: وطهره الله فى الميثاق، وبعيد أن يأخذ منه الميثاق قبل خلقه، ثم يأخذ ميثاق النبيين بالإيمان به ونصره، قبل مولده بدهور، ويجُوُزُ عليه الشرك أو غيره من الذنوب. هذا ما لا يجوّزه إلا مُلْحد.

ويكمّل القاضى عياض استدلال القشيرى بقوله:

«وكيف يكون ذلك، وقد أتاه جبريل - عليه السلام - وشقَّ قَلبه صغيرا، واستخرج منه علقة، وقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله وملأه حكمةً وإيمانا، كما تظاهرت به أخبار المبدأ؟

وبعد أن أثبت القاضى عياض بالأدلة السمعية والنقلية، أن الرسول المصطفى - ﷺ - كان معصوما من الخطأ والزلل قبل النبوة.. انتقل للرد على موضوع الضلالة[1]، الذى ورد فى قوله تعالى:

﴿وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى﴾، ليوضح أن معناه ليس هو من الضلال الذى هو الكفر، وإنما للضلالة معانى أخرى كثيرة لغوية وغير لغوية.. ذكرها العلماء.

---

(١) الشفا ١١٢/٢.

فقيل: «ضالا عن النبوة فهداك إليها»

وقيل: «وجدك بين أهل الضّلال فعصمك من ذلك، وهداك للإيمان وإلى إرشادهم.

وقيل: «ضالا عن شريعتك، أى لا تعرفها فهداك إليها. والضلال هنا التحيّر. ولهذا كان - ﷺ - يخلو بغار حراء فى طلب ما يتوجه به إلى ربّه، ويتشرع به حتى هداه الله إلى الإسلام.

وقيل: لا تعرف الحق فهداك إليه، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وعَلَّمك مَا لَم تكُن تَعْلم﴾.

وقال جعفر بن محمد: ووجدك ضالا عن محبتى لك فى الأزل، أى لا تعرفها، فمننتُ عليك بمعرفتى.

وقرأ الحسن بن على: ﴿ووَجَدَكَ ضالٌ فَهَدى﴾ أى اهتدى بك، وهى قراءة شاذة.

قال القاضى عياض بعد عرضه لأقوال وآراء العلماء:

«والأظهر عندى، أن المعنى: ووجدك يامحمد متحيّرا فى بيان ما أنزل إليك، وفى كيفية إرشاد الناس وتبليغهم، فهداك لذلك، لقوله تعالى: ﴿وأنزَلْنا إلَيْكَ الذكر لِتُبيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِليهم وَلعَلَهُم يَتفَكَّرُون﴾.

*** ثم يطرح القاضى عياض تساؤلا يفرض نفسه فى هذا الموضوع فيقول:**

فإن قلت: فما معنى قوله تعالى: ﴿ما كُنْتَ تَدْرِى ما الكِتَابُ ولا الإيمانُ﴾؟

فالجواب: أن معناه: ما كنت تدرى قبل الوحى أن تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان. وقال بعضهم: ولا الإيمان الذى هو الفرائض والأحكام.. فكان قبل مؤمنا بتوحيده، ثم نزلت الفرائض التى لم يكن يدريها قبل، فزاد بالتكليف إيمانا. وهو أحسن وجوهه.

٣

بعد إذْ انتهى القاضى عياض من الحديث عن عقود الأنبياء فى التوحيد والإيمان والوحى، وعصمتهم جميعا قبل النبوة وبعدها، انتقل إلى موضوع آخر، وهو: علم الأنبياء ومعرفتهم اليقينية[1] ليبرهن أن قلوبهم جميعا، قد احتوت من المعرفة والعلم بأمور الدين والدنيا ما لا شيء فوقه، إلا أن أحوالهم فى هذه المعارف تختلف.

* فأما ما تعلق منها بأمر الدنيا، فلا يشترط فى حق الأنبياء العصمة من عدم معرفة الأنبياء ببعضها، أو اعتقادها على خلاف ما هى عليه، ولا وَصْمَ عليهم فيه، إذْ هِمَمُهُم متعلقة بالآخرة وأنبائها، وأمر الشريعة وقوانينها.

«وأمور الدنيا تُضَادُّها بخلاف غيرهم من أهل الدنيا، الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون.

وينفى القاضى عياض عن الأنبياء أنهم لا يعلمون شيئا من أمر الدنيا، فإن ذلك يؤدى إلى الغفلة والبَلَه وهم المنزهون عنه.

«بل قد أرسلوا إلى أهل الدنيا، وقُلِّدوا سِيَاسَتَهم وهدايتهم، والنظر فى مصالح دينهم ودنياهم».

«وهذا لا يكون مع عدم العلم بأمور الدُّنيا بالكلِّية، وأحوال الأنبياء وسيرهم فى هذا الباب معلومة، ومعرفتهم بذلك كله مشهورة».

وينتقل القاضى عياض بعد ذلك إلى الحديث عما يتعلق بأمور الدين، فيذكر أن النبىّ لابد أن يكون على علم تام به، ولا يجوز عليه جهله، لأن هذه العلوم الدينية إنما حصل عليها بطريق الوحى الإلهى، فيقول:

«إن النبى - ﷺ - حصل له العلم اليقين، وقد يكون فعل ذلك باجتهاده، فلم ينزل عليه فيه شيء، وهذا ما قرره المحققون.

---

(١) الشفا ١١٥/٢.

وقد جاء فى الحديث الشريف، أن النبى كثيرا ما كان يجتهد ويقضى برأيه، من ذلك حديث أم سلمة «إنى إنما أقضى بينكم برأيى، فيما لم يَنْزِل علىَّ فيه شىء.»

وكقصة أسرى بدر، والإذْن للمتخلفين. فلا يكون ما يعتقده مما يثمره اجتهاده إلا حقا وصحيحا، وهذا هو الحق الذى لا يلتفت إلى خلاف من خَالَف فيه، ممن أجاز عليه الخطأ فى الاجتهاد.

* وفى هذا الصدد، يذكر القاضى عياض رأيه فى قضية علم النبى - ﷺ، بأمور الدنيا فيقول: «والصواب عندنا - بأن الحق فى طرف واحد، لعصمة النبى ﷺ - من الخطأ فى الاجتهاد فى الشرعيات، ولأن القول فى تخطئة المجتهدين إنما هو بعد استقرار الشرع، ونظر النبى - ﷺ - واجتهاده إنما هو فيما لم ينزل عليه فيه شىء، ولم يشرع له قبل.

«هذا فيما عَقَدَ عليه النبىُّ - ﷺ - قلبه».

* فأما ما لم يعقد عليه قلبه من أمر النوازل الشرعية، فقد كان لا يعلم منها أولا إلا ما علّمه الله شيئا شيئا حتى استقر علم جملتها عنده، إما بوحى من الله، أو إذن أن يَشْرَعِ فى ذلك، ويحكم بما أراه الله. وقد كان ينتظر الوحى فى كثير منها، ولكنه لم يمُتْ حتى استفرغ علم جميعها عنده - ﷺ - وتقرّرت معارفها لديه على التحقيق، ورَفْعِ الشك والريب وانتفاء الجهل.

أما ما يتصل بملكوت السموات والأرض، وخلق الله، وتعيين أسمائه الحسنى، وآياته الكبرى، وأمور الآخرة، وأشراط الساعة، وأحوال السعداء والأشقياء، وعلم ما كان وما يكون مما لم يّعْلَمْه إلا بوحى، فيقول عنه القاضى عياض:

«فعَلَى ما تقدم من أنه معصوم فيه، لا يأخذ فيما أُعْلِمَ منه شك ولا ريب، بل هو على غاية اليقين، وأنه كان عنده من علم ذلك ما ليس عند جميع البشر، لقوله ﷺ:

«إنى لَا أَعْلَمُ إلا ما علَّمنى ربى». ولقوله: «ولا خَطَر على قَلْبِ بَشَر».

وقوله: «فلا تَعْلَم نَفْسٌ ما أُخْفِى لَهُم من قُرَّةِ أَعْيُن».

وقوله: ﷺ: «أسألُك بأَسْمَائِكَ الحُسْنَى ما عَلِمْتُ مِنْها وَمَا لَمْ أَعْلَم».

وقوله ﷺ: «أَسَأَلُك بكُلِّ اسمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ به نَفْسَكَ أو اسْتأْثَرْتَ به فى عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَك».

وقد قال الله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم﴾.

قال زيد بن أسلم: «حتى ينتهى العلم إلى الله» وهذا ما لا خفاء به إذ معلوماته تعالى لا يُحاط بها ولا منتهى لها.

٤

كمال عصمة النبى من الشيطان وكفايته منه

وبعد انتهاء القاضى عياض من ذكر حُكْم عَقْدِ النبى فى التوحيد والشرع والمعارف والأمور الدينية انتقل إلى الحديث عن عصمته - ﷺ - من الشيطان، وكفايته منه[1]. لا فى جسمه بأنواع الأذى، ولا على خاطره بالوساوس، بل فى كل أحواله - ﷺ، مستدلا على ذلك بالصحيح من الآثار والأخبار.

من ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما مِنْكُم من أحدٍ إلا وُكِّلَ به قَرِينُهُ مِنَ الجنِّ وقَرِينُه مِنَ المَلائِكة» قالوا: وَإِيَّاكَ يا رسول الله؟ قال: وَإِيَّاى، ولكن الله تعالى أعانني عليه فأَسْلَم».

زاد غيره: «فَلَا يأمرُنى إلا بخير».

وعن عائشة - رضى الله عنها - رُوِىَ (فأَسْلَمُ) بضَمِّ الميم، أى فأَسْلَمُ أنا منه، وصحَّح بعضهم هذه الرواية ورجَّحَها.

---

(١) الشفا ١١٧/٢.

وروى (فأسْلَمَ) يعني القرين، أنه انتقل عن حال كفرِهِ إلى الإسلام، فصار لا يأمر إلا بخير كالملَك، وهو ظاهر الحديث.

قال القاضى عياض: «فإذا كان هذا حُكْمُ شيطانه وقرينه المسلط على بنى آدم، فكيف بمَنْ بَعُد منه، ولم يلزم صُحْبته، ولا أُقْدِرَ على الدُّنُوِّ منه؟

وقد جاءت الآثار بتصدى الشياطين له فى غير موطن، رغبةً فى إطفاء نُوره، وإماتةِ نَفْسِه، وإدخال شُغْلٍ عليه إذ يَئِسُوا من إغوائه، فانقلبوا خاسرين، كتعرضه له فى صلاته، فأخذه النبى - ﷺ - وأسره.

ففى الصحاح، قال أبو هريرة - رضى الله عنه، قال رسول الله - ﷺ:

«إن الشيطانَ عَرَضَ لى، قال عبد الرزاق: فى صورة هِرٍّ، فشدَّ علىَّ يقطع علىَّ الصلاة، فأمكننى الله منه فَذَعَتُّه (أى طرحته أرضا)، ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتى تصبحوا تنظرون إليه، فذكرت قول أخى سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِر لى وهَبْ لى مُلْكا﴾ الآية، فردَّه الله خاسئا»

* وفى حديث أبى الدرداء، عنه ﷺ: «إنَّ عَدُوَّ الله إبليس جَاءَنِى بشهاب من نار ليجعله فى وجهى، والنبى - ﷺ - فى الصلاة، وذكر تعوّذه بالله منه، ولعنه له، وقال: «ثُمَّ أَرَدْتُ أَنْ آخذه».

وذكر نحوه، وقال: «لأصْبَحَ مُوثَقًا يتَلاَعَبُ به ولدان أهل المدينة».

وكذلك فى حديثه فى الإسراء: «وطلب عِفْريت له بشُعْلَةِ نار فعلَّمه جبريل ما يتَعَوَّذ به منه».

* «ولما لم يقدر على أذاه بمباشرته، تسبب بالتوسط إلى عداه، كقضيّته مع قريش فى الائتمار بقتل النبى - ﷺ - وتصوُّره فى صورة الشيخ النجدى.

«ومرة أخرى فى غزوة يوم بدر فى صورة سُراقة بن مالك، وهو قوله تعالى:

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهم﴾ الآية.

* ومرة يُنذر بشأنه عندَ بيعة العقبة.

قال القاضى عياض: «وكل هذا فقد كفاه الله أمره وعصمه ضُرَّه وشَرَّه».

* ويتابع القاضى عياض تحليله للأمور والأحداث والأحوال، التى عصم الله فيها نبيّه من الشيطان فيقول: «وقال - ﷺ - حين لُدَّ فى مرضه، وقيل له: خشينا أن يكون بك ذاتُ الجَنْب، فقال: إنها من الشيطان ولم يكُن الله ليُسَلِّطَهُ عَلَىّ.

ثم يطرح سؤالا قد يفرض نفسه فى هذا المجال، فيقول:

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿وإمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَيْطَانِ نَزْغٌ فاسْتَعِذْ باللهِ﴾ الآية؟

فالجواب: أن المراد بهذا الخطاب أمته ﷺ وهذا كغيره من الخطابات التى توجه إلى النبى ﷺ ويكون المراد بها أمته.

وقال بعض المفسرين: إنها راجعة إلى قوله تعالى ﴿وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِين﴾.

ثم قال: ﴿وإما ينزغَنّك﴾ أى يستخفَّك غضبٌ يحملك على ترك الإعراض عنهم فاستعذ بالله.

قال القاضى عياض: فأمره الله تعالى أنه متى تحرك عليه غَضَبٌ عَلَى عَدُوِّه أو رام الشيطان من إغرائه به، وخواطر أدنى وساوسه ما لم يُجعل له سبيلٌ إليه، أن يستعيذ منه فيُكْفَى أمره، ويكون سبب تمام عصمته.

ولا يصح أن يتصوَّر له الشيطان فى صورة المَلَك، ويُلَبِّس عليه لا فى أوّل الرسالة ولا بعدها، والاعتماد فى ذلك دليل المعجزة، بل لا يَشُكُّ النبى أن ما يأتيه من الله المَلَك ورسُولُه حقيقة إما بعلم ضرورى يخلقه الله له، أو ببرهان يُظْهره لديه لِتَتِمّ كلمةُ ربك صِدْقًا وعدلاً لا مُبَدِّل لكلماته.

* ويفترض القاضى عياض سؤالاً آخر فى هذا الشأن.. فيقول:

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُول ولاَ نَبِىّ إلَّا إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فى أُمْنِيَتِهِ، فَيَنْسَخُ الله ما يُلْقى الشَّيْطَانُ ثُم يُحْكِمُ الله آيَاتِهِ، والله عَلِيمٌ حَكيم﴾ [الحج ٥٢].

فقد زلّت فى معنى هذه الآية أقدام كثير من العلماء، وساءت أفهام كثير من القراء، إذ فسروا التمني هنا بالتلاوة، وإن (إذا تمنى) معناه: إذا قرأ، ويكون معناه حينئذ، أنه إذا قرأ الرسول أو النبى ما أوحى إليه، فإن الشيطان يتسلط على قراءته، ويلقى فيها ما يشاء، ثم ينسخ الله ذلك الذى ألقاه الشيطان.

* واستدلوا لصحة هذا التأويل بقصة الغرانيق، وهى ما روى أن النبى ﷺ لما قرأ سورة «النجم» وقال: ﴿أَفَرَأَيْتُم اللاَّتَ والعُزَّى ومَنَاةَ الثَّالِثَة الأُخْرَى﴾ [النجم ٢٠]. قال: تلك الغرانيق العُلى، وإن شفاعتها لَتُرْتَجَى.

والغرانيق فى الأصل: الذكور من الطير. واحدها غُرْنُوق وغرنيق، سمى به لبياضه. والغرنوق أيضا: الشاب الأبيض الناعم، وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله، وتشفع لهم، فشبهت بالطيور التى تعلو السماء وترتفع.

ويروى «تُرْتَضَى» وفى رواية: إن شَفَاعَتها لَتُرتَجَى، وإنها لمع الغرانيق العلى.

فلمّا ختم السورة سجد، وسجد معه المسلمون والكفار لما سمعوه أثنى على آلهتهم.

وما وقع فى بعض الروايات أن شيطانا ألقاها على لسانه، وأن النبى ﷺ كان يتمنى أن لو نزل عليه شيء يقارب بينه وبين قومه، فلما ألقى ذلك الشيطان، حزن ﷺ لذلك، فأنزل الله تعالى تسلية له:

﴿وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نبيٍّ إلاّ إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فى أُمْنِيَتِهِ، فينسخُ الله ما يُلْقِى الشَّيْطَانُ، ثُمَّ يَحْكُمُ الله آياتِهِ، والله عَليمٌ حَكيم﴾.

وقوله تعالى: ﴿وإنْ كادُوا لِيَفْتِنُونَك عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إلَيْكَ لتفْترى عَلَيْنَا غَيْرَه، وإذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ [الاسراء ٧٣].

والصحيح فى تفسير الآية: كما يقول القاضى عياض:

أن الله سبحانه وتعالى ما أرسل من رسول، ولا بعث نبيًّا من الأنبياء إلى أمة من الأمم إلا وذلك الرسول يتمنى الإيمان لأمته، ويحبه لهم، ويرغب فيه، ويحرص

عليه غاية الحرص، ويعالجهم عليه أشد المعالجة، ومن جملتهم فى ذلك نبينا المصطفى ﷺ الذى قال له الحق. سبحانه وتعالى: ﴿فَلَعلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهم إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أَسَفا﴾ [الكهف ٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِين﴾ [يوسف١٠٣].

وقال سبحانه: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يكُونُوا مُؤْمِنين﴾ إلى غير ذلك من الآى المتضمنة لهذا المعنى. ثم الأمة تختلف، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَنْ كَفَرْ﴾ [البقرة ٢٥٣].

فأما من كفر فقد ألقى إليه الشيطان الوساوس القادحة فى الرسالة الموجبة لكفره.

وكذا المؤمن أيضا لا يخلو من وساوس، لأنها لازمة للإيمان بالغيب فى الغالب، وإن كانت تختلف فى الناس بالقلة والكثرة، وبحسب المتعلقات.

قال: «إذا تقرر هذا فمعنى ﴿تمنَّى﴾ أنه يتمنى الإيمان لأمته، ويحب لهم الخير والرشد، والصلاح والفلاح، فهذه أمنية كل رسول ونبى، وإلقاء الشيطان فيها يكون بما يلقيه فى قلوب أمة الدعوى من الوساوس الموجبة لكفر بعضهم، ويرحم الله المؤمنين، فينسخ ذلك من قلوبهم، ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة، ويبقى ذلك عَزّ وجل فى قلوب المنافقين والكافرين ليفْتَتِنُوا به، فخرج من هذا أن الوساويس تلقى أولا فى قلوب الفريقين معا، غير أنها لا تدوم على المؤمنين، وتدوم على الكافرين، فهذا ما يتعلق بتفسير الآية الكريمة..

وأما قصة الغرانيق[1]، فإنها قصة باطلة نقلا وعقلا.

● أما نقلا: فإن حديثها - كما يقول القاضى عياض - حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله

---

(١) الشفا ١٢٤/٢.

المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم.

وصَدقَ القاضى بكر بن العلاء المالكى، حيث قال: لقد بُلِىَ الناسُ ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلّق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته، فقائل يقول: «إنه فى الصلاة».

وآخر يقول: «قالها فى نادى قومه حين أُنزلت عَلَيْه السُّوَرة».

وآخر يقول: «قالها وقد أصابته سِنَةٌ».

● وآخر يقول: «بَلْ حَدَّث نَفْسَه فَسَهَا».

● وآخر يقول: «إن الشيطان قالها على لسانه، وأن النبى ﷺ لمَّا عَرَضها على جبريل، قال: ما هكذا أقْرَأْتُك».

● وآخر يقول: «بل أَعْلَمَهُم الشيطانُ أن النبى ﷺ قَرَأها، فلمَّا بلغ النبى ذلك، قال: والله ما هكذا نزلت».

إلى غير ذلك من اختلاف الرواة، ومن حُكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين، لم يُسْنِدها أحدٌ منهم، ولا رفعها إلى صاحب. وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية.

● وأما (عقلا) فقد قامت الحجة، وأجمعت الأمة على عصمته، ﷺ ونزاهتِهِ عن مثل هذه الرذيلة، أما من تمنّيه أن يُنْزَل عليه مثل هذا من مدح آلهةٍ غير الله - وهو كفر - أو أن يتسوّر عليه الشيطان، ويُشبِّه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما لَيْسَ منه، ويعتقد النبى ﷺ أنَّ من القرآن ما لَيْسَ منه، حتى يُنَبِّهَهُ جبريل عليه السلام وذلك كله ممتنع فى حقه - ﷺ، أو يقول ذلك النبىّ ﷺ من قِبَل نفسه عمدًا - وذلك كُفر - أو سهوًا، وهو معصوم من هذا كله.

قال القاضى عياض:

وقد تقرر بالبراهين والإجماع عصمته ﷺ، من جريان الكفر عَلَى قَلْبه أو لسانه، لا عمدًا ولا سهوًا، أو أن يتشبَّه عليه ما يُلقيه المَلَك ممَّا يُلقى

الشيطان، أو يكون للشيطان عليه سبيلٌ، أو أن يتقوَّل عليه الله لا عمدًا ولا سهوًا ما لم ينزل عليه. وقد قال الله تعالى: ﴿ولَوْ تقوَّل عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ باليَمِين﴾ [الحاقة ٤٤، ٤٥].

وقال تعالى: ﴿إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ، ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء٧٥].

هذا وجه.

● ووجه ثان:[1] - كما يقول القاضى عياض - وهو استحالة هذه القصة نظرًا وعُرْفًا وذلك أن هذا الكلام لو كان كما رُوى، لكان بعيدَ الالتئام، متناقِضَ الأقسام، ممتزج المدح بالذم، متخاذل التأليف والنظم، ولما كان النبى ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين، وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك، وهذا لا يخفى على أدنى متأمل.. فكيف بمن رجح حِلْمه، واتسع فى باب البيان، ومعرفة فصيح الكلام علمه.

● ووجه ثالث: وهو أنه قد عُلِم من عادة المنافقين، ومعاندى المشركين، وضَعَفَةِ القلوب، والجهلة من المسلمين، نفورهم لأوّل وهلة، وتخليط العدوّ على النبى ﷺ لأقل فتنة، وتعييرهم المسلمين والشماتة بهم الفَيْنَة بعد الفينة، وارتداد من فى قلبه مرض، ممن أظهر الإسلام لأدنى شُبهة، ولم يَحْكِ أحدٌ فى هذه القصة شيئا سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل، ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصَّولة، ولأقامت بها اليهودُ عليهم الحجة، كما فعلوا مكابرة فى قصة الإسراء، حتى كانت فى ذلك لبعض الضعفاء رِدَّة.

● ووجه رابع[2]، نقله القاضى عياض عن الرواة لقصة القضية، ولا فتنة أعظم من هذه البَلِيّة، أن فيها نزلت: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَك عَنِ الذى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرى عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً، ولَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاك لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِم شَيئًا قَلِيلاً﴾ [الاسراء ٧٣، ٧٤].

---

(١) الشفا ١٢٧/٢. (٢) الشفا ١٢٨/٢.

وهاتان الآيتان تَرُدَّان الخبر الذى رووه، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادُوا يَفْتِنُونَهُ حتى يفترى، وأنه لولا أن ثبّته لكاد يركن إليهم، فمضمون هذا ومفهومه:

أن الله تعالى عصمه من أن يفترى، وثبّته حتى لا يركن إليهم قليلا، فكيف كثيرا، وهم يَرْوُون فى أخبارهم الواهية.. أنه زاد على الركون والإفتراء بمدح آلهتهم، وأنه قال ﷺ «افْتَرَيْتُ على الله وقُلْتُ ما لم يَقُلْ».

وهذا ضِدّ مفهوم الآية، وهى تُضَعِّفُ الحديث لو صَحَّ، فكيف ولا صحة له؟.

قال الأنبارى: ما قارب الرسول ولا رَكَن، وقد ذكرت فى معنى هذه الآية تفاسير أُخر، ما ذكرناه من نَصّ الله على عصمة رسول تَرُدُّ سَفَاسِفَها، فلم يبق فى الآية إلاّ أن الله تعالى امتنّ على رسُوله بعصمته وتثبيته بما كَادَه به الكفار، وراموا من فتنته، ومرادنا من ذلك تنزيهُهُ وعصمته ﷺ وهو مفهوم الآية.

٥

بعد إذ انتهى القاضى عياض من توضيح عصمة النبى ﷺ فيما طريقه البلاغ، أى ما بلّغ به من وحى.. انتقل إلى ما ليس سبيله الوحى من الأخبار، التى لا مستند لها إلى الأحكام، ولا أخبار المعاد، كالساعة والقيامة والحساب والصراط، وغير ذلك من أمور الآخرة، ولا تضاف إلى وحى، بل فى أمور الدنيا وأحوال نفسه.

فيقول: «فالذى يجب تنزيه النبى ﷺ عن أن يقع خبره فى شىء من ذلك بخلاف مخبره، لا عمدًا ولا سهوًا ولا غلطا، وأنه معصوم من ذلك فى حال رضاه، وفى حال سخطه، وجِدّه ومزحه، وصحته ومرضه، ودليل ذلك إتفاق السلف وإجماعُهُم عليه.

«وذلك أنّا نَعْلَم من دِينِ الصحابة وعادتهم مبادرتهم إلى تصديق جميع أحواله، والثقة بجميع أخباره، فى أى باب كانت، وعن أى شىء وقعت، وأنه لم يكن لهم توقف ولا تردّد فى شىء منها، ولا استثبات عن حاله فى ذلك، هل وقع فيها سهوٌ أم لا»

● والدليل على ذلك، فيما يذكره القاضى عياض:

لما احتجّ ابن أبي الحُقَيق اليهودى على عُمَر حين أَجْلَاهم من خيبر، بإقرار رسول الله ﷺ لهم، واحتجّ عليه عمر، بقوله ﷺ: كَيْفَ بِكَ إذَا أُخرجتَ من خيبر؟ فقال اليهودى: كانت هُزَيْلة من أبى القاسم، فقال له عمر: كذبت يا عدوَّ الله.

وأيضا - فإن أخباره وآثاره وسيرَه وشمائله مُعْتَنى بها، مستقصى تفاصيلها، ولم يَرِد فى شىء منها استدراكه ﷺ لِغَلَطٍ فى قَوْل قاله، أو اعترافه بوهم فى شىء أَخبر به، ولو كان ذلك لنُقِل، كما نُقِل من قصته عليه السلام رُجوعُهُ ﷺ عما أشار به على الأنصار فى تلقيح النخل، وكان ذلك رأيًا لا خبرًا، وغير ذلك من أمور.

كقوله: «والله لا أَحْلِفُ على يَمِينٍ فأرى غيرها خيرًا منها إلا فَعَلْت الذى حَلَفْتُ عليه، وكَفَّرْتُ عن يمينى».

وقوله: «إنكُمْ تَخْتَصِمُون إلىّ..» الحديث.

وقوله: «اسْقِ يا زُبَيْرُ حتىَّ يَبْلَغ الماءُ الجَدْرَ».

* ويذكر القاضى عياض حقيقة هامة[1]، وهى أنه من المسلَّم به عند الاخباريين إذا عرفوا أن أحدًا يكذب فى حديثه، أو ينقل خطأ، أو يهذى بروايات غريبة، اتهم، ولم يقع قوله فى النفوس موقعا، ولم يؤخذ عنه..

«ولهذا ترك المحدِّثون والعلماء الحديثَ عمنَّ عُرِفَ بالوهم والغَفْلَة، وسوء الحِفْظ، وكثرةِ الغلط مع ثِقَتِهِ».

«وأيضا فإن تعمُّد الكذب فى أمور الدنيا معصية، والإكثار منه كِبَيَرة بإجماعٍ، مُسْقطٌ للمروءة» وكل هذا مما ينزّه عنه منصبُ النبوّة.

«وأما فيما لا يقع هذا الموقع، فإنْ عَدَدْنَاها من الصغائر، فهل تجرى على حكمها - فى الخلاف فيها - مختَلَفٌ فيه.

---

(١) الشفا ١٣٦/٢.

* ويصل القاضى عياض إلى هدفه ومبتغاه من هذا العرض، فيقول:

«والصواب تنزيه النبوّة عن قليله وكثيره، وسهوه وعَمْده، إذْ عُمدةُ النبوة البلاغ والإعلام والتبيين، وتصديق ما جاء به ﷺ وتجويز شىء من هذا قَادحٌ فى ذلك، ومُشَكِّكٌ فيه، مناقض للمعجزة.

«فلنقطع عن يقين بأنه لا يجوز على الأنبياء خُلفٌ فى القول فى وجه من الوجوه، لا بقصدٍ ولا بغير قصد، ولا نتسامح مع من تسامح فى تجويز ذلك عليهم، حال السهو فيما ليس طريقه البلاغ»[١].

٦

سهوه.. لا ينافى كماله - ﷺ.

ويطرح القاضى عياض سؤالا قد يطرح، فيقول:

«فإن قلتَ.. فما معنى قوله - ﷺ - فى حديث السهو، الذى رواه أبو هريرة، ومفاده: «أن النبى - ﷺ - صلى صلاة العصر، فسلّم فى ركعتين، فقام ذو اليدين، فقال: يارسول الله: أَقَصُرَت الصلاة أم نَسِيت؟. فقال رسول الله ﷺ: «كل ذلك لم يكن».

وفى الرواية الأخرى: «ما قَصُرَت الصلاة وما نَسِيتُ»

مظاهر هذا الحديث يفيد أنه ﷺ - نفى الحالتين، وأنه لم يحصل قَصْر ولا نِسْيَان، مع أنه قد حصل أحد ذلك، كما قال ذو اليدين: «قد كان بعض ذلك يارسول الله»

وقد نقل القاضى عياض عن العلماء أجوبتهم فى هذا[٢].

منها: أن النبى -ﷺ- قد أخبر عن اعتقاده وضميره، أمّا إنكارُ القصر فحقٌّ وصدق باطنًا وظاهرًا، وأما النسيان، قد أخبر ﷺ عن اعتقاده، وأنه لم ينس

---

(١) الشفا ١٣٧/٢.

(٢) الشفا ١٣٨/٢.

فى ظنه، فكأنه قصدَ الخبر بهذا عن ظنّه، وإن لم ينطق به، وهذا صدق أيضا.

ووجه ثان: أن قوله ﴿ولم أَنْسَ﴾ راجع إلى السلام، أى أَنِّى سلّمتُ قصدًا، وسهوتُ عن العدد، أى لم أَسْهُ فى نفس السلام. وهذا محتمل وفيه بعد.

ووجه ثالث: وهو أبعدها - ما ذهب إليه بعضُهُم، وإن احتمله اللَّفظ من قوله «كل ذلك لم يكن» أى لم يجتمع القصر والنسيان، بل كان أحدهما. ومفهوم اللفظ خلافه مع الرواية الأخرى الصحيحة، وهو قوله «ما قَصُرَتْ الصلاةُ وما نِسيتُ».

* وهنا يتصدى القاضى عياض، ليقول القول الفصل، الذى استلهمه بعد مراجعة آراء وأقوال العلماء والشيوخ فى هذه القضية.. قال:

«والذى يظهر لى أنه أقرب من هذه الوجوه كلها، أن قوله ﴿لَمْ أَنْسَ) إنكار للفظ الذى نفاه عن نفسه، وأنكره على غيره، بقوله: «بِئْسَمَا لأحدكُم أن يقول: نِسيتُ آية كذا وكذا، ولكنّه نُسِّيَ». وبقوله فى بعض روايات الحديث الآخر: «لَسْتُ أَنْسَى ولِكن أُنَسَّى»

فلما قال له السائل: أَقَصُرَت الصَّلاةُ أم نَسِيتَ؟ أنكر قَصْرَها كما كان، ونسيانه هو من قِبَل نفسه، وأنه إن كان جَرى شىء من ذلك، فقد نُسِّيَ حتى سأل غيرَهُ، فتحقق أنه نُسِّيَ وأُجرى عليه ذلك لِيُسنّ. فقوله على هذا «لَمْ أَنْسَ ولم تُقْصَر» وكلّ ذلك لم يكن صدق وحقّ، لم تُقْصَر ولم يَنْس حقيقة ولكنه نُسِّيَ.

ويضيف القاضى عياض وجها آخر استثاره من كلام بعض المشايخ..

«وذلك أن النبى - ﷺ - كان يسهو ولا ينسي، ولذلك نفى عن نفسه النسيان، لأن النسيان غفلة وآفة، والسَّهْو إنما هو شُغْلٌ، فكان النبى - ﷺ - يسهو فى صلاته، ولا يغفل عنها، وكان يشغله عن حركات الصلاة ما فى الصلاة شُغْلا بها لا غفلة عنها.

فهذا إن تحقق على هذا المعنى، لم يكن فى قوله «ما قَصُرَتْ ومَا نَسِيتُ» خُلْف فى قول.

«وعندى - أن قوله، ما قَصُرَت الصلاةُ وما نَسيتُ، بمعنى الترك، الذى هو

أحد وجهى النسيان، أراد - والله أعلم - لم أُسَلِّم من ركعتين تاركا لإكمال الصلاة، ولكنى نُسيِّت ولم يكن ذلك من تلقاء نفسى.

والدليل على ذلك قوله - ﷺ - فى الحديث الصحيح، «إنى لَأ نْسَى أو أُنَسَّى لِأَسُنَّ»

ويحدد القاضى عياض جملة الأحاديث المذكور فيها سهو من الرسول - ﷺ، فيقول:

«والصحيح من الأحاديث الواردة فى سهوه - ﷺ - فى الصلاة ثلاثة أحاديث:

أولها: حديث ذى اليدين فى السلام من اثنتين.

والثانى: حديث ابن بحينة فى القيام من اثنتين.

الثالث: حديث ابن مسعود - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - صلّى الظهر خمسًا، وهذا هو الثابت فى الصحيح.

وهذه الأحاديث مبنية على السهو فى الفعل، وحكمة الله فيه ليُسْتَنّ به، إذ البلاغ بالفعل أجلى منه بالقول، وأرفع للاحتمال، وشرطه أنه لا يقر على السهو، بل يشعر به ليرتفع الالتباس، وتظهر فائدة الحكمة.

وأن النسيان والسهو فى الفعل فى حقّه - ﷺ - غير مضاد للمعجزة، ولاقادح فى التصديق.

«وهذا بناء على التفريق بين الأفعال البلاغية، وبين الأقوال البلاغية، فالسهو والنسيان قد يقع فى الأفعال والأحكام منه - ﷺ - وهو جائز عليه، كما ثبت من أحاديث السهو فى الصلاة.

أما الأقوال البلاغية فلا يجوز وقوع النسيان والسهو فيها، لقيام المعجزة على الصدق فى القول، والنسيان يناقض ذلك. أما النسيان فى الأفعال فغير ناقض لها، ولا قادح فى النبوة، بل غلطات الفعل من سمات البشر، كما قال - ﷺ:

«إِنَّمَا أَنَا بَشَر أَنْسَى كما تَنْسُون، فإذَا نَسِيتُ فذكِّرُونِى»

وحالة النسيان والسهو هنا - فى حقّه - ﷺ - سبب إفادة علم، وتقرير شرع كما قال ﷺ: «إِنِّى لَأُ نْسَى أو أُنَسَّى لَأسُنَّ»

وهذه الحالة زيادة له فى التبليغ، وتمام عليه فى النعمة بعيدة عن سمات النقص، وأغراض الطعن.

أمَّا ما ليس طريقه البلاغ، ولا بيان الأحكام من أفعاله، ﷺ - وما يختص به من أمور دينية، وأذكار قلبية، مما لم يفعله لِيُتَّبع فيه، فالأكثر من طبقات علماء الأمة على جواز السهو والغلط عليه فيها، وذلك بما كلفه من مقاسات الخلق، وسياسات الأمة، ومعاناة الأهل، وملاحظة الأعداء، ولكن ليس على سبيل التكرار، ولا الاتصال، بل على سبيل الندور

وذهبت طائفة إلى منع السهو والنسيان، والغفلات والفترات فى حقّه - ﷺ - جملة، وهو مذهب جماعة من أهل القلوب والمقامات.

٧

ويبدو أن موضوع السهو والنسيان، أخذ على القاضى عياض لُبَّه وقلبه وأحاسيسه، فهو لم يكتف بكثرة الآراء والمناقشات، وعقد الفصل تلو الفصل، ولكنه دائما يسعى لكى يبرز الحقيقة، وذلك بتفنيد المزاعم، والرد على الضالين المضلِّين، وإبطال مزاعمهم، ويظل ينتقل من موضوع إلى موضوع، ومن نقطه إلى أخرى، مستطردًا ليبرز نصاعة السيرة،ويوضح الشمائل الزكيّة.

إن القاضى عياض بعد أن تناول قضية السهو والنسيان، وقف ليرد على الذين يجوّزون على النبى - ﷺ - الصَّغائر[1]، من الفقهاء والمحدثين، ومن شايعهم على ذلك من المتكلمين، ليقيم الأدلة على خطأ قولهم، وصحة غيره.

---

(١) الشفا ١٥٥/٢.

وقد كانت نقطة البداية، أن يناقش ويفسر ما جاء فى القرآن من آيات توحى بأن هناك ذَنْبًا اقْتُرِف، من مثل قوله تعالى: ﴿لِيغْفِرَ لَكَ الله ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِك وما تأخَّر﴾.

فإن ظاهر الآية يفيد جواز صدور الذنب من النبى - ﷺ - اعتمادًا على أن المغفرة إنما تكون بعد الذنب، وقد قال بهذا بعض العلماء وأيدوه، فقالوا بجواز صدور الصغائر منه - ﷺ - محتجين بآيات وأحاديث، يفيد ظاهرها هذا المعنى.

* منها قوله تعالى: ﴿واسْتَغْفِر لِذَنْبكَ وَلِلْمُؤمِنِين والمُؤْمِنَات﴾.

* وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِى أنقضَ ظَهْرَك﴾.

* وقوله عز وجل: ﴿عَفَا الله عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾

* وقوله سبحانه: ﴿لَوْلَا كِتَاب مِنَ الله سَبَقَ لَمَسَكُّمْ فِيمَا أَخَذْتُم عَذَاب عَظِيم﴾

وقول النبى - ﷺ - فى دعائه: «اللهم اغفر لى ما قدّمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت» ونحوه من أدعيته - ﷺ. وقوله: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِى فأسْتغفر الله»

وفى حديث أبى هريرة: «إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سَبْعِين مرة».

* وقد أجاب القاضى عياض عن قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ الله ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنبِك وَمَا تَأَخَّر﴾ بأجوبة عديدة:

منها: المراد بذلك أمته - ﷺ.

ومنها: المراد ما كان عن سهوٍ وغفلةٍ وتأويل.

ومنها: أن المغفرة هنا تبرئة من العيوب.

ومنها: أن النبى - ﷺ - لما أُمر أن يقول: ﴿وَمَا أَدْرِى ما يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُم﴾ [الأحقاف ٩] سُرَّ بذلك الكفار، فأنزل الله تعالى: ﴿لِيَغْفر لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنبِك وما تأخَّر﴾ الآية.

فمقصد الآية[١]: أنك مغفور لك غير مؤاخذ بذنب أَنْ لو كَانَ. والمغفرة هنا تبرئة من العيوب.

ويعجبنى فى هذا الصدد، ما قاله الشيخ عبد العزيز الدباغ[٢]، وخلاصته:

«أن المراد بالفتح فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ المشاهدة، أى مشاهدته تعالى، فمن رحمة الله تعالى للنبى - ﷺ - أنه أزال عنه الحجاب، وأكرمه بمشاهدته تعالى، فلا يرى إلا ما هو حق، من الحق، وإلى الحق، فهذا هو المشار إليه بالفتح المبين. وقد وقع له - ﷺ - من صغره لأنه لم يحجب عنه تعالى، وهذا الفتح ثابت لكل نبى، بل ولكل عارف، والخصوصية فيه للنبى - ﷺ - من حيث كمال قوته وطاقته، وأهلية عقله، وروحه ونفسه، وذاته وسره، مما لم يثبت لغيره.

والمراد بالذنب، فى قوله: ﴿ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ﴾ الكناية عن زواله، والمراد بالغفران الإزالة فكأنه يقول: إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليزول عنك الحجاب بالكلية، ولتتم النعمة منا عليك، ولتهدى وتنصر فإنه لا نعمة فوق نعمة زوال الحجاب، ولا هداية فوق هداية المعارف، ولا نصرة أبلغ من نصرة من كانت هذه حالته.

* **أقول**: أما أمر الله تعالى لنبينا المصطفى -ﷺ- بالاستغفار، وكونه -ﷺ- يصرح بذلك، ويدعو به، ويسأله من الله، فهذا من كمال تواضعه -ﷺ- ومن كمال إقراره بالعبودية الكاملة، وبحاجته إلى ربه، وافتقاره إليه، وعدم استغنائه عن فضله، وعدم اغتراره بما أعطاه مولاه، وكان لسان حاله يقول: إنى مع ما مَنَّ الله علىَّ من فضل وثواب، ودرجات عالية، ومقامات سامية، فإنى لا أزال أرغب فى فضله، وأسارع إلى رحابه، وأقف على أبوابه، وأنافس فى الخيرات، وأبادر إلى المبرات، وقد صرح بذلك -ﷺ- فقال:

«أنا أَخْشَاكم لله وأتقاكم وأعلمكم به». وفى هذا أيضا تعليم للأمة، ليقتدوا به

(١) الشفا ٢/١٥٧.

(٢) نقلا عن كتاب الإنسان الكامل للشيخ محمد بن علوى المالكى -الجزء الثالث ص٣٦.

ويتبعونه، وفى هذا أيضا تمام الشكر لله بإدامة العمل له، كيف لا؟ وهو القائل: «أفَلَا أكُون عبدًا شكورا»

* قال القاضى عياض: وأما قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾

فقيل: ما سَلَف من ذنبك قبل النبوة.

وقيل: معناه أنه حُفِظ قبل نبوّته منها، وعُصِمَ، ولولا ذلك لأثقلت ظهره من أعباء الرسالة حتى بلَّغها.

وقيل: ثِقَل شُغْلِ سِرِّك وحَيرتِكَ، وطلب شَريعَتِك حتّى شَرَعْنا ذَلِكَ لَكَ.

وقيل معناه: خَفَّفْنَا عَلَيْك ما حُمِّلتَ بحِفْظِنَا عَلَيْك لما اسْتُحفِظْتَ وحُفِظ عليك.

وقيل: حططنا عنك ثقل الجاهلية.

ومعنى ﴿أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أى كاد يُنقِضُه، فيكون المعنى على من جعل ذلك لما قَبْل النبوّة، اهتمام النبي - ﷺ - بأمور فَعَلها قبل النبوة، وحُرِّمت عليه بعد النبوة، فعَدَّها أوزارًا وثَقُلَت عليه، وأشْفَقَ مَنها.

أو يكون «الوضع» عصمة الله له، وكفايته من ذُنُوب لو كانت لأنْقَضت ظهره.

أو يكون من ثِقَل الرسالة، أو ما ثَقُل عليه، وشَغَل قَلْبَهُ من أمور الجاهلية. وإعلام الله تعالى له بحفظ ما استحفظه من وحيه.

* قال القاضى عياض: وأما قوله تعالى: ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾

فأمرٌ لم يتقدم للنبى - ﷺ - فيه من الله تعالى نَهْىٌ، فيعدُّ معصية، ولا عدَّه الله تعالى عليه معصية، بل لم يعدّه أهل العلم معاتبة، وغَلَّطوا من ذهبَ إلى ذلك.

قال نفطويه: وقد حاشاه الله تعالى من ذلك، بل كان مُخَيَّرًا فى أمرين، قالوا: وقد كان له أن يفعل ما شاء فيما لم ينزل عليه فيه وحى، فكيف وقد قال الله تعالى ﴿فأْذَنْ لمَنْ شِئْتَ مِنْهُم﴾.

فلما أذن لهم، أعلمه الله بما لم يطَّلع عليه من سِرِّهم، أنه لو لم يأْذَن لهم لقعدوا، وأنه لا حَرَج عليه فيما فعل.

وليس ﴿عَفَا﴾ ههنا بمعنى ﴿غَفَر﴾ بل كما قال النبى - ﷺ - «عَفَا الله لكُم عن صدقة الخَيْلِ والرَّقِيق». ولم تجب عليهم قط، أى لم يلزمكم ذلك.

ونحوه للقشيرى:قال: وإنما يقول ﴿العَفْو﴾ لا يكون إلاّ عن ذَنْب، من لم يعرف كلام العرب.

قال: ومعنى ﴿عَفَا الله عَنْك﴾ أى لم يُلْزِمْكَ ذَنْبًا.

قال الداودى: رُوِى أنها كانت تكرمةً.

قال مكى: هو استفتاح كلام، مثل : «أَصْلَحَك الله وأَعَزَّك».

٨

موقفه من أسرى بدر(١):

ومما يستدل به، من يقول بجواز الخطأ على النبى - ﷺ - دون أن يقر عليه، قصة أسرى بدر. وهى - كما فى المسند - عن أنس رضى الله عنه أنه قال:

«استشار النبى ﷺ - الناس فى الأسرى يوم بدر، فقال: إن الله تعالى أمكنكم منهم، فقام عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله.. اضربْ أعناقهم، فأعرض عنه النبى ﷺ، ثم عاد رسول الله - ﷺ، فقال: يا أيها الناس، إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس، فقام عمر فقال: يارسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبى ﷺ، فقال الناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - فقال: يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، قال: فذهب عن وجه رسول الله - ﷺ - ما كان فيه من الغَمّ، فعفا عنهم وقَبِل منهم الفداء.

---

(١) الشفا ١٥٨/٢.

● قال القاضى عياض: «وأما قوله فى أسارى بدر ﴿مَا كَانَ لِنَبِيّ أَنْ يكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ الآيتين. فليس فيه إلزام ذَنْبٍ للنبى - ﷺ - بل فيه بيان ما خُصَّ به، وفُضِّلَ من بين سائر الأنبياء، فكأنه قال: ما كان هذا لنبيٍّ غيرك، كما قال ﷺ: «أُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ، ولم تَحِلَّ لنبيٍّ قَبْلِى»

● فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا والله يُرِيدُ الآخِرَةَ والله عزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال ٦٧]

● قيل: المعنى، الخطاب لمن أراد ذلك منهم، وتجرَّد غَرَضُه لغَرض الدنيا وحده، والاستكثار منها، وليس المراد بهذا النبى - ﷺ - ولا عِلْية أصحابه.

بل روى الضحاك، أنها نزلت حين انهزم المشركون يوم بدر، واشتغل الناسُ بالسَّلب وجمع الغنائم عن القتال، حتى خَشِيَ عمر أن يعطف عليهم العدو. ثم قال تعالى:

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ الله سَبَقَ لَمَسَّكُم فِيمَا أَخَذْتُم عذاب عَظِيم﴾ [الأنفال ٦٨]

ويتابع القاضى عياض دفاعه، فيقول:

«إن معنى هذه الآية: لولا أنه سبق مِنِّى أن لا أُعَذِّب أحدًا إلاّ بعد النهى لعذَّبتكم، فهذا ينفى أن يكون أمر الأسرى معصية.

وقيل: المعنى، لَوْلَا إيمانكم بالقُرآن، وهو الكتاب السابق، فاسْتَوْجَبْتُم به الصفح لعقوبتم على الغنائم. ويزداد هذا القول تفسيرا وبيانا بأن يُقَال: لولا ما كنتم مؤمنين بالقرآن، وكنتم ممن أُحِلَّت لهم الغنائم، لعوقبتم كما عُوقب من تعدَّى.

وقيل: لولا أنه سبق فى اللوح المحفوظ أنها حلال لكم لعوقبتم. فهذا كله ينفى الذَّنْب والمعصية، لأن من فعل ما أُحِلَّ له لم يعصِ[1].

أقول: إن من تأمل ما جاء فى روايات هذه القصة، يظهر له جليا أنه -

---

(١) الشفا ٢/١٦٠.

ﷺ - كان مُصيبا فيما فعله، وذلك من وجوه متعددة:

● الوجه الأول: أن النبى ﷺ - عمل بذلك بمقتضى المشورة، التى أمره الله تعالى بها، فى قوله: ﴿وَشَاوِرْهُم فى الأَمْرِ فَإِذَا عزمت فتَوَكَّلْ عَلَى الله﴾

● الوجه الثانى: أنه - ﷺ - جنح إلى رأى من قال بالفِدَاء، وأحبّه لما فيه من الرحمة والعطف واللين، بمقتضى المقام الذى أقامه تعالى فيه، وهو قوله تعالى: ﴿وما أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً للعَالَمِين﴾

● الوجه الثالث: أن فعله - ﷺ - كان موافقا لما سبق فى الكتاب الأول، الذى قضى الله تعالى فيه حلّ الغنائم له - ﷺ - خاصة، ولم تحل لأحد قبله، كما قال ابن عباس رضى الله عنه، فى قوله تعالى: ﴿لَوْلاَ كتابٌ مِنَ الله سَبَق﴾ يعنى فى أم الكتاب الأول، إن المغانم والأسارى حلال لكم، لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم.

● الوجه الرابع: وكما أن قبوله - ﷺ - الفداء، وافق قضاء الله تعالى السابق فى الكتاب الأول، فإنه وافق أيضا الشرع اللاحق النازل فى الكتاب الحكيم، وهو قوله تعالى:

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُم حَلاَلاً طَيِّبًا واتَّقُوا الله إنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال ٦٩]

فكيف يقال فى أمر وافق الكتاب الأول ووافق الشرع النازل بعد، كيف يقال إنه خطأ؟

● الوجه الخامس: أن نزول التشريع بإحلال الغنائم، وهو قوله تعالى: ﴿فكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُم حَلاَلاً طَيبا﴾

وهو إقرار لما فعله الرسول - ﷺ - وتصويب لما رآه، إذ لو كان فعله خطأ، كيف يقرّه الله تعالى عليه، ويجعله شرعا باقيا؟ حتى على قول من جوّز الخطأ عليه - ﷺ - دون أن يقره الله عليه، لا يقال: إنه ﷺ - أخطأ فى قضية أسرى بدر، لأن الله تعالى أقرّه على ذلك، فمن أين يأتى الخطأ.

قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره: وقد استمر الحكم فى الأسرى عند جمهور العلماء، أن الإمام مخيّر فيهم، إن شاء قتل، كما فعل ببنى قريظة، وإن شاء فَادَى بمال، كما فعل بأسرى بدر، أو فادى بمن أسر من المسلمين، كما فعل رسول الله - ﷺ - فى تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا فى سبى سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ فى مقابلهما من المسلمين، الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر، هذا مذهب الإمام الشافعى، وطائفة من العلماء، وفى المسألة خلاف بين الأئمة، مقرر فى موضعه من كتب الفقه.

الوجه السادس: لو كان موقفه - ﷺ - مع أسرى بدر خطأ، لأمره الله تعالى أن يَرُدَّ الفداء، وأن يستغفر الله تعالى من الخطأ الذى وقع فيه، مع أنه سبحانه وتعالى أقرَّه على ذلك، وشرع له ذلك، فقال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُم حَلَالاً طَيِّباً﴾ الآية.

فلو كان خطأ لما أقره الله تعالى عليه، ولما شرع له ذلك.

الوجه السابع: كيف يحكم بأنه - ﷺ - أخطأ فى أسرى بدر، مع أنه - ﷺ - أمر أن يخيّر أصحابه فى ذلك، ثم عمل بمقتضى ذلك.

● فقد روى الترمذى والنسائى وابن حبّان والحاكم، بإسناد صحيح، عن علىّ كرم الله وجهه، قال:

جاء جبريل - عليه السلام - إلى رسول الله - ﷺ - يوم بدر، فقال له: خيّر أصحابك فى الأسارى إن شاءوا القتل، وإن شاءوا الفداء، على أن يقتل منهم - أى الصحابة - فى العام المقبل مثلهم، فقالوا: نختار الفداء، ويقتل منا (أى الصحابة) سبعون رغبة فى الشهادة فى سبيل الله تعالى. وعند ابن سعد: من مرسل قتادة: فقالوا: بل نفاديهم فنقوى بهم عليهم، ويدخل العام القابل منا الجنّة سبعون، ففادوهم.

قال الحافظ القسطلانى: وهذا دليل على أنهم لم يفعلوا إلاّ ما أذن لهم فيه.

أمـا قولـه تعالى: ﴿مـا كَانَ لنبىٍّ أَنْ يكُـونَ لَـهُ أَسْـرَى حَتّى يُثْخِنَ فى الأرض، تُـرِيدُون عَـرَضَ الدُّنْيَـا والله يُرِيـدُ الآخِرَة، والله عَـزِيـزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال ٦٧]

فليس فيها معاتبة للنبى - ﷺ - أصلاً، وإنما فيها العتاب لمن أشار على النبى - ﷺ، بالفداء بغية عرض الدنيا، وهو المال المفتدى به، حين استشار عامة الناس قبل أن يستشير خاصّتهم أبا بكر وعمر وعليا، رضى الله عنهم، كما تقدم. فأراد الله بقولـه تعالى: ﴿تُـرِيدُون عَـرَضَ الدنيـا﴾ أولئك النفـر الذين أرادوا المال.

أما الرسول - ﷺ - فلم يقصد بقبول الفداء عَـرَض الدنيـا، وحاشـاه من ذلـك، فإن الـدنيا كلهـا مالهـا قيمة عنـده، وقد قـال - ﷺ - : «مَالِى ولِلدُّنيا، مَا أَنَا والدُّنيا إلاّ كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها» وقـد عُـرضت عليه جبـال تهامـة أن تكون لـه ذهبا فـأبى، فأين هـو من عرض الدنيا؟

كـما أن قولـه تعالى: ﴿لَـوْلاَ كِتَـابٌ مِنَ الله سَبَق لَمَسَّكُم فِيـمَا أَخَـذْتُم عـذابٌ عَظِيم، فكلوا ممَّـا غَنِمْتُم حَلاَلاً طَيِّبًـا﴾ فـإن هـذا إعـلان منـه - سبحانه وتعالى - بنعمته ومنته على هذه الأمة بفضل نبيِّها - ﷺ - وإعلام بـأنه سبق منـه القضاء فى الكتـاب الأسبق، بحل الغنـائم لهـذه الأمـة دون غيرها، فضلا منه ونعمة بفضل نبيها وكرامته على الله تعالى.

ومن ثَمّ كان - ﷺ - يُشِيد بهذه النعمة فى جملة من المنـاقب التى خصَّه الله تعالى بها، فيقـول: «أعطيت خمسـا لم يعطهن أحـد قبلى، كـان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الأحمـر والأسود، وأحلّت لى الغنـائم، ولم تكن تحل لأحد قبلى».

أما ما جـاء فى الحديث، من قـول عمر - رضى الله عنـه: فلما كان من الغـد، جئت فإذا رسـول الله - ﷺ - وأبو بكـر قاعـدين يبكيـان، قلت: يارسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى وصاحبك، فإن وجـدت بكاء بكيت،

وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله - ﷺ: «أبكى للذى عرض علىَّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عُرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة قريبة من نبى الله -ﷺ) وأنزل الله عز وجل: ﴿ما كانَ لنبى أن يكونَ له أسرى حتى يثخن فى الأرض، تريدون عَرَضَ الدنيا..﴾ إلى قوله ﴿فكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُم حَلالاً طيِّبًا﴾ فأحل الله الغنيمة لهم.

أقول: الصواب أن هذا الذى عرض عليه - ﷺ - من عذابهم كان قبل نزول الآيات المقرِّرة تصحيح عمله، وتأييد موقفه، وتثبيته فيما انشرح إليه صدره، من رأى أبى بكر - رضى الله عنه، وفائدة هذا العرض زيادة المنّة من الله تعالى، بتعظيم النعمة عليهم فيما أباحه لهم مما كان محرما على من قبلهم، وذلك ببيان ما يستحق هؤلاء الأسرى من الجزاء والعقاب لو جرى الأمر على ما كان مما هو مشروع من قبل، فعذابهم هذا الذى رآه - ﷺ - هو الذى يستحقونه لو لم يكن ما شرعه الله، مما هُدِى إليه رسوله الصادق الأمين، من قبوله الفداء، وأخذ الغنائم ثم بعد إظهار ذلك لحضرة المصطفى - ﷺ - بكى، لأنه ظن أن هذا هو حكم الله فيهم وظن أنه أخطأ فيما جنح إليه ورآه، ثم أعلمه الله جل شأنه بصحة ذلك، وأنه هو الحق، بما أنزل عليه من الآيات البينات، التى صوَّبت عمله، وأيدت قوله وفعله، وجعلت ما ذهب إليه شريعة متبعة، وسمة قائمة، ونظاما من أصول الأنظمة الحربية فى شأن الأسرى إلى قيام الساعة.

وأما قوله تعالى: ﴿ما كان لنبىٍّ أن يكُونَ له أسْرَى حتى يثخن فى الأرض...﴾ الآية.

فالصواب: أن هذه الآية إخبار من الله تعالى لنبيِّه - ﷺ - عن حكم هذه القضية فى الشرائع السابقة، وهى تقول له: يامحمد ما كان لنبى ممن سبقك من الأنبياء أن يكون له أسرى حتى يُكْثِر القتل والقهر فى العدو، هذا حكم من سبق. أما أنت، فقد أبحنا ذلك وأحللناه لك، مزية ومنقبة وخصوصية تتميز بها عنهم.

فالآية اشتملت على تقرير تمام النعمة على محمد - ﷺ - ببيان ما فضله به مولاه، واختصه به الله مما كان محرما على من سبقه، فتدبّر، وليس فيها عتاب أو خصام.

* ويتابع القاضى عياض حديثه فى هذه القضية، فيقول:[1]
- وأما قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى..﴾ الآيات، فليس فيه إثباتُ ذنب له - ﷺ - بل إعلام الله أن ذلك المتصَدِّى له ممّن لا يتزكى..

وأن الصواب والأَوْلى كان - لو كُشِفَ لك حالُ الرَّجُلَيْن - الإقبال على الأعمى. وَفِعْل النبي - ﷺ، لِمَا فَعَل وتصدِّيه لذاك الكافر كان طاعةً لله، وتبليغا عنه، واستئلافًا له، كما شَرَعه الله له، لا معصية ومخالفة له، وما قصّه الله عليه من ذلك إعلامٌ بحال الرَّجلين، وتوهين أمر الكافر عنده، والإشارة إلى الإعراض عنه بقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴾

أقول: ويحتمل أنه عتاب من الحق سبحانه على ما فعله - ﷺ - مما ظهر له صلاحه، وترجح عنده نجاحه، وكان الواقع الذى قدر الله جل وعلا بخلاف ذلك، والعتاب لا يقتضى ولا يلزم منه أن يكون بعد ذنب، أو مخالفة - كما هو الجارى بين الناس فى معاملتهم، فقد يعاتب الأخ أخاه، والحبيب حبيبه، على ترك الأولى، بل على ترك الأكمل، وقد يعاتب الوالد ولده على التقصير وفعل المذموم، فالعتاب أوسع من أن يكون فى جهة واحدة.

وقيل: أراد (بعبس وتولى) الكافر، الذى كان مع النبى - ﷺ - قاله أبو تمام.

* قال القاضى عياض: وأما قوله - ﷺ - «إِنَّهُ لَيُغَانُ على قَلْبِى فَأَسْتَغْفِر الله كلَّ يوم مائة مرة» وفى رواية: «فى اليوم أكثر من سَبْعين مرّة»

---

(١) الشفا ١٦١/٢.

«فاحذر أن يقع ببالك أن يكون هذا الغَيْن وسوسة أو رَيْبًا وقع فى قلبه ﷺ، بل أصل الغين فى هذا ما يتغشى القلب ويغطيه. وأصله من غين السماء وهو إطباق الغيم عليها. وقال بعض العلماء: والغين شىء يغشى القلب ولا يغطيه كل التغطية، كالغيم الرقيق، الذى يعرض فى الهواء، فلا يمنع ضوء الشمس.

والمراد بهذا الغَيْن إشارة إلى غفلات قلبه، وفترات نفسه وسهوها عن مداومة الذِّكر، ومشاهدة الحق بما كان ﷺ، دفع إليه من مقاساة البشر وسياسة الأمة، ومعاناة الأهل، ومقاومة الولى والعدو، ومصلحة النفس، وما كلّفه من أعباء أداء الرسالة، وحمل الأمانة، وهو فى كل هذا فى طاعة ربه،وعبادة خالقه.

ولكن لما كان - ﷺ - أرفع الخلق عند الله مكانة، وأعلاهم درجة، وأتمهم به معرفة، وكانت حاله عند خلوص قلبه، وخلوّ همه، وتفرده بربه، وإقباله بكليته، ومقامه هناك أرفع حاليه، رأى - ﷺ - حال فترته عنها، وشغله بسواها غضا من على حاله وخفضا من رفيع مقامه، فاستغفر الله من ذلك.

هذا أولى وجوه الحديث وأشهرها، وإلى معنى ما أشرنا به مال كثير من الناس، وحام حوله وهو مبنى على جواز الفترات والفضلات، والسَّهو فى غير طريق البلاغ.

وذهبت طائفة من أرباب القلوب، ممن قال بتنزيه النبى - ﷺ - عن هذا جملة، وأجله أن يجوز عليه فى حال سهو، أو فترة إلى أن معنى الحديث ما يهم خاطره، ويغم فكره من أمر أمته - ﷺ - لاهتمامه بهم، وكثرة شفقته عليهم فيستغفر لهم.

قالوا: وقد يكون الغين هنا على قلبه السَّكِينَة تتغشّاه لقوله تعالى: ﴿فأَنْزَلَ الله سَكِينَتَه عَلَيْه﴾ ويكون استغفاره - ﷺ - عندها إظهارًا للعبودية والافتقار.

قال ابن عطاء: استغفاره وفعله هذا، تعريف للأمة يحملهم على الاستغفار.

وقال غيره: ويستشعرون الحذر ولا يركنون إلى الأمن.

وقد يحتمل أن تكون هذه الإغانة حالة خشية وإعظام تغشى قلبه، فيستغفر حينئذ شكرًا لله، وملازمة لعبوديته، كما قال فى ملازمة العبادة «أفلا أكون عبدًا شكورًا»

٩

* ويختم القاضى عياض هذا الفصل الهام من سيرة المصطفى - ﷺ - بخاتمة نفيسة يقول فيها:[1]

«قد استبان لك أيها الناظر بما قررناه ما هو الحق من عصمته - ﷺ - عن الجهل بالله، وصفاته، أو كونه على حالة تُنافى العلم بشىءٍ من ذلك كُلّه جملة بعد النبوة عقلا وإجماعا، وقبلها سماعًا ونقلا، ولا بشىء مما قرّرناه من أمور الشرع، وأدّاه عن ربه من الوحى قطعًا وعقلا وشرعا. وعصمته عن الكذب، وخُلْف القول منذ نبّأه الله، وأرسله قصدًا أو غير قصد، واستحالة ذلك عليه شرعًا وإجماعًا، ونظرًا وبرهانًا، وتنزيهه عنه قبل النبوّة قطعا وتنزيهه عن الكبائر إجماعا، وعن الصغائر تحقيقا، وعن استدامةِ السّهو والغفلة، واستمرار الغلط والنسيان عليه، فيما شرعَه للأمة. وعصمته فى كل حالاته من رضى وغضب، وجدّ ومزح..

فيجب عليك أن تتلقاه باليمين، وتشدُّ عليه يد الضّنين، وتقدر هذه الفصول حق قدرها، وتعلم عظيم فائدتها وخطرها، فإن مَنْ يجهل ما يجب للنبى - ﷺ، أو يجوز أو يستحيل عليه، ولا يعرف صُوَر أحكامه، لا يأمن أن يعتقد فى بعضها خلاف ما هى عليه، ولا يُنزّهُه عمّا لا يجب أن يُضاف إليه، فيهلك من حيث لا يدرى، ويسقط فى هُوّة الدرك الأسفل من النار، إذْ ظنُّ الباطل به اعتقاد

---

(١) الشفا ١٧٢/٢.

ما لا يجوز عليه، يُحِلّ بصاحبه دار البوار.

«ولهذا ما احتاط عليه السلام على الرَّجلين اللذين رأياه ليًلا، وهو معتكف فى المسجد مع صَفِيّة، فقال لهما: إنها صَفِيّة، ثم قال لهما: إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئا فتهْلِكا.

ثم يقول القاضى عياض: هذه أكرمك الله إحدى فوائد ما تكلمنا عليه فى هذه الفصول.

ولعل جاهًلا لا يَعْلَم بجهله، إذا سمع شيئا منها يرى أن الكلام فيها جملة من فضول العلم، وأن السكوت أولى، وقد استبان لك أنه متعّين للفائدة التى ذكرناها.

وفائدة أخرى: يُضطر إليها فى أصول الفقه، ويُبْتَنَى عليها مسائل لا تَتَعَدُّ من الفقه، ويتخلص بها من تشعيب مختلفى الفقهاء فى عدة منها، وهى: «الحكم فى أقوال النبى - ﷺ - وأفعاله» وهو باب عظيم، وأصلٌ كبير من أصول الفقه، ولابد من بنائه على صدق النبى - ﷺ - فى أخباره وبلاغه، وأنه لا يجوز عليه السهو فيه، وعصمته من المخالفة فى أفعاله عمدًا.

وفائدة ثالثة: يحتاج إليها الحاكم والمفتى، فيمن أضاف إلى النبى - ﷺ - شيئا من هذه الأمور، ووصَفَهُ بها، فمن لم يعرف ما يجوز وما يمتنع عليه، وما وقع الإجماع فيه، والخلاف كيف يُصَمم فى الفتيا فى ذلك، ومن أين يدرى هل ما قاله فيه نقص أو مدح..

فإما أن يجترئ على سفك دم مُسْلِم حرام، أو يسقط حقًا ويُضَيّع حُرْمةً للنبى - ﷺ[1].

---

(١) الشفا ١٧٤/٢.

الفصل الثانى

الجانب الإنسانى فى شخصية الرسول

بعد إذ انتهى القاضى عياض من دراسة الجانب الدينى فى شخصية الرسول ﷺ، وما يتصل بها من عصمته قبل النبوة وبعدها. تحوّل لدراسة الجانب الدنيوى، الإنسانى البشرى[1] وما يتصل به من أمور دنيوية، وما يطرأ عليه من العوارض البشرية فى شخصيته - ﷺ.

هذا الجانب سبق أن أشار إليه، وتحدث عما يجوز عليه من الآفات والتغييرات، والآلام والأسقام، وتجرّع كأس الحمام، لأنه من البشر، وأن جسمه وظاهره خالص للبشر.

وهذا الأمر ليس بنقيصه فيه - ﷺ - لأن الشيء إنما يُسَمّى ناقصا بالإضافة إلى ما هو أتم منه، وأكمل من نوعه، وقد كتب الله تعالى على أهل هذه الدار: ﴿فيها تَحْيَون وفيها تموتون، ومنها تُخْرَجُون﴾.

وبناء على ذلك، فقد مرض - ﷺ - واشتكى وأصابه الحرّ والقَرّ، وأدركه الجوعِ والعطش، ولحقه الغضب والضجر، وناله الإعياءُ والتعب، ومسّه الضَّعف والكِبر، وسقط فجُحِش شِقُّه، وشَجَّه الكُفَّار، وكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ، وسُقِيَ السمّ، وسُحِر، وتداوى واحْتَجم، وتنشّر وتعوّذ، ثم قَضَى نحبه فُتُوفِّى - ﷺ، وَلَحِقَ بالرفيق الأعلى، وتخلّص من دار الامتحان والبَلْوى.

وهذه سمات البشر التى لا محيص عنها لولا عناية الله التى تحيط به فى كل زمان وفى كل مكان.

فالله سبحانه كفاه يد ابن قَمِئَةَ يوم أُحد، وحجبه عن عيون عداه عند دعوته

(١) الشفا ١٧٨/٢.

أهل الطائف. وأخذ على عيون قريش عند خروجه إلى ثور، وأمسك عنه سيف غورث، وحَجَر أبي جهل، وفرسَ سُراقة، ووقاه الحق سبحانه سحر ابن الأعصم، كما وقاه ما هو أعظم، من سَمِّ اليهودية.

وهذه الحماية، وهذه الوقاية، من تمام حكمته تعالى، لُيظهر شَرَفَه فى هذه المقامات، ويبين أمره، ويتم كلمته، وليحقق بامتحانه بشريته، ويرتفع الإلتباس عن أهل الضعف فيهم، لِئلاَّ يضلّوا بما يظهر من العجائب على يديه ضلال النصارى بعيسى بن مريم، وليكون فى محنته تسلية لأمته، ووفور لأجره عند ربه.

قال الراسخون فى العلم: وهذه الطوارئ والتغييرات المذكورة، إنما تختص بجسمه البشرى، المقصود به مقاومة البشر، ومعاناة بنى آدم لمشاكلة الجنس.

* أما بواطنه، ﷺ – فمنزهة غالبا عن ذلك، معصومة منه، متعلّقة بالملأ الأعلى والملائكة لأخذها عنهم، وتلقيها الوحى منهم، وقد قال ﷺ:

«إنِّى لَسْتُ كَهَيْئَتِكُم إنِّى أَبِيتُ يُطْعِمُنى رَبِّى وَيَسْقِينِى».

«إنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَان، ولاَ يَنَامُ قَلْبِى»

فأخبر أن سرّه وباطنه وروحه بخلاف جسمه وظاهره، وأن الآفات التى تَحِلُّ ظاهره من ضَعْفٍ وجوع وسَهَر ونوم، لا يحل منها شىء باطنه، بخلاف غيره من البشر فى حكم الباطن، لأن غيره إذا نام استغرق النوم جسمه وقلبه، وهو ﷺ – فى نومه حاضر القلب، كما هو فى يقظته. حتى قد جاء فى بعض الآثار، أنه كان محروسا من الحَدَث فى نومه، لكون قلبه يقظان.

قال القاضى عياض: إنه – ﷺ – فى هذه الأحوال كلها من وَصَب ومَرَض، وسِحْر وغضب، لم يَجْرِ على باطنه ما يُخِلّ به، ولافَاضَ منه على لسانه وجوارحه ما لا يليق به، كما يعترى غيره من البشر.

١

سِحْره لا ينافى كماله:

أول المسائل التى تعرض لها القاضى عياض، فيما يطرأ عليه من الأحوال، **مسألة السحر**[1] الذى تعرّض له فعن عائشة – رضى الله عنها – قالت: «سُحِرَ رسول الله – ﷺ – حتى إنه ليخيَّلُ إليه أنه فَعَلَ الشّىء ومَا فَعلَه»

وفى رواية أخرى: «حتى كان يُخَيَّلُ إليه أنَّه كان يأتى النِّساء ولا يأتيهن» الحديث.

وقد اختلف الناس فى هذا الحديث اختلافا كبيرا، فمنهم من ردّه وطعن فيه، ومنهم من التبس عليه الأمر فقدح فى العصمة النبوية. والحق أن حديث سحره – ﷺ – صحيح، متفق عليه، ولا يقدح فى عصمته.

* **قال القاضى عياض:**

«وقد نزّه الله الشَّرع، والنبىّ عما يُدْخل فى أمره لبسًا، وإنما السِّحْر مَرَضٌ من الأمراض، وعَارِضٌ من العِلَل، يجوز عليه كأنواع الأمراض مما لا ينكر ولا يقدح فى نبوته»

«وأما ما ورد أنه كان يُخَيَّل إليه أنه فعَلَ الشىء ولم يفعله فليس فى هذا ما يُدْخل عليه داخلة فى شىء من تبليغه أو شريعته، أو يقدح فى صدقه لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا»

«وإنما هذا فيما يجوز طُرُّءه عليه فى أمر دنياه، التى لم يُبعث بسببها، ولافُضّل من أجلها، وهو فيها عُرضة للآفات كسائر البشر، فغير بعيد أن يُخَيّل إليه من أمورها ما لا حقيقة له، ثم ينجلى عنه كما كان.

---

(١) الشفا ١٨٠/٢.

* أمّا ما ورد فى الحديث الآخر، من قوله: «حتى يُخيّل إليه أنّه يأتى أهْلَه وَلاَ يأْتيهن.

فقد قال سفيان: هذا أشد ما يكون من السحر، ولم يأت فى خبر منها أنه نُقل عنه فى ذلك قولٌ، بِخَلِاف ما كان أخبر أنه فعله ولم يفعله، وَإنّما كانت خواطر وتخييلات.

وقد قيل: إنه كان يتخيل الشىء أنه فعله وما فعله، لكنّه تخييل لا يعتقد صحته، فتكون اعتقاداته كلها على السداد، وأقواله على الصحة.

قال القاضى عياض: إن كل وجه من هذه الوجوه مقنع، لكنه قد ظهر لى - فى الحديث - تأْويل أجْلَى وأبعد عن المطاعن.

* ففى رواية عروة بن الزبير: سَحَرَ يهوُد بنى زُريق رسولَ الله - ﷺ - فجعلوه فى بئر، حتى كاد رسول الله - ﷺ - أن يُنكرَ بَصَرَه، ثم دَلّه الله على ما صنعوا فاستخرجه من البئر.

* وفى رواية يحيى بن يعمر، «حُبس رسول الله - ﷺ - عن عائشة سَنَةً، فبيْنَا هو نائم أتاه ملكان، فقعد أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه». الحديث.

* وفى رواية ابن عباس: مَرِضَ رسولُ الله - ﷺ - فحُبس عن النِّساءِ والطعام والشراب، فهبط عليه ملكان... وذكر القصة.

ويخلص القاضى عياض من مضمون هذه الروايات، أن السحر إنما تسلّط على ظاهره وجوارحه، لا على قلبه واعتقاده وعقله، وأنه إنما أثر فى بصره، وحَبَسه عن وطء نسائه وطعامه، وضعف جسمه وأمرضه، ويكون معنى قوله: «يُخَيّل إليه أنَّهُ يأتِى أهْلَه وَلاَ يأْتِيهن» أى يظهر له من نشاطه ومتقدم عادته، القدرة على النساء، فإذا دَنَا منهن أصابته أُخْذَة السحر، فلم يقدر على إتيانهن، كما يعترى من أُخذ واعتُرِض.

ولعله لمثل هذا أشار سفيان بقوله: «وهذا أشدّ ما يكون من السحر» ويكون قول عائشة: «إنه ليخيّل إليه أنه فَعَلَ الشىءَ وما فَعَلَهُ من باب

ما اخْتَلّ من بَصَرِه، فيظن أنه رأى شخصا من بعض أزواجه، أو شاهد فِعلا من غيره، ولم يكن على ما يُخَيّل إليه، لما أصابه فى بصره، وضَعْف نظره، لا لشىء طَرَأَ عليه فى مَيْزِهِ.

وإذا كان هذا.. لم يكن فيما ذُكر من إصابة السِّحر له، وتأثيره فيه ما يُدخل لَبْسًا، ولا يجد به المُلحِد المعترض أنْسًا».

أقول: وأقرب دليل - فى رأيى - فى تأكيد حفظ قلبه وعقله من السحر، هو انضباط أقواله فى تلك الفترة، وجريانها على نسقها الطبيعى، بلا اختلال ولا تناقض، ولا اضطراب ولا فساد، بل على الكمال والتمام، والانسجام التام، مع وجود أعدائه، وترقبهم لأحواله، وحرصهم على حفظ أدنى كلمة أو حرف، يستنقصون به حاله، ويشفون به غيظهم، ولو ظفروا بمثل ذلك لنفخوا فيها، وطاروا بها، ولكنه لم يثبت شىء من هذا، وحفظ الله نبيه المصطفى - ؛، وردّ الله الذين كفروا بغيظهم، لم ينالوا خيرا، وكفى الله المؤمنين القتال.

بل الأمر عندى على العكس، وهو أن سحره - ﷺ - وتأثر بعض ظاهره بذلك، وسلامة قلبه وعقله، واعتقاده وأقواله، أكبر دليل على كمال عصمة الله له، وأن نبّوته محفوظة، لا تتأثر بالعوارض البشرية مهما بلغت قوتها، وأنه بالرغم من تأثر بشريته بذلك - إلا أن نبوته محفوظة، مع أن النفس التى تحمل البشرية والنبوة واحدة، وهى نفس محمد - ﷺ.

وفى هذا إشارة إلى أنه محفوظ بحفظ خاص، مرعى برعاية خاصة، ليس لأحد عليه سلطان، بل هو لله الواحد الديان، عرش حقائق، ومحل دقائق، ومهبط أنوار، وتنزل أسرار. فهذا حاله فى جسمه.

٢

أحواله فى أمور الدنيا:

وأما أحواله الدنيوية، فمناط أسلوبها - كما يقول القاضى عياض - بالعقد والقول والفعل[١].

---

(١) الشفا ١٨٣/٢.

* **أما العقد**: فقد يعتقد فى أمور الدنيا الشىء على وَجْه، ويظهر خلافه، أو يكون منه على شك أو ظن، وهذا بخلاف أمور الشرع.

أى أنه - ﷺ - قد يجتهد فى الأمور الدنيوية التى تتصل بالزراعة، ويدلى برأيه، وهذا الرأى يحتمل الصحة والخطأ، لأنه من البشر، قد يصيب وقد يخطئ.

مثال ذلك.. موقفه من قضية تأبير النخل..

قال رافع ابن خديج: قدم رسول الله - ﷺ - المدينة، وهم يَأْبُرُون النَّخل، أى يلقِّحونه. فقال: ما تصنعون؟ قالوا: كنا نَصْنَعُهُ، قال: «لعلكم لو لم تَفْعَلوا كان خيرا» فتركوه، فَنَفَضَت أى أسقطت حملها. فذكروا ذلك له، فقال:

«إنما أَنَا بَشَرٌ إذَا أَمَرْتكُم بشىءٍ من دِينِكُم فَخُذُوا به، وإذَا أَمَرْتكُم بشىءٍ من رأىٍ فإنَّما أَنَا بَشَرٌ».

وفى رواية أنس: «أَنْتُم أعلمُ بأَمْرِ دُنْيَاكم».

وفى حديث آخر: «إنما ظَنَنتُ ظَنًّا، فلا تؤاخذونى بالظَّنّ».

وفى حديث ابن عباس، فى قصة الخَرْص - أى الحزر والتقدير - فقال رسول الله - ﷺ: «إنما أنا بشَرٌ فما حَدَّثْتُكُم عن الله فَهُوَ حَقّ، وما قُلْتُ فيه مِنْ قبل نَفْسِى فإنما أَنَا بَشَرٌ أُخْطِئُ وأُصِيب».

فمن هذا الحديث فهم بعض الناس، أن النبى ﷺ - قد يخطئ فى أمور الدنيا، وراح يقول: أخطأ رسول الله - ﷺ - فى كذا، وأخطأ فى كذا.

قال القاضى عياض: «وهذا على ما قررناه فيما قاله من قِبَل نفسه فى أمور الدنيا، وظنه من أحوالها، لا ما قاله - ﷺ - من قِبَل نفسه واجتهاده فى شرع شَرَعَهُ، وسُنّة سَنَّها.

* ومثله ما حكاه ابن اسحاق، أنه ﷺ، لما نزل بأدنى مياه بدر، قال له الحُبَابُ بن المنذر: أهذا منزل أَنْزَلَكَهُ الله ليس لنا أن نتقدّمه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟

قال ﷺ: لا بَلْ هو الرأى والحرب والمكيدة، قال: فإنه ليس بمنزل، انْهَض حتى نأتى أدنى ماء من القوم، فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب، فنشرب ولا يشربون، فقال ﷺ. «أَشَرْتَ بالرأى» وفعل ما قاله. وقد قال الله تعالى له - ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُم فى الأَمْرِ﴾.

قال القاضى عياض: «فمثل هذا وأشباهه من أمور الدنيا، لا مدخل فيها لِعلْمِ ديانة ولا اعتقادها، يجوّز عليه فيها الصواب والخطأ».

«والنبى - ﷺ - مشحون القلب بمعرفة الربوبية، ملآن الجوانح بعلوم الشريعة، مقيد البال بمصالح الأمة الدينية والدنيوية، ولكن هذا إنما يكون فى بعض الأمور، ويجوز فى النادر.

«وقد تواتر بالنقل عنه - ﷺ - من المعرفة بأمور الدنيا، ودقائق مصالحها. وسياسة فِرَق أهلها ما هو معجز فى البشر»[1].

أقول: الحق أَحَقُّ أن يذكر، وأن يتبع، ذلك أن أقواله - ﷺ - وأفعاله، يُفَسّر بعضها بعضا، ويشبه بعضها بعضا، وأن الله تعالى حفظه عن الخطأ كما حفظه من الخطيئة، والدليل على ذلك..

أولا: أنه - ﷺ - قد نشأ فى تلك الأراضى المباركة، التى هى منابت النخيل، وتربى بين قوم يعلمون فنون زرع النخيل، وما يتطلبه من عنايات ولقاحات، وكيف يتصور فى حقه - ﷺ - أن تخفى عليه تلك العادة المطردة فى انتاج النخيل، ولزوم التلقيح له بموجب الأصول الزراعية؟ فى حين أن ذلك ليس من خفايا معلومات الزراعة لشجر النخيل. ولا من غوامضها، إذًا لابد وأنه يعلم ذلك كما يعلمون، ولكن أراد أن يظهر لهم أمرًا لا يستطيعون نَيْلَه بأنفسهم.

ثانيا: أن الرسول الكريم - ﷺ - الذى نال من العلوم ما نال، وأفاض الله تعالى عليه ما أفاض، حتى أنه ذكر الصحابة، وبحث لهم فى كل شىء، كما روى الطبرانى عن أبى ذَرّ - رضى الله عنه. قال: «تَرَكَنَا رسول الله ﷺ - وما طَائِر

---

(١) الشفا ١٨٥/٢.

يقلّب جناحيه فى الهواء إلا وهو ذكر لنا منه علما».

فكيف يتصور أنه يخفى عليه - ﷺ وسلم - أن النخيل لا يحتاج إلى تلقيح بمقتضى العادة فى علم الزراعة؟ ولكن رسول الله - ﷺ - أراد أمرًا آخر.

ثالثا: أن الذى يدلنا على ذلك الأمر الذى أراده - ﷺ - هو النظر فى أشباه هذه الواقعة الصادرة منه - ﷺ - ومن ذلك حديث «ناولنى الذراع».

* ففى المسند عن أبى رافع، مولى رسول الله - ﷺ - قال: صُنع لرسول الله - ﷺ - شاة مَصْلِيّة (أى مشوية) فأتى بها فقال: «يا أبا رافع: ناولنى الذّراع» فناولته، ثم قال: «ناولنى الذراع» فناولته، ثم قال: «ناولنى الذراع» فقلت: يارسول الله هل للشاة إلا ذراعان، فقال ﷺ: «لو سَكَتّ لنَاوَلْتَنى منها ذراعًا ما دعوت به» قال: وكان رسول الله - ﷺ - يعجبه الذَراع.

وعن أبى عبيد: أنه طبخ لرسول الله - ﷺ - قِدْرًا فيها لحم، فقال رسول الله - ﷺ: «ناولنى ذراعها» فناولته، فقال: «ناولنى ذراعها» فناولته، فقال: «ناولنى ذراعها» فقلت: يانبى الله، كم للشاة من ذراع؟ فقال رسول الله - ﷺ - والذى نفسى بيده. لو سَكَتّ لأعْطِيتُ ذِرَاعًا ما دَعَوْتُ به».

فقوله - ﷺ - «ناولنى الذراع» فى المرة الثالثة، مع العلم أن الشاة لها ذراعان، إنما أراد أن يظهر أمرًا معجزًا فيه الإكرام، وفيه البرهان، وفيه الإشهاد بالعيان.

ولكن لما لم يجد محلا قابلا، لم تظهر تلك المعجزة، ولذلك قال الحافظ الزرقانى - عند قوله: ﷺ «أما أنّك لو سَكَتّ لنَاوَلْتَنِى ذِرَاعًا فَذِراعًا مَاسَكَتّ» أى مدة سكوتك، لأنه سبحانه يخلق ذراعا فذراعا معجزة لنبيّه - ﷺ - فحملت المناول عجلته المركّبة فى الإنسان على قوله: «إنما للشاة ذراعان» فانقطع المَدَد، لأنه إنما كان من مدد الكريم سبحانه، إكراما لخلاصة خلقه - ﷺ. فلو تلَقّاه المناول بالأدب ساكتا مصغيا إلى ذلك العجب، لكان شكرا منه مقتضيا لتشريفه بإجراء هذا المدد على يديه، ولكنه تلقاه بصورة الإنكار، فرجع الكرم موليا، لمّا لم يجد قابلاً، إذ لا تليق مشاهدة هذه المعجزة العظيمة، التى فى شهودها نوع تشريف

للمطلع عليها، إلا لمن كمل تسليمه، ولم يبق فيه أدنى حظ ولا إرادة.

* وهكذا فى حادثة تأبير النخل، لما مرّ ﷺ - بقوم يُؤَبِّرُون النخل، أراد أن يكرمهم ويُتْحِفَهم، وأن يظهر لهم معجزة خارقة للعادة المطردة فى إصلاح النخيل بالتأبير، فيكرمهم خاصة بصلاحه دون تأبير، إذ هو - ﷺ - ممّن يعلم بموجب العادة، حاجة النخيل إلى تلقيح - كما يعلمون، لأنه - ﷺ - بينهم مطّلع على أمورهم..

ولكن لمّا لم تقبل قلوب بعض أولئك النفر، ولم تستسلم كل الاستسلام، إلى قوله - ﷺ - «لو لم تفعلوا - أى التأبير - لصلح» بل وقفوا عند معلوماتهم الدنيوية المطردة من فن زراعة النخيل، وأن صلاحه موقوف على التأبير، فلم يلق الكرم محلا قابلا، فرجع. ولذلك ردّهم - ﷺ - بعد ذلك إلى الأسباب المعتادة لديهم، المعلومة عندهم، التى وقفوا عندها، ولم يجاوزوها، فقال لهم: «أنتم أعلم بأمور دنياكم» أى فارجعوا إلى العمل بموجب علمكم بأمور دنياكم.

ويشهد لصحة ما قلناه، وصواب ما فهمناه، من أنه - ﷺ - لم يخطئ فى ذلك، قول «الشيخ عبد العزيز الدباغ» فى كتابه الإبريز[1]، حين سُئل عن حديث تأبير النخل، فقال:

«قوله - ﷺ. «لَوْ لَمْ تَفْعَلوا لصَلَحَت» كلام حق، وقول صدق، وقد خرج منه هذا الكلام على ما عنده من الجزم واليقين، بأنه تعالى هو الفاعل بالاطلاق، وذلك الجزم مبنى على مشاهدة سريان فعله تعالى فى سائر الممكنات، مباشرة بلا واسطة ولا سبب، بحيث أنه لا تسكن ذرة، ولا تتحرك شعرة، ولا يخفق قلب، ولا يضرب عِرْق، ولا تطرف عين، ولا يومئ حاجب، إلا هو تعالى فاعله مباشرة، من غير واسطة، وهذا أمر يشاهده النبى - ﷺ - كما يشاهد غيره من سائر المحسوسات، ولا يغيب ذلك عن نظره، لا إلا وهو تعالى فاعله مباشرة من غير واسطة، ولا يغيب ذلك عن نظره لا فى اليقظة ولا فى المنام، لأنه - ﷺ - لا ينام قلبه، الذى فيه هذه المشاهدة».

---

(١) ص ١١٥.

ولا شك أن صاحب هذه المشاهدة تطيح الأسباب من نظره، ويترقى عن الإيمان بالغيب إلى الشهود والعيان، فعنده - من قوله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُم وَمَا تَعْمَلون﴾ مشاهدة دائمة لا تغيب، ويقين يناسب هذه المشاهدة، وهو أن يجزم بمعنى الآية جزما، لا يخطر معه بالبال، نسبة الفعل إلى غيره تعالى، ولو كان هذا الخاطر قدر رأس النملة.

قال: ولا شك أن هذا الجزم الذى يكون على هذه الصفة تخرق به العوائد، وتنفعل به الأشياء، وهو سرّ الله تعالى، الذى لا يبقى معه سبب ولا واسطة.

فصاحب هذا المقام، إذا أشار إلى سقوط الأسباب، ونسبة الفعل إلى رب الأرباب، كان قوله حقا، وكلامه صدقا.

قال: وأما صاحب الإيمان بالغيب، فليس عنده فى قوله تعالى ﴿والله خَلَقَكُم وَمَا تَعْمَلُون﴾ مشاهدة، بل إنما يشاهد نسبة الأفعال إلى ما ظهرت على يده، ولا يجذبه إلى معنى الآية، ونسبة الفعل إليه تعالى، إلا الإيمان الذى وهبه الله تعالى، فعنده جاذبان:

أحدهما: من ربه وهو الإيمان الذى يجذبه إلى الحق.

وثانيهما: من طبعه، وهو مشاهدة الفعل من الغير، الذى يجذبه إلى الباطل.

فهو بين هذين الأمرين دائما، لكن تارة يقوى الجانب الإيمانى، فتجده يستحضر معنى الآية السابقة ساعة وساعتين، وتارة يقوى الجانب الطبيعى، فتجده يغفل عن معناها اليوم واليومين، وفى أوقات الغفلة ينتفى اليقين الخارق للعادة.

* فلهذا لم يقع ما أشار إليه النبى - ﷺ - لأن أولئك النفر من الصحابة - رضى الله عنهم - فاتَهُم اليقين الخارق وقتئذ، الذى اشتمل عليه باطنه - ﷺ - ويحسبه خرج كلامه الحق، وقوله الصدق - ﷺ.

ولما عَلِم - ﷺ - العلة فى عدم وقوع ما ذكره لهم، وعلى أن زوال تلك العلة ليس من طوقهم وقتئذ، أبقاهم على حالتهم، وقال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم».

وعلى كل حال فإنه لا يقال أخطأ ﷺ - فى قصة تأبير النخل، فإن ذلك ليس من باب الخطأ، بل من باب الصواب، وإرادة الإكرام والإتحاف لأولئك النفر بأمر فيه اليُمْن والبركة، على وجه خارق للعادة، ولكنه تخلّف ذلك لوجود المانع والعارض.

٣

* ما يعتقده فى أمور أحكام البشر:

قال القاضى عياض: «أما فيما يتصل بقضايا البشر، وأمور أحكامهم الجارية على يديه»[١].

«فهذا اجتهاد منه - ﷺ، فباجتهاده قد يعرف المحقّ من المبطل، وباجتهاده أيضا يعلم المصلح من المفسد، وهو فى هذا أيضا قد يصل إلى الحقيقة، أو لا يصل وفقا لما يقدمه الخصوم من دلائل، لقوله ﷺ:

«إنما أَنَا بَشَرٌ وإنَّكُم تَخْتَصِمُون إلَىَّ، ولَعَلَّ بَعْضَكُم أَنْ يَكون أَلْحَن (أَفْطَن) بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْض ، فأَقْضِى له على نحو مِمّا أَسْمَع، فمَنْ قضيتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ بِشَىءٍ، فلا يأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا، فإِنَّما أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّار».

وفى رواية الزُّهْرى عن عروة: «فلَعَلَّ بعضَكُم أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، فأَحْسِبَ أَنَّه صَادِقٌ فأَقْضِى لَه».

قال: «إن الرسول - ﷺ - يجرى أحكامه على الظاهر، وموجبات غلبات الظن، بشهادة الشاهد، ويمين الحالف، ومراعاة الأشبه، ومعرفة العِفاص والوِكاء، مع مقتضى حكمة الله فى ذلك، فإنه تعالى لو شاء لأطلعه على سرائر عباده، ومخبآت ضمائر أمته، فتولّى الحكم بينهم بمجرد يقينه وعلمه، دون حاجة إلى اعتراف أو بَيِّنة، أَوْ يَمين، أو شُبْهَة.

ولكن لما أمر الله أُمّته باتباعه، والإقتداء به فى أفعاله وأحواله وقضاياه

---

(١) الشفا ١٨٥/٢.

وسيره.. وكان هذا - لو كان - مما يختص بعلمه، ويؤثره الله به، لم يكن للأمة سبيل إلى الاقتداء به فى شىء من ذلك، ولا قامت حجة بقضية من قضاياه، لأحدٍ فى شريعته. لأنا لا نعلم ما أطلع عليه هو فى تلك القضية بحكمه هَوْ إذًا فى ذلك، بالمكنون من إعلام الله له، بما أطلعه عليه من سرائرهم وهذا ما لا تعلمه الأمة.

«فأجرى الله تعالى أحكامه على ظواهرهم، التى يستوى فى ذلك هو وغيره من البشر، ليُتّم اقتداء أمته به، فى تعيين قضاياه، وتنزيل أحكامه، ويأتون ما أتوا من ذلك من علم ويقين فى سُنّته.

إذْ البيان بالفعل أوقع منه بالقول، وكان حكمه على الظاهر أجلى فى البيان، وأوضح فى وجوه الأحكام، وأكثر فائدة لموجبات التشاجر والخصام، وليقتدى بذلك كلّه حُكّام أمته، وينضبط قانون شريعته، وطىّ ذلك عنه من علم الغيب الذى استأثر به عَالِمُ الغيب، فلا يُظهر على غيبه أحدًا إلاّ من ارتضى من رسول، فيُعْلِمُهُ منه بما شاء، ويستأثر بما شاء، ولا يقدحُ هذا فى نُبُوّته، ولا يفصم عُرْوةً من عِصمتِه.

٤

* وأما أقواله الدنيوية(١)، أى التى لا تتصل بشرع أو حكم دينى، أى أقواله العادية مع الناس، من أخباره عن أحواله، وأحوال غيره، فالخلاف فيها ممتنع عليه فى كل حال، وعلى أى وجه من عَمد أو سهو، أو صحة، أو مرض، أو رضى أو غضب. لأنه - ﷺ - معصوم منه.

وهذا - كما يقول القاضى عياض - فيما طريقه الخبر المحض، مما يدخله الصدق والكذب.

من هذه الأقوال الدنيوية.. توْرِيته عن وجه مَغَازيه لِئَلَّا يأخُذ العدو حَذَره. وما روى من ممازحته ودُعابته لبَسْط أمته، وتطييب قلوب المؤمنين من صحابته، وتأكيدا فى تحببهم، ومسرّة نُفُوسِهِم.

---

(١) الشفا ١٨٧/٢.

كقوله: «لأَحْمِلَنَّك عَلَى ابنِ الناقة».

وقوله للمرأة التى سألته عن زوجها: «أَهُوَ الَّذِى بِعَيْنِهِ بَيَاضٌ».

وهذا كله - كما يذكر القاضى عياض - صدق، لأن كل جمل ابن ناقة، وكل إنسان بعينه بياضٌ وقد قال - ﷺ: «إِنِّى لأَمْزَحُ وَلاَ أَقُولُ إِلاَّ حقًّا».

وهذا كله فيما بابه الخبر.

* فأما ما بابه غير الخبر، مما صُورَتُهُ صورة الأمر والنهى، فى الأمور الدنيوية، فلا يصح منه أيضا، ولا يجوز عليه أن يأمر أحدًا بشىء، أو ينهى أحدًا عن شىء وهو يبطن خلافه.

وقد قال ﷺ: «مَا كَانَ لِنَبِىّ أَنْ تكون لَهُ خَائِنَةُ الأَعْيُن».

فكيف أن تكون له خائنة قلب؟

وهنا يشير القاضى عياض إلى ما ورد حول قصة زيد بن حارثة، وزينب بنت جحش، التى وردت الإشارة إليها، فى قوله تعالى:

﴿وإذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ الله عَلَيه وأَنْعَمْتَ عَلَيْه أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ الله، وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ ما الله مُبْدِيهِ، وتَخْشَى النَّاسَ والله أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَى لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا، وكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُولا﴾

[الأحزاب ٣٧]

فقد أخطأ بعض المفسرين فى تفسيرها، وقال: إن معناها أن النبى - ﷺ - لما رأى زينب أعجبته، وتمنى أن يطلقها زيد، وأخفى فى نفسه هذه الأمنية، وأنه كان يأمر زيدًا بإمساكها مجاملة. ولو كان هذا صحيحا، لكان فيه أعظم الحرج، وما لا يليق به من مدّ عينيه لما نهى عنه من زهرة الحياة الدنيا، ولكان هذا نفس الحسد المذموم، الذى لا يرضاه، ولا يتسم به الأتقياء.. فكيف سيد الأنبياء؟

قال القشيرى: وهذا إقدام عظيم من قائله، وقلّة معرفة بحق النبى - ﷺ - وبفضله، وكيف يقال: رآها فأعجبته، وهى بنت عمّته، ولم يزل يراها منذ ولدت، ولا كان النساء يحتجبن منه - ﷺ - وهو زَوَّجها لزيد؟

«وإنما جعل الله طلاق زيد لها، وتزويج النبى إيَّاها، لإزالة حُرْمة التبنىِّ وإبطال سُنّته، كما قال تعالى:

﴿ما كَانَ محمدٌ أَبَا أحدٍ من رِجَالِكُم وَلكِنْ رَسُولَ الله وخاتَمَ النَّبِيين﴾ [الأحزاب ٤٠]

وقال: ﴿لكَيْلَا يكُونَ على المُؤمِنِينَ حَرَجٌ فى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِم﴾ [الأحزاب ٣٧].

قال القاضى عياض[1]:

«فإن قيل: فما الفائدة فى أمر النبى ﷺ لزيد بإمساكها؟.

فهو أن الله أعلم نبيه أنها زوجتُه، فنهاه النبى ﷺ عن طلاقها، إذْ لم تكن بينهما أُلفة، وأخفى فى نفسه ما أعلمه الله به.

فلما طلّقها زيدٌ خشى (النبى) قول الناس، يتزوّج إمرأةَ ابنه، فأمره الله بزواجها ليباح مثل ذلك لأمته.

والحقيقة، أن النبى ﷺ لو أرادها لاصطفاها لنفسه قبل زيد، ولفرحت زينب بذلك، بما لا مزيد عليه، خصوصا وأنها ما تزوجت بزيد إلّا طاعة لأمر رسول الله ﷺ.

والحق أيضا: أن الله تعالى كان قد أعلم نَبِيّه، أن زينب ستكون من أزواجه بعد زيد، لحكمة تشريعية، أشارت إليها الآية السابقة، وكان زيد يشكو كثيرا إلى رسول الله ﷺ عدم استقراره، وارتياحه للزواج بها، وذلك لوجود فوارق عديدة بينهما، تجعل الائتلاف والانسجام بعيدا، فكان كلما شكاها إلى رسول الله

---

(١) الشفا ١٨٨/٢.

ﷺ يقول له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتَّقِ الله﴾ وأخفى منه فى نفسه ما أعلمه الله به من أنه سيتزوجها، مما الله مبديه ومظهره بتمام التزويج وطلاق زيد لها.

فهذا منه - ﷺ - تمام الأدب والذوق، وكمال الإحساس فى مراعاة شعور الآخرين، مع أنه لو قال له: إن الله أخبرنى بأن زينب ستكون زوجة لى بعدك، لما كان عليه فى ذلك حرج، ولذا فإن الله هنا يمتدح فيه هذه المنقبة، ويثنى على موقفه هذا.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وتُخْفِى فِى نَفْسِكَ ما الله مُبْدِيه﴾.

● ويؤيد هذا ما جاء عن الزهرى قال: «نزل جبريل على النبى ﷺ يُعلمه أن الله يزوجه زينب بنت جحش، فذلك الذى أخفى فى نفسه».

ويصحح هذا قول المفسرين، فى قوله تعالى بعد هذا ﴿وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُولاً﴾ أى لا بد لك أن تتزوجها، ويوضح هذا أن الله لم يبد من أمره معها غير زواجه لها. فدَلَّ عَلَىَ أنه الذى أخفاه ﷺ مما كان أعلمه به تعالى.

والحكمة فى زواجه بها، فهو كما ذكر سابقا - لإزالة حرمة التبنِّى، وإبطال سنته، لأن النبى ﷺ كان قد تبنَّى زيدًا، حتى صار يدعى زيد بن محمد، وقد أبطل الله تعالى هذه العادة بقوله: ﴿مَا كَانَ محمدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُم﴾، وأبطلها عمليا بأمره ﷺ بالتزوج بها.

أما قوله تعالى: ﴿وتَخْشَى النَّاسَ والله أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاه﴾.

فالمعنى: أن الخشية هنا معناها الإستحياء وليس الخوف. أى يَسْتَحِى منهم أن يقولوا تزّوج زوجة ابنه، وأن خشيته ﷺ من الناس، كانت من إرجاف المنافقين واليهود، وتشغيبهم على المسلمين بقولهم: تزوج زوجة ابنه، بعد نهيه عن نكاح حلائل الأبناء كما كان، فَعَتَبه الله على هذا ونزَّهه عن الإلتفات إليهم فيما أحله له، كما عاتبه الله على مراعاة رِضَى أزواجه فى سورة التحريم، بقوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لك﴾ الآية.

كذلك قوله له ههنا ﴿وتَخْشَى النَّاسَ والله أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاه﴾

وقد روى عن الحسن وعائشة: «لو كتم رسول الله ﷺ شيئا، لكتم هذه الآية لما فيها من عتبه، وإبداء ما أخفاه[1].

٥

وينتقل القاضى عياض - بعد ذلك - إلى أمر هام، وقضية خطيرة.

هل يمكن للرسول ﷺ - بحكم بشريته وبحكم أحواله الدنيوية أن يلعن أحدًا أو يسبّه[1]..

وإلا فما معنى قوله ﷺ، فيما رواه أبو هريرة - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللّهمّ إنّما محمدٌ بَشَرٌ، يَغْضَبُ كما يغضبُ البَشَرُ، وإنّى قَدْ اتخذتُ عِنْدَكَ عَهْدًا لَنْ تُخْلِفَنيه، فأيّما مُؤْمنٍ آذيتُه، أو سَبَبْتُه، أو جَلَدْتَهُ، فاجْعَلْها له كَفَّارةً وقُرْبَةً تُقَرِّبُهُ بِها إلَيْكَ يَوْمَ القيامة».

وفى رواية: «فأيما أَحدٍ دَعَوتُ عَلَيْه دَعْوةً».

وفى رواية: لَيْسَ لَهَا بأهلٍ».

وفى رواية: «فأيما رَجُلٍ من المُسْلِمين سَبَبْتُه أَوْ لَعَنْتُه أَوجَلَدْتُه، فاجْعَلْها لَهُ زَكَاةً وصلاةً ورحمة».

قال القاضى عياض: وكيف يصح أن يلعن النبى ﷺ من لا يستحق اللّعن، ويسبَّ من لا يستحق السب، ويجلد من لا يستحق الجَلْد، أو يفعل مثل ذلك عِندَ الغضب، وهو معصوم من هذا كله؟

«اعلم، شرح الله صدرك، أن قوله ﷺ أولا: «لَيْسَ لها بأَهْلٍ» أى عندك يارب فى باطن أمره، فإن حُكْمَهُ ﷺ عَلَى الظاهر، كما قال، وللحكمة التى ذكرناها - فحَكَمَ ﷺ بجَلْدِهِ أو أدّبه بسبِّه، أو لعنه بما اقتضاه عنده حالُ ظاهره، ثم دعا له ﷺ لشَفَقَتِهِ على أمّته، ورأفته ورحمته للمؤمنين، التى وصفه الله بها، وحَذَرِه أن يَتَقَبّل الله فيمن دعا عليه دعوته، أن يجعل دعاءه وفعله له رحمة، وهو معنى قوله ﴿لَيْسَ لها بأهل﴾..

(١) الشفا ٢/١٩١.

(١) الشفا ٢/١٩٥.

لا أنه ﷺ يحمِلُه الغضب، ويَسْتَفِزُّه الضَّجر، لأن يفعل مثل هذا بمن لا يستحقه من مسلم. وهذا معنى صحيح، ولا يفهم من قوله «أغْضَبُ كَمَا يغضَبُ البَشَرُ» أن الغضب حَمَلَهُ على ما لا يجب، بل يجوز أن يكون المراد بهذا أن الغضب لله حمله على معاقبته. هذا عن أقواله ﷺ.

٦

* أما أفعاله ﷺ الدنيوية(١)، فحكمُهُ فيها مِنْ تَوَقِّي المعاصى والمكروهات، مع جواز السهو والغلط فى بعضها، وكله غير قادحٍ فى النبوة.

قال القاضى عياض: «بل إن هذا فيها على الندور، إذ عامة أفعاله على السداد والصواب، وكلها جارية مجرى العبادات».

إذ كان ﷺ لا يأخذ منها لِنَفْسِه إلّا ضرورته، وما يُقيم رَمَقَ جسمه، وفيه مصلحة ذاته، التى بها يعبد ربّه، ويقيم شريعته، ويسوس أمته. وما كان فيما بينه وبين الناس من ذلك فَبَيْنَ معروف يصنعه، أو بِرٍّ يُوَسِّعُهُ. أو كلام حسن يقوله أو يسمعه، أو تألف شارد، أو قهر معاند، أو مداراة حاسد..

وكل هذا لاحقٌ بصالح أعماله، منتظم فى زاكى وظائف عباداته.

* ويذكر القاضى عياض، أن النبى ﷺ ، كان فى أفعاله الدنيوية، يتصرّف بحسب اختلاف الأحوال، ويعد للأمور بما يناسبها ويتفق معها:

«فكان يركبُ فى تصرّفه لما قَرُبَ الحمار، وفى أسفاره الراحلة، ويركب البغلة فى معارك الحرب، دليلا على الثبات، ويركب الخيل ويُعُدُّها ليوم الفزع، وإجابة الصارخ».

«وكذلك فى لباسه وسائر أحواله بحسب اعتبار مصالحه ومصالح أُمّته».
«وكذلك يفعل الفعل من أمور الدنيا مساعدة لأمته، وسياسةً، وكراهيةً لخلافها.»

---

(٢) الشفا ١٩٩/٢.

وقد يفعل هذا فى الأمور الدينية، مما له الخيرةُ فى أحد وجهيه: كخروجه من المدينة لأُحُد، وكان مذهبه التحصن بها، وتركه قتل المنافقين، وهو على يقين من أمرهم، مؤالفة لغيرهم، ورعايةً للمؤمنين من قرابتهم، وكراهة لأن يقول الناس.. إن محمدًا يقتل أصحابه، كما جاء فى الحديث. وتركه بناء الكعبة على قواعد إبراهيم مراعاة لقلوب قُريش، وتعظيمهم لتَغَيُّرها وحذرًا من نفار قلوبهم لذلك، وتحريك متقدِّم عداوتهم للدين وأهله، فقال لعائشة – فى الحديث الصحيح. «لَوْلَا حِدْثَانُ قَوْمِكِ بالكفر لأَتْمَمْتُ البيتَ عَلىَ قواعِدِ إبراهيم».

«ويفعل الفعل ثم يتركه لكون غيره خيرًا منه، كانتقاله من أدنى مياه بدر إلى أقربها للعدو من قريش».

وكقوله: «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سُقْتُ الهدى».

ويبسط وجهه للكافر والعدو رجاء استئلافه، ويَصْبِر للجاهل، ويقول: «إنَّ مِنْ شرّ الناسِ مَنْ اتّقاه الناس لشرِّه». ويبذل له الرغائب ليحبب إليه شريعته ودين ربه.

ويتولى فى منزله ما يتولى الخادم فى مهنته.

«ويتحدث مع جلسائه بحديث أوَّلهم، ويتعجّب مما يتعجَّبون منه، ويَضْحك ممّا يضحكون منه، وقد وَسِعَ الناسَ بِشرُه وعدله، لا يستفزه الغضب، ولا يُقَصِّر عن الحق، ولا يُبطن على جلسائه، يقول: «ما كَانَ لنبيٍّ أن تكون له خائنة الأعين».

ولكن هذا لا يمنع أن يقول رأيه صريحا فى شىء أو شخص..

من ذلك قوله لعائشة – رضى الله عنها – فى الداخل عليه: «بِئْسَ ابنُ العَشِيرة»، فلما دَخَلَ ألَانَ له القول، وضحك معه، فلما خرج سألته عن ذلك، قال: «إنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْ اتّقَاه الناسُ لِشَرِّه».

وكيف جاز أن يظهر له خلاف ما يبطن، ويقول فى ظهره ما قال:

أجاب القاضى عياض: «إن فعله ﷺ كان استئلافا لمثله، وتطييبا لنفسه، ليتمكن إيمانُه، ويدخلَ فى الإسلام بِسَبِبِه أتْبَاعُه، ويراه مثله فينجذب بذلك إلى الإسلام، ومثل هذا على هذا الوجه قد خرج من حدّ مداراة الدنيا إلى السياسة

الدينية، وقد كان يستألفهم بأموال الله العريضة، فكيف بالكلمة اللينة؟[1]

فقوله فيه «بِئْسَ ابن العشيرة» هو غير غيبة، بل هو تعريف ما عَلِمَهُ منه لِمَنْ لَمْ يعلم، ليحذر حاله، ويحترز منه، ولا يوثق بجانبه كل الثقة، لاسيا وكان مُطاعا متبوعا. ومثل هذا إذا كان لضرورة، ودَفْع مضرَّة، لم يكن بغيبة، بل كان جائزا بل واجبا فى بعض الأحيان. كعادة المحدِّثين فى تجريح الرواة، والمزكِّين فى الشهود.

٧

ويختم القاضى عياض هذا الباب، الذى يتصل بالأمور الدنيوية من سيرة المصطفى ﷺ بالحديث عن الحكمة فى إجراء الأمراض وشدتها عليه ﷺ وما الوجه فى ابتلاء الله به من البلاء، وامتحانه بما امتحن به. فيقول:[1].

«فاعلم – وفقنا الله وإياك – أن أفعال الله تعالى كلها عدل، وكلماته جميعها صدق، لا مبدِّل لكلماته. يبتلى عباده، كما قال لهم – ﴿لِنَنْظُر كيف تَعْمَلُون﴾ ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحسَنُ عَمَـلاً﴾ ﴿وليَعْلَم اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُـوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُم شُهَدَآءَ﴾ ﴿ولَمَّا يَعْلم اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُم وَيَعْلَمَ الصابرين﴾.

«فامتحانه إياه بضروب المحن، زيادة فى مكانته، ورفعة فى درجاته، وأسباب لاستخراج حالات الصبر والرضى، والشكر والتسليم، والتوكل والتفويض، والدعاء والتضرع منه. وتأكيد لبصائره فى رحمة الممتَحَنِين، والشفقة على المُبْتَلِين، وتذكرة لغيره، وموعظة لسواه، ليتأسوا فى البلاء به، ويتسلوا فى المحن بما جرى عليه، ويقتدوا به فى الصبر، ومحوٌ لهنات فَرَطت منهم، أو غَفَلات سَلَفت لهم، لِيَلْقَوْا الله طيبِّين مهذَّبين، وليكون أَجْرُهُم أكمل، وثوابُهم أوفر وأجزل.

روى مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: قلت يا رسول الله أىّ الناس أَشَدُّ بلاءً؟

لأقال: «الأنبياءُ ثم الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرجلُ على حَسَب دينه، فما يَبْرَحُ البلاءُ بالعَبدِ حتى يتركه يمشى على الأرضِ وما عليه خطيئة».

---

(١) الشفا ٢/٢٠١.

(١) الشفا ٢/٢٠٤.

وعن أبي هريرة: «ما يزال البلاءُ بالمؤمن فى نفْسِهِ وَوَلِدِه، وَمَالِهِ حتى يَلْقى الله وما عَلَيْه خطيئة».

وعن أنس، عنه ﷺ. «إذَا أرادَ الله بعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّل له العقوبة فى الدُّنْيا، وإذا أراد الله بعبدٍ الشرَّ أَمْسَك عنه بذَنْبِه حتّى يَوَافى به يوم القيامة».

وفى حديث آخر: «إذا أحبَّ الله عبدًا ابْتَلاه ليسْمَعَ تَضَرُّعَه».

وحكى السمرقندى: أن كل من كان أكرم على الله تعالى، كان بلاؤه أشد، كى يتبينّ فَضْلُه، ويَسْتَوْجِبَ الثواب.

قال القاضى عياض: وهذه فائدة شدة المرض والوجع بالنبى ﷺ قالت عائشة: «ما رأيت الوجع على أحد أشد مُنه على رسول الله ﷺ».

وعن عبد الله: رأيت النبى ﷺ فى مرضه يوعَك وَعْكًا شديدًا، فقلت: إنك لتوعَكُ وعكا شديدًا، قال: أجل إنىُّ أُوعَكُ كما يُوعَك رجلان منكُم» قلت: ذلك أن لك الأجر مرتين، قال: أجل ذَلِك كذلك.

وفى حديث أبى سعيد، أن رجلا وضع يده على النبى ﷺ فقال: والله ما أُطيق أن أضع يدى عليك من شِدة حُمّاك. فقال النبى ﷺ: «إنا معشرَ الأنبياء يُضاعف لنا البلاء» إن كان النبى ليُبْتلى بالقَمل حتى يقتله، وإن كان النبى ليبتلى بالفقر، وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما يفرحون بالرخاء.

وقد قال المفسرون فى قوله تعالى ﴿مَنْ يَعْمَل سُوءًا يُجْزَ به﴾ أن المسلم يجزى بمصائب الدنيا، فتكون له كفّارة.

قال القاضى عياض: «وحكمة أخرى أودعها الله فى الأمراض لأجسامهم (أى الانبياء) وتعاقب الأوجاع وشدتها عند مماتِهم لتضعف قُوَى نفوسهم فيسهل خروجها عند قبضهم وتخف عليهم مَؤْنة النزع. وشدة السكرات بتقدم المرض، وضعف الجسم والنفس لذلك».

الباب الرابع

موقف الشريعة من العداوة للرسول

الفصل الأول : الحكم الشرعى فيمن سَبَّ أو نَقَّص حق الرسول

الفصل الثانى : موقف المذاهب الفقهية من سابِّ الرسول وشانئه

الفصل الثالث : موقف الشريعة ممن سَبَّ الله تعالى وملائكته وكتبه وآل النبى وأزواجه وصحبه

موقف الشريعة من العداوة للرسول

تمهيـــد

هذا هو الباب الرابع والأخير من سيرة المصطفى ﷺ، وهو باب فقهى خالص، خصصه القاضى عياض للكلام فى تصرّف وجوه الأحكام على من تنقّصه أو سبّه[1] - ﷺ، وجمع فيه آراء فقهاء المذاهب، وأهل الإفتاء فى الأمصار الاسلامية.

- وقد قسم هذا الباب الفقهى إلى قسمين رئيسيين:

أولهما: فى بيان ما هُوَ فى حقّه سبٌّ ونقصٌ، من تعريض أو نص.

والثانى: فى حكم شانئه - أى مبغضه - ومؤذيه، ومنتقصه، وعقوبته فى ذلك، وما يتصل بهذا من أمر استتابته.

وبهذا الباب، تتم أبواب السيرة النبوية، كما يقول: «ويلوح فى غُرّة الإيمان لمعةٌ منيرة، وفى تاج التراجم دُرّة خطيرة، تزيح كل لَبْسٍ، وتوضح كل تخمين وحَدْس، وتشفى صدور قوم مؤمنين، وتصدَعُ بالحق، وتعرِض عن الجاهلين.

وقد قدم القاضى عياض لهذا الباب بمقدمة قصيرة، حدّد فيها إستنادًا إلى الكتاب والسنة، وإجماع الأمة، «موقف الشريعة من العداوة للرسول» - ﷺ، قال:

«قد تقدم فى الكتاب والسنة وإجماع الأمة، ما يجب من الحقوق للنبى - ﷺ - وما يتعين له من برّ وتوقير وتعظيم وإكرام، وبحسب هذا حرّم الله تعالى أذاه فى كتابه، وأجمعت الأمة على قتل متنقصه من المسلمين وسابّه. قال الله تعالى:

---

(١) الشفا ٢/٢١٦.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ ورَسُولَه لَعَنَهُمُ اللهُ فِى الدُّنْيَا والآخِرَة، وَأَعَدَّ لَهُم عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب ٥٧]

وقال عز وجل: ﴿والَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُم عَذَابٌ أَلِيم﴾ [التوبة ٦١]

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لكُمْ أن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِه أَبَدًا، إنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب ٥٣]

وقال تعالى فى تحريم التعريض له: ﴿يـأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وقُولُوا أَنْظُرْنَا واسْمَعُوا﴾ [البقرة ١٠٤]

وذلك أن اليهود - عليهم لعائن الله - كانوا يقولون «رَاعِنا يامحمد» أى أَرْعِنَا سَمْعَك واسمع منا، ويُعَرِضون بالكلمة يريدون الرعونة، فنهى الله المؤمنين عن التشبّه بهم، وقطع الذريعة بنهى المؤمنين عنها، لِئَلًّا يتوصل بها الكافر والمنافق إلى سَبِّه، والاستهزاء به.

وقيل: «بل لما فيها من قلة الأدب لأنها عند اليهود بمعنى «اسْمَعْ لا سَمِعْت»

وقيل: «بل لما فيها من قلّة الأدب، وعدم توقير النبى - ﷺ - وتعظيمه، لأنها فى لغة الأنصار، بمعنى «ارْعَنَا نَرْعَكَ»، فنهوا عن ذلك، إذ مُضَمَّنه أنهم لا يرعونه إلّا برعايته لهم، وهو - ﷺ - واجب الرعاية بكل حال.

وهذا هو ﷺ - قد نهى عن التَّكَنِّى بكُنْيَتِه، فقال: «سَمُّوا باسمى، ولا تُكَنُّوا بكُنيتى» صيانة لنفسه، وحماية عن أذاه. إذ كان ﷺ، استجاب لرجل نادى: «ياأَبَا القَاسِم» فقال: لم أَعْنِكَ، إنما دعوتُ هذا، فنهى حينئذ عن التكنى بكُنيته، لئلًا يتأذى بإجابة دعوة غيره لمن لم يدعه، ويجد بذلك المنافقون والمستهزئون ذريعة إلى أذاه والإزراء به، فينادُونه، فإذا التفت قالوا: إنما أَرَدْنَا هذا لسواه. تعنيتًا له واستخفافا بحقّه، على عادة المجّان والمستهزئين، فحَمَى - ﷺ - حِمى أذاه بكُلّ وجْه.

هذا وقد حمل محققو العلماء نهيه عن التكنِّى بكُنْيَتِه على مدة حياته، وأجازوا التكنى بها بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، لارتفاع العلة وانتهاء السبب، وهذا هو مذهب الجمهور، وللعلماء فى هذا مذاهب كثيرة ليس هذا موضعها.

قال القاضى عياض: «والصواب - إن شاء الله - أن ذلك على طريق تعظيمه وتوقيره، وعلى سبيل الندب والاستحباب لا على التحريم، ولذلك لم يَنْه عن اسمه، لأنه قد كان الله مَنَع من ندائه به، بقوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾

وإنما كان المسلمون يدعونه: «يارسول الله».. «يانبىّ الله» وقد يدعونه بكنيته «أبا القاسم» بعضهم فى بعض الأحوال.

وقد روى أنس - رضى الله عنه - عنه - ﷺ - ما يدل على كَرَاهة التسمِّى باسمه وتنزيهه عن ذلك إذا لم يُوَقَّر، فقال: «تُسَمُّون أَوْلَادَكم محمدًا ثم تَلْعَنُونَهم»

وروى أن عُمر - رضى الله عنه - كتب إلى أهل الكوفة: «لا يُسَمَّى أحدٌ باسم النبى - ﷺ - وحكى محمد بن سعد، أنه نظر إلى رجل اسمه «محمد» ورجلٌ يسبّه، ويقول له: فعل الله بك يامحمد وصَنَع، فقال عُمَرُ لابن أخيه «محمد ابن زيد بن الخطاب» لا أرى محمدًا - ﷺ - يُسَبُّ بك، والله لا تُدعَى محمدًا ما دُمتَ حيًّا، وسماه «عبد الرحمن».

ويرى القاضى عياض، أن هذا الأمر قد انتهى بوفاة النبى - ﷺ - ولا ينبغى التوقف عن التسمية «بمحمد» والدليل على ذلك إطباق الصحابة على ذلك، وقد سمى جماعة منهم ابنه محمدًا وكنّاه بأبى القاسم.

وروى أن النبى - ﷺ، أَذِنَ فى ذلك لعلىّ رضى الله عنه، وقد أخبر - ﷺ أن ذلك اسم المهدى وكُنْيته، وقد سمِّى به النبى - ﷺ - محمد بن طلحة، ومحمد ابن عمرو بن حزم، ومحمد بن ثابت بن قيس، وغير واحد. وقال ﷺ:

«ما ضَرَّ أحدُكُم أن يكون فى بيته محمدٌ ومحمدان وثلاثة»

الفصل الأول

الحكم الشّرْعى فيمن سَبَّ أو نَقَّص حق الرسول

صدّر القاضى عياض هذا الفصل بأن وضع أمامنا الحكم الشرعى فى من سب النبىّ - ﷺ - أو عَابَهُ، أو أَلْحَقَ به نقصًا فى نفسه، أو نسبه، أو دينه، أو خَصْلَة من خصاله، أو عَرَّضَ به، أو شَبَّهه بشىءٍ على طريق السَّب له، أو الإزراء عليه، أو التصغير لشأنه، أو الغض منه، والعيب له..

فهو فى نظر الشريعة الإسلامية سَابٌّ له، والحكم فيه حكم السَّاب وهو القتل[1]

وينطبق هذا الحكم نفسه، على كل من لَعَنَه، أو دَعَا عليه، أو تَمَنَّى مَضَرَّةً له، أونسب إليه ما لا يليق بمنصبه، على طريق الذم، أو عَبِثَ فى جِهَتِهِ العزيزة بسُخف من الكلام، وهجرٍ ومُنْكَرٍ من القول وزورٍ. أو عَيَّره بشىءٍ مما جرى من البلاء والمحنة عليه، أو غَمَصَه (استصغره) ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لَدَيه.

وهذا كله إجماع من العُلَماء وأئمة الفَتْوى من لَدُن الصحابة - رضوان الله عليهم - **إلى أن تقوم الساعة.**

قال أبو بكر بن المنذر: أجمع عوام أهل العلم على أن من سَبَّ النبى - ﷺ - يُقْتَل.

ومن قال ذلك: مالك بن أنس، والليث، وأحمد، وإسحاق، وهو مذهب الشافعى

قال القاضى عياض: وهو مقتضى قول أبى بكر الصديق - رضى الله عنه.

---

(١) الشفا ٢/٢١٤.

ولا تقبل توبته عند هؤلاء. وبمثله قال أبو حنيفة وأصحابه، والثورى، وأهل الكوفة، والأوزاعِىّ. لكنهم قالوا: هى رِدَّة.

وحكى الطبرى مثله عن أبى حنيفة وأصحابه، فيمن تنقّصه - ﷺ - أو بَرِئَ منه أو كَذَّبه. وقال سحنون فيمن سبّه: ذلك رِدَّة كالزندقة.

* وعلى هذا وقع الخلاف فى استتابته وتكفيره، وهل قتله حَدٌّ أو كُفْرٌ؟ أما الذين قال بتكفيره..

فمنهم: محمد بن سحنون، قال: أجمع العلماء أن شاتم النبى - ﷺ - المتنقّص له كافر. والوعيد جار عليه بعذاب الله، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شكَّ فى كفره وعذابه كَفَر.

واحتج إبراهيم بن حسين بن خالد الفقيه - فى مثل هذا، بقتل خالد بن الوليد مالِكَ بن نويرة، لقوله عن النبى - ﷺ - «صَاحِبَكم».

وقال أبو سليمان الخطابى: لا أعلم أحدًا من المسلمين اختلف فى وجوب قتله، إذا كان مسلما.

● وقال ابن القاسم عن مالك: مَنْ سبَّ النبى - ﷺ - من المسلمين قُتل ولم يُسْتَتَبْ. وقال أيضا: من سَبّه، أو شتمه، أو عابه، أو تَنقّصه، فإنه يُقتل، وحكمه عند الأمة القتل كالزنديق.

● وقال عثمان بن كنانة: من شتم النبىَّ - ﷺ - من المسلمين قُتِل، أو صُلِب حَيًّا ولم يُستتب، والإمام مُخَيرٌ فى صَلْبه حيا أو قتله

* وبعد أن جمع القاضى عياض آراء علماء الفقه، ووضعها جنبا إلى جنب. أعقب ذلك بما جاء عن أهل الإفتاء من فتاوى بصدد موضوع السَّب أو التنقّص، فقال:

«وقال بعض علمائنا: أجمع العلماء على أن من دَعَا على نبىٍّ من الأنبياء بالويل، أو بشىء من المكروه أنه يقتل بلا استتابة»

● وأفتى أبو الحسن القابسى - فيمن قال فى النبى - ﷺ - الجمال، يَتِيمُ أبى طالب بالقتل.

● وأفتى أبو محمد بن أبى زيد، بقتل رجل سمع قوما يتذاكرون صفة النبى - ﷺ - إذ مرَّ بهم رجل قبيح الوجه واللحية، فقال لهم: تريدون تعرفون صفته، هى فى صِفَةِ هذا المارِّ فى خلقه ولحيته.

قال: ولا تقبل توبته، وقد كَذَبَ لعنه الله، وليس يخرجُ من قلب سليم الإيمان.

● وأفتى أبو عبدالله بن عتاب فى عَشَّار قال لرجُل أَدِّ واشْكُ إلى النبى - ﷺ - وقال: إن سَأَلْتُ أو جهلتُ فقد جَهَل وسَأَل النبى - بالقتل

● وأفتى فقهاء الأندلس بقتل ابن حاتم المتفقِّه الطُّلَيْطُلى، وصَلْبه، بما شُهد عليه به من استخفافه بحق النبى - ﷺ - وتسميته إياه أثناء مناظرته باليتيم، وخَتَنِ حَيْدَرة وزعمه أن زهده لم يكن قصدًا، ولَوْ قدر على الطيبات أكلها، إلى أشباه هذا[١].

● وأفتى فقهاء القيروان، وأصحاب سحنون، بقتل ابراهيم الفَزَارى، وكان شاعرًا متفننا فى كثير من العلوم، وكان ممن يحضر مجلس القاضى أبى العباس ابن أبى طالب للمناظرة، فرفعت عليه أمورٌ منكرة من هذا الباب، فى الاستهزاء بالله وأنبيائه ونبينا ﷺ - فأُحْضر له القاضى يحيى بن عمر، وغيره من الفقهاء، وأمر بقتله وصَلْبه، فطعن بالسكن وصُلِبَ منكسًا، ثم أنزل وأحرق بالنار. وحكى بعض المؤرخين، أنه لّما رُفعت خشبته وزالَتْ عنها الأيدى استدارت وحولته عن القبلة، فكان آية للجميع، وكبَّر الناس، وجاء كلب فوَلَغَ فى دمه، فقال يحيى بن عمر: صدق رسول الله -ﷺ- وذكر حديثا عنه، أنه قال: «لا يَلَغ الكلْبُ فى دم مسلم».

قال ابن عتاب: الكتابُ والسنة موجبان، أن من قَصَد النبى - ﷺ - بأذى أو نَقْص مُعَرِّضا أو مصرحا - وإن قَلَّ - فقتله واجب.

---

(١) الشفا ٢/٢١٨.

قال القاضى عياض: «فهذا الباب كله مما عدّه العُلماء سبًّا أو تنقُّصًا يجب قتلُ قائله، لم يختلف فى ذلك متقدمهم ولا متأخِّرهم، وإن اختلفوا فى حكم قتله، هل هو حدٌّ أو كُفْر».

* وكذلك أقول: حُكْم من غمصَه أو عَيَّره برعاية الغنم، أو السهو أو النسيان أو السحر، أو ما أصابه من جُرح أو هزيمة لبعض جيوشه، أو أذى من عدوه، أو شدّةٍ من زمنه، أو بالميل إلى نسائه، فحكم هذا كله لمن قَصَدَ به نقصه: القتل

١

* دليل فقهاء الإسلام فى وجوب قتل من سَبَّه أو عابه

أفرد القاضى عياض فصلا فى هذا الجزء من السيرة النبوية، استعرض فيه أدلة فقهاء الإسلام، وحجتهم فى وجوب قتل من سَبَّ الرسول - ﷺ - أو عابه

* ونظرة فاحصة على هذا الفصل، نجد أنه حدَّد أدلّتهم فى : القرآن، والسنة والآثار، والإجماع.

١ - «فمن القرآن.. لعنُهُ تعالى لمؤذيه فى الدنيا والآخرة، وقرانُهُ تعالى أذاه بأذاه، ولا خلاف فى قتل من سبّ الله، وأن اللّعن إنما يستوجبه من هو كافر، وحُكْم الكافر: القتل.

فقال تعالى: ﴿إنَّ الَّذِينَ يُؤْذُون الله ورَسُولَه لَعَنَهُم الله فى الدُّنْيا والآخِرة، وأَعَدَّ لَهُم عَذَابًا مهينًا﴾ [الأحزاب ٥٧]

وقال فى قاتل المؤمن، مثل ذلك، فمن لعنته فى الدنيا القتل، قال الله تعالى:

﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ [الأحزاب ٦١]

وقد يقع القتل بمعنى اللّعن، قال تعالى: ﴿قُتِلَ الخَرَّاصُونَ﴾ و ﴿قَاتَلَهُم الله أَنَّى يُؤْفَكُون﴾ أى لعنهم الله. ولأنه فرق بين أذاهما وأذى المؤمنين، وفى أذى

المؤمنين ما دُون القتل من الضَّرب والنَّكال. فكان حُكْمُ مؤذِى الله ونبيّه أشد من ذلك وهو القتل[1]

● وقال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية

فسَلَب اسم الإيمان عمن وجد فى صدره حَرَجًا من قضائه، ولم يُسَلِّم له، ومن تنقّصه فقد نَاقَض هذا.

● وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ - إلى قوله - أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ ولا يُحْبِطُ العَمَلَ إلاّ الكُفْرُ، والكَافِر يُقتل.

● وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢ - وأما السُّنّة والآثار:

فقد روى الحسين بن علىّ، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَبَّ نَبِيًّا فاقتلوه، ومَنْ سَبَّ أَصْحَابِى فاضْرِبُوه.

وفى الحديث الصحيح: أمر النبى ﷺ بقتل كعب بن الأشرف، وقوله: «مَنْ لكَعْبِ بن الأشرف، فإنه يُؤذِى الله ورسُولَه» ووجَّه إليه من قتله غِيلَةً دُون دعوة بخلاف غيره من المشركين، وعَلَّلَ بأذاه له، فدَلَّ أن قتله إياه لغير الإشراك، بل للأذى.

وكذلك قَتَل أَبَا رافع، قال البراء: وكان يؤذى رسول الله ﷺ ويُعِين عليه. وكذلك أَمْرُه يوم الفتح، بقتل ابن خَطَل وجاريتيه، اللتين كانتا تُغَنِّيان بسَبِّه ﷺ.

وفى حديث آخر: أن رجلًا كان يسبّه ﷺ، فقال: «مَنْ يَكْفِينِى عَدُوِّى؟ فقال خالد أنا، فبعثه النبى ﷺ فقتله.

---

(١) الشفا ٢/٢٢٠.

● وعَهِدَ بقتل جماعة منهم - قبل الفتح وبعده - فقُتِلُوا إلاّ من بادر باسلامه قبل القُدرة عليه.

● وقد روى البزّار عن ابن عباس، أن عقبة بن أبي مُعيط، نادى: يا معشر قريش.. مالى أُقْتَل من بينكم صبرًا؟

فقال له النبى ﷺ: «بكُفْرِك وافْتِرائِك على رسول الله ﷺ.

● وروى أيضا أن امرأة كانت تسبّه ﷺ فقال: «مَنْ يِكفِيني عَدُوَّتى»؟ فخرج إليها خالد بن الوليد فقتلها.

● وبلغ المهاجر بنِ أبي أمية أميرَ اليمن، لأبى بكر - رضى الله عنه - أن امرأة هناكَ فى الردَّة غَنَّت بسَبِّ النبيِ ﷺ فقطع يدها ونزع ثَنِيَّتها، فبلغ أبا بكر ذلك، فقال له: لولا ما فعلت لأمرتُك بقتلها، لأن حدّ الأنبياء ليس يشبه الحدود[1].

● وروى النسائي: أتيت أبا بكرٍ وقد أغلظ لرجل، فردَّ عليه، قال: فقلت يا خليفة رسول الله دعنى أضربُ عُنُقَه، فقال: اجلس فليس ذلك لأحد إلا رسول الله ﷺ.

قال القاضي أبو محمد بن نصر: ولم يُخالف عليه أحد، فاستدل الأئمة بهذا الحديث على قَتْل من أغضب النبى ﷺ بكُلّ ما أغضبه أو آذاه أو سَبّه.

● ولما كان جزاء العائب أو السّاب لرسول الله القتل، فلا يجوز تخفيف هذا الحكم إلى ما هو أدنى من القتل، هذا ما قرره الفقهاء.

«سأل الرشيد مالكا فى رجل شتم النبى ﷺ. وذكر له أن فُقَهَاء العِرَاق أفتوه بجلده، فغضب مالك، وقال: يا أمير المؤمنين ما بقاء الأمة بعد شتم نبيّها؟

من شتم الأنبياء قُتل، ومن شتم أصحاب النبى ﷺ جُلِد.

يوضح القاضى عياض هذا الحكم وما يتعلّق به قائلا:

---

(١) الشفا ٢/٢٢٢.

«كذا وقع فى هذه الحكاية رواها غير واحد من أصحاب مناقب مالك، ومؤلفى أخباره وغيرهم ولا أدرى مَنْ هؤلاء الفقهاء بالعراق، الذين أفتوا الرشيد بما ذُكِر، وقد ذكرنا مذهب العراقيين بقتله، ولعلهم ممّن لم يُشهر بِعِلْمٍ، أو مَنْ لا يُوثق بفتواه، أو يميل به هواه..

أو يكون ما قاله يُحمل على غير السّب، فيكون الخلاف هل هو سَبٌّ أو غير سَبٍّ».

«أو يكون رجع وتاب عن سبّه، فلم يَقْتُلْهُ لمالك على أصله.. وإلاّ فالإجماع على قتل من سبَّه، كما قدمناه».

«ويدل على قتله من جهة النظر والاعتبار، أن من سَبّه، أو تنقّصه ﷺ فقد ظهرت علامة مرض قلبه، وبرهان سرّ طويّته وكُفْره».

ولهذا ما حكم له كثير من العلماء بالرِّدة، وهى رواية الشاميين عن مالك.

والقول الآخر: أنه دليل على الكفر، فيُقْتَل حدًّا، وإن لم يُحكمه بالكُفْر، إلا أن يكون متماديا على قوله، غير منكر له، ولا مُقْلع عنه، فهذا كافر.

٢

ويتوقف القاضى عياض عند بعض المواقف، التى لم يعاقب فيها النبى ﷺ شاتميه أو مبغضيه، أو المخطئين فى حقّه بالقتل، ويحدد الحكمة فى عدم تطبيق حكم الشريعة الرادع فيهم فيقول:(١).

«فإن قُلت: فِلمَ لم يقتلُ النبى ﷺ اليهوديَّ، الذى قال له: السَّام عليكم. وهذا دعاء عليه؟

«ولا قتل الآخر الذى قال له: إن هذه لقسمةٌ ما أُريد بها وجه الله، وقد تأذّى النبىُّ ﷺ من ذلك».

- ولا قتل المنافقين الذين كانوا يؤذونه فى أكثر الأحيان؟»
- ويجيب القاضى عياض على هذا التساؤل قائلا:

(١) الشفا ٢/٢٢٤.

«فاعلم - وفقنا الله وإياك - أن النبى ﷺ كان أول الإسلام يستألِف عليه الناس، ويميلُ قُلوبهم، ويُمَيِّل إليه، ويُحَبِّب إليهم الإيمانَ، ويُزَيِّنُهُ فى قُلوبِهم، ويُدَارِيُهُم، ويقول لأصحابه: إنما بُعِثْتُم مُيَسِّرين ولم تُبْعَثُوا مُنَفِّرين، ويقول: «يَسِّرُوا ولا تُعَسِّروا، وسَكِّنُوا ولا تُنَفِّروا».

ويقول: لا يتحدَّثُ الناسُ أَنَّ محمدًا يقتل أصحابَه».

«وكان ﷺ يُدارِى الكفار والمنافقين، ويُجْمل صُحْبَتَهم، ويُغْضِى عنهم، ويحتمل من أَذَاهُم. ويَصْبر على جفائهم ما لا يجوز لنا اليوم الصبر لهم عليه، وكان يُرفِقُهم بالعطاء والإحسان.

وكان ﷺ يفعل ذلك إمتثالا لأمر الله، وتحقيقا لإرادته، وهو الرؤوف الرحيم، والمطَّلع على هفوات عباده وهناتهم، وفى ذلك يقول الحق سبحانه لرسوله:

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَة مِنْهُمُ إلاّ قليلاً مِنْهُم، فاعْفُ عَنْهُم، واصْفَحْ إِنَّ الله يُحِبُّ المُحْسِنِين﴾

ويقول عز شأنه:

﴿ادْفَعْ بالَّتِى هِىَ أَحْسنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبينَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

وذلك لحاجة الناس للتألّف أول الإسلام، وجمع الكلمة عليه.

«فلما استقرّ وأظهره الله على الدين كُلِّه، قَتَل من قدرَ عليه، واشتهر أمره، كفعله بابن خَطَل، ومن عهد بقتله يوم الفتح، ومن أمكنه قَتْلُهُ غيلَة من يهودَ وغيرهم، أو غلبة ممن لم ينظمه قبلُ سِلْكَ صحبته، والانخراطَ فى جُملة مظهرى الإسلام... والإيمان به، ممن كان يؤذيه كابن الأشرف، وأبى رافع، والنضر، وعقبة. وكذلك ندر دم جماعة سواهم ككعب بن زهير، وابن الزِّبَعْرَى وغيرهما، ممن آذاه، حتى ألقوا بأيديهم ولقوه مسلمين».

● ويواصل القاضى عياض حديثه عن الموقف مع المنافقين، الذين يبطنون غير ما يُظهرون، والذين يبدون غير ما يكتمون، فيقول:

«وبواطن المنافقين مستترة، وحكمُهُ ﷺ على الظاهر، وأكثر تلك الكلمات إنما كان يقولها القائل منهم خُفية ومع أمثاله، ويحلفون عليه إذا نُمِيَتْ، وينكرونها،

ويحلفون بالله ما قالوا، ولقد قالوا كلمة الكفر»..

«وكان مع هذا يطمع فى فَيْأتِهم، ورجوعهم إلى الإسلام، وتوبتهم، فيصبرُ ﷺ على هَنَاتِهم وجفوتهم، كما صَبَرَ أولو العزمِ من الرُّسُل، حتى فاء كثيرٌ منهم باطنا كما فاء ظَاهرًا، وأخلصَ سرًا كما أظهر جهرًا، ونفع الله بعدُ بكثيرٍ منهم، وقام منهم للدين وزراءٌ وأعوانٌ وحماةٌ وأنصار، كما جاءت به الأخبار».

- وبهذا أجاب كثير من الأئمة، عن هذا السؤال، قالوا: ولعله لم يثبت عنده ﷺ من أقوالهم ما رُفع، وإنما نقله الواحِدُ، ومَنْ لم يصل رتبة الشهادة فى هذا الباب، من صبى أو عبد أو امرأة، والدماء لا تُسْتَبَاح إلاّ بَعدْلين، وعلى هذا يحمل أمر اليهودى فى السلام، وأنهم لوَّوْا به ألسنتهم ولم يبيّنوه[1].

ومعروف أن النبى ﷺ صبر لليهود على سحرهم وسَمِّهم، وهو أعظم من سَبِّهم، إلى أن نصره الله عليهم، وأذن له فى قتل من حيَّنه منهم، وإنزالهم من حصونهم، وقذف فى قلوبهم الرعب، وكتب على من شاء منهم الجلاء، وأخرجهم من ديارهم، وخَرَّب بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين، وكاشفهم بالسَّب، فقال: «يا إخوة القِرَدة والخنازير»، وحكَّم فيهم سيوف المسلمين، وأجلاهم من جِوَارِهم. وأورثهم أرضَهم وديارهم وأموالهم، لتكون كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السُّفْلى.

ثم يفترض القاضى عياض اعتراضا قد يوجّه.. فيقول:

«فإن قال قائل: كيف ذلك، وقد جاء فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها، أنه ﷺ.

«ما انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ فى شَىْءٍ يُؤْتَى إلَيهِ قَط إلاّ أنْ تُنْتَهَك حُرْمَةُ الله فَيَنْتَقِمُ لله».

قال: إن هذا لا يقتضى أنه لم ينتقم ممن سَبَّه أو آذاه أو كذبه، فإن هذه من حرمات الله التى انتقم لها، وإنما يكون ما لا ينتقم منه له فيما تعلّق بسوء أدب أو معاملة من القول والفعل، بالنفس والمال، مما لم يقصد فاعله به أذاه.. لكن مما جُبِلت عليه الأعراب من الجفاء والجهل، أو جُبل عليه البشر من السَّفَه..

(١) الشفا ٢/٢٢٦.

كجَبْذِ الأعرابى إزاره حتى أثر فى عنقه، وكرفع صوت الآخر عنده، وكجحد الأعرابى شراءه منه فرسه، التى شهد فيها خزيمة.. وأشباه هذا مما يحسُن الصفح عنه.

وقد قال بعض العلماء: إن أذى النبى ﷺ حرامٌ، لا يجوز بفعل مَباح ولا غيره. وأما غيره، فيجوز بفعل مباح مما يجوز للإنسان فعله، وإن تأذى به غيره.

٣

بعد إذ انتهى القاضى عياض من توضيح حيثيات ومدلولات الحكم فى وجوب قتل القاصد المتعمد لسَبِّ الرسول ﷺ أو غَمْصه بأى وجه كان.. أوجز الحكم بقوله:

«إن هذا وجه واضح صريح لا إشكال فيه، وحكمه ظاهر، إستنادًا إلى الكتاب والسنة والآثار والإجماع، وهو القتل على الكفر، ولا يستتاب.

بيد أنه عاود الحديث، عن حكم الشريعة فيمن كان غير قاصد للسَّب والإزراء ولا معتقد له[1]، ولكنه تكلَّم فى جهته ﷺ بكلمة الكفر، من لعنه أو تكذيبه، أو إضافة ما لا يجوز عليه، أو نفى ما يجب له، مما هو فى حقه نقيصة، مثل:

● أن ينسب إليه إتيان كبيرة، أو مداهنة فى تبليغ الرسالة، أو فى حُكم بين الناس..

● أو يغضّ من مرتبته، أو شرف نسبه، أو وفور علمه، أو زهده.

● أو يكذِّب بما اشتهر من أمور أخبر بها ﷺ وتواتر الخبر بها، عن قصدٍ لردّ خبره.

● أو يأتى بسَفَهٍ من القول، أو قبيح من الكلام، ونوع من السبِّ فى جهته.

● يقول القاضى عياض: فحكم هذا الوجه حكم الوجه الأول: القتل،

---

(١) الشفا ٢/٢٣١.

دون تلعثم، إذ لا يُعذر أحد فى الكفر بالجهالة، ولا بدعوى زلل اللسان، ولا بشىء مما ذكرناه.

أما أن يقصد تكذيبه ﷺ، فهذا كافر بإجماع، ويجب قتله، ثم يُنْظر:

● فإن كان مُصَرِّحا بذلك، كان حكمه أشبه بحكم المرتد، وقوى الخلاف فى استتابته.

● وإن كان مستترًا بذلك. فحكمه حكم الزنديق، لا تُسْقِط قتله التوبة عند المالكية والحنفية.

● قال أبو حنيفة وأصحابه: «مَنْ بَرِئَ من محمدٍ، أو كَذَّبَ به فهو مرتد حلال الدم، إلاّ أن يرجع.

● وقال ابن القاسم: إذا قال إن محمدًا ليس بنبىّ، أو لم يُرْسَل، أو لم يُنَزَّل عليه قرآن، وإنما هو شىء تقوَّله: يُقتل.

وقال: ومن كَفَر برسول الله ﷺ وأنكره من المسلمين، فهو بمنزلة المرتد. وكذلك من أعلن بتكذيبه أنه كالمرتد يستتاب.

وكذلك قال، فيمن تَنَبَّأ وزعم أنه يوحى إليه.. ودَعَا إلى ذلك سرًّا أو جهرًا.

وأيضا إذا قال: بَعْدَ نبيكُم نَبِىّ، أنه يُسْتَتَاب إنْ كان معلنا بذلك، فإن تاب وإلاّ قُتل. وذلك لأنه مكذب للنبى ﷺ فى قوله: «لَا نَبِىَّ بعدى»، مُفْتَرٍ على الله فى دعواه عليه الرسالة والنبوّة.

وقال محمد بن سحنون: مَنْ شَكَّ فى حرفٍ مما جاء به محمد ﷺ، فهو كافرٌ جَاحِدٌ.

٤

والوجه الرابع - كما يقول القاضى عياضٍ - أن يأتى السَّابُّ للنبى ﷺ من الكلام بمجمل لا يفهم، ويلفظ من القول بمُشْكِلٍ يمكن حمله على النبى ﷺ أو غيره[1]. أى أن يأتى بعبارات غير واضحة، وبألفاظ غير محددة، لا يسهل

---

(١) الشفا ٢/٣٣٤.

معرفة هل المقصود بها النبى أو غيره.

قال:

فههنا متردَّد النظر، وحيرةُ العِبَر، ومظنة اختلاف المجتهدين:

أى يتردد الفقهاء فى الحكم عليه ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَيَحْيَا مَنْ حَىَ عَنْ بَيِّنَة﴾.

وهذا الشخص وأمثاله، وقف منه أهل الفتوى مواقف متفاوتة:

● فمنهم - من غلّب حرمة النبى، وحَمَى حِمَى عِرْضِه، فجسر على الحكم بالقتل.

● ومنهم - من عظّم حُرْمَة الدم، ودَرَأَ الحَدَّ بالشُّبْهة، لإحتمال القول.

● ويضرب القاضى عياض لذلك الأمثلة التى توضح اختلاف الفقهاء فى إصدار الحكم على هذا وأمثاله.. من ذلك.

- اختلاف الأئمة فى رجل أغضبه غريمه، فقال له: صَلِّ على محمد ﷺ فقال له الطالب: لا صَلَّى الله على من صَلَّى عليه.

فقيل لسُحْنُون: هل هو كمن شتم النبى ﷺ أو شَتَم الملائكة الذين يصلّون عليه؟

قال: لا، إذا كان على ما وصفت من الغضب، لأنه لم يكن مضمرًا الشّتم.

وقال أبو اسحق البرقى: لا يُقْتَل، لأنه إنما شتم الناس، وهذا نحو قول سُحْنُون، لأنه لم يعذره بالغضب فى شتم النبى ﷺ

«ولكنه لما احتمل الكلام عنده، ولم تكن معه قرينة تدل على شتم النبى ﷺ، أو شتم الملائكة - صلوات الله عليهم - ولا مقدمة يحْمَل عليها كلامَه، بل القرينة تدل على أن مراده الناس، غيرُ هؤلاء لأجل قول الآخر له: صَلِّ على النبىّ، فحُمِل قوله وشبَّه لمن يُصَلِّى عليه الآن، لأجل أمر الآخر له بهذا عند غضبه. هذا معنى قول سُحنون.

وذهب الحارث بن مسكين القاضى، وغيره، فى مثل هذا إلى الحكم بالقتل.

وتوقف أبو الحسن القابسى فى قتل رجل، قال: كل صاحب فندق قَرْنَان ولو كان نبيًّا مرسلا، فأمر بشده بالقيود، والتضييق عليه حتى يُسْتَفْهم البيّنة عن

جُملة ألفاظه، وما يدل على مقصده، هل أراد أصحاب الفنادق الآن ؟.. فمعلوم أنه ليس فيهم نبى مرسل، فيكون أمره أخف.

قال: ولكن ظاهر لفظه العموم لكل صاحب فندق من المتقدمين والمتأخرين، وقد كان فيمن تقدم من الأنبياء والرسل من اكتسب المال.

قال: ودمّ المسلم لا يُقْدم عليه إلا بأمرٍ بيّن، وما تُردُّ إليه التأويلات لابد من إمعان النظر فيه.

٥

ثم ينتقل القاضى عياض إلى وجه خامس - ليذكر حكم الشريعة فيمن «لا يقصد نقصا، ولا يذكر عيبا فى النبى - ﷺ - ولا سَبًّا، لكنه ينزع بذكر بعض أوصافه، أو يستشهد ببعض أحواله الجائزة عليه فى الدنيا[1]. على طريق ضرب المثل والحُجّة لنفسه، أو لغيره، أو على التشبّه به، أو عند هضيمةٍ (أى مظلمة) لحقته، أو غضاضه (أى ذلة ومنقصة) لحقته، ليس على طريق التأسى، وطريق التحقيق، بل على مقصد الترفيع لنفسه، أو لغيره، أو على سبيل التمثيل، وعدم التوقير للنبى - ﷺ، أو قصد الهزل والتنذير بقوله.

كقول القائل: «إن قيل فِيَّ السُّوء فقد قيل فى النبى».

أو «إنْ كُذِّبْتُ فقد كُذِّبَ الأنبياء» أو «إنْ أَذْنَبْتُ فَقَدْ أَذْنَبُوا».

أو «أنا أسلمُ من أَلْسِنَةِ الناسِ ولم يَسْلَم منهم أنبياءُ الله ورسلُه»

أو «قد صبرتُ كما صَبَرَ أُولُو العَزْمِ، أو كصبْرِ أيوب».

وكقول المتنبى:

أنـا فى أُمَّـةٍ تَـدَارَكَهَـا الله غَـرِيبٌ كَصَـالِـحٍ فِى ثَمُـودِ

ونحوه من أشعار المتعجرفين فى القول، المتساهلين فى الكلام، كقول المعرّى:

---

(١) الشفا ٢/٢٣٨.

كُنْتُ مُوسَى وَافَتْه بِنْتُ شُعَيْبٍ   غَيْرَ أَنْ لَيْسَ فِيكُمَا مِنْ فقيرِ

على أن آخر البيت شديدٌ، و داخلٌ فى الإزراء والتحقير بالنبى - ﷺ، وتفضيل حال غيره عليه.

وكذلك قوله:

لَوْلَا انْقِطَاعُ الوَحْىِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ   قُلْنَا مُحَمَّدُ عَنْ أَبِيهِ بَدِيلُ
هُوَ مِثْلُهُ فِى الفَضْلِ إلا أَنَّهُ   لَمْ يَأْتِهِ بِرِسَالَةٍ جِبْرِيلُ

فصدر البيت الثانى من هذا الفصل، شديدٌ، لتشبيهه غير النبى - ﷺ - فى فضله بالنبى، والعَجُزُ محتمل لوجهين:

أحدهما: أن هذه الفضيلة نقّصت الممدوح.

والآخر، استغناؤه عنها، وهذا أشَدّ.

ونحوه قول: حَسَّان المِقِيصِى، من شعراء الأندلس فى محمد بن عباد المعروف بالمعتمد، ووزيره أبى بكر بن زيدون:

كَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَبُو بَكْرِ الرِّضَا   وحَسَّانُ حَسَّانٌ وأَنْتَ محمدُ

إلى أمثال هذا.

قال القاضى عياض بعد أن أورد العديد من الأمثلة والشواهد الشعرية التى توضح مراده:[1] «وإنما أكثرنا بشاهدها مع استثقالنا حكايتها لتعريف أمثلتها، ولتساهل كثير من الناس فى ولوج هذا الباب الضَّنْك، واستخفافهم فادح هذا العبء، وقلّة علمهم بعظيم ما فيه من الوِزْر، وكلامهم منه بما ليس له به علم، وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم، لاسيما الشعراء.. وأشدهم فيه تصريحا، وللسانه تسريحا ابن هانئ الأندلسى، وابن سليمان المعرِّى، بل قد خرج كثير من كلامهما إلى حدّ الاستخفاف والنقص وصريح الكفر».

«فإن هذه كلها وإن لم تتضمن سبًّا، ولا أضافتِ إلى الأنبياء نقصا، ولستُ أعنى عَجُزَى بيتى المعرى، ولا قَصَد قائلها إزراءً وغضًّا، فما وقَّر النبوة، ولا عَظَّم

---

(١) الشفا ٢/٢٤١.

الرسالة، ولا غَزَّر حُرمة الإصطفاء، ولا عزَّز خُطْوة الكرامة، حتى شبَّه من شبَّه فى كرامة نالها، أو معرَّة قَصَد الانتفاء منها، أو ضَرْبِ مثل لتطبيب مجلسه، أو إغلاء فى وصفٍ لتحسين كلامه بمن عظَّم الله خطره، وشرَّف قدره، وألزم توقيره وبرَّه، ونهى عن جهر القول له، ورفع الصوت عنده، فحق هذا إن دُرِئ عنه القتلُ: الأدب والسجن، وقوة تعزيره، بحَسَبِ شُنْعة مُقاله، ومقتضى قبح ما نطق به»

«لأن حقَّ الرسول، وموجب تعظيمه، وإنافة منزلته، أن يضافَ إليه، ولايُضاف، فالحكم فى أمثال هذا ما بسطناه فى طريق الفتيا. على هذا المنهج، جاءت فُتْيا إمام مذهبنا مالك بن أنس - رحمه الله وأصحابه.

* ويروى القاضى عياض مجموعة من الأخبار التى توضح ما ارتآه مالك من فتاوى، وما أصدره من أحكام، ضد المتعرضين للرسول - ﷺ - بالقول. فيقول:

«ففى النوادر من رواية ابن أبى مريم فى رَجُلٍ عَيَّر رجلًا بالفقر، فقال: تُعيِّرنى بالفقر وقد رَعَى النبى - ﷺ - الغنم.

فقال مالك: قد عَرَّض بذكر النبى - ﷺ - فى غير موضعه، أرى أن يُؤدَّب.

٦

الوجه السادس - من وجوه السَبّ. وهو الذى يتصل بحكم الحاكى عن غيره[1].

وقد ذكره القاضى عياض وذكر الحكم فيه، قال:

«أن يقول القائل ذلك حاكيا عن غيره، وآثرًا له عن سواه، فهذا يُنظر فى صورة حكايته، وقرينة مقاله. ويختلف الحكم باختلاف ذلك على أربعة وجوه: الوُجُوب، والنَّدْب، والكراهة، والتحريم.

* فإن كان أخبر به على وجه الشهادة والتعريف بقائله، والإنكار والإعلام

---

(١) الشفا ٢/٢٤٤.

بقوله، والتنفير منه، والتجريح له. فهذا مما ينبغى امتثاله، ويحمد فاعله.

* وكذلك إن حكاه فى كتاب، أو فى مجلس عن طريق الردِّ له، والنقض على قائله، والفتيا بما يلزمه وهذا منه ما يجب، ومنه ما يستحبّ بحسب حالات الحاكى لذلك، والمحكى عنه.

* فإن كان القائل لذلك ممن تصدَّى لأن يؤخذ عنه العلم، أو رواية الحديث، أو يُقطع بحكمه أو شهادته أو فتياه فى الحقوق، وجب على سامعه الإشادة بما سُمِع منه، والتنفيرُ للناس عنه، والشهادة عليه بما قال. ووجب على من بَلَغَه ذلك من أئمة المسلمين إنكاره، وبيان كفره، وفساد قوله، بقطع ضرره على المسلمين، وقياما بحق سيّد المرسلين.

* وكذلك إن كان ممن يعظ العامة أو يؤدب الصِّبيان، فإن من هذه سريرتُه لا يُؤْمَن على إلقاء ذلك فى قلوبهم. فيتأكد فى هؤلاء الإيجاب لحق النبى - ﷺ - ولحق شريعته.

وإن لم يكن القائل بهذه السبيل.. فالقيام بحق النبى - ﷺ - واجب، وحماية عِرْضِهِ متعّين، ونُصرتُهُ على الأذى حيًّا وميتا مستحق على كل مؤمن.

* ثم يقول القاضى عياض: «وقد أجمع السَّلف على بيان حال المتّهم فى الحديث، فكيف بمثل هذا؟.

وقد سُئل أبو محمد بن أبى زيد، عن الشاهد. يسمع مثل هذا فى حق الله تعالى، أيسعُهُ أن لا يُؤدِّى شهادتَه؟

قال: إنْ رجا نفاذ الحكم بشهادته فليشهد، وكذلك إن علم أن الحاكم لا يرى القتل بما شَهِدَ بِهِ ويرى الاستتابة والأدب فليشهد، ويلزمُهُ ذلك.

وأما الإباحة لحكاية قوله، لغير هذين المقصدين، فلا أرى لها مدخَلًا فى هذا الباب.

فليس التفكّه بِعرضِ رسول الله - ﷺ - والتمضمض بسوء ذكره لأحدٍ، لا ذاكرًا ولا آثِرًا، لغيرِ غَرَضٍ شرعى بمباح.

وأما للأغراض المتقدمة، فمُتَرَددٌ بين الإيجاب والاستِحْبَاب.

* وقد حكى الله تعالى مقالات المفترين عليه وعلى رُسُله فى كتابه على وجه الإنكار لقولهم، والتحذير من كفرهم، والوعيد عليه، والرد عليهم بما تلاهُ الله علينا فى محكم كتابه.

* وكذلك وقع من أمثاله فى أحاديث النبى - ﷺ - الصحيحة على الوجوه المتقدمة.

وأجمع السلف والخَلَف من أئمة الهدى على حكايات مقالات الكفرة والملحدين، فى كتبهم ومجالسهم، ليُبيِّنُوها للناس، وينقضوا شبهها عليهم، وإن كان وَرَدَ لأحمد بن حنبل إنكار لبعض هذا..

ويختم القاضى عياض حديثه عن هذا الوجه السادس - بقوله:

«فأما ذكر هذه الحكايات على غير هذا، من حكاية سَبِّه والإزراء بمنصبه على وجه الحكايات والأسمار والطُّرف وأحاديث الناس ومقالاتهم، فكل هذا ممنوع. وبعضه أشد فى المنع والعقوبة من بعض.

حكى أن رجلا سأل مالكا عمن يقول القرآن مخلوق؟ فقال مالك: كافر فاقتلوه.

فقال: إنما حكيْتُهُ عن غيرى.. قال مالك: إنما سَمِعْنَاه منك.

قال القاضى عياض: «وهذا من مالك - رحمه الله - على طريق الزجر والتغليظ، بدليل أنه لم يُنفِذْ قَتْلَه. وَإنْ أُتهم هذا الحاكى - فيما حكاه - أنه اختلقه ونسبه إلى غيره، أو كانت تلك عادة له، أو ظهر استحانه لذلك، أو كان مولعا بمثله..

فحكم هذا حكم السَّاب نفسه، يؤاخذ بقوله ولا تنفعه نسبته إلى غيره، فيبادر بقتله.

٧

أما الوجه السابع وهو الحكم فى الراوى. الذى يذكر ما يجوز على النبى - ﷺ - وما يطرأ من الأمور البشرية به، ويمكن إضافتها إليه، أو يذكر ما أُمتحن به، وصَبرَ فى ذَاتِ الله على شدته من مقاساة أعدائه، وأذاهم له، ومعرفة ابتداء حاله وسيرته، وما لقيه من بؤس.

وكل ذلك على طريق الرواية، ومذاكرة العلم، ومعرِفة ما صحّت منه العصمة له.

«قال القاضى عياض[1] فهذا حكم خارج عن هذه الأحكام الستة، إذ ليس فيه غمصٌ ولا نقص، ولا إزراء ولا استخفاف، لا فى ظاهر اللفظ، ولا فى مقصد اللآفظ..

وهنا يستدرك القاضى عياض فيقول:

«لكن يجب أن يكون الكلامُ فيه مع أهل العلم، وفقهاء طلبة الدين، ممن يَفْهَم مقاصده، ويحققون فوائده، ويُجَنب ذلك من عساه لا يَفْقَه أو يُخشَى به فتنته.

فقد كره بعضُ السلف تعليم النساء سورة يوسف، لما انطوت عليه من تلك القِصَص لضَعْفِ معرفتهن، ونقص عقولهن وإدراكهن.

وقد قال ﷺ - مُخْبِرا عن نفسه باسْتِيجَاره لرعاية الغنم فى ابتداء حاله وقال: «ما مِن نبىٌّ إلا وقَدْ رَعَى الغَنَم» وأخبرنا الله تعالى عن موسى عليه السلام.

وهذا لا غضاضة فيه جُمْلةً واحدة، لمن ذكَرَهُ على وجهه، بخلاف من قَصَد به الغضاضة والتحقير، بل كانت عادة جميع العرب.

«نَعَم فى ذلك للأنبياء حكمة بالغة، وتدريجٌ لله تعالى لهم إلى كرامته، وتدريبٌ برعايتها لسياسة أممهم من خَلِيقته بما سبق لهم من الكرامة فى الأزل.

---

(١) الشفا ٢/٢٤٧.

وكذلك فى ذكر الله يُتْمَهُ وَعِيلَتَهُ على طريق المنّة عليه، والتعريف بكرامته له.

فذِكْر الذاكر لها على وجه تعريف حاله، والخبر عن مبتدئه، والتعجب من مَنح الله قِبَلَه، وعظيم منّته عنده، ليس فيه غضاضة، بل فيه دلالة على نبوته، وصحة دعوته، إذ أظهره الله تعالى بعد هذا على صناديد العرب. ومن ناوأه من أشرافهم شيئا فشيئا، وَنَمَى أمره حتى قهرهم وتمكّن من مِلْك مقاليدهم، واستباحة ممالك كثير من الأمم غيرهم، بإظهار الله تعالى له، وتأييده بنصره، وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم، وإمداد بالملائكة المسوّمين.. ولو كان ابن مَلِك، أو ذا أشياع متقدمين؛ لحسب كثير من الجهال أن ذلك موجبُ ظهوره، ومقتضى علوّه.

وإذا اليُتْم من صفته واحدى علاماته فى الكتب المتقدمة، وأخبار الأمم السالفة، وكذا وقع ذِكْرُه فى كتاب أرمْياء، وبهذا وصفَه ابن ذِى يَزَن لعبد المطلب، وبحِيرا لأبى طالب.

وكذلك إذا وُصِف بأنه أُمِّىّ - كما وصفه الله - فهى مِدْحةٌ له، وفضيلةٌ ثابتة فيه، وقاعدة معجزته، إذ معجزته العظمى من القرآن العظيم، إنما هى مُتَعَلّقَةٌ بطريق المعارف والعلوم مع ما مُنح - ﷺ - وفُضّل به من ذلك.. ووجود مثل ذلك من رجل لم يقرأ، ولم يكتب ولم يُدارس ولا لُقّن، مقتضى العَجَب، ومنتهى العبر، ومعجزة البشر، وليس فى ذلك نقيصة.

إذْ المطلوب من الكتابة والقراءة المعرفة، وإنما هى آلة لها، وواسطة مُوَصِّلَةٌ إليها غير مُرَادة فى نفسها، فإذا حصلت الثمرة والمطلوب، اسْتُغنى عن الواسطة والسَّبب، والأمية فى غيره نقيصة، لأنها سبب الجهالة، وعنوان الغباوة، فسبحان من باين أمره من أمر غيره، وجعل شرفه فيما فيه محطّة سواه.

ثم يذكر القاضى عياض الحكم فى من خالف ذلك فيقول:

أما «من أورد ذلك على غير وجهه، وعُلِمَ منه بذلك سُوءُ قصده، لَحِق بالفصول الستة التى قدمناها» أى يحكم عليه بما حكم على السابقين، لأنه منتقص لحق الرسول، متقوّل عليه. مقلل من شأنه.

٨

ويختم القاضي عياض هـذا الفصل الفقهي الهـام بالحـديث عن الآداب التي يجب أن يتحلَّى بها المتكلم عن رسول الله - ﷺ - الذاكر لسيرته وأحواله فيما يجوز عليه[١] فيقول:

«يجب عليـه أن يلتزم في كـلامـه عنـد ذكـره - ﷺ وذكـر تلك الأحـوال، والواجب من توقيره وتعظيمـه، ويُراقب حـال لسانـه، ولا يُهْمِلَه، وتظهـر عليه علامات الأدب عند ذكره.

فإذا ذكر ما قاساه من الشدائـد، ظهر عليـه الإشفاق والإرتمـاض (أي شدة القلق) والغيظ على عدوّه، ومودّة الفِداء للنبي - ﷺ، لو قَدَرَ عليه، والنُّصْرة لـو أمكنته.

● وإذا أخذ في أبواب العصمة، وتكلّم عن مجاري أعـماله وأقـواله - ﷺ - تحـرّى أحسن اللفظ، وأدب العبارة مـا أمكنه، واجتنب بشيـع ذلك، وهَجَـر من العبارة ما يَقْبُح، كلفظة الجهل والكذب والمعصية.

● فإذا تكلّم في الأقوال، قـال: هل يجـوز عليه الخُلْف في القـول، والإخبار بخلافِ ما وقـع سَهْوًا أو غَلَطًا ونحـوه من العبارة، ويتجنّب لفـظة الكذب جُملةً واحدة.

● وإذا تكلم عن العلم، قال: هل يجـوز أن لا يعلم إلاّ ما عُلِّم، وهـل يُمكِنُ أن لا يكون عنده عِلْمٌ من بعضِ الأشيـاء حتى يُوحى إليـه، ولا يقولُ بجهـلٍ لقُبح اللفظ وبشاعته.

● وإذا تكلم عن الأفعـال، قال: هـل يجوز منـه المخالفـة في بعض الأوامر والنواهي، ومواقعة الصَّغائـر، فهو أولَى وآدَبُ من قـوله: هـل يجوز أن يعصى أو يذنب، أو يفعل كذا وكذا من أنواع المعاصي.

فهذا من حق توقيره - ﷺ - وما يجب له من تعزيز وإعظام.

---

(١) الشفا ٢/٢٥٢.

الفصل الثانى

موقف المذاهب الفقهية من سابِّ الرسول وشانئه

انتهى القاضى عياض - فى الفصل السابق - إلى تحديد الحكم الشرعى فيمن سَبَّ الرسول - ﷺ - أو أذاه أو تنقَّص من حقه، وذكر اتفاق فقهاء المسلمين وعلمائهم على قتل هذا السّاب، وتخيير الإمام - ولى الأمر - فى صَلْبه بعد القتل أم لا. وكان إصدار الحكم الشرعى هذا استنادًا إلى الكتاب والسنة والإجماع.

وفى هذا الفصل، انتقل إلى توضيح موقف المذاهب الفقهية من هذا الحكم.. هل قتله حَدًا أو كُفْر؟ وما هى حيثيات هذا الحكم؟

ونلاحظ أن القاضى عياض فرق فى بحثه هذا بين الحكم الذى يجرى على المسلم، والحكم الذى يجرى على الذِّمِّى.

١

أولا: حكم المسلم السَّاب

بدأ القاضى عياض هذا الموضوع بعرض مذهبه، مذهب الإمام مالك وأصحابه، فقال: «إعلم أن مشهور مذهب الامام مالك وأصحابه، وجمهور العلماء قَتْله حدًّا - لا كُفْرا، إن أظهر التوبة منه. ولهذا لا تُقْبَل عندهم توبتُه، ولا تنفعه استقالته ولا فَيْأَتُه. وحكمه: حكم الزنديق، ومُسِرِّ الكُفْر فى هذا القول.

وسواء كانت توبته على هذا بعد القدرة عليه، والشهادة على قوله، أو جاء تائبا من قِبَل نفسه، لأنه حَدٌّ وَجَبَ لا تُسْقِطُه التوبة كسائر الحدود.

---

(١) الشفا ٢/٢٥٤.

قال الشيخ أبو الحسن القابسى - وهو مالكى - إذا أَقَرَّ بالسَّب وتاب منه، وأظهر التوبة، قُتل بالسَّب، لأنه هو حَدُّهُ.

وقال أبو محمد بن أبي زيد: وأما ما بينه وبين الله فتوبته تنفعه.

وقال ابنِ سُحْنون: مَنْ شتم النبى - ﷺ - من الموحِّدين، ثم تاب عن ذلك. لم تَزِلْ توبَتُهُ عنه القتل.

قال القاضى عياض: «وكذلك قد اختلف فى الزنديق، إذا جاء تائبا..

فحكى القاضي أبو الحسن بن القصار فى ذلك قولين: قال من شيوخنا:

● من قال اقتله باقراره، لأنه كان يقدر على ستر نفسه، فلما اعترف خِفنا أنه خَشِىَ الظهور عليه فبادر لذلك.

● ومنهم من قال: أَقْبَلُ توبَتَه، لأنى استدلُّ على صحتها بمجيئِهِ، فكأننا وقفنا على باطنه بخلاف من أَسَرَتْه البيِّنة.

● ويوضح القاضى عياض حيثية هذا الحكم الفقهى المالكى، ستقول: «ومسألة سابِّ النبى - ﷺ - أقوى، لا يُتَصوَّرُ فيها الخلافُ على الأصل المتقدم، لأنه حقٌّ متعلِّق للنبى - ﷺ - ولأُمَّتِهِ بسببه، لا تُسقطُه التوبة كسائر حقوق الآدميِّين.

والزنديق إذا تاب بعد القدرة عليه، فعند مالك والليث واسحاق وأحمد، لا تُقْبل توبته. وعند الشافعى تُقْبل.

واختلف فيه عن أبي حنيفة وأبي يوسف.

وحكى ابن المنذر، عن علىّ بن أبي طالب - رضى الله عنه - يُسْتَتَاب.

قال محمد بن سُحْنون: ولم يَزُل القتلُ عن المسلم بالتوبة مِنْ سَبِّه - ﷺ - لأنه لم ينتقل من دين إلى غيره، وإنما فَعَلَ شيئا حدُّه عندنا القتل، لا عَفْو فيه لأحد كالزنديق

وقال القاضى أبو محمد بن نصر محتجًّا لسُقُوط اعتبار توبته، والفرق بينه وبين من سَبَّ الله تعالى، على مشهور القول باستتابته..

«أن النبي - ﷺ - بَشَرٌ، والبشرُ جنس تلحقه المعرَّة إلاّ من أكرمه الله بنبوّته. والبارى تعالى مُنَزَّهٌ عن جميع المعايب قطعا، وليس من جنسٍ تلحق المعرَّة بجنسه، وليس سبُّه - ﷺ - كالارتداد المقبول فيه التوبة، لأن الارتداد معنى ينفرد به المرتدّ، لَا حَقَّ فيه لغيره من الآدميين، فقبلت توبتُهُ».

«ومن سَبَّ النبي - ﷺ - تعلّق فيه حَقٌّ لآدمى، فكان كالمرتَدّ، يُقْتَل حين ارتداده أو يُقْذَف، فإنّ توبته لا تُسْقط عنه حَدَّ القَتْل والقَذْف.

«ولم يُقتل سابُّ النبي - ﷺ - لكُفْره، لكن لمعنى يَرْجِعُ إلى تعظيم حُرْمَتِهِ ،وزوال المعرَّة به، وذلك لا تسقطه التوبة.

ويوضح القاضي عياض هذا القول ويحلله فيقول:
«يريد - والله أعلم - لأن سَبَّه لم يكن بكلمة تقتضى الكفر، ولكن بمعنى الإزراء والاستخفاف، أو لأن بتوبته وإظهار إنابته ارتفع عنه اسم الكفر ظاهرًا، والله أعلم بسريرته، وبَقِيَ حُكم السب عليه[1].

وقال أبو عِمْران القَابِسيِ : مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ - ثم ارْتَدّ عن الاسلام قُتِل ولم يُسْتَتَب. لأن السبَّ من حقوق الآدميين التى لا تسقط عن المرتَدّ.
وكلام شيوخنا هؤلاء مبنىّ على القولِ بقتله حدًا لا كُفْرًا.

أما ما جاء على رواية الوليد بن مسلم، عن مالك، وقال به بعض أهل العلم:
«فقد صرّحُوا أنّه رِدَّة. قالوا: ويستتاب منها، فإن تاب نُكِّل، وإنْ أَبَى قُتِل، فحُكم له بحُكم المرتدّ مطلقا فى هذا الوجه. والوجه الأول أشهر وأظهر لما قدمناه.

ثم يقول القاضى عياض: «ونحن نبسط الكلام فيه فنقول:
«مَنْ لم يره رِدَّة فهو يُوجب القتل فيه حدًّا. وإنما نقول ذلك مع فصلين: إمّا مع إنكاره ما شُهِد عليه به.. أو إظهاره الإقلاع والتوبة عنه، فتقتُلُه حدًّا، لثبات

(١) الشفا ٢/٢٥٦.

كلمة الكفر عليه فى حق النبى - ﷺ - وتحقيره ما عظَّم الله من حَقِّه، وأجرينا حكمَهُ فى ميراثه، وغير ذلك حُكم الزنديق إذا ظهر عليه، وأنكر أو تاب.

ويفترض القاضى عياضٍ تساؤلا قد يثار فى هذا المقام، فيقول:

«فإن قيل: فكيف تُثْبِتُون عليه الكفر، ويَشْهد عليه بكلمة الكفر، ولا تحكمون عليه بحكمه من الاستتابة وتوابعها؟

ثم يجيب بقوله: «نحن وإن أثبتنا عليه حُكم الكافر فى القَتْل، فلا نقطع عليه بذلك، لإقراره بالتوحيد والنبوّة، وإنكاره ما شهد به عليه، أو زَعْمِهِ أن ذلك كان منه وهلًا ومعصية، وأنه مُقْلِعٌ عن ذلك، نادم عليه.

وأما من عُلِمَ أنه سَبَّه معتقدا لاستحلاله، فلا شك فى كفره بذلك، وكذلك إن كان سَبُّه فى نفسه كَفَر بذلك. كتكذيبه أو تكفيره.

فهذا مما لا أشكال فيه، ويقتل وإن تاب منه، لأنَّا لا نَقْبَل توبته، ونقتله بعد التوبة حَدًّا، لقوله، ومتقدم كُفره، وأمره بَعْدُ إلى الله المطَّلِع على صحة إقلاعه، العالم بِسِرِّه. وكذلك مَنْ لم يُظْهِر التوبة، واعترف بما شُهد به عليه، وصمَّم عليه، فهذا كافرٌ بقوله، وباستحلاله هَتْك حُرْمة الله، وحرمة نبيِّه - ﷺ - يُقتل كافرًا بلا خلاف.

٢

قال القاضى عياض بعد عرض حيثيات الحكم الذى ارتضاه الفقهاء:

«هذا حُكم من ثبت عليه السَّب، بما يجِبُ ثبوته من إقرارٍ منه بالذنب، أو شهادة عُدُول عليه».

«فأما مَنْ لم تَتِمّ الشهادة عليه[1]، بما شَهِد عليه الواحد، أو اللَّفيف من الناس»

● أو ثَبَتَ قوله لكن احْتُمِل ولم يكن صريحا..

(١) الشفا ٢/٢٦١.

● وكذلك إن تاب (على القول بقبول توبته)

فهذا يُدْرَأ عنه القَتْل، ويتسلَّط عليه اجتهاد الإمام بقدرِ شُهْرةِ حاله، وقوة الشهادة عليه وضعفها، وكثرة السماع عنه، وصورة حاله من التهمة فى الدين، والنَّبْز بالسَّفَه والمجون.

فمن قَوِىَ أمره.. أذاقه من شديد النكال، من التضييق فى السجن، والشَّدِّ فى القيود، إلى الغاية التى هى منتهى طاقته، بما لا يمنعه القيام لضرورته، ولا يُقْعِدُه عن صلاته»

وهو حكم كُلّ من وَجَبَ عليه القتلُ لكن وُقِفَ عن قتله لمعنًى أَوْجَبه، وتُرُبِّصَ به لإشكال، وعَائِقٍ اقتضاه أَمْرُه.

* قال القاضى عياض: وحالات الشِّدة فى نكاله تختلف بحسب اختلاف حاله.

«فقد روى الوليد عن مالك والأَوْزَاعى أنها رِدَّة، فإذا تاب نُكِّل.

● وأفتى أبو عبد الله بن عتاب – فيمن سَبَّ النبىَّ – ﷺ – فشَهِد عليه شاهدان عُدِّل أحدهما بالأدب الموجع، والتنكيل والسجن الطويل، حتى تظهر توبته.

● وقال القابسى: فى مثل هذا – «ومن كان أقصى أمره القتل، فعَاقَ عَائِقٌ، أُشْكِلَ فى القتل، لم يَنْبَغِ أن يُطلق من السجن، ويُستطال سجنه، ويحمل عليه من القيد ما يُطيق.

● وقال فى مثله ممن أُشكل أمره: يُشَدّ فى القيود شدًّا، ويُضَيَّقُ عليه فى السجن، حتى يُنظر فيما يجب عليه.

● وقال فى مسألة مثلها: ولا تُهْراق الدماء إلّا بالأمر الواضح، وفى الأدب بالسَّوْط، والسجن نكالٌ للسُّفهاء، ويعاقب عقوبة شديدة.

قال القاضى عياض:

«فأما إن لم يَشْهد عليه سوى شاهدَيْن، فأثْبَتَ من عداوتهما ما أسقطهما عنه،

ولم يُسْمع ذلك من غيرهما، فأمره أخف لسقوط الحكم عنه، وكأنه لم يُشْهَد عليه.
هذا حكم المسلم السَّاب.

٣

ثانيا: حكم الذِّمِّيّ الساب:

بعد أن انتهى القاضى عياض من توضيح الحكم الشرعى، الذى يطبق على المسلم الذى يَسُبّ رسول الله - ﷺ - تحوّل لكى يكمل موضوعه بذكر الحكم الشرعى ضد الذِّمِّيّ السَّاب[1]، المنتقص لقدر النبى - ﷺ - وموقف الشريعة الإسلامية منه، وفتوى الفقهاء فى ذلك.

قال:

«فأمَّا الذِّمِّيُّ إذا صَرَّح بسَبِّه أو عَرَّض، أو استخفَّ بقدره - ﷺ - أو وصفه بغيرِ الوجهِ الّذى كَفَر به. فلا خلاف عندنا فى قتله - إنْ لم يُسْلِم ، لأنَّا لم نُعطِه الذِّمَّة، أو العهد على هذا»

وهو قول عامة العلماء إلا أبا حنيفة والثورى، وأتباعهما من أهل الكوفة. فإنهم قالوا: لَا يُقتل لأن ما هو عليه من الشركأعظم، ولكن يؤدب ويُعَزَّر.

● واستدل بعض شيوخنا على قتله، بقوله تعالى:

﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وطَعَنُوا فى دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الكُفْرِ إنَّهُم لَا أَيمَانَ لَهُم، لَعَلَّهم يَنْتَهُون﴾ [التوبة: ١٢].

ويُسْتَدَل أيضا عليه بقَتْل النبى ﷺ لابن الأشرف وأشباهه، ولأنَّا لم نُعاهِدْهُم، ولم نُعْطِهم الذِّمَّة على هذا، ولا يَجُوز لنا أن نَفْعل ذلك معهم.

« فإذَا أَتَوْا ما لم يُعْطُوا عليه العهد ولا الذِّمة فقد نَقَضُوا ذِمَّتَهم وصاروا كُفَّارًا أَهْلَ حَرْب يُقْتلون لكُفْرهم».

«وأيضا: فإن ذِمَّتَهُم لا تُسْقِطُ حدودَ الإسلام عنهم من القَطْع فى سرقة أموالهم، والقتل لمن قتلوه منهم، وإن كان ذلك حَلَالًا عندهم».

---

(١) الشفا ٢/٢٦٢.

«فكذلك سَبُّهم للنبى ﷺ يُقْتَلُون به.

● ويثير القاضى عياض فى هذا المجال قضية هامة، وهى:[1]

ما الموقف الشرعى من الذمِّى الذى سَبَّ رسول الله ﷺ ثم أسلم؟

قال: اختلفوا إذَا سَبَّ ثم أسلم:

فقيل: يُسْقِطُ إسلامُهُ قتلَه. لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله.

بخلاف المسلم، إذا سَبَّه ثم تاب، لأنا نعلم باطنة الكافر فى بُغْضِه له، وتنقصه بقلبه، لكِنّا منعناه من إظهاره، فلم يَزِدْنا ما أَظْهَره إلّا مخالفةً للأمر، ونقضًا للعهد.. فإذا رجع عن دينه الأول إلى الإسلام سقط ما قبله. قال الله تعالى:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ، وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِين﴾ [الأنفال ٣٨].

والمسلم بخلافه، إذْ كان ظَنُّنا بباطِنِه حُكْمُ ظاهره، وخلاف ما بدا منه الآن، فلم تُقَبل بعد رجوعه ولا اسْتَنَمْنَا إلى باطنه، إذْ قد بدت سرائره، وما ثبت عليه من الأحكام باقية عليه، لم يُسقطها شيء.

● وقيل: لا يُسْقِط إسلام الذمِّى السَّاب قَتْلَه، لأنه حَقٌّ للنبى ﷺ وجب عليه، لانتهاكه حُرْمته، وقصدِه إلحْاَق النقيصة والمعرَّة به».

فلم يكن رجوعه إلى الإسلام بالّذِى يُسْقِطُه، كما وجب عليه من حقوق المسلمين من قبل إسلامه من قتلٍ وقذف. وإذا كُنَّا لا نقبَلُ توبةَ المسلم، فأَنْ لا نَقْبَلَ تَوْبَةَ الكافر أَوْلَى.

٤
لمن يؤول ميراث من قُتل فى سبّ النبى ﷺ؟

لم يغفل القاضى عياض تناول هذا الموضوع بعد أن تنقل بنا بين المذاهب الفقهية، ومجالس أهل الافتاء، وأوضح حكم الشريعة فيمن سبَّ أو تنقص الرسول المصطفى ﷺ..

---

(١) الشفا ٢/٢٦٣.

وهذا الموضوع - موضوع الميراث وموقف الشريعة منه، هو ما أراد أن ينهى به موقف المُعادى لرسول الله ﷺ، سواء ما يتصل بدمه، أو ما يتصل بماله وتَرِكَتِهِ بعد مقتله[1].

قال:

اختلف العلماء فى ميراث من قُتل بسَبِّ النبى ﷺ.

● فذهب سُحْنُون: إلى أنه لجماعة المسلمين، من قِبَل أن شَتْم النبى ﷺ كُفْرٌ يُشْبِه كُفر الزنديق.

● وقال أَصْبَغُ: ميراثه لورثته من المسلمين إن كان مُسْتَتِرا بذلك.. وإن كانَ مُظهِرًا له مُستهلا به، فميراثه للمسلمين.

● قال أبو الحسن القابسى: وإن قُتِل وهو منكر للشهادة عليه، فالحكم فى ميراثه على ما أظهر من إقراره، يعنى لورثته. والقتل حدٌّ ثبت عليه ليس من الميراث فى شىء.

وكذلك لو أَقَرَّ بالسَّبِّ، وأظهر التَّوْبة لقُتِل، إذْ هو حَدُّه، وحكمه فى ميراثه وسائر أحكامه حُكْم الإسلام.

ولو أَقَرَّ بالسَّبِّ وتمادَى عليه، وأَبَى التوبة منه فقُتِل على ذلك، كان كافرًا وميراثه للمسلمين. ولا يُغسَّل، ولا يُصَلَّى عليه، ولا يكَفَّن، وتُستر عَوْرَتُه ويُوَارَى كما يُفعل بالكفار.

● ويوضح القاضى عياض فتوى أبى الحسن، فيقول:

«وقول الشيخ أبى الحسن، فى المجاهِرِ المتمادى بَيِّنٌ لا يُمكن الخلافُ فيه، لأنه كافرٌ مُرْتَدّ، غير تائب ولا مُقْلِع. وحكمه: حكم المرتد، لا تَرِثُه من المسلمين، ولا من أهل الدِّين الذى ارتدَّ إليه، ولا يجُوزُ وصاياه.

● وروى أصبغَ عن ابن القاسم، فيمن كَذَّبَ برسول الله ﷺ أو أَعْلَن دينا مما يُفَارق به الإسلام، أن ميراثه للمسلمين.

---

(١) الشفا ٢/٢٦٧.

وقال بقول مالك: إن ميراث المرتَدّ للمسلمين ولا تَرِثُه ورثَتُه: ربيعة والشافعي وأبو ثور، وابن أبى لَيْلَى.

واختلِفَ فيه عن أحمد.

وقال على بن أبى طالب، وابن مسعود، وابن المسيِّب، والحسن، والشعبى والأوزاعى، والليث واسحق وأبو حنيفة: يرثُه ورثَتُهُ من المسلمين.

● ويلخِّص القاضى عياض الأمر فيقول:

«وتفصيل أبى الحسن فى باقى جوابه حَسَنٌ بيِّنٌ، وهو على رأى أَصْبغ، وخلاف قول سُحْنُون، واختلافهما على قَوْلى مالك فى ميراث الزنديق، فمرّة وَرَّثه ورثته من المسلمين، قامت عليه بذلك بيِّنة فأنكرها، أو اعترف بذلك وأظهر التوبة.

● وقاله أصبغ ومحمد بن سلمة، وغير واحد من أصحابه، لأنه مظهرٌ للاسلام بإنكاره أو توبته..

وحكمه: حُكْمُ المنافقين، الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ.

وذهب ابن قاسم إلى أنه إن اعترف بما شُهِد عليه به، وتاب، فقُتِل، فلا يُورث.

وإن لم يُقِرّ حتى مات أو قُتل وُرِّث. وكذلك كُلّ من أَسَرَّ كُفرا، فإنهم يَتَوَارثُون بوراثة الإسلام.

● وسئل أبو القاسم بن الكاتب: عن النَّصرَانى يَسُبُّ النبى ﷺ فيُقْتَل... هل يرثه أهلُ دينه أم المسلمون؟ فأجاب: أنه للمسْلِمين لَيْسَ على جهةِ الميراث، لأنه لا تَوارثَ بين أَهْلِ مِلَّتَيْن، ولكن لأنه من فَيْئِهِم، لنقضِهِ العَهْد.

الفصل الثالث

موقف الشريعة ممَّن سَبَّ الله تعالى وملائكته وكتبه وآل النبى وأزواجه وصحبه

هذا هو الفصل الخاتم، الذى ختم به القاضى عياض سيرة المصطفى ﷺ.
وقد خصصه لتحديد موقف الشريعة الإسلامية من جانبين:

(أ) ممن سَبَّ الله تعالى وملائكته وأنبياءه وكتبه.

(ب) ممّن سَبَّ آل البيت النبوى الشريف، وأزواجه، وأصحابه.

والجانب الأول – فى رأيى – يخرج عن نطاق السيرة النبوية. وإنْ يكن من المفيد أن نَعْلمه، استكمالا لهذا الباب الفقهى الجامع.

١

أولا: موقف الشريعة ممَّن سب الله وملائكته وأنبياءه وكتبه.

قال القاضى عياض:[١] «لا خلافَ أن سابَّ الله تعالى – من المسلمين – كافرٌ، حلال الدم.

واختلف فى استتابته:

● روى ابن القاسم عن مالك: مَنْ سَبَّ الله تعالى من المسلمين قُتِل ولم يُسْتَتَبْ إلا أن يكونَ افتراء على الله بارتداده إلى دينٍ دانَ به وأظهره فيُسْتتاب. وإن لم يُظْهره لم يُسْتَتَب.

● وقال المخزومى، ومحمد بن سلمة، وابن أبى حازم: لا يُقْتَل المسلِمُ بالسبِّ حتى يُستتاب. وكذلك اليهودى والنصرانى، فإن تابوا قُبِلَ مِنْهُم، وإن لم يتوبُوا قُتِلُوا، ولا بد من الاستتابة.

(١) الشفا ٢/٢٧٠.

● وأفتى أبو محمد بن أبي زيد، فى رجل لَعَنَ رجلاً ولَعَنَ الله، فقال: إنما أردتُ أن ألْعَنَ الشيطان، فزَلَّ لِسَانى.. فقال: يُقْتَل بظاهر كُفْرِه، ولا يُقبل عُذره. وأما فيما بينه وبين الله تعالى فمعذور.

● واختلف فقهاء قُرْطبة، فى مسألة هارون بن حبيب، أخى عبد الملك الفقيه، وكان ضيق الصدر، كثير التبرم، وكان قد شهد عليه بشهادات منها: أنه قال عند اسْتِلَالِهِ من مرض: «لقيتُ فى مرضى هذا ما لو قَتَلتُ أبا بكر وعمر لم استوجب هذا كله».

فأفتى إبراهيم بن حسين بن خالد بقتله، وأن مضمَّن قوله تَجْوِيرٌ لله تعالى، وتظلُّمٌ منه، والتعريض فيه كالتصريح.

وأفتى أخوه عبد الملك بن حبيب، وإبراهيم بن حسين بن عاصِمْ، وسعيد بن سليمان القاضى: بطَرْح القتل عنه، إلا أن القاضى رأى عليه التثقيل فى الحَبْس، والشدة فى الأدب، لاحتمال كلامه، وصَرْفه إلى التشكىّ، فوَجْه من قال فى ساب الله بالاستتابة، أنه كفر وَرِدَّةٌ محضة لم يتعلق بها حقٌّ لغير الله، فأشْبَهَ قصد الكُفر بغير سب الله، وإظهار الانتقال إلى دين آخر من الأديان المخالفة للإسلام.

قال القاضى عياض:

«ووجه ترك استتابته، أنه لما ظهر منه ذلك بعد إظهار الإسلام قَبْلُ، اتَّهَمْنَاه وظَنَنَّا أن لسانه لم ينطق به إلاَّ وهو معتقدٌ له، إذ لا يتساهل فى هذا أحدٌ، فحُكِمَ له بحُكم الزنديق، ولم تقبل توبته».

«وإذا انتقل من دين إلى دين آخر، وأظهر السَّب بمعنى الارتداد، فهذا قد أعلم أنه خَلَع ربقَة الإسلام من عنقه، بخلاف الأول المستمسك به، وحُكْمُ هذا حُكْم المرتَدّ. يُستتاب على مشهور مذاهب أكثر العلماء، وهو مذهب مالك وأصحابه.

٢

وهنا يجد القاضى عياض فرصة لتوضيح موقف الشريعة الإسلامية من المتأولين، أصحاب الهوى والبدع من الفرق الإسلامية المضللة، فيقول[١]:

«وأمَّا مَنْ أضاف إلى الله تعالى ما لا يليق به، ليس على طريق السَّب ولا الرِّدة وقَصْدِ الكُفْر، ولكن على طريق التأويل والاجتهاد والخطأ المُفْضِى إلى الهوى والبِدْعة، من تشبيه أو نَعْتٍ بجارحة، أو نفى صفة كمال.. فهذا مما اختلف السلف والخلف فى تكفير قائله ومعتقده..

● واختلف قول مالك وأصحابه فى ذلك، ولم يختلفوا فى قتالهم إذَا تَحَيَّزُوا فِئَةً، وأنهم يُسْتَتَابُون فإن تابوا وإلاَّ قُتِلُوا.

وإنما اختلفوا فى المُنْفَرِد منهم، فأكثر قول مالك وأصحابه ترك القول بتكفيرهم، وترك قتلهم، والمبالغة فى عقوبتهم، وإطالة سِجْنهم، حتى يظهر إقلاعهم، وتستبين توبتهم، كما فعل عمر - رضى الله عنه - بصَبِيغ، الذى كان يتتبع مشكل القرآن، ويسأل عنه عمر، فضربه عمر، وأمر أن لا يُجَالس.

وهذا قول محمد بن المَوّاز فى الخوارج، وقول سُحْنُون فى جميع أهل الأهواء. وبه فُسِّر قول مالك فى الموطأ، وما رواه عمر بن عبد العزيز - وجَدِّه وعَمِّه - من قولهم فى القَدَرِيَّة يُستتابون فإن تابوا وإلاّ قُتلوا.

* وقال عيسى بن القاسم فى أهل الأهواء من الإبَاضِيّة والقَدَرِيّة وشِبْهُهُم ممن خالف الجماعة من أهل البدع والتحريف لتأويل كتاب الله.. يُستتابون، أظهروا ذلك أو أسرُّوه، فإن تابوا، وإلا قُتِلُوا وميراثُهم لورثتهم.

قال: واسْتِتَابَتهم أن يقال لهم: اتركوا ما أنْتُم عليه.

وقال: وهم مُسْلِمُون، وإنما قُتلوا لرأيهم السُّوء، وبهذا عمل عمرُ بن عبد العزيز.

---

(١) الشفا ٢/٢٧٢.

* قال القاضى عياض:

«وابن حبيب وغيره من أصحابنا - يرى تكفيرهم، وتكفير أمثالهم من الخوارج والقدرية والمرجئة، وقد روى أيضا عن سُحْنُون مثله، فيمن قال: «ليس لله كلام» أنه كافر.

وروى عن مالك: «أهلُ الأهواء كُلُّهم كفار، ومن وصف شيئا من ذات الله تعالى، وأشار إلى شيء من جسده يَدٍ أو سَمْعٍ أو بصرٍ قُطِع ذلك منه، لأنه شبَّه الله بنفسه.

وقال - فيمن قال القرآن مخلوق: كافرٌ فاقتلوه.

وأكثر أقوال السلف تكفيرهم، وممن قال به الليث وابن عُيينة، وابن لِهَيعَة.

قال القاضى عياض:

أما من رُوى عنه معنى القول الآخر أى تَرْك تكفيرهم، فهم عليٌ بن أبى طالب، وابن عمر، والحسن البصرى، وهو رأى جماعة من الفقهاء النظَّار، والمتكلمين.

واحتجوا بتوريث الصحابة والتابعين ورثة أهل حرورَاء، ومن عُرِف بالقدر، ممن مات منهم، ودَفْنِهم فى مقابر المسلمين، وجَرْى أحكام الإسلام عليهم.

قال اسماعيل القاضى: «وإنما قال مالك فى القَدَرِيّة وسائر أهل البدع، يُستتابون فإن تابوا وإلا قُتلوا - لأنه من الفساد فى الأرض.

٣

تحقيق القول فى تكفير المتأولين[1]..

وبعد أن ذكر القاضى عياض مذاهب السلف فى تكفير أصحاب البدع،

(١) الشفا ٢/٢٧٦.

والأهواء المتأولين ممن قال قولا - فى الله - لا يؤديه مَسَاقُه إلى الكفر. انتقل إلى تحقيق القول فى تكفيرهم، أى ذكر حيثيات الحكم عليهم بالكفر، استنادًا إلى أقوال الفقهاء فى ذلك..

قال: اختلف الفقهاء فى ذلك:

- فمنهم من صَوَّب التكفير، الذى قال به الجمهور من السلف.

- ومنهم من أَبَاهُ ولم ير إخراجهم من سواد المؤمنين. وهو قول أكثرهم..

وقالوا: هُمْ فُسَّاقٌ، عُصَاةٌ، ضُلَّالٌ، وَنُورِّثُهُمْ من المسلمين، ونحكم لهم بأحكامهم.

ولهذا قال سُحْنُون: لا إعادة على من صَلَّى خَلْفَهم. وهو قول جميع أصحاب مالك..

قال: لأنه مسلمٌ، وذنبه لم يُخْرِجه من الإسلام.

* قال القاضى عياض: واضطرب آخرون فى ذلك، ووقفوا عن القول بالتكفير أو ضِدّه.

واختلاف قولى مالك فى ذلك، وتوقفه عن إعادة الصلاة خلفهم، منه.

وإلى نحو من هذا ذهب القاضى أبو بكر الباقلانى - إمام أهل التحقيق والحق، قال:

«إنها من المعوّصات - أى التى يصعب معناها، إذا القوم لم يصرّحوا باسم الكُفْر، وإنما قالوا قَوْلا يؤدى إليه.

* واضطرب قولُه فى المسألة - على نحو اضطراب قول إمامه مالك بن أنس، حتى قال فى بعض كلامه: «إنهم على رأى مَنْ كَفَّرهم بالتأويل، لا تحلُّ مناكحتهُم، ولا أكلُ ذبائحهم، ولا الصلاة على مَيِّتِهِمْ ويُخْتَلَفُ فى مُوارثتهم على الخلاف فى ميراث المرتد».

وقال أيضا: نُورِّثُ مَيِّتَهم وَرَثتهم من المسلمين، ولا نُوَرِّثُهم من المسلمين،

وأكثر ميله إلى ترك التكفير بالمآل.

وكذلك اضطرب فيه قول شيخه أبي الحسن الأشعرى، وأكثر قوله تركُ التكفير، وأن الكفر خَصْلَة واحدة، وهو الجهل بوجُود البارى تعالى.

وقال مرة: من اعتقد أن الله جِسْمٌ، أو المسيحُ، أو بعض مَنْ يلقاه فى الطُّرُق، فليس بعارف به، وهو كافر.

ولمثل هذا ذهب أبو المعالى فى أجوبته لأبى محمد عبد الحق، وكان سأله عن المسألة فاعتذر له بأن الغلط فيها يصعب، لأن إدخال كافر فى الملّة، وإخراج مسلم عنها، عظيم فى الدين.

وقال غيرهما من المحققين:[1] الذى يجب «الاحْتِرَازُ من التكفير فى أهل التأويل» فإن استباحة دماء المصلّين الموحّدين خطر، والخطأ فى ترك ألف كافر أهون من الخطأ فى سَفْك محجمة (قارورة) من دم مسلم واحد، وقد قال ﷺ:

«فإذا قالوها - يعنى الشهادة - عَصَمُوا منى دِمَاءَهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله».

* ويظل القاضى عياض يطرح الآراء والأقوال، ويستشهد عليها بألفاظ الأحاديث الواردة فى الباب، ويقول أنها معرّضة للتأويل، فما جاء منها فى التصريح بكفر القدرية، وقوله: «لا سَهْم لهم فى الإسلام» وتسميته الرافضة بالشرك، وإطلاق اللعنة عليهم، وكذلك فى الخوارج، وغيرهم من أهل الأهواء، فقد يحتج بها من يقول بالتكفير، وقد يُجيب الآخر بأنه قد ورد مثل هذه الألفاظ فى الحديث فى غير الكفرة، عن طريق التغليظ.

* ويظل يتابع الصحابة فى أقوالهم وما فهموه وما أخذوه عن رسول الله ﷺ ويناقش آراءهم حول هذه الفرق الإسلامية، ثم يقول:

«وهذا مما يدل على سعة فقه الصحابة، وتحقيقهم للمعانى، واستنباطها من

---

(١) الشفا ٢/٢٧٧.

الألفاظ، وتحريرهم لها، وتوقيهم فى الرواية هذه المذاهب المعروفة لأهل السنة ولغيرهم من الفرق، فيها مقالات كثيرة مضطربة سخيفة، أقربها قول جَهْم، ومحمد ابن شبيب: إن الكُفْرَ بالله الجهل به، لا يكفُرُ أحدٌ بغير ذلك.

وقال أبو الهذيل: إن كل متأوِّل كان تأويلُهُ تشبيها لله بخلقه، وتجويزًا له فى معله، وتكذيبا لخبره فهو كافرٌ، وكُلُّ من أثبت شيئا قديما لا يُقال له الله، فهو كافر.

وقال بعض المتكلمين: إن كان ممَّن عَرَّفَ الأصل، وبنى عليه، وكان فيما هو من أوصاف الله، فهو كافر، وإن لم يكن من هذا الباب ففاسق، إلا أن يكون ممن لم يعرف الأصل، فهو مخطئ غير كافر.

وذهب عبيد الله بن الحسن العنبرى إلى تصويب أقوال المجْتهدين فى أصول الدين، فيما كان عُرْضةً للتأويل، وفارق فى ذلك فِرقَ الأمة، إذْ أجمعوا سواهُ عَلَى أن الحقَّ فى أصول الدين واحد، والمخطئ فيه آثم عاصٍ فاسق، وإنما الخلاف فى تكفيره.

وقد حكى القاضى أبو بكر الباقلانى، مثْلَ قولِ عُبَيْد الله عن داود الأصبهانى.

وقال: وحكى قومٌ عنهما أنهما قالا ذلك فى كُلِّ من عَلِمَ الله سُبحانه، من حَالِهِ استفراغ الوُسْع فى طلب الحق من أهل مِلَّتنا، أو من غيرهم.

قال القاضى عياض: «وقال نحو هذا القول: الجاحظ، وثمامة، فى أن كثيرا من العامة والنساء والبُلْه، ومُقَلِّدة النصارى واليهود وغيرهم، لا حُجَّة لله عليهم إذْ لم تكن لهم طباعٌ يمكن معها الاستدلال.

وقد نَحَا الغزالى قريبا من هذا فى كتابه التفْرِقة.

«وقائل هذا كُلّه كافِرٌ بالاجماع، على كُفْر من لم يكفِّر أحدًا من النصارى واليهود. وكل مَنْ فارق دين المسلمين، أو وَقَفَ فى تكفيرهم أو شَكَّ.

قال القاضى أبو بكر: لأن التوقيف والإجماعَ اتفقا على كُفْرهم، فمَنْ وقف فى

ذلك فقد كَذَّبَ النَّصّ والتوقيف، أوشكَّ فيه، والتكذيب أو الشّك فيه لا يقعُ إلا من كافر»[١].

٤

بيان ما هو من المقالات كفر:

بعد هذه المناقشات الطويلة حول تكفير الفرق الإسلامية أو عدم تكفيرها، وبعد استعراض آراء علماء الإسلام الباقلانى والأشعرى والغزالى، وتوضيح وتحليل آرائهم ومقالاتهم..

يعود القاضى عياض إلى دراسة وبيان ما هو من المقالات كفر، وما ليس بكفر..

وقد جعل مرجع تحقيق هذه الدراسة، وكشف اللبس فيها إلى الشرع، والشرع وحده. فلا مجال للعقل فيها.

يقول:[٢] والفصل البيّن فى هذا أن كُلَّ مقاله صَرَّحَتْ بنفى الرُّبُوبيّة أو الوحدانية، أو عبادَةِ أحد غير الله، أو مع الله، فهى كُفْر، كمقالةِ الدهريّة، وسائر فرق أصحاب الاثنين من الدِّيصَانِيّة[٣] والمانوية[٤]، وأشباههم من الصابئين والنصارى والمجوس، والذين أشركوا بعبادة الأوثان، أو الملائكة، أو الشياطين، أو الشّمْس، أو النجوم، أو النار، أو أحدٍ غير الله من مشركى العرب، وأهل الهند والصين والسودان وغيرهم ممن لا يرجعُ إلى كتاب».

«وكذلك القرامطةُ، وأصحابُ الحلول والتناسُخ من الباطنية، والطَّيَّارة من

---

(١) الشفا ٢/ ٢٨١.

(٢) الشفا ٢٨٢/٢.

(٣) الديصانية: قوم يقولون بالنور والظلمة كالمانية، إلا أن المانية يقولون: النور والظلمة حيّان، والديصانية يقولون: النور حى والظلمة ميت. [شرح الشمنى على الشفا ٢٨٢/٢].

(٤) المانوية: نسبة إلى مانى الزنديق، ظهر فى زمن سابور بن أردشير، وادعى النبوة، وادعى أن للعالم أصلين: نورا وظلمة، وهما قديمان، فقبل قول سابور، فلما ملك بهرام سَلَخَهُ وحشا جلده تبنا، وقتل أصحابه وهرب بعضهم إلى الصين [شرح الشمنى ٢٨٢/٢].

الروافض، وكذلك من اعترف بإلـهية الله ووحدانيته، ولكنه اعتقد أنه غير حي، أو غير قديم، وأنه محدَثٌ أو مصوَّرٌ، أو ادَّعى له ولدًا أو صاحبة أو وَالِدًا أو مُتَولِّد من شيء، أو كائن عنه، أو أن معه فى الأزل شيئا قديمًا غيره أو أن ثَمَّ صانعا للعالم سواه، أو مُدَبِّرًا غيره.

فذلك كلُّه كفرٌ باجماع المسلمين، كقول الإلهيين من الفلاسفة والمنجمين والطَّبَيعيين».

«وكذلك من ادَّعى مجالسة الله، والعُرُوج إليه ومكالمته، أو حُلُوله فى أحد الأشخاص، كقول بعض المتصوِّفة، والباطنية والنصارى والقرامطة».

قال القاضى عياض:

«وكذلك نقطعُ على كُفر.. من قال بقدم العالم أو بقائه، أو شَكَّ فى ذلك على مذهب بعض الفلاسفة والدهرية، أو قال بتناسخ الأرواح وانتقالها أَبَدَ الآباد فى الأشخاص، وتعذيبها أو تنعّمها فيها بحَسب زكائها وخُبْثها».

«وكذلك من اعترف بالإلهية والوحدانية ولكنه جَحَد النبوة من أصلها عموما، أو نبوة نبينا - ﷺ - خصوصا، أو أحد من الأنبياء الذين نَصَّ عليهم بَعْدَ علمه بذلك، فهو كافرٌ بلا ريب كالبراهمة، ومعظم اليهود، والأَرُوسية من النصارى، والغرابية[1] من الروافض، الزاعمين أن عليًّا كان المبعوث إليه جبريل، وكالمُعَطِّلة، والقرامطة، والاسماعيلية، والعَنْبَرِيَّة من الرافضة.

«وكذلك من دان بالوحدانية وصحة النبوة، ونبوّة نبينا - ﷺ - ولكن جَوَّز على الأنبياء الكذب فيما أَتَوْا به. فهو كافِرٌ باجماع، كالمتفلسفين، وبعض الباطنية والروافض، وغُلاة المتصوفة، وأصحاب الإباحة، فإن هؤلاء زعموا: أن ظواهر الشرع، وأكثر ما جاءَتْ به الرسلُ من الأخبار عمّا كان ويكون من أمور الآخرة والحشر، والقيامة، والجنة، والنار. ليس منها شيء على مقتضى لفظها،

---

(١) الغرابية: هم الذين قالوا محمد بعليّ أشبه من الغراب بالغراب والدواب بالدواب، وبعث الله جبريل إلى عليّ فغلط، فيلعنون - لعنهم الله - صاحب الريش، ويعنون به جبريل عليه السلام.

ومفهوم خطابِها، وإنما خاطبوا بها الخَلْق على جهة المصلحة لهم، إذ لم يُمْكِنْهُمُ التصريحِ لقصور أفهامهم.

فمضمَّن مقالاتهم إبطال الشرائع، وتعطيل الأوامر والنواهى، وتكذيب الرسل والارتياب فيما أَتَوْا به».

* «وكذلك من أضاف إلى نبينا - ﷺ - تعمدُّ الكذب فيما بلَّغه، وأخبر به، أوشَكَّ فى صدقه، أو سبَّه، أو قال إنه لم يبلغ، أو استخفَّ به، أو بأحد من الأنبياء، أو أزرى عليهم، أو آذاهم، أو قتل نبيا، أو حاربه، فهو كافر بإجماع[1].

* ويظل القاضى عياض يذكر من كفَّرهم الأئمة الفقهاء، واحدًا واحدًا، أو فرقة فرقة، أو طائفة طائفة، إلى أن يأتى عليهم جميعا.

وهذا الفصل - فى رأيى - من أقوى وأمتع، وأشمل وأكمل فصول الكتاب، لأنه يدل على عقلية واعية، حافظة، تتسم بالشمول والموضوعية، كما يدل على ثقافة دينية فقهية واسعة، موروثة عن السابقين، مأخوذة عن المعاصرين.

* ويختم القاضى عياض هذه الدراسة بتوضيح أسباب تكفير الأئمة مَن أنكر الإجماع، فيقول:[2].

«فأما من أنكر الإجماعَ المجرد، الذى ليس طريقه النقل المتواتر عن الشارع، فأكثر المتكلمين - ومن الفقهاء والنظَّار فى هذا الباب، قالوا: بتكفير كل مَنْ خالَفَ الاجماع الصحيح، الجامع لشروط الإجماع المتَّفق عليه عموما. وحُجَّتُهُم قوله تعالى:

﴿ومَنْ يُشَاقِقِ الرسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ونُصْلِهِ جَهَنَّمَ وسَاءَت مصِيرًا﴾ [النساء ١١٥].

وقوله ﷺ: «مَنْ خَالَفَ الجماعةَ قيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَع رِبْقة الإسلام من عُنُقِه».

وحكوا الإجماع على تكفير من خالف الإجماع.

(١) الشفا ٢/٢٨٤.

(٢) الشفا ٢/٢٩١.

وذهب آخرون إلى الوقوف عن القطع بتكفير من خالف الإجماع، الذى يختص بنقله العُلَمَاء.

وذهب آخرون إلى التوقف فى تكفير من خالف الإجماع الكائن عن نظر، كتكفير النّظام بإنكاره الاجماع، لأنه بقوله هذا مخالف إجماع السَّلَف على احتجاجهم به، خارقٌ للإجماع.

● وينقل القاضى عياض عن القاضى أبى بكر الباقلانى رأيه فى هذه القضايا.. قال:

«القول عندى، أن الكفر بالله هو الجهل بوجوده، والإيمان بالله هو العلم بوجوده، وأنه لا يَكَفُرُ أحدٌ بقولٍ ولا رأى إلا أن يكون هو الجَهْل بالله، فإن عصى بقولٍ أو فعلٍ، نَصَّ الله ورسوله، أو أجمع المسلمون أنه لا يوجد إلّا من كافر»، أو يقوم دليلٌ على ذلك، فقد كَفَر. ليس لأجل قوله أو فعله، لكن لِمَا يُقَارِنه من الكفر.

فالكفر بالله لا يكون إلّا بأحد ثلاثة أمور:[1]

أحدها: الجهلُ بالله تعالى.

والثانى: أن يأتى فعلا، أو يقول قولا يُخْبِرُ الله ورسولُه، أو يجمع المسلمون أن ذلك لا يكون إلّا من كافر، كالسجود لصنم، والمشى إلى الكنائس بالتزام الزّنّار مع أصحابها فى أعيادهم، أو يكون ذلك القول أو الفعل لا يمكن معه العِلْمَ بالله.

فهذان الضربان، وإن لم يكونا جهلًا بالله، فهما عَلَمٌ أن فاعلهما كافر، منسلخ من الإيمان.

الثالث: فأما من نفى صفة من صفات الله تعالى الذاتية، أو جحدها مستبصرا فى ذلك، كقوله:

ليس بعالم، ولا قادر ولا مريد، ولا متكلم، وشبه ذلك من صفات الكمال الواجبة له تعالى، فقد نصَّ أئمتنا على الإجماع على كُفر من نفى عنه تعالى الوصف بها وأعراه عنها.

---

(١) الشفا ٢/٢٩٢.

فأما من جهل صفة من هذه الصفات، فاختلف العلماء ههنا، فكَفَّره بعضُهم، وحكى ذلك عن أبي جعفر الطبري، وغيره. وقال به أبو الحسن الأشعري.

وذهبت طائفة إلى أن هذا لا يُخرجه عن اسم الإيمان، وإليه رجع الأشعري، قال:

«لأنه لم يعتقد ذلك اعتقادًا يقطع بصوابه، ويراه دينا وشرعا».

هذا حكم المسلم الساب لله تعالى.

٥

حكم الذميّ السَّاب لله تعالى:

وبعد إذ انتهى القاضي عياض من ذكر حكم المسلم السَّاب لله تعالى، انتقل لتوضيح موقف الشريعة الإسلامية من الذميّ السَّاب له تعالى[١] المضيف ما لا يليقُ بجلاله وَإلهيّته إليه.

قال: وأما (حكم) الذميّ، فروى عن عبد الله بن عمر في ذِمِّي تناول من حرمة الله تعالى، غير ما هو عليه من دينه، وحاجّ فيه، فخرج ابن عمر عليه بالسيف، فطلبه فهرب.

قال مالك: في كتاب ابن حبيب: مَنْ شَتَم الله من اليهود والنصارى بغير الوجه الذى كَفَرَ به قُتل، ولم يُسْتَتَب.

قال أصبغ: لأن الوجه الذى به كفروا هو دينهم، وعليه عُوهدوا من دعوى الصاحبة والشريك والولد، وأما غير هذا من الفِرْيَة والشَّتْم، فلم يعاهدوا عليه، فهو نقضٌ للعهد.

قال ابن القاسم: ومن شَتَم – من غير أهل الأديان – الله تعالى، بغير الوجه الذى ذُكِرَ فى كتابه، قُتل إلا أن يُسْلِم.

وقال المخزومي: لا يُقتل حتى يستتاب، مسلمًا كان أو كافرًا، فإن تَاب وإلاّ قُتل.

---

(١) الشفا ٢/٢٩٥.

٦

فأما مفترى الكذب على الله تعالى[١]، بادِّعَاءِ الإلَهيّة أو الرسالة، أو النافى أن يكون الله خالقَه أو ربَّه. أو قال: ليس لى رب..

فلا خلاف فى كفر قائل ذلك ومدّعيه، مع سلامة عقله – كما قدمنا – لكنه تُقْبَلُ توبته، على المشهور، وتنفعه إنابَتُهُ، وتُنَجِّيه من القَتْل فَيْأَتَهَ – أى رجوعه، لكنه لا يسلم من عظيم النكال، ولا يُرَفَّه عن شديد العقاب، ليكون ذلك زجرًا لمثله عن قوله، وله عن العودة لكفره أو جهله. إلاّ من تكرر منه ذلك، وعُرف استهانته بما أتى به، فهو دليل على سوء طويته، وكذب توبته، وصار كالزنديق، الذى لا نأمن باطنه، ولا نقبلُ رجوعه.

ويذكر القاضى عياض الأحكام التى صدرت ونُفِّذت على هؤلاء وأمثالهم من مفترى الكذب على الله، فيقول:

«وقد أحرق على بن أبى طالب من ادَّعى له الإلَهيّة، وقد قتل عبد الملك بن مروان الحارث المتنبى وصَلَبه، وفعل ذلك غير واحد من الخلفاء والملوك بأشباههم، وأجمع عُلماء وقتهم على صواب فعلهم.

وأجمع فقهاء بغداد – أيام المقتدر – من المالكية، وقاضى قضاتها أبو عمر المالكى، على قَتْل الحَلاّج وصَلْبه، لدعواه الإلهية، والقول بالحُلُول، وقوله: أنا الحَقّ، مع تمسكه فى الظاهر بالشريعة، ولم يقبلوا توبته.

٧

بعد أن بين القاضى عياض موقف الشريعة الإسلامية ممن سبَّ الله تعالى أو شتمه، سواء أكان مسلما أو ذمِّيا.. رأى أن يضيف إلى ذلك حكم الشريعة فى مَنْ سَبّ أنبياء الله وملائكته، وكتبه[٢]، واستخف بهم، أو كذّبهم فيما أتوا به، أو أنكرهم وجحدهم..

---

(١) الشفا ٢/٢٩٦.
(٢) الشفا ٢/٣٠٢.

● أما فيما يتصل بأنبياء الله، فيقول إن حكم الشريعة فى ذلك مطابق لحكمها فيمن سب نبينا محمد ﷺ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿إِنَّ الَّذِين يَكْفُرُونَ بالله وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الله ورُسُلِهِ، وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ ونكْفُرُ ببعضٍ، ويُرِيدُون أَنْ يَتَخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سبِيلاً، أُولئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقًّا، وأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مهِينًا﴾ [النساء ١٥٠، ١٥١].

ويقول عز وجل: ﴿كُلٌّ آمَنَ بالله ومَلاَئِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، لاَ نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلهِ﴾ [البقرة ٢٨٥]

قال مالك - فيمن شَتَم الأنبياء أو أحدًا منهم أو تَنَقَّصه قُتِل ولم يُسْتَتَب. ومن سَبَّهم من أهل الذِّمة قُتِل إلاَّ أن يُسْلِم.

وروى سُحْنون، عن ابن القاسم: من سَبَّ الأنبياء - من اليهود والنصارى - بغير الوجه الذى به كَفَر، فاضربْ عُنُقَه إلاَّ أَنْ يُسْلِم.

● وأما ما يتصل بملائكة الله، فقد قال القاضى بُقرْطبة سعيد بن سليمان، فى بعض أجوبته:

من سَبَّ الله وملائكته قُتِل.

● وقال سُحْنون: من شتم ملكًا من الملائكة فعليه القتل.

● وفى النوادر، عن مالك، فيمن قال: إن جبريل أخطأ بالوحى، وإنما كان النبى على بن أبى طالب. أُسْتُتِيب، فإن تاب وإلاّ قُتِل.

ويوضح القاضى عياض الأمر، فيقول: «وهذا كُلّه فيمن تكلم فيهم بما قُلْناه على جملة الملائكة والنبيين، أو على مُعَيّن ممن حقّقْنا كونه من الملائكة والنبيين ممن نَصَّ الله عليه فى كتابه، أو حققنا علمه بالخبر المتواتر والمشتهر، المتفق عليه بالإجماع القاطع، كجبريل وميكائيل، ومالك، وخزنة الجنة والنار، والزّبانية، وحملة العرش المذكورين فى القرآن من الملائكة، ومن سُمِّى فيه من الأنبياء، وكعزرائيل واسرافيل ورضوان، والحفظة، ومنْكر ونكير من الملائكة، المتفق على قَبُول الخبر بهما.

فأما من لم تثبت الأخبار بتعيينه، ولا وقع الإجماع على كونه من الملائكة أو الأنبياء، كهاروت وماروت فى الملائكة، والخضر ولقمان وذى القَرْنين، ومريم، وآسِيَة، وخالد بن سِنَان، المذكور أنه نبىّ أهل الرَّس، وزَرَادِ شْت الذى تدَّعى المجوس والمؤرخون نبوته..

فليس الحكم فى سابِّهم والكافر بهم كالحكم فيمن قدمناه.[1].

● وأما ما يتصل بكتب الله.. فيذكر القاضى عياض، نقلا عن الأئمة الفقهاء، أن من استخفَّ بالقرآن، أو المصحف، أو بشىء منه، أو سبَّهما، أو جحده، أو حَرْفًا منه، أو آيةً، أو كذَّب به، أو بشىء منه، أو كذَّب بشيءٍ مما صُرِّح به فيه، من حُكْمٍ أو خبرٍ، أو أثْبت ما نفاه، أو نَفَى ما أثبته على عِلْم منه بذلك، أو شَكَّ فى شيءٍ من ذلك...

فهو كافر عند أهل العلم بإجماع، لقوله تعالى:
﴿وإنَّه لكِتَابٌ عزيزٌ، لَا يَأْتِيه البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد﴾.

وروى أبو هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «المِراءُ فِي القُرْآنِ كُفْرٌ» تؤوّل بمعنى الشَّك، وبمعنى الجدال.

وعن ابنِ عباسٍ عن النبى ﷺ: «مَنْ جَحَدَ آيةً مِنْ كِتَابِ الله من المُسْلِمِينَ فَقَدْ حَلَّ ضَرْبُ عُنُقِه».

«وكذلك إن جحد التوراة والإنجيل وكتب الله المنزلة، أو كَفَر بها، أو لعنها أو سَبَّها أو استخفَّ بها فهو كافر».

قال القاضى عياض - فيما يتصل بالقرآن العظيم:
«وقد أجمع المسلمون، أن القرآن المتلو فى جميع أقطار الأرض، المكتوب فى المصحف بأيدى المسلمين، مما جمعه الدَّفَّتان من أول ﴿الحمد لله رب العالمين﴾

---

(١) الشفا ٢/٣٠٣.

إلى آخر ﴿قل أعوذ بربِّ الناس﴾ أنه كلام الله ووحيه المنزّل على نبيّه محمد ﷺ. وأن جميع ما فيه حق، وأنَّ مَنْ نَقَصَ منه حرفا قاصدًا لذلك، أو بدَّله بحرف آخر مكانه، أو زاد فيه حرفا ممَّا لم يشتمل عليه المصحف، الذى وقع الاجماع عليه، وأُجْمِع على أنه ليسَ من القرآن عامدًا لكل هذا أنه كافر.

● ولهذا رأى مالك قتل من سَبَّ عائشة رضى الله عنها - بالفِرْية، لأنه خالف القرآن، ومن خالَفَ القرآن قُتل.

● وقال أبو عثمان الحدد: جميعُ من ينتحل التوحيد متفقون أن الجحد لحرف من التنزيل كُفْرٌ.

● وقال عبد الله بن مسعود: من كَفَر بآية من القرآن فقد كَفَر به كُلّه.

● وقال محمد بن سُحْنون: فيمن قال: المعوذتان ليستا من كتاب الله، يُضْرب عنقه، إلاّ أن يتوب.

وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة ابن شُنْبُوذَ المقْرِئ، أحد أئمة المقرئين، المتصدرين بها مع ابن مجاهد، لقراءته وإقرائه بشواذٍّ من الحروف مما ليس فى المصحف، وعقدوا عليه بالرجوع عنه، والتوبة منه سجلًّا، أشهد فيه بذلك على نفسه فى مجلس الوزير أبى على بن مُقْلَة، سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وكان فيمن أفتى عليه بذلك أبو بكر الأبهرى وغيره.

٨

موقف الشريعة ممَّن سبَّ آل بيت النبى وأزواجه وأصحابه..

وهذا الفصل، هو آخر فصول السيرة النبوية المطهرة، التى صنّفها القاضى عياض، وجمع لها ما لم يجمع لمصنف من مصنفاته الغزيرة، وبذل فيها جهدًا كبيرا.

فى هذا الفصل، يقرر القاضى عياض أن سبَّ آل البيت النبوى الشريف، وأزواجه وأصحابه رضى الله عنهم، وتَنَقّصهم، حَرَامٌ، ملعونٌ فاعله[١].

---

(١) الشفا ٢/٣٠٧.

● ويذكر لنا العديد من الآثار والأحاديث النبوية والأخبار، التى توضح هذا الأمر..

- من مثل قوله - ﷺ: لا تُؤْذُونى فى عَائِشة».

وقوله فى فاطمة «بِضْعَةٌ منىّ يُؤْذِينى ما آذَاهَا».

وروى أبو مصعب عن مالك، فيمن سبَّ من انتسب إلى بيته ﷺ يُضْرَبُ ضَرْبًا وَجِيعًا، ويشهر ويحبس طويلا حتى تظهر توبته، لأنه استخفاف بحق الرسول ﷺ.

وروى عن مالك: «من سب عائشة قُتِل» قيل له لم؟ قال: من رماها فقد خالف القرآن، لأن الله تعالى يقول: ﴿يَعِظُكم الله أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أبدًا إِنْ كُنتم مؤْمنين﴾ [النور ١٧].

فمن عاد لمثله كفر.

● أما عن أصحابه.. فقد روى عن عبد الله بن مغَفَّل قال: قال رسول الله ﷺ:

«الله الله فى أصحابى، لا تتخذوهم غَرَضًا بَعْدِى، فمَنْ أحبهم فبِحُبّى أَحَبَّهُم، ومن أَبْغَضَهم فببغضى أبغضهم، ومن آذَاهُمْ فقد آذانى، ومن آذانِى فقد آذَى الله، ومن آذَى الله يُوشِك أن يأخذه».

وقال رسول الله ﷺ: «لا تَسُبُّوا أَصْحَابى فمن سَبَّهمْ فعليه لعنة الله والملائكة، والناس أجمعين، لا يقبَلُ الله منه صَرْفًا ولا عَدْلاً».

وقال ﷺ: «لا تَسُبُّوا أَصْحَابِى فإنَّهُ يجىء قومٌ فى آخر الزمان يسبُّون أصحابى، فلا تصلُّوا عليهم، ولا تُصَلُّوا معهم، ولا تناكحوهم، ولا تجالسوهم، وإن مرضوا فلا تعودوهم».

وعنه - ﷺ - «مَنْ سَبَّ أَصحابى فاضربُوه».

* قال القاضى عياض - بعد أن أورد عشرات الأحاديث والآثار - موضحا موقف العلماء فى هذا - خاصة مالك:

قال: «فمشهور مذهب مالك فى ذلك: الاجتهادُ والأدبُ المُوجع.

قال مالك: «من شَتَم النبى - ﷺ قُتل، ومن شتم أصحابه أُدِّبَ.

وقال أيضا: «من شتم أحدًا من أصحاب النبى - ﷺ - أبا بكر، أو عُمر، أو عثمان، أو مُعاوية، أو عمرو بن العاص، فإن قال كانوا على ضلالٍ وكُفر قُتِل، وإن شتمهم بغير هذا من مشاتمة الناس نُكِّلَ نكالاً شديدًا.

ثم يذكر القاضى عياض الكثير من الروايات والأخبار عن أهل الفُتْيا، وما حكموا به على من سبَّ الرسول أو زوجاته أو آل بيته، أو أصحابه..

وهنا يصل القاضى عياض إلى منتهى أمله وبغيته، بالانتهاء من تأليف السيرة النبوية فيقول:[1]

«هنا انتهى القول بنا فيما حرَّرناه، وانتجز الغرض الذى انتحيناه، واستوفى الشرط الذى شرطناه، مما أرجو فى كل قِسْم منه للمريد مَقْنَعٌ، وفى كل باب منهجٌ إلى بُغيته ومنزعٌ. وقد سفرت فيه عن نُكتٍ تُسْتَغْرَبُ وتُسْتَبْدَع، وكَرَعْتُ فى مشارِبَ من التحقيق لم يُوْرَدْ لها قبلُ فى أكثر التصانيف مشرَعٌ، وأودَعْتُه غيرَ ما فضلٍ وَدِدْتُ لو وجدتُ مَنْ بَسَط قبلى الكلام فيه، أو مقتدى يُفيدُنيه عن كتابه، أو فيه، لأكتفى بما أرويه عما أروِّيه وإلى الله تعالى جزيل الضراعة والمنة بقبول ما مِنْهُ لوجِهِه، والعفو عمَّا تخلَّله من تَزَيُّن وتصنُّع لغيره، وأن يهب لنا ذلك بجميل كرمه وعفوه لما أودعناه من شرفِ مصطفاه، وأمين وحيه»..

---

(١) الشفا ٣١١/٢.

خاتمة
فى
تقويم المنهج والدراسة

خاتمة فى تقويم المنهج والدراسة

رأينا فى الأبواب والفصول السابقة، منهج القاضى عياض فى تأليف وبناء السيرة النبوية. وهو منهج دقيق، يبصرنا بأن السيرة فى مفهومه وعقله، ليست مجرد سرد للحوادث، وإنما هى تفسير هذه الحوادث، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية، التى تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات، متفاعلة الجزئيات.

لقد كانت مصادره هى المصادر المعتمدة فى المنهج الإسلامى، مع تحرير النصوص وتنسيقها، وتطبيق قواعد التحديث رواية ودراية.. من هنا عاش القاضى عياض للسيرة وفى السيرة، بعقله وروحه، ونفسه وحسه، وشعوره ووجدانه.

عاش فى جو الإسلام عقيدة وشريعة، وفكرا ونظاما، تفسيرا وتأويلا..

عاش مدركا معطيات السيرة النبوية إدراكا حقيقيا، متجاوبا معها بكل كيانه وذاتيته، عاش فى جو السيرة النبوية بكامل مؤثراتها وإيحاءاتها..

وهذه الخصائص جميعها، قلما توجد بهذه الصورة والكيفية إلا عند باحث مؤمن، صادق الإيمان محب لرسول الله - ﷺ - مثل القاضى عياض، فله هنا مزية خاصة فى دراسة السيرة النبوية بهذه الطريقة.. ومن ثَمّ كان أقدر على التلبّس بها واستبطانها.. بعد أن ملك عليه الرسول - ﷺ - قلبه وحبه، وشعوره وكيانه، وصار حبّه - ﷺ، - منقوشا فى قلبه، مطبوعا فى عقله.

لقد درس القاضى عياض سيرة المصطفى - ﷺ - من خلال منهج إيمانى، يتصل بالدين والعقيدة، والفقه والتاريخ، والقيم الروحية، والقيم الإنسانية، ومن ثم جعل القاضى عياض استعراض أحداث السيرة، فى وحدة موضوعية، عقيدية فقهية، قرآنية حديثية، وفق معطيات دستور الإسلام، ووفق أصول

الدين، مع الاستفادة من الأرضية التاريخية الثابتة التى تحركت فوقها الأحداث ونَمت، واكتسبت ملامحها النهائية، ووفق النظرة الشمولية التكاملية، التى تدرس حركة الإسلام فى منهج شامل متكامل، له خصائصه ومقوماته، فى إطار القيم الروحية، والتوجيهات الإلهية.

وهكذا تصبح السيرة النبوية، التى ألفها القاضى عياض - مادة للتربية الإسلامية، ودليلا وترجمانا للحياة الإسلامية الممتدة، ولتصبح نبراسًا يضىء فى قلوب ونفوس الجماعة الإسلامية، عبر التاريخ وفى حياتها كلها على سواء.

وليس أدل على ذلك من تصليته، التى لخَّص فيها رؤيته للسيرة النبوية، تلخيصا مركزا مكثفا جميلا، جمع فيها كل عناصر السيرة العطرة، وأضاف إلى ما ذكره فى الشفا، عناصر جديدة تجلى مدى حبه لنبى الله ورسوله -ﷺ.

يقول فيها:[(١)]

«قال الله العظيم فى محكم كتابه الحكيم، بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ الله ومَلَائِكَتَه يُصَلُّون على النَّبِى، يـٰأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ صلُّوا وسَلِّمُوا وتَوَسَّلُوا بهذا النبى، الذى فَضَّلَه الله تفضيلاً، واتخذه حبيبًا وخليلاً، وأنزل عليه القرآن تنزيلا، وتبتَّل لربِّه تَبْتِيلاً، وسبَّح بحمد ربِّه بُكرة وأصيلا، فأناله ثوابا جزيلا، ورزقه من كل علم تأويلاً، ووفقه لسنَّته التى ليس لها تحويلا، وكان له مُعينا وكفيلا، وختم به رُسُلَه، ونهج على يديه الكريمتين سُبُلَه، وزكّى فعله، وعلّمه وفهّمه، وعقّله وعظّمه، وحكمه وعدله، وكرّمه ونعّمه ودلّله، وبالشفاعة فضّلة تفضيلا، على كل ما يأتى بعده، وكل مَنْ تقدم قبله، وانتخبه وطهره، وطيّبه وعصمه، وحجبه وأدبه، واختاره لحبه وقربه، وخط اسمه مع اسمه سطرًا على العرش وكتبه، وخصّه بالفضائل، وشرّفه بالفعائل، وصدّقه فيما هو قائل، وختم برسالته الرسائل، وصلى الله عليه، والصلاة عليه من أعظم الوسائل، صلى عليه المَلِك العلّام، هو وملائكته الكرام، وأمر جميع الأنام بالصلاة

(١) نقلا عن مجموع مسجل بالمكتبة العامة بالرباط تحت رقم ١٢٠٧ق - ورقة ١٩.

عليه والسلام، إلى يوم البعث والقيام، فقال من لم يزل غفورًا رحيًا، إجلالاً لنبيّه وتعظيًا، وولاية له وتقديما، وتشريفا له وتكريما، وإرشادًا لعباده المؤمنين وتعليما:

﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1].

صَلُّوا وتَوَسَّلُوا بالنبى الأمىّ، الهاشمى القرشى، الأبطحىّ المكىّ، المدَنِىّ الحَرَمىّ، الزَّمْزَمِىّ الحجازى، التهامى العربى، التَّقى النَّقى، الوفى القوى، الزَّكى الذَّكى، البهىّ النَّهى، السَّنى السمى، السَّخِىّ الصَّفِى، العَفِىّ الكَفِىّ، المستضىء الرضى، المرضى الذى جاء بالكتاب المضىء، وبالدين الحنفى، والقول الشرعى، والحكم الجلى، والمقام العلى، ومكّنه الله بلفظه الخفى، وحقّق له إنجاز وعده الوفى، فأشرقت بالآفاق أنواره، وتكرّرت فى المَسَامِع أخبارُه، وظهرت للأبْصارِ معجزاته، وبلغ حجة الله وتمّت بها كلماته، وختم الله به رسلَه وأنبياءه، وأمر القمر بطاعته فأجاب بالتّلبية عند ندائه، وانْشَقَّ وتفرّق[2] وصار نصفه بالغرب ونصفه بالشرق وسطع وشرق، وتكلم ونطق، فآمن مَنْ تقدم له السعد وسَبَق، وكفر مَنْ للشقاء خلق، نبى ركب البراق، وغاب عن الأبصار والأحداق، واخترق الهوى والفضا والسَّبْع الطِّبَاق، إلى منى جاءت الخلائق، فتلقاه[3]. بأحسن تلاق، وكلّمه بلسان الرحمة والإشفاق، فسبحان الذى أسرى بعَبْدِهِ من المسجد الحرام إلى مسجده الأقصى إلى حَضْرة عرشه، فتجلّى له بقُدُسه، وآنَسَهُ بلُطْفه، فأَمِنَ من خوفه، وبلغ غاية أمله، ومشى على بساط العزّة بنَعْله، ودَنَا من ربّه حتى تناول ثمار القرب بيده، دَنَا فتدلّى ولم يتأنّى، حتى كان قَابَ قَوْسَيْن أو أَدْنى، فبلغ كل وَصْلٍ ومُنَى، وأعطى جميع ما تمنى، فسجد شكرًا لله، على بساط عزة الله، وألهمه الله، فقال فى سلامه على الله: «التَّحيَّات لله، الطيِّبات لله. الصلوات لله، فتم الله عليه إنعامه، وواصل إكرامه وشرّف مقامه، وردّ عليه سلامه، كما صحّ عند أهل العلم إثباته، «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله تعالى وبركاته، فرُفِعَت له الحُجُب[4]

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٦.

(٢) أنظر فى انشقاق القمر: الشفا ١/٢٨٠ (ضمن معجزاته).

(٣) يظهر من السياق أن كلاما سقط.

(٤) وردت حادثة الإسراء والمعراج فى الشفا ج١ ص٢٠٣.

حتى سلم الحبيبُ على المحبُوب، كما سبق فى أُمِّ الكتاب مكتوب، ونال كل مطلوب، وبلغ غاية المرغوب، وشفّعه الله فى أهل كبائر الذنوب، فطار بالأمان وبالإسلام والإيمان، وبتلاوة القرآن وبصيام رمضان، وكلّمه الرحمان من غير واسطة ولا تُرْجمان، فنزل من أدراجه، والليل باق فى ذاجه، وبشر نفرا من أصحابه وأزواجه، بما عاين فى معراجه، نبى له وسيلة وفضيلة، وطلعة بهية جميلة، وأخلاق عظيمة، وذات جليلة، وصفات تامة عجيبة، وأفعال كريمة، وأقوال بليغة، وخصال حميدة، قَدُّه متوسط ما بين الحالتين، غُصن بين غُصْنَيْن، شَعْرُه إلى شَحْمَةِ الأُذُنَيْن، أَزَج الحاجبين[1]، كحيل المُقْلَتين، أَزْهَرُ الوَجْنَتَيْن[2].

أَقْنى العَرْنَين[3]، شثن الكَفين[4]، خمصان الأَخْمَصين[5]، مسيح القدمين[6]، أحنى على أمته من الوالدين، فى شعره سَبَج[7]، وفى عينه دعج[8]، وفى وجهه بَلَج[9]، وفى ثغره فَلَج[10]، وفى ريقه شفاء وفَرَج، إذا قضى كان أعدل الناس، وإذا أعطى كان أبذل الناس، وإذا رضى كان أجمل الناس، وإذا مشى كان أعدل الناس[11]، وإذا جلس كان أكمل الناس، وإذا تكلم أنصت الناس، وإذا وعظ أبكى الناس، صاحب الوَجْه المليح، واللسان الفصيح، والقول النصيح، والعقل الرَّجيح، والدين الصحيح، والنسب الصريح، من بشّر به الكَلِيم[12] والمسيح، وأخبر به

---

(١) أزج الحاجبين: دقيق الحاجبين مع امتدادهما إلى مؤخر العينين (نسيم الرياض ١/٣٣٠).

(٢) أزهر الوجنتين: قيل نيرّ، وقيل حسن، ومنه زهرة الحياة الدنيا، وقيل: أبيض مشرب بحمرة (نسيم الرياض ١/٣٢٨).

(٣) أقنى العرنين: العرنين الأنف، والمقصود: أحدب الأنف (نسيم الرياض ١/٣٣٠).

(٤) شثن الكفين: فقد ورد أنه كان ﷺ شثن الكفين والقدمين، والشثن بمعنى الغليظ.

(٥) خمصان الأخمصين: متجافى أخمص القدم، وهو الموضع الذى لا تناله الأرض (نسيم الرياض ١/٣٣٣).

(٦) مسيح القدمين: أملسهما ولا لحم عليهما (نسيم الرياض ١/٣٣٣).

(٧) سبج: خرز أسود (دخيل معرب).

(٨) دعج: شدة سواد العينين مع سعتهما (نسيم الرياض ١/٣٢٩).

(٩) البلج: نقاء ما بين الحاجبين من الشعر (نسيم الرياض ١/٣٢٩).

(١٠) الفلج: الفلج تباعد ما بين الثنايا أو ما بين الأسنان (نسيم الرياض ١/٣٣٥).

(١١) يقصد فى مشيته.

(١٢) موسى عليه السلام، كليم الله.

الخليل والذبيح، بحر الإنعام، فخر الأنام، بدر التمام، الذى بنوره أجلى الله الظلام، وذل الكفر وعَزّ الإسلام، وظهر الحق ودام، وزهق الباطل فلم يقم، فى مولده تنكست الأصنام، وبَطُل علم الكهنة حتى كأن لم يعلم، وسقطوا عن أسِرّتهم وزعَقُوا زَعْقَة الحِمَام، وحُرِست السماء بالشهب فلم ترم، والجِنَّةُ يهتفون لا يَدْرُون أشرٌّ أريد بمن فى الأرض أم الرشد والاستقام[١]، وغاصت بحيرة (ساوة)[٢]، فكأنها لم تجر يوما من الأيام، ويبس نهر (سماوة) فى الشام، وخمدت نار فارس فلم تعبد ولم تظهر، وطار التاج عن رأس كسرى فى المقام، وتصدّع إيوانه وارتجّ وأيْقَن بالانهدام، وأشرقت الأرض بالنور وارتفعت فيها أعلام..

رأت آمِنَةُ أشْياء لا تستطيع لها إعلام، مما غشيها من الأنوار العظام، لم تدر أفى اليقظة هى أم فى المنام، وفسح مجلسها ورأت فيه صورا لم تر مثلها فى المنام، ولم تجد عند حَمْلِهِ ما يَجِدْن النساءُ من الأوْحَام، ولم تحسّ به ثقلا ولا انتفخت لها بطن ولا تحرك فى الأرحام، ولم تجد عند وَضْعِه ماءً ولا ألَمًا من الآلام، ولا شعرت بخروجه حتى رأته ساجدًا للملك العلّام، فلما نظرت إليه أسرع فى وجهها الابتسام، وأراد أن يكلّمها فأمسك الله لسانه عن الكلام، فإذا بغمامة قد نزلت من السماء لا تشبه الغمام، وفيها جماعة من الملائكة الكرام، فازدحموا عليه أى ازدحام، وسلّموا عليه بأحسن سلام ونادوه: ياوَجِيهُ، يامحمدُ، يانِعْمَ الغلام، وأمه فى قلق واحتشام، تناديهم بالله خلُّوا ولدى واتركوه، ولا تأخذوه منى فتؤلموا قلبى وتوجعوه، فسمعوا مقالتها وما جهلوه، وقالوا لها أمرنا بهذا الإله لا نعصيه، فحملوه ورفعوه، وعرجوا به للسماء وعن بصرها غيَّبُوه، وطافوا على الأنبياء وللملائكة نعتوه، وإلى رضوان خازن الجنان دفعوه، وفتحوا له الجنة ودخلوه، ففرح به الحور العين وقبّلوه وكحّلُوه ودهنوه، وبالمِسْك الأذفر طيبوه، وفى حريرة خضراء قمّطوه، ونزلوا به الملائكة واستنزلوه، وبشروا به طيور الهواء وحُوت الماء وإلى والدته ردوه، وعزلوه عنها وأفردوه، وفى بيت خلىّ تركوه، وكل ذلك بأمر الله صنعوه، وهَتَفُوا به من كل مكان، ونادوها بأفصح لسان؛ ياآمنة يا أمة

---

(١) اقتباس من قوله تعالى: ﴿وأنا لا ندرى أشر أُريد بمن فى الأرض أم أراد بهم رشدا﴾ [الجن ١٠].

(٢) ساوة: موضع بعينه (لسان العرب).

الرحمان، بشرى لك، لك الأمان، هذا الوجيه، هذا المجيب، هذا أحمد، هذا محمد العدنان، هذا المبعوث فى آخر الزمان، هذا الذى سبق فى الكون جميع الأكوان، هذا الذى ببركته تاب الله على آدم من العصيان، هذا الذى بحُرمته نجا قوم نوح من الطوفان، هذا الذى من أجله رُفع إدريس لأعلى مكان، هذا الذى فى صلب إبراهيم لم تحرقه النيران، هذا الذى يكون لعيسى روح الله على أمته سُلطان، هذا الذى ترضعه من النسوان، حليمة التَّقية النقية الطاهرة الألبان، هذا الذى لا يدخل عليه فى هذا المكان أنسية ولا إنسان، إلا تمام ثمانية أيام متواليان، هذا المعصوم من الشيطان، الذى صح عند أهل الإسلام والإيمان، هذا الذى يكل عن وصف فضله اللسان.

ولما انقطعت عنه زيارة ملائكة الرحمان، وأبرزته أمه للعيان، أتته النسوة من كل مكان، يرغَبْن فى رضاعته لحُسْنِه لا لشيء من الإحسان، ولما وضع الله فى قلوبهن من الرأفة والحنان، فلم يقبل المراضع، وهو فى عزّة القانع الشابع، لا فى ذِلّة الجائع الضائع، صائم فى قُماطته غير جائع، أتته حليمة وبَعْلُها راغب خاضع، فرضع منها اليمين ولم يمسّ اليسار، وهذا من عدله فى عهد الصغار، فسرّت به حليمة وسارت وقد حفتها الأنوار، فلقيها فى بعض الطريق جماعة من الأحْبَار، كان خروجهم فى طلب الحيلة على المختار، فلمّا رأوه عقلوه بما عندهم من الآثار وصاح به كبيرهم ما هذا الإنتظار، اقتلوه يبق لكم المُلك إلى سالف الدهر وانقضاء الأعمار، فجردوا سيوفهم وقد علاهم الفرح والاستبشار، وظنوا أن لا مانع له فى تلك القفار، وحليمة تنادى: ياستار، لا تهتك الأستار، ودمعها على خَدِّها مدرار، وبَعْلُها فى دهشة وافتكار، قد ركن إلى الغرار، وأشار إليها: أن ألْقيهِ إليهم ما بعد الجهد من عار، فقالت له: يا ابن الأحرار الأخيار، أتأمرنى بفعل الأسواء الأشرار، وله إله قاهر جبار، يجيب المستجير ويمنعه ويَمْنَعُنا ببركته من هؤلاء الفجّار، فوَحَقِّه لا ألقيه إليهم ولو انتشرت بالمنشار، فلما أن كادت تصل إليها سيوف الكفار، إذا بمحمد قد فتح عينيه فأضاء الأفق واستَنار، ودعا الله باللسان الخفى لا بالجهر والإظهار، فأرسل الله عليهم نارًا فأحرقتهم وعجّل مصيرهم إلى النار.

وفى رضاعه وفطامه أخبار، وإنما قصدنا الاختصار.

هو الحبيب، هو الخليل، هو الكريم البذل الجزيل، القائم بذكر الله فى آناء الليل الطويل، العامل بسنة الله التى ليس لها تحويل، صاحب الوجه الجميل، والخدّ الأسيل، والطرف الكحيل، والقدر الجليل، والعرف الخصيل، والشرف الأصيل، والكف المقيل، والتكبير والتهليل، والتفسير والتأويل، والتيسير والتسهيل، من أخبر به التنزيل، وبشّر به التوراة والإنجيل، الموقرّ المعزّر، صاحب الخطبة والمنبر، والعمامة والمغفر، والقضيب والمحشر، والحوض والكوثر، والجبين الأزهر، والطرف الأحور، والوجه الأقمر، والريح الأعطر، والحسب الأظهر، والجد الأكبر، من بشّر وأنذر، وحجّ واعتَمَر، وحلق ونحر، وهرول ونفر[1]، ورمى بالجمار وهلّل وكبّر، وحمد وشكر، وصام وأفطر، وجاهد وانتصر، وقاتل مَنْ كَفَر، ونهى عن الفحشاء والمنكر، وبِدِينِ الله أمر، الطاهر المطهّر، المنتخب من أخيار مضر، المؤيد المنصور، المَمجّد المشكور، صاحب اللواء المنشور، والجيش الجسور، والبدن الصبور، والقلب الشكور، واللسان الذكور، والبهاء والنور، والولدان والحور، والغرفات والقصور[2]. النبىُّ الأواب، السخى الوهاب، الناطق بالصواب الذى لا يغلط فى الخطاب، ولا يعجزه الجواب، مَنْ خضعت له الرقاب، وتواضعت له الصعاب، ولاَنَت له الصم الصلاب، وتاهت بحبه الألباب، وتحيرت فى وصفه النجاب، فلا ينحصر فى كتاب، ولو تكون له الملائكة كتاب، دعا إلى الله الأعجام والأعراب، وهجر بدين الله الأهل والأقارب، وقاتلهم فى الله تعالى حتى ظهر دين الله وأناب، ونصره الله وهزم الأحزاب، ونزلت لنصره على خيول بلق بعمائم صفر تُهاب، فى يوم بدر يَقْدُمهم جبريل، بلا رَيْب ولا ارتياب، فقال المصطفى: شاهت الوجوه ونفخ فى وجوهم بقبضة من تراب، فأمر الله الريح فسرت بقبضته فأصابت بها عيون المشركين أعم مصاب، حتى لم تبق لهم (...) إلاّ وأصابها من تلك القبضة تراب، ودَعَا لأهل المدينة فأسرع لدعائه السحاب، وعاجله المطر قبل نزوله من المنبر إلى المحراب، وتواتر صَبّه من الجمعة إلى الجمعة بصَبّ صباب، ثم دعا بالصحو والطيبات

(١) إشارة إلى مناسك الحج.

(٢) فى الجنة إن شاء الله.

فبرزت الشمس وتفرق السحب عنها وذاب، النبى المكرم، الصفىّ المحترم، الحاشر الذى يحشر على عقبه الأمم، الماحى الذى يمحو الله به الزلل والأثم، سيد ولد آدم، وشفيع من عصى وندم، وزلّ به القدم، عَهْدنا الذى لا ينقضى، وحَبْلنا الذى لا يَنْصَرِم، مَنْ ضَمن لأمّته الشّفَاعة وهُمْ فى عدم العَدَم..

النبىّ المهذّب، الحبيب المقرّب، الطّاهر المطيّب، المختار المنتخب، خير الأعاجم، والعرب، وأشرفهم فى الحسب والنّسب، وأعرفهم بالعلم والأدب، لَاحِقُ من هرب، ومَا حِق من كذب، وغالب من غلب، محمد بن عبد الله ابن عبد المطّلب، خاتم الأنبياء، وقدوة الأصفياء، وجوهرة الأولياء، وإمام الأتقياء، وشفيع الأشقياء.

من غَطّى بشارة زكريا[١]، وزهادة يحيى، ولولاه لم تكن آخرة ولادُنْيَا ولاَ سَمَا مَبْنيًا، ولا أرضا مَدْحِيًا[٢]، ولا جبلًا مرسيًّا، ولا خرج من العدم شىء من الأشياء، نبىّ الثقلين، وإمام الحرمين، وسيد الكونين، وخير الفريقين، وصاحب الخُطبتين: الجمعة والعيدين، وجد السُّبْطين: الحسن والحسين، وابن الذبيحين[٣]، من نصره الله ببدر وحُنَيْن، وسَتَره فى الغار فلم تره عين.

خاتم النبيئين، وإمام المرسلين، وسيّد الأولين والآخرين، وحبيب العالمين، مَنْ خصّه بالفتح المبين، وسمّاه طه ويّس، المطاع المكين، الصادق الأمين، قائد الغرّ المحَجّلين، وكهف اليتيم والمسكين، وسيف الله المسلول على أعدائه المشركين، ورحمة الله المنشورة لعباده المؤمنين، العروة الوثقى التى ليس لها انفصام، من تمسك بها فاز بها بدار السلام، وصار فى ذمّة من لا يخفر له ذمام، عبد الله ورسوله، وحبيبه ونجيبه، وأمينه وتقيه، وصديقه ورضيّه، وحجته على جميع خلقه الذى اختاره لوَحْيِه، وقَرَن حقّه بحقّه، وصِدْقِهِ بصدقه، وكتب اسمه مع اسمه، ورفع ذِكْرِهِ بذكره، وجعل له الأرض مسجدًا طهورًا، وأحل له الغنائم وكانت

---

(١) قال الله تعالى: ﴿يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحيىَ لم نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيا﴾ [مريم ١٩]

(٢) من قوله تعالى: ﴿والأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات ٧٩].

(٣) وهما جده اسماعيل بن إبراهيم، ووالده عبد الله.

حِجرًا محجورًا، ونصره الله بالرعب سنين وشهورا، وأنزل عليه القرآن هدى ونورًا، فانتظم لفظه مسطورًا، فأحيا نفوسا وأشقى صدورًا، وبُعِث إلى الأحمر والأسود سعيا كان مشكورًا، فبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح فى المقالة، وسدّ مسلك الضلالة، وقاتَلَ أهلَ الشرك والجهالة، المختار من تهامة، المخصوص بالتاج والعِمامة، واللواء والحوض والكرامة، الشفيع فى أهوال يوم القيامة، المنقذ من الحسرة والندامة، الداعى إلى النجاح والسلامة، نبىٌّ أظَلّته الغمامة، وكلّمته الغزالة[١]، وبشّر به مبارك اليمامة[٢]، ودلّت عليه الشّامةُ والعلامة، وكان يرى ما خلفه كما يرى ما أمامه، وكلّمه الذراع المسموم[٣]، وشَكَا له البعيرُ المظلوم[٤] وأحيا للعجوز ولدها[٥]. فشبَّ فى المدينة حتى جاوز الحُلُم، وصدع بأمر الله صدعا، وقمع الباطل قمعا، وجمع الناس على الهُدَى جمعا، واتخذ الزهد ذرعا، والحِلْم طبعا، والرفض صنعا، والعلم أصلا وفرعا، وأوتى من الآيات البيّنات ألْفًا إن كان أوتى موسى تِسْعًا، فما تفجر البحر بأعجب من أنامله[٦]، إذ انبعث بالزُّلال نبعا، وما مجىء الشجر[٧] يَجُرّ عروقه كرجوع العصا حيّة تسعى.

---

(١) أنظر فصل معجزاته - ﷺ - الشفا ٣١٦/١.

(٢) مبارك اليمامة ورد فى الشفا ٣١٩/١ (أن النبى ﷺ أتى بصبى قد شبَّ لم يتكلم قط، فقال له: مَنْ أنا؟ قال رسول الله، ثم إن الغلام لم يتكلم بعدها حتى شبّ، فكان يسمى مبارك اليمامة.

(٣) انظر الشفاج ١ ص ٣١٦ - ٣١٨.

(٤) ورد فى الشفا ج١ ص ٣٠٩ (وفى خبر آخر فى حديث الجمل، أن النبى ﷺ - سألهم عن شأنه فأخبروه أنهم أرادوا ذبحه، وفى رواية: أن النبى ﷺ، قال: إنه شكا كثرة العمل. وقلة العلف) أنظر فصل فى الآيات فى ضروب الحيوانات ج٣٠٩/١.

(٥) ورد فى الشفا ج٣٢٠/١ (وعن أنس أن شابا من الأنصار توفى وله أم عجوز عمياء، فسجّيناه وعزّيْنَاها، فقالت: مات ابنى، قلنا: نعم، قالت اللهم إن كنت تعلم أنى هاجرت إليك وإلى رسولك رجاء أن تعيننى على كل شدة فلا تحملن على هذه المصيبة، فما برحنا أن كَشَف الثوب عن وجهه، فطعم وطعمنا).

(٦) الشفا ٢٨٥/١، انظر فصل فى نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته» ومنه «عن أنس بن مالك، رأيت رسول الله ﷺ، وحانت صلاة العصر، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتى رسول الله - ﷺ - بوضوء، فوضع رسوله الله - ﷺ - فى ذلك الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضأوا منه، قال: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه».

(٧) انظر «فصل فى كلام الشجر» الشفا ٢٩٨/١، وأنظر أيضا «فصل فى قصة حنين الجذع»

وكم من معجزة له تبهر، وكم من معجزة له تبهر، وآية له من أختها أكبر، رجعت له الشمس بعد الغروب حتى صلّى العصر[١] وحَنَّ له الجذع[٢]، وانشق القمر[٣]، وسلّم عليه الذِّيب[٤]، وكلّمه الحجر[٥]، وبعثه الله رحمة للعالمين، وذمة للمسلمين، وعصمة للتائبين النادمين، ونقمة للظالمين، واستخرجه الله من شجرة مباركة طيبة، باسقة عطرة ناعمة، نَبَتَ من الخليل عودها، واتّسق باسماعيل عمودها، واتصل بعدنان عنقودها، وتم بمحمد - ﷺ - صعودها، يا لها من شجرة نبتت فى أرض الصفا، وقامت على ساق الوفا، وسقيت بماء الاكتفا، لامعة البهاء، مشرقة الضياء، أصلها ثابت وفرعها فى السماء، الحقّ زهرتها، والصدق ثمرتها، والحلم ورقها، والعلم جثتها، والهدى قنوانها، والتقوى أفنانها، من تعلّق بها سَلِم، ومن. لجأ إليها (...) ومن استظل بها غَنِم، ومن عاندها حُطِم، ومن خاصمها قُصِم.

اشهدوا يا مَنْ حضر، والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيدا، اشهدوا وأيقنوا وتحققوا، أن ما خَلَق الله أتقى، ولا أنْقَى، ولا أوْفى، ولا أصْفَى، ولا أعفى، ولا أكْفَى، ولا أشفى، ولا أفضل، ولا أكمل، ولا أجمل، ولا أبجل، ولا أعقل، ولا أعدل، ولا أفلح، ولا أفصح، ولا أنصح، ولا أصلح، ولا أنجح، ولا أرجح، ولا أسمح، ولا أرأف، ولا أعرف، ولا أشرف، ولا أنظف، ولا أظهر، ولا أشهر، ولا أنور،

---

(١) ورد فى الشفا ج١/٢٨٤ «أن النبى - ﷺ - كان يوحى إليه ورأسه فى حِجْر علىّ، فلم يصلّ العصر حتى غربت الشمس، فقال رسول الله - ﷺ - أصلّيتَ يا علىّ؟ قال: لا، فقال ﷺ: اللهم إنه كان فى طاعتك وطاعة رسولك، فاردد عليه الشمس، قالت أسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعد ما غربت، ووقفت على الجبال والأرض وذلك بالصهباء فى خيبر»

(٢) انظر «فصل فى قصة حنين الجذع» وفيه، قال جابر بن عبد الله: كان المسجد مسقوفا على جذوع نخل، فكان النبى - ﷺ - إذا خطب يقوم إلى جذع منه، فلما صُنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار (النوق الحوامل) فلم يسكت إلاّ بعد أن هدهده الرسول [الشفا ١/٣٠٤]

(٣) انظر «فصل انشقاق القمر وحبس الشمس» وفيه: «عن أنس، سأل أهل مكة النبى - ﷺ - أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر مرتين، حتى رأوا حراء بينهما» [الشفا ١/٢٨٢]

(٤) انظر قصة الذيب فى الشفا ج١/٣١٠

(٥) جاء فى الشفا (١/٣٠٦) أن النبى ﷺ - أخذ كفًّا من حصى فسبحن فى يد رسول الله، حتى سمع من حوله التسبيح، ثم صبهن فى يد أبى بكر رضى الله عنه فسبحن، ثم فى أيدى الحاضرين فما سبح «انظر فصل: ومثل هذا فى سائر الجمادات ١/٣٠٦».

ولا أزهر، ولا أبصر، ولا أَشْكَر، ولا أَذْكَر، ولا أبَر، وِلا أَصْوَم، ولا أَقْوم، ولا أَكْرَم، ولا أرحم، ولا أَعْلَم، ولا أفهم، ولا أعظم، ولا أَزْعَم، ولا أنْعَم، ولا أنفق، ولا أشفق، ولا أَرْفق، ولا أَوْفق، ولا أَسْبَق، ولا أَصْدَق، ولا (...)، ولا أَعْبَد، ولا أَزْهَد، ولا أَرْشَد، ولا أَمْجَد، ولا أنجد، ولا أَوْجَد، ولا أَوْحَد، ولا أَحْمَد، ولا أَصْعَد، ولا أَسْعَد، ولا أَشْجَع، ولا أَبْرَع، ولا أَوْزَع، ولا أَكْرَع، ولا أنفع، ولا أَمْنَع، ولا أَشْفَع، ولا وطىء الثرى، ولا أحيا البرا، ولا ولدت ثَيِّبا ولا عَذْرَا، ولا يلدن أبد الآباد مثل نبينا محمد - ﷺ، ما نطق ناطق، وما طرق طارق، وما ذَرَّ شارق، وما فاح عَابِق، وما لاح بارق، وما صاح عاشق، وما دامت المغارب والمشارق، وشرف وكرّم، ومجّد وعَظَّم، ورضى الله عن كافة أصحابه أجمعين، وعن أنصاره وأصهاره الخلفاء الراشدين، وعن التابعين وتابع التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وعن الحاضرين المستمعين، وعن سائر المسلمين، والمؤمنين، والحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله على نبينا - سيدنا ومولانا محمد وعلى آله الطيبّين الطَّاهرين، وسلم تسليما، واجعل لنا بالصلاة عليه أجْرًا عظيما.

٢

الطابع العام لمؤلفاته ومصنفاته:

والباحث المدقق فى كتب القاضى عياض، التى وصلت إلى أيدينا، يستطيع أن يضع يده على عدة حقائق تتصل بمنهج الرجل فى البحث.

أولها وأهمها أن الطابع العام لكتبه عامة هو طابع النقل والرواية، والاختيار والاختصار والتمحيص والتكميل، فهو ينقل عن الشيوخ الأفاضل، القدامى والمعاصرين له، ينقل سماعا بسلاسل الإسناد، وينقل عنهم بالوجادة من كتبهم وموسوعاتهم العلمية.

● هذا الطابع نستطيع أن نجده فى كتابه «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك».

● ونستطيع أن نجده فى كتابه «بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد».

● ونستطيع أن نجده فى كتابه «الإلماع فى ضبط الرواية وتقييد السماع».
● ونستطيع أن نجده فى كتابه «مشارق الأنوار على صحيح الآثار».
● ونستطيع أن نجده فى كتابه «إكمال المعلّم بفوائد مسلم».
● ونستطيع أن نجده فى كتابه «الشفا بتعريف حقوق المصطفى».

١ - فهو يقول فى «ترتيب المدارك»، بعد أن ذكر الكتب التى نقل عنها: «وأكثر تعويلى على كتابى التُسْتَرى والضّرّاب، وتتبعت من غيرهما ما فيه زيادة فائدة، أو نادرة لم تقع فيها..»(١).

٢ - ويقول فى مقدمة «بغية الرائد».

«وطرقنا فى هذا الحديث كثيرة متشعبة، جئنا ببعضها عن أئمة شيوخنا، وبعضهم يزيد على بعض، وفى متن الحديث بينهم اختلافات وزيادات، وتقديم وتأخير، فجئنا بأكملها رواية، وأحسنها سياقا، بعد تقديم أشهر أسانيدنا فيها، إيثارًا للاختصار والائتلاف، واستظهارًا بمن نهج لنا هذه السبيل من قدوة الأسلاف، ونبّهنا على موضع الخلاف فيها، مما يفيد فائدة، أو يزيد فقرة شاردة، وثم زيادات من غير الطرق التى ذكرناها، جَلَبْنا بعضها، ونبهنا على ما أمكن منها»(٢).

٣ - ويقول فى خاتمة كتابه «الإلماع»:

«هذه فصول وأبواب انتخبناها فى هذا الكتاب، وأتينا منها بالمحض اللباب، مما يحتاج إليه طالب علم الحديث فى طلبه، ويلتزمه من وظائفه وآدابه، ويضطر إليه فى علم مآخذه ومباديه، وأتينا فى ذلك من المعقول والمنقول، ما يعترف المنصف بالإجادة فيه»(٣)

٤ - ويقول أيضا فى آخر كتابه «مشارق الأنوار»:

«وسيعلم من وقف عليه من أهل المعرفة والدراية قدره، ويوفّيه أهل الإنصاف والديانة حقّه، فإنى نخلت فيه معلومى، وبثثته مكتومى، ورصعته بجواهر محفوظى

---

(١) مقدمة الكتاب ص ١٢.
(٢) بغية الرائد: خطبة الكتاب ص ٢.
(٣) الإلماع ص ٢١٢.

ومفهومى، وأودعته مصونات الصناديق والصدور، وسمحت فيه بمضنونات المشايخ والصدور، وقد ألّفته بحكم الاضطرار والاختيار، وصنفته من منتقى النكت من خيار الخيار، وأودعته غرائب الودائع والأسرار، وأطلعته شمسا يُشرِق شعاعها من سائر الأقطار، وحررته تحريرًا تحار فيه العقول والأفكار، وقربته تقريبا تتقلّب فيه القلوبُ والأبصار، وسميته: «بمشارق الأنوار على صحيح الآثار».

٥ – ويقول كذلك فى خُطبته لكتاب «إكمال المعلم»:

«وقد اخترت للكتاب سمة على وفقه، تشهد بالإنصاف والاعتراف لذى السبق بسبقه، ووسمته بكتاب «إكمال المعلم» وتحريت فيه جهدى الصواب بفضل المُنعم، وأودعته من الغرائب والعجائب ما يعرف قدره كل مفتن بها مهتم، وقد تركنا كثيرا مما تعلق بعلم الإسناد مما لم يذكره الشيخ الحافظ أبو على، أو ذكره ولم يذكره الإمام أبو عبد الله، إذ غالب ما ذكر فى هذا الكتاب مما فى كتاب الحافظ أبى على، ولم نتتبعه لاستقصائه فى الكتاب، لكنا ذكرنا من العلل طرفا مما لم يقع فى كتاب الحافظ أبى على مما هو من شرطه، أو تركه عن قصد مما ذكره الإمام أبو الحسن الدارقطنى، فى كتابه المسمى «بالتتبع والاستدراكات على البخارى ومسلم».

٦ – ويقول فى مقدمته لكتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»:

«فإنك كرّرت علىّ السؤال فى مجموع يتضمن التعريف بقدر المصطفى – ﷺ – وما يجب له من توقير وإكرام، وما حُكْم من لم يُوَفِّ واجب عظيم ذلك القدر، أو قَصَّر فى حَقّ منصبه الجليل قُلامة ظفر، وأن أجمع لك ما لأسلافنا وأئمتنا فى ذلك من مقال، وأبيّنه بتنزيل صُوَر وأمثال»[١].

ويقول أيضا: «ولما نويت تقريبه، ودرجت تبويبه، ومهّدت تأصيله، وخلصت تفصيله، وانتحيت حصره وتحصيله، ترجمته «بالشفا»[٢].

من هنا يتضح أن القاضى عياض ناقل راوٍ، جامع مختصر، مكمل ملخّص،

---

(١) الشفا ص ٤.
(٢) الشفا ص ٧.

يجمع مادته العلمية من جميع المرويات والمسموعات والمكتوبات، ثم يضعها أمامه، فيعمل فيها عقله، فيختار ما يروق له، ويوفق بين عناصر بحثه أو موضوعه من مجموع ما جمع وحَصَر، فيختصر ويهذب، ويكمل ويلخص، ويربط بين المادة العلمية ربطا محكما بفكره الثاقب، وصبره الدائب، ويعمل فى ذلك عقله وعلمه، حتى يخرج عمله العلمى كاملا متكاملا، من حصيلة هذا الجمع واللَّم والحصر.

من هنا يمكننا القول إن منهج الرجل[1]: نقلى تكاملى حَصْرى، ومن هنا تتضح طريقته فى التأليف والتصنيف، وإنه يعتمد على المواد العلمية المجموعة، والروايات المسموعة، والآثار المكتوبة، التى صُنِّفت فى المجال الذى يكتب فيه.

والسؤال الآن: ماذا نعنى بمنهج الرواية النقلى الجمعى التكاملى؟

نعنى به.. ذلك المنهج الذى يعتمد على الرواية والسماع والنقل.

ونعنى به المنهج الذى يقوم على تجميع أقوال وآراء الشيوخ والعلماء - الأمناء - على اختلاف اهتماماتهم، وحصرها، ثم وضعها جنبا إلى جنب، ما توافق منها وما تعارض، دون مساس بجوهر الأقوال والآراء.

ونقصد به.. المنهج الموثق، المنسوب فيه كل قول أو رأى إلى صاحبه، مهما تعددت الأقوال، أو تضاربت الآراء، ما دام صاحب الرأى مذكورا فى صدر كلامه وروايته.

إن أصحاب هذا المنهج، ملتزمون بما سمعوه ودوَّنوه، أمناء على ما نقلوه عن شيوخهم، لأن كلامهم هو العلم، وهو الثقة والصدق، وإن اختلفت الآراء وتباينت.

إن أصحاب هذا المنهج، جامعون ناقلون، مكمّلون منقّحون، مختصرون مُهَذِّبون، ومصنفاتهم ومؤلفاتهم مؤلفة من جميع الآراء التى وصلت إليهم عن

---

(١) المنهج: أو المنهاج، هو لغة المذهب والطريقة والاتجاه، وقد جاء هذا المعنى فى القرآن، فى قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا منكم شِرْعَةً ومِنْهَاجًا﴾ [المعجم الوسيط ج٢ ص ٩٦٥ إصدار مجمع اللغة العربية سنة ١٩٦١].

أشياخهم، سواء بالسماع المباشر والأخذ، أو بالرواية المنقولة عن رواة ثقات عدول، أو بما وجدوه فى كتبهم من مواد علمية تتصل بما يبحثون ويدرسون ويؤلفون.

إن الباحث المصنّف من أتباع هذا المنهج، يضع على مائدة البحث كلَّ ما جمعه من العلماء السابقين الأساتذة، وأحيانا يكون له حق النقد، وأحيانا يلتزم التزاما شديدًا بهذه الأقوال والآراء، لا يفنّدها ولا يعلق عليها، إنما يعرض أقوالهم وآراءهم وتعليقاتهم كما هى، المهم أن يذكر مصادره.

لذلك كثيرا ما تختفى شخصيته العلمية، وراء منقولاته السماعية والكتابية، خاصة إن توقف عند حدود السرد والعرض، حينئذ لا يظهر من علمه إلا التعليق والربط بين الآراء، فقلّما يظهر فى صنيعه هذا شخصيته أو موهبته، لأنه يروى ما سمع أو ما قرأ وما دوّن عن السابقين، ويعرض ذلك كله فى إطار هذا المنهج الذى اختطّه لنفسه، أو فرضته عليه ظروف البحث، وطبيعة الحياة الثقافية والعلمية. وقد نجد لذلك سببا يدعم هذا الرأى..

ذلك أن القاضى عياض - أحد علماء القرن الخامس والسادس، الذين تسلّموا الأمانة من علماء الأجيال السابقة، كان قد وجد محصولا وافرًا من المادة العلمية، ومحصولا أوفر من شرحها وتحليلها، فأخذ على عاتقه دراسة هذا المحصول الوافر..

ثم إنه قد التقى بالكثير من العلماء، فى مختلف التخصصات، الذين نقلوا المصنفات بسلاسل إسنادها إليه، وإلى أمثاله، كما نقلوا إليه علوم المشرق العربى بأكملها، وكل ذلك غذّى ثقافته، وأثرى حصيلته، وساعده فى عملية التأليف والتصنيف، التى أقام أسسها على تجميع هذه الروايات والآراء، والأقوال والآثار، اتفقت أو تباينت، وهو بذلك يوفر لقارئه وسامعه مشقّة معرفة رأى كل عالم من العلماء السابقين حول الموضوع الواحد.

من هنا كانت مصنفاته ومؤلفاته محصلة كل المصنفات والمؤلفات السابقة فى الموضوع الذى يتطرق إليه، أو يبحث فيه، أو يتناوله، ومن هنا كان منهجه نقليا

تجميعيا، شاملا لكل العناصر الموضوعية الموروثة حتى عصره.

إن هذا المنهج العلمى - منهج الرواية والنقل - على الرغم من قيمته العلمية الكبيرة، يفتقر إلى أمور هامة، لو أضيفت إليه لكانت دعمًا له.

- يفتقر إلى ترجيح ما يراه صوابا، وتجريح ما يراه زائفا.
- يفتقر إلى حذف ما ليس بصحيح، أو يحمل الشطط من الآراء والروايات.
- ويفتقر ثالثا إلى نقد الآراء، لتوضيح مدى توفيق العلماء السابقين فى آرائهم أو إخلالهم.

من هنا نستطيع القول.. إن التأليف وفقا لهذا المنهج النقلى التكميلى - فى أغلبه عرض مسطّح، مروىّ مسرود، لا أثر يذكر للعمق أو النفاذ فيه، ولا أثر ظاهر لشخصية المؤلف المصنف.

أضف إلى ذلك، أن التصنيف والتأليف فى إطار هذا المنهج العلمى، المسموع المنقول، جعل أصحابه لا يتعدونه فى أغلب الأحيان، لشرط احترامهم لما سمعوه ونقلوه عن الأشياخ العلماء، الذين يكنّون لهم ولعلمهم كل تقدير وإجلال.

- ولكن ما الذى جعل القاضى عياض يلتزم هذا المنهج التزاما قويا فى مصنفاته عامة، وفى كتاب الشفا خاصة. ويقيد نفسه بما سمعه وما نقله وما ورثه عن الشيوخ من آراء وروايات؟
- ولِمَ كان يحرص على أن يسند كل رأى أو قول إلى صاحبه، إن كان مسموعا أو يذكر مصنفه أو مؤلفه إن كان مكتوبا؟

أقول: إنها الأمانة العلمية أولا وأخيرا، ثم الاعتراف بفضل هؤلاء القمم الرواسخ من العلماء، الذين بذلوا أقصى الجهد فى سبيل الوصول إلى الحقيقة.. وأخيرا، فإن هذا الالتزام كان مدعاة لتوثيق الروايات والآراء التى قيلت حول الموضوع.. لذلك وجدناه يذكر بكل إجلال شيوخه بين ثنايا مصنفاته، وفى كل مناسبة، وفى كل موضوع.

على أن هذا المنهج النقلى، وإن ذكرنا له بعض العيوب، إلّا أن ذلك لا يمنع من أن يكون له مزايا أخرى كثيرة، أبرزها:

● أنه يبين مدى اعتماد الخَلَف على السلف، والوثوق بهم وبعلمهم، لأنهم كانوا مبعث ثقة، ومصدر علم، ومنبع معرفة.

● وأنه يبدو نسبيا متكامل العناصر، يكمل العلماء الشيوخ بعضهم بعضا، فى منهج تلاميذهم، لذلك تبدو الآراء والأقوال فى صورة تكاد تكون مستوفاة. وهذا الأمر لا نجده عند عالم واحد، أو شيخ واحد.

● إن عملية إسناد الأقوال إلى أصحابها فى حد ذاتها تعتبر وثيقة علمية، تجعل فى مقدور المطّلع المدقق على مصنفات أصحاب هذا المنهج النقلى، من استخراج آراء وأقوال وتفسيرات واجتهادات كل عالم على حدة. وبذلك حفظ لنا أصحاب هذا المنهج ما لم نعثر عليه من قبل.

ومهما يكن من أمر، فإن التصنيف والتأليف فى إطار هذا المنهج، فى هذا الوقت المتقدم، وهذه البيئة المغربية، لم يكن من الممكن أن يكون بخلاف ما كان، ولا يمكن أن تتغيّر صورته أو تتحول إلى غير ما وجدنا، تجميعا للروايات والآثار والأخبار ثم عرض لها.

إن منهج القاضى عياض.. منهج تقريرى علمى مسند موثق، لا تتدخل فيه غالبا، أى سمة شخصية أو عقلية من سماته، إنما هو عرض لكل الآراء والنقول وكل التفسيرات.

فهذا كتاب الشفا، نجده مشحونا بالأقوال والآراء والتعليقات والتفسيرات، التى أوردها القاضى عياض للاستشهاد بها، تدعيما للموضوعات الكثيرة التى عرضها فى أبوابه وفصوله المتعددة حتى لقد طغت على أسلوبه الخاص، وآرائه المتضمنة.

إن بروز عنصر الرواية والنقل فى مؤلفاته عامة، وفى سيرة المصطفى ﷺ أمر طبيعى فى وقته، فالرواية كانت ركنا أصيلا من أركان العلم فى زمانه، عند المحدثين ومَنْ يتأثر بهم خاصة.

يقول أبو القاسم الكلاعى - معاصره - عن ألوان التأليف فى عصره:

«إن منها ما أقل فضيلته حسن الاختيار الذى دار عليه المدار، ومنها ما فضيلته جمع ما افترق مما تناسب، وافترق، ومنها ما يعتمد المؤلف فيها على فكره ويغترف من بحره»[1]

وتآليف القاضى عياض عامة يمكن أن تندرج تحت هذه الألوان كلها، فليس فى كتبه كتاب واحد إلا وفيه فكره من ناحية، وليس بينها كتاب واحد إلا وفيه نقله.

بيد أننا نقول للحق، إنه رغم كثرة نُقُوله ورواياته، فى منهجه التأليفى، إلا أنه كان دائما حاضرًا فى كتبه، لا تغيب شخصيته، ولا يخفت صوته، بل شخصيته بارزة حاضرة، بين ثنايا مصنفاته ومؤلفاته، خاصة فى الربط بين الآراء والأقوال، ومناقشة الآراء ونقدها إن ظهر له مجال للنقد.

٣

تحديد منهجه العلمى فى بناء كتبه

أما منهجه العلمى فى بناء مؤلفاته وكتبه، فيتضح من مقدمات هذه المؤلفات والكتب، ففى كل مؤلف من مؤلفاته - مقدمة أو خطبة - يحدد فيها منهجه الذى سيطبقه، ويذكر مصادره التى سيعتمد عليها، وهو بذلك يفيد الدارسين والباحثين، وطلاب العلم، إلى أمهات المصادر، ويكفيهم مشقة البحث عنها، وإن كان نقله عنها وأخذه منها لا يمنعه من نقدها أحيانا.

● وسمة هامة فى هذا التحديد، وهى أنه إذا خرج عن نطاق ما سبق تحديده وسطره فى مقدمة كتابه، أشار إليه ونبّه عليه.

ومن هنا وضح فى كتبه عامة عدم الاستطراد، كما هو الشأن فى كثير من كتب معاصريه، الذين انتهجوا نهج أصحاب الكتب العامة.

أما القاضى عياض وأمثاله، فقد عصمتهم الدراسات الأصولية، بمناهجها

---

(١) أحكام صنعة الكلام ص ٢٣٠.

الدقيقة - المحددة فى المقدمات - من الوقوع فى هوّة الاستطراد. بفضل هذا المنهج المحدد الموضوع تمكّن القاضى عياض من توزيع المادة الضخمة، التى تجمعت لديه لكل كتاب، وبفضله أيضا يستطيع الباحث القارئ أن يجد مطلبه فى كتبه بسهولة ويُسْر.

وكتاب الشفا يؤكد هذه الحقيقة، أى إيفاء المنهاج بالقصد من الكتاب.

فهو وإن كان يتناول سيرة الرسول المصطفى - ﷺ - من جوانب متعددة، تتصل بالشمائل النبوية ومكانة الرسول، إلاّ أنه لم يبنه بناء تاريخيا، ولم يتتبع فيه الخط الزمنى، لذلك لا نجد فيه ما نراه فى كتب السيرة الأخرى، التى تبتدئ بالارهاصات الأولى للبعثة النبوية، وتتناول جوانب مولد الرسول - ﷺ - لذلك فالخط الزمنى لا أثر له فى الكتاب.

ولقد كان الرجل أمينا ودقيقا فى تحديد مساره العلمى، حيث حدّد غرضه من تأليفه فى (بيان ما يجوز وما لايجوز فى حقّه ﷺ) وهو موضوع الباب الثالث من الكتاب، وما قبله من فصول جعله تمهيدًا، أو تقديما لهذا الباب.

٤

الطابع الجدلى.

وسمة بارزة فى تأليف السيرة النبوية، تلك هى الطابع الجدلى، القائم على المناقشة، وتوجيه الآراء، فنجده يجمع العديد من الحجج النقلية والعقلية، التى تفيده فى عرض موضوعاته. إنه يورد نقاط الخلاف ويتعقبها واحدة بعد أخرى، محللا مفندا ادعاءات الخصوم، ادعاء بعد ادعاء، وكثيرا ما نراه يحاصر خصمه من كل جهة بحُجَجه النقلية والعقلية.

ولما كان الموضوع الأساسى - فى سيرة المصطفى - ﷺ - هو بيان ما يجوز وما لايجوز فى حق الرسول - ﷺ - فقد كان من المسلّم به اتخاذ التأليف سمة الطابع الجدلى الخالص، ذلك لأن خلافا كبيرا فى هذا الأمر.

فقضية العصمة - وهى أهم قضية فى السيرة النبوية، والتى شغلت حيّزا كبيرا منها، كانت تحتاج إلى لون من المناقشة الموضوعية، لإبراز كُنْهها وما يتصل

بها، ولإثبات عصمة الرسول - ﷺ، كان القاضى عياض يرد أدلة كثيرة عن طريق تأويلها أو توهينها، ونتج عن ذلك، اصطباغ الكتاب بالطابع الجدلى الحاد عبر الكثير من الصفحات. وقد أعان القاضى عياض فى الردّ على خصومه، معرفته الدقيقة بالقرآن الكريم وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والعربية وفنونها، فاستطاع أن يرد أكثر من عشرين دليلا تمسك بها الذين جوّزوا الخطأ على النبى - ﷺ - قبل البعثة، حيث ظل يستعرض الأدلة دليلا تلو دليل، فيتناول منها ما يجد له طريقا إلى التأويل، ويوهن ما يجد له سبيلا إلى التوهين.

* فلنستمع إلى مناقشته الجدلية فى العصمة:

فإذا نفيت عنهم (أى الأنبياء) صلوات الله عليهم - الذنوب والمعاصى مما ذكرته من اختلاف المفسرين، وتأويل المحققين، فما معنى قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدمُ رَبَّه فَغَوى﴾ وما تكرر فى القرآن والحديث من اعتراف الأنبياء بذنوبهم وتوبتهم، واستغفارهم وبكائهم على ما سلف، واشفاقك، وهل يُشفق ويُتاب ويُستغفر من لا شىء؟

فاعلم وفقنا الله وإياك، أن درجة الأنبياء فى الرفعة والعلو والمعرفة بالله، وسُنّته فى عباده، وعظم سلطانه، وقوة بطشه مما يحملهم على الخوف منه جل جلاله، والإشفاق من المؤاخذة بما لا يؤاخذ به غيرهم، وأنهم فى تصرفهم بأمور لم ينهوا عنها، ولا أمروا بها، ثم أوخذوا عليها، وعوتبوا بسببها، وحذروا من المؤاخذة بها، وأتوها على وجه التأويل أو السهو، أو تزيد من أمور الدنيا المباحة خائفون وَجِلُون، وهى ذنوب بالإضافة إلى علو منصبهم، ومعاصٍ بالنسبة إلى كمال طاعتهم، لا أنها كذنوب غيرهم ومعاصيهم، فإن الذّنب مأخوذ من الشىء الدنى الرذل، ومنه ذنب كل شىء آخره، وأذناب الناس رذالهم[1].

ولاشك أن طبيعة المواضيع التى درسها القاضى عياض فى السيرة النبوية.. طبيعة جدلية حتمتها الخلافات المذهبية الفقهية والعقدية، وقد كانت هذه

---

(١) الشفا ١٦٩/٢.

الخلافات مجالا خصبا للمناقضات والمناظرات، التى كان يعقدها العلماء، ولها قواعد وأصول مدونة، مُتَوَاضع عليها، كان لابد من إتقانها.

٥

السمة الشخصية

والسمة البارزة التى تتميز بها مصنفات ومؤلفات القاضى عياض، هى السمة الشخصية، وذلك على الرغم من غلبة طابع النقل والرواية على جُل كتبه، وتبرز هذه السمة فى نوع الموضوعات التى أُلفت فيها، وفى منهجه ونقده لمصادره. كما تظهر فى الرغبة فى التفرد لديه، وفى إثبات ذاته.

فالقاضى عياض حريص - فى معظم كتبه - على القول بأنه لم يُسبق إلى هذا من الأعمال، أو إن أى أحد لم يأت به كما هو مطلوب سواه.

إن الرغبة فى تجاوز ما هو كائن تلوح فى كل مؤلفاته، وقد أوقعته أحيانا فى بعض المحظورات، ولا ينكر أحد أن عياضا كان فعلا رائد فى أكثر من مجال، سواء فيما يتصل بالمنهج، أم فيما يخص الموضوع، فقد تفردت كتبه - خاصة الشفا - فى كثير من الأشياء.

أضف إلى ذلك أن طريقته فى «المشارق» و «الغُنية» كانت فريدة، فقد رتب مادة الكتابين حسب ترتيب الحروف عند المغاربة، ثم إنه فى ترجمة شيوخه تميز بمنهج خاص، فقد كان العلماء ينهجون طريقتين فى فهارسهم، فمنهم من ذكروا شيوخهم، ومنهم من ذكروا مروياتهم، وقد أخذ القاضى عياض بالمنهجين معا.

ففى أمهات كتب الحديث، نجده يذكر الكتاب، ثم يعقبه بذكر طرقه فيه، وقد فعل ذلك تجنبا للتكرار، ولما أتى على ذكر كتب الحديث التى رواها بطرق مختلفة، عاد إلى ذكر الشيوخ، فرتبهم بحسب أسمائهم، وطبق ترتيب الحروف فى المغرب، إلّا أنه قدم من اسمه (محمد) تبركا بهذا الاسم، وتبجيلا له، وختم عمله بذكر الفهارس التى يرويها، فجاء عمله هذا متفاديا لكثير من النقص الذى اعترض بقية الفهارس[١].

---

(١) عبد السلام شقور ص ١٢٦.

٦

متى أُلِّفت السيرة النبوية؟ ولماذا؟

أما عن تاريخ تأليف السيرة النبوية، فقد ذكر القاضى عياض منها فقرة تقول:

«والقرآن العزيز الباهرة آياته، الظاهرة معجزاته على ما كان عليه اليوم مدة خمسمائة عام وخمس وثلاثين سنة، لأول نزوله إلى وقتنا هذا حجة باهرة، ومعارضته ممتنعة»[١]

ولقد استنتج منها الخفاجى[٢] وغيره، أن القاضى عياض كان يكتب الشفا سنة خمسمائة وخمس وثلاثين (٥٣٥ هـ) إلا أن المقرى أثبت فى كتابه[٣] حكاية وقعت له فى غرناطة يوم كان قاضيا بها، قال فيها:

«وكان الإمام القاضى أبو الفضل عياض - رحمه الله - كثير الإنصاف، ومما يدل على إنصافه الحق وتواضعه، ما حكاه عبد الرحمن المذكور آنفا، إذ قال: دخلت مجلس القاضى أبى الفضل عياض، إذ كان قاضيا عندنا بغرناطة، وبه جماعة من الطلبة والأعيان يسمعون تأليفه المسمى «بالشفا» فلما وصل القارئ إلى هذه الكلمات: (ومن قسم به أَقْسَط) قرأه ثلاثيا (أى قَسَط)، وكذلك فى الأم التى كان يقرأ فيها، فقلت للقاضى: وَصَل الله توفيقه: هذا لا يجوز فى هذا الموضع، فقال: ما تقول؟ فقلت: إنما هو (أقسط).

لأن المراد فى هذا الموضع (عَدَل) فالفعل منه رباعى، كما قال الله تعالى: ﴿وأقسطوا إنَّ الله يُحبُّ المقْسِطِين﴾ وأما (قَسَط) إنما هو جار كما قال تعالى: ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنّم حطبا﴾.. إلخ.

وواضح من مفهوم هذا النص، أن كتاب الشفا كُتِب قبل سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة (٥٣١ هـ) إذ إن القاضى عياض كان قاضيا بغرناطة خلال هذه السنة، كما مرّ بنا.

---

(١) الشفا ج ١ ص ٢٧٦.

(٢) نسيم الرياض ٣٢٥/٢.

(٣) أزهار الرياض ١٤/٣.

إلا أن المقرى يعلّق على هذه الحكاية فيقول: «قلت وقد رأيت نسخة من الشّفا بخط هذا الشيخ عبد الرحمن المذكور، وحكى هذه المسألة فى الطرة بخطه، كما نقلته حرفا حرفا، إلاّ قوله المسمى بالشفا فإنه لم يقله[١]».

وقد وردت الجملة التى ورد فيها فعل (أقسط) فى الشفا كما يلى:

(هو الحق ليس بالهزل، من قال به صَدَق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به أفلح ومن قسم به أقسط)[٢]. فصحّت بذلك حكاية ابن القصير، وصح أيضا أن الحكاية وقعت بخصوص الشفا كما ذكره، وانتفى احتراز المقرى إذ لا معنى له، بعد العثور على الجملة السابقة، وبناء على ذلك فإن السيرة قد ألفت قبل سنة خمس وثلاثين وخمسمائة بمدة طويلة، ولا اعتراض على هذا الاستنتاج بما جاء فى الشفا.

هذا إلى أن قول القاضى عياض «والقرآن العزيز الباهرة آياته، الظاهرة معجزاته». إلخ.

لا يفهم منه بالضرورة أن عياضا يقصد منذ السنة الهجرية الأولى، والقول هنا إنما هو تخمين لا يؤيده شىء. بخلاف حمله على بداية البعثة، الذى يؤيده دليلان: منطوق اللفظ أولا وهو قول القاضى عياض (لأول نزول القرآن) ثم الحكاية السابقة، التى أصبحت صحيحة على أصلها فى الشفا.

وحيث إن الرسول - ﷺ - لم يهاجر إلا فى السنة الثالثة عشرة لمبعثه، فقد بات من الواضح إذن، أن القاضى عياض كان يصنف السيرة النبوية سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة (٥٢٢ هـ)[٣]

* أما لماذا ألّف القاضى عياض السيرة النبوية؟

فكما علمنا وذكرنا من قبل، أن الكتابة عن الرسول الكريم - ﷺ - والتأليف فى سيرته العطرة، إنما كان ينبع من صدق محبته - ﷺ - التى كانت تملأ قلوب المسلمين، وقلب القاضى عياض خصوصا..

---

(١) أزهار الرياض ١٥/٣.
(٢) الشفا ٢٧٨/١.
(٣) عبد السلام شقور ص ١٣٣.

إن السيرة النبوية، التى ألفها القاضى عياض، لم تكن استجابة لعوامل ذاتية، تتعلق بشخص القاضى عياض فحسب، وإنما هى ثمرة لهذه العاطفة الجياشة، والحب العميق للنبى - ﷺ - ذلك الحب الذى ملأ عليه حياته كلها، فلم يعد بقادر على كَبْت عواطفه تجاهه، بل ترجم هذا الحب تقديرا وتقديسا، ووفاء بحق المصطفى - ﷺ - الذى بعثه الله رحمة للعالمين.

وليس أدل على هذا الحب من تلك التُصْلية - التى ذكرناها من قبل - والتى ألفها القاضى عياض فى الصلاة والسلام على النبى - ﷺ، كما صلى الله وملائكته عليه، وليس أدل على هذا الحنين والشوق لزيارته من تلك الرسائل، التى كان يكتبها القاضى عياض للرسول - ﷺ.

أضف إلى ذلك - أن التأليف فى السيرة النبوية، كان ثمرة من ثمار الحركة الفكرية التى كانت نشطة فى هذا العصر، خاصة وأن القاضى عياض، جعل جوهرها: «بيان ما يستحيل فى حقه وما يجوز عليه، وما يمتنع ويصح من الأمور البشرية أن يضاف إليه»

فموضوع السيرة النبوية فى مفهوم القاضى عياض عقدى وفقهى، وهو عقدى بالدرجة الأولى، لأن الجانب الفقهى فيه ليس إلا ذيلا للجانب العقدى.

وأهم موضوع على الإطلاق - درسه القاضى عياض - هو موضوع العصمة - كما ذكرنا - وهو موضوع شغل الفكر الإسلامى كله، لاختلاف الناس فى هذا الأمر. وقد بذل القاضى عياض - كما رأينا - جهودًا مضنية لإثبات العصمة للرسل جميعا، وفى مقدمتهم الرسول المصطفى - ﷺ - ولأجل ذلك اضطر لتأويل أو توهين كثير من الأقوال التى قد توحى بغير العصمة. مستعينًا فى ذلك بثقافته الدينية، وقدرته على الجدال.

وإنما ركز القاضى عياض على هذا الجانب - جانب العصمة - لأن المغرب العربى - كما ذكرنا - ابتلى بمن ادّعاها، وذلك فى حياة القاضى عياض نفسه وقبله.

والقاضى عياض إذْ يثبت العصمة للرسل - قبل البعثة - ينفيها عن غيرهم،

وكأنه - رحمه الله - رأى تطاول بعض الناس على الرسل واجتراءهم عليهم، فكتب كتابه هذا، ولذلك نجده يطيل القول فى باب (حكم من نال من الرسول بأى شكل من أشكال النيل).

إن المنهج الذى اتبعه القاضى عياض فى تأليف السيرة النبوية، منهج عقلى، يرتبط ارتباطا وثيقا بالغاية منه، وهكذا نجد الكتاب مقسما إلى أربعة أقسام:

«مكانة الرسول عند ربه، وواجب المسلمين نحوه، وبيان ما يجوز وما لا يجوز فى حقّه، أى تناول الجانب الدينى النبوى، والجانب الدنيوى الإنسانى، وأخيراً موقف الشريعة الإسلامية ممن تنقّصه أو سَبّه. والقسم الثالث هو الأهم.

ومن الطبيعى أن يلتزم القاضى عياض الطابع الجدلى فى هذا القسم، ويتمثل ذلك فى إيراده للأقوال المختلفة والرد عليها، حيث تمكن من ردّ واحد وعشرين دليلا، تمسك بها الضّالون المضلّلون، الذين جوزوا صدور الصغائر من الأنبياء، بعد النبوة، وكان ذلك تلميحا لما أرادوه من النيل من الرسول المصطفى - ﷺ[1].

وليست العصمة هى القضية الوحيدة، التى تناولها القاضى عياض، بل تناول إلى جانبها عددًا من القضايا الكلامية، منها رؤية الله تعالى، وقد رأينا فى دراستنا، أنه يذهب إلى أن رؤية الله جائزة، غير ممتنعة شرعا، ولو كان الأمر غير ذلك لّما سأل موسى ربه الرؤية، إذْ لا يمكن بحال أن يجهل نبىّ الله الكليم، ما يجوز على الله وما لا يجوز[2].

وقضية كلامية ثالثة تناولها القاضى عياض، وهى تتعلق بذات الله، وقد تحدث عنها أثناء شرحه لقول الحق سبحانه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، فكانَ قَابَ قَوْسين أَوْ أَدْنَى﴾، قال:

«اعلم أن ما وقع من إضافة الدنوّ والقرب هنا من الله أو إلى الله، فليس بدنوّ مكان، ولا قرب مدى، بل كما ذكرنا عن «جعفر بن محمد الصادق» - ليس

(١) الطاهر بن عاشور: مجلة الإيمان عدد ٧٣/٧٢ ص٢٤ السنة الثامنة.
(٢) الشفا ١٩٨/١.

بدنوّ حَدّ، وإنما دنو النبى - ﷺ - من ربّه، وقربه منه إبانة عظيم منزلته، وتشريف رتبته، وإشراق أنوار معرفته، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته، ومن الله تعالى مبرّة، وتأنيس، وبسط وإكرام، ويتأول فيه ما يتأوّل فى قوله: (ينزل ربنا إلى سماء الدنيا على أحد الوجوه، نزول إفضال وإجمال، وقبول وإحسان.. الخ)(١).

وفى موضع آخر من السيرة النبوية، يعاود القاضى عياض التعرض لموضوع ذات الله وصفاته، فنراه يبسط الكلام فى بيان موقفه، ووجهة نظره.. وعياض الأشعرى الهوية، يقول بما قالته الأشاعرة، فهو يثبت لله صفاته، إلا أنه يقول: لا علاقة لها بصفات البشر. «إلا من حيث موافقة اللفظ للّفظ. وجلّت الذات القديمة أن تكون لها صفة حديثة، كما استحال أن تكون للذات المحدثة صفة قديمة، وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة(٢).

وفى موضع آخر يذكر مقالة «الجوينى»: «مَنْ اطمأن إلى موجود انتهى إليه فكره، فهو مشبِّه، ومَنْ قطع بموجود اعترف بالعجز عن درك حقيقته فهو موّحد»(٣).

* وتتضح عقيدة القاضى عياض السلفيّة، من هذه الجملة المأثورة، وهى قوله:

«ثبَّتنا الله وإياك على التوحيد، والإثبات والتّنزيه، وجنَّبنا طرفى الضلالة والغواية من التعطيل والتشبيه بمنّه ورحمته»(٤).

ولسنا نقصد من عرض هذه الاشارات وأمثالها، أن ندرس الجانب العقدى فى السيرة النبوية، وإنما أردنا أن نُبرز - ما سبق أن ذهبنا إليه - وهو أن مصنفه الشّفا، يعد من أبرز الوثائق التى تتولى الكشف عن الحركة الفكرية فى المغرب العربى عموما، والصراع العقدى خصوصا فى عصر القاضى عياض. ويمكن أن ينضم إلى نظم الجمان، ومسائل ابن رشد، وغيرها، التى تبرز حقيقة

---

(١) الشفا ١/٢٠٥.
(٢) الشفا ١/٢٤٥.
(٣) الشفا ١/٢٤٥.
(٤) الشفا ١/٢٤٦.

هذا الصراع، الذى كان أطرافه ابن الألبيرى، وابن حمدين، وابن رشد، حول كثير من القضايا الكلامية، التى انطلقت فى الأساس من الموضوعات الفقهية. فكتاب «الشفا»، بقضاياه الفكرية التى عالجها، يصوِّر لنا أصدق التصوير ذلك الصراع، وهو بذلك أساسى لمن أراد دراسة التيارات الفكرية فى العصر المرابطى[1].

إن العصر المرابطى، الذى عاش القاضى عياض فيه ردحا من الزمن عرف اتجاهات فكرية ثلاثة: الاتجاه الفقهى، والاتجاه الصوفى، والاتجاه الكلامى. وكتاب الشفا يصور هذه الاتجاهات الثلاثة، فهو كتاب فى التصوف، ولكنه تصوف على درجة خاصة، تصور ينبع من حب الرسول - ﷺ - وعياض إنما دخل رحاب التصوف من هذا الحب، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن التصوف المغربى كله من هذا الحب نَبَع، ومن فيضه برز، والشفا أيضا كتاب فى العقائد، ثم هو أخيرا يطلعنا على وجهة نظر فقيه، وفيه قسم كامل فى الفقه إلى جانب الآراء الفقهية، التى وردت فى بقية الأبواب الأخرى[2].

٧

جانب الصياغة اللفظية:

ويرتبط بمنهجه التأليفى فى السيرة النبوية.. جانب الصياغة اللفظية، فنستطيع أن نرى فيها جانبين اثنين:

* جانبًا يغلب عليه السرد العلمى.
* وجانبًا آخر يكثر فيه التحليق فى فضاء فسيح الأرجاء معبوق بعطر الروضة الشريفة.

والحقيقة، أن النصوص التى نأى فيها عن السرد العلمى، جاءت وكأنها واحات وارفة الظلال، كان القاضى عياض يلوذ بها، ويجد فيها راحته ومسرته، فيطلق العنان لخياله، فيبدع ما شاء الله له أن يبدع، وهذه الواحات التى كان يستريح فيها عياض كثيرة، منها هذا النص الذى قدم به أبياتا له فى التشوق

(١) عبد السلام شقور ص١٣٧. (٢) المرجع السابق.

لزيارة النبى المصطفى - ﷺ - والحنين إلى مدينته المنورة، يقول فيه:

«وجدير لمواطن عمرت بالوحى والتنزيل، وتردد بها جبريل وميكائيل، وعرجت منها الملائكة والروح، وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح، واشتملت تربتها على جسد سيد البشر، وانتشر عنها من دين الله وسنة رسوله ما انتشر، مدارس آيات، ومساجد وصلوات، ومشاهد الفضل والخيرات، ومعاهد البراهين والمعجزات، ومناسك الدين، ومشاعر المسلمين، ومواقف سيد المرسلين، ومتبوأ خاتم النبيئين، حيث انفجرت النبوة وأين فاض عليها، ومواطن طويت فيها الرسالة، وأول أرض مسَّ جلد المصطفى ترابها، أن تعظم عرصاتها، وتُتَنَسَّم نفحاتها، وتقبل ربوعها وجدرانها»[٢].

فأين هذا النص بنفحاته وعبيره، من تلك النصوص التى يتناول فيها القضايا الفقهية والعقدية والمسائل التقريرية؟

إن نظرة فاحصة فى نصوص السيرة النبوية، نستطيع أن نجد من خلالها أن للقاضى عياض أسلوبين متميزين:

(أ) أسلوبًا تقريريًا، هو ثمرة جهد علمى ونشاط فكرى.

(ب) وأسلوبًا فنيًا، هو نتاج عاطفة صادقة متأججة بحب الرسول - ﷺ - وهذا الأسلوب الأخير، حقه أن يُدرج ضمن النثر الفنى الخالص.

والسؤال الآن: ما مقومات الأسلوب التقريرى عنده؟ وما خصائص الأسلوب الفنى فى السيرة النبوية؟

أما الأسلوب التقريرى: فأول سماته وأبرزها على الإطلاق التحرر من فنون البديع، أو الصور البيانية وإنما هو سرد وتقرير للحقائق.

* وسمة ثانية: يتميز بها هذا الأسلوب، هو الإيجاز الشديد المركّز. من مثل قوله:

---

(١) الشفا ٥٨/٢.

«الشجاعة: فضيلة قوة الغضب، وانقيادها للعقل. والنجدة: ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت، حيث يحمد فعلها دون خوف»[١].

«والسماحة: «التجافى عما يستحقه المرء عند غيره بطيب نفس»[٢].

«والسخاء: سهولة الإنفاق، وتجنّب اكتساب ما لا يحمد»[٣].

«وأما الحياء والإغضاء: فالحياء رقة تعترى وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهيته، أو ما يكون تركه خيرا من فعله، والإغضاء: التغافل عما يكره الإنان بطبيعته»[٤].

إن هذه التعاريف الموجزة تتميز بالتركيز الشديد، فلا حشو فيها ولا تكرار، ولا فرصة للإسهاب فى القول، فهى أشبه بالمعادلات الرياضية.

* وسمة ثالثة: لأسلوب القاضى عياض التقريرى، وهى الوضوح التام، فعلى الرغم من الإيجاز الشديد، الذى يطبع أسلوبه فى مواطن كثيرة، إلا أن القارئ لا يجد مشقة فى تتبعه، مهما كان الأمر الذى يتناوله. ولعل من أسباب هذا الوضوح فى عباراته، هو تسلسل الأفكار وترتيبها، فهو يحدد لنفسه - قبل كتابة موضوعه - مخططا واضحا، لا يحتاج إلى تكرار، أو يحتاج إلى إسهاب، بل يكتب موضوعه مستعينا بأدَلّ الألفاظ وأوضحها على المقصود، وأقصر التراكيب وأفصحها للوصول إلى مراده، حتى لو اضطر إلى مناقشة أكثر من رأى، والاستشهاد بأكثر من قول. أضف إلى ذلك أنه حين يعالج موضوعا، فإنه يمهد له بالمقدمات الضرورية، التى توحى بالغرض الذى يهدف إليه، إقرأ قوله:

«اعلم أيها المحب لهذا النبى الكريم، الباحث عن تفاصيل جمل قدره العظيم، أن خصال الجمال والكمال فى البشر نوعان: ضرورى دنيوى، اقتضته الجبلّة وضرورة الحياة الدنيا، ومكتسب دينى، وهو ما يحمد فاعله، ويقرب إلى الله زلفى» ثم هى على فنّين أيضا: منها ما يتخلص لأحد الوصفين، ومنها ما يتمازج

---

(١) الشفا ١١٤/١.
(٢) الشفا ١١١/١.
(٣) الشفا ١١١/١.
(٤) الشفا ١١٧/١.

ويتداخل، فأما الضرورى المحض، فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب، مثل ما كان فى جبلّته من كمال خلقته، وجمال صورته»[1].

وتتوالى الشروح والتقسيمات فى تسلسل محكم، كل فكرة ترتبط بما بعدها، لا اضطراب مطلقا، ولا إغراب، ولا غموض، إنما هو الوضوح التام، الذى لا خفاء فيه.

● وسمة رابعة فى هذا الأسلوب، وهى أن اتساق الجمل عنده إنما بنى على أساس خطابى. فهو خطيب مفوّه - كما نعلم - منظم الأفكار، مرتّب الذهن، لذلك وجدناه يقترض من الخطابة وسائلها، وكأنه يتخيل أن القراء أمامه مثل جمهوره، الذى كان يتصل به كل جمعة، وفى كل مناسبة دينية، ليخاطبه، فنراه يستخدم كثيرا «ضمير المخاطب»، ويسهب فى استعمال أدوات التنبيه. وينوع من جمله وعباراته، من حيث الطول والقصر، ويزاوج بين الجمل الإسمية والفعلية، ليضمن استمرار يقظة القارئ وانجذابه له. من مثل قوله:

«قد استبان لك أيها الناظر بما قررناه، ما هو الحق من عصمته - ﷺ، عن الجهل بالله وصفاته، أو كونه على حالة تنافى العلم بشىء من ذلك كل جملة بعد النبوة، عقلا وإجماعًا، وقبلها سماعا ونقلا، ولا شىء مما قررناه من أمور الشرع وأداه عن ربه من الوحى قطعا وعقلا وشرعا، وعصمته عن الكذب، وخلف القول منذ نبّأه الله وأرسله قصدًا أوعن غير قصد، واستحالة ذلك عليه شرعا وإجمالا، ونظرًا وبرهانا. وتنزيهه عنه قبل النبوة قطعا، وتنزيهه عن الكبائر إجماعا، وعن الصغائر تحقيقا، وعن استدامة السهو والغفلة، واستمرار الغلط والنسيان عليه فيما شرعت للأمة، وعصمته فى كل حالات من رضا وغضب، وجدّ ومزح، فيجب عليك أن تتلقاه باليمين، وتشد عليه يد الضنين، وتقدر هذه الفصول حق قدرها، وتعلم عظيم فائدتها وخطرها، فإن من يجهل ما يجب للنبى ﷺ، أويجوز أويستحيل عليه، ولا يعرف صور أحكامه، لا يأمن أن يعتقد فى بعضها خلاف ما

---
(١) الشفا ٥٤/١.

هى عليه، ولا ينزهه عمّا لا يجب أن يُضاف إليه، فيهلك من حيث لا يدرى»[١].

أما الأسلوب الفنى، الذى يصور عاطفته للرسول - ﷺ - فيتمثل فى تلك النصوص النثرية المتميزة، التى وشح بها السيرة النبوية، والتى فطن إليها القدماء، فجمعها بعضهم فى مصنف مستقل، كما فعل محمد بن الحسين بن محمد الحالقى (ت ٧٧١ هـ) فى مصنفه «لباب الشفا»[٢]

من هذه النصوص: الفصل الذى عقده لبيان فصاحة الرسول - ﷺ.

والفصل الذى تناول فيه بالحديث إعجاز القرآن.

ويضاف إلى ذلك خطبته على الكتاب، فهى خطبة مشحونة بألوان من الأصباغ البديعية، بناها القاضى عياض على حرف واحد، فكان السجع لها بمثابة القافية فى الشعر.

وعمد أيضا إلى الازدواج، فزاوج بين جُمله، وزاوج بين الجمل الاسمية والفعلية كعادته، فأضفى على أسلوبه حيويّة فياضة، هذا عدا الألوان الأخرى الزاهية من الطباقات والتقسيمات.

٨

أخطاء علمية..

بقى أن نتحدث عما وقع فيه القاضى عياض من أخطاء علمية وهنات موضوعية..

١ - من هذه الأخطاء: زعمه أن الذَّبيح اسحاق بن إبراهيم[٣].

ويبدو أن العامل الأساسى فى وقوعه فى هذا الخطأ، هو اعتماده على ما رواه كثير من المفسرين، منهم ابن جرير الطبرى، والبغوى من روايات كثيرة، عن بعض الصحابة والتابعين، بل رفعوا ذلك إلى النبى ﷺ.

---

(١) الشفا ١٧٢/٢.

(٢) توجد منه نسخة مخطوطة بجامع الزيتونة تحت رقم ٢٧٦/٢، وانظر تاريخ الأدب العربى - لكارل بروكلمان ج٦ ص٢٦٦.

(٣) الشفا ٩٩/١ (قال: ابتلاء اسحاق بالذبح).

١ - فقد روى ابن جرير، بإسناد طويل، عن الحسن بن دينار، عن على بن زيد بن جدعان، عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب، عن النبى ﷺ قال: «الذبيح اسحاق».

٢ - وأخرج الدُّيلمى بسنده، عن أبى سعيد الخُدْرى، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن داود سأل ربَّه مسألة، فقال: اجعلنى مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فأوحى الله إليه أنى ابتليت إبراهيم بالنار فصبر، وابتليت اسحاق بالذَّبح فصبر، وابتليت يعقوب بالعمى فصبر».

٣ - وأخرج الدارقطنى والدَّيلمى - فى مسند الفردوس - بسندهما، عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ الذبيح إسحاق.

وكان الأحرى بالقاضى عياض وهو من كبار المحُدثين، المشهود لهم بالحصافة وقوة الفكر، وغزارة العلم وسعة الاطلاع، أن يتحرى صحة هذه الأحاديث، وينظر فى حقيقة الأمر، بدلا من أن ينقلها كما هى، اعتمادًا على المصادر السابقة.

إن الباحث المطّلع على كتب الرجال، وكتب الصحاح المعتمدة، يجد أن هذه الأحاديث كلها ضعيفة، وموضوعة، وسلاسل الإسناد لها مطعون فيها.

فالحديث الأول: الذى رواه ابن جرير، ضعيف ساقط، ولا يصح الاحتجاج به، فالحسن بن دينار راوية متروك، وشيخه على بن زيد بن جدعان منكر الحديث[١].

والحديث الثانى، الذى أخرجه الديلمى، والحديث الثالث، الذى أخرجه الدارقطنى والديلمى، من الأحاديث الضعيفة، التى لا تصح ولا تثبت، كما أن أحاديث الديلمى - فى مسند الفردوس - شأنها معروف، أضف إلى ذلك أن الدارقطنى ربما يخرج فى سُننه ما هو موضوع[٢].

---

(١) تفسير البغوى ١٥٤/٧.

(٢) انظر أعلام المحدثين (ترجمته) للشيخ محمد محمد أبى شهبة.

أقول: إن المرويات فى أن الذبيح «إسحاق» واضح فيها أنها من الإسرائيليات المدسوسة، التى تسرّبت ونقلها من أسلم من اليهود ككعب بن الأحبار، وحملها عنهم بعض الصحابة والتابعين، تحسينا للظن بهم، يوم أن منحهم الرسول الكريم ﷺ الرّخصة وقال لهم:

«لاَ تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ ولاَ تُكَذِّبُوهُم، وقُولُوا آمَنَّا بالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْنَا، وما أُنزِلَ إِلَيْكُم، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُم وَاحِدٌ ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون»﴾[1].

فقد نُسب كثير من هذا كذبا إلى الصحابة، والسلف الصالح، كابن عباس، وابن مسعود، وأُبىّ بن كعب وغيرهم ممن عرفوا بالثقة والعدالة، واشتهروا بين المسلمين بالتفسير والتحديث، وقد تمّ دخول هذه الاسرائيليات فى تفسير القرآن الكريم بسهولة ويُسر بالغين، منذ الصدر الأول. ولم يَحُل دُون ذلك شهادة القرآن على اليهود بتقوّلهم على الله، وتزييفهم التوراة.

قال الحق سبحانه:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بالكِتَابِ لِتَحْسَبُوه مِنَ الكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ، ويَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ الله وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ الله، وَيَقُولُون عَلَى الله الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُون﴾ [آل عمران ٧٨].

ولقد اغترّ كثير من العلماء بما قرأوه من روايات غير صحيحة، عن الصحابة والتابعين، فذهبوا إلى أن الذبيح إسحاق - عليه السلام - وما من كتاب من كتب التفسير والتاريخ إلّا ويذكر فيه الخلاف بين السلف فى هذا، إلّا أن منهم من يُعقّب ببيان وجه الحق فى هذا، ومنهم مَنْ لا يعقّب اقتناعًا بها.

والحقيقة أن هذه المرويات - كما قلنا - من دسّ ووضع أهل الكتاب، خاصة اليهود، لعداوتهم المتأصلة من قديم الزمان للنبى الأمىّ العربى محمد ﷺ. وقومه العرب، ذلك أنهم أرادوا أن لا يكون «لإسماعيل» الجد الأعلى للنبى وللعرب، فَضْل فى أنه الذبيح، حتى لا ينجرّ ذلك إلى النبى ﷺ وإلى الجنس العربى، من أجل ذلك حرفوا كتابهم المقدس «التوراة» إمعانا فى التضليل،

---

(١) رواه البخارى.

وإضمارًا للحقد، وإبرازًا لفضل جدهم «إسحاق» - عليه السلام، على أخيه الأكبر «إسماعيل».

بيد أن عناية الله أبت إلاّ أن يُنْسَب الفضل لأهله، فلم تغفل عن هذا التضليل والتزوير، وحكمة الله أن يترك الجانى دائما من البصمات والآثار ما يدل على جريمته، وإرادته سبحانه أن يبقى دائما للحق شعاع ولو خافت يرشد إليه، مهما حاول المُضَلِّلون إخفاء نوره، وطمس معالمه.

وهذا هو الدليل:

١ - جاء فى التوراة [الاصحاح الثانى والعشرون فقرة ٢] ما نصه:

«فقال الرب: خُذْ ابنك وحيدك الذى تحبه «إسحاق» واذهب به إلى أرض المرايا، واصعده هناك مُحْرَقَة على أحد الجبال، الذى أقول لك...».

وليس أدل على التحريف من كلمة «وحيدك» فاسحاق لم يكن وحيدًا لأبيه إبراهيم، فقد وُلد واسماعيل فى نحو الرابعة عشرة، كما هو مذكور فى تواتهم، وقد بقى اسماعيل عليه السلام حتى مات أبوه إبراهيم، وحضر وفاته ودفنه.

٢ - جاء فى سفر التكوين [الإصحاح السادس عشر، الفقرة ١٦] ما نصه:

«وكان أبرام (أى إبراهيم بالعبرية) ابن ست وثمانين سنة، لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام».

٣ - وجاء فى سفر التكوين [الاصحاح الحادى والعشرون الفقرة ٥] ما نصه:

«وكان أبرام ابن مائة سنةحين وُلد له اسحاق ابنه».

٤ - وجاء فى سفر التكوين [الاصحاح الحادى والعشرون، الفقرة ٩] ما نصه:

(٩) ورأت سارة (ابن) هاجر المصرية الذى ولدته لإبراهيم يمرح (١٠)

فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى اسحاق (١١) فقبح الكلام جدًا فى عينى إبراهيم لسبب ابنه (١٢) فقال الله لابراهيم، لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام، ومن أجل جاريتك فى كل ما تقول سارة، اسمع لقولها لأن باسحاق يدعى لك نسل (١٣) وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نَسْلُك..» إلى آخر النص.

وكتاب الله الكريم، القرآن العظيم، خير شاهد على ما جاء فى الكتب السماوية الأخرى، فهو المهيمن عليها، وقد صدق على ذلك، فقال حكاية لمقالة إبراهيم وإسماعيل بعد أن بنيا البيت:

﴿رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة ١٢٨]

ولو أن اليهود وَعَوْا ما جَاءَ فى القرآن والتوراة، لعلموا أنه ستكون أمة لها شأنها من نسل إسماعيل - عليه السلام، ولما حَسَدُوا العرب على هذا الفضل، فكيف يتأتى أن يكون اسحاق وحيدًا؟

فإذا كان الذبيح - كما وضح الآن - هو إسماعيل، فما الدليل على ذلك؟

إن القرآن الكريم، والسنة المطهرة فيهما الردّ الكافى الشافى لهذا الموضوع..

* ففى القرآن الكريم: الدليل على أن الخليل إبراهيم ﷺ أسكن هاجر وابنها الوليد اسماعيل عند مكان البيت المحرّم: ﴿رَبَّنَا إنِّى أَسْكَنْتُ مِن ذُرِّيَّتى بوادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عندْ بَيْتِكَ المحرّم، ربَّنا لِيُقيمُوا الصَّلَاةَ فأجعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إلَيْهِم، وارْزُقهمُ مِنَ الثَّمرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

ثم بنى إبراهيم البيت، تنفيذا لأمر ربه، وساعده إسماعيل وهو غلام فى بنائه، وقامت مكة بجواره ﴿وإذْ يرفَعُ إبْراهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ واسْمَاعِيلُ،رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَليم﴾.

وأيدت ذلك التوراة، فقالت: إنهما كانا فى ﴿بَرِيَّة فَارَانْ﴾ وفاران هى مكة، كما يُعَبِّر عنها فى العهد القديم، وهذا هو الصحيح فى أن قصة الذَّبح كانت بعد ذلك، وكان مسرحها بمكة ومنى، وفيها يذبح الحجاج ذبائح الأضحية إلى اليوم.

والعجيب فى الأمر، أن اليهود حرفوا هذا النص، وجعلوه (جبل المُريا) وهو الذى تقع عليه مدينة أورشليم القديمة، مدينة القدس العربية اليوم، ليحققوا هدفهم فى زعمهم أن الذبيح إسحاق، وهذا ما أظهر تحريفهم، وهذا ما فضحه القرآن:

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبعوُه، وَهَذَا النَّبِيّ والَّذِينَ آمَنُوا واللهُ وَلِيّ الْمُؤْمِنِين، وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكتَاب لَوْ يُضِلُّونكُم ومَا يُضِلُّونَ إلاَّ أَنْفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُون﴾ [آل عمران ٦٧، ٦٨].

أما السنة المطهرة، فقد دلت الأحاديث النبوية الصحيحة، والآثار عن الصحابة والتابعين، ما يثبت أن الذبيح هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام، ومنها ما يلى:

١ - ماروى عن النبى ﷺ أنه قال: «أنا ابنُ الذبيحين»[١] يعنى جده الأعلى اسماعيل وأباه عبدالله.

٢ - ماروى عبدالله بن سعيد الصنابحى، قال: حضرنا مجلس معاوية، فتذاكر القوم (إسماعيل وإسحاق) أيهما الذبيح، فقال بعضهم إسماعيل، وقال بعضهم إسحاق، فقال معاوية: علي الخبير سقطتم، كُنّا عند رسول الله ﷺ فأتاه أعرابى، فقال: يا رسول الله، خلفت الكلأ يابسا، والمال عابسًا، هلك العيال، وضاع المال، فعُدْ علىَّ مما أفاء الله تعالى عليك «يا ابْنَ الذَّبِيَحيْن»[٢] فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه، فقال القوم: مَنْ الذبيحان يا أمير المؤمنين؟ فقال: إن عبد المطلب لما أُمر بحفر زمزم، نذر لله إن سَهَّل أمرها أن ينحر بعض بنيه، فلما فرغ أُسْهَم بينهم (أى اقترع) فكانوا عشرة، فخرج السهم على «عبدالله» فأراد أن ينحره، فمنعه أخواله بنو مخزوم، وقالوا: ارْضِ ربَّك وافْدِ ابْنَك، ففداه بمائة ناقة.

قال معاوية: هذا واحد، والآخر إسماعيل[٢].

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك وصححه وقال حديث حسن، وذكر الزمخشرى فى كشافه عند تفسير الآيات (١٠١ - ١٠٧) من سورة الصافات، وذكره النسفى أيضا.

(٢) رواه ابن جرير فى تفسيره بسنده عن عبد الله بن سعيد.

٣ - وروى ابن اسحاق، عن محمد بن كعب القرظى، أنه ذكر ذلك لعمر ابن عبد العزيز، وهو خليفة، فقال له عمر: إن هذا الشىء ما كنت أنظر فيه، وإنى لأراه كما قلت، ثم أرسل إلىّ رجلًا كان يهوديا فأسلم وحَسُنَ إسلامه، وكان من علمائهم، فسأله: أى بنى إبراهيم أمر بذَبْحِهِ؟ فقال: اسماعيل «والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتَعْلَم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب، وهذا هو الحق الذى يجب أن يُصار إليه».

قال ابن كثير معلّقا: والذى استدل عليه محمد بن كعب القرظى، على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى، والله أعلم[1].

ويضيف العلّامة ابن القيّم: «ولا خلاف بين النسّابين أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام، واسماعيل هو القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأما القول بأنه إسحاق فباَطِل من عشرين وجها»

وقد نقل ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية فى هذا الموضوع تحليلا دقيقا، جاء فيه:

هذا القول متلقى عن أهل الكتاب مع أنه باطل بنصّ كتابهم، فإن فيه «إن الله أمر إبراهيم بذبح ابنه «بِكْرِه» وفى لفظ «وَحِيَده». ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن «إسماعيل» هو بِكْر أولاده - أى أولهم، والذى غرَّ هؤلاء: إنه فى التوراة التى بأيديهم: «اذبح ابنك اسحاق» قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله: «اذبح بِكْرَك ووحيدك». ولكن اليهود حسدت بنى اسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويختاروه لأنفسهم دون العرب، ويأبى الله إلاّ أن يجعل فضله لأهله...

وكيف يسوّغ أن يقال: إن الذبيح اسحاق؟ والله تعالى قد بشّر أم اسحاق به وبابنه يعقوب قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بإِسْحَاقَ، ومِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود ٧١].

فمحال أن يبشرها بأن يكون لها ولد، وللولد ولد، ثم يأمر بذبحه.

(١) تفسير ابن كثير للآيات. وانظر تفسير البغوى ١٠٦/٧.

ويدل عليه أيضا: أن الله ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح فى سورة الصافات، ثم قال: ﴿وَبَشَّرْنَاه بِإِسْحَاقَ نَبِيا مِنَ الصَّالِحِين﴾ [الآية ١١٢] وهذا ظاهر جدًا فى أن المبشر به غير الأول، بل هو كالنَّص فيه، وغير معقول فى أفصح الكلام وأبلغه، أن يُبَشَّر باسحاق بعد قصة يكون فيها هو الذبيح.. فتعيَّن أن يكون الذبيح غيره.

● وأيضا.. فلا ريب أن الذبيح كان بمكة، ولذلك جُعلت القرابين يوم النحر بها، كما جُعل السعى بين الصفا والمروة، ورمى الجمار، تذكيرًا بأن اسماعيل وأمه، وإقامته لذكر الله.

ومعلوم أن اسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة، دون اسحاق وأمه، ولو كان الذبح بالشام كما يزعم أهل الكتاب، لكانت القرابين والنحر فى الشام - لا بمكة.

● وأيضا، فإن الله سبحانه - سمَّى الذبيح ﴿حَلِيمًا﴾ لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه، ولما ذكر (اسحاق) سماه ﴿عَلِيمًا﴾: ﴿قَالُوا لا تَخَفْ وبَشَّرُوهُ بِغُلَام عَلِيم﴾ [الذاريات ٢٨] وهذا (إسحاق) بلا ريب، لأنه من امرأته وهى المبشَّرة به، وأما (اسماعيل) فمن السُّرية، أى الجارية، وأيضا، فلأنهما بُشِّرَا به على الكبر واليأس من الولد، فكان ابتلاؤهما بذبحه أمرًا بعيدًا وأما اسماعيل فإنه وُلد قبل ذلك».. إلى آخر ما قال[1]

٢ - ومن الأخطاء التى وقع فيها القاضى عياض: حديثه عن خطيئة داود[2]، وهذا القول لا يتفق مع حديثه عن عصمة الأنبياء. وكان عليه أن يتحرى الأمر قبل أن ينقل ما نقل، ويذكر ما ذكر.

فداود - هذا النبى الكريم، الذى اختصه الله بالحكمة وفَصْل الخطاب، كما اختصه بالقوة فى العبادة، وشِدّة الاجتهاد، واختصه بنزول كتابه الزبور، واختصه كذلك بالقوة الجسدية والعضلية التى يسّرت له إلانة الحديد، وجمع له بين

---

(١) انظر زاد المعاد ج ١ ص ٢٨ - ٣٠.

(٢) قال: «ولم يُر (أى داود) ضاحكا بعد الخطيئة، ولا شاخصا ببصره إلى السماء» ج١ ص١٥١

الدين والدنيا، بين النبوّة والمُلْك. تعرض لامتحان رهيب، أورد العلماء أخباره، وإن اختلفوا فى كنهه وأسبابه.

● فقال قوم: كان سبب ذلك أنه تمنّى يوما من الأيام على ربه - تعالى - منزلة آبائه، إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وسأله أن يمتحنه بمثل الذى كان يمتحنهم، ويعطيه من الفضل مثل الذى أعطاهم.

فروى السُّدى والكلبى، ومقاتل عن أشياخهم، فقالوا:

«كان داود - عليه السلام - قد قسم الدهر ثلاثة أيام، يوما يقضى فيه بين الناس، ويوما يَخْلُو فيه بنسائه، ويوما لعبادة ربه، وقراءة الكتب، وكان يجد فيما يقرأ من الكتب فضل ابراهيم وإسحاق ويعقوب - عليهم السلام، فيقول: يارب أَرَى الخير قد ذهب به آبائى، الذين كانوا قبلى، فأوحى الله - تعالى - إليه أنهم ابْتُلُوا ببلايا لم يُبْتَل بها أحد فصبروا عليها.. ابتلى إبراهيم - عليه السلام - بنار النمروذ وبذبح ولده، وابتلى يعقوب بالحزن وذهاب بَصَرِه على يوسف، وإنك لم تُبْتَلَ بشىء من ذلك. فقال داوود - عليه السلام - يارب فابْتَلِنِى كما ابتليتهم، وأعطنى كما أعطيتهم، فأوحى الله تعالى إليه، إنك مُبْتَلَى فى شهر كذا.. فى يوم كذا، فاحترس على الصبر.. فلما كان اليوم الذى وعده الله، دخل داود محرابه، وأغلق بابه، وجعل يصلى، ويقرأ الزبور استعدادًا للأمر.

فماذا كان نوع الابتلاء العظيم، والامتحان الرهيب؟

● ذكر ابن جرير، وابن أبى حاتم، والبغوى والسيوطى[1]، من الأخبار والوقائع ما تقشعر من هوله الأبدان، قالوا: «بينما داود فى محرابه يصلى، إذ جاءه الشيطان، وتمثل فى صورة حمامة من ذهب، فيها كل لون حسن، فوقعت بين يديه، فمدّ يده ليأخذها، فلما أهوى إليها، طارت غير بعيد، من غير أن تُؤَيسه من نفسها، فامتد إليها ليأخذها، فتنحّت فتتبّعها، فطارت فوقعت فى كوّة المحراب، فذهب ليأخذها، فطارت من الكوة، فنظر داود أين تقع، فيبعث إليها مَنْ

(١) الدر المنثور ج ٥ ص.٣٠٠

يصيدها، فإذا هو بامرأة فى بستان على شط بركة تغتسل» هذا قول الكلبى.

قال السّدّى: رآها تغتسل على سطح لها، فرآها من أحسن النساء خَلْقا، فتعجب داود من حُسْنها، وحانَتْ منها التفاتة، فأبصرت المرأة ظل داود، فنشرت شعرها، فغَطّى بدنها كله، فزاد بذلك إعجابا بها، فسأل عنها، فقيل له: هى سابع بنت شائع، امرأة أورياء بن حنّان، وزوجها فى غزاة البلقاء مع أيوب بن صوريا، ابن أخت داود.

فكتب داود إلى ابن اخته أيوب، صاحب بعثة بلقاء، أن ابعث أورياء إلى موضع كذا وكذا، وقدمه على التابوت، وهو صندوق فيه بعض مخلّفات أنبياء بنى إسرائيل، فكانوا يقدمونه بين يدى الجيش كى يُنْصَرُوا، وكان المقدم على التابوت لا يحل له أن يتقهقر إلى ورائه، حتى يفتح الله على يديه، أو يستشهد، فبعث به، ففتح له، فكتب إلى داود بذلك، فكتب إليه داود أيضا. أن ابعثه إلى غزوة كذا، وكان رئيسها أشد منه بأسًا، فبعثه فقُتِل فى المرة الثانية، فلما انقَضَتْ عدّتُها، تزوجها داود.

فلما دخل داود بامرأة أورياء، لم يلبث إلا يسيرًا حتى بعثَ الله مَلَكَيْن فى صورة رجلين، فطلبا أن يدخلا عليه، فوجداه فى يوم عبادته، فمنعهما الحراس أن يدخلا عليه، فتَسَوَّرا المحراب وهو يصلى، فما شعر إلّا وهما بين يديه جالسان، فذلك قوله تعالى:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ، إذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُم﴾ [سورة ص ٢١]

ففزع منهم داود حين هجما عليه فى محرابه بغير إذنه، لأنه كان فى محرابه، وهو أشرف مكان فى داره، وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلّا بشخصين قد تسوّرا عليه المحراب، أى احتاطا به يسألونه عن شأنهما..

﴿قَالُوا: لا تَخَفْ، خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بعضٍ، فاحْكُم بَيْنَنَا بالحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾

أى لا تخف منا فنحن فوجان مختصمان، تَعَدَّى بعضُنَا على بعض، فاحكم بيننا

بالعَدْل، ولا تجُرْ ولا تفرط، ولا تظلم فى الحكم ﴿واهْدِنَا إلى سَوَاءِ الصِّرَاط﴾ أى وارشدنا إلى وسط الطريق، يعنى إلى الطريق الحق المستقيم الواضح.

وهنا نكون قد وصلنا إلى موضوع القضية، بداية قصة الخصمين المتخاصمين:

قال أحدهما: ﴿إنَّ هَذَا أخِى لَهُ تِسْعٌ وتسْعُونَ نَعْجَةً وَلِى نَعْجَةٌ وَاحِدَة﴾ [سورة ص ٢٣]

فقال: ﴿أكْفِلْنيها﴾ أى أعطنيها وتحول لى عنها، ملِّكْنى إيَّاهَا ﴿وعَزَّنِى فى الخِطَاب﴾ أى غلبنى فى الخصومة، وكان أفصح منى، وشدّد علىَّ فى القول وأغلظ، وإن حارب كان أبطش منى..

فقال داود: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إلَى نِعَاجِهِ﴾ أى لقد ظلمك بهذا الطلب حين أراد انتزاع نعجتك منك ليكمل ما عنده إلى مائة.

● قال السدى: -بإسناده- إن أحدهما لما قال (إنَّ هَذَا أخِى لَه تِسْعٌ وتسْعُونَ نَعْجَة)

قال داود للآخر: ما تقول؟، قال: إن لى تسعا وتسعين نعجة، وله نعجة واحدة، فأريد أن آخذها منه وأكمل نعاجى مائة، قال: وهو كاره؟ قال: نعم. قال داود: إذًا لا نَدَعَك، وإن رُمْت ذلك ضربنا منك هذا وهذا، يعنى طرف الأنف وأصل الجبهة.

فقال الرجل: يا داود.. أنت أحق بضرب هذا منى، حيث كان لك تسع وتسعون امرأة، ولم يكن لأورياء إلاّ امرأة واحدة، فلم تزل تعرضه للقتال حتى قُتل، وتزوجت امرأته.

فهذا هو وجه الآية، وقصة الامتحان، إلاّ أن داود حَكَم قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر.

قيل: ثم إن داود نظر فلم ير أحدًا، فعرف ما قد وقع فيه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أنَّمَا فَتَنَّاه﴾ أى ابتليناه، أى علم وأيقن إنما اختبرناه بهذه الحادثة، وتلك الحكومة.

هذه القضية، قضية الابتلاء، بهذه الأحداث والوقائع، كانت مثار نقاش كبير وجدل كثير، منذ قديم الزمان، وخَبَّ فيها ووضع القصّاص ونَقَلة الأخبار والرواة الكثير من الأقوال، وقد ساعدهم على ذلك، أن فى التوراة والإنجيل ما يثبت لبعض الأنبياء كداود، ما يترفع عنه عامة الناس، فكيف الحال مع الأنبياء والمرسلين؟

ونحن المسلمين المتمسكين بالكتاب والسنة، نقول بعصمة الأنبياء، وترفعهم عن الدنايا والسقطات، وبُعْدهم عن سفاسف الأمور قولا وعملا، فإننا نرى أن زعماء الإصلاح، على مرّ الدهور، قوم غير عاديين، يكونون غالبا بعيدين عن الدنايا، والأنبياء - عليهم رضوان الله وسلامه، أولى بذلك منهم، لأنهم قوم اصطفاهم الله، واختارهم، وصنعهم على عينه، فأرواحهم طاهرة، ونفوسهم عالية، يستحيل عليهم ما ذكره أحبار اليهود، فى حقهم، ونقله بعض علماء المسلمين، ورووه على ألسنتهم، ودوّنوه فى كتبهم بحُسن نيّة.

ولم يقف الأمر عند هذه الروايات الموقوفة عن بعض الصحابة والتابعين، من أمثال ابن عباس وابن مسعود، وأنس بن مالك، وغيرهم بل جاء بعضها مرفوعا إلى النبى ﷺ قال السيوطى: فى الدر المنثور[1]. وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، وابن جرير بسنده، عن أنس بن مالك - رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إن داود - عليه السلام - حين نظر إلى المرأة، قطع على بنى إسرائيل، وأوصى صاحب الجيش، فقال: إذا حضر العدوّ فقرّب فلانا بين يدى التابوت، وكان التابوت فى ذلك الزمان يستنصر به، من قدم بين يدى التابوت لم يرجع حتى يقتل أو ينهزم معه الجيش، فقتل وتزوج المرأة، ونزل الملكان على داود - عليه السلام - فسجد، فمكث أربعين ليلة ساجدًا، حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه. فأكلت الأرض جبينه، وهو يقول فى سجوده:

«ذُلّ داود ذلّة هى أبعد مما بين المشرق والمغرب، ربّ إن لم ترحم ضعف داود،

---

(١) ج ٥ ص ٣٠٠

وتغفر له ذنبه، جعلت ذنبه حديثا فى الخلائق من بعده، فجاء جبريل - عليه السلام - بعد أربعين ليلة، فقال: يا داود إن الله تعالى قد غفر لك الهمّ الذى هَمَمْت به، فقال داود: قد علمت أن الله قادر على أن يغفر الهمّ الذى هَمَمْتُ به...»

والذى لا شك فيه، أن هذه الرواية وأمثالها منكرة ومُخْتَلَقة على رسول الله - ﷺ، وقد فطن إلى ذلك العلّامة ابن كثير السلفى، فقال فى تفسيره:

«وقد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الاسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبى حاتم هنا حديثا لا يصح سنده، لأنه من رواية يزيد الرقاشى عن أنس - رضى الله عنه - ويزيد وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة. ومن ثَمّ يتبين لنا كذب رفع هذه الرواية المنكرة إلى رسول الله - ﷺ، ولا نكاد نصدق ورود هذا عن نبىّ الله داود، الذى مدحه الله بخصال جمّة، واختصه بهبات لم يخصّ بها غيره، وإنما هى اختلاقات وأكاذيب من إسرائيليات أهل الكتاب.

وهل يشكّ مؤمن عاقل، يقرّ بعصمة الأنبياء فى استحالة صدور هذه الواقعة عن داود - عليه السلام، ثم يكون على لسان من؟ على لسان مَنْ كان حريصا على تنزيه إخوانه الأنبياء عما لا يليق بعصمتهم، وهو نبينا المصطفى - ﷺ(١)

● ولو أن القصة كانت صحيحة، لذهبت بعصمة داود، ولنفّرت منه الناس، ولكان لهم العذر فى عدم الإيمان به، فلا يحصل المقصد الذى أراده رب العزّة من بعث الرسل، وكيف يكون على هذه الحال، من قال الحق تبارك وتعالى فى شأنه: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفَى وحُسْنَ مَآب﴾ [سورة ص ٢٥]

قال ابن كثير - فى تفسيرها: «وإن له يوم القيامة لقُرْبة، يقرّبه الله - عزّ وجل بها، وحُسْن مرجع، وهو الدرجات العالية فى الجنة، لنبوّته وعدله التام فى ملكه، كما جاء فى الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن،

(١) الشيخ محمد أبو شهبة: الإسرائيليات والموضوعات ص ٣٦٩ طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

وكلتا يديه يمين، الناس يقسطون فى أيديهم وماوُلّوا»

على كل حال: إنما أوخذ داود فى هذه القضية، كما نص القرآن، لأنه حكم بمجرد سماعه لكلام أحد الخصمين، وكان عليه أن يسمع كلام الخصم الآخر. وقد قيل: إذا جاءك أحد الخصمين وقد فُقِئت عينه، فلا تحكم له لجواز أن يكون خصمه قد فقئت عيناه.

فالقضية، كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلما صارخا مثيرا، لا يحتمل التأويل، ومن ثَمَّ اندفع داود يقضى على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثا، ولم يطلب منه بيانا، ولم يسمع له حُجّة، ولكنه مضى يحكم بقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ..﴾ إلى آخر الآيات. فعاتبه الله على ذلك، ونبّهَهُ إلى ضرورة تثبيت القاضى من حكمه، وسماعه للخصم الآخر.

وقد تنبّه إلى ذلك الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة، فقال:[1]

يبين الله سبحانه وتعالى، بطريق القصص القرآنى، لأنه من تصريف البيان، أن مقياس الحكم العادل إدراك الحق، وألا يجعل القاضى أو الحاكم للهوى سلطانا فى الحكم، فإن كان الهوى، كان الشطط فى الحكم، ومظنة الوقوع فى الظلم، وإن كان الحاكم لابد أن يكون للحق مدركا، فلابد من عنصر العلم، وإبعاد الهوى.

واقرأ قصة داود – عليه السلام – الذى أعطاه الله الملك والحكمة ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ..﴾ الآيات، هنا نجد القصة عن نبى الله داود – عليه السلام – تتضمن ثلاثة أمور، فى التنبيه على كل واحدة منها، تنبيه إلى أمثل الطرق للوصول إلى العدل فى الأحكام.

أولها: أنه سبق إلى الحكم من غير أن يستمع إلى كلام الخصم، فقضى لأحد الخصمين، قبل أن يستمع إلى كلام الآخر، فإن ذلك مدرجة فى الظلم، بل قد يكون ظلما.

(١) المعجزة الكبرى ص ٢٦١ طبع دار الفكر العربى بمصر سنة ١٩٧٠ م

ثانيا: أنه لم يكتف بالحكم فى القضية المعروضة، بل عمم الحكم، والقضاء يكون فى القضية المدروسة ولا يتجاوزها.

الأمر الثالث: وهو يفصل التفرقة بين الحكم الظالم، والحكم العادل، أن الحكم العادل لا يكون بالهوى والشهوة، وأما الحكم الظالم، فإنه يكون تحت سلطان الهوى والشهوة، وأن الملوك والحكام المستبدين يكون مصدر شرهم أهواؤهم، فهم يتبعون أهواءهم فيما يحكمون به، وما ينزلونه بالناس، فهم يسنّون النظم تبعا لأهوائهم، ويطبقونها تبعا لأهوائهم، ويجعلون شيعتهم تسارع إلى تنفيذ أهوائهم، ولا يفهمون المصلحة إلاّ تابعة لأهوائهم، فإذا نهى الله تعالى نبيّه داود عن اتّباع الهوى، وهو خليفة حاكم، فإنما نهاه عمّا يؤدى إلى فساد الحكم.

وبهذا يتبيّن أن حكم الهوى كان مصدر فساد الحكم فى الماضى، كما هو مصدر الفساد فى كل الأزمان، وذكر ذلك فى قصة من قصص القرآن، يزيد المبدأ تبيينا وتأكيدًا، وقد بيّنا أن ذكر أى أمر فى قصة يجعله يسرى فى النفوس، ويدخل إلى الضمائر إن كان فيها استعداد للحق.

إن قول داود متسرعا، قبل أن يسمع جواب الخصم الثانى: (لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ) لعل هذا هو الذنب الذى أَلَمّ به داود، وظن داود أنما فتنّاه بهذه الحادثة، فاستغفر ربه مما أَلَمّ به، وخرّ راكعا، وصلى قائما وساجدًا وأناب، فغفر له ربه ذنبه، فهذا رأى يستند إلى سرعة الحكم.

أما ما قاله بعض العلماء -ومنهم القاضى عياض- اعتمادًا على بعض الروايات الإسرائيلية، فإنه لا يصح بالنسبة إلى عوام المسلمين وجهلة الفساق، فما بالك بالأنبياء، بل بخواص الأنبياء.

إننا نعلم قطعا، أن الأنبياء معصومون من الخطايا، إذْ لو جَوَّزْنا عليهم شيئا من ذلك لبطلت الشرائع، ولم نثق بشىء مما يذكرون، فما حكى الله فى كتابه يُمَرّ على ما أراده الله، وما حكى القُصّاص مما فيه غَضّ من منصب النبوّة طرحناه[1]

(١) أبو حيان: البحر المحيط ٣٩٣/٧

والدليل على أن داود كان معصوما من الخطايا، قول الحق سبحانه وتعالى – بعد ذلك – ﴿يَادَاوُدُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فى الأرض﴾ [سورة ص ٢٦] أى استخلفناك على الناس لتدبير شئونهم ومصالحهم، ﴿فاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بالحَقِ﴾ أى احكم بينهم بالعدل وبشريعة الله التى أنزلها عليك ﴿ولا تَتَّبِع الهَوَى فيُضِلَّك عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أى لا تتبع هوى النفس فى الحكومات وغيرها، فيضلك اتباع الهوى عن دين الله القويم، وشرعه المستقيم.

● قال أبو حيان: «وجَعْلُهُ تعالى داود خليفة فى الأرض، يدل على مكانته – عليه السلام – واصطفائه له، ويدفع فى صدر من نسب إليه شيئا مما لا يليق بمنصب النبوة»[١].

(١) المصدر السابق ٣٩٤/٧.

ملاحق البحث

١ - شعره الذى لم يسبق نشره.

٢ - تَصلياته على النبى - صلى الله عليه وسلم.

٣ - خُطَبُه.

أولا: شعره

١ - قال القاضي عياض، رحمه الله تعالى[1]:

قِفْ بالرّكابِ فَهَذَا الرَّبْعُ والدَّارُ ... لَاحَتْ عَلَيْنَا مِنَ الأحْبَابِ أَنْوَارُ
بُشْرَاكِ، بُشْرَاك قَدْ لَاحَتْ قِبَابُهُم ... فانزِلْ، فَقَدْ نِلْتَ مَا تَهْوَى وتختَارُ
هَذَا المحصَّبُ هذا الخِيفُ خِيفُ مُنى ... هَذِى منَازِلُهُم، هَـذِى هِىَ الدَّارُ
هَـذِى قبَـابُ قُبـاً آثـارُ وَطْئِهِم ... وَذَا هُوَ الجذْع، فابْك، ذَا هُوَ الغَارُ
هَذَا النَّبِىُّ الحِجَازِىُّ الَّذِى شَهِدَتْ ... له بتَقْدِيمِـهِ فِى الرُّسْـلِ أَخْبَارُ
هَذَا الحَبِيبُ الَّذِى أَسْرَى لخَالِقِهِ ... لَيْلًا، وقَدْ ضُرِبَتْ بالليلِ أَسْتَارُ
هذَا الرسُولُ الَّذِى مِنْ أَهْلِهِ شَهِدَتْ ... لَنَـا عَلَى غَيْـرِنَا فَضْـلٌ وآثَـارُ
هذَا الشَّرِيفُ الَّذِىَ سَادَتْ بِهِ مُضَر ... هَذَا الَّذِى تُرْبُه كالمِسْكِ مِعْطَارُ
هذا الشَّفِيعُ الَّذِىَ تُرْجَى شَفَاعَتُهُ ... للمُـذْنِبِينَ إِذَا ما اسْوَدَّتِ النَّـارُ
بَـادِرْ وسَلِّم عَلَى أَنْـوارِ رَوْضَتِـهِ ... قَبْـلَ المَمَاتِ فـلا تُشْغِلْكَ أعَذَارُ
إنْ لَمْ تُعَايِن تَرَاهُ العَيْنُ يا أَسَفِى ... أو لَم تَزَرْهُ فإنّ الشَّـوْقَ زَوَّارُ
يا أَهْلَ طِيبَة لىِ فى رَبْعِكُمْ قَمَر ... بَـرٌّ عَطُوف لِفِعْـلِ الخَيْرِ أَمَّـارُ
وأشْغَلَتْنِى ذُنُـوبٌ عَنْـك مُـؤْلِمَـة ... أَخَافُ تَحْرِقِنِى مِنْ أَجْلِها النارُ
يا خِيرةَ الرُّسْلِ يا أَغْلَى الوَرَى شَرَفًا ... قَـدْ أَثْقَلَتْ ظَهْرِى آثـام وأَوْزَارُ
فَكُنْ شَفِيعى لماَ قَدّمت مِنْ زَلَلٍ ... ومِنْ خـطاى، فإنّ الـرَّبّ غَفّارُ
صَلَّى عليكَ إِلَهُ العَرْشِ ما سَجَعَتْ ... وُرْقٌ، وما نَفَحَتْ فى الرَّوْضِ أَزْهَارُ
وآلِـهِ وَعَلَى أَصْحَابِـهِ السعَـداء ... مـالاَحَ نَجْم وَمَـاهَـطَلَ مِدْرارُ

---

(١) نقلا عن الأستاذ عبد السلام شقور فى بحثه «القاضى عياض الأديب» ص ٣٣١ وما بعدها. والقصيدة موجودة فى مجموع بالمكتبة العامة بالرباط رقم ٣٧٧٤، وهى موجودة كذلك بكتاب «مناسك الحج» للبويعقوبى بالمكتبة العامة بتطوان رقمه ٥١٨، وفى مجموع ثالث بخزانة ابن يوسف بمراكش رقمه ٣٥٩ وفى مجموع رابع بالمكتبة العامة بالرباط رقمه ٢٤٤٥ د.

٢ - وقال القاضي عياض - رحمه الله تعالى[1].

يا عينُ هَذَا السَّيِّد الأَكْبَرُ وهَذِهِ الرَّوْضَةُ والمنبَرُ
فشَاهِدِى فى حَرَمِ المُصْطفَى مِنْ نُورِهِ السَّاطِع ما يُبْهِرُ
يا عينُ، ذا مَا كُنْتِ تَبْغِينَهُ فَمَا لأجْفَانِكِ لاَ تُمْطِرُ
هَذَا مَقَامُ المُجْتَبَى أَحْمَدَ فَمِثْلُهُ الأعينُ لا تَنْظُرُ[2]
وأىُّ فَهْمٍ فِيهِ لاَ يَنْجِلى وأىُّ كَسْر فِيهِ لا يُجْبَرُ
وَدَّتْ نُجومُ الأفْقِ لَوْ أَنَّها كَانَتْ قَنَادِيلَ بهِ تزهَرُ
مَا كَانَ أَهْنَى مُهْجَتِى لَوْ غَدَتْ مَوْطُوءَةً فيه لمن يَخْطُرُ
كُلُّ مَقَام قَدْ سَمَا قَدْرُه فِى هذه الحَضْرَةِ مُسْتَصْغَرُ
تَجمَّعَ الفَضْلُ بِهَا والنَّدَى والجُودُ والسُّؤْدَدُ والمتْجَرُ
إِلَى ثَرَاهَا الزَّعْفَرَانُ انْتَمى ومِنْ شَذَاهَا المِسْكُ والعَنْبَرُ
قَدْ حَسَدَتْهَا سِدْرَةُ المُنْتَهى لِماَ حَوَتْ، وَالفُلْكُ الأنورُ
والكَعْبَةُ الغَرَّاءُ والمُنْحَنَى والحَجَرُ، والأَسْتَارُ والمِشْعَرُ
فاسْتَبْشِرِى يَا مُقْلَتِى باللِّقَا فَمَنْ رَأىَ الأحْبَابَ يسْتَبْشِرُ
قَدْ ذَهَبَ الهَمُّ وَزَالَ العَنَا وكلُّ ما يُخْشَى وَمَا يُحْذَرُ
وخصَّ بالنُّعمى، وحَازَ الرِّضَى وأرغمت حساده (.................. ..)[3]
باسْمِكَ يارَبِّ قَرَنْتَ اسْمَهُ فَإِنَّهُ يُذْكَرُ إذْ تُذْكَرُ
صِفَاتُهُ العَلْيَاءُ، كلَّ الورى عَنْ حَضْرِهَا، والقَطْرُ لاَ يُحْصَرُ
مَنْ خَصَّهُ الله تَعالَى اسمُه بقولِهِ: (فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ)
بَدْرُ دُجَى، أصحابه أنجُمُ بحْرُ نَدَى، أنْمله أَبْحُرُ

(١) عن مجموع بمكتبة ابن يوسف بمراكش رقم ٣٥٩.

(٢) يبدو أن بيتا قبل هذا سقط.

(٣) كلمة غير مقروءة.

يَامَنْ له جَاهٌ عَظِيم، ومَنْ   لَهُ لِوَاءُ الحَمْدِ والكَوْثَرُ
يا أَرْفَعَ الخَلْقِ مَقَامًا ويا   أَجَلَّ مَنْ يَنْهىَ، ومَنْ يأْمُرُ
يا رَحْمَةَ الله وَيَا شَافِعًا   والناسُ فى حَشْرِهِم حُيَّرُ
ذَخِيرتِى حُبُّكَ يَا مُصْطفَى   فَإنَّه أَفْضَلُ ما يُدْخَرُ
يَا كاشِفًا دَاءً مُقيمًا ولا   يَشْفِيه إلاّ مَنْ به أَخْبَرُ
قَدْ عَجَزَتْ عَنْ طِبِّهِ قُدْرَتِى   رَفَعْتُ شَكْوَاىَ لِمَنْ يَقْدِرُ
وَقَدْ تَوَسَّلْتُ إِلَى الله فِى   شِفَاءِ دَاءٍ بِكَ يَا مُنْذِرُ
فاشْفَعْ، فِإنِّى بكَ مُسْتَشْفِعٌ   وانْصُرْ، فَإنِّى بِكَ مُسْتَنصِرُ
وارْحَمْ، فإنِّى بِكَ مُسْتَرْحِمٌ   واجْبُرْ فَإنِّى بِكَ مُسْتَجْبِرُ
واعْطِفْ عَلَى العَبْدِ المُسِيءِ الَّذِى   أَتَى لإحْسَانِكَ يَسْتمطِرُ
يَرْجُو نَدَى رَحْمَاك ياذَا العُلاَ   فى مَوْقِفٍ أَهْوَالُه تُذْعَرُ
فَلاَ تُخَيِّب فِيكَ تأْمِيلَهُ   فأَنْتَ فِيهِ الشَّافِعُ الأَكْبَرُ
ياربِّ، يا أَللهُ، يا سَيِّدِى   وَيَا عَليمَ الغَيبِ مُسْتَتَرُ
إنْ لَمْ تَدَارَكْنِى بُلطْفٍ فَيا   خَسْرَى وَخَيْبَة مَنْ يَخْسَرُ
قَلِى ذُنُوب أَثْقَلَتْ كَاهِلى   إنْ لَمْ تَكُنْ تَغْفِرُ، مَنْ يَغْفِرُ
يا مُسْتَجِيبًا دَعْوَةَ المُبْتَلَى   ودعْوَةَ المُضْطرِ إِذْ يجأَرُ
فأَنْتَ قُلْتَ: اسْتَغْفِرُوا ربَّكُم   وإنَّنِى جِئْتُكَ مُسْتَغْفِرُ
وَصَلِّ يَارَبِّ عَلَى المُصْطفَى   وآلِهِ ما جَادَتْ الأَبْحُرُ
وَصَحْبِهِ والتَّابِعِينَ الأُلىَ   لَهُمْ بإحْسَانٍ مَتَى يُذْكَرُ
ما هَامَ صبٌّ وَهَمَى عَارِضٌ   وسَارَ رَكْبٌ أو سَرَى عَسْكَرُ

وقال القاضي عياض رحمه الله[١]:

إلَيْك مَدَدْتُ الكَفَّ أَسْتَمْطِر الفَضْلَا ... وأَسْتكْشِفُ البَلْوَى وأَسْتَعْطِفُ الطَّوْلَا
دَعَوْتُكَ مُضْطَرًّا فعَجِّلْ إجَابَتِي ... بِتَفْرِيجِ كَرْبٍ، طَالَمَا وَصَلَ الهَوْلَا
وأَنْتَ مَلَاذِي، يا مُرَادِي وسَيِّدِي ... فَسَامِحْ مُسِيئًا قَدْ جَنَى الجِدَّ والهَزْلَا
نَدَاءٌ مَدَى الأَعْمَارِ: يا فَالِقَ النَّوَى ... ويا سامع النَّجوى ويَا مَنْ هو الأَعْلَى
يتيمٌ مِنَ الطَّاعَاتِ، عَفْوُكَ يُرْتَجَى ... قِهِ الفَقْرَ، والإِفْلَاسَ والفَقْدَ والذُّلَا
إله، لَكَ الشَّكْوَى بِقَوْمٍ تَسَرْبَلُوا ... رِدَاءً مِنَ البَلْوَى أَذَاعُوا بِهِ الوَيْلَا
سَأَلْتُكَ بالمُخْتَارِ..........[٢]
بَجاهِ رَسُولِ الله فارْحَمْ تَضَرُّعِي ... ونَفِّسْ هُمُومِي كُلَّها: الفَرْعَ والأَصْلَا
لجَأْتُ إلى بَابِ الكَرِيمِ لِفَاقَتِي ... فَلَيْسَ لَنَا مُغْنٍ سِوَاهُ ولا مَوْلَى
كَئِيبـًا، غَرِيبـًا، بـافْتِقَـارٍ وضَيْعَـةٍ ... ذَلِيلًا حَقِيرًا، أَهْمَلَ الفَرْضَ والنَّفْلَا
......[٣]
فأَنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنْ عُلَاكَ صَوَاعِقًا ... تَصِيرُ مَدَى الأَعْمارِ أَخْبَارُهَا تُتْلَى
وَصَلِّ عَلَى قُطْبِ الوُجُودِ مُحَمَّدٍ ... صَلَاةً تَعُمّ الرُّسْلَ والصَّحْبَ والأَهْلَا
وَسَلِّمْ عَلَيْهِم وارْضَ عَنْهُم وَجَازِهِم ... (عنَّا) وعن الإسلام ما هُمْ به أَوْلَى[٤]

وقال القاضي عياض[٥]:

بُشْرَاك يا قَلْبُ هَذَا سَيِّدُ الأُمَمِ ... وَهَذِهِ حَضْرَةُ المُخْتَارِ فِي الحَرَمِ
وَهَـذِه الرَّوْضَـةُ الغَـرَّاءُ طَـاهِـرَةٌ ... وهَـذِهِ القُبَّـةُ الخَضْـرَاءُ كـالعَلَمِ

---

(١) نقلا عن مجموع بالخزانة العامة بالرباط رقمه ١٦٥٤، والصفحات بدون ترقيم.
(٢) ما يلي ذلك غير واضح ولا مقروء، وبعده ثلاثة أبيات غير مقروءة.
(٣) بيت غير مقروء.
(٤) لا يستقيم وزن البيت.
(٥) عن مجموع بخزانة ابن يوسف بمراكش رقمه ٣٥٩.

وَمِنْبَرُ المُصْطَفَى الهادِي وحُجْرَتُهُ ... وصَحْبُه، والبَقِيعُ دائرٌ بِهِم
فَطِبْ وَغِبْ عَنْ هُمومٍ كُنْتَ تَعرِفُها ... وَسَلْ تَنَلْ كُلَّ ما تَرْجُوهُ مِنْ كَرَم
يا سَيِّدِي يا رَسُولَ الله خُذْ بِيَدِي ... فالعَبْدُ ضَيْفٌ، وضَيْفُ الله لم يَضَم
يَا سَيِّدَى الرسل، يامَنْ ضَيْفُ سَاحَتِهِ ... يَبِيتُ فى الأَمْنِ فى خَيْرٍ وَفى نِعَم
يا أكْرَمَ الخَلْقِ مِنْ حافٍ ومُنْتَعِلٍ ... يا أفْضَلَ النَّاسِ فى ذَاتٍ وَفى شِيَم
يا أَشْرَفَ الأنبياء، يا مَنْ شَفَاعَتُهُ ... عَمَّتْ عَلَى الخَلْقِ فى الوِجْدَانِ والعَدَم
أَنَا فَقِيرٌ إلى عَفْوٍ ومَغْفِرَةٍ ... وأَنْتَ أَهْلُ الرِّضَا يا سَيِّدَ الأُمَم
فَقَدْ أَتَيْتُكَ أَرْجُو مِنْكَ مَكْرُمَةً ... وأَنْتَ أَدْرَى بِمَا فى القَلْبِ من أَلَم
والحالُ يُغْنى عَنِ الشَّكْوَى إليكَ وقَدْ ... عَرَفْتَ حالِى، وإنْ لَمْ أَحْكِهِ بِفَم
فاشْفَعْ لِعَبْدِكَ واجْبُرْ قَلْبَهُ فَلَكَمْ ... أَوْدَى بِهِ الكَسْرُ مِمَّا نَالَ مِنْ جُرم
يا أَحْمَدُ، يا أَبا بَكْر، ويا عُمَرُ ... نَزِيلُكُم فى أَمانٍ غيرِ مُنْهَضِم
وقَدْ سَعَيْتُ إلى أبوابِ حُجْرَتِكُمْ ... سَعْيًا عَلَى الرَّأْسِ لاسَعْيًا على القَدَم
أَتَى لأُمِّ القُرَى يَرْجُو القرى كَرَمًا ... مِنْ سَادَةٍ هُمْ بِحارُ الفَضْلِ والكَرَم
فَإنْ قَبِلْتَ فإنِّى فَرِحٌ بِكُمْ ... فى زَوْرَتِى واغْتِرابِى وَافِرُ القَسَم
يا مَنْ أَجَلَّ مُلُوكَ الأرْضِ قَاطِبَةً ... فى بَابِ أَفْضَلِهِم مِنْ أَصْغَرِ الخَدَم
فَهَلْ عَسَى نَظْرَة مِنكُمْ لقَاصِدِكُمْ ... يَغْنَى بِها عَنْ جَمِيعِ الخَلْقِ كُلِّهِم
محمدٌ وَصُحَيْبَاهُ الذِينَ بِهِمْ ... طِبْنَا وغِبْنَا عَنِ الخُسْرَانِ والنَّدم
ثَلاثَةٌ بثلاث فى الوَرَى عُرِفُوا ... بالعَفْوِ والفَضْلِ والوَفاءِ لِلذِّمَم
يارَبِّ، يارَبِّ، يا مَوْلاىَ عَبْدُكَ فى ... بَابِ الرَّجا يَرْتَجِى أَمْنًا من النِّقَم
ثُمَّ الصَّلاة على المُخْتَارِ مِنْ مُضَرٍ ... خيرُ البَرِيَّة مِنْ عُرْبٍ ومِنْ عَجَم
محمَّدُ المُصْطَفَى والآلُ ثُمَّ عَلَى ... أَصْحَابِهِ ما سَرَى رَكْبٌ لِرَبْعِهِم

وقال القاضي عياض رحمه الله(١):

أَوْلِيَاءَ اللهِ إِنِّي مَرِيضٌ ... والدَّوَاءُ لَدَيْكُم والشِّفَاءُ
فانْظُرُوا إليَّ بِفَضْلِكُمْ فِي عِلَاجِي ... وامْنَحُونِي بِفَضْلِكُمْ ما أَشَاءُ
كَمْ أَتَانِي فِي حِمَاكُمْ مِن سَقِيمٍ ... زَالَ عَنْهُ سُقْمُه والشَّقَاءُ
كَمْ أَعَنْتُم عَلَى الدَّوَامِ مَرِيضًا ... فِي فِرَاشٍ، وقَدْ كَفَاهُ التَّدَاءُ
أَنتُم البَابُ والإِلَهُ كَرِيمٌ ... مَنْ أَتَاكُمْ لَهُ المُنَى والهَنَاءُ

وقال الشيخ الفقيه الإمام القاضي عياض بن موسى اليحصبي رضى الله عنه وأرضاه آمين(٢)

هَذَا الَّذِي وَخَدَتْ شَوْقًا لَهُ الإِبِلُ ... هَذَا الحَبِيبُ الَّذِي مَا مِنْهُ لِي بَدَلُ
هَذَا الَّذِي مَا رَأَتْ عَيْنٌ وَلَا سَمِعَتْ ... أُذْنٌ بِأَكْرَمَ مِنْ كَفَّيْهِ إِنْ سَأَلُوا
هَذَا الَّذِي جَاءَتِ التَّوْرَاةُ شَاهِدَةً ... بِأَنَّهُ خَيْرُ مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ
هَذَا الَّذِي جَاءَ فِي الإِنْجِيلِ مَبْعَثُهُ ... يَتْلُوهُ مِنْ قَبْلُ ذَا رُهْبَانُهُ الأُوَلُ
هَذَا الَّذِي هَتَفَتْ مِنْ قَبْلِ مَوْلِدِهِ ... بِهِ الهَوَاتِفُ، واشْتَاقَتْ لَهُ المُقَلُ
هَذَا الَّذِي جَاءَتْ الأَخْبَارُ واتَّفَقَتْ ... قِدْمًا عَلَى بَعْثِهِ الأَحْبَارُ والمِلَلُ
هَذَا الَّذِي كَانَ مِنْ سَيْفِ بَنِي ذِي يَزَنٍ ... مَعَ جَدِّهِ نَبَأٌ مِنْ بَعْثِهِ جَلَلُ
هَذَا الَّذِي جَاءَ عَنْ «شق» لَهُ خَبَرٌ ... وعن «سطيح» حَدِيثٌ مِنْهُ يَنْتَقِلُ(٣)
هَذَا مُحَمَّدُ المَاحِي وأَحْمَدُهُم ... هَذَا أَبُو القَاسِمِ (الماحى) إِذَا جَهِلُوا(٤)
هَذَا الَّذِي فِي قُرَيْشٍ قَدْ سَمَا نَسَبًا ... أَبًا، وأُمًّا، فَمَعْنَى المَجْدِ مُكْتَمِلُ

---

(١) عن مجموع بالخزانة العامة بالرباط رقمه ٢٣٢٨ ك.

(٢) عن مجموع بخزانة ابن يوسف بمراكش رقمه ٣٥٢.

(٣) شقّ وسطيح كاهنان شهيران عاشا فى الجاهلية.

(٤) ورد فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «لى خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب» [الشفا ٢٢٩/١]

هَـذَا الَّـذِى مَجْـدُهُ مِنْ عَـهْـدِ آدَمَ لَمْ ... يَـشِنْـهُ شَـىْءٌ وَلَا فِـى أَصْـلِهِ دَخَـلُ
هَـذَا الَّـذِى كَـرُمَتْ آبـاؤُه وعَـلَتْ ... عَنِ السِّفَـاحِ فَنَـظْمُ المَجْـدِ مُتَّصِـلُ
هَـذَا هُـوَ ابـنُ ذَبِيـحِ اللهِ وابـنُ خَلِيـ ... ـلِ اللهِ، تـلكَ خِـلَالٌ مَـا بِهَـا دخَـلُ
هَـذَا هُـوَ ابنُ الـذَّبِيحَيْنِ اللَّذَيْنِ همـا ... أوْفَـى وأَصْبَـرُ مَـنْ يُبْلَى ويَـحْـتَـمِـلُ
هَذَا الَّـذِى أشْـرَف الأَعْمـامُ من مُضَـر ... أعْمَـامُـه كَمْ وَفَـوا خَـطْبًا وكَمْ بَـذَلُـوا
هَـذَا الَّـذِى زَهْـرَةُ الأَخْـيَـارِ كلّهُـمُ ... أَخْـوَالُـه بعُـلَاهِم يُضْـرَبُ المَـثَـلُ
هَـذَا الَّـذِى كَـانَ عـبـدُ اللهِ وَالِـده ... أَوْفَى البَـرِيَّـة : إنْ قَـالُـوا وَإنْ فَعَلُوا
هَـذَا ابنُ شَيْبَـة : المَشْهـورُ عِنْـدَهُم ... بِشِيبَـةِ الحَمْـدِ، سَـاقِى ركب، إنْ مَحَلُوا
هَذَا ابنُ هَاشِمِ : السَّـاقِى الحَجِيجَ نـدى ... وهَـاشِمُ الـزَّادِ لـلأَضْيَـافِ إنْ نَـزَلُـوا
هَذَا ابنُ عبدِ مَنَـاف خَيْـرُ مَنْ نَـزلَتْ ... بـه الـوُفُـودُ، فـلا بُـخْـلٌ وَلَا مَـلَلُ
هَـذَا ابـنُ قـصِـىّ، سيـدٌ جُـمِعَـتْ ... بـه قُـرَيْشُ، فـعَـادَ الـود واتَّـصَلُوا
هَذَا ابنُ حَامِى الـذِّمَارِ، المُسْتَجَـارُ بـهِ ... كُـلَابُ : الفَـارِسِ المِقْـدَام إنْ وَجِلُوا
هَـذَا ابنُ مُـرَّة : الحُلْوُ النَّـدَا كَـرَمًـا ... والمُـرُّ بَـأْسًـا ونـارُ الحـربِ تشْتَعِـلُ
هَـذَا ابنُ كَعْبٍ، ومـا أَدْرَاكَ مِنْ رَجُـلٍ ... مَـاضِى العَـزِيمَـةِ : لا عَجْـزٌ ولا كَسَـلُ
هَـذَا ابـنُ لُـؤَىّ، كَـمْ لِـوَاءٌ عَـلَا ... أعْـلَا بِمَـا يَقْتَضِيـهِ البِيضُ والأَسَـلُ
هَـذَا ابنُ غـالبِ المَغْلُوبُ حَـاسِـدُه ... والـوَاهِبُ السَّـالِبُ الآسَـادِ مـا حَمَلُوا
هـذَا ابنُ فِهـرٍ وفِهْـر لَا نَـظِيـرَ لـه ... ليثٌ مـذِلٌ بـدِرْع البَـأْسِ مُشْتَمِـلُ
هـذا ابنُ مَـالِـكٍ المخْضَـرّ نَـائِلُهُ ... والجَـوُّ غبـر ومَـا فِى غَيْمِـهِ نَهَـلُ
هـذَا الَّذِى قـد سَمَتْ للنضر نِسْبَتُـهُ ... إلى كِنَـانَـة مِنْـهُ المَجْـدُ يتَّـصِـلُ
هـذَا الَّذِى نَـالَ مجـدًا مِنْ خَـزِيمـة عن ... أبـيـه (...) الـوَافِـى إذَا مَـطَلُوا
هذا ابنُ إياس، سَاقِى القومِ إنْ عَـطَشُوا ... والمشبع الوَفْـد، والمُعْـطُون قَـدْ بَخَلُوا
هـذَا الَّـذِى أحْـرَزَ العَلْيَـاءَ مِنْ مُضَـرِ ... وفى نِـزَار نَمَـتْ أَغْصَـانُـه الـذُّلَـلُ
هـذَا الَّـذِى لِـمَعَـدٍ قَـدْ عَـلَا وإلـىَ ... عَدْنَانَ فِى المَجْـدِ يسمُو فـرعُهُ الخضـلُ

هــذا ابنُ أكــرم آبــاءٍ سَمــوْا وإليَ ... هُنَــا اتفــاقًــا بــه النُّســابُ قَــدْ وَصَلُوا
هَــذَا الّــذِى أُمُّــهُ خيــرُ النُّســاءِ فلَمْ ... يَــظْفَرْ بــأكْرَم مِنْهَــا فِى الــوَرَى رَجُــلُ
هَــذَا ابنُ آمِنَــةَ المَيْمُــون طَــائِــرُهَــا ... آبَــاؤُهَــا غُــرَرًا للدَّهْــرِ قَــدْ جُعِلُوا
وَهْبُ بنُ عَبْــدِ منــافٍ كــانَ وَالِــدُهــا ... بــزُهْــرَة بــن كُــلَاب بَعْــدُ يــتَّصِــلُ
هَــذَا الّــذِى لم تجِــدْ فى وضعــه تَعَبًــا ... أمْ لَــهُ، لَا وَلَا فــى حَــمْــلِهِ ثِــقَــلُ
هَــذَا الّــذِى قَــدْ بَــدَا مــع أمِّــه، مَعَــهُ ... نــورٌ إلى الشَّــام مِنْ أُمِّ القُــرَى يَصِــلُ
هَــذَا الّــذِى ظهــرت فى يــوم مــولــده ... أشياءُ أَصْبَحَ منهــا النَّــاسُ قَــدْ ذَهِلُوا
هَــذَا الّــذِى خَمَــدَتْ نيــرانُ فــارِسَ من ... أنْــوَارِهِ، ووُلَاةُ النَّــاسِ مَــا غَفَلُوا[1]
هَــذَا الــذى كَسَــرَتْ كِسْرَى مَهَــابَتُهُ ... حتى تبيَّــنَ فِى إيــوَانِــهِ المَــيْــلُ
هَــذَا الّــذِى أُمِــرَتْ مِنْ أجْــلِ مَبْعَثِــهِ ... شهبُ السمــاءِ بــرجْمِ الجِنّ فــانْــذَهَلُوا
هَــذَا الــذى مِنْ بَنِى سَعْــدٍ رضَــاعَتُــه ... فــأصبــح اليُمْن فِيهم لَيْسَ يَــرْتحِــلُ
هَــذَا الــذى شَهِــدَتْ عَجَبًــا حَلِيمَــةُ فِى ... رِضَــاعِــهِ، فَغَــدَتْ وَالخَيْــرُ مُقْــتَبَــلُ
هَــذَا الــذى فَــاضَ دَرًّا ثــديُهــا كــرمًــا ... لَــهُ وَقَــدْ كَــانَ يَبْسًــا مَــا بِــهِ عِــلَلُ
هَــذَا الّذِى درّ حَــالَ الجَدْبِ شَــارِفُهــا[2] ... مِنْ أجْلِهِ، فَــغَــدَوْا والكُــلُّ قَــدْ نَــهَلُوا
هَــذَا الّــذِى عِنْــدَمَــا سَــارَتْ بِــهِ جَعَلَت ... أتَــانُهــا تَسبِقُ الــركبــان إن جعلوا
هَــذَا الــذى قلبَــهُ جِبْــرِيــلُ طَهَّــره ... إذْ شَــقَّ صــدرًا ....[3]

(١) انظر تصلية القاضى عياض فى ملحق النثر، ففيها كرر كثيرا مما ورد هنا وخاصة الأحداث التى وقعت فى مولده - صلى الله عليه وسلم.
(٢) الشارف من النوق: المسنة المرمة.
(٣) هنا وقف الناسخ، وترك بياضا يقدر بأربع صفحات، وبناء القصيدة يوحى بأنها كانت ضعف ما هى عليه.

ثانيا: نثره

قال الشيخ الفقيه العالم القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، رحمه الله:[١]

«قال الله العظيم في محكم كتابه الحكيم، بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ الله ومَلَائِكَتَه يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي، يـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ صَلُّوا وسَلِّمُوا وتَوَسَّلُوا بهذا النبي، الذي فَضَّلَهُ الله تَفْضِيلًا، واتخذه حبيبا وخليلا، وأَنْزَل عَلَيه القرآنَ تنزيلًا، وتبتل لربّه تبتيلا، وسبّح بحمده بكرة وأصيلا، فأَنَالَهُ ثوابا جزيلا، ورزقه من كل علم تأويلًا، ووفقه لسُنّته التي ليس لها تحويل[٢] وكان له معينا وكفيلا، وخَتَم به رُسله، ونهج على يديه الكريمتين سُبُلَه، وزكّى فِعْلَه وعِلْمَه وفَهْمَه وعَقْلَه وعظّمه، وحكمه وعدله، وكرمه ونعمه ودلّله، وبالشفاعة فضّله تفضيلا، على كل ما يأتي بعده وكل من تقدم قَبلَهُ، وانتخبه وطهره، وطيبه وعصمه وحجبه وأَدّبه، واختاره لحبه وقرّبه، وخط اسمه مع اسمه سطرًا على العرش وكتبه، وخصّه بالفضائل وشرفه بالفعائل، وصدقه فيما هو قائل، وختم برسالته الرسائل، وصلى الله عليه، والصلاة عليه من أعظم الوسائل، صلى عليه الملك العلّام، هو وملائكته الكرام، وأمر جميع الأنام بالصلاة عليه والسلام، إلى يوم البعث والقيام، فقال من لم يزل غفورًا رحيما، إجلالا لنبيّه وتعظيما، وولاية له وتقديما، وتشريفا له وتكريما، وإرشادًا لعباده المؤمنين وتعليما:

﴿إِنَّ الله ومَلَائِكَتَه يُصَلُّون عَلَى النَّبِيّ، يـٰأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٣].

(١) عن مجموع مسجل بالمكتبة العامة بالرباط تحت رقم ١٢٠٧ ق، ورقة ١٩.
(٢) في الأصل: تحويلا.
(٣) سورة الأحزاب: الآية ٥٦.

صلوا وتوسلوا بالنبيّ الأميّ، الهاشمي القرشي، الأبطحي المكي، المدنى الحرمي، الزمزمي الحجازي، التهامي العربى، التقِيّ النقى، الوفى القوى، الزكى الذكى، البهى النّهى، السَّنِى السمى، السَّخِيّ الصفى، العفىّ الكفِيّ، المُسْتضىء الرضىّ، المرضى الذى جاء بالكتاب المضيىء وبالدين الحنفى، والقول الشرعى، والحكم الجلى، والمقام العلى، ومكّنه الله بلفظه الخفى، وحقق له إنجاز وعده الوفى، فأشرقت بالآفاق أنواره، وتكررت فى المسامع أخباره، وظهرت للأبصار معجزاته، وبلغ حجة الله وتمت بها كلماته، وختم الله به رسله وأنبياءه، وأمر القمر بطاعته فأجاب بالتلبية عند ندائه، وانشق وتفرق، عند سدرة المنتهى بالاتفاق[1] وصار نصفه بالغرب ونصفه بالشرق، وسطع وشرق، وتكلم ونطق، فآمن من تقدم له السعد وسبق، وكَفَر من للشقاء خُلِق.

* نبيٌّ ركب البراق، وغاب عن الأبصار والأحداق، واخترق الهوى والفضا والسَّبْع الطِّباق، إلى مِنىً جاءَتْ الخلائق، فتلقاه[2] بأحسن تلاق، وكلمه بلسان الرحمة والاشفاق، فسبحان الذى أسرى بعبده من المسجد الحرام إلى مسجده الأقصى إلى حضرة عرشِه، فتجلّى له بقدسه، وآنَسَه بلطفه، فأمِنَ من خوفه، وبلغ غاية أمله، ومَشَى على بساط العزة بنعله، ودَنَا من ربِّه، حتى تناول ثمار القرب بيده، دَنَا فتدلَّى ولم يَتَأَنّ، حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فبلغ كل وصل ومُنَى، وأُعطى جميع ما تمنّى، فسجدَ شكرًا على بساط عزة الله، وألهمه الله، فقال فى سلامه على الله: التحيّات لله، الطيِّبات لله، الصلوات لله، فتم الله عليه إنعامه، ووَاصَل إكرامه وشرَّف مقامه، ورَدّ عليه سلامه، كما صح عند أهل العلم إثباته، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله تعالى وبركاته، فرفعت له الحجب[3] حتى سلَّم الحبيب على المحبوب، كما سبق فى أم الكتاب مكتوب، ونال كل مطلوب، وبلغ غاية المرغوب، وشفعه الله فى أهل كبائر الذنوب، فطار بالأمان وبالإسلام

(١) انظر فى انشقاق القمر: الشفا ١/ ٢٨٠.

(٢) يظهر من السياق أن كلاما سقط.

(٣) وردت قصة الإسراء والمعراج فى الشفا ١/ ٢٠٣.

والإيمان، وبتلاوة القرآن، وبصيام رمضان، وكلّمه الرحمان، من غير واسطة ولا ترجمان، فنزل من أدراجه، والليل باق فى داجه، وبشّر نفرًا من أصحابه وأزواجه، بما عاين فى معراجه.

* نبىٌّ له وسيلة وفضيلة، وطلعة بهية جميلة، وأخلاق عظيمة، وذات جليلة، وصفات تامة عجيبة، وأفعال كريمة، وأقوال بليغة، وخصال حميدة، قدّه متوسط ما بين الحالتين، غصن بين غُصْنَين، شعره إلى شحمة الأذنين، أزج الحاجبين[(١)]، كحيل المُقْلَتَيْن، أزهر الوجنتين[(٢)]، أقْنَى العرنين[(٣)]، شثن الكفين[(٤)]، خمصان الأخمصين[(٥)]، مسيح القدمين[(٦)]، أحنى على أمته من الوالدين، فى شَعْره سبج[(٧)]، وفى عينه دعج[(٨)] وفى وجهه بلج[(٩)] وفى ثغره فلج[(١٠)]، وفى ريقه شفاء وفرج، إذا قضى كان أعدل الناس، وإذا أعطى كان أبذل الناس، وإذا رضى كان أجمل الناس، وإذا مَشَى كان أعـدَلَ الناس[(١١)]، وإذا جلس كان أكمل الناس، وإذا تكلم أنصت الناس، وإذا وعظ أبكى الناس، صاحب الوجه المليح، واللسان الفصيح، والقول النصيح، والعقل

---

(١) أزج الحاجبين: دقيق الحاجبين مع امتدادهما إلى مؤخر العينين [أنظر نسيم الرياض ٣٣٠/١].

(٢) أزهر الوجنتين: أزهر قيل: نير، وقيل حسن، ومنه زهرة الحياة الدنيا، وقيل أبيض مشوب بحمرة [نسيم الرياض ٣٢٨/١]

(٣) أقنى العرنين: العرنين: الأنف، والمقصود أحدب الأنف. [نسيم الرياض ٣٣٠/١]

(٤) شثن الكفين: فقد ورد أنه كان - صلى الله عليه وسلم - شثن الكفين والقدمين، والشثن بمعنى الغليظ، وعن أنس - رضى الله عنه: «ما مسست حريرًا ولا ديباجا ألين وأنعم من كف رسول الله - صلى الله عليه وسلم [نسيم الرياض ٣٣٢/١]

(٥) خمصان الأخمصين: متجافى أخمص القدم، وهو الموضع الذى لا تناله الأرض. [نسيم الرياض ٣٣٣/١].

(٦) مسيح القدمين: أملسهما ولا لحم عليهما، [انظر نسيم الرياض ٣٣٣/١].

(٧) سبج: خرز أسود (دخيل معرب).

(٨) دعج: شدة سواد العينين مع سعتهما، وقيل سواد السواد وبياض البياض [نسيم الرياض ٣٢٩/١].

(٩) بلج: البلج نقاء ما بين الحاجبين من الشعر. [نسيم الرياض ٣٢٩/١]

(١٠) فلج: الفلج تباعد ما بين الثنايا أو ما بين الأسنان [نسيم الرياض ٣٣٥/١].

(١١)يقصد فى مشيته.

الرجيح، والدين الصحيح، والنسب الصريح، من بَشّر به الكليم[١] والمسيح، وأخبر به الخليل والذبيح، بحر الإنعام، فخر الأنام، بدر التمام، الذى بنوره أجلى الله الظلام، وذل الكفر وعزّ الإسلام، وظهر الحق ودام، وزهق الباطل فلم يقم.

فى مولده تنكست الأصنام، وبطل علم الكهنة حتى كأن لم يعلم، وسقطوا عن أسِرّتهم وزعقوا زعقة الحِمام، وحرست السماء بالشهب فلم ترم، والجنة يهتفون لا يدرون أشر أُريد بمَنْ فى الأرض أم الرشد والاستقام[٢]، وغاصت بحيرة (ساوة)[٣]، فكأنها لم تجرِ يوما من الأيام، وييس نهر ساوة فى الشام، وخمدت نارُ فَارس فلم تعبد ولم تظهر، وطار التاج عن رأس كسرى فى المقام، وتصدّع إيوانه وارتج وأيقن بالانهدام، وأشرقت الأرض بالنور، وارتفعت فيها أعلام، رأت آمنة أشياء لا تستطيع لها إعلام، مما غشيها من الأنوار العظام، لم تدر أفى اليقظة هى أم فى المنام، وفسح مجلسها ورأت فيه صورًا لم تر مثلها فى المنام، ولم تجد عند حَمْلِه ما يجدْ النساء من الأوحام، ولم تحسّ به ثقلا ولا انتفخت لها بطن ولا تحرك فى الأرحام، ولم تجد عند وضعه ماء ولا ألما من الآلام، ولا شَعُرَت بخروجه حتى رأته ساجدًا للملك العلام، فلما نظرت إليه أسرع فى وجهها الابتسام، وأراد أن يكلّمها فأمسك الله لسانه عن الكلام، فإذا بغمامة قد نزلت من السماء لا تُشْبه الغمام، وفيها جماعة من الملائكة الكرام، فازْدَحموا عليه أى ازدحام، وسلّموا عليه بأحسن سلام، ونادوه ياوجيه، يامحمد، يانِعْم الغلام، وأمه فى فلق واحتشام تناديهم: بالله خلّوا ولدى واتركوه، ولا تأخذوه منى فتؤلموا قلبى وتوجعوه، فسمعوا مقالتها وما جهلوه، وقالوا لها أمرنا بهذا الإله لا نعصيه، فحملوه ورفعوه، وعرجوا به للسماء وعن بصرها غيّبوه، وطافوا على الأنبياء وللملائكة نعتوه،

---

(١) موسى عليه السلام.

(٢) اقتباس من قوله تعالى: «وانا لا ندرى أَشَرٌ أريد بمن فى الأرض أم أراد ربهم رشدًا» [الجن ١٠].

(٣) ساوة: موضع بعينه (لسان العرب)

وإلى رضوان خازن الجنان دفعوه، وفتحوا له الجنة ودخلوه، ففرح بـه الحور العين وقَبّلوه وكحّلوه ودهنوه، وبالمسك الأذفر طيبوه، وفى حريرة خضراء قمّطوه، ونزل به الملائكة واستنزلوه، وبشروا بـه طيور الهواء وحُوت الماء وإلى والدته ردوه، وعزلوه عنها وأفردوه، وفى بيت خلى تركوه، وكل ذلك بأمر الله صنعوه، وهتفوا به من كل مكان، ونادوها بأفصح لسان: ياآمنة يا أمة الرحمان بشرى لك، لك الأمان، هذا الوجيه، هذا المجيب، هذا أحمد، هذا محمد العدنان، هذا المبعوث فى آخر الزمان، هذا الذى سيق فى الكون جميع الأكوان، هذا الذى ببركته تاب الله على آدم من العصيان، هذا الذى بحرمته نجا قوم نوح من الطوفان، هذا الذى من أجله رفع ادريس لأعلى مكان، هذا الذى فى صُلب ابراهيم لم تحرقه النيران، هذا الذى يكون لعيسى روح الله على أمته سلطان، هذا الذى ترضعه من النسوان، حليمة التقيّة النقيّة الطاهرة الألبان، هذا الذى لا يدخل عليه فى هذا المكان إنْسِيّة ولا إنسان، إلا تمام ثمانية أيام متواليان، هذا المعصوم من الشيطان، الذى صح عند أهل الإسلام والإيمان، هذا الذى يكل عن وصف فضله اللسان.

ولما انقطعت عنه زيارة ملائكة الرحمان، وأبرزته أمه للعيان، أتته النسوة من كل مكان، يرغبن فى رضاعته لحسنه لا لشىء من الإحسان، ولما وضع الله فى قلوبهن من الرأفة والحنان، فلم يقبل المراضع، وهو فى عِزّة القانع الشابع، لا فى ذلة الجائع الضائع، صائم فى قماطته غير جائع، أتته حليمة وبعلها راغب خاضع، فرضع منها اليمين ولم يمس اليسار، وهذا من عدله فى عهد الصغار، فَسَرّت به حليمة وسارت وقد حَفّتها الأنوار، فلقيها فى بعض الطريق جماعة من الأحْبَار، كان خروجهم فى طلب الحيلة على المختار، فلمّا رأوه عقلوه بما عندهم من الآثار، وصاح به كبيرهم ما هذا الانتظار، اقتلوه يبق لكم المُلك إلى سالف الدهر وانقضاء الأعمار، فجرّدوا سيوفهم وقد علاهم الفرح والاستبشار، وظنوا أن لا مانع له فى تلك القفار، وحليمة تنادى: يا سَتّار، لا تهتك الأسْتَار، ودمعها على خدِّها مدرار، وبعلها فى دهشة وافتكار، قد ركن إلى الفرار، وأشار إليها، أن الْقِهِ إليهم، ما بعد الجهد من عار، فقالت له: يا ابن الأحرار الأخيار، أتأمرنى بفعل

الأسواء الأشرار، وله إله قاهر جبّار، يجيب المستجير ويمنعه ويمنعنا ببركته من هؤلاء الفجار، فوحّقه لا أُلقيه إليهم ولو انتشرتُ بالمنشار، فلما أن كادت تصل إليها سيوف الكفّار، إذا بمحمد قد فتح عينيه فأضاء الأفق واستنار، ودعا الله باللسان الخفى لا بالجهر والإظهار، فأرسل الله عليهم نارًا فأحرقتهم وعجل مصيرهم إلى النار.

وفى رضاعه وفطامه أخبار وإنما قصدنا الاختصار.

هو الحبيب، هو الخليل، هو الكريم البذل الجزيل، القائم بذكر الله فى آناء الليل الطويل، العامل بسُنة الله التى ليس لها تحويل، صاحب الوجه الجميل، والخدّ الأسيل، والطرف الكحيل، والقدر الجليل، والعرف الخصيل، والشرف الأصيل، والكف المقيل، والتكبير والتهليل، والتفسير والتأويل، والتيسير والتسهيل، من أخبر به التنزيل، وبشّر به التوراة والإنجيل، الموقّر المعزّر، صاحب الخطبة والمنبر، والعمامة والمغفر، والقضيب والمحشر، والحوض والكوثر، والجبين الأزهر، والطرف الأحور، والوجه الأقمر، والريح الأعطر، والحَسب الأظهر، والجد الأكبر، من بَشّر وأنْذَر، وحج واعتمر، وحَلقَ ونحر، وهرول ونفر[1]، ورمى بالحجار وهلّل وكبرّ، وحمد وشكر، وصام وأفطر، وجاهد وانتصر، وقاتل مَنْ كفر، ونهى عن الفحشاء والمنكر، وبدِينِ الله أمر، الطاهر المطهّر، المنتخب من أخيار مضر، المؤيد المنصور، الممجد المشكور، صاحب اللواء المنشور، والجيش الجسور، والبدن الصبور، والقلب الشكور، واللسان الذّكور، والبهاء والنور، والولدان والحور، والغرفات والقصور[2]، النبىّ الأواب، السخىّ الوهّاب، الناطق بالصواب، الذى لا يغلط فى الخطاب، ولا يعجزه الجواب، من خضعت له الرقاب، وتواضعت له الصعاب، ولانت له الصم الصلاب، وتاهت بحبه الألباب، وتحيرّت فى وصفه النجاب، فلا ينحصر فى كتاب، ولو تكون له الملائكة كُتّاب، دعا إلى الله الأعجام والأعراب، وهجر بدين الله الأهل والأقارب، وقاتلهم فى الله تعالى حتى ظهر دين الله وأناب، ونصره الله وهزم الأحزاب، ونزلت لنصره على خيول بُلْق بعَمائِم صُفْر تُهاب، فى يوم بدر يقدُمُهم

(١) إشارة إلى مناسك الحج. (٢) فى الجنة.

جبريلُ بلا ريب ولا ارتياب، فقال المصطفى: شاهت الوجوه، ونفخ فى وجوههم بقبضة من تُرَاب، فأمر الله الريح فسُرّت بقبضته فأصابت بها عيون المشركين أعم مصاب، حتى لم تبق لهم (....)[١] إلا وأصابها من تلك القبضة تراب، ودَعَا لأهل المدينة فأسرع لدعائه السحاب، وعاجله المَطَر قبل نزوله من المنبر إلى المحراب، وتواتر صبّه من الجمعة إلى الجمعة بصب صباب، ثم دعا بالصحو والطيبات فبرزت الشمس وتفرق السحب عنها وذاب، النبى المكرّم، الصفِىّ المحترم، الحاشر الذى يحشر على عقبه الأمم، الماحىِ الذى يمحو الله به الزلل والإثم، سيد ولد آدم، وشفيع من عصى وندم، وزلّ به القدم، عهدنا الذى لا ينقضى، وحَبْلُنا الذى لا ينصرم، من ضمن لأمّته الشفاعة، وهم فى عدم العدم. النبى المهذّب، الحبيب المقرب، الطاهر المطيب، المختار المنتخب، خير الأعاجم والعرب، وأشرفهم فى الحسب والنّسب، وأعرفهم بالعلم والأدب، لَاحِق من هَرَب، ومَاحِق مَنْ كَذَب، وغالب من غَلَب، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، خاتم الأنبياء، وقدوة الأصفياء، وجوهرة الأولياء. وإمام الأتقياء، وشفيع الأشقياء، مَنْ غَطّى بشارة زكريا[٢]. وزهادة يحيى، ولولاه لم تكن آخرة ولا دنيا، ولا سَمَا مَبْنيًا، ولا أرضا مَدْحِيًا[٣]، ولا جَبَلًا مرسيا، ولا خرج من العدم شىء من الأشياء.

نبىّ الثَّقلين، وإمام الحرمين، وسيد الكونين، وخير الفريقين، وصاحب الخطبتين: الجمعة والعيدين، وجَدّ السبطين: الحسن والحُسَين، وابن الذبيحين[٤]، مَنْ نصره الله ببدر وحُنَيْن، وستره فى الغار فلم تره عين، خاتم النبيئين وإمام المرسلين، وسيد الأولين والآخرين، وحبيب رب العالمين، من خصَّه الله بالفتح المبين، وسماه طه ويّس، المطاع المكين، الصادق الأمين، قائد الغُرّ المحجّلين، وكهف اليتيم والمسكين، وسيف الله المسلول على أعدائه المشركين، ورحمة الله المنشورة لعباده المؤمنين، العروة الوثقى، التى ليس لها انفصام، من تمسك بها فاز

(١) هكذا فى الأصل. ولعلها (عين).

(٢) قال تعالى: ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا﴾ [مريم ١٩].

(٣) من قوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ [النازعات ٧٩].

(٤) وهما اسماعيل عليه السلام، وعبد الله بن عبد المطلب والد الرسول ﷺ.

بها بدار السلام، وصار فى ذمة من لا يخفر له ذمام، عبد الله ورسوله، وحبيبه ونجيبه، وأمينه وتقيّه، وصدِّيقه ورَضيّه، وحجته على جميع خلقه الذى اختاره لوَحْيه، وقرن حقه بحقّه، وصدقه بصدقه، وكتب اسمه مع اسمه، ورفع ذِكْرَه بذكره، وجعل له الأرض مسجدًا طهورًا وأحل له الغنائم وكانت حَجْرًا محجورًا، ونصره الله بالرعب سنين وشهورًا، وأنزل عليه القرآن هدى ونُورا، فانتظم لفظه مسطورا، فأحيا نفوسا وأشفى صدورا، وبعث إلى الأحمر والأسود سديا كان مشكورًا، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح فى المقالة، وسد مسلك الضلالة، وقاتل أهل الشرك والجهالة، المختار من تهامة، المخصوص بالتاج والعمامة، واللواء والحوض والكرامة، الشفيع فى أهوال يوم القيامة المنقذ من الحسرة والندامة، الداعى إلى النجاح والسلامة، نبى أظلته الغمامة، وكلمته الغزالة[١]، وبشر به مبارك اليمامة[٢]، ودلّت عليه الشامة والعلامة، وكان يرى ما خلفه كما يرى ما أمامه، وكلمه الذراع المسموم[٣] وشكا له البعير المظلوم[٤]، وأحيا للعجوز ولدها[٥]، فشَبَّ فى المدينة حتى جاوز الحُلُم، وصدع بأمر الله صدعا، وقمع الباطل قمعا، وجمع الناس على الهدى جمعا، واتخذ الزهد ذرعا، والحلم طبعا، والرفض صنعا، والعلم أصلا وفرعا، وأوتى من الآيات البيِّنات أَلْفًا إنْ كانَ أُوتى موسى تِسْعا، فما تفجر البحر بأعجب من أنامله[٦]، إذ انبعث بالزلال نبعا،

---

(١) انظر فصل فى احياء الموتى (الشفا ١/٣١٦).

(٢) مبارك اليمامة: ورد فى الشفا (١/٣١٩) «أن النبى ﷺ أُتى بصبى قد شب ولم يتكلم قط، فقال: من أنا؟ قال: رسول الله.. ثم أن الغلام لم يتكلم بعدها حتى شب فكان يسمى مبارك اليمامة.

(٣) انظر الشفا ١/٣١٦، ٣١٧، ٣١٨.

(٤) جاء فى حديث الجمل، أن النبى ﷺ سألهم عن شأنه، فأخبروه أنهم أرادوا ذبحه، وفى رواية: أن النبى ﷺ قال: إنه شكا كثرة العمل وقلة العلف... [أنظر فصل الآيات فى ضروب الحيوانات ١/٣٠٩].

(٥) ورد فى الشفا (١/٣٢٠) «وعن أنس أن شابا من الأنصار توفى وله أم عجوز عمياء فسجّيناه وعزيناها، فقالت: مات ابنى؟ قلنا نعم، قالت: اللهم إن كنت تعلم أنى هاجرت إليك وإلى رسولك رجاء أن تعينني على كل شدة فلا تحملن على هذه المصيبة، فما برحنا أن كشف الثوب عن وجهه، فطعم وطعمنا».

(٦) الشفا ١/٢٨٥ «فصل فى نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته» ومنه «عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ، وحانت صلاة العصر، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأُتى رسول الله ﷺ بوضوء، فوضع رسول الله ﷺ فى ذلك الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضأوا منه، قال: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه».

وما مجيء الشجر[١] يجر عروقه كرجوع العصا حيّة تسعى، وكم من معجزة له تبهر، وآية له من أختها أكبر، رجعت له الشمس بعد الغروب حتى صلى العصر[٢] وحَنَّ له الجذع[٣] وانشق القمر[٤]، وسلّم عليه الذيب[٥] وكلمه الحجر[٦] وبعثه الله رحمة للعالمين، وذمة للمسلمين، وعصمة للتائبين النادمين، ونقمة للظالمين، واستخرجه الله من شجرة مباركة طيبة، باسقة عطرة ناعمة، نبت من الخليل عودها، واتّسق باساعيل عمودها، واتصل بعدنان عنقودها، وتم بمحمد ﷺ صعودها، يا لها من شجرة نبتت في أرض الصفا، وقامت على ساق الوفا، وسقيت بماء الاكتفا، لامعة البهاء، مشرقة الضياء، أصلها ثابت وفرعها في السماء، الحق زهرتها، والصدق ثمرتها، والحِلْم ورقها، والعلم جثتها، والهدى قنوانها، والتقوى أفنانها، من تعلّق بها سلم، ومن لجأ إليها (....) من استظل بها غنم، ومن عاندها حطم، ومن خاصمها قصم.

(١) انظر «فصل في كلام الشجر، الشفا ٢٩٨/١» وانظر أيضا «فصل في قصة حنين الجذع».
ومن الأول: «عن ابن عمر قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فدنا منه أعرابي، فقال: يا أعرابي، أين تريد؟ قال إلى أهلي، قال هل لك إلى خير، قال وما هو: قال تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، قال: من يشهد لك على ما تقول؟ قال: هذه الشجرة السمرة وهي بشاطئ الوادي فأقبلت تخد (أي تشق) الأرض حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثا فشهدت أنه كما قال، ثم رجعت إلى مكانها».

(٢) ورد في الشفا (٢٨٤/١) «أن النبي ﷺ كان يوحى إليه ورأسه في حِجْر عليّ، فلم يصل العصر حتى غربت الشمس، فقال رسول الله ﷺ أصليتَ يا عليّ؟ قال: لا، فقال: اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس. قالت أسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعدما غربت ووقفت على الجبال والأرض وذلك بالصهباء في خيبر».

(٣) انظر «فصل في قصة حنين الجذع» وفيه: «قال جابر بن عبد الله: كان المسجد مسقوفا على جذوع نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار (النوق الحوامل) [الشفا ٣٠٤/١].

(٤) انظر «فصل انشقاق القمر وحبس الشمس» ومنه: «عن أنس، سأل أهل مكة النبي ﷺ، أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر مرتين حتى رأوا حراء بينهما» [الشفا ٢٨٢/١].

(٥) انظر قصة الذيب في الشفا ٣١٠/١].

(٦) وعن الشفا، «أخذ النبي ﷺ كفا من حصى فسبحن في يد رسول الله ﷺ حتى سمعنا التسبيح، ثم صبّهن في يد أبي بكر رضي الله عنه فسبحن، ثم في أيدينا فما سبحن [وانظر فصل: ومثل هذا في سائر الجمادات» [الشفا ٣٠٦/١].

هذا وقد تعمدت الإحالة على الشفا، والنقل عنه دون غيره من كتب الشمائل لتتم المقارنة بين الشفا «والتصلية».

اشهدوا يا من حضر، والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيدًا، اشهدوا وأيقنوا وتحققوا أن ما خلق الله أتقى، ولا أنقى، ولا أوفى، ولا أصغى، ولا أعفى، ولا أكفى، ولا أشفى، ولا أفضل، ولا أكمل، ولا أجمل ولا أبجل، ولا أعقل، ولا أعدل، ولا أفلح، ولا أفصح، ولا أنصح ولا أصلح، ولا أنجح، ولا أرجح، ولا أسمح، ولا أرأف ولا أعرف، ولا أشرف، ولا أنظف، ولا أظهر، ولا أشهر ولا أنور، ولا أزهر، ولا أبصر، ولا أشكر، ولا أذكر، ولا أبر، ولا أصوم، ولا أقوم، ولا أكرم، ولا أرحم، ولا أعلم، ولا أفهم، ولا أعظم، ولا أزعم، ولا أنعم، ولا أنفق، ولا أشفق، ولا أرفق، ولا أسبق، ولا أصدق، ولا (....) ولا أعبد، ولا أزهد، ولا أرشد، ولا أمجد، ولا أنجد، ولا أوجد، ولا أوحد، ولا أحمد، ولا أصعد، ولا أسعد، ولا أشجع، ولا أبرع، ولا أوزع، ولا أكرع، ولا أنفع، ولا أمنع، ولا أشفع، ولا وطىء الثرى، ولا أحيا البرا، ولا ولدت ثَيِّبٌ ولا عَذْرا، ولا يلدن أَبَدَ الآباد مثل نبينا محمد ﷺ، ما نطق ناطق، وما طرق طارق، وما ذر شارق، وما فاح عابق، وما لاح بارق، وما صاح عاشق، وما دامت المغارب والمشارق، وشرف وكرم ومجد وعظم، ورضى الله عن كافة أصحابه أجمعين، وعن أنصاره وأصهاره الخلفاء الراشدين، وعن التابعين وتابع التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وعن الحاضرين المستمعين، وعن سائر المسلمين والمؤمنين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وسلم تسليما واجعل لنا بالصلاة عليه أجرًا عظيما.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله

هنا انتهت الخطب التى دونها أبى، رحمه الله، ورضى عنه، من انشائه، وقرئت عليه مدة حياته، وبعد وفاته، رحمة الله عليه آمين[١].

خطب أخرى صنعها بعد تدوين هذه، فنقلتها من مبيضاتها هنا، وأثبتها ليجتمع شملها، ويكمل تدوينها[٢]. فمن ذلك خطبة يحرّض فيها على الاستعداد وحمى الذمار:

«الحمد لله الذى هدانا برحمته، وشرح لنا صدورنا لمعرفته، وأكرمنا بالإسلام، وأنشأنا على فطرته، وأخرجنا إلى نُور الهدى من ظُلمة الشك والالتباس، وجعلنا من خير أمة أُخرجت للناس، أحمده وهو الذى لا يحمد بالحقيقة سواه، وأؤمن به إيمان مَنْ حقّق أن كل شىء من مبداه وإليه منتهاه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، المنزّه عن الأنداد والأشباه، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ومجتباه ومصطفاه، شفيع يوم العرض، وصاحب اللواء والحوض، وأفضل من مشى على وجه الأرض، ﷺ، وعلى آله صلاة تقضى عنا الواجب والفرض.

- أيها الناس: انظروا لأنفسكم، واستيقظوا من غفلتكم، وتأملوا ما يراد بكم، واستعدوا لما أُعد لكم، وتحفّظوا قبل أن يحاط بكم، فإنكم تستقبلون خطبا جسيما، وتنتظرون عن قريب أمرًا عظيما، فقد صار أعداؤكم عليكم إلبا، وتحالفوا عليكم شرقا وغربا، واحتشروا إليكم برًّا وبحرًا، وتعاقدوا عليكم سرًّا وجهرًا، ومدّوا لكم مِنْ كيدهم وشرهم أمرًا إمْرًا، وأنتم عمّا يُراد بكم غافلون، وعمّا يحلّ بكم إن لم يدفع الله عنكم ذاهلون، كأنكم من مكرهم فى أمان، ولستم بأضدادهم

---

(١) يشير أبو عبد الله محمد إلى خطب والده التى ذكرها غير واحد، ومنهم أبو عبد الله هذا فى التعريف.

(٢) ظهرت هذه الخطب ضمن مجموع شارك به مالكه فى المسابقة الخاصة بالمخطوطات لسنة ١٩٧٨. [انظر فهرس المخطوطات التى شارك بها أصحابها فى السنة المذكورة].

فى الدين والإيمان، فقد جَدّت بكم الحرب فجِدّوا، وشمرت عن ساقيها فشدوا، وأعدت لكم مكايدها فاستعدّوا..

ومدينتكم هذه التى راموا إليها أبصارهم، وأجمعوا عليها كيدهم وأنصارهم، وهى عرضة للهلاك إن لم تُشَيّد، وفرصة للعدو إن لم ترتب أمورها وتُسدّد جهاتها غير محصنة، وأعمال أمورها ظاهرة بيّنة، لا حماة، ولا رماة، ولا سلاح ولا آلات، ولا عدد ولا عدّة، ولا أموال لصالحها معدّة، فاقدروا رحمكم حق قدره أمركم، وخذوا، كما أمركم الله، حذركم، وقوموا فى ذلك بجد وحزم، واصبروا صبر أولى العزم، وحوطوا أن يعتدى عليكم من أنفسكم وأبنائكم ومن ورائكم، من الحزم بالجدّ فى أحوالكم، والتعاون بأيديكم وأموالكم، وانفقوا الكريمة فى مثل هذه الحال، وإنما يدخر المال لحاجات الرجال، واشتروا بالقليل، وبادروا، وذَرُوا التسويف، والتعليل، واعملوا مادام يمكنكم العمل فى هذه الأيام، قبل أن يشغلكم العدو، فقبْل الرمى تراش السهام، ﴿وَأَعِدّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَةٍ﴾[1] وعدة للقتال، واستكثروا من القِسّى والنبال، وبيض الصفاح، وسُمر الرماح، فقد ألزمكم من له الأمر عليكم ذلك، كما ألزمكم الله وأمركم، وتوقعوا عرضا يكشف حالكم، ممن لا يسامحكم فى ذلك ولا يقدركم، وأخلصوا نياتكم، وأسرار ضمائركم، فى جهاد عدو قد قصدكم فى عقر داركم، وغِيرُوا غيرة الرجال فى حمى داركم، وشدوا حَيَازِيمكم، وكونوا على عدوكم يدًا. ﴿إنّهم إنْ يَظْهَروا عَلَيكُم يَرْجمُوكم أو يُعِيدُوكم فى مِلّتهم، ولن تفلحوا إذِنْ أبدا﴾[2]، وتوكلوا على الله، واستعينوا بتقواه وطاعته، واضرعوا إليه فى أن يؤيدكم بنصره وكفايته، ويهلك عدوكم بلُطْفه الخفىّ، ويكفيكم باسمه الجليل وقايته، ﴿واعْتَصِمُوا بحبْلِ الله جَميعًا ولَا تَفَرّقُوا﴾[3]، ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَ اللهَ مَعَ الصَابِرِينِ﴾[4]. ﴿وَأَنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلقُوا بِأَيدِيكُم إلىَ التَهْلُكَةِ، وَأَحْسِنُوا إِنَ اللهَ يُحبّ المُحْسِنِين﴾[5].

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٠.
(٢) سورة الكهف: الآية ٢٠.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٥٣.
(٥) سورة البقرة: الآية ١٩٥.

اللهم بك نحول، وبك نصول، وفيك نحاكم، وبك نخاصم، وبك نستنجد، ولك نستعد، ولا ملجأ لنا، ولا منجي منك إلا إليك، ولا معول لنا إلا عليك، ولا ناصر لنا إلا أنت، وما مخذول إلا مَنْ خذلت، فلا تكلنا إلى أنفسنا طَرْفَة عين، ولا تخلنا من نظرك فى الدّارين، واكنفنا بعزّك الذى لا يُضام، وأكْنِفْنا فى كَنَفِك الذى لا يرام، وأحطنا عن أيماننا وشمائلنا، وأمامنا، وخَلْفنا، وفوقنا وتحتنا، وحوّل عنا عدونا، واكفنا ما أَهَمّنا ولا تسلّط علينا من لا يرحمنا، واكشفْ ما نزل بنا، وأنزل سَكِينةً علينا، وثبّت الأقدام إن لقينا، والطفْ بنا بلطفك الخفى المرتجى، واجعل لنا من أمرنا فَرَجًا ومَخْرجا.

يامَنْ تجيب المضطر إذا دعاه، دعوناك مضطرين كما أَمَرْتنا فأَجبنا كما وعدتنا ﴿إِنَّكَ لا تُخْلِف المِيْعَاد﴾[١] ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَة، وَقِنَا عَذَابَ النَّار﴾[٢].

٢ - ومن خطبه رضى الله عنه:

الحمد لله الذى خلق الأشياء كلها فقَدَّرَها تقديرا، وجعلها على عظمته ووحدانيته دليلا وبرهانا منيرا، وجعل الأرض مهادًا[٣] وفجّر خلالها تفجيرًا أنهارًا[٤]، ورفع السبع الشداد بغير عماد وجعل فى سمائها أنوارًا، يهتدى بإشراقها ليلا ونهارًا، والشمس سراجا[٥] وأنزل من (المُعصِرَات ماء ثجاجا)[٦] فأخرج به من الأرض نباتا[٧]، وجعل فيها لخلقه أرزاقا، وقسم بينهم بعدله أقواتا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، دبّر العالم وجعله دليلا على وجوده فدلّ كل شىء على عظمته وعزته، يفعل فى ملكه ما يريد، ويحكم فى خلقه ما يشاء، (لا

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩٤.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٠١.
(٣) قال تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض مهادا﴾ سورة النبأ: الآية ٦.
(٤) قال تعالى: ﴿فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا﴾ سورة الإسراء: الآية ٩١.
(٥) قال تعالى: ﴿وجعل فيها سراجا وقمرًا منيرا﴾ سورة الفرقان: الآية ٦١.
(٦) قال تعالى: ﴿وأنزلنا من المُعصرات ماءً ثَجّاجا﴾ سورة النبأ: الآية ١٤.
(٧) قال تعالى: ﴿لنُخرج به حَبًّا ونباتًا﴾ سورة النبأ: الآية ١٥.

معقب لحكمه)[١]، و﴿مبدّل لكلماته﴾[٢].

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، بعثه بالحقّ بشيرًا ونذيرًا، (ودَاعِيًا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا)[٣] أظهر الآيات بنبوّته دليلا على صدقه، وأرسله للناس كافة، وخَتَم به الرُّسل واصطفاه بالحكم والنبوة، والعلم والحكمة، والرفق والرحمة، فبلّغ الرِّسَالة، وأدّى الأمانة، وبيّن الشريعة حتى أتاه اليقين بعد كمال الدين، ﷺ، وعلى آله وأصحابه الأنصار والمهاجرين، الذين صبروا فى العسر واليسر على الجهاد والعبادة، والتقلل من الدنيا والزهادة، فلكم فيهم أسوة، فباتباع سبيلهم فاهتدوا، وبعملهم فاقتدوا، رضى الله عنهم أجمعين.

عباد الله، انتبهوا من غَفْلتكم، وانظروا لأنفسكم، واذكروا ما يراد بكم، قبل حلول آجالكم، وانقطاع آمالكم، ولا تغتروا بالدنيا، فإنها كأحلام نائم، وأنتم عنها عن قريب راحلون، وإلى ربكم راجعون، فاذكروا ألم الموت وسَكْرته، وعذاب القبر وظُلمته، وهَوْل الحشر وبَغْتَته، والميزان وخفته، والصراط ودِقّته والقصاص وجسرته، والجنة ونعيمها، والنار وعذابها، فَمَنْ يُطع الله ورسوله فله جنات عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين[٤] ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدّت لِلكَافِرِين﴾[٥] ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُم وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾[٦] ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيكُم مِنْ رَّبِكُم﴾[٧] ﴿وَتُوبُوا إِلَىٰ اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا المُؤمِنُونَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُون﴾[٨]، واذكروا الله واذكروه، واعلموا أن اللهَ يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه، واحفظوا

---

(١) سورة الرعد: الآية ٤١.

(٢) سورة الأنعام : الآية ١١٥.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٤٦.

(٤) قال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أُعدّت للمتقين﴾ سورة آل عمران: الآية ١٣٣.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٤.

(٦) سورة الزمر: الآية ٥١.

(٧) سورة الزمر: الآية ٥٢.

(٨) سورة النور: الآية ٣١.

ألسنتكم وأيديكم وأرجلكم قبل أن تشهد جوارحكم بما علمت و ﴿تجزَى كلُّ نفسٍ بما كسبت﴾[١] ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾[٢] و﴿لا تخونوا الله والرسول، وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾[٣] و ﴿اعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾[٤] و ﴿جاهدوا فى الله حق جهاده﴾[٥].

٣ - وله رضى الله عنه خطبة يخطب بها عند قتال عدو. وقد تقدم له كثير من فصولها[٦].

* الحمد لله الذى أظهر فى مصنوعاته دلائل وجوده، وأظهر كلمة حِزْبه على أحزاب الكفر وجنوده، ونكس لعز الإسلام عوالى رايات الكفر وبنوده، وكشف عن قلوب ما غَشِيها من روعة عدته وعديده، أحمده حق حمده، وأشكره شكرًا موعودًا بمزيده، وأسأله دوام نصر الإسلام وتأييده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تستهدف توحيد ذى العز والجلال، ويضمحل عندها دعوى الكفر والضلال، ويستقل بعصمة النفوس والأموال، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، نبى المَلْحَمَة والقتال، أرسله والكفر قد مدّ أطنابه، وأمدّ عبابه، وجمع أحزابه، ورفع أنداده وأنصابه، فجدّ ﷺ فى قبض ما أمد، وفضّ ما جمع، وخفض ما رفع، وحارب مَنْ دنا من الكفر وصنع، حتى صدقه الله وعده، وهزم الأحزاب وحده، وأظهر دينه على الدين كله[٧]، وأورى زنده، صلى الله عليه وعلى آله صلاة يزيدهم بها شرفا عنده.

أيها الناس: إن أحق النعيم بجميل الشكر، وجميع الذكر، نعمة عمّت عوارفها، وتمّت مباديها وروادفها، وملأت القلوب مسرّة عواطفها ولطائفها،

(١) سورة غافر: الآية ١٧.
(٢) سورة النور: الآية ٢٤.
(٣) سورة الأنفال : الآية ٢٧.
(٤) سورة الحج: الآية ٧٧.
(٥) سورة الحج: الآية ٧٨.
(٦) لا أثر لهذه الفصول المشار إليها فيما بين أيدينا من آثار للقاضى عياض.
(٧) قال تعالى: ﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾ [التوبة ٣٣]

وحسن مخبرها ومرآها، وطاب خبرها وذكراها، وأقرت عيون الدعوة الحنيفة و(أ.. لها)[١]، واجتثت شجرة الطاغوت من أصلها، وتركت حريمه مباحا، وزعيمه مشاعا، قد حكمت أيدى المؤمنين فيه صفاحا ورماحا، حتى كبا لغيه، وانتقم الله منه لعلمه فيه، فكم أيتم من الولدان، وأيم من النسوان، وغير من الأحوال، واغتصب من الأموال، وقتل من الرجال والأطفال، وملأ القلوب رعبا وأخذ كل سفينة غصبا[٢]، واستخف بالعالم اغترارًا وعيبا، وقد كان أوعد بجمعه، وأرعد بقوته وحوله. وأجلب بخيله ورجله، وأرهب له المخذول وهوله، والقدر يملى له ليزداد إثما على إثمه وسيئاته، ومكر الله يستدرجه من حيث لا يعلم لميقاته، فلما شمخ بأنفه، وظن أن لن نقدر عليه بعُجْبه وسخفه، أخذه الله بخفى لطفه، وساقه إلى حَتْفه، فأتاه الله من حيث لم يحتسب، فانقاذ على تمنعه و(...)[٣] للحين إلى مصيره، ولما علم الله صدق نياتكم، وخلوص طوياتكم، وشحكم بدينكم، وثباتكم وثقتكم ببارئكم فى ملماتكم، أبلغوكم فى عدوكم غاية أمنياتكم، فأقرّ عيونكم بأشدهم على الرحمان عتيا[٤] وأبعدهم صيتا وأقربهم للشيطان ليا، وصدق وعده، ﴿إنه كان وعده مَأتِيًا﴾[٥] فاقدروا، رحمكم الله هذه النعمة حق قدرها، ووفّوها جزاءها من الطاعات، وبذل الصدقات وشكرها، واستجزلوا من عند الله ثوابها وأجرها، واعتبروا بحال من أسرف فى ذنبه، وحال من كفر نعمة ربه، وتغيير من غيّر بنفسه، وبون ما بين حالين: يومه، وأمسه، وانظروه عبرة لأولى الأبصار، راكبا مطية من عمل النجار، عاريا بالعراء تصهره الشمس، وتمزقه الرياح والأمطار، وكان قد أصبح بالأمس على سريره عاتيا مسرفا، وأصبح اليوم على جزعه عاليا مشرفا، قد تبرأت منه شياطينه ولم يجد عن قضاء الله مصرفا، فأخلصوا رحمكم الله، الدعاء لمن كان هذا الفتح المبين بيَمن نقيبته وشدة بطشه،

(١) كلمة غير مقروءة، ولعلها: وأهلها.

(٢) قال تعالى ﴿وكان وراءهم مَلِكٌ يأخذ كل سفينة غصبا﴾ [الكهف ٧٩].

(٣) كلمة غير مقروءة.

(٤) قال تعالى: ﴿ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا﴾ [سورة مريم ١٩].

(٥) سورة مريم: الآية ٦١.

(٦) لعل أبا عبد الله بن عياض تعمد حذف اسم الأمير تجنبا لغضب الموحدين، وقد رأينا أنه صدّر هذه الخطبة بقوله: «وهى خطبة يخطب بها عند القتال» دون ذكر المناسبة التى خطب القاضى عياض بها.

وقوة سريرته الأمير (أبو فلان)[٦] أدام الله توفيقه ونصره، وقوى بطاعته وتقواه عضده، وآزره، وأجزل على صنعه الجميل ثوابه وأجره، وقد جعل دون نحوركم نحره، وأراحكم من تعدى العدو وكفاكم ضرّه اللهم أوزعه وأوزعنا شكر هذه النعم[١]، واحجب عن حوزته وعنا الغير والغمّ، واجعل ثأره وثأرنا على من ظلم، واعصمنا برحمة منك، فإنه لا عاصم من أمر الله إلا من رحم[٢] واشفع هذا الفتح الجليل بأمثاله، أنك أنت الأعز الأكرم، إن أفصح المقال، وأوضح الأمثال كلام الله العزيز المتعال، ﴿وردّ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قويا عزيزا﴾[٣].

٤ - وله رضى الله عنه، من فصل فى هذا المعنى:

أيها الناس: إن الله وعظكم بما قدره من محنة غيركم، والسعيد من وعظ بغيره فاعتبروا، وابتلاكم بشيء من الخوف والجوع[٤] فاصبروا، وامتحنكم بما رأيتم من أذى عدوكم فادفعوا ذلك بالإنابة إليه واستغفروا، وأعدوا لمدافعته عن دينكم ودمائكم، وحريمكم، وذراريكم، ولا تقصروا، وخذوا حذركم ولا تفتروا، واعلموا أن الله قرب إليكم الرباط والجهاد بأبواب داركم فاغتنموا ذلك وابتدروا، ولا تهملوا، ولا تتواكلوا ولا تكِلُوا، وعلى ربكم فتوكلوا، ﴿ولا تَهِنُوا ولا تحزنوا وأنتم الأعْلَوْنَ إن كنتم مؤمنين﴾[٥] واصبروا ﴿إنّ الله مع الصابرين﴾[٦]، ﴿واعلموا أن الله مع المتّقين﴾[٧] واسألوا ربكم فى تعجيل نصره وأن يكفيكم بأس عدوكم (ويَدْرأ فى غمده..)[٨] واضرعوا إليه فى كشف

---

(١) قال تعالى: ﴿فتبسّم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى﴾ [سورة النمل الآية ١٩].

(٢) قال تعالى: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾ [سورة هود الآية ١١].

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٢٥.

(٤) قال تعالى: ﴿ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع...﴾ الآية ١٥٥ من سورة البقرة.

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٣٩

(٦) سورة البقرة: الآية ١٥٣

(٧) سورة البقرة: الآية ١٩٣

(٨) جملة غير مقروءة

بأسه وضُرّه، فإنه يجيب دعوة المضطرين[١]، ويصرف السوء عن عباده المؤمنين[٢] وارفعوا أيديكم إليه راغبين، وقُولوا بألسنتكم وصدق قلوبكم مخلصين:

يا مَنْ لا ربَّ سواه، يا مجيب المضطر إذا دعاه، يامن لا ملجأ لنا منه إلا إياه، نسألك يارب العالمين أن تكشف عنا بأس القوم الظالمين، وتكف عنا أيدى المعتدين، وتصرف صرف الكفرة الملحدين، الذين سفكوا الدم الحرام، وركبوا منا الآثام، وحرقوا الديار، وقطعوا الثمار، اللهم وأصلِهم جهنّم، بئس القرار، اللهم استأصل شأفتهم، واقطع من الأرضين دعوتهم، وأهلكهم أجمعين، وانصرنا عليهم يا رحمان يارحيم، اللهم احْمِنا من جميع جهاتنا، ولا تكشف ما سترت من حرماتنا، واعصم منن أموالنا ودماءنا، واكْفِنَا برحمتك أعداءنا، واجعلهم جزر صفاحنا ورماحنا، وبلغنا منهم شفاء نفوسنا وأرواحنا، واجعلنا من المنصورين عليهم فى معدانا ومراحنا، اللهم وهب لنا نصرة منك تفرّج بها ما نزل بنا بلُطْفك المرتجى، واجعل لنا من أمورنا فَرَجًا ومخرجا، وانهج لنا ما يرضيك صراطا مستقيما ومنهجا، ﴿ربنا لا تُزِغْ قلوبنا بعد إذْ هديتنا، وهَبْ لنا من لَدُنك رحمة إنّك أنت الوهاب﴾[٣]، ربنا واجعلنا من ﴿الذين يستمعون القول فيتّبِعُون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾[٤].

٥ - ومن إنشائه رضى الله عنه:

﴿الحمد لله الذى خَلَق السمٰوات والأرض وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، هو الذى خلقكم من طين ثم قَضَى أَجَلًا، وَأجل مُسَمى عِنْدَهُ ثم أنتم تَمْتَرُون، وهو الله فى السمواتِ وفى الأرض يعلم سِرَّكم وجَهْرَكم ويَعْلَمُ ما تكْسِبُون﴾[٥] ﴿وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله، وهو الحكيم العليم، وتبارك الذى له مُلك السمٰوات والأرض وما بينهما

---

(١) قال تعالى: ﴿أم من يُجيبُ المضطر إذا دعاه﴾ [سورة النمل ٦٢]
(٢) قال تعالى: ﴿فيصيب بهِ من يشاء ويصرفه عن من يشاء﴾[سورة النور ٤٣]
(٣) سورة آل عمران: الآية ٨
(٤) سورة الزمر: الآية ١٨
(٥) سورة الأنعام: الآيات ١، ٢، ٣

وعنده علم الساعة وإليه ترجعون﴾[١] و ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شىء عليم، هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرجُ فيها، وهو معكم أين ما كنتم، والله بما تعملون بصير، له مُلك السموات والأرض، وإلى الله ترجع الأمور، يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل، وهو عليم بذات الصدور﴾[٢] و ﴿هو الذى يحيى ويميت، وله اختلاف الليل والنهار، أفلا تعقلون﴾[٣] ﴿وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون﴾[٤] ﴿لا إله إلا هو يحيى ويميت، ربكم ورب آبائكم الأولين﴾[٥] ﴿لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه، له الحكم، وإليه ترجعون﴾[٦].

أحمده وأومن به، وأستعينه وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله إلى المشركين، صلى الله عليه وعلى أصحابه الأخيار، والمهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ﴿واتقوا الله الذى إليه تحشرون﴾[٧] ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾[٨] ﴿واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾[٩] ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدا، ويحذركم الله نفسه، والله رؤوف بالعباد﴾[١٠] ﴿يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا مَنْ أَتَى الله بقلب سليم﴾[١١] ﴿يوم يفرّ المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يُغْنِيه﴾[١٢] ﴿إن زلزلة الساعة شىء عظيم، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذاتِ حَمْلٍ حملها، وترى الناس سُكَارى وما هُمْ بسكارى ولكن عذاب الله

---

(١) سورة الزخرف: الآيتان ٨٤، ٨٥
(٢) سورة الحديد: الآيات ٣، ٤، ٥، ٦
(٣) سورة المؤمنون: الآية ٨٠
(٤) سورة البقرة : الآية ١١٧
(٥) سورة الدخان: الآية ٨
(٦) سورة القصص: الآية ٨٨
(٧) سورة المائدة: الآية ٩٦
(٨) سورة آل عمران: الآية ١٣٢
(٩) سورة البقرة: الآية ٢٨١
(١٠) سورة آل عمران: الآية ٣٠
(١١) سورة الشعراء: الآيتان ٨٨، ٨٩
(١٢) سورة عبس: الآيات ٣٤ – ٣٧

شديد﴾[١] يوم ﴿يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه، وصاحبته وأخيه، وفصيلته التى تؤويه، ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه، كلا إنها لظًى نزاعة للشوى، تدعو من أدبر وتولى، وجمع فأوعى، إن الإنسانَ خُلق هلوعًا إذا مَسَّه الشر جزوعا، وإذا مسَّه الخير مَنُوعا، إلّا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون، والذين فى أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم، والذين يصدقون بيوم الدين، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون، إن عذاب ربهم غير مأمون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلّا على أزواجهم أو ما مَلَكَت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم بشهادتهم قائمون، والذين هم على صلاتهم يحافظون، أولئك فى جنات مكرمون، فمال الذين كفروا قبلك مهطعين، عن اليمين وعن الشمال عزين، أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم، كلا إنا خلقناهم مما يعلمون﴾[٢] ﴿مَنْ عمل صالحا فلنفسه، ومن أساء فعليها، ثم إلى ربكم ترجعون﴾[٣] ﴿هو الحى لا إله إلّا هو فادعوه مخلصين له الدين، الحمد لله رب العالمين﴾[٤].

٦ - خطبة أخرى:

﴿الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريكٌ فى المُلْك ولم يكن له ولىٌّ من الذُّلّ، وكَبِّرهُ تكبيرًا﴾[٥] ﴿تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبةً وَلَا ولدا﴾[٦] ﴿تكاد السمٰوات يتفطّرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هَدًّا، ان دعوا للرحمٰن ولدا، وما ينبغى للرحمان أن يتخذ ولدًا، إن كل من فى السمٰوات والأرض إلا آتى الرحمٰن عَبْدًا، لقد أحصاهم وعدّهم عدًا، وكلهم آتيه يوم القيامة فَرْدا﴾[٧] ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله، إذًا لذهب كل إله بما خلَق ولَعَلَا بعضهم على بعض، سُبْحَان الله عمّا يصفون﴾[٨] ﴿وما مِنْ

---

(١) سورة الحج: الآيتان ١، ٢
(٢) سورة المعارج: الآيات ١١ - ٣٩
(٣) سورة الجاثية: الآية ١٤
(٤) سورة غافر: الآية ٦٥
(٥) سورة الإسراء: الآية ١١٠
(٦) سورة الجن: الآية ٣
(٧) سورة مريم: الآيات ٩٠ - ٩٥
(٨) سورة المؤمنون: الآية ٩١

إله إلاّ إله واحد﴾[١] ﴿سبحانه أن يكون له ولد، له ما فى السمٰوات وما فى الأرض، وكفى بالله وكيلا﴾[٢] ﴿بديع السمٰوات والأرض، أنَّى يكونُ له ولد ولم تكن له صاحبة، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم﴾[٣] ﴿لا تُدرِكُه الأبصارُ وهو يُدْرِك الأبصارَ وهو اللطيف الخبير﴾[٤].

أحمده وأومن به، وأستعينه وأتوكّل عليه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسِرَاجًا منيرا، وعلى الخليفة المنتخب من صميم نسبة الحسنى الفاطمى[٥] المحمدى، العربى القرشىّ الهاشمى المصطفى من بيت النبوة، المختار من (...) الرسالة، من الذين اصطفاهم الله واجْتَبَاهم وهداهم إلى صراط مستقيم، الإمام المهدى أبى عبدالله محمد ابن عبدالله – رضى الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مأواه، ورضى الله عن الولى بعده، القائم بأمره، أمير المؤمنين أبى محمد عبدالمؤمن بن على، وفقه الله للسداد، وهداه لسبيل الرشاد، وأدام عزته بالتوفيق، وسرمد امداده بالنصر والتأييد، وقرن مساعيه بالتوفيق والتسديد، ووفقه للصواب والرأى السديد.

اللهم أصلحه وأصلح الرعية على يديه، ووفقه للخير وأعنه عليه، اللهم أعنه على ما وليته، واحفظ منه ما استرعيته، وبارك الله فى ما أتيته، واجعله لأنعامك من الشاكرين، ولآلائك من الذاكرين، وبطاعتك من العاملين. اللهم قوّ عزمه فى طاعتك، واشدد عضده بجماعة الخير وطائفة الحق وأنصاره.

أوصيكم عباد الله وإياى بتقوى الله ﴿يـٰأيُّها الذين آمنوا اتقوا الله ولتَنْظُر نفسٌ ما قدّمت لغدٍ، واتقوا الله، إن الله خبير بما تعملون﴾[٦] ﴿لا تُلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾[٧] ﴿أنما أموالكُم وأولادُكم فِتنَةٌ وأن الله

(١) سورة المائدة: الآية ٧٣
(٢) سورة النساء: الآية ١٧٠
(٣) سورة الأنعام: الآية ١٠٢
(٤) سورة الأنعام: الآية ١٠٣
(٥) من المعلوم أن المهدى – زعيم دولة الموحدين رفع نسبه إلى البيت النبوى.
(٦) سورة الحشر: الآية ١٨.
(٧) سورة المنافقون: الآية ٩.

عندَه أجرٌ عَظِيمٌ، يـٰأيُّها الذين آمَنُوا إن تتّقُوا الله يجعل لكُمْ فُرْقَانًا وُيكَفِّر عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُم ويَغْفِرْ لكُمْ، والله ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ، وإذْ يمكر بِكَ الّذينَ كَفَرُوا لِيُثبِتُوك أو يَقْتُلُوكَ أو يُخْرِجُوكَ، ويمكرُونَ ويمكُرُ الله، والله خَيْرُ المَاكِرِينَ، وإذَا تُتْلَى عَلَيْهم آيَاتُنا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنا مثلَ هذَا، إنْ هَذَا إلّاَ أساطيرُ الأوّلين، وإذْ قَالُوا اللّهُمّ إنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ، فأمْطِرْ عَلَينا حِجَارَةً من السَّماءِ أو ائْتِنَا بعَذَابٍ أليم، وما كَانَ الله لِيُعَذِّبَهم وأنتَ فيهم وَمَا كان الله مُعَذِّبَهُم وهم يستغفرون، وما لَهُم ألاّ يُعَذِّبَهُم الله وَهُمْ يَصُدُّون عَنِ المسجِدِ الحرام وما كانوا أولياءَه، إنْ أولياؤُهُ إلاّ المتّقُون ولكنَّ أكْثَرَهُم لا يَعْلَمُون، وما كان صَلاَتُهُم عِندَ البيتِ إلّاَ مُكَاءً وتَصْدِيةً فذُوقُوا العَذَابَ بما كُنْتُم تكْفُرُون، إنّ الذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُون أمْوَالَهُم ليصُدُّوا عن سبيل الله فسَيُنْفِقُونهَا ثم تَكُونُ عَلَيْهِم حَسْرَةً ثم يُغْلَبُون، والّذِينَ كَفَرُوا إلى جَهَنّم يُحْشَرُون، ليُمَيِّزَ الله الخبيث من الطّيب ويَجْعَلَ الخبيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فيَرْكُمَهُ جميعًا فيَجْعَلَه فى جَهَنَّم أولئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ، قُلْ للّذِينَ كفَرُوا إنْ يَنْتَهُوا يُغْفَر لَهُم ما قَدْ سَلَفَ وَإن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنّة الأوّلين، وقَاتِلُوهم حَتّى لا تكُونَ فِتْنَةٌ ويكُونَ الدينُ كُلُّهُ لله، فإنْ انْتَهُوا فإنَّ الله بما يَعْمَلُون بَصِيرٌ، وإن توَلّوْا فاعْلَمُوا أنَّ الله مَوْلاَكُم نِعْمَ المولَى ونِعْم النّصير، واعْلَمُوا أنّما غَنِمْتُم مِنْ شَيْءٍ فَأنَّ لله خُمُسَهُ وللرَّسُولِ وَلِذِى القُرْبَى واليتامى والمَسَاكِين وابنِ السَّبيل إنْ كُنْتُم آمَنْتُم بالله وما أنْزَلْنا على عَبْدِنَا يومَ الفُرقَان يَوْمَ التَقَى الجَمْعَان، والله على كلِّ شيءٍ قديرٌ، إذْ أنْتُم بالعُدْوَة الدُّنْيَا وهُمْ بالعُدوةِ القُصْوَى والركبُ أسْفَلَ مِنكُمْ ولَوْ تَوَاعَدتُم لاخْتَلَفْتُم فى المِيعَادِ ولكن لِيَقْضِي الله أمْرًا كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَك عن بيّنَةٍ وَيُحيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنةٍ وإنّ الله لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ، إذ يُرِيكَهُمُ الله فى مَنَامِكَ قليلاً ولو أراكَهُمْ كثيرًا لَفَشِلْتُم ولتَنَازَعْتُم فى الأمْرِ ولكنّ الله سلَّم إنّهُ عليمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، وإذْ يُرِيكُمُوهُم إذِ الْتقَيْتم فى أعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلّلكُمْ فى أعْيُنِهِمْ ليقْضىِ الله أمرًا كان مفعُولا

وإلى الله تُرْجعُ الأمُورُ، يـأَيُّها الّذِين آمنوا إذَا لَقِيتُم فئةً فاثْبُتُوا واذكروا الله كثيرًا لعلَّكُمْ تفْلِحُون﴾[١] ﴿وأقرضُوا الله قَرْضًا حسنًا يُضَاعف لهم ولهم أجر كريم﴾[٢].

اللهم انصر الموحدين نصرا عزيزا، وافتح لهم فتحًا مُبينا، وكفي بك نصيرا[٣]، اللهم بدّد شمل المجسّمين، وحرّق جميع المفسدين، وكف عنا أيدى المعتدين، اللهم استعملنا بطاعتك، وثبتنا على دينك، وأعنا على شكرك وحسن عبادتك، ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميعَ العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرِنَا مناسِكنَا، وتُبْ علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾[٤]. ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحمّلنا ما لا طَاقَةَ لَنَا به، واعفُ عنا، واغفر لنا، وارْحَمْنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾[٥].

قال أبو الفضل:[٦].

الرغبة إلى شيخى المعظم[٧]، أدام الله جلاله، فى النص فى هذه المسائل التى اسأله عنها، إذ هى نوازل كان من بعض الأصحاب فيها نزاع فأردت الاستنجاد برأيه، والاهتداء بهديه، والله يعظم أجره، ويجزل ذخره، بعزته.

فأما الأولى منها، فهى رجل قام على آخر يعيب فى سلعته، فأنكر المدعى السلعة، وأنه ما باعها منه: هل يقدم اثبات العيب قبل اليمين على إنكار البيع مخافة ألا يكون بها عيب فتذهب يمين الرجل باطلا؟ أو تقدم اليمين على إنكار البيع؟

---

(١) سورة الأنفال الآيات ٢٨ - ٤٦.
(٢) سورة الحديد: الآية ١٧.
(٣) قال تعالى: ﴿وكفى بالله وليا وكفى به نصيرًا﴾ [سورة النساء الآية ٤٥].
(٤) سورة البقرة: الآيتان ١٢٦ ، ١٢٧.
(٥) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.
(٦) مسائل ابن رشد ص ٦٠٢.
(٧) يقصد ابن رشد.

وكذلك اسأله. أعزه الله - عن مسألة الزريعة المشتراة إذا لم تنبت ولم يبق منها ما يجرب: هل يلزم فيها اليمين على البائع أنه ما باع منها إلا نابتا؟... وكيف يحلف إن لزمت: على البتّ، أو على العلم ها هنا؟

وقد وقع فى المسألة المنصوصة فيها على العلم خلاف، وما فائدة التجربة؟ هل لايجاب اليمين، فلا تجب إلّا بعد التجربة والعلم أنها لم تنبت؟ أم ما فائدتها، لعلها تنبت فلا يكون للمشترى حجّة؟

وكذلك أسأله[1] - أعزه الله - عن قوم لهم جنات، وأخر لهم أرحاء، وسقى الجنات من الماء الذى تدور به الارحاء، فقام بعض أصحاب الجنات على بعض أصحاب الأرحاء الذين فوقه يخصمه فى السقى: فهل يلزم الحكم فى مثل هذا، وهو يعلم أن دعوى أصحاب الجنات وقيامهم على جملة من أصحاب الأرحاء، أن يجمعهم كلهم فينظر فى أمرهم نظرا واحدًا؟ أم ينظر فى أمر من خاصم دون من لم يخاصم، وهو إن فعل ذلك تشتت عليه الأمر، واتسع عليه الخصام؟

وكذلك ورثة قام بعضهم بطلب دين لأبيهم على رجل، قال المطلوب: اجتمعوا لخصامى ولا تعنتونى بتوالى الطلب، واحدًا بعد الآخر.

ورغبتى بيان هذا الباب، ففى بعض نصوص مسائله اشتباه.

وكذلك، أعزّه الله، اسأله عمن اكترى دارًا لسنتين بنجوم معلومة للشهور أو للسنين، فمات أو فلس.. هل تحل النجوم وتكون كالديون الثابتة؟ أو لا يحل إلّا ما سكن، ويرث الورثة المنافع ويكون الكراء عليهم؟

وفى التفليس من المدونة من هذا الباب مسائل، ورأيت للقرويين فيها خلافا، ذكره اللخمىّ[2]، فرأيه أعزه الله، فى ذلك لنعتمد عليه.

وكذلك سألته، أعزّه الله، عن الحاضنة والمربية إذا لم تكن ذات قرابة، فطلبت الزيارة لمن حضنت بحكم شرط الصداق بزيارة أهلها من النساء لها ذلك، والمضرة فى انقطاعها أشد من المضرة من بعيد الأقارب، ومحارم الرجال من الرضاع والصهر.

---

(١) مسائل ابن رشد.

(٢) يقصد ابن رشد.

ما تراه فى ذلك، أكرمك الله؟

وأسأله، أعزه الله، عن حاكم أشهد على رجل غير مولى عليه بتحجير البيع عليه فى رباعة خاصة، وهل ينفذ ذلك؟ وهل هو حجران تام؟ وكيف أن باع ماله قدر من غير رباعه؟ واسأله، أعزه الله، عن مسألة عدم التحقيق فى الدعوى المختلف فيها عند كلٍ من القولين.

وعن مسألة ما يتكرر من الدعوى فى دعوى الاقالة ونحوها مما (تفنن فى ذلك ممتنا متطولا)[1]، وهل يحتاج لإيجاب اليمين فيها إلى شبهة أو تجب بنفس الدعوى.

بسم الله الرحمن الرحيم[2]

أدام الله توفيق الفقيه الأجل معظمى، وأبقاه، وختم له بحسناه، وجمع له خير دنيا وأخراه ضمنت مدرجتى هذه، اسولة رغبتى جوابه عنها مأجورًا مشكورًا إن شاء الله، وهو أعزه الله: أن جماعة أصحاب الجنات، خاصموا رجلا من أهل الارحاء فى قطع الماء عن جناتهم، وهم محتاجون إلى السقى والانتفاع بالماء المذكور، فزعم صاحب الأرحاء أن لاَحَقّ لهم فيه، وأن أرحاءه سبقت إلى حوز الماء المذكور، وعليه بناها وطحنت به عدة سنين كثيرة، فأثبت القوم شهادات من قبلته أنهم كانوا يسقون من الماء المذكور جناتهم قبل إنشاء الأرجاء وبعدها، وطالب صاحب الأرحاء النظر فى هذه الشهادات والمدافع فأوقفت الماء عن الارخاء والجنات المذكورات على مجرى آخر، واجلت صاحب الأرحاء فى البينات.

فما رأيك أن انقضى أمد السقى، والمنفعة التى طلبها أصحاب الجنات قبل انقضاء أجل المدفع، فقام صاحب الأرحاء يسأل حل العقلة، ويحتج بأن خصامهم معه إنما هو زمن السقى والعصير، وما عدا ذلك يجرى الماء على مناصب ارحائه، ولا مطالب لهم فيه، ولا حاجة تلك المدة، وإنما ينازعهم فى زمن آخر، هل يسمع

---

(١) جملة لم اهتد إلى قراءتها.

(٢) مسائل ابن رشد ص ٨١٣.

قوله وتوجيه هذه الحجة حل العقلة، ويبقون فى مطلب حججهم، فإن انقضى خصامهم قبل سنة أخرى، وإلا فيعتقل الماء إذا حان زمن السقى من السنة الأخرى؟ أم ترى العقلة باقية حتى يتم خصامهم، إذ من حجة الآخرين أن يقولوا: هذا شيء متنازع فيه، يدعى فيه حقا، فلا نبقيه بيد خصمنا حتى ينقضى الخصام؟

وتأمل، أعزّك الله بطاعته، أن دفع صاحب الأرحاء فى جملة الشهود سوى واحد، فادعى الآخر أن لهم شهودًا أخر يقومون بها، أو ادعى صاحب الأرحاء ألا مدفع فى ذلك الشاهد الباقى، وسأل حل العقلة على مذهب من يرى العقلة بالشاهد الواحد. هل يقضى له بذلك أم لا تنحل العقلة على مقتضى القولين إلا بالدفع فى الجميع؟ أو هو حكم منفذ فلا يحكم بغيره إلا بسقوط جملة شهوده بخلاف ابتداء الحكم بالعقلة؟

مصادر البحث

١ - القرآن الكريم

● ابن الأبار: محمد بن عبد الله القضاعى (ت ٦٥٨ هـ)

٢ - التكملة لكتاب الصلة، اعتنى بنشره كوديرة، طبع مدريد سنة ١٨٨٤ م.

● الدكتور إبراهيم إبراهيم قريبى

٣ - مرويات غزوة بنى المصطلق، طبع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٤٠٣ هـ

● ابن الأثير: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزرى (ت ٦٠٦ هـ)

٤ - النهاية فى غريب الحديث، تحقيق طاهر أحمد الزاوى ومحمود الطناحى، طبع مصطفى البابى الحلبى، القاهرة سنة ١٩٦٣ م.

● ابن الأثير: على بن محمد بن محمد الجزرى (ت ٦٣٠ هـ).

٥ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة، مطبعة الشعب بالقاهرة سنة ١٣٩٠ هـ.

٦ - الكامل فى التاريخ، دار صادر، بيروت سنة ١٣٨٥ هـ.

٧ - اللباب فى تهذيب الانساب، مكتبة المثنى، بغداد (بدون ذكر سنة الطبع).

● الدكتور إحسان عباس.

٨ - تاريخ الأدب الأندلسى، عصر الطوائف والمرابطين، نشر دار الثقافة سنة ١٩٦٢ م.

● أحمد بن حنبل (ت ٢٤٠ هـ)

٩ - المسند، نشر المكتب الإسلامى ودار صادر بيروت (بدون ذكر سنة الطبع).

● الدكتور أحمد جمال العمرى.
١٠ - مفهوم الإعجاز القرآنى حتى القرن السادس الهجرى، طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٤ م.

● ابن الأحمر: اسماعيل بن أبى الحجاج يوسف (ت ٨٠٧ هـ)
١١ - بيوتات فاس الكبرى، طبع دار المنصور، بالرباط سنة ١٩٧٢ م.

● ابن اسحاق: محمد بن اسحاق بن يسار المطلبى (ت ١٥١ هـ).
١٢ - المبتدأ والمبعث والمغازى (سيرة ابن اسحق) تحقيق محمد حميد الله، طبعة سنة ١٣٩٦ هـ.

● الأسنوى:
١٣ - طبقات الشافعية، تحقيق عبد الله الجبورى، بغداد سنة ١٩٧٠ م.

● الدكتور أكرم العمرى:
١٤ - بحوث فى تاريخ السنة المشرفة، مطبعة الإرشاد، بغداد سنة ١٩٦٧ م.

● الألوسى: محمود الألوسى البغدادى (ت ١٢٧٠ هـ).
١٥ - روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم، والسبع المثانى، إدارة الطباعة المنيرية، دمشق.

● انخيل كونثالث بالنسيا
١٦ - تاريخ الوكر الأندلسى، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٥ م.

● باكير أحمد
١٧ - مقدمة ترتيب المدارك، الطبعة اللبنانية، سنة ١٩٥٥ م.

● البتلونى شاكر
١٨ - نفع الأزهار فى منتخبات الأشعار، تصحيح إبراهيم اليازجى، طبعة دار كرم دمشق.

● البخارى: أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦ هـ).
١٩ - التاريخ الصغير، إدارة إحياء السنة، كوجر نوالة باكستان (دون ذكر سنة الطبع).
٢٠ - التاريخ الكبير، جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن سنة ١٣٨٠ هـ.
٢١ - الجامع الصحيح، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة سنة ١٣٧٦ هـ.
● ابن بسام: أبو الحسن الشنتريذى (ت ٥٤٢ هـ).
٢٢ - الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٧٥ م.
● ابن بشكوال: أبو القاسم خلف (ت ٥٧٨ هـ).
٢٣ - الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم، تحقيق عزت العطار ط سنة ١٩٥٥ م.
● بروكلمان: كارل.
٢٤ - تاريخ الأدب العربى ج ٥، ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب، الطبعة الثانية.
● البكرى: أبو عبيد عبد الله (ت ٤٨٧ هـ)
٢٥ - المغرب فى ذكرى بلاد أفريقيا والغرب، نشر مكتبة المثنى ببغداد (بدون ذكر سنة الطبع)
٢٦ - معجم ما استعجم، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والنشر القاهرة سنة ١٣٦٤ هـ
● البلاذرى: أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ)
٢٧ - أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩ م

● البوطي: محمد سعيد رمضان
٢٨ - فقه السيرة، نشر دار الفكر الحديث، لبنان سنة ١٣٨٦ هـ
● البيذق: أبو بكر الصنهاجي
٢٩ - أخبار المهدى بن تومرت، طبع دار المنصور بالرباط سنة ١٩٧١ م
● البيهقي: أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨ هـ)
٣٠ - السنن الكبرى، طبع دار صادر ببيروت (بدون ذكر سنة الطبع)
● ابن تاويت: محمد الطنجي
٣١ - أدب المرابطين والموحدين، مجلة البحث العلمي، العدد الثاني، السنة الأولى
٣٢ - الأدب المغربي، نشر دار الكتاب اللبناني، بيروت سنة ١٩٦٠
٣٣ - سبتة السليبة، مجلة البحث العلمي، العددان ٢٥، ٢٦، السنة الثالثة.
٣٤ - مقدمة ترتيب المدارك، نشر وزارة الأوقاف، الرباط سنة ١٩٦٥
٣٥ - نظرة على بغية الرائد للقاضي عياض، مجلة دعوة الحق - المغرب، يونيو ويوليو سنة ١٩٧٩ م
● الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩ هـ)
٣٦ - سنن الترمذي، الفجالة الجديدة، والسلفية بالمدينة المنورة.
● ابن تغرى بردى
٣٧ - النجوم الزاهرة - طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٥
● التوحيدى
٣٨ - البصائر والذخائر، تحقيق الدكتورة وداد القاضي، طبع الدار العربية للكتاب، تونس سنة ١٩٧٨ م
● ابن تيمية: أبو البركات مجد الدين عبد السلام بن عبدالله (ت ٦٥٢ هـ)
٣٩ - منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، مع نيل الأوطار للشوكاني، طبع مصطفى الحلبي سنة ١٣٥٢ هـ

● ابن تيمية: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨ هـ)
٤٠ - الصارم المسلول، طبع مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٧٩ هـ

● الدكتور جواد علي
٤١ - تاريخ العرب قبل الإسلام، طبع المجمع العلمي العراقي، بغداد سنة ١٩٥٥

● ابن الجوزي
٤٢ - صفة الصفوة، طبع حيدر أباد الدكن سنة ١٣٥٥ هـ
٤٣ - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، طبع حيدر أباد الدكن سنة ١٣٥٧ هـ

● الحاكم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله محمد النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ)
٤٤ - المستدرك على الصحيحين، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب (بدون ذكر سنة الطبع)

● ابن أبي حاتم: أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧ هـ)
٤٥ - الجرح والتعديل، ط دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن سنة ١٩٥٢ م
٤٦ - علل الحديث، مكتبة المثنى، بغداد سنة ١٣٤٣ هـ
٤٧ - المراسيل في الأحاديث، مكتبة المثنى، بغداد سنة ١٣٨٦ هـ

● حاجي خليفة: مصطفى عبد الله (ت ١٠٦٨ هـ)
٤٨ - كشف الظنون، تحقيق محمد شرف الدين ورفعت بيلكة، المطبعة البهية، استانبول سنة ١٣٦٠ هـ

● ابن حجر العسقلاني: شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر (ت ٨٥٢ هـ)
٤٩ - الإصابة في تمييز الصحابة، طبع مطبعة السعادة، سنة ١٣٢٨ هـ
٥٠ - بلوغ المرام من أدلة الأحكام، تحقيق محمد رضوان، دار الكتاب العربي، بيروت

٥١ - تبصير المنتبه، تحقيق على البجاوى ومحمد على النجار، القاهرة سنة ١٩٦٤ م

٥٢ - تهذيب التهذيب، طبع مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن سنة ١٣٢٥ هـ

٥٣ - فتح البارى شرح صحيح البخارى، تحقيق عبد العزيز بن باز، المطبعة السلفية القاهرة سنة ١٣٨٠ هـ

٥٤ - لسان الميزان، طبع حيدر آباد الدكن سنة ١٣٢٩ هـ

● الدكتور حجي محمد

٥٥ - الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر.

● الحجوى: محمد بن الحسن الثعالبى (ت ١٩٥٦ م)

٥٦ - الفكر السامى فى تاريخ الفقه الاسلامى، مطبعة إدارة المعارف بالرباط سنة ١٣٥٤ هـ

● ابن حزم: أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت ٤٥٦ هـ)

٥٧ - جمهرة أنساب العرب، دار المعارف بمصر سنة ١٣٩٢ هـ

٥٨ - جوامع السيرة، تحقيق الدكتور إحسان عباس، والدكتور ناصر الأسد - دار المعارف بمصر.

٥٩ - رسائل ابن حزم، تحقيق الدكتور إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت سنة ١٩٨١ م

٦٠ - المحلّى، إدارة الطباعة المنيرة، القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ

● الدكتور حسن أحمد محمود

٦١ - قيام دولة المرابطين، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٧ م

● الحلبى: أبو العباس على برهان الدين الحلبى

٦٢ - إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون (السيرة الحلبى) مطبعة الاستقامة بالقاهرة.

● الحميدى:
٦٣ - جذوة المقتبس، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى، القاهرة سنة ١٩٥٢ م

● ابن خاقان: أبو نصر محمد القيسى (ت ٥٢٩ هـ)
٦٤ - قلائد العقيان، مطبعة التقدم العلمى سنة ١٣٢٥ هـ
٦٥ - مطمح الأنفس ومسرح التأنس، مطبعة الجوائب، القسطنطينية سنة ١٣٥٢ هـ

● الخضرى: محمد بن عفيفى الباجورى
٦٦ - نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين، دار التعاون للنشر والتوزيع سنة ١٩٦٧ م

● ابن الخطيب: لسان الدين (ت ٧٧٦ هـ)
٦٧ - الإحاطة فى أخبار غرناطة، تحقيق الدكتور محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجى بالقاهرة سنة ١٩٧٣ م
٦٨ - أعمال الأعلام، تحقيق الدكتورين أحمد مختار العبادى ومحمد ابراهيم الكتانى طبع دار الكتاب بالبيضاء سنة ١٩٦٤ م

● الخطيب البغدادى: أبو بكر أحمد بن على بن ثابت (ت ٤٦٣ هـ)
٦٩ - تاريخ بغداد، بعناية محمد حامد الفقى، طبع مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٩ هـ
٧٠ - الكفاية فى علم الرواية، تحقيق عبد الحليم الطبعة الأولى، القاهرة.

● ابن خلدون: عبد الرحمن (ت ٨٠٨ هـ)
٧١ - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون) نشر دار الكتاب اللبنانى سنة ١٩٥٩ م

● ابن خلكان: شمس الدين أحمد (ت ٦٨١ هـ)
٧٢ - وفيات الأعيان، تحقيق محيى الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٨ م

● ابن خير: الفاسى ثم الاشبيلى (ت ٥٧٥ هـ)
٧٣ - فهرسته، طبعة مؤسسة الخانجى بمصر.

● دائرة المعارف الإسلامية: لمجموعة من المستشرقين، ترجمة محمد ثابت الفندى وآخرين، تصوير دار المعرفة ببيروت
٧٤ - مادة (سيرة)، ومادة (عياض)

● أبو داود السجستانى: سليمان بن الأشعث (ت ٢٧٥ هـ)
٧٥ - السنن، طبع بعناية أحمد سعد على، طبع مصطفى الحلبى بمصر سنة ١٣٧١ هـ

● الدباغ
٧٦ - معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس سنة ١٩٧٨ م

● ابن دحية: أبو الخطاب (ت ٦٣٤ هـ)
٧٧ - المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق ابراهيم الابيارى وحامد عبد المجيد، المطبعة الأميرية سنة ١٩٥٤ م

● الدورى: عبد العزيز
٧٨ - نشأة علم التاريخ عند العرب، طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٦٠ م.

● الذهبى: شمس الدين محمد أحمد عثمان (ت ٧٤٨ هـ)
٧٩ - تاريخ الإسلام، طبع مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٦٧ هـ
٨٠ - تذكرة الحفاظ، طبع حيدر آباد الدكن سنة ١٩٥٥ م
٨١ - سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٤٠١ هـ
٨٢ - العبر فى خبر من عبر، تحقيق فؤاد السيد، الكويت سنة ١٩٦١ م

● ابن رشد: أبو الوليد محمد (ت ٥٢٠ هـ)
٨٣ - مسائل ابن رشد، تحقيق محمد الحبيب التجكانى، طبع الرباط
٨٤ - المقدمات - طبع مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٥ هـ

● الزبيدى: محمد مرتضى (١٣٠٥ هـ)
٨٥ - تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد السلام هارون، طبع الكويت سنة ١٩٧٠ م

● ابن الزبير:
٨٦ - صلة الصلة، نشره ليفى بروفنسال، الرباط سنة ١٩٣٧ م

● ابن أبى زرع: على بن عبد الله (ت ٧٢٦ هـ)
٨٧ - الأنيس المطرب بروض القرطاس، طبعة دار المنصور، الرباط سنة ١٩٧٣ م

● ● أبو زرعة: أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين العراقى (ت ٨٢٦ هـ)
٨٨ - طرح التثريب شرح التقريب، جمعية النشر والتأليف الأزهرية سنة ١٣٥٣ هـ

● ● الزرقانى: محمد بن عبد الباقى المالكى (ت ١١٢٢ هـ)
٨٩ - شرح المواهب اللدنية، المطبعة الأزهرية سنة ١٣٢٥ هـ

● الزركشي: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بهادر بدر الدين (ت ٧٩٤ هـ)
٩٠ - البرهان فى علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، طبعة سنة ١٣٧٦ هـ

● الزمخشري: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ)
٩١ - الفائق فى غريب الحديث، تحقيق على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل، القاهرة سنة ١٩٤٥ م
٩٢ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، طبعة مصطفى البابى الحلبى، القاهرة سنة ١٣٩٢ هـ

● ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ)
٩٣ - الطبقات الكبرى، نشر دار صادر ببيروت سنة ١٩٥٨ م

● السمهودي: على بن عبد الله بن شهاب الدين الحسينى (ت ١٠١١ هـ)
٩٤ - وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، مطبعة الآداب والمؤيد ، بمصر سنة ١٣٢٦ هـ

● السهيلى: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد (ت ٥٨١هـ).
٩٥ - الروض الأنف، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار النصر للطباعة (بدون ذكر سنة الطبع).

● ابن سيد الناس: أبو الفتح محمد بن محمد بن عبد الله (ت ٧٣٤هـ).
٩٦ - عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، نشر مكتبة القدسى بالقاهرة سنة ١٣٥٦هـ

● السيوطى: جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (ت ٩١١هـ).
٩٧ - الأكليل فى استنباط التنزيل، طبع على نفقه أسعد دار بزونى الحسينى، سنة ١٣٧٣هـ
٩٨ - تدريب الراوى، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة سنة ١٣٧٩هـ
٩٩ - الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، نشر محمد أمين دمج، بيروت (بدون ذكر سنة الطبع)
١٠٠ - لباب النقول فى أسباب النزول، طبع مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة - الطبعة الثانية.

● ابن سعيد
١٠١ - المغرب فى حلى المغرب، تحقيق الدكتور شوقى ضيف، القاهرة سنة ١٩٦٤م.

● الشافعي: أبو عبد الله محمد بن ادريس المطلبي (ت٢٠٤).

١٠٢ - الأم، طبع دار الشعب بمصر سنة ١٣٨٨هـ.

١٠٣ - المسند (مطبوع على هامش الأم).

● الشمني: أحمد بن محمد بن محمد (ت٨٧٢هـ).

١٠٤ - مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء، حاشية الشفا، طبع دار الفكر، بيروت سنة ١٩٨١م.

● الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني.

١٠٥ - أضواء البيان، مطبعة المدني بالقاهرة سنة ١٣٧٦هـ.

● الشوكاني: محمد بن علي بن محمد (ت١٢٥٠هـ).

١٠٦ - البدر الطالع، طبع مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٨هـ.

١٠٧ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، نشر محفوظ العلي، بيروت.

● أبو شهبة: محمد بن محمد.

١٠٨ - الاسرائيليات والموضوعات، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٣.

١٠٩ - السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة طبع دار الأنوار بمصر (دون ذكر سنة الطبع).

● الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت٥٤٨هـ).

١١٠ - الملل والنحل، تحقيق الدكتور محمد فتح الله بدران طبع مصر سنة ١٩٥١م.

● الصابوني: محمد بن علي

١١١ - التبيان في علوم القرآن، طبع دار الارشاد ببيروت سنة ١٣٩٠هـ.

١١٢ - روائع البيان تفسير آيات الأحكام، طبع دار القرآن الكريم، الكويت سنة ١٣٩١هـ.

● ابن الصابونى
١١٣ - تكملة إكمال الصلة، تحقيق مصطفى جواد، بغداد سنة ١٩٥٧م.

● ابن صعد التلمسانى: محمد بن أحمد (ت ٩٠١ هـ).
١١٤ - النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر ومناقب. مخطوط بالمكتبة العامة بالرباط رقم ١٩٩٢ك.

● الصفدى:
١١٥ - نكت الهميان، طبع بعناية أحمد زكى بالقاهرة سنة ١٩١١م.

● الضبى: أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميره القرطبى
١١٦ - بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس، طبع مدريد سنة ١٨٨٣م.

● الطبرى: محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ).
١١٧ - تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. طبع دار المعارف بمصر.
١١٨ - تفسير الطبرى، تحقيق محمود محمد شاكر، طبع دار المعارف بمصر.

● ابن عاشور: طاهر
١١٩ - القول الفصل لأبى الفضل فى عصمة الأنبياء من بعد النبوّة ومن قبل، مجلة دعوة الحق العددان ٧٢، ٧٣ السنة الثامنة.

● العباس بن ابراهيم المراكشى
١٢٠ - إظهار الكمال فى تتميم مناقب أولياء مراكش سبعة رجال، طبع الرباط سنة ١٣٧٣ هـ.

● الدكتور عباس الجرارى
١٢١ - وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ، مطبوعات الجمعية المغربية للتضامن الإسلامى، الرباط سنة ١٩٧٦م.
١٢٢ - التيار الفقهى وأثره على الأدب المرابطى، مجلة دعوة الحق، العددان ٤، ٥ السنة ١٦.

● ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمرى (٤٦٣ هـ).
١٢٣ - الاستذكار لمذاهب فقهاء الأمصار، تحقيق على النجدى ناصف، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة سنة ١٣٩٣هـ.
١٢٤ - جامع بيان العلم، طبع المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.
١٢٥ - الدرر فى اختصار المغازى والسير، تحقيق الدكتور شوقى ضيف، القاهرة سنة ١٣٨٦هـ.

● الدكتور عبد الحليم محمود
١٢٦ - دلائل النبوة ومعجزات الرسول. طبع القاهرة سنة ١٩٧٤م.

● عبد السلام شقور:
١٢٧ - القاضى عياض الأديب، نشر دار الفكر المغربى سنة ١٩٨٣م.

● عبد العزيز عبد الله:
١٢٨ - الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، مطبوعات وزارة الأوقاف بالمغرب سنة ١٩٧٦م.

العبد لاوى: موسى بن محمد (ت ١١٤٠ هـ)
١٢٩ - التماس العفا فيما كتب على الشفا (مخطوط) المكتبة العامة بالرباط رقم ١٢٤١د.

● ابن عبد الملك المراكشى
١٣٠ - الذيل والتكملة، تحقيق الدكتور محمد بنشريفة، دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦٣م.

● ابن عذارى (ت ٦٩٥ هـ)
١٣١ - البيان المغرب (دولة المرابطين) تحقيق الدكتور إحسان عباس طبع بيروت.

● ابن العربى: (ت ٥٤٣ هـ)
١٣٢ - العواصم من القواصم، تحقيق محب الدين الخطيب، نشر مكتبة أسامة بن زيد، بيروت سنة ١٩٧٩م.

● العماد الأصفهاني: أبو عبد الله محمد (ت٥٩٧هـ)
١٣٣ - خريدة القصر، تحقيق على عبد العظيم وعمر الدسوقى، طبع دار نهضة مصر.

● ابن العماد الحنبلى: (ت١٠٨٩هـ)
١٣٤ - شذرات الذهب، نشر مكتبة القدسى القاهرة سنة ١٣٥٠هـ.

● الدكتور عنان محمد
١٣٥ - عصر المرابطين والموحدين، طبع القاهرة سنة ١٩٦٤م.

● ابن عياض: أبو عبد الله محمد (ت٥٧٥هـ)
١٣٦ - التعريف، تحقيق وتقديم الدكتور محمد بن شريفة، مطبوعات وزارة الأوقاف بالمغرب.

● عياض أبو الفضل القاضى (ت٥٤٤هـ)
١٣٧ - الإعلام بحدود قواعد الإسلام، تحقيق محمد بن تاويت، نشر وزارة الأوقاف بالمغرب سنة ١٩٧٩م.
١٣٨ - إكمال المعلم بفوائد مسلم، المكتبة الملكية بالرباط مخطوط تحت رقم ٢٦٤٠د.
١٣٩ - الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر، طبع دار التراث بالقاهرة سنة ١٩٧٠م.
١٤٠ - بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، تحقيق صلاح الدين بن أحمد الأدلبى، ومحمد الحسن أجانف، نشر وزارة الأوقاف بالمغرب سنة ١٩٧٥م.
١٤١ - تراجم أغلبية مستخرجة من ترتيب المدارك، تحقيق محمد الطالبى طبع تونس سنة ١٩٦٨م.
١٤٢ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تعليق محمد بن تاويت، نشر وزارة الأوقاف بالمغرب.

١٤٣ - التنبيهات المستنبطة، المكتبة العامة بالرباط مخطوط تحت رقم ٣٨٤ق.

١٤٤ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى، طبع المكتبة التجارية الكبرى بمصر.

١٤٥ - الغنية (فى أسماء شيوخه) نشر وتحقيق الأستاذ ماهر زهير جرار، طبع بدار الغرب الإسلامى ببيروت سنة ١٩٨٢م.

١٤٦ - مشارق الأنوار على صحاح الآثار، نشر فى دار التراث المكتبة العريقة - تونس سنة ١٣٢٨هـ.

● الفاسى: محمد بن أحمد تقى الدين المكى (ت٨٣٢هـ)

١٤٧ - شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، دار إحياء الكتب، طبع عيسى الحلبى سنة ١٩٥٦م.

● الفتح بن خاقان

١٤٨ - قلائد العقيان، طبع بولاق سنة ١٢٨٣هـ.

● ابن فرحون: ابراهيم على بن محمد اليعمرى المدنى (ت١٠٢٥هـ)

١٤٩ - الديباج المذهب، نشر ابن شقرون سنة ١٣٥١هـ.

● ابن الفرضى

١٥٠ - تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة سنة ١٩٦٦م.

● الفسوى: أبو يوسف يعقوب بن سفيان (ت٢٧٧هـ)

١٥١ - المعرفة والتاريخ، تحقيق الدكتور أكرم العمرى، مطبعة الارشاد، بغداد سنة ١٩٧٥م.

● فنسنك: المستشرق

١٥٢ - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف، طبع ليدن سنة ١٩٣٦م.

١٥٣ - مفتاح كنوز السنة، ترجمة محمد فؤاد عبد الباقى، مطبعة معارف لاهور سنة ١٣٩٧هـ.

● الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن ابراهيم (ت٨١٧هـ)

١٥٤ - القاموس المحيط، مؤسسة الحلبى بمصر. (بدون ذكر سنة الطبع)

● ابن القاضي: أحمد بن محمد (ت١٠٢٥هـ)

١٥٥ - جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس، مطبعة دار المنصور بالرباط سنة ١٩٧٣م.

● القرطبي: محمد بن أحمد الأنصارى (ت٦٧١هـ).

١٥٦ - الجامع لأحكام القرآن طبع دار الكتب المصرية، القاهرة سنة ١٣٨٣هـ.

● ابن القطان: على بن محمد (ت٦٢٨هـ)

١٥٧ - نظم الجمان، تحقيق محمود على مكى. منشورات جامع محمد الخامس بالرباط.

● القفطى

١٥٨ - إنباء الرواة، تحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم، طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٠م.

● القلقشندى: أبو العباس أحمد بن على (ت٨٢١هـ)

١٥٩ - قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق ابراهيم الأبيارى، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٨٣.

● الكاتب الأصفهانى

١٦٠ - خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء الأندلس)، الدار التونسية للنشر سنة ١٩٦٦م.

● الكتانى: محمد بن جعفر بن ادريس (ت ١٣٨٢هـ)
١٦١ - الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة، طبع دار الفكر - دمشق سنة ١٩٦٤م.
١٦٢ - فهرس الفهارس طبع فاس سنة ١٣٤٦هـ.

● ابن كثير: عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القرشى (ت ٧٧٤ هـ)
١٦٣ - البداية والنهاية طبع مطبعة السعادة، القاهرة سنة ١٣٥١ هـ
١٦٤ - تفسير القرآن العظيم، طبع دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبى بمصر.

● الكلاعى: أبو القاسم (من رجال القرن السادس)
١٦٥ - أحكام صنعة الكلام، تحقيق محمد رضوان، دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦٦ م

● ابن ماجة: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى (ت ٢٧٥ هـ)
١٦٦ - السنن - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء الكتب العربية بمصر سنة ١٣٧٤

● ابن ماكولا
١٦٧ - الإكمال فى رفع الإرتياب (١ - ٦) طبع حيدر آباد الدكن، الهند سنة ١٩٦٥ (٧ - ٨) طبع بيروت.

● مالك بن أنس: أبو عبد الله الأصبحى إمام دار الهجرة (ت ١٧٩ هـ)
١٦٨ - المدونة الكبرى، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٣ هـ
١٦٩ - الموطأ تصحيح محمد فؤاد عبد الباقى، طبع دار إحياء التراث العربى، بيروت.

● الماوردى:
١٧٠ - أدب الدنيا والدين، نشره الأستاذ مصطفى السقا، القاهرة سنة ١٩٥٥ م

● محمد عزة دروزة

١٧١ - سيرة الرسول، نشر مطبعة عيسى البابى الحلبى، مصر سنة ١٩٥٦ م

● محمد الغزالى

١٧٢ - فقه السيرة، طبع دار الكتب الحديثة بمصر سنة ١٩٧٦ م

● المرادى

١٧٣ - الإشارة إلى أدب الإمارة، تحقيق الدكتور رمضان السيد، طبع دار الطليعة بيروت سنة ١٩٨١ م

● محمد مخلوف

١٧٤ - شجرة النور الزكية، المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٩ هـ

● مرتضى الزبيدى:

١٧٥ - إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، طبع بولاق.

● المراكشى

١٧٦ - المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، طبع القاهرة سنة ١٩٦٣ م

● مسلم بن الحجاج القشيرى (ت ٢٦١ هـ)

١٧٧ - الصحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، طبع دار إحياء الكتب العربية، مصر سنة ١٣٧٤ هـ

● المعرى: أبو العلاء

١٧٨ - الفصول والغايات، تحقيق محمود حسن زناتى، طبع الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٧ م

● المقدسى: المطهر بن طاهر (ت ٣٥٥ هـ)

١٧٩ - كتاب البدء والتاريخ، طبع بعناية كلمان هوار، باريس سنة ١٩٠٣ م

● المقرى: شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ١٠٤١ هـ)
١٨٠ - أزهار الرياض (١-٣) تحقيق الأستاذ مصطفى السقا وآخرين، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ ، (ج ٤) تحقيق الأستاذين محمد بن تاويت وسعيد أحمد أعراب، طبع المغرب، (ج ٥) تحقيق الدكتور عبد السلام هراس وسعيد أحمد أعراب ، المغرب سنة ١٩٨٠ م

● المقريزى: تقى الدين أبو العباس أحمد (ت ٨٤٥ هـ)
١٨١ - امتاع الأسماع، تحقيق محمود شاكر، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة سنة ١٩٤١ م

● ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى (ت ٧١١ هـ)
١٨٢ - لسان العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة (دون ذكر سنة الطبع)

● ابن المؤقت: المراكشى محمد (ت ١٣٥٣ هـ)
١٨٣ - السعادة الأبدية، المطبعة الحجرية، بفاس.

● الناصرى: أبو العباس أحمد (ت ١٣١٥ هـ)
١٨٤ - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، طبع دار الكتب، البيضاء سنة ١٩٥٤ م

● النباهى: أبو الحسن (ت بعد سنة ٧٩٢ هـ)
١٨٥ - كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق الفتيا، تحقيق ليفى بروفنسال، المكتب التجارى للطباعة والنشر ببيروت.

● ابن النديم:
١٨٦ - الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران سنة ١٩٧١ م

● النسائى: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣ هـ)
١٨٧ - سنن النسائى (المجتبى) طبع مصطفى البابى الحلبى سنة ١٣٨٣ هـ
١٨٨ - الضعفاء والمتروكين، طبع دار إحياء السنة، كوجر نواله باكستان (بلا تاريخ طبع)

● أبو نعيم الأصبهانى
١٨٩ - حلية الأولياء، طبع القاهرة سنة ١٩٣٨ م

● ابن هشام: أبو محمد عبد الملك (ت ٢١٨ هـ)
١٩٠ - السيرة النبؤية، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا، وابراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ سلبى. طبع مصطفى البابى الحلبى سنة ١٣٧٥ هـ

● الهمذانى: القاضى عبد الجبار بن أحمد (ت ٤١٥ هـ)
١٩١ - تثبيت دلائل النبوة، تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان، طبع بيروت سنة ١٣٨٦ هـ
١٩٢ - تنزيه القرآن عن المطاعن، طبع بيروت (بدون تحديد سنة الطبع)

● هورفتس: المستشرق
١٩٣ - المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة الدكتور حسين نصار طبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة سنة ١٣٦٩ هـ

● الهيثمى: نور الدين على بن أبى بكر بن سليمان (ت ٨٠٧ هـ)
١٩٤ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، طبع دار الكتاب العربى ببيروت سنة ١٩٦٧ م

● الواحدى: أبو الحسن على بن أحمد (ت ٤٦٨ هـ)
١٩٥ - أسباب النزول، دار الكتب العلمية، بيروت سنة ١٣٩٥ هـ

● الواقدى: محمد بن عمر (ت ٢٠٧ هـ)
١٩٦ - كتاب المغازى، تحقيق مارسدن جونس، مؤسسة الأعلمى، بيروت سنة ١٩٦٦

● وكيع بن خلف: (ت ٣٠٦ هـ)
١٩٧ - أخبار القضاة، تحقيق عبد العزيز المراغى، مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٦٩ هـ

● اليافعي: أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي (ت٧٦٨ هـ)
١٩٨ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان.
تصوير مؤسسة الأعلى ببيروت سنة ١٣٩٠ هـ

● ياقوت الحموي: (ت ٦٢٦ هـ)
١٩٩ - معجم الأدباء، طبع دار المأمون سنة ١٩٣٦ م
٢٠٠ - معجم البلدان، دار صادر ببيروت سنة ١٩٧٦ م

● الدكتور يحيى هويدى
٢٠١ - تاريخ فلسفة الإسلام فى القارة الافريقية، طبع القاهرة.

فهرس تحليلى للموضوعات

رقم الصفحة

- الإهداء ٣
- مقدمة البحث ٧

● القسم الأول : **الرجل والعصر** ١٧

- تمهيد: إطلالة على المغرب فى عصر القاضى عياض ... ١٩

● المؤرخون يقسمون تاريخ الأندلس إلى خمسة عصور. ١٩
● الحكم فى عهد المرابطين. ٢١
● معركة الزلاقة بين ابن تاشفين والفونس السادس (سنة ٤٧٩هـ) ٢٢
● توحيد المغرب سياسيا ومذهبيا. ٢٣
● الأسس التى سار عليها المرابطون. ٢٣
● الحكم فى عهد الموحّدين. ٣١
● ثورة القاضى عياض ضد الموحدين ونتائجها. ٣٢

- الفصل الأول : اسمه ونسبه ٣٣
- الفصل الثانى : مولده ونشأته وثقافته ٣٨
- الفصل الثالث : حياته: ٤٥
  - مرحلة طلب العلم ٤٥
  - مرحلة نشر العلم ٥٣
  - مرحلة الصراع الفكرى والعقيدى ٥٨
- الفصل الرابع : مكانته، ومحنته بسبب عقيدته السنّية ٦٣
- الفصل الخامس : مؤلفاته ومصنفاته ٧٠

رقم الصفحة

أولا: كتب الحديث: ٧١

١ - إكمال المعلم بفوائد مسلم. ٧١
٢ - الإلماع فى ضبط الرواية وتقييد السماع. ٧٤
٣ - بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد. ٨٣
٤ - مشارق الأنوار على صحيح الآثار. ٨٩

ثانيا: مصنفاته الفقهية: ٩٣

١ - الأجوبة المحبرة على المسائل المتخيرة. ٩٣
٢ - الأجوبة فيما نزل فى أيام قضائه من نوازل الأحكام. ٩٣
٣ - الإعلام بحدود قواعد الإسلام. ٩٤
٤ - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ٩٥
٥ - التنبيهات المستنبطة على المدونات المختلطة. ١٠١
٦ - كتاب السيف المسلول على من سب أصحاب الرسول. ١٠٢
٧ - كتاب العقيدة. ١٠٢
٨ - مسألة الأهل المشترط بينهم التزاور. ١٠٢
٩ - مطامح الأفهام فى شرح الأحكام. ١٠٢
١٠ - نظم البرهان على صحة جزم الآذان. ١٠٢

ثالثا: مصنفاته فى السيرة النبوية ١٠٢

١ - اختصار شرف المصطفى ﷺ. ١٠٢
٢ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ. ١٠٣

رابعا: مصنفاته التاريخية ١٠٤

١ - أخبار القرطبيين. ١٠٤
٢ - تاريخ المرابطين. ١٠٤

٣ - الجامع فى التاريخ. ... ١٠٤
٤ - العيون الستة فى أخبار سبتة. ... ١٠٥
٥ - المعجم فى ذكر أبى على الصدفى وأخباره وشيوخه وأخبارهم. ... ١٠٥
٦ - أخبار العلويين. ... ١٠٥
٧ - تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضى عياض. ... ١٠٥
٨ - المعجم فى شيوخ ابن سكرة. ... ١٠٥
٩ - جمهرة رواة مالك. ... ١٠٦
١٠ - الغنية فى أسماء شيوخه. ... ١٠٦

خامسا: مصنفاته الأدبية ... ١١٢

١ - كتاب التنبيهات. ... ١١٢
٢ - كتاب خطبه. ... ١١٢
٣ - سر السراة فى آداب القضاة. ... ١١٢
٤ - كتاب سؤالات وترسيل. ... ١١٣
٥ - غنية الكاتب وبغية الطالب فى الصدور والترسيل. ... ١١٣
٦ - غريب الشهاب. ... ١١٣
٧ - كتاب القواعد. ... ١١٣
٨ - المقاصد الحسان. ... ١١٣

- نظرة فاحصة فى آثار القاضى عياض. ... ١١٤

الفصل السادس: أدب القاضى عياض. ... ١١٨

أولا: شعره ... ١١٨
مصادر شعره ... ١٢٠
- أغراض الشعر عنده ... ١٢٣

(أ) المدائح النبوية. ... ١٢٣

رقم الصفحة

(ب) النسيب. ١٣١
(جـ) الشكوى والحنين. ١٣٤
(د) فى العلم والحض عليه. ١٣٥

ثانيا: نثره ١٣٧
- مصادر نثره ١٣٧
- أغراض النثر عنده ١٣٨
(أ) رسائله: ١٣٨

- مكاتبة الرسول صلى الله عليه وسلم. ١٣٨
- مكاتبة الأدباء فى مواضيع خاصة. ١٤١
- مكاتبة العلماء فى قضايا علمية. ١٤١

(ب) فن التصلية ١٤٢

مكونات التصلية: ١٤٣
- الحث على الصلاة على الرسول ﷺ. ١٤٣
- الصلاة عليه ﷺ ١٤٤
- الدعـــاء ١٤٥

(جـ) خطبه ١٤٦

- الخطب الجهادية. ١٤٧
- الخطب الدينية. ١٤٩

القسم الثانى: **منهج القاضى عياض فى السيرة النبوية** ١٥٥

تمهيد: السيرة النبوية قبل القاضى عياض. ١٥٧

١ - مميزاتها ١٥٧
٢ - مصادر السيرة النبوية. ١٦٣

رقم الصفحة

- القرآن الكريم. ١٦٤
- الحديث النبوى. ١٦٦
- كتب السيرة المختصة. ١٦٨
- كتب الدلائل والشمائل. ١٧٩

٣ - نظرة القاضى عياض إلى السيرة. ١٨٢

٤ - منهجه فى البحث. ١٨٦

الباب الأول: شخصية الرسول كما رسمها القرآن ١٩١

الفصل الأول: فى ثناء الله عليه. ١٩٣

الفصل الثانى: خصال الجمال والكمال: ٢٠٥

(أ) الضرورى الدنيوى. ٢٠٥

(ب) المكتسب الدينى. ....

(أ) خصال الكمال والجمال غير المكتسبة.. أى الضرورى الدنيوى: ٢٠٦

- كمال الخلقة وجمال الصورة. ٢٠٨
- نظافة جسمه وطيب ريحه. ٢٠٩
- وفور عقله وذكاء لبه. ٢١٠
- فصاحة لسانه وبلاغة قوله. ٢١١
- شرف النسب والمنشأ وكرم البلد. ٢١٤

ويلحق بالضرورى الدنيوى

- غذاؤه ونومه وملبسه ومسكنه ومنكحه وماله وجاهه. ٢١٥

تقسيم هذه الأمور إلى ثلاثة أضرب: ٢١٥

١ - ضرب الفضل فى قلته (الغذاء والنوم). ٢١٦

٢ - ضرب الفضل فى كثرته (النكاح والجاه). ٢١٧

رقم الصفحة

رأى وتحليل، والحكم فى تعدد زوجات الرسول ﷺ. ٢١٨
٣ - ضرب تختلف الأحوال فيه. ٢٢٤

(ب) خصال الكمال والجمال المكتسبة: ٢٢٦

- أخلاقه. ٢٢٦
- حلمه واحتماله وعفوه مع المقدرة وصبره. ٢٢٩
- جوده وكرمه وسخاؤه وسماحته. ٢٣١
- الشجاعة والنجدة. ٢٣٢
- الحياء والاغضاء. ٢٣٣
- حُسن عشرته وأدبه. ٢٣٤
- شفقته ورأفته ورحمته. ٢٣٥
- وفاؤه وحسن العهد. ٢٣٦
- تواضعه. ٢٣٧
- عدله وأمانته وعفته وصدق لهجته. ٢٣٨
- وقاره وصمته ومروءته. ٢٣٩
- علاقته بربه وخوفه منه وطاعته له. ٢٤٢
- خصال جميع الأنبياء والرسل. ٢٤٣

الفصل الثالث: عظيم قدره ومنزلته عند ربه ٢٤٥

١ - مكانته عند ربه. ٢٤٦
٢ - كرامة الإسراء. ٢٤٨
- هل كان اسراؤه بروحه أو جسده؟ ٢٥٣
- إبطال حجج من قال إنها نوم. ٢٥٥
- هل رأى الرسول ﷺ ربّه؟ ٢٥٧
- رأى القاضى عياض فى رؤية الله فى الدنيا. ٢٥٨
- هل دنا محمد من ربه؟ ٢٦٠

رقم الصفحة

- هل كلم محمد ﷺ ربه مباشرة؟ ٢٦١
- مناجاة الرسول ﷺ لربه. ٢٦٢
٣ - تفضيله فى القيامة وإبراز كرامته. ٢٦٣
٤ - تفضيله بالمحبة والخُلَّة. ٢٦٥
٥ - تفضيله بالشفاعة والمقام المحمود. ٢٦٧
٦ - تفضيله فى الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة. ٢٧٠
٧ - تشريف الله له بما سماه به من أسمائه الحسنى. ٢٧٧

الفصل الرابع: معجزاته ﷺ ٢٨١
(أ) معجزته المعنوية ٢٨١
- معجزة القرآن. ٢٨٧

(ب) معجزاته الحسية ٣٠٠
- معجزة انشقاق القمر. ٣٠١
- معجزة حبس الشمس. ٣٠٢
- معجزة نبع الماء من بين أصابعه. ٣٠٣
- معجزة تفجير الماء ببركته. ٣٠٤
- معجزة تكثير الطعام ببركته ودعائه. ٣٠٥
- معجزة كلام الشجرة وشهادتها له بالنبوة. ٣٠٧
- حديث أنين الجذع. ٣٠٨
- تسبيح الطعام وغيره من سائر الجمادات. ٣١٠
- معجزاته التى لها صلة بالحيوان. ٣١٠
- معجزاته فى إحياء الموتى وكلامهم، وكلام الصبيان والمراضع. ٣١٢
- معجزاته فى إبراء المرضى وذوى العاهات. ٣١٥
- إجابة الله لدعائه. ٣١٦
- ما أطلع عليه من الغيوب. ٣١٧
- عصمة الله له من الناس وكفايته أذاهم. ٣٢١

رقم الصفحة

الباب الثانى: حقوق الرسول ﷺ قبل المسلمين ٣٢٩

الفصل الأول: وجوب الإيمان به وتصديقه ٣٣٢

- وجوب طاعته. ٣٣٥
- وجوب اتباعه وامتثال سنته والاقتداء به. ٣٣٦
- مخالفة أمره وتبديل سنته ضلال وبدعة. ٣٣٨

الفصل الثانى: لزوم محبته - صلى الله عليه وسلم ٣٤٠

- محبة الرسول ﷺ لها علامات ودلالات. ٣٤٢
- ما معنى المحبة؟ وما حقيقتها؟ ٣٤٣

الفصل الثالث: وجوب تعظيم أمره وتوقيره وبرّه ﷺ ٣٤٨

- تعظيم الله لقدر نبيه. ٣٤٨
- تعظيم صحابته له. ٣٥٠
- توقيره وتعظيمه بعد موته. ٣٥١
- تعظيم السلف لسنته المطهرة. ٣٥٣
- بر آله وذريته وأمهات المؤمنين أزواجه وآل بيته. ٣٥٤
- توقير أصحابه وبرهم ومعرفة حقهم. ٣٥٥
- إعظام جميع أسبابه وإكرام مشاهده وأمكنته. ٣٥٧

الفصل الرابع: وجوب الصلاة عليه وزيارة قبره الشريف ٣٥٩

- إذا صلى الله وملائكته عليه - فأى حاجة إلى صلاتنا عليه؟ ٣٦٠
- هل الصلاة على النبى على سبيل الندب أوالفرض؟ ٣٦١
- المواطن التى يستحب فيها الصلاة على النبى. ٣٦٦
- كيفية الصلاة على النبى. ٣٦٧
- فضيلة الصلاة على النبى والتسليم عليه والدعاء له ٣٦٩
- اختصاصه دون سائر الأنبياء بتبليغه صلاة من صلّى عليه من الأنام ٣٧١

رقم الصفحة

- هل تجوز الصلاة على غير النبى؟ ٣٧٢
- حكم زيارة قبره الشريف. ٣٧٤
- هل زيارة قبره واجبة أم سُنة؟ ٣٧٨
- آداب زيارة قبره الشريف. ٣٨٠

الباب الثالث: دراسة شخصية الرسول من جانبين: ٣٨٣
جانب النبوة والجانب الإنسانى

الفصل الأول: جانب النبوّة.. .... ٣٨٧
- عصمة الله لنبيّه. ٣٨٧
١ - عصمته بعد النبوة. ٣٨٧
٢ - عصمته قبل النبوة. ٣٩٤
- علم الأنبياء ومعرفتهم اليقينية. ٣٩٧
- كمال عصمة النبى من الشيطان وكفايته منه. ٣٩٩
- قصة الغرانيق وأبعادها. ٤٠٢
- سهوه لا ينافى كماله ٤٠٨
- هل تجوز على النبى - ﷺ - الصغائر؟ ٤١١
- موقفه من أسرى بدر. ٤١٥

الفصل الثانى: الجانب الانسانى فى شخصية الرسول ﷺ........ ٤٢٥
- سحره لا ينافى كماله. ٤٢٧
- أحواله فى أمور الدنيا. ٤٢٩
- ما يعتقده فى أمور أحكام البشر. ٤٣٥
- أقواله الدنيوية ٤٣٦
- أفعاله الدنيوية ٤٤١
- الحكمة فى إجراء الأمراض عليه. ٤٤٣

الباب الرابع: موقف الشريعة من العداوة للرسول ٤٤٥
الفصل الأول: الحكم الشرعى فيمن سَبَّ أونقّص حق الرسول ٤٤٩
- موقف الشريعة من العداوة للرسول: الحكم بالقتل ٤٤٩
- دليل فقهاء الإسلام فى وجوب قتل سَبّه أوعابه ٤٥٠
- من القرآن ٤٥٢
- من السنة والآثار ٤٥٣
- الحكمة فى أن النبى لم يعاقب شاتميه أو مبغضيه ٤٥٥
- حكم الشريعة فيمن كان غير قاصد للسبّ والازدراء ٤٥٨
- حكم الشريعة فيمن يقصد تكذيبه ٤٥٨
- حكم الشريعة فيمن يلفظ من القول بشكل يمكن حمله على النبى أو غيره. ٤٥٩
- حكم الشريعة فيمن ينزع بذكر بعض أوصافه على طريق ضرب المثل. ٤٦١
- حكم الشريعة فيمن يحكى السبّ عن غيره. ٤٦٣
- حكم الشريعة فى الراوى. ٤٦٦

الفصل الثانى: موقف المذاهب الفقهية من ساب الرسول وشانئه ٤٦٩
أولا: حكم المسلم السّاب. ٤٦٩
ثانيا: حكم الذمىّ الساب. ٤٧٤
- لمن يؤول ميراث من قُتل فى سب النبى؟ ٤٧٥

الفصل الثالث: موقف الشريعة ممن سبّ الله تعالى وملائكته وكتبه وآل النبى ٤٧٨
أولا: - موقف الشريعة ممن سبّ الله وملائكته وأنبياءه وكتبه ٤٧٨
- موقف الشريعة من المتأولين أصحاب الهوى والبدع من الفرق الإسلامية ٤٨٠
- حكم الذمىّ الساب لله تعالى ٤٨٩

رقم الصفحة

- حكم الشريعة فيمن سب أنبياء الله ٤٩٠
- حكم الشريعة فيمن استخف بكتب الله ٤٩٢

ثانيا: موقف الشريعة ممن سب آل بيت النبى وأزواجه وأصحابه ٤٩٣

خاتمة فى تقويم المنهج والدراسة ٤٩٦

- عناصر جديدة تجلى مدى حب القاضى عياض للنبى ﷺ. ٤٩٩
- تلخيص السيرة فى التصلية. ٤٩٩
- الطابع العام لمؤلفاته ومصنفاته. ٥٠٨
- منهجه نقلى تكاملى جمعى. ٥٠٨
- ماذا نعنى بمنهج الرواية النقلى التكاملى الجمعى؟ ٥١١
- سمات علمية فى بناء كتبه ٥١٥
  - عدم الاستطراد. ٥١٥
  - الطابع الجدلى. ٥١٦
  - السمة الشخصية. ٥١٨
- متى ألفت السيرة النبوية ولماذا؟ ٥١٩
- موضوع السيرة النبوية فى مفهوم القاضى عياض: عقدى وفقهى ٥٢١
- بروز عقيدته السلفية فى السيرة النبوية. ٥٢٣
- جانب الصياغة اللفظية فى السيرة النبوية. ٥٢٤

- **أخطاء علمية** ٥٢٨
- زعمه أن الذبيح اسحاق بن ابراهيم ٥٢٨
- حديثه عن خطيئة داود ٥٣٥

ملاحق البحث ٥٤٥

١ - شعره الذى لم يسبق نشره ٥٤٦

٢ - تصلياته على النبى - ﷺ ٥٥٤

رقم الصفحة

٣ - خطبه ٥٦٤

٤ - مكاتبته إلى شيخه ابن رشد ....

مصادر البحث ٥٨١

فهرس تحليلي لموضوعات البحث ٦٠٢

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه أجمعين.

رقم العمل: 4811b91

رقم الايـــداع	٨٨/٧٣٤٨
الترقيم الـــدولى	٣ ـ ٢٥٥٣ ـ ٠٢ ـ ٩٧٧

٣/٨٧/٢١

طبع بمطابع دار روتابرينت